علم نفس

فرويد

قراءة عصرية

تحرير روزين جوزيف بيرلبِرج

فرويد قراءة عصرية

روزين جوزيف بيرلبِرج

على مدى سنوات من تدريس نظريات فرويد لطلاب الجامعة والمُرشَّحِين لعضويَّة المعهد البريطاني للتحليل النفسيشَعَرتُ بالحاجةِ إلى كتابٍ واحد يُقدِّم نظرةً شاملة لتعقيدِ ودقة تفكير فرويد، ورؤيةً للحوَار بين الاتجاهات المختلفة التي كان لها دَورٌ مُهمٌّ للغاية في كمحلِّلة نفسية. إن دراسة أعمال فرويد والتحديد المُفرط للمعاني في أفكّاره، « تكويني » والأسئلة التي طرحها، فضلًا عن المُناقشات التي أثارها؛ كل ذلك لا يمكن فهمه في سياقِ بلد واحد أو لغة واحدة، بل يمتد بامتداد القارات؛ فقد قدَّم الاتّجاه البريطانّي إسهامًا خاصًا تَميَّز بتركيزه على عالم الفرد الداخلي، وعلى التحويل والتحوِيل المضاد، وله كذلك إسهامٌ مُميَّز في تطويرِ اتجاه فرويدي يتمحور حول الممارسة الإكلينيكية. في حين ظل اتجاهٌ علم ما وراء النفس بكل ما به من تعقيدٍ حيًّا في فرنسا، إلا أن معظم المناقشات الفرنسية لم تُترجم إلى الإنجليزية. وأرى أن بوسعنا معرفة الكثير إذا أقمنا حوارًا بين هذَين الاتجاهَين، وذلك هو المنهج الذي أَميلُ إلى اتّباعه في التدريس لطلابي. حتى الآن لا يُوجد كتابٌ دراسي نُقدِّمه للطلاب الدارسين لفرويد يُجسِّد هذا الحوار، وآمُل أن يُعوِّض هذا الكتابُ ذلك النقص.

فرويد

قراءة عصرية

تحرير

روزين جوزيف بيرلِبرج

ترجمة

زياد إبراهيم

مراجعة

شيماء طه الريدي



Freud

فرويد

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: منى عزالدين.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩٣٣ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٥
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

المحتويات

تصدير السلسلة

إن تاريخًا يمتد لمائة عامٍ كان من شأنه أن يُحوِّل التحليل النفسي إلى تقليدٍ فكري مُستقِل وجاد وناضج، لا يخفى على أحد نجاحه في الاحتفاظ بقدرته على تحدي الحقائق الراسخة في معظم مجالات ثقافتنا. واليوم يتعرَّض الطبيب النفسي البيولوجي إلى النقد والمساءلة من قِبَل مجال التحليل النفسي مثلما حدث مع اختصاصيِّ الأمراض العصبية في عصر فرويد في مطلع القرن العشرين في فيينا. وفي عصرنا الحالي لا يسع نُقَّاد الثقافة، سواء كانوا مُعارِضِين لأفكار التحليل النفسي أو مُتفقِين معها، إغفالُ اعتبارات الدافع اللاواعي، والآليات الدفاعية، وتجارب الطفولة المبكرة وغيرها من اكتشافاتٍ لا تُحصى قدَّمها التحليل النفسي لثقافة القرن العشرين. وفوق ذلك كله، تمخَّضَت أفكار التحليل النفسي عن منهجٍ لعلاج الاضطرابات العقلية — وهو العلاج النفسي الديناميكي — أصبح هو التقليدَ السائد في معظم البلدان، على الأقل في العالم الغربي.

لا عجب أن الفكر التحليلي النفسي لا يزال يُواجه من ينتقصون من قدْره، وهم أفرادٌ يتشكَّكون في أساسه المعرفي ومزاعمه المفاهيمية والإكلينيكية. وهو أمرٌ مُحبِط من ناحية، لكنه، من ناحيةٍ أخرى، ربما كان علامةً على ما يتمتع به التحليل النفسي من قدرةٍ فريدة على التحدي وإثارة الجدل. تُرى ما سبب هذا؟ لِقدرته الفَذَّة التي لا تُضاهَى على الاستقصاء العميق للدافع الإنساني، وسواء كانت الإجابات التي يطرحها صحيحةً أم خاطئة، فإن الأساس المعرفي للتحليل النفسي يُتيح له مواجهةَ أصعبِ مشكلات التجربة الإنسانية. والمفارقة أن فهمنا الجديد للأساس العضوي لوجودنا — الجينات والجهاز العصبي ووظائف الغُدد الصمَّاء — بدلًا من أن يزيح التحليل النفسي من المشهد نهائيًّا، خلق حاجةً مُلِحَّة لفرعٍ تكميلي من المعرفة يختص بدراسة الذكريات والرغبات والمعاني

التي بدأ الاعتراف بتأثيرها على التكيُّف البشري حتى على المستوى البيولوجي؛ فكيف سنفهم التعبير عن المصير البيولوجي للفرد داخل إطار البيئة الاجتماعية إلا من خلال دراسة التجربة الذاتية؟

لا غرابة إذن في استمرار التحليل في جذب بعضٍ من ألمع العقول وأنشطها في ثقافتنا؛ وهم أفرادٌ ليسوا جميعًا أطباءَ مُمارِسين للتحليل النفسي أو مُعالجِين نفسيِّين، بل باحثون مرموقون ينتمون لمدًى يكاد يُذهِل الألباب من المجالات، يتنوع بين دراسة الاضطرابات العقلية بمحدِّداتها البيولوجية وميادين الأدب، والفن، والفلسفة، والتاريخ. ستظل دومًا الحاجة إلى تفسير معنى التجارب قائمة؛ والتحليل النفسي، بما يُقدِّمه من التزام وتعهُّد بفهم الذاتية، في صدارة المجالات المُؤهَّلة لإنجاز تلك المهمة الفكرية والبشرية. لا تُدهِشنا كذلك الطفرة المفاجئة في الاهتمام بدراسات التحليل النفسي في جامعاتِ بلدانٍ عديدة. وتهدف كُتب هذه السلسلة إلى مخاطبة حالة الفضول الفكري نفسها التي صَنعَت هذا النجاح الباهر لهذه المشروعات التعليمية.

نحن فخورون بأن «سلسلة فور لدراسات التحليل النفسي» قد تمكَّنَت من اجتذاب بعضٍ من أكثر العقول إبداعًا وإثارة للاهتمام في هذا المجال. إن التزامنا في هذه السلسلة ليس نحو توجُّهٍ مُحدَّد أو فئةٍ مِهنية بعينها، بل هو التزامٌ نحو التحدي الفكري لمهمة تقَصِّي التساؤلات المُثارة حول المعنى والتفسير تقَصِّيًا منهجيًّا يلتزم بالمعايير البحثية. ومع ذلك، سنسعد إن خاطَبَت تلك السلسلة مجتمع الطب النفسي، خاصة هؤلاء الأفراد الذين يضعون عقولهم وإنسانيتهم في خدمة من يكابدون الكَرب والأَسَى.

يَنصَبُّ تركيزنا في هذه السلسلة على نقل حالة الإثارة الفكرية التي نستشعرها نحو ماضي أفكارِ التحليل النفسي وحاضرها ومستقبلها، ونأمُل أنَّ تعاوُنَنا مع الكُتَّاب والمُحرِّرين في هذه السلسلة سوف يساعد على إتاحة هذه الأفكار إلى مجموعةٍ متزايدة دومًا من الطلاب والباحثِين ومُمارِسي الطب النفسي على مستوى العالم.

بيتر فوناجي
ماري تارجت
يونيفرستي كوليدج لندن

المساهمون

رونالد برتون: طبيب ومعلم وكاتبٌ متخصص في التحليل النفسي له شهرةٌ دولية. وهو متخصص في مجال تحليل احتياجات التدريب والمشرف على الجمعية البريطانية للتحليل النفسي. من مُؤلَّفاته «عقدة أوديب اليوم»، «الاعتقاد والخيال»، «الجنس والموت والأنا العليا». إلى جانب أبحاثه السريرية، كتب عن علاقة التحليل النفسي بالأدب والفلسفة والدين. تولى رونالد برتون منصب رئيس قسم الأطفال والعائلات في عيادة تافيستوك، ومنصب رئيس الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، ونائب رئيس الرابطة الدولية للتحليل النفسي.

سوزان بَد: عضو الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، وتُمارس المهنة في عيادات خاصة بها بلندن وأكسفورد. شَغلَت في السابق منصب مدير تحرير مجلة نيو ليبراري أوف سايكوأناليسيز، وهي عضو مجلس تحرير كلٍّ من مجلة «إنترناشونال جورنال أوف سايكوأناليسيز»، ومجلة «بريتش جورنال أوف سايكوثيرابي» في برمنجهام، كما عَمِلَت مستشارًا في مركز التدريب على العلاج النفسي بالتحليل النفسي المعاصر في برمنجهام لسنواتٍ عديدة. لها عددٌ من المقالات في علم الاجتماع، والتاريخ الفكري، والتحليل النفسي. وقد شاركت ريتشارد روسبريدجر في تحرير كتاب «مُقدِّمة للتحليل النفسي: قضايا ومصطلحات رئيسة».

دونالد كامبل: مُتخصِّص في تحليلِ احتياجات التدريب ومشرفٌ على الجمعية البريطانية للتحليل النفسي ورئيسها السابق، وهو أيضًا مُحلِّلٌ نفسي مُتخصِّص في حالات الأطفال والمُراهقِين. يشغل دونالد كامبل حاليًّا منصب أمين عام الرابطة الدولية للتحليل النفسي،

وشغل في السابق منصبَ رئيس عيادة بورتمان كلينيك في لندن، وله كتاباتٌ منشورة حول موضوعاتٍ مثل العنف، والانتحار، والاستغلال الجنسي للأطفال، والفتيشية، والمراهقة.

مونيك كورنو جانا: مُتخصِّصة في تحليلِ احتياجات التدريب، ومُشرِفةٌ في جمعية باريس للتحليل النفسي. عَمِلَت مونيك مُنسِّقة في مركز جان فافرو للاستشارات والعلاج بالتحليل النفسي، وهي أيضًا المُنسِّقة الأوروبية للجنة المرأة والتحليل النفسي بالرابطة الدولية للتحليل النفسي. لها العديد من الأبحاث والكتب المنشورة من بينها «الأُنثى والأُنثوية» (١٩٩٨).

كاثرين شابيه: مُتخصِّصة في تحليلِ احتياجاتِ التدريب، وعضو مُشرِف في جمعية التحليل النفسي بفرنسا، وتشغل منصب نائبِ رئيس الجمعية، وأستاذ الطب النفسي السريري وعلم الأمراض النفسية في جامعة رينيه ديكارت – باريس٥. تشغل كاثرين كذلك منصبَ مُديرِ قسم أبحاث علم النفس والتحليل النفسي (دار نشر دونو)، وتُشارِك جان كلود رولان الآن إدارة دَوريَّة «ليبر كاييه بور لا سايكوأناليسي». من بين أعمالها المنشورة «المِزاج السوداوي للأُنثى» (٢٠٠٣)؛ «آليَّات الفِصام» (بالاشتراك مع سي أزولاي، وجي جورته، وإف جيميه، ٢٠٠٣)؛ «نسيان الأب» (شارك في تحريره جاك أندريه، ٢٠٠٤).

جيلبرت دياتكين: مُتخصِّص في مجال تحليلِ احتياجاتِ التدريب، ومُشرِفٌ في جمعية باريس للتحليل النفسي، والرئيس السابق لجمعية التحليل النفسي بباريس. يشغل الآن منصب مُديرٍ مساعدٍ بقسم التدريب في معهد هان جروين-براكن للتحليل النفسي في أوروبا الشرقية. وقد نُشِرَت له عدةُ أبحاثٍ في مجلاتٍ علمية، كما أَلَّفَ كتاب «جاك لاكان»، الصادر ضمن مجموعةِ كُتب «أعلام التحليل النفسي»، كتاب رقم ١١.

أندريه جرين: عُضوٌ شرفي في جمعية باريس للتحليل النفسي والجمعية البريطانية للتحليل النفسي، وأستاذٌ فخري بجامعة بيونس آيرس، وشَغلَ في السابق كُرسيَّ أستاذيةِ فرويد بالجامعة نفسها. أصدر العديد من الكتب من بينها «عن الجنون الخاص» (١٩٨٦)؛ «تأثير الإنكار» (١٩٩٩)؛ «نرجسية الحياة ونرجسية الموت» (٢٠٠١).

روزين جوزيف بيرلبرج: مُتخصِّصة في تحليلِ احتياجاتِ التدريب، وعُضوٌ مُشرِف في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، ورئيس لجنة المقررات الدراسية بالجمعية حاليًّا.

تشغل روزين منصب مُحاضرٍ أَوَّل شَرَفي في يونيفرستي كوليدج لندن، وهي مُتخصِّصةٌ في نظرية التحليل النفسي، وعُضوٌ بالمجالس الاستشارية التابعة لِعددٍ من المجلات العلمية. وقد شارَكَت مع آن ميلر في تحرير كتاب «النوع الاجتماعي والسلطة في العائلات» (١٩٩٠) ومع جوان رافاييل ليف في تحرير كتاب «التجربة الأنثوية: خبرةُ ثلاثةِ أجيالٍ من المُحلِّلات النفسيات البريطانيات في التعامُل مع النساء» (١٩٩٧). تولَّت كذلك تحرير كتابَي «فهم العنف والانتحار من منظور التحليل النفسي» (١٩٩٨) و«الأحلام والتفكير» (٢٠٠٠)، ولها أيضًا العديد من الأبحاث المنشورة في مجلاتٍ علمية دولية. تُمارِس روزين المهنة في عيادةٍ خاصة بلندن وتعمل حاليًّا على التحضير لكتاب «فرويد: ديناميكيات اللاوعي».

لويز إدواردو برادو دي أوليفيرا: تلقَّى تدريبه في جمعية باريس للتحليل النفسي، ويشغل منصبَ مُديرِ البحث في قسم الدراسات العليا حول التحليل النفسي، بجامعة باريس٧ – دينيس ديدرو. تولَّى تحرير كتاب «حالة شريبر: إسهاماتٌ تحليلية نفسية باللغة الإنجليزية» (١٩٧٩)، وأَلَّف العديد من الكتب الأخرى من بينها «فرويد وشريبر: قتل الروح» (١٩٩٦)؛ وكتاب «فرويد وشريبر: المصادر المكتوبة عن الهذَيان بين المرض العقلي والثقافة» (١٩٩٧). وتَرجَم كتاب «مجادلات فرويد–كلاين» إلى الفرنسية (١٩٩٦).

جان–كلود رولان: مُتخصِّص في تحليلِ احتياجاتِ التدريب، وعُضوٌ مُشرِف في جمعية التحليل النفسي الفرنسية. ويُشارِك كاثرين شابيه إدارة مجلة «ليبر كابييه بور لا سايكوأناليسي». له العديد من الأبحاث المنشورة في دوريات ومجلاتٍ علمية، وصاحب كتاب «التعافي من عذاب الحب» (١٩٩٨).

أجنيس سودريه: اعتُمِدت كمُتخصِّصة في علم النفس السريري في البرازيل قبل قُدومها إلى لندن عام ١٩٦٩ لِتتلقَّى التدريب في مجال التحليل النفسي، وهي مُتخصِّصة في تحليل احتياجات التدريب وعُضوٌ مُشرِف في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، وعَمِلَت كذلك بالتدريس على نطاقٍ واسع في لندن وبالخارج. نَشرَت أجنيس العديد من الأبحاث حول التحليل والأدب، وشارَكَت مع إيه إس بايات في تأليف كتاب «تخيُّل الشخصيات» (١٩٩٥).

جون ستاينر: مُتخصِّص في تحليلِ احتياجات التدريب، وعُضوٌ مُشرِف في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، ويعمل مُحلِّلًا نفسيًّا في عيادةٍ خاصة. عمل سابقًا طبيبًا ومُعالجًا نفسيًّا في مستشفى مودزلي، وعمل منذ عام ١٩٧٢ حتى تقاعُده عام ١٩٩٦ في عيادة تافيستوك. له العديد من الأبحاث في مجال التحليل النفسي، بالإضافة إلى كتاب «الارتدادات النفسية» الصادر عام ١٩٩٣ عن دار نشر نيو ليبراري أوف سايكوأناليسيز.

جين تيمبرلي: مُحلِّلةٌ نفسية، وعُضوٌ في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي. حاصلةٌ على درجة البكالوريوس في التاريخ الحديث من كليةِ سانت آن بجامعة أكسفورد، وحَصلَت بعد ذلك على درجة الماجستير في العمل الاجتماعي من جامعة كونكتيكت. عَمِلَت جين أخصائيةً اجتماعية نفسية في مستشفى سانت ماري ببادنجتون ثم في عيادة تافيستوك؛ حيث تولَّت منصبَ كبيرِ الأخصائيِّين الاجتماعيِّين في قسم البالغِين. اعتُمِدَت كمُحلِّلة نفسية عام ١٩٧٥، وعلى مدى سنواتٍ كُثْر درَّسَت دراسات فرويد في معهد التحليل النفسي ويونيفرستي كوليدج لندن.

مارجريت تونزمان: عُضوٌ بالجمعية البريطانية للتحليل النفسي، ومُعالِجةٌ نفسية استشارية متقاعدة. ألقت العديد من المحاضرات حول أعمال سيجموند فرويد وحول الإسهامات التي قدَّمها المُحلِّلون النفسيون، لا سيما من المجموعة المُستقِلة للمُحلِّلِين النفسيِّين التابعة للجمعية البريطانية للتحليل النفسي، على المُتدرِّبِين في معهد التحليل النفسي، وطلاب ماجستير نظرية التحليل النفسي في يونيفرستي كوليدج لندن، وبالخارج. وهي مُحرِّرة كتاب «بولا هايمان: عن الأطفال ومن لم يعودوا أطفالًا: أبحاثٌ مُجمَّعة»، ولها العديد من الأبحاث حول موضوعاتٍ مهمة في مجال التحليل النفسي.

بول ويليامز: مُتخصِّص في تحليلِ احتياجات التدريب، بالجمعية البريطانية للتحليل النفسي، وعُضو المعهد الملكي لدراسات علم الإنسان. وهو كذلك رئيسُ تحريرٍ مُشارِك لمجلة «إنترناشونال جورنال أوف سايكوأناليسيز»، وأستاذٌ زائر مُتخصِّص في التحليل النفسي في جامعة أنجليا التقنية، بالمملكة المتحدة. تَولَّى بول تحرير عددٍ من الكتب، من بينها: «عواصفُ لا يمكن تخيُّلها: البحث عن معنًى في الذُّهان» (بمشاركة موراي جاكسون ١٩٩٤)، و«القسوة والعنف والجريمة: فهم التفكير الإجرامي: الأبحاث المجمعة لآرثر هايات-ويليامز» (١٩٩٩)، و«الذُّهان (الجنون)» (مجموعة أبحاثٍ مهمة عن حالاتٍ حدِّيَّة ١٩٩٩)، و«الإرهاب والحرب: آليات الدمار الشامل اللاواعية»

(شارك في تحريره مع سي كوفينجتون، وجيه كوكس، وجيه أروندل، ٢٠٠٢)، و«رَحابة القَبول: اضطرابات الأكل لدى المراهِقِين والأطفال» (بمشاركة جي ويليامز، وجيه ديسماري، وكيه رافينسكروفت، ٢٠٠٣). وله العديد من المقالات المنشورة حول حالات الذُّهان والحالات الحدِّيَّة في دوريات التحليل النفسي.

شكر وتقدير

هذا الكتاب هو ثمرة التعاون والإبداع والثقة بين مجموعةٍ من الزملاء. أتقدم أولًا بخالص الامتنان لكل فردٍ من المُساهِمين في هذا الكتاب، لا سيما من قضَوا وقتًا طويلًا في انتظار نَشرِ أبحاثهم. لقد كانوا جميعًا نُصب عيني فَورَ أن بَدأتُ في تصوُّر فكرة هذا الكتاب.

خالص الشكر كذلك لكلٍّ من:

الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين حضروا حلقاتي الدراسية حول فرويد على مدى ثلاثين عامًا، منذ أن بدأتُ في سبعينيات القرن العشرين في تدريس فرويد، في جامعة ريو دي جانيرو الفيدرالية؛ وكذلك طلابي في الرابطة البريطانية للمُعالجِين النفسيِّين، والمعهد البريطاني للتحليل النفسي، وطلاب ماجستير نظرية التحليل النفسي في يونيفرستي كوليدج لندن؛ لاهتمامهم المستمر وأسئلتهم المُحفِّزة للفكر، التي لا تسمح أبدًا للمرء باعتبار معرفته أمرًا مُسلَّمًا به، وهو أَمرٌ يخالف بالتأكيد الاتجاه السائد في التحليل النفسي.

صوفي بينيت؛ لمساعدتها الضخمة لي في تتبُّع المصادر والاقتباسات الواردة في هذا العمل، وأندريا تشاندلر، أمينة المكتبة في معهد التحليل النفسي؛ لجهودها في تعقُّب المصادر الغامضة وإرسالها إليَّ بسرعةٍ مذهلة.

بيتر فوناجي وماري تارجت؛ لدعمهما لهذا المشروع. وكولين فور؛ لما منحني إياه من حريةٍ أثناء إعداد هذا الكتاب، وتأييده لرغبتي في دعوة زملائي الفرنسيِّين للمساهمة في هذا الكتاب، في وقتٍ كان من الصعوبة بمكان إيجاد الدعم اللازم لأعمال الترجمة.

لقد مَنحَتني مشاركتي في الجمعية البريطانية للتحليل النفسي على مدى سنواتٍ فرصةَ تبادُل الآراء العلمية والطبية مع الكثير من الأصدقاء والزملاء، وهو الأَمرُ الذي أُقدِّره كل التقدير. يستحيل ها هنا ذكر أسمائهم جميعًا، أو الإشارة إلى فيض المُحادَثات المهمة التي

أجريتُها في «النادي الإسباني» مع «الفرسان» في «اجتماعات لَمِّ الشمل السنوية»، وغير ذلك. غير أن لديَّ رغبةً خاصة في التعبير عن شكري لكلٍّ من دون كامبل، وسيرا ديرمن، وجريجوريو كوهون؛ أعضاء مجموعتي الخاصة للتطوير المِهْني المستمر، على مناقشاتنا المستمرة حول أسئلة النظرية والممارسة السريرية؛ ولزميلتي العزيزة الملهمة دومًا آن ماري ساندلر؛ ولأصدقائي وزملائي في فرنسا ممن لم يشاركوا في هذا الكتاب، لا سيما ماريليا أيزنستين وبول دينيس وجان لوك دونيه وشانتل شاتيلييه أتلان، وكذلك فلافيو جوزيف وروث نيادن من البرازيل.

جوديث بيرل؛ صديقتي الحاضرة دومًا والخبيرة في اللغة الإنجليزية.

بيلا وجورج؛ مصدر الدعم والإلهام الذي لا ينقطع.

أفراد عائلتي الذين لم يُفارِقوا ذهني في أثناء رحلتهم الأخيرة إلى منتزه يوسميتي خلال المراحل النهائية من إعداد مُسوَّدة الكتاب.

مجلة إنترناشونال جورنال أوف سايكوأناليسيز لسماحها لي بنشر الأبحاث التالية:

«طباع نرجسية: العنف وغيابه وتأثير ذلك على العلاج»، روزين جوزيف بيرلِبرج (٢٠٠٤)، إنترناشونال جورنال أوف سايكوأناليسيز ٨٠: ٣١–٤٥.

«التحديق والهيمنة والإذلال في حالة شريبر»، جيه ستاينر (٢٠٠٤)، إنترناشونال جورنال أوف سايكوأناليسيز ٨٥: ٢٦٩–٢٨٤ (أُعد هذا البحث في الأصل لأجل هذا الكتاب).

مقدمة

بقلم روزين جوزيف بيرلِبرج

على مدى سنواتٍ من تدريس نظريات فرويد لطلاب الجامعة والمُرشَّحِين لعضوية المعهد البريطاني للتحليل النفسي شَعَرتُ بالحاجة إلى كتابٍ واحد يُقدِّم نظرةً شاملة لتعقيدِ ودقةِ تفكير فرويد، ورؤيةً للحوار بين الاتجاهات المختلفة التي كان لها دَورٌ مُهمٌّ للغاية في «تكويني» كمحلِّلةٍ نفسية. إن دراسة أعمال فرويد والتحديد المُفرِط للمعاني في أفكاره، والأسئلة التي طرحها، فضلًا عن المُناقَشات التي أثارها؛ كل ذلك لا يمكن فهمه في سياقِ بلدٍ واحد أو لغةٍ واحدة، بل يمتد بامتداد القارات؛ فقد قدَّم الاتجاه البريطاني إسهامًا خاصًّا تَميَّز بتركيزه على عالم الفرد الداخلي، وعلى التحويل والتحويل المضاد، وله كذلك إسهامٌ مُميَّز في تطويرِ اتجاهٍ فرويدي يتمحور حول الممارسة الإكلينيكية. في حين ظل اتجاه علم ما وراء النفس بكل ما به من تعقيدٍ حيًّا في فرنسا، إلا أن معظم المناقشات الفرنسية لم تُترجم إلى الإنجليزية. وأرى أن بوسعنا معرفة الكثير إذا أقمنا حوارًا بين هذَين الاتجاهَين، وذلك هو المنهج الذي أَمِيلُ إلى اتِّباعه في التدريس لطلابي. حتى الآن لا يُوجد كتابٌ دراسي نُقدِّمه للطلاب الدارسِين لفرويد يُجسِّد هذا الحوار، وآمُل أن يُعوِّض هذا الكتابُ ذلك النقص.

لقد اخترتُ بعضًا من أهم الأبحاث التي تُدَرَّس في المعهد البريطاني للتحليل النفسي، وفي وَحدة التحليل النفسي في يونيفرستي كوليدج لندن، وقد دعوتُ لكلٍّ منهما مُحلِّلًا نفسيًّا من إنجلترا أو من الخارج، من المُحلِّلين الذين أرى أنهم قدَّموا إسهامًا مُهمًّا يُساعِد على فهم

موضوعِ كلِّ بحثٍ من أجل الكتابة عنه. يُقدِّم كل فصلٍ من فصول هذا الكتاب نصًّا أو موضوعًا ناقشناه في برامجنا الدراسية، وجميع المُساهِمِين في هذا الكتاب أطباء ومُعلِّمون وكُتَّاب؛ ومن ثَمَّ سوف يُقدِّمون منظورًا مُتعدِّد الأَوجُه كما فعل فرويد نفسه. تَتَّبِع معظم الفصول نسقًا متشابهًا؛ فهي أولًا تُلخِّص الأفكار أو الموضوعات الرئيسة للبحث المُتناوَل، ثم تُحدِّد المفاهيم الأساسية المتصلة بتلك الموضوعات، وتُتبِع ذلك بمناقشةٍ حول جذور الأفكار التي يتناولها البحث والتطوُّر الذي طرأ عليها في فكر فرويد. ويُختتم كل فصلٍ بتقييمٍ من الكاتب. وعلى الرغم من أن معظم الفصول قد اتَّبَعت هذا النسق، فإن بعضها قد اتخذ نسقًا خاصًّا به؛ بحيث يُصبِح البحث الأصلي لفرويد مصدر إلهامٍ يستمد منه الكاتب الأفكار الخاصة به.

يجمع هذا الكتاب بين التحليل العميق لأعمال فرويد الأصلية وبعضٍ من التفسيرات الأحدث لها، ويُوضِّح كذلك ما قدَّمه فرويد من إسهامٍ ثوري. جَرتِ العادة في أدبيات التحليل النفسي أن يعرض كاتبٌ ما لفكر فرويد كي يُبيِّن كيف أن كُتَّابًا أَكثرَ حداثةً قد أبطلوا هذا الفكر، إلا أن هذا النهج لا ينطبق بالضرورة على جميع الكُتَّاب ها هنا؛ ففي بعض الأحيان سنرى أن فرويد كان دون شكٍّ أَكثرَ ثوريةً من العديد من أتباعه؛ على سبيل المثال فيما يتعلق بـ «أَوَّلية الجنسانية»، لا سيما «الجنسانية الطفلية» (انظر الفصول ١ و٢ و٣ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦)، ومدى تعقيد «مفاهيم الزمن» المتعددة التي طرحها (الفصول ١ و٢ و٨ و١٢ و١٣ و١٤ و١٦)، و«العلاقة بين الذكرى والوهم» (الفصول ١ و٢ و٣ و٧ و١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥)، واعترافه بوجودِ قوةٍ في الحياة النفسية تُحرِّكنا على نحوٍ دائم ألا وهي «الدافع»، وبالأهمية التركيبية لما هو سلبيٌّ في الحياة النفسية (الفصلان ١٥ و١٦ تحديدًا)، وأخيرًا فهمه للدور البِنيوي الذي تَضطلِع به «عقدة أوديب» (في جميع الحالات المرضية)، بصورتها السلبية والإيجابية على حدٍّ سواء، في تشكيل العقل.

سأتناول فيما يلي كُلًّا من تلك الموضوعات الرئيسة بالترتيب.

(١) الجنسانية

(١-١) الهستيريا

يطغى الاهتمام بالجِنسانية، لا سيما الجنسانية الأُنثوية، على أعمال فرويد منذ بداياته، بدايةً من كتاب «دراسات حول الهستيريا» (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥)، وحتى أبحاثه

الأخيرة مثل «التحليل النفسي بين الزائل واللامتناهي» (فرويد، ١٩٣٧أ). وقد تغيَّرت جوانب رؤيته للجنسانية الأُنثوية مع ما طرأ على نظريَّته من تغيُّرات. على سبيل المثال، كان التمييز بين اللاوعي الوصفي واللاوعي الديناميكي، وتفصيل مفهوم الأنا العُليا، والصيغ المُتنوِّعة للصراعات بين الدوافع (على سبيل المثال، التعارض بين الدافع الشهواني ودافع حفظ الذات، وبين الشهوة الجنسية والعدوانية، وبين غرائز الحياة والموت) دافعًا إلى إحداث تغييراتٍ في صِيَغه الخاصة بالجنسانية الأُنثوية.

مع نهاية القرن التاسع عشر ساد جدلٌ قوي في الأوساط الطبية حول ما إذا كانت الهستيريا مرضًا عضويًّا أم نفسيًّا. كان السواد الأعظم من المرضى الذين يُعانون من أعراضٍ هستيرية من النساء، وكانت الأعراض التي أَظهرنَها بمثابة تحَدٍّ للمعرفة الطبية في ذلك الوقت؛ إذ لم تَتوافقْ مع أيٍّ من الآفات العضوية المعروفة آنذاك. ومنذ عام ١٨٨٢ فصاعدًا بدأ فرويد العمل مع بروير باستخدام الإيحاء والتنويم المغناطيسي. وفي عام ١٨٨٥ أمضى فرويد خمسةَ أشهُر في باريس؛ حيث تعاوَنَ مع الطبيب الفرنسي شاركو الذي ترك أثرًا بالغًا في نفسه. غير أن أسلوب فرويد اختلف عن أسلوب شاركو من عدة أَوجُه، من بينها الطبيعة العلنية والمسرحية لأسلوب شاركو، التي حل محلها محيط فرويد الصامت مُتمثِّلًا في غرفة الاستشارات وغياب المُحلِّل النفسي عن عين المريض (بونتاليس، ١٩٧٧). في «دراسات حول الهستيريا» يُناقِش فرويد وبروير تجربتهما مع خمسةِ مرضى، ويكتب كلٌّ منهما فصلًا نظريًّا. وبين عامَي ١٨٨٠ و١٨٩٥ طوَّرا طريقةَ العلاج التطهيري التي ساعدا بموجبها المريض على تذكُّر الحدث الصادم الذي صاحبه ظهور أعراض الهستيريا. وقد أشار كُلٌّ من فرويد وبروير إلى أن العَرَض من شأنه أن يختفي تدريجيًّا مع تَذكُّر المريض لهذه الأحداث وإعادة إحيائها. في البداية استخدم فرويد الإيحاء في علاجه لهؤلاء المرضى، لكنه أدرك تدريجيًّا أنه إذا سُمح للمرضى بالتحدُّث بحرية عن ذكرياتهم، فإن ذلك يؤدي إلى النتائج نفسها، وهكذا بزغ أسلوب التداعي الحُر إلى الوجود. ومن خلال هذا الأسلوب اكتُشِف كثيرٌ من الجوانب المحورية للتحليل النفسي؛ مثل: الكبت، والتحويل، والمقاومة، والتداعيات الحرة، واللاوعي.

يُصنَّف كتاب «دراسات حول الهستيريا» ضمن المرحلة الأُولى من أعمال فرويد، المعروفة باسم «نظرية الصدمة الشعورية» (ساندلر وآخرون، ١٩٩٧، صفحة ١٢). وهي مرحلة يمكن تحديدها زمنيًّا فيما بين عودة فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦ بعد زيارته لشاركو

واكتشافه عام ١٨٩٧ أن الصدمات التي يرويها مرضى الهستيريا ربما لم تحدُثْ بالضرورة في عالم الواقع، بل يحتمل أن تكون أحلامَ يقظةٍ من مرحلة الطفولة؛ ومن ثَمَّ أصبح فيما بعدُ ينظُر إلى وقائع زنا المحارم، التي رواها مرضاه والتي كان يتعامل معها بجدِّية، باعتبارها تمثيلًا لرغباتٍ لديهم يُشبِعونها عبر تحقيقها في عالم الخيال.

وقد كَشفَ فحص حالات الهستيريا بجلاء أن سلوك المرضى لا يمكن تفسيره، ولا يمكن تعريفه فعليًّا، دون الرجوع إلى خواطرَ أو أفكارٍ مُعيَّنة لا يعيها المريض. ورأى كلٌّ من فرويد وبروير أن فرضية أن المَظاهِر الهستيرية مُولِّدة للأفكار والصور بطبيعتها هي فرضيةٌ ناتجة عن الملاحظة. لكن الخلاف نشأ بينهما؛ لأن بروير فسَّر أعراض الهستيريا من منظور الحالات الشبه التنويمية، في حين فضَّل فرويد تفسيرها كآليةٍ من آليات الدفاع.

في الفصل الأول من هذا الكتاب «آنا أو: الحالة الأولى، رؤيةٌ جديدة ومنقحة»، يضعنا رونالد بريتون وجهًا لوجه مع أُسس التحليل النفسي، التي تُعَد الجوهر الذي قاد فرويد إلى اكتشاف أفكارِ التحليل النفسي الرئيسة. تطرح حالة آنا أو كذلك قضايا حديثةً محوريةً حول التأثيرات المُتبادَلة التي ربما كان لها حضورٌ غيرُ مقصودٍ في العلاج، وتُثير تساؤلاتٍ حول العلاقة بين التفسير والإيحاء. إن البحث الذي يُقدِّمه بريتون لهو بحثٌ ثري، ويَتضمَّن عددًا كبيرًا من الأفكار المهمة؛ فيعرض أولًا الفرق بين مرضى اضطراب الشخصية الحدِّية ومرضى الهستيريا. إن الأولوية لدى مرضى الهستيريا هي لادِّعاء تملُّك الموضوع في عالم الحب، بينما الأولوية لدى مرضى اضطراب الشخصية الحدِّية هي لادِّعاء تملُّكه في عالم المعرفة. في حالات الهستيريا يُوجد تفاعل بين الحب والموت؛ ما يُذكِّرنا بقول دونيت إن في حالات الهستيريا يُصبِح التصريح بالحب إعلانًا للحرب في الوقت نفسه. يُميِّز بريتون بين الخيال والرؤيا والهلوسة، وطَرحَ مناقشات أكثرَ استيفاءً عن هذه النقطة في أبحاثٍ سابقة وفي كتابه (بريتون، ١٩٩٨). ويُشير كذلك إلى أهمية موقف التحليل النفسي في التعامُل مع مشاعر الرغبة التي قد يُبديها المريض نحو المُعالِج (تحويل المشاعر الجنسية)، ويطرح أسئلةً حول استخدام المريض الدفاعي لهذه المشاعر. إن الفرضية الرئيسة التي يُقدِّمها بريتون في بحثه هي اقتراحه أن «استخدام المريض للتماهي الإسقاطي كي يتقمص في الخيال دَورَ أحد الأبوَين الأصليَّين له أو كليهما هو سِمةٌ أساسية من سمات الهستيريا.» ويُضيف: «مرضى الهستيريا، كما أرى، ينغمسون في الفعل التمثيلي؛ أي يصعدون على خشبة المسرح ويلعبون دَورَ أحد الوالدَين. وعَبْر ما يَتضمَّنه التماهي الإسقاطي من وَهمٍ

ذي قُدرة وسيطرةٍ كاملتين، يعتقد هؤلاء المرضى أنهم أحد الأبوَين الأصليَّين ويمارسون أيًّا مما يُصوِّر لهم خيالهم وقوعه في المشهد الجنسي المُتخيَّل للأبوَين.»

يشير بريتون إلى أهمية ظهور التحويل في تطوُّر الأعراض المَرَضية لدى آنا أو. ويتساءل كذلك: ما الشيء الذي يستخدم المريض تحويل المشاعر الجنسية كآليةٍ دفاعية ضده؟ يعرض لنا بريتون إحدى الحالات المرضية التي تَولَّى مُعالَجتها ليُبيِّن لنا أنه فَورَ التعامُل مع وهم المريض الشبقي نحو المُحلِّل النفسي، يُتيح ذلك ظهور تحويل مشاعر الأُمومة على السطح. وسوف أعود إلى هذه النقطة لاحقًا.

خلال مناقشته لحالة كاثرينا، ربط فرويد الهستيريا بالمشهد الجنسي الأوَّلي في حياتها أولًا. وأضاف لاحقًا في حاشيةٍ سفلية حالة امرأةٍ شابة متزوجةٍ أخبرته أن أوَّل نوبةِ قلقٍ أصابتها حينما كانت طفلةً صغيرة؛ إذ كثيرًا ما كانت تَرى أباها يستلقي على السرير بجوار أمها وتسمع أصواتًا صادرةً عنهما تُشعِرها بإثارةٍ بالغة. ذكر فرويد ثلاث حالاتٍ أخرى على الأقل في ربطه الهستيريا بالمشهد الجنسي الأوَّلي، وذلك في خطاب إلى فليس، وفي ورقته البحثية عن عُصاب القلق (١٨٩٥)، وفي تحليله لحالة دورا، إلا أنه تأَرجَح على مدى أعماله بين اعتبار هذا المشهد «حدثًا حقيقيًّا» وبين كونه «وَهمًا» من وحي خيال المريض.

عزا فرويد أهميةً متزايدة إلى أوهام المشهد الجنسي الأوَّلي، وربط لاحقًا في أعماله بين جذور وظيفة التخيُّل نفسها وبين تلك الأوهام الأوَّلية (انظر الفصل الثالث عشر)؛ إذ يعتقد وجود شكلٍ تخيُّلي مُحدَّد يحكم تلك المشاهد؛ فمن المنظور التخيُّلي للطفل، يعتبر المشهد مشهد عنف، يُلحِق فيه الأب ألَمًا بفتحة الشرج بالأم. كان فرويد يظُن في بداية عمله أن الطفل قد شهد بالفعل تلك المشاهد، لكن اعتقاده بأنها أوهامٌ من مرحلة الطفولة تتعلَّق بحياة الأبوَين الجنسية تزايد فيما بعدُ. وقد أشار لاحقًا إلى أن النوبات الهستيرية قد مثَّلت أوهامًا بشأن اللقاء الجنسي باعتباره مَشهدَ اغتصاب (انظر أيضًا بيرلِبرج، ١٩٩٩).

يرى فرويد أن الهستيريا وازدواجية الميول الجنسية مرتبطان ارتباطًا جوهريًّا؛ فأشار إلى أن النوبات الهستيرية تُعبِّر عن تجربة اغتصابٍ يُؤدِّي فيها المريض دور المُغتصِب والمُغتَصَب على حدٍّ سواء. يُجسِّد مرضى الهستيريا مشهدًا لحربٍ بين الجنسَين، ينتصر فيها الذكور على الإناث، وتُصبِح الهستيريا، في المقام الأول، نمطًا من التفكير حول الجنسانية والشخص الذي تَنصَبُّ عليه الرغبة الجنسية (شيفر، ١٩٨٦).

أشار كوهون إلى أن المرحلة الهستيرية، في سياق مأساة أوديب، هي «لحظةٌ مُعيَّنة يعجز فيها الفرد، العالق في مأزِق الحاجة إلى تبديل الموضوع من الأم إلى الأب، عن القيام

بالاختيار اللازم» (١٩٩٩، صفحة ١٨). «في الواقع، إن مريض الهستيريا، بينما هو عالق في هذه المرحلة الثنائية التكافؤ … إنما يعجز عن تعريف نفسِه كرجلٍ أو كامرأة؛ لأنه لا يستطيع في النهاية الاختيار بين أبيه وأمه» (١٩٩٩، صفحة ١٩). أمَّا شيفر، فيشير (مستخدمًا تعبيرًا ابتكره ميشيل كاشو) إلى أن مريض الهستيريا مثل حجر الياقوت، يُظهِر ما هو رافضٌ له من داخله في الواقع؛ فحجر الياقوت يهاب اللون الأحمر؛ إذ يمتص جميع الألوان الأُخرى ويحتفظ بها، بينما يَنبذُ الأحمر ويَلفِظه؛ ومن ثَمَّ يعاني مريض الهستيريا من رعبٍ من اللون الأحمر؛ أي من الجنسانية، بينما يعكسها في الوقت نفسه.

تعتمد الهستيريا على المحاكاة، ويكمن الاختلاف بين التماهي والمحاكاة في الاختلاف بين «التشبُّه بالموضوع» و«التوحُّد مع الموضوع»؛ لذا عندما تنظر آنا أو إلى نفسها في المرآة ترى جُمجُمة أبيها، وعندما تُعاني من مجموعةٍ من الأعراض الجسدية تبدو كأنها تُحاكي الفعل الجنسي وتُصبِح أعراضها أشبه بعرضٍ مسرحي للفعل الجنسي، في محاولةٍ لإنكار المشهد الجنسي الأوَّلي وتجسيده في الوقت نفسه وإنكار فجيعتها في رغباتها الجنسية المُحرَّمة (بيرلبرج، ١٩٩٩). غير أن رونالد بريتون قد أشار، عن حق، إلى أن تخلِّي المريض عن الجنسانية الهستيرية هو ما يُتيح له اكتشاف جنسانيته الخاصة.

(٢) الأحلام والجنسانية

يستمر حضور موضوع الهستيريا وعلاقتها بالجنسانية في مناقشة حالة دورا في الفصل الثاني، وهي الحالة التي يعكس تحليلُها اهتمامَ فرويد بالجذور الجنسية لأعراض الهستيريا، وكذا الدور الذي تلعبه الأحلام كأداةٍ للتعبير عن الصراعات غير الواعية. إن العَرَض الهستيري «يُجسِّد وَهمًا ذا محتوًى جنسي»، وإن كان وهمٌ واحدٌ لا واعٍ غيرَ كافٍ عمومًا لتوليد عَرَض.

في تحليل هذه الحالة، يظل فرويد مهتمًّا بإعادة تشكيل الصدمة التي أدَّت إلى ظهور العَرَض، من خلال تحليل الأحلام والتداعيات الحرة. وقد تَغيَّر هذا التركيز الإكلينيكي في السنوات اللاحقة عندما بدأ فرويد في النظر إلى عملية التحليل النفسي من منظور عملية التكوين نفسها. ولسوف أعود إلى تلك النقطة لاحقًا. في حالة دورا، يكتشف فرويد كذلك الأهمية البالغة التي يحظى بها «التحويل»: «تظهر نسخٌ جديدة أو صورٌ طبق الأصل من الدوافع والأوهام التي صَعِدَت إلى السطح وأصبح المريض واعيًا بها خلال سير عملية التحليل النفسي، لكن تلك النسخ أو الصور لها تلك السمة الخاصة التي تُميِّز نوعها، والتي

تتمثل في أنها تضع الطبيب مَحلَّ شخصٍ سابق في النسخ الأصلية» (١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ١١٦). خلال فترة إجراء التحليل النفسي عينها، ركَّز فرويد على تحويل مشاعر الأُبوة، ولم يدرك أهمية تحويل مشاعر الأمومة إلا بأَثَرٍ رجعي، بعدما انقطعت دورا عن جلسات التحليل. وقد قدَّم فرويد لاحقًا شرحًا تفصيليًّا لدور التحويل في أبحاثه («آليات التحويل»، ١٩١٢؛ «التذكر والتكرار والتعامل مع المشكلة»، ١٩١٤ب؛ «ملاحظات حول تحويل مشاعر الحب»، ١٩١٥أ [١٩١٤]؛ «ما فوق مبدأ اللذة»، ١٩٢٠ب).

كَتَبَ فرويد إلى فليس عن دَور ازدواجية الميول الجنسية في الأعراض التي تُعانيها دورا، وفي العديد من الحواشي السفلية المضافة إلى نص التحليل النفسي لِدورا أشار إلى خَطئه في فهم حُبها للآنسة كيه: «لقد أَخفقتُ في أن أكتشف في حينه أن حُب المريضة المِثلي للآنسة كيه كان أقوى تيارٍ لا واعٍ في حياتها العقلية، وأَخفقتُ في إخبارها بذلك» (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ١٢٠).

طوَّر فرويد مفاهيمَ محورية في التحليل النفسي عَبْر تأمُّلاته في تحليلِ حالة دورا، وهي: آليَّات الكبت، والنكوص، والتثبيت، والتماهي. وقد أَثبتَت له قابلية التماهيات، الذكورية والأنثوية على حدٍّ سواء، للحركة أوَّليةَ ازدواجيةِ الميول الجنسية لدى كل فرد.

في الفصل الثاني، تُشير كورنو إلى أنه في أثناءِ مناقشة حالة دورا كوَّن فرويد فيما يبدو معرفةً مبكرة بالمهبل، بوصفه عضوًا فارغًا، لدى فتاةٍ صغيرة سوف تُصبِح في المقام الأول فتاةً صغيرة، لا «فتًى صغيرًا» أولًا؛ إذ ظَهرَت دورا فيما بعدُ لفترةٍ زمنية طويلة في نظريته. تُميِّز كورنو وهمًا ذا طابعٍ أمومي في تأمُّلِ دورا لكنيسة سيستينا وفي حُبها للسيدة كيه، الذي أدرك فرويد فيما بعدُ أهميته؛ فدورا، التي لا تزال في مرحلة المراهقة، «تُحب أيضًا المرأة التي سوف تُصبِح عليها، والمُتجسِّدة في شخص السيدة كيه الجميلة، الجذَّابة والمرغوب فيها حسبما وصفها لها والدها من قبلُ بوضوح.»

يتضمن كذلك تحليلُ دورا وصفًا لأسلوب التداعي الحُر التابع للتحليل النفسي:

> الآن أصبحتُ أترك المريض نفسه يختار موضوع جلسة اليوم، وبهذه الطريقة أبدأ عملي من أي موضوعٍ سطحي تَصادَف أن لَفتَ لا وعيُه نظرَه إليه في هذه اللحظة. لكن حسب هذه الخطة، يبرُز كل ما له علاقة بتفسيرِ عَرَضٍ مُعيَّن على نحوٍ مجزَّأ، ويكون مُوزَّعًا ومُتداخلًا في سياقاتٍ متعددة. (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ١٢)

تتأكد فكرة فرويد الثورية، التي تفيد بأن الاهتمام بالجنسانية يظهر مُبكرًا لدى الأطفال وربما كان أصل الكثير من أعراض الطفولة، في تحليله لحالة هانز الصغير، التي تُعَد أَوَّل حالةِ تحليلٍ نفسي لطفل. تُوضِّح هذه الحالة، التي تُناقشها جين تيمبرلي في الفصل الثالث، أهمية الجنسانية الطفلية، وهو ما استُدل عليه من الملاحظة المباشرة للأطفال، لا من حالات العُصاب لدى البالغِين، وتُقدِّم كذلك وصفًا لكيفية تكوُّن تسويةٍ عُصابية؛ أي عرضٍ مرضي، عَبْر كبت الجنسانية الطفلية.

جرى تحليل هانز في الفترة بين يناير ومايو ١٩٠٨، بناءً على ملاحظات دوَّنها الأب ثم ناقشها مع فرويد. تتضمن تلك الملاحظات أدلةً على اهتمام هانز البالغ بقضيبه وبالاختلاف بين الجنسَين؛ فكان يطرح أسئلةً مثل: هل تملك أمه قضيبًا؟ وماذا عن أخته؟ كيف يُولد الأطفال؟ لا يسع المرء سوى الإعجاب بهانز الصغير لِمثابرته على طرح تساؤلاته على الرغم من الردود الغامضة التي أجاب بها والداه على غرار: النساء أيضًا لديهن قضيب، أو إن طيور اللَّقْلَق هي ما تجلب الأطفال إلى العالم. وبحسب قول تيمبرلي:

> في واحدةٍ من أكثر الفقرات إقناعًا وطرافةً في بحث فرويد، يكشف هانز لأبيه في محاولةٍ لإغاظته أنه كان يعرف أن الطفلة كانت معهم «داخل صندوق طائر اللَّقْلَق» خلال الصيف قبل ولادتها. كما يُبدي تأثُّرًا شديدًا بمباهج الأُبوة ويُحيط نفسه بألعابه التي يعتبرها أطفاله. وعندما أخبره والده أن النساء فقط هن من يلِدن الأطفال، احتج زاعمًا كذب هذا الادِّعاء، منكرًا اختلافه الجنسي بشراسةٍ مثلما تُنكِر بعض الفتيات الصغيرات «إخصاءهن».

عَبَّر هانز الصغير عن غَيرته من أبيه وعن رغبته في جعل أُمه تحمل أطفاله، كاشفًا بذلك عن نفسه باعتباره «أوديبًا صغيرًا». لكنَّه، في الوقت نفسه، يظهر تعلُّقه المِثلي بأبيه أيضًا. تَعرِض حالة هانز فيضًا من الأدلة على تماهيهِ مع أمه ورغبته في إنجاب أطفال، إلا أن فرويد لا يَتحرَّى هذه النقطة في بحثه ولن يُناقشها حتى عام ١٩٢٦ في كتابه «التثبيط والأعراض والقلق»؛ حيث سيُشير إلى أن رُهاب الحيوانات لدى هانز ولدى رجل الذئاب يرجع إلى رغباتٍ مثلية سلبية وواهنةٍ تجاه الأب تعرَّضَت للتشوُّه عَبْر النكوص إلى الطور الفموي وعَبْر الكبت كذلك.

ولسوف أُشير إلى أن التفاعل بين التماهيات الأُنثوية والذكورية فيما يتعلق بالمشهد الجنسي الأَوَّل بمثابة خيطٍ يمتد عَبْر دراسات الحالة التي أجراها فرويد بدءًا من دورا،

مرورًا بالصغير هانز ورجل الجرذان وشريبر ورجل الذئاب، حتى مقاله «التكوين النفسي لحالة مثلية جنسية لدى امرأة» (وهي حالات سنناقشها جميعًا في هذا الكتاب).

في الوقت الذي كَتَبَ فيه فرويد عن حالة الصغير هانز، كان يرى أن تفشِّي القلق اللاعقلاني لدى مرضى العُصاب يُعزى إلى تحويلٍ للشهوة الجنسية المكبوتة إلى قلق، ومتى تتحول الشهوة الجنسية عن طريق الكبت إلى قلق، لا يمكن إعادة تحويلها. ورأى فرويد أن أَوَّل ظهورٍ لأعراض القلق عند هانز لم يكن مرتبطًا بنوعٍ من الرُّهاب، بل كان الرُّهاب آليةً دفاعية ثانوية ضد هستيريا القلق، تكوَّنَت عَبْر تركيز القلق حول موضوعٍ يُسبِّب رُهابًا. لقد حدَّد الرُّهاب حركة هانز ووضع قيودًا على استكشافه النفسي لعالم الجنسانية الذي تُمثِّله الخيول والعربات في الشارع، ولكنه أبقاه في المنزل بالقُرب من أمه.

لقد كان هذا البحث عرضًا لمسار تطوُّر الرُّهاب، ولكيفية تخفيفه بواسطة التحليل النفسي. وما إن شُرح لهانز رغبتُه في أن يَحلَّ مَحلَّ أبيه ويستحوذ على أمه جنسيًّا، حتى خفَّت حدة الأعراض.

(٣) النرجسية

تُعتبَر النرجسية نقلةً في تفكير فرويد؛ إذ أَحدثَت مجموعةً من التناقُضات في نظريته مهَّدت الطريق نحو التوصُّل للنموذج البنيوي للعقل.

حسبما تُشير بيرلِبرج في الفصل الرابع، أَحدثَ مقال «عن النرجسية» تغييراتٍ جذرية في مفهوم الأنا. ومن ذلك الوقت فصاعدًا، لم تعُد الأنا مجرد مكانٍ للسيطرة على الدوافع، بل أصبحت «هدفًا»، أو صورة، أو مركزًا يجمع بقايا حالاتِ تماهٍ ماضية. ولم تعُد الأنا تُعتبر مستقلةً عن أي علاقة، بل هي بالأحرى نتيجة لعملية التوطين الداخلي للعلاقات (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥). طُوِّرَت هذه الفكرة على نحوٍ أكثرَ تكاملًا في مقال «الحداد والسوداوية» (١٩١٧ [١٩١٥])؛ حيث قدَّم فرويد تفسيرًا كاملًا لعلاقةٍ داخلية لموضوعٍ ما تتضمن إسقاطًا وتماهيًا. لقد أوضح في هذا المقال أن خسارة الموضوع هي ما تجعل الفرد واعيًا بها؛ ما مهَّد الطريق نحو عَرضٍ أكثر استيفاءً في كتاب «الأنا والهو» (فرويد ١٩٢٣) لنظرية الأنا بوصفها تُنشأ وتُعدَّل عَبْر «حالاتٍ مُهمَلة من تركيز الطاقة النفسية على الموضوع».

في مقال «ليوناردو دافنشي وذكرى من طفولته» (١٩١٠)، يطرح فرويد أول وصفٍ نظري له للنرجسية، بينما يُحاوِل شرح آلية تركيز الطاقة النفسية الشهوانية الذي يُؤدِّي إلى اختيارٍ نرجسي:

> يكبِت الصبي حُبه لأمه، فيضع نفسه مكانها، ويتماهى معها، ويتخذ من شخصه نُموذجًا يختار على شاكلته أهدافًا جديدة يمنحها حبه ... وهكذا يعثُر على موضوعات الحُب عَبْر مسار النرجسية. (١٩١٠، صفحة ١٠٠)

إن اختيار الموضوع النرجسي فكرةٌ رئيسة يمكن أن نجدها في مقالات فرويد حول ليوناردو (١٩١٠)، ورجل الجرذان (١٩٠٩ب)، وشريبر (١٩١١)، ورجل الذئاب (١٩١٨ [١٩١٤]). في كتاب «الطوطم والتابو» (١٩١٣)، يُشير فرويد إلى أنه في مرحلة النرجسية، «اجتَمعَتِ الغرائز الجنسية المعزولة حتى الآن بالفعل في كيانٍ واحد ووَجدَت كذلك هدفًا تنعكس فيه» (١٩١٣، صفحة ١٤٧).

في مقال «عن النرجسية» يُناقش فرويد أنواع اختيار الموضوع، ويمضي إلى طرح فكرته عن مثل الأنا الأعلى للمرة الأُولى. لقد وضع كلُّ فردٍ نموذجًا مثاليًّا داخل نفسه يقيس به أنَاهُ الفعلية (١٩١٤أ، صفحة ٩٣). ويرى فرويد أن تكوين هذا النموذج المثالي هو العامل الشَّرطي للكبت؛ فتصبح هذه الأنا المثالية هدف حُب الذات الذي تَمتَّعَت به الأنا في مرحلة الطفولة؛ أي «البديل لنرجسيةِ مرحلة الطفولة التي فقدها؛ حيث كان هو نفسه النموذج المثالي لنفسه» (المصدر السابق، صفحة ٩٤). ويُشير المقال إلى اهتمام فرويد المتنامي بالعالم الداخلي.

يكشف المقال كذلك أن تقسيم فرويد الأوَّلي للدوافع بين جنسية وأنانية كان تقسيمًا قاصرًا، غير أنه لم يرغب في أن تَحلَّ طاقةٌ كونية محل الشهوة الجنسية، وهو ما اتهم كارل يونج بفعله. ولم يرغب أيضًا في أن تَحلَّ قوًى عدوانيةٌ كونية محل الشهوة الجنسية، وهو الخطأ الذي ارتكبه أدلر حسب زعمه. وسوف تُمهِّد أبحاث ما وراء النفس الطريق نحو إعادةِ تشكيلِ نظرية فرويد للدوافع (انظر الهامش ٣، [الفصل الرابع]).

(٤) علم ما وراء النفس

يمكن اعتبار أبحاث فرويد في علم ما وراء النفس (الميتاسيكولوجيا) غيرَ ذاتِ صلة بنظريةٍ عملية، بل هي بالأحرى تعبيرٌ عن تقليدٍ ثقافي، عن مسارٍ اتَّبَعه فرويد في عمله يلعب دورًا

مِحوريًّا في فهم صياغاته. في بريطانيا وأمريكا، يُنظر إلى الأبحاث الميتاسكولوجية، إلا في حالاتٍ نادرة، باعتبارها أَثرًا من الماضي. لكن في فرنسا أُعيد إحياء تلك الأبحاث، وهي جزءٌ من تقليدٍ ثقافي يُضفي على أعمال فرويد عمقًا هائلًا. وهكذا نجد جان كلود رولان يُؤكِّد في الفصل الخامس أن أبحاث علمِ ما وراء النفس لا يُمكِن قراءتها بالطريقة نفسها التي يُقرأ بها العديد والعديد من الأبحاث ذات الطابع الإكلينيكي؛ فالأبحاث التي نتحدث عنها هنا يَطغَى عليها شيءٌ من «الغرابة»، وكأنَّ لا وعي فرويد هو ما يُخاطَب لا وعي القارئ عَبْرها، فاتحًا أبوابًا تكشف لنا عن لُغز اللاوعي: «لا يُوجد تعريفٌ حاسم لِعلمِ ما وراء النفس أكثر من كونه أَشبهَ بالغريزة بالنسبة إلى النشاط النفسي؛ إنه دعوة للعمل مفروضةٌ على الباحثِين بفعل الاهتمام بفرضِ مزيدٍ من الترابُط على التجربة الإكلينيكية.» يُشير رولان إلى أن تلك النصوص هي الأساس الذي مكَّن فرويد من الانطلاق نحو كتابة النص الأكثر غرابة، ألا وهو «مبدأ ما فوق اللذة»، ونحو طرح النموذج البنيوي للعقل. ويُضيف:

> اللعبة، لدى الطفل والرجل، هي قطعًا أَمرٌ يوازي في جديته وتعقيده عِلمَ ما وراء النفس بالنسبة إلى المُحلِّل النفسي النظري. وينبغي أن يظل عِلمُ ما وراء النفس دومًا مصدرًا للمتعة وتحرير الطاقات بالنسبة إلى المُحلِّل النفسي النظري مثل اللعب بالنسبة إلى الطفل؛ شيءٌ ما يقع في المنتصف بين الاستحواذ والاكتشاف.

يُخبرنا إرنست جونز وبيتر جاي أنه فيما بين عامَي ١٩١٤ و١٩١٥، كَتبَ فرويد إلى لو أندريا-سالوميه وأبراهام عن مشروعه لتأليف كتابٍ يضم ١٢ مقالًا عن عِلمِ ما وراء النفس ويحمل عنوان «مقالاتٌ تمهيدية حول علمِ ما وراء النفس». ويبدو أن هذه المقالات تُجسِّد ذروة ما تَوصَّل إليه فرويد فيما يتعلق بالنموذج الطبوغرافي للعقل، والفرق بين أنظمة اللاوعي-ما قبل الوعي والوعي، ونظريته الأُولى حول الدوافع وتمييزها ما بين اللذة وانعدام اللذة، وبين العمليات الرئيسة والعمليات الثانوية. تُجسِّد تلك المقالات كذلك نقطةَ تلاقٍ سوف تُؤدِّي إلى أفكارٍ جديدة؛ مثل عمليات التماهي، وأهمية الموضوع، والتَّكرار القهري، ورَدِّ الفعل العلاجي السلبي، ودَور العُدوانية.

في عام ١٩١٥، استخدم فرويد مصطلح «الكبت» للإشارة إلى طيفٍ كامل من العمليات العقلية الهادفة إلى استبعاد رغبةٍ غريزية من مجال الوعي. يعتبر فرويد العقل «ساحة معارك»، ويُوجد عددٌ كبير حقًّا من المُتَع المُحتمَلة التي تَتحوَّل إلى ألم؛ لأن العقل البشري ليس كتلةً حجرية مُصمَتة. وتُقدِّم عقدة أوديب بشتى تجسيداتها النُّموذجَ الأكثر تعبيرًا

لتلك الصراعات الداخلية (جاي، ١٩٨٨، صفحة ٣٦٥). وقد أوضح فرويد ما طَرحَه من نقاطٍ عامة بأمثلة من حالاتٍ طبية.

على سبيل المثال، يُشير فرويد إلى أن فعل الكبت يحتاج إلى تَكرار نفسه مِرارًا: «يَتطلَّب الكبت استهلاكًا متواصلًا للقوة» (١٩١٥ج، صفحة ١٥١)؛ فما جرى كبته لم يُمحَ، بل اختُزِن فحسبُ في اللاوعي؛ حيث يقبع هناك مُستمرًّا في الإلحاح طلبًا للإشباع.

المقال الثالث والأطول بين مقالاتِ علمِ ما وراء النفس يحمل عنوان «اللاوعي». طُرح مفهوم اللاوعي لأوَّل مرة كمفهومٍ مرتبط بالكبت أو آليَّات الدفاع، بوصفه وسيلةً لتحديد مصير الأفكار التي تتعرض للكبت، وهو ما يعبر عنه فرويد صراحةً بقوله: «لقد استلهمنا مفهوم اللاوعي من نظرية الكبت» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ١٥)؛ وعليه افتُرض التسلسُل التالي: تتعرض فكرةٌ ما، لسببٍ أو لآخر، للكبت، فتظَل في العقل، تُمارِس تأثيرها رغم استبعادها من نطاق الوعي، ثم قد تُعاود الظهور في الوعي، في ظل ظروفٍ مُعيَّنة محبذة. وهكذا ربط فرويد بين اللاوعي ومفهوم الانقطاعات في العمليات العقلية للفرد، وهو أَمرٌ ذو أهمية.

ينقسم المقال حول اللاوعي إلى سبعة فصولٍ تُغطِّي موضوعاتٍ متنوعة: تسويغ للمفهوم، المعاني المختلفة للمصطلح ووجهة النظر الطبوغرافية، المشاعر اللاواعية، طبوغرافية وديناميكيَّات الكبت، السمات الخاصة لنظام اللاوعي، التواصُل بين نظامَي الوعي واللاوعي، وأخيرًا تقييم اللاوعي. ويرى لويز إدواردو برادو دي أوليفيرا (الفصل السادس) أن لهذا النص أهميةً كبيرة:

> يُجسِّد هذا الفصل جهدًا جبَّارًا للإجابة على مجموعة من الأسئلة التي تظهر كثيرًا في أعمال فرويد مثل: أمن الممكن أن يُوجد شيءٌ واحد على نحوٍ متزامن في عدةِ أماكن مختلفة، وأن يظهر وكأنه يمتثل إلى عدة أنماطٍ مختلفة؟

علاوةً على ذلك: هل من الممكن أن يشغل شيئان مختلفان أو أكثر مكانًا واحدًا في الوقت نفسه ويظهران بأسلوبَين مختلفَين؟ الرد على مثل تلك الأسئلة يكون دومًا بالإيجاب؛ فمفهوم التحديد المُفرِط أو تعدُّد المُحدِّدات يشكل الأساس لهذه الإجابة ويمنحها ما تتمتع به من ثراءٍ وتشعُّبات. ويُشير برادو دي أوليفيرا إلى أن هذا المفهوم، الذي يُعَد أحد أكثر أفكار فرويد ثورية، لا يزال غير مُستكشَف إلى حدٍّ كبير، لا في نطاق التحليل النفسي فحسب، بل عمومًا.

يرى رولان (الفصل الخامس) أن أبحاث علمٍ ما وراء النفس تُشير إلى فارقٍ مهم بين الحقيقة الطبية، والمفهوم النظري، والأداة المنهجية:

لدينا الآن أُسسٌ راسخة نُفرِّق بناءً عليها بين الحقيقة الطبية، والمفهوم النظري، وما سأُطلق عليه، لعجزي عن إيجاد مصطلحٍ أفضل، «أداة» ميتاسيكولوجية. «الحقيقة الطبية» أَمرٌ واضح لكلٍّ منا؛ فهي ظاهرةٌ تطرحها الملاحظة الواعية بوصفها نقيضًا لفهمنا المباشر؛ لأنها تُعطِّل، فيما يبدو، المسار الطبيعي للحياة أو تُخِل بالمنطق الذي نتوافق معه عفويًّا.

ويُضيف من جديد:

بناءً على العديد من الحقائق الطبية، وانطلاقًا من مصادر ملاحظةٍ متنوعة لكنها، بالقياس، لا تزال متمركزةً على السلوك النكوصي القوي الذي يَتبنَّاه بعض المرضى في أثناء العلاج، افتَرضَ فرويد مفهومًا نظريًّا ألا وهو التَّكرار القهري، ووضع له تعريفًا على النحو التالي: «هكذا يسترجع التَّكرار القهري من الماضي تجارب لا تنطوي على أي احتماليةٍ للمتعة، وحتى في وقت حدوثها أَثبتَت تلك التجارب عجزها عن تقديم أيِّ إشباع، حتى للدوافع الغريزية التي تعرَّضَت للكبت في النهاية.» وقد ركَّز القسم الثالث من هذا العمل على طرح أساس ميتاسيكولوجي لهذا المفهوم.

وفقًا لرولان، لم ينكر فرويد على الإطلاق تأثير الجنسانية في التَّكرار القهري عندما تناوَلَ الفعل الراجع إلى غريزة الموت؛ فالأخير يُفسِّر ما يعوق مسار الفعل الأوَّل فحسب، ويلصقه بمواقفَ «صادمة» من الماضي، ويَحجُب إمكانية الوصول إلى موضوعات الحاضر.

يَعتبر رولان كتاب «ما فوق مبدأ اللذة» كتابًا ذا تأثيرٍ بالغ في ظهور مفهوم التَّكرار القهري. علاوة على ما أشار إليه من أن النص لا يُرسِّخ لانقطاع للصلة بين غريزة الموت والغريزة الجنسية على اعتبار الأُولى قوًى مختلفةً عن الثانية. ويقوده هذا الرأي إلى اعتبار هذا الانقطاع النصي.

انعكاسًا للنقطة الحاسمة التي ينفجر عندها تيارا الشهوة؛ فغريزة الموت، في الحياة الجنسية، إنما تُجسِّد — وتشير إلى — النزعة الوليدة التي تُجبِر

الشهوة الجنسية على البقاء مرتبطةً بأهدافها المُحرَّمة ويُعارض التبرُّؤ منها، ويُعارِض، للأسباب نفسها، ارتباط هذه الغريزة البدائية (التي تدفع نفسها نحو الأهداف؛ لأنها لا تستطيع الاستغناء عنها) بموضوعات الإحلال. إن غريزة الجنس وغريزة الموت تُجسِّدان في تناقُضٍ «نموذجي» ازدواجيةَ حركة الشهوة الجنسية المُتأرجِحة بين الانجذاب المُحرَّم الذي تفرضه التخيُّلات اللاواعية وبين الشهوة الجنسية المُوجَّهة نحو الموضوع، التي تعرَّضَت للكبت نتيجةً لجهدٍ طويل من قبل الحضارة.

تتعارض آراء رولان حول مقال فرويد مع آراء جيلبرت دياتكين، الذي يعتبر غريزة الموت مفهومًا إكلينيكيًّا (الفصل الثامن). ويُشير دياتكين إلى ثلاثة أسبابٍ رئيسة وراء طرح فرويد لمفهوم غريزة الموت، يأتي في مُقدِّمتها اعتقاده بتعرُّض نظرية الحضارة التي دافع عنها فرويد منذ ميلاد التحليل النفسي إلى ضربةٍ قاصمة مع نشوب الحرب العالمية الأولى، جعلت من نظرية سيطرة مبدأ اللذة على البشرية نظريةً مُتعذِّرة على التصديق؛ ثانيًا، ما تَضمَّنه مقال فرويد، «الحداد والسوداوية»، من وصفٍ صادم للسادية المُوجَّهة ضد موضوعٍ مُستدخل؛ ثالثًا، يشير دياتكين إلى أن الحاجة إلى التَّكرار من شأنها إشباع الحاجة إلى المُعاناة التي وصفها فرويد في دراسة الحالة الخاصة برجل الذئاب.

يتتبع دياتكين آثار المُجادَلات التي أُثيرت في فرنسا حول مفهوم غريزة الموت ويُقدِّم شرحًا توضيحيًّا دقيقًا لأحدث إسهامات المُحلِّلين النفسيِّين الفرنسيِّين ممن يستخدمون هذا المفهوم (مثل أندريه جرين، ودينس ريبا من مدرسة الطب النفسي الجسدي الفرنسية، وكلود بالبيه وباتريك ديكليرك، بالإضافة إلى مُعارِضي هذا المفهوم، مثل بول دينيس).

(١-٤) «الحداد والسوداوية»

يُقدِّم فرويد في مقاله «الحداد والسوداوية» (١٩١٧) عرضًا شاملًا لعلاقة بالموضوع الداخلي تتضمن إسقاطًا وتماهيًا. إذا كان الفرد في حالة الحِداد يعرف أنه قد فقد شخصًا ما، فإن في حالة السوداوية يفقد الفرد جزءًا من ذاته. ويصف فرويد في مقاله عملياتِ فقدان الموضوع، وتناقُض الرغبة الجنسية وارتدادها داخل الأنا (المصدر السابق، صفحة ٢٥٨).

يعود الشخص السوداوي إلى حالةٍ من التماهي النرجسي مع موضوعٍ ما؛ ما يتضمن كذلك إضفاء طابعٍ مثالي. وتُعامِل الأنا نفسها كموضوعٍ منقسمةً إلى جزأين، يثور أحدهما ضد الآخر. وقد خطا فرويد خطوةً بارزة في هذا العمل فيما يتعلق بنقل الانتباه إلى الأنا:

> لِنُركِّز للحظةٍ على الرؤية التي يطرحها المصاب باضطراب الشخصية السوداوي لتكوين الأنا البشرية. نرى، من خلال هذه الرؤية، كيف أن جزءًا من الأنا يوضع في مواجهةٍ ضدية مع الآخر ويحكم عليه من منظورٍ انتقادي ويتخذه موضوعًا له إن جاز التعبير. في ظننا أن القوة الناقدة التي انفَصلَت ها هنا عن الأنا قد تُظهِر كذلك استقلالَها تحت ظروفٍ أخرى، سوف تُعزَّز عَبْر كل ملاحظةٍ إضافية ممكنة. ولسوف نجد الأسس التي تُميِّز تلك القوة عن باقي الأنا. إن ما نتعرف عليه ها هنا هو القوة التي يُطلَق عليها عادةً الضمير. (المصدر السابق، صفحة ٢٤٧)

ستُصبِح هذه القوة التي يُطلَق عليها «الضمير» هي الأنا العُليا في دراسة فرويد «الأنا والهو» (١٩٢٣)، وسيَلقى مفهوم «الانفصال» مزيدًا من التوضيح في دراستَي «انفصال الأنا في عملية الدفاع» (١٩٤٠ [١٩٣٨])، و«الفتيشية» (١٩٢٧). في حالات السوداوية، تحدث عملية استدماجٍ فموي للموضوع، الذي «يتبدَّد»، إلى جانب حدوث تماهٍ معه؛ فيلقي الشخص المريض بالسوداوية اللَّومَ على الموضوع الذي تتماهى معه الأنا؛ ومن ثمَّ يبدو وكأنه يلوم نفسه. وقد كان وصف فرويد للعملية التي تتماهى الأنا من خلالها، بغير وعي، مع الموضوع المُدمَج الغير السوي (موضوع الحب المرفوض)؛ ومن ثَمَّ تُصبِح ضحيةَ أناها العليا، من أهم اكتشافات التحليل النفسي. تكمن الفكرة في أنه عندما يُهاجم المرء نفسه، فإنه في الحقيقة يهاجم شخصًا آخر، عن غير وعي، يشعر المرء أنه ضحيته لكنه أصبح كيانًا متوحدًا معه عَبْر عمليةٍ من الاستدماج والتماهي.

في مَعرِض مناقشة تلك الدراسة في الفصل السابع، توضح أجنيس سودريه كيف أن فرويد يصف ضمنًا موقفًا داخليًّا ينطوي على عملياتِ استدماجٍ وتماهٍ مختلفة، حيث:

> يتبادل كلٌّ من الأنا والموضوع (أو الموضوعات) المُستدخل الأدوار والمواقع الجغرافية في العقل، وحيث يتمازج كذلك على الدوام سيناريوهان تحكمهما

> نبرتان عاطفيَّتان مختلفتان للغاية؛ فالأنا يغشاها ظل الموضوع، والأنا تفترس الموضوع بلا رحمة؛ فنجد تأرجحًا دائمًا بين مشاعر الأسى والذنب ومشاعر الكراهية والضيم. ولا يُمكِن فهم الاكتئاب إلا بمراعاة ديناميكيات تلك الحالات ذات التأثير التبادُلي فيما بينها، التي تتسم بوجودٍ كلي دائم على مستوًى ما.

وتضيف أيضًا:

> يصبح موضوع الحب مبغوضًا لما ارتكبه من هُجرانٍ قاسٍ. لكن الأنا، إذ ترى نفسها مُفعَمة بكراهيةٍ نحو الموضوع، تشعر كذلك أنها غيرُ محبوبة.

وهكذا يضيع الارتباط بالموضوع الخارجي، «لكن الانسحاب إلى حالةٍ يختفي فيها الموضوع، على ما يبدو، يقتضي ضمنًا وجود علاقةِ تَملُّكٍ داخلية قوية مع الموضوع الذي لم يعُد له وجودٌ إلا في العالم الداخلي فحسب.» وفي ذلك تقول سودريه:

> من هنا تبدأ نظرية العلاقات بالموضوع الداخلي؛ يُستوعَب العالم الداخلي كفضاءٍ ثلاثي الأبعاد، حيث يجمع بين الذات والموضوع علاقاتٌ متغيرة من عدةِ جوانب وذات أَوجُهٍ مُتعدِّدة. الأمر «الكريه حقًّا» في هذا التحويل المضاد، عند مواجهة العالم السوداوي الكئيب الذي يحيا به المريض، هو الطبيعة الاستبدادية لحالة الجمود الناتجة عن الحاجة للإبقاء على الموضوع (الموضوع الداخلي، وكذلك المُحلِّل النفسي في سياق عملية التحويل) حبيسًا للأبد.

تُوضِّح سودريه بعضًا من آرائها حول النص عَبْر الاستشهاد بنموذجٍ إكلينيكي لإحدى الحالات التي تَولَّتها واحدةٌ من رُوَّاد التحليل النفسي، وهي المُحلِّلة النفسية النمساوية هيلينا دويتش. وعنوان دراستها مُشتقٌّ من عنوانِ مَقالٍ بعنوان «الجرح والقوس» للناقد الأدبي إدموند ويلسون، الذي يُناقِش فيه مسرحية سوفكليس «فيلوكتيتس». تُمثِّل الصراعات التي تتخللها مشاعر الذنب، والمسئولية، والضيم جوهر هذه المسرحية، وتُشير سودريه إلى الشرح الجيد الذي تُقدِّمه المسرحية لمقولة فرويد: «إن عقدة السوداوية تُحاكِي الجرح المفتوح؛ إذ تجتذب نحوها الطاقات النفسية … من جميع الاتجاهات، مُفرغة الأنا حتى تُصبِح مُعدَمة تمامًا» (١٩١٧، صفحة ٢٥٣).

وتخلُص في النهاية إلى أن فهم مريض السوداوية يقتضي حل لُغز التماهيات المُتعدِّدة مع الموضوعات الداخلية بمختلف جوانبها:

> وكذلك جميع التقلُّبات المزاجية من الغضب الفتَّاك الوحشي إلى الحزن والذنب والارتياع من الدمار الذي سبَّبته النفس، وما يستتبعه ذلك من شعور بالألم لكون الفرد غير محبوبٍ عن استحقاقٍ كما يتبدى؛ ومن ثَمَّ سيظل غيرَ محبوبٍ للأبد: «فالأنا تُسلم نفسها للموت.»

(٥) التماهيات والأنا العليا والنموذج البنيوي للعقل

إن مفهوم النرجسية، الذي يصف كيف يمكن للنفس أن تصبح مركزًا للطاقات النفسية لتتحول إلى موضوع، ومقالات علمِ ما وراء النفس، لا سيما مقال «الحداد والسوداوية»، كل ذلك عَبَّر عن التوتُّرات والتناقُضات في نموذج فرويد الطبوغرافي للعقل الذي أدَّى إلى تطوير النموذج البنيوي للعقل. وتُشير مارجريت تونزمان، في الفصل التاسع، إلى بعضٍ من هذه التوتُّرات، وتتبع أَثَر النقلة التي حَدثَت من نموذجٍ للعقل صوَّره بأنه مُكوَّن من مناطق، إلى نموذجٍ مُكوَّن من قوًى وكياناتٍ فاعلة؛ ألا وهي الهو والأنا والأنا العليا. يكمن أحد تلك التوتُّرات في الطريقة التي سعى فرويد من خلالها إلى التمييز بين اللاوعي الديناميكي واللاوعي الوصفي؛ وقد استخدم فرويد مُصطلَح «وصفي» للإشارة إلى سمةٍ تُميِّز حالةً عقليةً ما، في إشارةٍ إلى أن حدثًا ما أو عمليةً مُعيَّنة يقعان خارج نطاقِ الإدراك الواعي. على النقيض من ذلك، يُشير نظام اللاوعي إلى «موقعٍ طبوغرافي» مُحدَّد داخل تركيب العقل، أمَّا في الإطار الديناميكي، فيُشير إلى المكونات العقلية التي لم يُسمح لها ببلوغ الوعي أو التعبير الحركي. ومع تقديمِ نوعٍ ثانٍ من الرقابة (١٩١٥د)، في مقال «اللاوعي»، يقع بين نظامَي الوعي واللاوعي، أصبح واضحًا أن كثيرًا من المُشتقاتِ ما قبل الواعية للاوعي قد تظل لا واعية ديناميكيًّا، رغم عدم وجودها في نظام اللاوعي (انظر: ساندلر وآخرون (١٩٩٧) للاطلاع على مناقشة لهذه النقطة).

تُركِّز تونزمان في الفصل الذي يعرض دراستها على عملية الاستبدال الجزئي لمفهوم مثل الأنا الأعلى بمفهوم الأنا العليا؛ ففي كتابَي «عن النرجسية» و«علم نفس الجماهير» يُناقِش فرويد جزءًا خاصًّا من الأنا تَنحصِر وظيفته في المراقبة النقدية لها. وينشغل فرويد

على مدى كتابه «الأنا والهو» بتوضيحِ مفهوم الأنا العليا، حتى إن البعض اقترحوا عنوانًا آخرَ أنسبَ للكتاب وهو «الأنا والهو والأنا العليا» (ساندلر وآخرون، ١٩٩٧).

وفي كتاب «محاضراتٌ تمهيدية جديدة» (١٩٣٣)، الذي كُتب بعد ذلك بعقد، استعرض فرويد تكوين الأنا العليا بوصفه معتمدًا على نُمو التماهيات؛ فالأطفال في البداية يختارون آباءهم كموضوعاتٍ لحبهم، ثم يُضطرون إلى التخلِّي عن هذه الاختيارات لكونها غير مقبولة، ليصبح تماهيهم معهم قائمًا على تبنِّي سلوكيات الأَبَوَين تجاه أنفسهم؛ وهكذا يئول الحال بالأطفال راغبِين في أن يُصبِحوا «مثل» آبائهم بعدما كانوا يرغبون في «الاستحواذ» عليهم، ونتيجة لذلك يُنشئون تماهياتهم استنادًا إلى نموذج الأنا العليا الأبوية.

طَرأَت تغيُّراتٌ جذرية كذلك على مفهوم الأنا وفقًا للنموذج البنيوي، وهي التغيُّرات المُتعلِّقة بفكرة أن جزءًا من الأنا غير واعٍ؛ وبذلك لم يعُد اللاوعي مقتصرًا على المكبوت، بل أصبح تكوينًا جامعًا واستيعابيًّا. ويعتبر جرين أن أهم تغييرٍ في النمط البنيوي هو لا وعي الأنا.

(٦) التحليل النفسي كمنهج: دراسة الحالة الواحدة

دَرسَ فرويد مناهج الباثولوجيا النفسية المتعددة في زمنه، واستخدم النموذج الإكلينيكي للبحث القائم على دراسة حالةٍ واحدة كيفية، وهو النموذج الذي تمكَّن من خلاله من إنشاء نظريات للعُصاب الهَوَسي (بناءً على فهمه لحالة رجل الجرذان)، وعقدة الاضطهاد (بناءً على حالة شريبر)، والهستيريا. من الممكن تحديد طريقة فَهم دراسات الحالة الخاصة بِفرويد عبر دراسةٍ متزامنة للبنية والتاريخ. في دراسة الحالة الواحدة، يكون الهدف هو فهم آلية عمل البنية الوظيفية. وفي كل حالةٍ لا يمكن فصل المنهج البنيوي عن المنهج التطويري. وبذلك وَضَع فرويد فرضياتٍ حول المراحل المتعاقبة التي أدت إلى ظهور البنية. ويمكن تأكيد ذلك بسلاسةٍ عبر التحليل المُفصَّل لدراسات الحالة العديدة التي قام بها كما هو موضح في هذا الكتاب. في خضم عملية تحليل عدةِ دراساتِ حالة، أنشأ فرويد «عائلة من الحالات» أدت إلى تكوين نماذجَ لمناهج الباثولوجيا النفسية (بيرون، ١٩٩٨). وقد كان البحث الإكلينيكي هو ما أتاح لفرويد إنشاء نماذج نظرية (انظر: بيرلِبرج، ٢٠٠٣).

ناقشنا في السابق الطريقة التي يمكن من خلالها النظر إلى حالة هانز الصغير كنص يعرض لفكر فرويد حول الجنسانية النفسية، والتي يكمُن لغزها، بما تتضمَّنه من تخيُّلاتٍ أولية حول الإخصاء ومشهد الجنس الأوَّلي والإغواء، في الأسئلة التي تُطرح حول جسد الآخر.

وقد واجه فرويد تخيُّلات الإخصاء في إطار الحالات الذكورية التي تَولَّاها (هانز الصغير ورجل الذئاب).

في كتابه «ثلاثة مقالات» (١٩٠٥ب)، أشار فرويد إلى أن شهوة التلصُّص هي التي تُوفِّر الطاقة لدافع المعرفة، الذي يضرب بجذوره في الجنسانية الطفلية، بما تنطوي عليه من الحاجة إلى السيطرة، والحاجة إلى فهم حدثِ قدوم مولودٍ جديد الذي يرتبط بخطر فقدان حب الموضوع.

كانت بعض الأعراض التي عانى منها مرضى فرويد شديدةً دون شك، وهو ما يبدو متناقضًا مع اعتقاده هو نفسه بأنه كان يتعامل مع مرضى عُصاب.

في الفصل العاشر يُناقِش بول ويليامز حالة رجل الجرذان (بول لورينز)، الذي كان يُعاني من رغبات ودوافعَ مزعجة، مثل الرغبة في جزِّ عُنقه أو الانتحار بطرقٍ أخرى، كما فرض عددًا من المحظورات على نفسه قيَّدَت حياته إلى حد اليأس. ويصفه فرويد بأنه شابٌّ ذكي وبارع، أعاق تطوُّرَه الاجتماعي والجنسي والعاطفي تفكيرٌ هوَسِي يضرب بأطنابه في طفولته. ووَصفَ كذلك حياته الجنسية المبكرة النضوج؛ ففي سن الرابعة كان يستكشف الأعضاء التناسُلية لُمربِّيته.

في هذه الحالة، يُقدِّم فرويد من جديد وصفًا حيًّا لصراع التماهيات؛ فيتحدث عن التخيُّلات التي صاحَبَت فعل الاستمناء لدى لورينز، ويُشير ها هنا إلى اشتياق لورينز إلى أبيه وصراعاته معه (لا سيما حول اختياراته لإحدى الفتيات)، وإلى قصةٍ مُعقَّدة حول حادثة ضرب الأب للورينز أُصيب على أثرها بنوبةِ غضبٍ شديدة، «أصبح بعدها جبانًا» يخشى العنف الجسدي، حسبما أخبر فرويد. وقد شرح فرويد هذا الموضوع فيما بعدُ بتفصيلٍ أكبر في كتابه «طفل يُضرَب» (١٩١٩) (راجع الفصل الثالث عشر).

كان تفسير فرويد «لسبب» ظهور الوسواس هو أن ثَمَّةَ انسحابًا للشعور من أسباب الصراع الأصلي الذي يُوحي بأنه لا يمكن التحكُّم به، مما يُؤدِّي لانقطاع الروابط العقلية؛ ومع ذلك فإن هذه الروابط تبقى بجعل نفسها مُستشعرةً في شكلٍ مُبهَم من خلال الإسقاط على العالم الخارجي. ويُؤكِّد فرويد على مشاعر لورينز العدائية التي يُنكرها تجاه والده باعتبارها قد أدَّت إلى احتدام مرضه بالوسواس إلى حدٍّ كبير. كان فرويد يعلم جيدًا أن الدافع وراء مرضِ لورينز لم يكن فقط مُجرَّد صراعٍ بين الحب والكراهية؛ فقد ساهم في تعقيده على نحوٍ خاصٍّ الشعورُ بالمتعة والخزي والاشمئزاز من المشاعر والأفكار المرتبطة بهذا الصراع.

يُعتبر ربط فرويد للتفكير الوسواسي بالإثارة الجنسية الشرجية منظورًا إكلينيكيًّا يجب عدم الاستهانة به، خاصةً أن إدراك الرابط بين عُصاب الوسواس القهري وبين النكوص الشرجي لم يظهر إلا في عام ١٩٢٦؛ أي بعد مرور عشرين عامًا على تحليل حالة لورينز.

يُشير ويليامز إلى ضرورة دراسة ورقة فرويد البحثية، «ملاحظات على حالة عُصابٍ وسواسي» (١٩٠٩ب) كأحد المُؤلَّفات الكاملة الأولى عن التحليل النفسي؛ فالبحث يُقدِّم صورةً للتطوُّر النظري والتقني للتحليل النفسي عام ١٩٠٧.

> لا يزال البحث جذَّابًا بفضل تفاصيله وانتباه فرويد المُتبصِّر لكمياتٍ صغيرة من البيانات؛ فهو سرد للعالم الداخلي لفرد يعاني من الوسواس. ويعود هذا جزئيًّا إلى كونه «بيانًا» يعرض فرويد من خلاله كيفية فهم معنى عُصاب الوسواس القهري وهو شيءٌ استعصى على التعريف في الطب وعلم النفس.

في النقاش الخاص بحالة شريبر، تُناقَش من جديد فكرة الرغبة المثلية المكبوتة داخل رجلٍ تجاه والده. في الفصل الحادي عشر، يصحبنا جون ستاينر خلال تلك الورقة البحثية المعقدة؛ فبعد قراءته لكتاب «ذكريات مَرضِي العصبي: سيرة ذاتية» لدانيال بول شريبر (١٩٠٣؛ الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب)، يفترض فرويد أن قلق الاضطهاد وأوهام الارتياب هي نتاجٌ لآليَّةٍ دفاعية ضد الرغبة المثلية المكبوتة؛ فجنون الارتياب هو تحوُّل الحب إلى كراهية، تُسقَط بعد ذلك على مُضطهِدٍ خارجي. فالشخص الذي أكرهه الآن كنتُ أحبه يومًا ما (فرويد، ١٩١١، صفحة ٤١)؛ فتحوَّلَت كلمة «أحبه» إلى «أكرهه» والتي تتحول بدورها من خلال آلية الإسقاط إلى «إنه يكرهني». وفي القلب من الاضطهاد البارانويدي، كان ثَمَّةَ وهمٌ مُتعلِّق بالإخصاء مُقترن بفكرة أنه سيتحول إلى امرأة خلال فعل الاتصال الجنسي. وفي المرحلة التالية، كان يظن أنه سيصبح حاملًا بواسطة الإشعاعات الإلهية لكي ينتج جنسًا جديدًا من البشر (المصدر السابق، الصفحات ٢٠–٢١). يُشير شريبر كذلك إلى حالةٍ من السعادة القُصوى، «متعة لا تنقطع»، أو «إحساس متواصل بالمتعة الحسية» (المصدر السابق، صفحة ٢٩) ناتجٍ عن التأمُّل والتدبُّر في الله. في تحليله للحالة، يُؤسِّس فرويد لرابط بين الدكتور فلكسيج، طبيب شريبر، وبين الله ووالده، وخلَص في النهاية إلى أن الشمس في حدِّ ذاتها رمزٌ متسامٍ يُشير إلى الأب. «إن أكثر التهديدات التي يُمثِّلها الأب ترويعًا، وهو الإخصاء، أتاح في الواقع المادة المُكوِّنة لِوهمه الذي يتوق إليه ... وهو أن

يتحول إلى امرأة» (المصدر السابق، صفحة ٥٦)، ولكن في الوقت عينه يُشير فرويد نفسه في حاشيةٍ سفلية إلى أن كلمة الشمس مُؤنَّثةٌ في اللغة الألمانية (المصدر السابق، صفحة ٥٤).

يقول فرويد: «تكمُن جذور كلِّ اضطرابٍ عقلي وعصبي في الأساس في حياة المريض الجنسية» (المصدر السابق، صفحة ٣٠). ويتحلل جنون الارتياب في اللحظة التي تَتكثَّف فيها الهستيريا، «فجنون الارتياب يرُدُّ نتائج عمليات التكثيف والتماهي التي تحدُث في اللاوعي إلى عناصرها الأساسية مرةً أخرى» (المصدر السابق، صفحة ٤٩).

يصف ستاينر الطريقة التي بدأ بها مرضُ شريبر كاكتئابٍ سوداوي، ولكن سرعان ما ظَهرَت عليه سِماتُ جنون الارتياب، تطوَّرت بدورها لتصبح جنونَ ارتيابٍ احتفظ، مع ذلك، بأساسه المُتعلِّق بالاكتئاب وتَوهُّم المرض. في النهاية، جاء التشرذُم الفوضوي تحت هيمنةِ نظامٍ نرجسي كليِّ النفوذ أدى إلى تحسُّنٍ إكلينيكي بدون التنازُل عن أيٍّ من اعتقاداته الوهمية.

يذهب ستاينر إلى أنه من الممكن تمييز ثلاثةِ عناصرَ في مرض شريبر؛ أولًا: الاكتئاب واليأس، الثاني: جنون الارتياب، وأخيرًا، حالةٌ وهمية مُنظَّمة نسبيًّا يظهر فيها الاضطهاد من خلال التماهي مع جانبٍ أُنثوي مُخلِّص وخضوعٍ شهواني للأب. ويُشير ستاينر إلى أن هذه الحالات الثلاث تُوجد «في حالة توازنٍ حيث تُوجد تحركاتٌ دائمة ذهابًا وإيابًا بينهما حتى لو أمكن إدراكُ حدوثِ تطوُّر من الاكتئاب إلى جنون الارتياب ومن ثَمَّ إلى منظومةٍ دائمة للأوهام.» يقترح ستاينر ما هو أبعدُ من هذا وهو أنه يمكن النظر إلى منظومة الأوهام لدى شريبر على أنه انسحابٌ نفسي قائم على نظامٍ ذُهاني (ستاينر، ١٩٩٣) لجأ إليه المريض عندما أصبح الاكتئاب وجنون الارتياب لا يُطاقان. يُشير ستاينر إلى أنه حينما أَسَّس شريبر منظومته التخليصية للأوهام، كان قد حوَّل المضايقات والاضطهادات إلى خضوعٍ ذي طابعٍ مثالي وكانت منظومة الأوهام الخاصة به تعمل كملجأٍ نفسي يبدو أنه يُوفر له حمايةً كاملة من مشاعر الخزي والعار.

في الفصل الثاني عشر، تعرض روزين جوزيف بيرلِبرج طرحًا لحالة رجل الذئاب التي تُناقِش من خلالها أربعَ قضايا رئيسة: الدور التأسيسي للتخيل في بناء العقل، ووضع فرويد مفهومًا للزمن فيما يتعلق بوظيفة الصدمة والوهم، ومسألة الجانب الأُنثوي لدى الرجال، وأخيرًا العلاقات بين الوسواس والحِداد لدى رجل الذئاب.

وعلى خطى لابلانش وبونتاليس، تُؤكِّد بيرلِبرج على مدى التعقيد الذي يعتري أفكار فرويد عن التخيُّل والتي تظهر عند التخلِّي عن الموضوع الخارجي. علاوةً على ذلك، يُشير

هؤلاء المُؤلِّفون إلى أن التمييز بين الشخص والموضوع يختفي عند التخيُّل (١٩٨٥، صفحة ٧٣). وما يتبقَّى لدى الشخص هو «مشهد»، «والوظيفة الأساسية للخيالات هي الإعداد المسرحي لمشهد الرغبة؛ إعداد يُوجد فيه ما هو مُحرَّم دائمًا في هيئة الشكل الفعلي للأمنية» (١٩٨٨، صفحة ٣١٨).

يرتبط الخيال لدى فرويد ارتباطًا أبديًّا بأفكارٍ عن كلٍّ من الزمن والجنسانية؛ إذ تُوجد إعادةُ تشكيل مستمرةٌ للخيال تحدث في إطارٍ بَعدي، كفعلٍ مستمر لإعادة الإعداد من شأنه تغيير الماضي على نحوٍ مستمر. ويسير اكتشاف دَور الخيالات جنبًا إلى جنب مع اكتشاف أدوار الجنسانية الطفلية وعقدة أوديب.

ظهر بحثُ فرويد المسمى «طفل يُضرَب: مساهمة في تفسير نشوء الانحراف الجنسي» عام ١٩١٩، وكانت فترةً انتقالية بين نماذج فرويد للعقل. وحسبما تُشير كاثرين شابيه في الفصل الثالث عشر، فقد كان الغرض من وراء النص هو اعتبار وهم «الطفل المضروب» كأحد أوهام الإغواء، بالإضافة إلى وصف تطوُّرات النماذج الفكرية المشتركة في إنتاج هذا الوهم. وفي الوقت نفسه، أبرز النص التمثيلات «الطفلية» للمازوخية، ما بَشَّر بظهور أعمالٍ سَبقَت نشر مَقالَي «ما وراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠ب) و«الإشكالية الاقتصادية للمازوخية» (١٩٢٤)؛ ومن ثَمَّ مَهَّد لظهور الرابط بين الحب والعقاب، وبين الإثارة والألم.

يَتكوَّن وهم الطفل المضروب من ثلاثِ مراحل: يظهر مشهد المرحلة الأولى في هيئةِ أبٍ يضرب الطفل (طفل يُضرَب). المرحلة الثانية، كما يشير فرويد، تحدُث في اللاوعي، وتُعتبر بناءً لمرحلةٍ لتحويل المشاعر. تظهر هذه المرحلة على هيئة «أنا (طفلة) أُضرَب بواسطة أبي»، حيث يحتل مُؤلِّف الوهم مكان الطفل المضروب في المشهد الأول. تُشبِه المرحلة الثالثة (التي تظهر أولًا في التحليل) المرحلة الأولى؛ إذ يشغل مُؤلِّف الوهم مرةً أخرى مكان المَشاهِد. غير أن ثَمَّةَ عنصرَين بارزَين يُميِّزانها؛ فالأبوان قد تَغيَّرا، والطفل المضروب في المرحلة الأولى استُبدل بحشدٍ من الأطفال المجهولِين، والأبُ (الذي يمارس فعل الضرب) حل محله بُدلاءُ أَبعَد. وفي هذا الإطار تُشير شابيه إلى أن الانتقال بين المَشاهد هو تحرُّكٌ أساسي للتحليل و«طريقة لفتح مواضع للتماهي أثناء التحرُّك» ما بين الفاعلية والسلبية؛ بين السادية والمازوخية؛ بين التمثيلات والأفعال.

أشرتُ في هذه المُقدِّمة إلى الطريقة التي تَتكرَّر بها حركة التنقل بين التماهيات وخيالات اللاوعي فيما يَتعلَّق بالإغواء والإخصاء والمشهد الجنسي الأَوَّلي بالفعل في معظم دراسات الحالة التي ناقَشها فرويد.

تُشير شابيه إلى أن ظهور وهم «الطفل المضروب» لا يحدُث في كل التحليلات، غير أنه يظهر على السطح في معالجاتٍ مُحدَّدة وبأشكالٍ مُحدَّدة لا تتوافق دائمًا مع التي وصفها فرويد. تقترح شابيه أنَّ هذا الوهم هو أحدُ ترجماتِ وهم الإغواء المرتبط بالمشهد الجنسي الأوَّلي؛ لأنه «يُظهِر السمات الكاملة المُميِّزة للأوهام المُنشِئة له، من ضرورة وجودِ دعمٍ بصري، بل بانورامي، لإكسابها شكلًا، والمكانة السلبية المخصصة للشخص المريض في كلٍّ من المشهد الجنسي الأوَّلي والإخصاء.» إنه وهمٌ يُمثِّل نموذجًا للقاء التحليلي مُعبِّرًا عن نطاق عمليات التماهي الموجودة داخله.

يُعتبر بحث «طفل يُضرَب» جوهريًّا في تطوُّر نظريات فرويد، ويشير إلى وجودِ رابطٍ بين المازوخية والأُنوثة ومشاعر الذنب التي تُولِّدها الرغبات المحرمة تجاه الأب، وهي رغباتٌ مكبوتة وأُعيد بناؤها خلال العملية التحليلية.

لكن ألا يُعتبر هذا الإغواء الأبوي إغواءً ثانويًّا يلي إغواءً أَوَّليًّا بواسطة الأُم؟ لقد كُتِب هذا البحث قبل أن يُعيد فرويد صياغة نظريته عن الأُنوثة واكتشاف الطور ما قبل الأُوديبي. وفقًا لفرويد نفسه، فإن الأم هي المغوية الأولى، «وأَوَّل التجارب الجنسية والتجارب ذات الصبغة الجنسية التي يمُر بها الطفل فيما يتعلق بوالدته هي تجاربُ سلبية في طبيعتها» (فرويد، ١٩٣١، صفحة ٢٣٦).

في أواخر حياته، عَرضَ فرويد الاقتراح الغامض من أن رفض وإنكار الجانب الأُنثوي هو حَجَر الأساس لعملية التحليل. وقد فَسَّر جرين هذا فيما يتعلق بإنكار الأُم وموقف السلبية والاستسلام الذي تواجهه:

> ما نتحدث عنه هنا هو إنكار أُنوثة الأُم لدى كلا الجنسَين، أو بمعنًى آخر فعلها المثابر ... إن تحرُّك النزعة التدميرية في الذُّهان يُمثِّل الملاذ الأَهمَّ والأبرز ضد التهميد والتخميل من قِبل شخصٍ من المستحيل الوثوق به ... الآن لا يمكن للعلاج بالتحليل النفسي أن يتم دون حدوث هذا التخميل المُنطوي على الثقة؛ حيث يضع الشخص موضوع التحليل نفسه تحت رعاية المُحلِّل. (جرين، ١٩٨٦، صفحة ٢٤٨؛ التنصيص للتوكيد)

تُعتبر ورقة فرويد البحثية ١٩٢٠أ — التي تُعتبَر آخر دراساته الإكلينيكية المنشورة — تحليلًا مُختصرًا لكيفية تحوُّلِ فتاةٍ في الثامنة عشرة من العمر إلى فتاةٍ مثلية الجنس. وقد

استُعين بالبحث كجزءٍ من جدالٍ معاصر عن الطبيعة الجنسية لدى النساء. في الفصل الرابع عشر، تُقدِّم لنا سوزان بَد سردًا للورقة البحثية، وتفحص كيفية ارتباطها بنظرية فرويد السابقة عن الجنسانية، وتَتتبَّع بعض تطوُّرات هذه الأفكار داخل أعمال فرويد نفسها، كما تفحص نقاشاتٍ معاصرة تتعلق بالموضوع.

في هذا البحث، ظن فرويد أنه لا يُوجد أي تمييزٍ بسيط بين مِثليِّي الجنس ومُغايرِي الجنس: «ربما لا يحب رجلٌ يحمل علامات الذكورة — أي ذكوري في حياته الجنسية — إلا الرجال؛ وربما يكون رجلٌ يحمل علامات الأنوثة، يُحب كالنساء، مشتهيًا للجنس المغاير على نحوٍ كامل. والشيء نفسه ينطبق على النساء؛ فربما تختلف الصفات الجسدية الجنسية، ذكورية كانت أو أنثوية، ونوع الشخص المستهدف على نحوٍ مستقل. إن جميع الأشخاص الطبيعيِّين، بجانب انجذابهم الظاهري للجنس المغاير، يحملون «قدْرًا كبيرًا للغاية من المثلية الجنسية المستترة أو اللاواعية.» والتمييز الجنسي البشري أمرٌ تحكُمه عواملُ متعددة؛ فلا يُوجد «جنسٌ ثالث» مستقلٌّ مثليُّ الجنس.

تنظر بَد إلى أوجه التماثُل بين حالة دورا (١٩٠٥أ) وحالة التكوين النفسي. كلتا الفتاتَين حاولت الانتحار، وهو ما دفع والدَيهما المُتسلِّطَين للإصرار على تلقِّي العلاج النفسي وأن يُحاولا دفعهما إلى الدخول في علاقاتٍ مع الجنس الآخر؛ كما تعرَّضَت كلتا الفتاتَين للإهمال من جانب الأُم وكانت كلتاهما مستاءةً من تفضيل الأُم للأخ، الذي ربما كان دوره في قصتَيهما أساسيًّا على الأرجح، لكنه لم يخضع للدراسة والفحص. في كلتا الحالتين، يُركِّز فرويد على العلاقة مع الأب وليس على العلاقة مع الأم.

تشير بَد إلى أن الجنس التشريحي في بحث التكوين النفسي أقلُّ أهميةً بكثيرٍ من حالات التماهي العديدة للفتاة الصغيرة.

كما تُشير كذلك إلى أن الجدال داخل عالَم التحليل النفسي انقسم بين الثقافات الوطنية؛ فقد تَركَّز المزيد من الانتباه، بوجهٍ عام، على الطفل في المرحلة المُبكِّرة للغاية التي تسبق مرحلة الكلام وعلاقته بأمه. وتُؤمِن بد بأن السؤال المتعلق بالفروق الجوهرية بين الرجال والنساء لا يزال موضوعًا شائكًا. ففي بريطانيا، زاد تركيز المُحلِّلين النفسيِّين على الطفل الذي لا جنس له في مرحلةِ ما قبل الأوديبية وعلى علاقته بوالدته التي يَتَخيَّل أنها تمتلك قضيبًا، أمَّا في فرنسا، فلا يزال يُنظر إلى الأب كشخصٍ ذي أهميةٍ بالغة؛ كونه هو من يُحرِّر الطفل من علاقةٍ تكافلية مع أمه مُطلِقًا إياها على هيئةِ لغة. وتقتبس بَد من أوراقٍ بحثية نُشِرت خلال العشرين عامًا الماضية في بريطانيا، تلك التي ما زالت تُثير سؤال

فرويد الأصلي: ما الدور الذي يلعبه الجسد المادي في تشكيل الهُوية الجنسية، وإلى أي مدًى يُسهِم الجانب النفسي في تشكيل خبرتنا بأجسادنا؟ (ميتشيل وروز، ١٩٨٢؛ رافاييل-ليف وبيرلبِرج، ١٩٩٧؛ كوهون، ١٩٩٩).

(٧) الإنكار

«الإنكار» هو عملٌ قصير مُكثَّف لِفرويد كُتِب عام ١٩٢٥. في الفصل الخامس عشر، يُشير أندريه جرين إلى أن هذا العمل رغم إمكانية أن يكون عملًا منفصلًا بذاته، فإن من الأفضل النظر إليه كأَهمِّ خطوة في رحلة استكشافِ وظيفةٍ بَدأَت قبل ذلك بكثير. لكن من وجهةِ نظرٍ أخرى، كما يُضيف جرين، فإنه كذلك عملٌ رائد يُمثِّل طفرة؛ إذ يفتح آفاقًا جديدة ربما كان فرويد قد خطَّط لها، لكنها تطوَّرَت كثيرًا فيما بعدُ على يده أو على يد آخرين.

يدرُس جرين باكورةَ ما ورد عن الإنكار في أعمال فرويد، مُبتدئًا بكتاب «تفسير الأحلام» (فرويد، ١٩٠٠)، ومُتضمِّنًا بحثًا «عن الأحلام» (١٩٠١)، والأبحاث الخاصة بعلمِ ما وراء النفس:

> تدريجيًّا، بدأ إدراجُ فكرةِ عدمِ وجود الرفض في الأحلام ضمن تصوُّرٍ أكثر اتساعًا، حوالي عام ١٩١٥، يُعرِّف النظام بأنه لا واعٍ.

علاوة على ذلك:

> لا إنكار، لا شك، لا أي درجةٍ من درجات اليقين؛ فكل هذا أُدخل بفعل الرقابة التي تحدث بين نظامَي ما قبل الوعي واللاوعي … يبدو أن غياب الإنكار يُمثِّل جزءًا من عددٍ أكبر من السمات ذات الصلة، كما نجدها، بأفكارٍ أخرى: فلا يُوجد إحساسٌ بالوقت أو الواقع. (صفحة ٢٥٥)

يَحلُّ جرين لُغز الأفكار والموضوعات الأساسية لهذا البحث ويَتتبَّع تطوُّر بعض هذه الأفكار في أعمال فرويد وكذلك أهميتها في أعمال كلاين، وبيون، وسيجال، ووينيكوت، ولاكان.

ينظر فرويد إلى الإنكار في إطار وظيفته في بداية التمييز بين الداخل والخارج؛ حيث يفصل ما بين ما هو «أنا» وما «لست أنا»؛ لذا فإن الإنكار يقبع في أصل نشاط التفكير نفسه، وكذا في القدرة على الترميز.

في البداية، عندما يطرد الطفل كل شيء لا يشعر بأنه باعث على المتعة إلى الخارج، لا يكون لديه أي معرفةٍ بالعالم الخارجي الذي «صنعه» فيما عدا أن عليه إبعاده قدْر الإمكان عن داخله، وينتهي هذا الموقف بانفصالٍ يفرض إدراك الوجود المستقل للموضوع، وبهذه الخطوة، يتحقق التمييز بين الخارج والداخل أخيرًا:

> يَحثُّ الخارج — الذي يتضمن الآن كل الموضوعات، الجيدة والسيئة على حد سواء؛ بسبب حدوث الانفصال — الشخص على العثور مرةً أخرى على تلك الموضوعات التي كانت موجودةً بالفعل، لكنها وُجدت فقط في هيئة تمثيلاتٍ أُدمجت (وكُبتت) فيما مضى بلا وعي، وأدَّت أول حركةٍ لطردها إلى التمييز بين ما هو «أنا» وما «لست أنا».

يتناول الفصل السادس عشر بالدراسة الروابط بين الإنكار والتقسيم، وفي هذا الفصل أيضًا يُوضح شير دون كامبل كيف أنه في أعمال فرويد يرتبط الانقسام بالفصل بين الداخل والخارج، بين ما هو أنا وما لست أنا، وبين المتعة والألم. ويُثير جرين السؤال المُتعلِّق بما إذا كانت عملية الترميز في حد ذاتها ربما تكون مرتبطةً بالتفاعُل بين الإنكار والتوكيد؛ فيُشير إلى أنه عندما كتب فرويد ورقته البحثية «الإنكار»، كانت ثَمَّةَ فكرتان حاضرتان في ذهنه:

> الأُولى هي توضيح كيف أن الوظائف الفكرية قد يُنظر إليها باعتبارها ذاتَ أصولٍ مُتجذِّرة في أكثر النشاطات بدائية، كما فهمها، وهي الدوافع. والعكس تمامًا في الفكرة الثانية، والتي عَبَّر عنها على نحوٍ أقل وضوحًا؛ إذ يبدو أنه يستنتج أن نشوء وتطوُّر هذه الأشكال الأولية من النشاط هو ما يُبرِز الوظائف الفكرية إلى الوجود.

سوف يتبين لنا لاحقًا، عندما يتخلَّى فرويد عن اللاوعي كمرحلة ليستبدله بالهُو، أنه قد أَكَّد فكرة أن كل ما نعرفه تقريبًا عن الهو له «طابعٌ سلبي» مقارنةً بالأنا (الصفحات ٣١–٧٣)؛ فيُوضِّح جرين كيف أن هذا الأسلوب في التفكير يُلغي أي فكرةٍ عما هو سلبيٌّ باعتباره محصورًا داخل حدود السلبية المَرَضية ويُلقي الضوء على توليد العمليات الأساسية للغاية للحياة النفسية سواء كانت طبيعيةً أم مَرَضية.

طوَّر كامبل لاحقًا بعض الأفكار التي يضُمُّها بحث فرويد عن الإنكار؛ فيشير إلى كيفية ربط فرويد بين الانقسام والفصل بين الخارج والداخل، بين ما هو أنا وما لست أنا، بين المتعة والألم:

> بقدْر ما تُمثِّل الموضوعات المُقدَّمة لها (أي الأنا) مصدرًا للمتعة، فإنها تستحوذ عليها بداخلها و«تدمجها» بطريقةٍ غيرِ واعية (باستخدام مصطلح فرينتسي ١٩٠٩)؛ وعلى الجانب الآخر، فإنها تطرد كل ما يصير مصدرًا للألم داخلها … وهكذا يُصبِح العالم الخارجي مقسَّمًا إلى جزءٍ باعث على المتعة وهو الجزء الذي دمجته الأنا بداخلها، وما تبقَّى منه وهو دخيلٌ بالنسبة لها. وقد فَصلَت جزءًا من نفسها، وهو ذلك الذي تُسقِطه على العالم الخارجي وتشعر بأنه عدائي. وبعد هذا التنظيم الجديد، يتطابق كلا القطبان مرةً أخرى؛ فيتطابق موضوع الأنا مع المتعة، والعالم الخارجي مع الألم (مع ما كان في السابق عدم اهتمام).
> (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٣٦)

في ظل وجود تهديدٍ بالإخصاء للطفل الصغير، يُعاد إحياء ذكرى سابقةٍ لحالة الأُنثى التي لا تملك قضيبًا. لقد كان الأمر في الأساس لا ينطوي على أيِّ أذًى أو ضرر عند التعرُّض له، لكنه الآن (في الإطار البَعدي) يُستَدعى «كتأكيد» لإمكانية تحقُّق هذا التهديد، وهكذا أصبح الإخصاء في عقل الطفل يُمثِّل خطرًا. يَتبنَّى الطفل حلًّا ذا شِقَّين، من خلال رفض الواقع وقوته المانعة، من جانب، وتقبُّل الواقع وحماية نفسه من الخوف من هذا الخطر بتحويله لعَرَضٍ مَرَضي على الجانب الآخر، وهو ما يُعَد تناقُضًا لا يمكن الحفاظ عليه إلا بخلق انقسامٍ في الأنا على نحوٍ يجعل هذه الرؤى المتعارضة تظل متعايشةً معًا جنبًا إلى جنب دون أن تُقوِّض إحداها الأُخرى. وبالتنصُّل من الواقع وإنكاره ومنح الأُنثى بديلًا للقضيب الناقص، تَغلَّب الغُلام على ما كان يعتبره دليلًا على واقعية الإخصاء ومن ثَمَّ أنقذ قضيبه الخاص.

في كتابه «الموجز في التحليل النفسي» (١٩٣٨)، وسَّع فرويد من استخدام الانقسام لفهمِ وجودِ مجموعاتٍ نفسية متناقضة تتراوح بين الفتيشية والعُصاب والذُّهان. في العُصاب، يصف فرويد «موقفَين مختلفَين … أحدهما … ينتمي للأنا بينما ينتمي الموقف المضاد؛ أي المكبوت، للهو» (صفحة ٢٠٤). أمَّا في الذُّهان، فقد زعم فرويد أن الانسحاب من الواقع لا يكتمل أبدًا.

في كتابٍ حديث، يُشير جرين إلى أن الانقسام بالنسبة إلى فرويد دائمًا ما يكون له دلالةٌ إيجابية متعلقة بإدراكِ حقيقةٍ ما، من ناحية، يُعادِله على الجانب الآخر نقصٌ في الإدراك (٢٠٠٢، صفحة ١٥٠). ويُشير جرين إلى الجدل المستمر بين الإدراك ونقص الإدراك في مُؤلَّفات علم النفس.

(٨) موضوع التحقيق في التحليل النفسي[١]

ثَمَّةَ منظوران رئيسيان يمكن تحديدهما من خلال تفسير النظرية الفرويدية: منظور العلم الطبيعي، الذي يظهر بشكلٍ أقوى في أمريكا وبريطانيا، والمنظور التأويلي، الذي ظهر في الأساس في ألمانيا وفرنسا (انظر، على سبيل المثال، ريكور، ١٩٦٥أ، ١٩٦٥ب؛ هابرماس، ١٩٧١؛ كلاين، ١٩٧٦؛ جرونبوم، ١٩٨٥؛ سبنسر، ١٩٨٧؛ دور، ١٩٨٨ للاطلاع على بعض الآراء المختلفة في إطار هذا الجدل).

غير أن أعمال فرويد، في رأيي، إنما تُعَد مثالًا لِتوتُّرٍ قائم بين هذَين المنظورَين للصياغات الخاصة بالتحليل النفسي؛ فهو، من جانب، كان يَودُّ لو كان علم النفس من العلوم الطبيعية، لكنه على الجانب الآخر، كان ينظر إلى التحليل النفسي كطريقةٍ جديدة لإعادة تفسيرِ حقل الثقافة من الأحلام والفن إلى الأدب والدين (طالع مساهمات دانكان، ١٩٩٢ وستاينر، ١٩٩٢ في هذا النقاش).

وفي محاولةٍ منه لمنح نظرياته صلاحيةً عالمية، عَمَد فرويد إلى ربطها بالعديد من جوانب الثقافة؛ مثل تاريخ الأفكار، والأساطير الإغريقية، والأدب، والفلسفة، واللغويات، وعلم الإنسان، وعلم الأعصاب، وذلك في إطار الأفكار السائدة في زمنه. لكنَّ التأكيد على المعرفة الحديثة بعصره ليس دقيقًا بمعنى الكلمة. على سبيل المثال، أشار إي جونز إلى استغلال فرويد لِلَّاماركية لتبرير بعض أفكاره، رغم معرفته بالداروينية. ولم يكن هذا لنقص المعرفة بالنظم المعرفية المعاصرة، بل لاختيار فرويد الأفكارَ التي شعر بأنها قادرةٌ على تبرير أفكاره على أفضل نحوٍ ممكن. وقد استُخدمت هذه الجوانب الأوسع من الثقافة بالأحرى كصورٍ مجازية، كما يبدو لي، لإعطاء عمقٍ أو صلاحيةٍ أكبر للأفكار التي كان فرويد يصنعها ويكتشفها ويُنشئها. وأحيانًا ما كان يسمح للأفكار المتناقضة بالتواجُد جنبًا إلى جنب.

غير أن معظم المُفكِّرين حاولوا حصر أعمال فرويد في أحد هذَين المنظورَين، واقتُبِسَت مقولات فرويد إمَّا لدعم المنهج العلمي أو التأويلي. على سبيل المثال، نجد أن

سالواي (١٩٧٩) مِن ضمن مَن يرون أن فرويد يتَّبع في الأساس عقلانيةً بيولوجية، وأن الخطاب النفسي يأتي على هامش تفكيره. إن رؤية سالواي لتفكير فرويد يعتريها اختزاليةٌ جوهرية؛ إذ بالكاد تأتي على ذكر طبقة اللاوعي. وقد كان بيتلهايم (١٩٨٣) واحدًا مِن أوائل مَن أشاروا إلى وجودِ محاولةٍ في الترجمات الإنجليزية لأعمال فرويد لإكسابها موضوعيةً وإعطائها تأكيدًا علميًّا، مُجرِّدًا إياها من معناها المجازي والخرافي. يُشير بيتلهايم إلى أن الترجمات الإنجليزية لكتابات فرويد تُحرِّف وتُشوِّه الكثير من الصبغة الإنسانية الأساسية التي تتخلَّل الأعمال الأصلية:

> هذه الحقيقة، بالإضافة إلى الترجمة الخاطئة أو غير الوافية للعديد من أَهمِّ مفاهيم التحليل النفسي الأصلية، تجعل مخاطباتِ فرويد المباشرة التي دائمًا ما تتسم بطابعٍ شخصي على نحوٍ عميق لإنسانيتنا المشتركة، تبدو للقارئ الإنجليزي كبياناتٍ مُجرَّدة بلا شخصية، تتسم بالنظرية إلى حدٍّ كبير والميكانيكية وسَعَة المعرفة — باختصار علمية — عن الآليات الغريبة والشديدة التعقيد التي تعمل بها عقولنا. (بيتلهايم، ١٩٨٣، الصفحات ٤–٥)

ويذكر بيتلهايم أن استخدام فرويد للغة الألمانية «لا يَتميَّز بالبراعة فقط، بل ذو طبيعةٍ شعرية في أغلب الوقت» (المصدر السابق، صفحة ٨).

يشير ريكور إلى حالة الشد والجذب بين نوعَين من مناهج الخطاب في أعمال فرويد: التأويلي والنشِط. يُخاطب الخِطاب النشِط القاعدة العضوية للحياة النفسية، معتبرًا الكائن الحي آلةً هيدروليكية ومستخدمًا صورًا مجازية مُستوحاة من العلوم الطبيعية. أمَّا الأسلوب التأويلي، في المقابل، فيُؤكِّد المعنى. ويُعَد البحث المُعنوَن «مشروع لعلمِ نفسٍ علمي» تعبيرًا عن الخطاب النشِط، بينما يُمثِّل كتاب «تفسير الأحلام» الخطاب التأويلي. ويؤمن ريكور بأنه على الرغم من أن الأخير حاول التحدُّث بالأسلوبَين، فإنه لم ينجح في هذا، ويعتقد أن هذا الخطاب المزدوج أكثر نجاحًا مع أبحاث علم ما وراء النفس: «تظهر الهاوية التي تبدو مُستعصيةً على اجتيازها بين عالَمين في خطاب التحليل النفسي كما لو كانت تَتبدَّد في أبحاثِ علمِ ما وراء النفس» (ريكور، ١٩٦٥، صفحة ١٢٥). ينظر ريكور لكتاب «تفسير الأحلام» (١٩٠٠) كمثالٍ نُموذجي لأعمال فرويد. فإذا كان معظم المُحلِّلين يتفقون في الرأي بالفعل على أن هذا العمل يُعتبر ميلاد التحليل النفسي، في ظل ما يحمله من تأكيد على التمثيلات، فإن النموذج البنيوي يُنظَر إليه كإعادةِ تقييمٍ لأهمية الحركة وقوة الدوافع. هذا الوضع

البنيوي، كما يذهب جرين، قائمٌ على وجود بِنًى عقلية ليس للتمثيلات فيها دَورٌ مهم كما هو الحال في العُصَاب (جرين، ٢٠٠١، ٢٠٠٢).

أَتفِق مع بونتاليس أن أعمال فرويد تقع بالفعل «بين عالَمَين» (رسالة بتاريخ ١٦ أبريل ١٨٩٦، اقتبسها بونتاليس، ١٩٧٧)، بين ما يمكن قوله وما يجب أن يُكرَّر، بين ما يمكن تمثيله وبين ما لم يصل لمرحلة التمثيل، وبالتأكيد بين الدوافع وتمثيلاتها.

وكما يُشير جوهر الكتابات الواردة في هذا الكتاب، فإن المنهج التأويلي في حد ذاته في أعمال فرويد لا يمكن فهمه خارج إطار البُعد الإكلينيكي؛ أي خارج إطار السياق العلاجي الذي صِيغ داخله التفسير.

إن المُتبقِّي في جوهر فكر فرويد، في رأيي، هو فكرة الحركة. إن تنقُّلات فرويد داخل إطار التفكير النظري لا تستبعد الطرق السابقة للتفكير؛ فهو صاحب منهجٍ عقلي وتأويلي في الوقت نفسه؛ فهو مهتم بالحب والكراهية، بالأنوثة والذكورة، بالأحداث الحقيقية والأوهام، الدوافع الشهوانية والدوافع التدميرية، التذكُّر والتَّكرار، الماضي والحاضر. واقتباسًا للتعبير المثير لبونتاليس، فإن فرويد يقف بين الحلم والألم. وأيُّ محاولةٍ للاختيار بين هذه المناهج والتأويلات والمنظورات المختلفة هي بطبيعة الحال اختزالٌ للحتمية التعدُّدية التي هي عنصرٌ حاسم في صياغة أفكار فرويد. ربما كان تأكيد فرويد على فكرة التفسيرات في أعماله اللاحقة هو توفيقٌ بين الاثنين. إنه ليس موجودًا ولا مُختَلَقًا بالكامل. والشد والجذب بين الاثنَين هو بالفعل ما يُمثِّل المُحرِّك لعبقرية فرويد، والدافع الذي يجعل فكره في حالة حركةٍ مستمرة، وهذه الحركة المستمرة، بالنسبة إلى فرويد، هي ما يُميِّز الحياة النفسية. ويُشير فرويد إلى أن النزاع بين هذَين المنهجَين لا يمكن اختزاله في أي وجهةِ نظرٍ بسيطة، وهو الأمر الذي يستوعبه ريكور نفسه عندما يقول: «إن هذا الربط للقوة بالمعنى هو ما يُحوِّل الدافع نفسه لواقع نفسي، أو بدقةٍ أكبر، إلى مفهومٍ يقف على الحد الفاصل بين ما هو عضوي وما هو نفسي» (المصدر السابق، صفحة ١٣٢).

من الأهمية بمكانٍ هنا الإشارة إلى الطرق المختلفة التي تطوَّرَت بها هذه النظرية في أعمال فرويد. في بعضِ الأحيان كانت تدفعه الحاجة لفهم المادة التحليلية. وقد تَضمَّنَت الأمثلة على هذا الاكتشافات الإكلينيكية «لرد الفعل العلاجي السلبي» و«الإحساس اللاواعي بالذنب» اللذَين أدَّيا لصياغة النموذج البنيوي للعقل، وتحليل أحلامه الخاصة الذي أدَّى لتصريحه (في خطاب إلى فلايس) بأنه لم يعُد يؤمن بأن روايات مرضاه المُصابِين بالهستيريا ترتبط بالضرورة بذكرياتِ إيذاءٍ واقعية بل تُمثِّل أوهامًا يتوقون لِتحقُّقها.

في أوقاتٍ أخرى، وُجِدَت تناقضاتٌ مشتقة من النظرية نفسها تدفع نماذج فرويد إلى «الأمام». على سبيل المثال، الطريقة التي أَدَّى بها مفهوم النرجسية، بتأكيده على الطاقة النفسية الشهوانية للنفس، إلى انهيارٍ محتمل للطبيعة المزدوجة للدوافع وفكرة الصراع بينها. وبينما كان فرويد يُسلِّم بمركزية الصراع في الحياة النفسية، جازف مفهوم النرجسية بتدمير الدوافع وتحويلها لدافعٍ شهواني وحيد، وأشار هذا ضمنيًّا للحاجة المفاهيمية لإعادة صياغة نظرية الدوافع. ونحن نعرف أن هذا قد أدَّى لافتراضِ وجودِ صراعٍ بين غريزتَي الحياة والموت.

أشار ألتوسير (١٩٧٧) إلى خطورةِ اختزال التحليل النفسي إلى أشكالٍ أخرى من المعرفة، سواء الأحياء، أو الفلسفة، أو علم الإنسان، ومن ثَمَّ خسارة محتواه النظري المُتخصِّص. وأشار ألتوسير إلى إمكانية تلخيص التحليل النفسي في ثلاث نقاط: (أ) كممارسة (العلاج التحليلي)، (ب) كأسلوب (منهج العلاج) يُؤدِّي لحدوث عرضٍ مُجرَّد ذي بناءٍ نظري، (ج) كنظريةٍ مرتبطة بكلٍّ من الممارسة والأسلوب. يُشير ألتوسير إلى أن هذه الوَحدة الكاملة العضوية العملية التقنية النظرية بمثابةِ تذكيرٍ ببنيةِ كلِّ فرعٍ علمي، مضيفًا أن الأفكار التجريدية الخاصة بالتحليل النفسي هي المفاهيم العلمية الحقيقية لموضوعهم (اللاوعي).

أشار باشلار (١٩٩٩، صفحة ١٤٦) إلى أن المعرفة بمنزلة ضوءٍ، دائمًا ما يترك ظلالًا، مضيفًا أن كل أنواع المعرفة في التحقيق العلمي هي بمثابةِ إجابةٍ لسؤال؛ فلو لم يكن هناك أسئلة، لا يمكن أن تكون هناك معرفةٌ علمية. عندما شغل باشلار كرسي أستاذ تاريخ العلوم في جامعة باريس عام ١٩٤٠، الذي كان حتى ذلك الحين يُسيطِر عليه أنصار الفلسفة الوضعية، عَرضَ رؤيته الثورية للعلم، ليس كظاهرةٍ لتجربة ولا كعمليةٍ توثيق، بل كعمليةِ بناء، وهو ما يحمل إشارةً ضمنية أيضًا إلى وجودِ رؤيةٍ لدى العالِم مرتبطةٍ في حد ذاتها بالنموذج المُنشأ.

إن تدوينَ تاريخِ أيِّ نظريةٍ هو تدوينٌ لتاريخ التردُّدات التي يقع فيها العالِم (كانجيليم، ١٩٧٩). ويُشير باشلار إلى أن تاريخ العلم هو تاريخ الأفكار؛ ولاشتقاق المعنى لأيِّ مفهوم، ينبغي النظر إلى السياق الذي يُوجد فيه (١٩٩٩، صفحة ١٧٧).

ليست الكلمة كالمفهوم؛ فالإلمام بموضوعٍ معرفي لا يتحقق فقط من خلال ملاحظةِ هذا الموضوع، لكنه يتحقق من خلال بناءِ مفهومٍ يدور حول هذا الموضوع (المصدر السابق، صفحة ١٨٤).

يقع التحليل النفسي داخل هذه الرؤية للعالم. ورغم أن فرويد استعان بالميادين المُتعدِّدة للمعرفة في زمنه، فإن التحليل النفسي مرتبطٌ جوهريًّا برؤيته للطبيعة البشرية؛ مما يُؤسِّس لانفصالٍ حقيقي عن المعرفة السابقة؛ فاللاوعي مجهولٌ بالأساس ويتم الوصول إليه من خلال عمليةِ بناء. وفرويد أيضًا دائمًا ما يُراجِع أفكاره، مُحدثًا انفصالاتٍ معرفيةً داخل مجموعة نظرياته (النماذج المُتعدِّدة التي افترضها للعقل). وعَزلُ أيِّ جانبٍ من تفكيره يعني تجاهُل هذه العملية المستمرة من التطوير والتغيير.

أَعتقِد أن كل المُساهِمين في هذا الكتاب يُواصلون إحياء هذا التقليد الفرويدي الجوهري، من خلال فهمهم العميق للأفكار والمفاهيم الفرويدية، وتعميقهم لمعناها، وتعزيز عملية التفكير من خلال إبداعهم الخاص.

هوامش

(١) سيتم تناوُل هذا الموضوع تفصيليًّا في الجزء الخاص ببيرلِبرج (في موضعٍ قريب).

الجزء الأول

المرحلة المبكرة

الفصل الأول

«آنا أو: رؤيةٌ جديدة ومُنقَّحة للحالة المَرضية الأُولى»

رونالد بريتون

> إذا كان لأحدٍ فضلٌ في ابتكار منهج التحليل النفسي، فإن هذا الفضل لا يعود إليَّ ... فقد كنت طالبًا أخوض اختباراتي النهائية بينما كان طبيبٌ نمساوي آخر، هو د. جوزيف بروير، يُطبِّق هذا المنهج للمرة الأُولى (فيما بين عامَي ١٨٨٠–١٨٨٢) على حالةٍ لفتاةٍ تُعاني من الهستيريا ... ستجدون تاريخ هذه الحالة وعلاجها مُوضَّحَين تفصيلًا في كتاب «دراسات حول الهستيريا» [١٨٩٥] الذي نشرناه أنا وبروير لاحقًا. (فرويد، ١٩١٠، صفحة ٩)

كانت الفتاة التي أَطلَق عليها بروير وفرويد آنا أو هي دراسة الحالة الأُولى في كتابهما المشترك ١٨٩٥. وقد استخدمها فرويد مُجدَّدًا في محاضرته الأُولى بين المحاضرات الخمس التي ألقاها حول التحليل النفسي في جامعة كلارك، بورشستر، بولاية ماساتشوستس عام ١٩٠٩. وعقب ذلك بخمسِ سنوات، أثناء كتابة «عن تاريخ حركة التحليل النفسي»، بدأ فرويد حديثه مُجدَّدًا بحالة آنا أو، لكنه هذه المرةَ أوضح أن قصة مرضِ آنا أو وعلاجها تخُص بورير، إلا أن الاستنتاجات التي استُخلِصَت من الحالة وأدَّت إلى ظهورِ منهج التحليل النفسي تخُص فرويد.

يُوجد أَمرٌ ما جوهري، على ما يبدو، في هذه الحالة يجذب الأجيال اللاحقة من المُحلِّلِين. على سبيل المثال، يَتناوَل مايكل بالينت حالةَ آنا أو كي يصف حالةَ نكوصٍ خبيث (بالينت، ١٩٦٨، الصفحات من ١٣٩–١٤٧). وكما هو واضح، كان فرويد يعود مرارًا إلى حالةِ آنا أو في عقله عند التأمُّل في نظرياته، وقد علَّق، بعد عشرين عامًا من مُعايَنة الحالة، زاعمًا أن أي شخصٍ سيقرأ تقرير بروير «سيُدرك على الفور ما به من رمزيةٍ جنسية، وسيُلاحظ حالةً أوليةً متكاملة مما نُطلِق عليه اليوم «التحويل»» (فرويد، ١٩١٤، صفحة ١٢). ثَمَّة تغييران آخران مُهمَّان في النظريات التي طرحها فرويد بعد عشرين عامًا من نشرِ كتاب «دراسات حول الهستيريا»؛ ففي ذلك الوقت، أرجع فرويد جميع الظواهر الهستيرية إلى مشهدٍ في الذاكرة، أو «صدمة». وبعد عشرين عامًا كتب يقول:

> إذا كان مرضى الهستيريا يَعزون أعراضهم إلى صدماتٍ تخيُّلية، فإن حقيقةً جديدة تبرُز ها هنا وهي أنهم يختلقون تلك المَشاهد في خيالهم، وهذا الواقع النفسي يقتضي أخذه في الاعتبار جنبًا إلى جنبٍ مع الواقع العملي. (فرويد، ١٩١٤، الصفحات ١٧–١٨)

ثَمَّة اكتشافٌ آخرُ جديد ظهر مُنذُ عام ١٨٩٥ وهو الوجود الكلي للجنسانية الطفلية، وحقيقة أن استعدادًا وراثيًّا لدى بعض الأفراد أدَّى إلى استبعاد الصدَمات من التجربة التطوُّرية المعتادة (المصدر السابق، صفحة ١٨). إذن فقد جاء اكتشافُ اثنَين من ركائز التحليل النفسي، هما الواقع النفسي والجنسانية الطفلية، عقب تلك الرؤى الأُولى بشأن الهستيريا، ويمكن إيجادُ كلٍّ منهما عند إعادة النظر في حالةِ آنا أو. عندما ننظر إلى رؤية بروير للحالة من منظور التحليل المعاصر، نرى شيئًا مختلفًا تمامًا عما تَوصَّل إليه، لكننا نُميِّز أيضًا الموضوعات التي تناوَلَها؛ لأن الظاهرة لا تزال كما هي، ولأن رؤيته الدقيقة تُمكِّننا من دراستها بمعزلٍ عن استنتاجاته.

إذن عندما نُعيد النظر في الحالة، هل سنتمكن من استخلاص المزيد منها؟ لدينا مَيزتان لم يَحظَ بهما القُراء الأوائل للنص؛ إحداهما بالطبع هي التطوُّر الإضافي الذي طَرأَ على أفكار التحليل النفسي في السنوات الأخيرة، والأخرى هي ما نمتلكه الآن من معرفةٍ أكبرَ عن الحالة الفعلية؛ فكلما زادت معرفتنا بما «لم» يُفصَح عنه فيما يخص العلاج بكتاب فرويد وبروير، اتضَح مدى تأثيرها العميق على فرويد في السنوات اللاحقة؛ فالقصة «حسبما يعرفها فرويد» لم تُروَ بالكامل في دراسة الحالة التي قدَّمها بروير

عن آنا أو. وما نعرفه الآن عن الحالة يبدو أكثرَ منطقيةً من منظور التحليل النفسي الحديث. وأَودُّ التأكيد على أن التفاصيل التي لم تَرِد في تقرير بروير عن الحالة كانت معروفةً لدى فرويد، وأنه كان على علمٍ بالتطوُّرات اللاحقة في حياة بيرثا بابنهايم؛ إذ كانت زوجته صديقةً لها. وفي وقتِ نشرِ مُؤلَّفهما المشترك في عام ١٨٩٥؛ أي بعد ثلاثة عشر عامًا من نهاية العلاج، كان كلاهما يعلم أن بيرثا على ما يُرام إلى حدٍّ معقول وتعيش في فرانكفورت.

في نوفمبر عام ١٨٨٢، سمِع فرويد، بينما كان لا يزال طبيبًا حديث التخرُّج في السادسة والعشرين من عمره، عن تفاصيلَ طبيةٍ حول هذه الحالة من بروير، بعد خمسةِ أشهرٍ من توقُّف العلاج. فلو كانت معرفته بالحالة قد ظلَّت عند هذا الحد، لكانت هذه المعرفة كفيلةً بإمداده بالمادة التي كان يحتاج إليها لصياغه نظرياته الأُولى حول الحياة العقلية غير الواعية والكبت والتحوُّل. غير أننا نعرف الآن أن بروير قد أَمدَّ فرويد بقدْرٍ أكبر بكثيرٍ من المعلومات عن الحالة في سياقٍ وديٍّ مُتحرِّر وغيرِ رسمي بينما يتناولان العشاء وحدهما وَسطَ جوٍّ من الاسترخاء في إحدى ليالي الصيف الحارَّة بفيينا عام ١٨٨٣. كشف بروير في حوارهما عن الدراما النفسية الجنسية التي وَقعَت في أثناء العلاج، وربما يكون قد منح فرويد المادة الخام لنظرياته حول عقدة أوديب، والتماهي، والتحويل، والتحويل المضاد، والتَّكرار القهري، والأداء التمثيلي. يطرح فرويد في الجزء التلخيصي من كتاب «دراسات حول الهستيريا» أَوَّل رأيٍ له عن ظاهرة «التحويل» التحليلية النفسية: «تشعر المريضة بالخوف عندما تكتشف أنها تقوم بتحويل الأفكار المُؤلِمة التي تنبُع من محتوى التحليل إلى الشخص الطبيب المعالج لها» (فرويد، ١٨٩٥، صفحة ٣٠٢). لا يُشير فرويد في هذه الفقرة إلى علاجِ حالة آنا أو، لكن من الواضح الآن أنها كانت في ذهنه وقت الكتابة. وللأسف، لم يَستمِد بروير من الحالة أيَّ رؤًى مُحتمَلة مماثلة؛ إذ ظل فيما يبدو في حالة صدمةٍ حادَّة جرَّاءَ التجربة وعَجزَ عن الاستفادة منها؛ فنجده في خطابٍ كَتبَه عام ١٩٠٧ يشرح لأحد السائلِين عن سبب توقُّفه، بعد حالة أنا أو، عن اتباع منهجٍ تحليلي مع حالات العُصاب وتحويلها إلى فرويد:

> لقد تعلَّمتُ الآن الكثير، وجزءٌ كبير مما تعلمت كان ذا قيمةٍ علمية، لكن الدرس العملي المُهم هو استحالة أن يتمكَّن «الممارس العام» من علاج حالةٍ كتلك دون أن يتعرَّض نشاطه ومسار حياته لدمارٍ كامل. وقد قطَعتُ على نفسي عهدًا

آنذاك ألَّا أُعرِّض نفسي أبدًا لمحنةٍ كهذه مُجدَّدًا. (جروبرش سميتيس، ١٩٩٧، الصفحات ٢٦–٢٧)

حتى بعد مرور ثلاثة عشر عامًا على العلاج، بدت جميع التفاصيل المحيطة بالحالة وقت نشرها عامَ ١٨٩٥ مشبعةً بكثافةٍ بدلالات التحويل والتحويل المضاد. حتى اختيار آنا كاسمٍ مُستعار لبيرثا بابنهايم يبدو ذا دلالةٍ خاصة؛ فقد أطلق فرويد الاسم نفسه على صُغرى بناته في وقتٍ لاحق من العام نفسه، ١٨٩٥. ويعتقد ديديه أنزيو (١٩٨٦، صفحة ١٣) أن الأرملة آنا ليشتهايم هي من أَسمَت كلًّا من آنا فرويد وآنا أو على اسمها، بل هي أيضًا المريضة التي أخفى فرويد هُويتها تحت اسم «إيرما» في حُلمه الشهير حقنة «إيرما». أَمَّا إليزابيث يونج-برويل، فتزعُم في سيرتها لآنا فرويد أن شخصية «إيرما» هي تجسيدٌ مُلخَّص لكلٍّ من آنا ليشتهايم وإيما إيكشتاين، المريضة التي تجاهل فرويد مُشكلةً مرضية لديها نَتجَت عن العلاج وكادت أن تَتسبَّب في وفاتها؛ وذلك بسبب مثلنته لفيليس الطبيب المُعالِج لإيما، والذي ترك قطنةً طبية في أنفها (يونج-برويل، ١٩٨٨). إذا كان ذلك صحيحًا، يصبح حضور «إيرما» في حلم فرويد تجسيدًا للتحويل المضاد لمشاعر الانجذاب الجنسي، والمخالفات الطبية، والتحرُّر من وهم التصوُّرات المثالية عن الأصدقاء، وحمل زوجة فرويد. كانت تلك العوامل كافةً حاضرةً في علاج بروير لآنا أو، وكانت معروفةً لفرويد في ذلك الوقت، وكان على علمٍ كذلك بالتحويل الشهواني من عمله، وبدلالة التحويل المضاد الشهواني من تحليله الذاتي. وقد أَسَّر فرويد لاحقًا إلى كارل أبراهام بتداعياتٍ حرة لم يكشف عنها حول حلمه، «حقنة إيرما»، وتفسيره الخاص له؛ فكتب يقول: «يَتخفَّى جنون العظمة الجنسي في طيَّات هذا الحلم؛ فالنساء الثلاث ماتيلد وصوفي وآنا هم الأُمهات الروحيات لابنتي، وفي الحلم كلُّهن ملكي» (أبراهام وفرويد، ١٩٦٥، صفحة ٢٩). ولم يكن مسموحًا لتلك المعلومات الشخصية للغاية غيرِ المُصرَّح بها بالتحوُّل إلى مصدرٍ مُحبِط للعار لدى فرويد، كما حدث لبروير السيئ الحظ، بل أَصبحَت رؤيةً مهمة وأساسًا لأفكار فرويد الدائمة التطوُّر بشأن التحويل والتحويل المضاد:

إن حقيقة ظهور التحويل في شكله الجنسي الفَظ، سواء كان عاطفيًّا أو عدائيًّا، في كل علاجٍ لحالة عُصاب، رغم كون التحويل أمرًا غيرَ مرغوبٍ فيه أو لا يُستحث حدوثه من قِبل الطبيب أو المريض، طالما بدَت لي البرهانَ الذي لا يُرد على أن مصدر القُوى الدافعة للعُصاب يكمن في الحياة الجنسية … وقد ظلَّت

هذه الحجة، على حدٍّ علمي، هي الحُجة القاطعة، بالإضافة إلى النتائج الأكثر تحديدًا للأعمال التحليلية. (فرويد، ١٩١٤، صفحة ١٢)

كان عدم تصريح فرويد قَطُّ بتلك المعلومات يعني أن بعضًا من أهم مصادر قناعاته ومعتقداته قد ظلَّت في طي الكتمان. لقد أَسرَّ تفاصيلَ غيرَ مُعلَنٍ عنها عن حالةِ بروير وبابنهايم إلى إرنست جونز، الذي ضَمَّنها بدوره في السيرة التي كَتبَها عن حياة فرويد (جونز، ١٩٥٣، المجلد ١، الصفحات ٢٤٦–٢٤٨). غير أنه في إحدى التفصيلات المحورية تَذكَّر جونز القصة على نحوٍ خاطئ؛ إذ زعم حدوثها في وقتِ حملِ زوجة بروير؛ فهذا الحمل لم يعقُب إنهاءَ علاجِ حالةِ بيرثا بابنهايم، كما كتب جونز، بل كان قائمًا وقت العلاج (إيلينبرجر، ١٩٩٣، صفحة ٢٦٤)؛ فقد وُلِدَت الطفلة يوم ١١ مارس ١٨٨٢ بينما كانت آنا أو لا تزال تخضع للعلاج. وقد أُطلق على الطفلة اسم دورا، وهو اسمٌ آخر كُتب له أن يُطلَق على حالة أخرى من حالات التحليل النفسي الكلاسيكية. وكما سأُشير لاحقًا في هذه الدراسة، فإن تصحيح توقيت الحمل (وهو حملٌ لا بد أن بيرثا بابنهايم كانت على علمٍ به) يُمكِّننا من فهم الحالة على نحوٍ أفضل.

هل يمكننا، بعد مُضي مائةِ عام، قراءة هذه الحالة الأُولى، واستخلاصُ مزيدٍ من المعلومات منها أو إضافةِ أيٍّ جديدٍ لها؟ أعتقد ذلك، وأَودُّ استخدام العلاج النفسي الذي خضعت له بيرثا بابنهايم للإشارة إلى أن من السمات الرئيسة للهستيريا استخدام التماهي الإسقاطي من قِبل المريض لكي يُصبح في الخيال أَحد طَرفَي المشهد الجنسي الأَوَّلي أو كليهما.

إن تفعيل هذا التماهي الخيالي في الحياة اليومية أو في التحليل من شأنه أن يخلق دراما جنسية، أو يُضفي على جميع الأحداث اليومية سمةً شهوانية؛ فيمنح جنسانية مريض الهستيريا طابعًا مسرحيًّا. وقد كتب فرويد في ذلك قائلًا إن «كوني حاضرًا كمُشاهدٍ مهتم ... لمسرحية يُحدِث في نفوس البالغِين ما يُحدِثه اللعب في نفوس الأطفال الذين تتحقق، عَبْر هذه الطريقة، آمالُهم غير الأكيدة في التمكُّن من فعل ما يفعله الكِبار» (فرويد، ١٩٠٥، صفحة ٣٠٥). وقد أَوضحَت ميلاني كلاين، في مَعرِض تعليقها على التحليل النفسي للأطفال، معنى «ما يفعله الكبار» الذي تَتجمَّع حوله آمال الأطفال؛ فكَتبَت تقول: «في عددٍ من الحالات بدا واضحًا أن تلك المَشاهِد المسرحية ... [و] ... الأداء التمثيلي تَرمُز إلى الممارسة الجنسية بين الأَبوَين، بينما يَرمُز الاستماع لتلك الممارسة أو مشاهدتها إلى الملاحظة الفعلية أو في الخيال» (كلاين، ١٩٢٣، الصفحات ١٠١–١٠٢).

إن مرضى الهستيريا، كما أرى، ينغمسون في الفعل التمثيلي؛ أي يصعدون على خشبة المسرح، مثل بعضٍ من أطفال كلاين في غرفة اللعب، ويلعبون دَور أحد الوالدَين عَبْر تخيُّلٍ يتضمن تماهيًا إسقاطيًّا.

قبل مواصلة الحديث، أرغب في استعراضِ قصةِ بيرثا بابنهايم.[١] يُوجد بمدينة فرانكفورت مُتحفٌ مُخصَّص لبيرثا بابنهايم، ويقع في البيت الذي كان يومًا محل إقامتها وحيث أَسَّسَت حضانةً للأطفال ومدرسةً للخدمة الاجتماعية. وقد أَسَّسَت كذلك منظمةً نِسويةً يهودية عام ١٩٠٤، تأثُّرًا بكتاب الكاتبة الإنجليزية ماري وولستونكرافت «دفاع عن حقوق النساء». يُنظر إلى بيرثا حاليًّا في ألمانيا بوصفها من المُبتكِرين العِظام في مجال رعاية الطفل وبطلةً تمكَّنَت بجهودها الشخصية من جلب ما يزيد عن مائةِ طفلٍ يتيمٍ من روسيا عقب المذابح التي ارتُكِبَت في حق اليهود هناك. وقد اتَّسَمَت بالحيوية والكفاءة بوصفها المديرة، المُتسلِّطة إلى حدٍّ ما، لدارٍ للأيتام حيث عيَّنَت أُمها كطاهية. ويبدو أن هذا التسامي قد حال دون ظهور أعراضها المَرَضية مُجدَّدًا لكنه حَرمهَا من ممارسة أي حياةٍ جنسية، وكوَّن لديها تصميمًا على حماية طُلابها والأطفال الذين تشملهم برعايتها من التحليل النفسي. قبل وفاتها بقليلٍ عامَ ١٩٣٦ صرَّحَت قائلة: «لو كان في العالم الآخر ذرةُ عدل، فستضع النساء القوانين ويضع الرجال الأطفال.» وقد تُوفِّيَت عام ١٩٣٦ عن عمرٍ يناهز ٧٧ عامًا.

أصبحت آنا أو، حالة الهستيريا الشهيرة في فيينا الآن، مريضةً نفسية عامَ ١٨٨٠. كانت تبلُغ من العمر آنذاك ٢١ عامًا، وتتسم بالذكاء والجاذبية، لكن حياتها خلَت من ارتباطاتٍ عاطفية أو، حسب زعم بروير، أيِّ أفكارٍ جنسية. كانت تنتمي لعائلةٍ ثرية ذات نفوذٍ واتصالاتٍ من اليهود الأرثوذوكس الذين اندمجوا جيدًا في الثقافة الألمانية. كانت لها أختٌ تصغرها بعشر سنوات، تُوفِّيَت في مراهقتها، وأخٌ على قيد الحياة يصغرها بستة عشر شهرًا. كانت علاقتها بأمها تكتنفها صعوبات ومشكلاتٌ جمَّة، أَمَّا علاقتها بأبيها فكانت علاقةً وثيقة تتسم بالارتباط المُتبادَل. وقد وصفها بروير بأنها مُدمنةٌ لأحلام اليقظة السرية التي كانت تُطلِق عليها «مسرحها الخاص». كانت في مراهقتها فتاةً عنيدة ذات ميولٍ معادية للدين وحبٍّ «للمسرح». وبالإضافة إلى اللغة الألمانية، كانت تتحدث الإنجليزية والفرنسية والإيطالية. لم أستطع التأكُّد من وجودِ مربيةٍ أو معلمةٍ إنجليزية لها في طفولتها المبكرة، والسبب الذي يدفعني إلى الظن بوجود امرأةٍ إنجليزية في حياتها

سواء كانت مربية، أو معلمة، أو حتى عشيقة لوالدها هو الأهمية المحورية التي لعبها استخدام اللغة الإنجليزية في قصتها عندما فَقدَت القدرة على التحدُّث بالألمانية.

سأروي الآن قصة علاجها، بدءًا من تَولِّي بروير حالتها. كانت آنا أو تعاني لوقتٍ مضى من «ألمٍ عصبي بالوجه لا تشخيص له». وقد فحصها بروير في نوفمبر ١٨٨٠؛ نظرًا لإصابتها بـ «سُعالٍ هستيري» شديد بينما كانت تُمرِّض أباها المريض الذي كان يُعاني من عدوى صدرية. وفي يوليو من العام نفسه تفاقم مرض الأب وتشارَكَت مَهامَّ تمريضه مع أمها، ما يعني أنها كانت تقضي الليالي بجواره في حجرة الأبوَين بينما تحصل على قسط من الراحة في فتراتِ ما بعد الظهيرة في غرفتها. لم تكن تُمارس أي نشاطٍ آخر سوى تمريض أبيها ليلًا والاسترخاء في فترةِ ما بعد الظهيرة والاستغراق في حالةٍ أشبه بالغيبوبة مساءً. وفي أثناء هذه الفترة غزا الضعف جسدها وأُصيبَت بفقدان الشهية العصبي.

تحت تأثير السُّعال الشديد الذي أُصِيبت به استدعت العائلة د. بروير، وقرَّرَت وقف مشاركتها في مهامِّ تمريض أبيها، ما أَدَّى في النهاية إلى منعها من دخول غرفته، لكن ليس واضحًا لنا من كان وراء ذلك. ما يبدو لنا واضحًا هو أن أمها وأخاها منعاها من التمريض، ليُحرِّما عليها لاحقًا دخول غرفة أبيها. تَدهوَرَت الأوضاع سريعًا إثر هذا المنع، وفي ديسمبر اعتَكفَت في سريرها وظَهرَت عليها أعراض الحَوَل وشللٍ في مناطقَ متنوعةٍ من الجسم إلى جانب فقدان القدرة على الحديث على نحوٍ طبيعي. في البداية استكشف بروير أعراضها من منظورٍ عصبي، لكنه استنتج في النهاية عدم وجود أي سببٍ تشريحي لهذه الأعراض. بدا التشخيص الطبي في ذلك الوقت محاكاةً هستيرية للسكتة الدماغية. وفي غضون ذلك ظهر لدى آنا «حالتان منفصلتان تمامًا من الوعي»، ما تطلَّب من بروير تركيز انتباهه تمامًا على حالتها. في إحدى هاتَين الحالتَين كانت «حزينةً وقلقةً لكن سلوكها كان طبيعيًّا نسبيًّا»، وفي الحالة الأخرى «كانت تُهلوِس وكانت سيئة السلوك». عندما كان ذهنها يصفو، كانت تتحدَّث عن «ظلمةٍ دهماء» داخل عقلها، وعن عجزها عن التفكير وتحوُّلها إلى شخصٍ أعمى وأَصَم، منقسم إلى ذاتَين؛ ذاتٍ حقيقية وأُخرى شرِّيرة تُجبِرها على السلوك السيئ. كذلك كانت حالتها المزاجية متذبذبةً ما بين ارتفاع الروح المعنوية وبين المقاومة العنيدة والقلق البالغ والهلاوس المُخيفة لثعابينَ سوداء. كانت تَتسلَّل من سريرها ليلًا وتذهب إلى غرفة الأبوَين، وفي إحدى المرات ضبطها أخوها وهي تَسترِق السمع عبر الباب، وأخذ يهزُّها في غضب، ورَبطَت لاحقًا بين هذه الواقعة وبين إصابتها بصممٍ هستيري مُتقطِّع.

تَحوَّل اهتمامُ بروير البالغ بأعراضِ آنا المَرَضية من فحصِ أطرافها إلى تحليلِ ما تُعانيه من صعوباتٍ كلامية؛ فقد كانت تَتحدَّث في البداية بلغةٍ ألمانية غيرِ مترابطةٍ ومليئةٍ بالأخطاء النحوية، ثم أصبح حديثها غيرَ مفهومٍ تقريبًا ويمزج بين أربع لغات أو خمس. ظل بروير يتابع هذا العَرَض في صبر بوصفه لُغزًا لُغويًّا، إلا أنه تحوَّل في دراسته إلى منظورٍ نفسي عندما أصبحت بكماءَ طَوالَ أسبوعَين. قدَّم بروير حينئذٍ ما كان على الأرجح تفسيره الأول للحالة؛ إذ ربط بين صَمتها وبين شعورها بالألم والغضب نتيجة لشيءٍ ما قاله والدها تَسبَّب في انزعاجها وإغضابها. وقد أدَّى ذلك إلى تحسُّنٍ كبير في أعراضها العصبية الزائفة وتغيُّرٍ في استخدامها للغة؛ فأَصبحَت تتحدَّث الإنجليزية فقط، ما كان يعني فهم بروير لحديثها دون المُمرِّضة. واختفى الحوَل من عينَيها وأَصبحَت الآن قادرةً على رفع رأسها. وبعد مُضيِّ شهر، تحديدًا في الأول من أبريل عام ١٨٨١، استطاعَت النهوض للمرة الأُولى، ثم «في الخامس من أبريل تُوفِّي أبوها الحبيب» (بروير، ١٨٩٥، صفحة ٢٥)، ولم تكن آنا قد رأته لفترةٍ وأُخفي عنها تدهور حالته.

كان رَدُّ فعلها إزاء واقعة الوفاة عنيفًا وجنونيًّا، لا سيما تجاه أُمها، وتلا ذلك حالةٌ من الذهول لمدة يومَين. ومنذ ذلك الحين أصبح وجود أمها أو أخيها يُثير لديها حالاتِ اضطرابٍ شديدة. وباستثناء بروير لم تعُد تستطيع تمييز الأشخاص، بل لم تكن ترى من حولها في بعض الأحيان. كان الوقت الوحيد الذي تعي فيه ما حولها حين تكون مع بروير، الذي أَصبَح أيضًا الشخص الوحيد القادر على إطعامها. وفي هذا الوقت وَضَعا نمطًا استمر بطريقة أو بأخرى طوال فترة العلاج؛ فكانت تشعر بالنعاس في فترة ما بعد الظهيرة، وتخلُد إلى نومٍ عميق مع غروب الشمس، ثم تقضي ساعاتٍ في «التحدُّث طويلًا بكلِّ ما بداخلها» لبروير، حتى تُصبِح في النهاية «هادئةً ومبتهجة» (المصدر السابق، صفحة ٢٧).

قُوطع هذا التحسُّن السريع، أو الشفاء بالتحويل كما قد نَصِفه الآن، مع إشراك بروير طبيبًا آخر في العلاج قبل أن يسافر لـ «عدة أيام». كانت آنا لا ترى هذا الطبيب ولم تعترف بوجوده، ووصف بروير هذه الحالة بأنها إحدى «هلاوسها السلبية»؛ كان هذا الطبيب هو د. ريتشارد فون كرافت-إبينج، الطبيب النفسي الشهير (إيلينبرجر، ١٩٩٣، صفحة ٢٦٧). وبدلًا من الحديث المليء بالضحك مع بروير الذي أقنعها بترجمة نصٍّ فرنسي إلى الإنجليزية جهرًا، أشعل كرافت ورقةً ونَفخَ الدخان في وجهها، لتُهرَع إلى الباب كي تأخذ المفتاح، وبعد أن فقدت وعيها أُصيبت بـ «نوبةٍ قصيرة من الغضب والقلق الشديد».

عاد بروير بعد إجازته القصيرة ليجد حالتها قد ساءت كثيرًا؛ إذ فقدت شهيتها تمامًا، وأضحت نوبات «الغياب الهلوسية»، التي كانت فيما مضى عبارةً عن «تراكيبَ شعريةٍ بلا قواعد»، هلاوسَ مُرعبة لـ «جماجم». غير أن هذا الوضع قد تغيَّر مع استئناف بروير لجلساته معها، وتحوَّل نمط التفاعُل بينهما إلى حالةٍ من الهلاوس أثناء النهار، ثم نعاس بعد الظهيرة، والحالةُ التي كانت تُطلَق عليه «تَشوُّش» وأسماها بروير تنويمًا مغناطيسيًّا ذاتيًّا. في هذه الحالة الأخيرة، كانت تروي لبروير مضمونَ هلاوسها النهارية، وبعد ذلك يصفو ذهنها وتُصبِح مبتهجة فتعكُف على الكتابة أو الرسم حتى وقتٍ متأخر من الليل.

بَدأَت ماتيلد بروير، بحسب فرويد، تشعر بالغضب والغَيرة من الوقت الذي يُمضيه زوجها مع مريضته أو في الحديث عنها. ربما لعِبَت محاولات بروير لقضاء المزيد من الوقت بعيدًا عن آنا دَورًا في الأحداث التالية التي أدَّت به إلى احتجاز آنا أو في المستشفى على غير رغبتها في ٧ يونيو ١٨٨١. أظهرت آنا ميولًا انتحارية على نحوٍ مُتقطِّع أثناء النهار عند غياب بروير؛ ومن ثَمَّ جرى وضعها «دون خداع بل بالقوة» في فيلا بمصحة انتزردورف، خارج فيينا، وكان بروير يزورها كلَّ ثلاثةِ أيامٍ لإجراء ما أَصبحَت تُطلِق عليه «العلاج الكلامي» أو «تنظيف المدخنة» (إيلينبرجر، ١٩٩٣، صفحة ٢٦٨). لم يلحظ بروير «التورية» في الوصفِ الأخير، تنظيف المدخنة، مثلما لم يلحظ باقي الرموز الجنسية، لكن ما تلا ذلك من حملٍ وولادةٍ هستيرية، اللذَين عرف فرويد بحدوثهما، أكَّدا عدم إغفاله للتورية.

في المصحة تولى د. هيرمان بريسلاور حالة آنا، وكان على عكس بروير؛ إذ لم يُحاوِل التواصُل معها أو التأثير عليها، ولجأ في علاجها إلى عقاقيرَ أَصبحَت في النهاية معتمدةً عليها. بعد إدخالها المصحة لم تذُقْ للطعام أو النوم طعمًا طَوالَ ثلاثةِ أيام، وحاوَلَت الانتحار مرارًا وهشَّمَت النوافذ ودَخلَت في حالاتٍ من الهلوسة. وكان بروير قادرًا على تغيير حالتها الذهنية أثناء زياراته عبر الاستماع إلى قصصها، ولكي يجعلها تتعرَّف عليه، كان عليه أن يأخذ بيدَيها ويُقنِعها بسرد قصصها له مبتدئًا بالحديث باللغة الإنجليزية على نحوٍ نمطي (المصدر السابق).

عندئذٍ أصبح نمطُ سلوكِ آنا أو مرتبطًا على نحوٍ أوضح ببروير، وهو النمط الذي وصفه على النحو التالي: «اعتدتُ زيارتها في المساء وهو الوقت الذي أعلم أنها تكون فيه في حالةٍ من النوم المغناطيسي، وحينها كُنتُ أُريحها من مخزون الخيالات الذي راكَمَته منذ آخرِ زيارةٍ لي.» عقب الزيارة كانت تهدأ وتبتهج، لكن حتى يحين موعد الزيارة الثانية

كانت تزداد تقلُّبًا وحدَّة. كان بروير مقتنعًا أن سبب ذلك يرجع ببساطة إلى «مخزون الخيالات» المُتراكِم، الذي كان هو وحده من يعرف كيفية إخراجه والتخلُّص منه. وقد تناول ذلك لاحقًا بالتفصيل والشرح في نظريته حول التطهُّر.

مع حلول شهر أغسطس وبينما كانت آنا لا تزال في المصحة، سافر بروير في إجازةٍ لمدةِ خمسةِ أسابيع. وعند عودته من إجازته «القصيرة»، وجدها في حالةٍ يُرثى لها؛ إذ كانت في حالة جمود وكسل، وناقمة، ورافضة التفاعل. وقد أكَّد ذلك لبروير اعتقاده بأنها تعاني من «عقدٍ خيالية» مُتراكِمة، يمكن التخلُّص منها عن طريق التعبير اللفظي إمَّا بالتنويم المغناطيسي الذاتي أو المُستحَث. وقد حل المشكلة بإعادتها إلى فيينا لمدة أسبوعٍ وتنظيم جلسةٍ معها كل مساء، بعد ذلك استُؤنف النمط السابق للعلاج في المصحة.

عادت آنا إلى فيينا مع حلول خريف عام ١٨٨١ وقد تحسَّنَت حالتها كثيرًا. واستمر هذا التحسُّن المطرد حتى ديسمبر ١٨٨١، عندما تدهورت حالتها على نحوٍ ملحوظ وأَصبحَت أكثر كآبة وانفعالًا، لتبدأ ها هنا مرحلةٌ جديدة في حالتها؛ إذ أَصبحَت حالاتُها العقلية تتبدل يوميًّا. في إحدى تلك الحالات كانت تعتقد أن الوقت الحالي هو شتاء عام ١٨٨٠ / ١٨٨١، على الرغم من كونه شتاء ١٨٨١ / ١٨٨٢. وقد بدأ هذا في ذكرى مرور سنةٍ على اليوم الذي حُرِمَت فيه من رؤية أبيها. وقد شارَكَت أحداث ذلك الشتاء المُعادة مع بروير، الذي أصبح يراها الآن مرتَين يوميًّا كي يُمكِّنها من استعادة انطباعاتها من العام السابق إمَّا عَبْر التنويم المغناطيسي الذاتي أو المُستحَث من أجل التخفيف من وطأة الحالة. وقد تَضمَّنَت تلك الانطباعات ظروفَ وفاة والدها، لكنها كانت متركزةً أساسًا على «أحداث ومضايقات عام ١٨٨١»، التي كان بروير جزءًا منها (بروير، ١٨٩٥، الجزء الثاني، صفحة ٣٣).

علينا أن نُذكِّر أنفسنا عند قراءة تقرير بروير عن الحالة عام ١٨٩٥ أنه قد كُتب بعد ١٢ عامًا من انتهاء العلاج، عندما أدرك أنها قد تعافت؛ فبعد عامٍ من انتهاء العلاج، كان بروير لا يزال يعاني، شأنه شأن مريضته السابقة، و«أَسرَّ لفرويد أنها كانت مُشوَّشة تمامًا وأنه يتمنى لو كانت ماتت حتى تستريح من مُعاناتها» (جونز، ١٩٥٣، صفحة ٢٤٧).

علَّق بروير، عدة مرات، أنه عندما يكون موجودًا تكون في حالة من الابتهاج، وعندما يغيب ينتابها القلق، ويُشير كذلك إلى أنه في كل مرة يتركها تتدهور حالتها على نحوٍ ملحوظ. وعندما قرَّر في النهاية أن يزورها يوميًّا، مهَّد ذلك الطريق إلى زيارتَين يوميًّا، لكنه لم يربط بين حالاتها العقلية وبين ارتباطها به، حتى عند استعادته للأحداث.

أمَّا فرويد، وكما هو واضح، فقد نظر إلى الأمر نظرةً مختلفة؛ إذ يُعلِن للمرة الأُولى في مساهمته النهائية في كتاب «دراسات حول الهستيريا» عن مفهوم «التحويل»، وقد فعل ذلك دون الاستشهاد بالمثال الأوضح عليه؛ أي حالة آنا أو (١٩١٠، صفحة ٣٠٢). ولكي يظل متوافقًا مع نظرية بروير، تَقبَّل حالة آنا أو كنموذجٍ لحالةٍ يخبرنا أنه لم يَرَها شخصيًّا من قبلُ قَط، ويقصد حالة «الهستيريا التنويمية». وأضاف فرويد قائلًا: «لقد كانت الحالات التي أتولَّاها، [أيًا كانت]، يتبين أنها هستيريا دفاعية.»

بالنظر إلى المعلومات الأحدث التي كشف عنها إيلينبرجر، يمكننا لفت الانتباه إلى حدثٍ مُوازٍ حجبه إرنست جونز إثر فهمٍ خاطئ من جانبه لتسلسُل الأحداث التي رواها فرويد. كما ذكرتُ سابقًا، أَصبحَت زوجة بروير غاضبةً ونفد صبرها تجاه انغماسِ بروير مع مريضته، وقد أشرتُ إلى أن احتجاز آنا أو في المصحة في يوم ٧ يونيو ١٨٨١ كان نتيجةً لإصرار زوجة بروير أن يقضي زوجها مزيدًا من الوقت معها، وهكذا رحل الزوجان لبضعة أيام، وفي الشهر نفسه حَملَت الزوجة بابنتهما. كانت آنا أو مُقرَّبةً من دائرة معارفِ بروير ولا بُد أنها علِمَت بأَمرِ هذا الحمل، ربما بعد فترة من عودتها من المستشفى إلى منزلٍ جديد بفيينا في خريف ١٨٨١. ووُلِدَت طفلة بروير في مارس ١٨٨٢ بينما كانت آنا أو لا تزال تخضع للعلاج.

في هذا السياق تحديدًا طَمسَت آنا أو الحاضر في الحالات الهستيرية التي كانت تنتابها، وعادت في أحلام اليقظة إلى العيش في العام السابق؛ فأصبحت تَتصرَّف في غرفتها الجديدة كما لو كانت في غرفتها القديمة. وفي ربيع عام ١٨٨٢ الحارِّ عندما كانت طفلة بروير في مرحلة الرضاعة على الأرجح، ظهر لدى آنا أو عَرَض جديد؛ فقد «أصبحت فجأةً عاجزةً عن الشرب» (بروير، ١٨٩٥، صفحة ٣٤)؛ فلم تكن تتناول أي نوعٍ من السوائل وعاشت فقط على الفاكهة مثل البطِّيخ والشمَّام لمدة ستةِ أسابيع، واستمرت على هذا الحال إلى أن أراحتها إحدى الذكريات التي استعادَتها أثناء التنويم المغناطيسي:

> كانت تتذمَّر من مُرافقتها الإنجليزية التي لم تكن تعتني بها، وأَخذَت تصف بكل اشمئزازٍ دخولها إلى حجرة تلك السيدة ذاتَ مرةٍ ومُشاهدتَها لكلبها الصغير، وكان مخلوقًا بشعًا، وهو يشرب من كأسٍ هناك. (المصدر السابق، صفحة ٣٤)

يُركِّز بروير بشدة على هذه الواقعة؛ إذ كانت النموذج الأوَّلي الذي بنى عليه طريقته في إرجاع الأعراض إلى أحداثٍ «صادمة» مُحدَّدة من الماضي؛ فعندما «استعادت» هذه الواقعة بغضبٍ وتقزُّز، انقضى رُهابها من الشُّرب. من وجهة نظرنا التحليلية النفسية، لا يبدو إعادة تفسير رُهاب الشرب هذا كردٍّ فعلٍ إزاء خيالاتها حول زوجة بروير أمرًا بعيد الاحتمال؛ فهي زوجة الطبيب نصف الإنجليزية التي تُعطي للطفل الجديد لبنًا من ثديها. وربما تكون قد شاهَدَت وهي طفلةٌ لم تتجاوز ستة عشر شهرًا أمها وهي ترضع أخاها الحديث الولادة.

في ذلك الوقت دعاها بروير، الذي صار آنذاك يزورها مرتَين يوميًّا، لإخباره بأصلِ كلِّ عَرَض أو تغيُّرٍ مزاجي ينتابها خلال استدعاءِ ذكرى أو خيالٍ ما من الماضي. وقد أَطلَق على هذه الذكريات «نزواتها» في تقريره الأصلي عن حالتها عام ١٨٨٢ (إيلينبرجر، ١٩٩٣، صفحة ٢٦٨). وهكذا، اخترع كُلٌّ من آنا أو وبروير نظرية التطهُّر وعليه اختفت جميع أعراضها.

في مرحلةٍ ما قررت آنا أن علاجها يجب أن ينتهي تحديدًا يوم ٧ يونيو ١٨٨٢، الذي يُوافِق الذكرى السنوية لإيداعها المصحة. أعتقد أن آنا أو ظنَّت أن ذلك هو الوقت الذي حَملَت فيه زوجة بوير في طفلهما الجديد. وهكذا بَلغَت الحالة مرحلة الذروة أو الذروة المزدوجة؛ إذ كانت الذروة الأُولى مع نشر بروير لدراسة الحالة، بينما الذروة الثانية، أو الهبوط المفاجئ، مع ما أَسرَّ به لفرويد في صيف ١٨٨٣.

وقع المشهد الأخير من العلاج الرسمي حسب الموعد المُحدَّد، يوم ٧ يونيو ١٨٨٢. أعادت آنا أو ترتيب غرفتها بحيث تُماثِل غرفة أبيها في مرضه الأخير، ثم مَثَّلَت الهلوسة المُرعبة التي تعتقد أنها كانت البداية لمرضها في خريف ١٨٨٠: كانت جالسة بجوار سرير أبيها عندما رأت ثعبانًا أسود يزحف ناحيته كي يلدغه، وعندما حاوَلَت إبعاده، شُلَّت ذراعها وعندما نظرت إلى يدها، رأت أصابعها وقد تحوَّلت إلى ثعابينَ صغيرةٍ ذات جماجمَ في نهاياتها. وعندما اختفى الثعبان سيطر عليها الرعب، فحاوَلَت الدعاء لكن لغتها الألمانية لم تُسعِفها، فلَجأَت إلى ترتيل أبياتِ شعرٍ إنجليزية للأطفال تَذكَّرَتها في هذه اللحظة. في اليوم التالي لحادثة الهلوسة هذه، أحيا فرعُ شجرة مُعوَج في مُخيِّلتها ذكرى الثعبان وعلى الفور تصلَّبَت ذراعها اليمنى في موضعها. وكانت هذه الذكرى هي سبب أعراضها اللاحقة حسب النظرية الجديدة التي طَرحَها بروير، نظرية الصدمة، والتي أكَّدت فيما يبدو مفهوم التطهُّر أو «تنظيف المدخنة» الذي تَوصَّلا إليه معًا.

بعدما أعادت آنا أو تمثيل هذا المشهد لبروير يوم ٧ يونيو ١٨٨٢، أَصبحَت قادرةً على التحدُّث بالألمانية من جديد، وغادرَتها «اضطراباتُها التي لا تُعد» (المصدر السابق، صفحة ٤٠). عند هذه المرحلة تنتهي الرواية الرسمية لقصة آنا أو. أَمَّا النهاية الأخرى للقصة، فهي تلك التي رُوِيَت لفرويد في صيف ١٨٨٣ والتي أعاد سَردَها لجونز وأيضًا لستيفان زفيج في خطابٍ مُوجَّه له. بعدما غادر بروير آنا أو في آخر جلسةٍ لهما، استُدعي بروير من جديدٍ ليجدها مُشوَّشة وتُعاني من انقباضاتٍ حادة بالبطن، وعندما سألها ماذا بها، أجابته: «سأَلِد الآن طفل دكتور بي.» وقد علَّق فرويد على ذلك بقوله: «في تلك اللحظة كان بروير يحمل المفاتيح في يده ولكنه تركها تسقط»، وفَرَّ هاربًا من الغرفة في رعبٍ تاركًا المريضة إلى زميلٍ له (جاي، ١٩٨٨، الصفحات ٦٦–٦٧).

في الواقع، أدخل بروير آنا أو إلى مصحة بيلفو في مقاطعة كروزلينجن بالقرب من بحيرة كونستانس، وظلَّت هناك حتى أكتوبر ١٨٨٢. وقد احتُجِزَت مراتٍ أخرى في المستشفى لفتراتٍ قصيرة إلى حدٍّ ما إلى أن اصطَحبَتها أُمها لتعيش معها في مسقط رأسها، فرانكفورت، حيث تعافت وظلت بصحةٍ جيدة.

(١) مناقشة حالة آنا أو

أَودُّ الآن تقديم تفسيرٍ لحالة آنا كما أراها. في بحث حول «الواقع واللاواقع في الخيال والأدب القصصي»، أشرتُ إلى أننا كي «نتخيل الأشياء»، نحتاج إلى مساحةٍ عقلية مُتخيِّلة حيث يُمكن أن تقع تلك الأحداث المُتخيَّلة (بريتون، ١٩٩٥، الصفحات ١٢٠–١٢٧)، وهو المكان الذي نُطلِق عليه في اللغة الدارجة «مُخيِّلتنا». وقد ساويتُ هذه المساحة المتخيلة بما أطلقتُ عليه «الغرفة الأخرى» وأشرت إلى كونها في الأصل المكان الذي استمر فيه الموضوع الأَوَّلي في الوجود رغم غيابه ماديًّا. وبما أن أيَّ موضوع، حسبما أشرت، لا يمكن «تخيُّل» وجوده إلا في إطارِ موضوعٍ آخر، فقد كان ذلك الموضوع هو مكان المشهد الأَوَّلي الخفي للطفولة المُبكِّرة.

تلعب غُرف الآخرين و«الغُرف الأُخرى» دورًا بارزًا في حالة آنا أو؛ فقصتها تبدأ في غرفة نوم أبيها، التي أدَّى طردها منها إلى انهيارها. ولو كان لي أن أرسم مُخطَّطًا لحالة آنا وفقًا لهذا الإطار، لَتخيَّلتُ أن البداية كانت من غُرفة نوم الوالدَين مع السُّعال وفقدان

الشهية العصبي والضعف التدريجي الذي أصابها. لقد كوَّنَت آنا، عبر التماهي، توحُّدًا مميتًا مع أبيها المريض؛ فكان سُعالها مرتبطًا بموسيقى راقصةٍ سمِعَتها بينما تجلس بجوار سرير الأب المريض؛ ومن ثَمَّ أصبح سماع موسيقى إيقاعيةٍ يستثير السُّعال. أمَّا هلاوس الثعبان الأسود، فأحسبها رمزًا للموت عَبْر ممارسة الجنس، وأطراف أصابعها التي تحوَّلَت إلى جماجم هي نوعٌ مميت من الاستمناء، وهو ما انقطع مع إبعادها عن أبيها وعن غرفة الأبوَين، أمَّا إصابتها بالشلل التي أعقبت هذا الحدث، فتُعبِّر عن الافتقاد الطفلي للقوة الحركية، بينما تُجسِّد فوضى حركاتها وانقباضاتُ أطرافها المُتيبِّسة صورةً كاريكاتورية مشوهةً للزوجَين الأصليَّين أثناء ممارسة الجنس، بينما كان حديثها انعكاسًا لحركاتِ أطرافها، فكان طفوليًّا ومُشوَّشًا ومُتعدِّد المقاطع.

عند هذه المرحلة، أدَّى ظهور التحويل إلى تغيُّر الموقف؛ إذ أصبح بروير الآن شريكها في ممارسةٍ جنسية رمزية تعويضية على نحوٍ هوَسي، بينما أصبحت أمها وأخوها زوجَي التحويل السيِّئَين اللذَين تمكَّنَت في النهاية من محو وجودهما عبر الهلوسة السلبية. يبدو الآن أن بروير وآنا أو كانا يقطنان «غرفةً أخرى» خياليةً بوصفهما الزوجَين الأصليَّين يرويان «قصصًا خيالية». وانتهت فترة الهدوء والسعادة مع خطرِ رحيلِ بروير ودخول شخصٍ آخر في الصورة، وهو د. كرافت-إبينج.

كافح بروير ومريضته من أجل إعادة التوازُن السابق في مسار العلاج، لكنه اختل من جديدٍ مع إجازة بروير الصيفية التي امتدَّت لخمسة أسابيع. عندما عادت آنا إلى فيينا لكن في منزلٍ جديد، أعادت تأسيس شراكتها مع بروير، إلا أن علاقة آنا الوهمية به تطلَّبَت زيارتَين مُطوَّلتَين يوميًّا. بعدها أصبح لزامًا التعامُل مع ظرفٍ جديد، وهو حمل زوجة بروير وولادة الطفل؛ حينئذٍ محت آنا أو العام السابق عبر العودة إلى علاقتها السابقة مع بروير والإصرار على أنها موجودةٌ في حجرتها القديمة معه. وجاءت ذروة الأحداث مع حلول الذكرى السنوية لما تَصوَّرَت آنا أو أنه تاريخُ حملِ زوجة بروير، حين عَمدَت، في نسختها من حجرة الأب، إلى إعادة خلق الهلوسة التي أدَّت إلى نشوء مرضها الهستيري، في أداءٍ تمثيلي وحَّد الزوجَين في الجنس والموت؛ قضيب الأب الأسود يبث السُّم في صاحبه، والجماجم المُمثَّلة في الأصابع والتي تُعلِن عن موتها بسبب خيالات الاستمناء. أنقذت آنا نفسها عبر إعادةِ ترديدِ المقاطع الشعرية التي كانت تُغنَّى لها قبل النوم في طفولتها، وهكذا أعادت نفسها إلى حجرتها؛ أي غرفة الأطفال، وهناك استعادت لغتها الأم. أعقب

هذه «الدراما التطهُّرية» استدعاء بروير مُجدَّدًا ليجدها قد عادت إلى «الغُرفة الأخرى»، وإلى هُويتها الأخرى، غارقةً في مخاضٍ هلوسي لولادة طفلهما الخيالي.

ربما كانت روايتي للأحداث ميلودراميةً بعض الشيء، لكن هدفي هو التأكيد على أن غرفة الكشف، حيث يجري التحليل النفسي، يمكن أن تستوطنها أحداث ينبغي أن تحدث في خيال المريض؛ أي «الغرفة الأخرى» في عقل المريض. عندما نضع أوهامنا وخيالاتنا في هذه «الغرفة الأخرى»، وهي غُرفة يُظهرها غيابنا المادي عنها، نقول إننا «نتخيل» أمرًا ما. إنها المساحة المُخصَّصة للأدب الخيالي. عندما نضع أوهامنا التي تنتمي في الأصل للخيال، خطأً، في عالم الفضاء الإدراكي، يُصبِح لدينا رؤًى يُنظر إليها، حين تكون خارج نطاق الأحلام، كهلاوس، كما في حالة آنا أو، أو تُعتبَر تجلياتٍ خارقة للطبيعة لآخرِين، كما في حالة ويليام بليك. فإذا كان لدينا الاستعداد لحصر تلك الخيالات في «الغرفة الأخرى»، يمكننا استخدام خيالنا، وهو ما فعلَته آنا أو قبل مرضها، فيما أطلَقَت عليه «مسرحها الخاص» لأحلام اليقظة، حيث كانت تقضي وقتًا كبيرًا من اليوم.

لقد أَشرتُ فيما سبق إلى أن «الغرفة الأخرى» التي تُوجد في الخيال تظهر إلى الوجود على نحوٍ تطوري، عندما يُعتقد أن الموضوع الأَوَّلي لا يزال موجودًا رغم غيابه الإدراكي. إنها المكان الذي يمارس فيه الموضوع وجوده الخفي. وأعتقد أن الغرفة تُعتبر على نحوٍ لا يمكن تجنُّبه في علاقة مع موضوعٍ آخر وهو الذي يُعد شرطًا لوجودها. إن الغرفة الأخرى، بعبارةٍ أخرى، هي الموقع الذي يقع فيه «المشهد الجنسي الأَوَّلي» الخفي. وقد وَضعَت كلاين المشهد الجنسي الأَوَّلي في مركز الصدارة في تحليلاتها للأطفال الصغار؛ ففي تحليلها لإيرنا، وهي فتاة في السادسة، وَجدَت أن «المسرح والأداءات التمثيلية بشتى أنواعها ترمُز إلى الاتصال الجنسي بين أبوَيها» (كلاين، ١٩٢٤، صفحة ٣٩).

إن مرضى الهستيريا، كما أرى، ينغمسون في الفعل التمثيلي؛ أي يصعدون على خشبة المسرح ويلعبون دور أحد الوالدَين. وعبر ما يَتَضمَّنه التماهي الإسقاطي من وَهمٍ كُليِّ القدرة، يعتقد هؤلاء المرضى أنهم أحد الزوجَين الأصليَّين ويُمارِسون أيًّا مما يُصوِّر لهم خيالهم وقوعه في المشهد الجنسي الأَوَّلي المُتخيَّل. أتصوَّر أن هذا هو مُكوِّن الفعل الهستيري: تمثيل الوهم على أرض الواقع، كذلك الذي وُصف بوضوحٍ في حالة آنا أو. إن «مسرحها الخاص»، حيث تحيا أحلام اليقظة الخاصة بها، أصبح مُجسَّدًا في الواقع عبر

دراما نفسيةٍ ترتكز على الجسد قامت بتمثيلها، وأشرَكَت فيها عائلتها وطبيبها في مَشهدٍ تحويلي بحت.

(٢) المناقشة والخلاصة

أتفِق مع أندريه جرين (جرين ١٩٩٧، الصفحات ٣٩–٤٢) في أن الهستيريا حالةٌ تحليلية نفسية مستقلة، ورغم وجود سماتٍ مشتركة بينها وبين اضطراب الشخصية الحدِّية، فإنهما مختلفان. إذا كان لي أن أطرح تعميمًا حول الاختلاف بين جوهر المتلازمتَين، فسيكون أن الأولوية لدى مرضى الهستيريا هي لادعاء «تملُّك الموضوع في عالم الحب»، بينما تنصَبُّ أولويةُ مرضى اضطراب الشخصية الحدِّية في ادعاء «تملُّكه الموضوع في عالم الإدراك»؛ ومن ثَمَّ يكون الإصرار في الهستيريا على التملُّك الحصري لحب المحلل النفسي، ما يُؤدِّي إلى نشأة «وهمٍ» تحويلي يتجاهل أهميةَ أيِّ واقعٍ آخر خلاف هذا الحب، ويطمس أي روابطَ عاطفيةٍ للمُحلِّل النفسي بأي شخصٍ آخر. أَمَّا في التحويل الحدِّي، فيكون الإصرار على فهمٍ كاملٍ للعلاقات والتفاعُلات مع المُحلِّل، مع طمس أيِّ شيء قد يُلمِح إلى استقاءِ المحلل النفسي معرفةً من أي شخصٍ آخر أو مُشاركتِه معرفةً ذاتَ قيمةٍ مع أي شخصٍ آخر.

ونتيجةً للاستخدام المختلف للتماهي الإسقاطي في الهستيريا ومتلازمة الشخصية الحدِّية، يكمن اختلافٌ تشخيصيٌّ رئيسٌ في تجربة المُحلِّل النفسي مع التحويل والتحويل المضاد، وهو موضوعٌ منفصل بذاته ويتجاوز نطاق هذا الفصل، لكن يكفينا القول إن الاختلاف ملحوظ. لقد وَصفتُ التحويل المضاد المميز في تحليلٍ لمريضةِ اضطراب الشخصية الحدية في مقال «الحلقة المفقودة» (بريتون، ١٩٨٩)، وهو يتسم بالشعور بالتقيُّد أو التعرُّض للاستبداد. في المقابل يشعر المُحلِّل النفسي مع مرضى الهستيريا بأنه ذو أهميةٍ خاصة ومكانةٍ مثالية، إلى أن يَتحطَّم النظام الدفاعي الهستيري لدى المريض. وتكمُن المخاطرة ها هنا في ظهور شراكةٍ تواطئيةٍ غيرِ واعيةٍ من الإعجاب المُتبادَل بين المُحلِّل والمريض.

وقد كتب فرويد حول التحويل الجنسي لدى مرضى الهستيريا في بحثه «ملاحظات حول الحب الناتج عن التحويل» (١٩١٥) ضمن سلسلةِ أبحاثه التي تناوَلَت «أسلوب» التحليل النفسي. وكان قد كتب بالفعل عن رغبة التحويل العادية باعتبارها تلخيصًا

للرغبات الأوديبية التي تناوَلَها في بحثه السابق «آليات التحويل» (١٩١٢)، فلماذا إذن كتب هذا البحث الثاني الأكثر دراميةً على «التحويل الجنسي» تحديدًا؟ عندما يلجأ فرويد في تحليله هذا إلى استعارةٍ مجازية، نجده يأخُذنا إلى المسرح؛ فيكتب يقول:

> ثَمَّةَ تغيُّرٌ كاملٌ في المشهد؛ كان الأمر أشبهَ بمشهدٍ من الخيال أوقفه الواقع فجأة، كأن يصيح أحدهم «حريق» في وسط عرضٍ مسرحي. إن طبيبًا يختبر هذا الموقف للمرة الأُولى لن يجد سهولةً في الاحتفاظ بسيطرته على عملية التحليل النفسي وتجنُّبِ وهمِ كون العلاج النفسي قد انتهى بالفعل. (١٩١٥، صفحة ١٦٢)

إن التأرجُح بين واقع المسرح والواقع المسرحي، بين واقع التحويل والواقع التحويلي، في هذه الاستعارة أجده مُبهِرًا بمعنى الكلمة، إلى جانب أنه يضع مشهد الفعل في المسرح الذي يُعد رمزًا، كما أشرتُ من قبل حسب منظور كلاين؛ إذ يرمز لوهمِ مشاهدة المشهد الجنسي الأَوَّلي. إذا كان الأمر كذلك، يصبح المكان المناسب للدراما هو خشبة المسرح ويصبح مكاننا المناسب بين الجمهور. أمَّا على مسرح «الهستيريا»، فمن المحتمل أن تتغلب الأحداث الواقعية التي تقع بين الجمهور على تلك التي تُعرَض على خشبة المسرح.

أرى أن أحد الأمور التي شجَّعَت فرويد على كتابة هذا البحث هو معرفته بما حدث في تحليل يونج النفسي لسابينا سبيلرين. لا بد أن التشابُك الجنسي بين التحويل والتحويل المضاد في تلك الحالة قد ذكره ببروير وبيرثا بابنهايم، ليشعر فرويد من جديد بعجزه عن التصريح علنًا بأمرٍ كان له عظيم الأثر على قناعاته، من أن ثَمَّةَ تشابُهات بين آنا أو وسابينا سبيلرين، لا سيما التفاعل بين الحب والموت. فقد كانت سابينا سبيلرين هي أَوَّل من كتب عن وجود دافعٍ تدميري أولي في عام ١٩١٢ (سبيلرين، ١٩١٢).

طالما جَمعَتِ الدراسات التحليلية التي تناوَلَت حالة آنا أو بين الجنس والموت. والدور الذي تلعبه غريزة الموت في العُصاب موضوعٌ خارج نطاق هذه الدراسة التي حاولتُ أن أقصرها على الجنسانية في الهستيريا. ومع ذلك، يجِد الموضوع طريقه إلى المناقشة؛ لأنه في حالات الهستيريا يتحد الجنس مع الموت على نحوٍ مميز فيما أراه «منظومة مرضية» (ستاينر، ١٩٨٧) تُعبِّر عن دافعَي الجنس والتدمير في صورة وهمٍ يصبح فيه المريض أحد الزوجَين الأصليَّين عبر التماهي الإسقاطي. قد يُمثِّل ذلك المشهد الدرامي التوحُّد الجنسي

في شكل تخيُّلٍ شهواني لموتٍ مُتبادَلٍ للطرفَين. وأرى أن تلك الخيالات المُجسَّدة تمثيليًّا تحمي الفرد من ألمِ إدراك واقع الموقف الأوديبي أو الإحساس بالذنب المُرتبِط بطمسه.

هوامش

(١) اعتَمدَت رؤيتي على كتاب «دراسات حول الهستيريا»؛ وملاحظات فرويد اللاحقة في عدد من الأبحاث؛ والسِّيَر التي كتبها كلٌّ من إرنست جونز وبيتر جاي حول فرويد؛ وسيرة آنا فرويد؛ والمُراسَلات المتبادلة بين أبراهام وفرويد؛ ورؤية ديديه أنزيو لتحليل فرويد لنفسه. كما اعتَمدَت على «قصة آنا أو: مراجعةٌ نقدية تضم بياناتٍ جديدة» بقلم هنري إيلينبرجر، التي تَتضمَّن تقرير حالةٍ كتبه بروير عام ١٨٨٢ إلى المستشفى التي حوَّل حالة آنا إليه، إلى جانب التقرير اللاحق الذي أَصدرَه المستشفى عن الحالة.

الجزء الثاني

المرحلة الثانية: مولد التحليل النفسي

الفصل الثاني

«دورا: جزء من تحليلٍ للهستيريا»

مونيك كورنو جانا

لا يُوجد دخانٌ بلا نار ... دعونا نُسمِّي الأشياء بأسمائها. (سيجموند فرويد)

كان عام ١٩٠٥ هو العام الذي شهد نشر فرويد أول تقريرٍ مُطوَّل له عن حالةٍ خَضعَت للتحليل النفسي، رغم أن هذا التقرير قد كُتب عام ١٩٠١، بعد فترةٍ وجيزة من صدور كتابه «تفسير الأحلام» عام ١٩٠٠. اختار فرويد في البداية عنوان «الأحلام والهستيريا» لتقريره، حسبما أخبر فليس في خطاب بتاريخ ١ يناير ١٩٠١. بعد ذلك أوضح في خطابٍ بتاريخ ٣٠ يناير قائلًا: «القضية الرئيسة فيما يتعلق بعمليات التفكير المتضاربة تَكمُن في التعارُض بين ميلٍ بين الرجال وميلٍ نحو النساء» (ماسون، ١٩٨٥، صفحة ٤٣٤). وهذا تحديدًا ما سيتناوله هذا التحليل ...

اكتشف فرويد التكوين النفسي للعُصاب وأهمية الجنسانية الطفلية أثناء عمله مع حالات لنساءٍ مصابات بالهستيريا بين عامَي ١٨٩٥ و١٨٩٦. عندما نشر ملاحظاته حول حالة «دورا»، كان فرويد يستهدف إثبات ادعاءاته التي توصل إليها في عامَي ١٨٩٦ و١٩٠٥حول التكوين النفسي للاضطرابات الهستيرية والعمليات العقلية والنفسية التي تتخلل الهستيريا.

في غضون ذلك، كان فرويد مشغولاً بتحليل ذاته نفسيًّا. والواقع أن القصة برمتها قد بَدأَت مع رجل، هو والد دورا الذي جاء لمقابلة فرويد قبل بضعِ سنواتٍ وشعر براحة

حينها. في مناسبتَين أُخريَين، حاول الأب إيداع دورا تحت رعاية فرويد، وقد وافَقَت في النهاية؛ ومن ثَمَّ بدأ فرويد في تحليلها نفسيًّا واستمر في ذلك طَوالَ ثلاثةِ أشهُر إلى أن انقَطعَت دورا عن حضور الجلسات.

هكذا يُمكِننا في الوقت الحالي قراءة حالة دورا من منظور الحلم والهستيريا، ثم من منظور التحويل، وأخيرًا من منظور رد فعلها المُكوَّن من التحويل المضاد تجاه المحلل. يُمكِننا دراسة حالة دورا، بوصفها نصًّا مهمًّا حول الأُنثوية، من زوايا متعددة؛ وذلك لكونه نصًّا مفتوحًا دومًا للتأويلات والقراءات المختلفة.

(١) دورا وقصتها

كانت دورا في الثامنة عشرة عندما بَدأَت الخضوع لجلسات التحليل النفسي. وقد وصف فرويد عائلتها التي يُهيمِن عليها الأب الذي كان يعرفه من قبلُ، إذ عالجه بنجاحٍ قبل عدة سنوات. في المقابل، وُصِفَت الأم والأخ الذي لا يكبر دورا بكثير بأنهما أقلُّ إثارةً للاهتمام نوعًا ما. وقد وصف فرويد الأم — التي قال عنها والد دورا: «لم تعُد تهمني في شيء» — مستخدمًا التعبير السلبي «ذُهان ربة البيت» (صفحة ٢٠).

إذن كان والد دورا هو من قدِم لرؤية فرويد وهو من وَضعَها تحت رعايته. وسرعان ما اكتشف فرويد ما يهم هذا الأب في علاج ابنته؛ فقد كان يحب ابنته قطعًا، وكان منزعجًا من تهديدها مؤخرًا بالانتحار، لكنه كان أيضًا مُتلهِّفًا لأن يدع فرويد يتعامل مع تلك الطفلة التي تُحاوِل التفريق بينه وبين عشيقته التي كان شديد التعلُّق بها. وهكذا أصبح فرويد في البداية مُتورِّطًا كطرفٍ ثالث فيما بدا مشكلةً بين أبٍ وابنته.

لم تَتقبَّل دورا رحلة العلاج بِصدرٍ رحب؛ إذ كانت في نزاعٍ مع أبيها حول علاقة عائلتهم بعائلة السيد كيه، الذين داوموا على التردُّد على عائلةِ دورا طَوالَ عدة سنوات، وفجأة رَفضَت دورا الاستمرار في علاقتها معهم. على المستوى السطحي، نجد أننا في مواجهةِ دراما عاطفيةٍ فرنسية؛ حيث تتجاهل السيدة كيه، عشيقة والد دورا، الاهتمام الذي يُبديه السيد كيه نحو ابنة عشيقها.

ورغم تلك البداية الغريبة، استفاد فرويد من أعراض دورا وحلَّل كذلك حُلمَين من أحلامها سوف نُناقشهما فيما يلي؛ ومن ثَمَّ اكتشف، عبْر عدة خطوات، أعماقَ الصراعِ التي كانت تأويه الفتاة المُراهِقة داخلها.

ذكر فرويد، الذي كان واعيًا بالمعارضة المثارة بالفعل ضد أفكاره في الوسط العلمي، في ملاحظاته التمهيدية: «إن عرض تاريخ حالاتي يظل مشكلةً يصُعب عليَّ حلها» (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ٧). ورفَض التهاون مع الأفراد السيئي النية الذين أساءوا فهمه عن عمد، وذكر أن الأمر يتعلق «بواجبه نحو المرضى، وواجبه كذلك نحو العلم»، وأوضح أنه انتظر طيلة أربعِ سنواتٍ كي يتجنب إلحاق أي أذًى بمريضته (سوف أتناول فيما يلي ما يمكننا استخلاصه، بعد مرور قُرابة قرن، من الفِقرة التي تتناول الاتهام الذي كان يخشى أن يُوجَّه إليه بسبب موضوع الجنسانية — الذي تحدث عنه بإسهابٍ أثناء العلاج — بينه وبين دورا). «إن اعتبار المحادثات من هذا النوع وسيلةً فعالة لإثارة الرغبات الجنسية أو إشباعها؛ سيكون دلالة على شهوةٍ مُنحرِفة وشاذَّة» (المصدر السابق، صفحة ٩).

حدَّد فرويد ما كان يبحث عنه: «إظهار التكوين الخاص والدقيق للاضطراب العُصابي وتحديد أعراضه» (المصدر السابق، صفحة ١٣)، مُنهيًا حديثه بوصف المنهج التحليلي:

> أَصبَحتُ الآن أترك المريض نفسه يختار الموضوع الذي سنتناوله اليوم، وبهذه الطريقة أبدأ دومًا من أي نقطةٍ عشوائية يتصادف أن طرحها لا وعيه في هذه اللحظة. لكن وفقًا لهذه الخطة، يبرُز كل ما يتعلق بتحديد عَرَضٍ معين تدريجيًّا، ويكون متشابكًا ضمن سياقاتٍ شتى ومُوزَّعًا على فتراتٍ زمنية واسعة ومتفرقة. (المصدر السابق، صفحة ١٢)

بعدما لاحظ فرويد ارتباط هذا النص بكتاب «تفسير الأحلام»، عبَّر عن فكرته كما يلي:

> بعد الانتهاء من تفسير الأحلام ... يمكن أن يحل محلَّها أفكارٌ ذاتُ تكوينٍ صحيح ومثالي يمكن أن نُفرِد لها موضعًا يمكن تمييزه في سلسلة الأحداث العقلية. وأَودُّ أن أُورِد مثالًا في الصفحات التالية للتطبيق العملي الوحيد الذي يُفسِح له فن تفسير الأحلام مجالًا فيما يبدو. (المصدر السابق، صفحة ١٥)

يُصِر فرويد على أهمية الحُلم بوصفه «إحدى الطرق الجانبية التي يمكن من خلالها تجنُّب الكبت» (المصدر السابق، صفحة ١٥)؛ ومن ثَمَّ يمكن من جديدٍ استعادة المادة النفسية غير المرغوب بها التي خضع مُحتواها للكبت، وذلك عبر التفسير.

إن محتوى قصة دورا يتضمن ثغرات؛ فالترتيب الزمني مُعدل، وتُوجد أمثلة لا تُحصى على انعدام الصدق اللاواعي والواعي، إلى جانب وجود تلك «[الأخطاء] في الذاكرة ... التي تكوَّنَت كنتاجٍ ثانوي لأجل سد تلك الثغرات» (المصدر السابق، صفحة ١٧). وقد بيَّن نص «الذكريات المُشوَّهة» الصادر عام ١٨٩٩ هذا التداخُل الزمني بين الذكريات.

لم يُعِد مقال فرويد تشكيل تاريخ الأعراض، مثل بحة الصوت والسُّعال وفقدان الصوت، التي ظَهرَت مبكرًا لدى دورا من سن الثانية عشرة، وركَّز، عوضًا عن ذلك، على كشف معانيها المُتعدِّدة، وأيضًا الروابط المُعقَّدة بينها وبين مَظاهرَ جسديةٍ أو نفسيةٍ أخرى، سواء ظَهرَت في وقتٍ منفصل أو في الوقت نفسه، والتي قد تتضمن الصداع النصفي، وربما تضمَّنَت أيضًا اكتئابًا أو اضطرابات في الشخصية ... من ناحيةٍ أخرى، تركت دورا في إحدى الأيام «خطابًا أَعلنَت فيه أنها قد طردت هذه الأعراض من عقلها؛ لأنها، على حد قولها، لم تعُد قادرةً على احتمالِ حياتها» (١٩٠٥أ، صفحة ٢٣).

عَلِم فرويد، من خلال والد دورا، بصداقة العائلة مع عائلة كيه وامتنان الأب للسيدة كيه التي اهتمت بدورا أثناء مرضها، واعتناء السيد كيه بدورا التي حلَّت محل الأم لأطفال الزوجَين. قبل ذلك مباشرة، رَفضَت دورا البقاء مع آل كيه، وأَخبرَت أمها لاحقًا أن السيد كيه قد تجرَّأ، عقب نزهةٍ إلى البحيرة، وعبَّر عن عاطفة تجاهها، وهو ما أنكره السيد كيه، مُلقيًا بذلك بظلال الشك على دورا، التي كانت مهتمةً فحسب، على حد قول السيدة كيه، بأمور الجنس، وأنها على الأرجح «تخيَّلَت المشهد الذي وصفَته ليس إلا» (المصدر السابق، صفحة ٢٦). وهكذا أدَّى الموقف إلى لجوء الأب إلى فرويد راجيًا إياه «أن يُحاوِل إعادتها إلى رشدها» (المصدر السابق، صفحة ٢٦).

وفي ذلك قال فرويد إن ما نراه الآن قطعًا هو «الصدمة النفسية التي صرَّحتُ أنا وبروير منذ زمنٍ طويل [في «المراسلات التمهيدية» بينهما] أنها شرطٌ لا غنى عنه لحدوث الاضطراب الهستيري» (المصدر السابق، الصفحات ٢٦–٢٧). لكن فرويد أصبح الآن يأخذ في اعتباره، إلى جانب وجود العَرَض منذ حين، أنه «إذا ... لم نستبعد نظرية الصدمة، فلا بد لنا من الرجوع إلى طفولتها» (المصدر السابق، صفحة ٢٧). عندما كانت دورا في الرابعة عشرة، ضمها السيد كيه إليه وقبَّلها في فمها. «لقد استدعى ذلك الموقف دون شكٍّ إحساسًا مميزًا بالإثارة الجنسية لدى فتاة في الرابعة عشرة لم يَقرَبْها أحد من قبلُ» (المصدر السابق، صفحة ٢٨). إن ما شعرت به دورا، في الواقع، هو الاشمئزاز، وهو

الشعور الذي رآه فرويد علامةً على الهستيريا؛ في ظل وجودِ إزاحةٍ للأحاسيس. كانت دورا ترى أن منطقة الأعضاء التناسُلية الأنثوية «يُتلفها» المص؛ ومن ثَمَّ أصبحت هذه المنطقة مركزًا للرغبة الجنسية. وقد أبقت دورا ما شَعرَت به من إثارةٍ جنسية واشمئزاز سرًّا. واعتقد فرويد أن الفتاة كانت واعيةً وقتها بوجود العضو الجنسي؛ لأنها شَعرَت بانتصابِ عضو السيد كيه. «لقد كان هذا الإدراك مُقزِّزًا بالنسبة لها، وقد «طردَته» من ذاكرتها و«كَبتَته» و«جَعلَت محله» الإحساس «البريء» المتمثل في الضغط على قفصها الصدري ...»[١] (المصدر السابق، صفحة ٣٠؛ التنصيص للتوكيد). وقد أكد فرويد أن:

> لدينا ها هنا ثلاثة أعراض — الاشمئزاز، والإحساس بالضغط على الجزء الأعلى من الجسد، وتجنُّب الرجال المُندمجِين في محادثةٍ عاطفية — وجميعها أعراضٌ ناتجة عن تجربةٍ واحدة، وإنه فقط من خلال النظر بعين الاعتبار إلى العلاقة المُتبادَلة بين تلك الظواهر الثلاث، يُمكننا فهم طريقةِ تكوين العرَض. (المصدر السابق، صفحة ٣٠)

فيما يتعلق بالاشمئزاز، إذا كان فرويد هنا قد ذكَّرنا بأهمية الفم، وهو هنا أمرٌ يتعلق بالمص الشبيه بمص الطفل لدى دورا، فقد أشار أيضًا إلى قرب منطقة الأعضاء التناسُلية من منطقة الإخراج، ولا تنجح محاولات إضفاء الطابع المثالي في الفصل بين المنطقتَين ... لقد أصر فرويد على التحديد المبالغ فيه للأعراض؛ فالمعرفة بمسارات الارتباط «لا تُقلِّل من أهمية المعرفة بالقوى التي تنتقل عبْرها» (المصدر السابق، صفحة ٣٢). وبالتأكيد يأخذ فرويد في اعتباره هنا مفهوم الكم فيما يتعلق بالقوة الغريزية.

إن التماهي، الذي يُعد الآلية المحورية في الهستيريا، حاضر على مدى النص؛ فيجده فرويد، على سبيل المثال، في سعال دورا؛ إذ تتماهى قدْر استطاعتها مع أبيها بينما يلهث في حجرة الزوجية، وفي تماهي آنا أو مع أبيها المريض الذي يجد صعوبة في التنفُّس. تتماهى دورا كذلك مع أمها، أو مع المُعلِّمة، أو السيدة كيه، تبعًا لتدفُّق الأفكار اللاواعية التي تحوز اهتمامها. وما يُميِّز الهستيريا عن الأمراض العُصابية النفسية الأخرى هو الامتثال الجسدي الذي «يُؤدِّي إلى تحوُّل المجال الجسدي إلى مُتنفَّس للعمليات النفسية اللاواعية» (المصدر السابق، صفحة ٤٠).

ماذا يعني العَرَض؟ إنه يُجسِّد وهمًا ذا محتوًى جنسي، حتى لو كان وهمٌ واحدٌ غيرُ واعٍ لا يكفي لتوليد عرَض مَرَضي.

إن المعنى المزدوج للكلمات — مثل كلمة Fortune في الإنجليزية التي تدل على المعنى الظاهر لها وعكسه في الوقت نفسه — سوف يكون حاضرًا في تحليل الأحلام. ونحن هنا بصدد التعامُل مع معنًى جنسي؛ ربما كان الأب عاجزًا جنسيًّا، إلى جانب استخدام فرويد كلماتٍ للتعبير عن الأشياء المرتبطة بالجنسانية، وعاد يدافع من جديدٍ عن نفسه عبر التشبُّه بطبيب النساء الذي يحق له الحديث عن الجنس. وقد استعار استعاراته المجازية من اللغة الفرنسية، مثل «سأدعو الأشياء بأسمائها»، أو «لكي تصنع عجة، لا بد أن تكسر بيضًا» (المصدر السابق، الصفحات ٤٨–٤٩)؛ فهل كانت الفرنسية هي لغة الجنسانية لدى فرويد؟ تلك قصةٌ أخرى …

> إن الأمراض العُصابية، إن جاز التعبير، هي الصورة «السالبة» للانحرافات … فتخيُّلات اللاوعي [لدى مرضى العُصاب] تُظهِر المحتوى نفسه تمامًا الذي نجده في «أفعال» المُنحرفِين المُوثَّقة. (المصدر السابق، صفحة ١٦٥)

وتكمن أصولها المزدوجة في الانحراف المتعدد الأشكال لدى الطفل، والذي وصفه فرويد، في عام ١٩٠٥، في كتابِ «ثلاثة مقالات حول نظرية الجنسانية» (١٩٠٥ب)؛ إذ نجد هنا أن فرويد منشغل بالانتقال ما بين الحلَمة والقضيب، قبل أن يتوصل إلى نظرياته حول المكافِئات؛ أي القضيب والبراز والطفل:

> إن هذا التخيُّل المنحرف البالغ التقزُّز لمص القضيب له أصلٌ في غاية البراءة. إنه صورةٌ جديدة لما يمكن وصفه بانطباعٍ من عصرِ ما قبل التاريخ للرضاعة من ثَدي الأم أو المُربِّية. (المصدر السابق، صفحة ٥٢)

نحن الآن، فيما يبدو، في مرحلة المادة «ما قبل التناسُلية»، إلا أن النظام الأوديبي، إذا كنا نرغب في تناولِ جانبَي المسألة، هو ما يجعل حركات التماهي والحركات الغريزية المُتنوِّعة مفهومة. إن حب الأب، بجانبه الشهواني، قد حل محلَّه حب السيد كيه (ونقيضه؛ أي الكراهية)؛ ومع ذلك، يبدو أن الجزء الأكثر سرية، والأكثر قيمة، في مسار العلاج بالنسبة إلى دورا كان حبُّها للسيدة كيه وتألُّمُها لِخيانتها.

(٢) الحلمان

(٢-١) الحلم الأول

> كان ثَمَّةَ بيتٌ يحترق. كان أبي يقف بجوار سريري وأيقظني. ارتديتُ ملابسي سريعًا. أرادت أمي أن نتوقَّفَ كي نُنقِذ عُلبة مجوهراتها لكن أبي قال «لن أحترق أنا وأطفالي لأجل عُلبة مجوهراتك. أسرعنا نهبط درجات السُّلم وما إن خرجنا من البيت حتى استيقظتُ. (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ٦٤)

حلَّل فرويد الحلم بالدقة نفسها التي حَلَّل بها أعراض دورا، جامعًا تداعياتِها ليُقدِّم إلى القارئ، مع تكشُّف محتوى النص تدريجيًّا، الاعتباراتِ النظرية والفنية التي اعتَبرَها ضرورية. بالإضافة إلى ذلك، كان لكل كلمةٍ من كلمات الحُلم مكانٌ في سلسلة في التداعيات التي أَصبحَت أكثر عمقًا كلما أَثبتَت دورا قُدرتها على الإضافة إليها. وكان رفع الكبت، إلى جانب الاهتمام المفاجئ ببعض الأحداث الماضية أو الحاضرة، سببًا في دعم الجلسة، مع تغيُّر قوة الإضاءة من لحظة لأخرى، وفقًا لآليات التركيزات النفسية.[٢] ومن جديدٍ ظهر تعدُّد المعاني في الحريق، الذي يرتبط بالإثارة الجنسية التي ربما شَعرَت بها دورا بسبب السيد كيه، ويرتبط كذلك بذكرى دورا عن سلس البول الذي عانت منه في طفولتها، مثلما كَشفَت الفرضيات التي قدَّمها فرويد إلى الفتاة الشابة؛ وكان والدها هو من يُوقظها ليلًا كي تَتبوَّل …

كذلك تُقدِّم عُلبة المجوهرات، التي ظَهرَت مرتَين في الحلم، مثالًا لآلية التحليل وما تنطوي عليه من فكٍّ للتكثيف. إنها تُجسِّد «عُلبة المجوهرات» الأُمومية، التي يُؤدِّي استدعاؤها من الذاكرة إلى «القطرات»، وهي كلمة لا تظهر في الحلم لكنها تتداخل مع التداعيات بوصفها جسرًا ترابطيًّا؛ فيبدو أن والدة دورا كانت تُريد من زوجها أن يُهديها قرطًا على شكلِ قَطَرات، ما قاد دورا إلى تمني الحصول على هدايا أبويةٍ مماثلة، لكن القطرات تستدعي كذلك معانيَ جنسية أكثرَ مباشرة، كمرض الأُم الذي انتقل إليها جنسيًّا، ومَنِي الأب، «وأزهار دورا البيضاء»، التي تُجسِّد، على نحوٍ متساوٍ، كلًّا من خوفها ورغبتها في أن تحل محل أمها وعشيقة والدها كذلك، وبالقطع تَكشِف كذلك عن ممارستها الاستمناء. غير أن عُلبة المجوهرات هي هديةٌ أخرى قَدَّمها لها السيد كيه؛ فعندما اقترَحَ فرويد على دورا تفسيرًا لحُلمها مفاده أن عُلبة المجوهرات ترمز إلى الأعضاء التناسُلية

الأنثوية، كان رد دورا: «كنتُ أعلم أنكَ ستقول ذلك» (المصدر السابق، صفحة ٦٩). إن ما نراه هنا هو آلية الإسقاط.

على مدى هذا الفصل، قصد فرويد أن يُوضِّح من جديد، كما فعل سابقًا في كتاب «تفسير الأحلام»، أن «الحُلم يُعبِّر عن تحقيقِ أمنيةٍ ما» (فرويد، ١٩٠٠).

تشير الرغبة ضمنًا إلى التحويل أيضًا،[٣] كما شرح فرويد في حاشيةٍ تفسيرية؛ فبعد أن اقترح على دورا عددًا من التفسيرات، أخبرها في النهاية قائلًا:

> «الحُلم يُؤكِّد من جديد ما قد أخبرتُكِ به بالفعل قبل أن تحلُمي به؛ لقد كنتِ تستدعين حبك القديم لأبيك كي تحمي نفسك من حبك للسيد كيه. لكن ما الذي تُبيِّنه هذه المحاولات كافةً؟ إنها لا تُبيِّن خوفكِ من السيد كيه فحسب، بل تُبيِّن كذلك أنكِ ما زلتِ تخافين أكثر من نفسك ومما تشعرين به داخلكِ من إغراء الاستسلام له. خُلاصة القول، تلك المحاولات تُثبِت من جديد حُبكِ العميق له ...» و«بطبيعة الحال» لم تكن دورا لِتتفقَ معي في هذا الجزء من التفسير. (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ٧٠؛ التنصيص للتوكيد)

أضاف فرويد:

> علاوةً على ذلك، يدفعني تَكرار الحلم في الأيام القليلة الماضية إلى استنتاج أنكِ تعتبِرين أن الموقف نفسه قد أُثير من جديد، وأنكِ قد قررتِ التخلي عن العلاج، الذي لا تأتين لِتلقِّيه في النهاية إلا بوازعٍ من أبيك. (المصدر السابق، صفحة ٧٠)

وقد ثبت صحة هذا الادعاء كما سنرى. مع ذلك، نبَّه فرويد إلى أنه لم يكن يرغب في التحدث عن التحويل في هذا النص ...

أمَّا الرغبة التي تخلُق الحلم، فقد حدَّد فرويد وظيفتها مرةً أخرى: «تنبعث الرغبة التي تخلق الحُلم دومًا من فترة الطفولة، وتُحاول باستمرار استدعاء الطفولة إلى عالم الواقع وتصحيح الحاضر حسب معايير الطفولة» (المصدر السابق، صفحة ٧١).[٤]

في هذا الفصل كذلك، تحدَّث فرويد، فيما يتعلق بالاستمناء الذي ذكره قبل بضعِ جلسات، عن الفعل الذي يحمل دلالةً خفية، شارحًا إياه لدورا بينما «تَضْطجِع على الأريكة وتتحدث ... وتعبث بـ [حقيبةٍ أنثوية صغيرة] فتظل تفتحها وتضع إصبَعها داخلها ثم تُغلِقها من جديد» (المصدر السابق، صفحة ٧٦).[٥]

استَحوذَت فكرةُ ممارسة الاستمناء في الطفولة على اهتمام فرويد طويلًا؛ فناقش كيف أن كبته يُعتبر جزءًا لا يتجزأ من مُسبِّبات الهستيريا، مضيفًا أنه إذا «أثبت في هذه الحالة حدوث استمناء في الطفولة … فإن حدوثه لا يمكن اعتباره عاملًا عرضيًّا أو غيرَ مهم في تكوين المشهد الطبي» (المصدر السابق، صفحة ٨٢). كلمةٌ واحدة من شأنها أن تعمل بمثابة جسر؛ ألا وهي «زُكام»، التي عبَّرَت بها دورا عما تشعر به؛ وقد تحدَّث فرويد عن «كلمة «زُكام» [التي] عمِلَت مجددًا بمثابة «كلمةٍ انتقالية»، مكَّنَت مجموعة الأفكار التي تدور حول مسئولية أبيها عن مرضها من إظهار نفسها في هيئة عَرَض السعال» (المصدر السابق، صفحة ٨٢). فقد كانت تَسعُل مثل أبيها، وهو ما اعتبره فرويد سبيلًا لها لكي تعلن للعالم كله: «أنا ابنةُ أبي، ولديَّ زكام كالذي يُعاني منه. لقد جعلني مريضةً مثلما تسبَّب في مرض أمي. لقد أخذتُ منه تلك العواطف الشريرة التي عُوقِبتُ عليها بمرضي» (المصدر السابق، صفحة ٨٢).

حدَّد فرويد في معرض حديثه مفهوم التثبيت: إذا وُجِد تهيُّجٌ عضوي منذ البداية، فإنه عُرضةٌ للتثبيت: «لأنه يتعلق بجزءٍ من الجسد احتفظ بمدلوله إلى حدٍّ كبير لدى دورا بوصفه منطقةً مثيرة جنسيًّا» (المصدر السابق، صفحة ٨٣).

وللسُّعال معنًى آخرُ إضافي ألا وهو: «التماهي» مع السيدة كيه، التي كانت عشيقةً لأبيها.

يأتي بعد ذلك تأكيدٌ فرويدي لا نجده لاحقًا في أعماله: «تشعر النساء بالفخر حِيال مظهر أعضائهن التناسُلية … [لكن] اضطرابات الأعضاء التناسلية التي يعتقدن أنها تُثير أحاسيس النفور بل الاشمئزاز لها قدرةٌ لا تُصدَّق على الحد من تقديرِهن لأنفسهن» (المصدر السابق، صفحة ٨٤).

إن الاشمئزاز الذي شَعرَت به دورا بعدما قبَّلَها السيد كيه كان مصحوبًا فيما يبدو بفكرة أن «جميع الرجال تافهون وخونة» (ومنهم أبي والسيد كيه) (المصدر السابق، صفحة ٨٤).

في الحلم، استدعت دورا عاطفةً طفليَّة تجاه أبيها لعلها تحميها من عاطفتها الحالية تجاه شخصٍ غريب … «إن الرغبة الطِّفليَّة، والتي أَصبحَت الآن غير واعية، في وضع أبيها موضعَ هذا الرجل الغريب لديها القدرة اللازمة على تشكيلِ حلم» (المصدر السابق، صفحة ٨٦؛ التنصيص للتوكيد).

وعاد فرويد إلى تعريفاتِ كتاب «تفسير الأحلام»، فذكر أنه إذا لعِبَت فكرةٌ في النهار دور رائد الأعمال، فإن الرغبة المنبعثة من اللاوعي هي مَن تلعب دور الرأسمالي الذي يَتكفَّل بالنفَقات.

(٢-٢) الحلم الثاني

> كنتُ أَتجوَّل في مدينةٍ لا أعرفها. رأيت شوارعَ وميادينَ لم أَرَها من قبلُ، ثم دخلتُ إلى المنزل الذي أعيش به وذهبتُ إلى غرفتي حيث وجدتُ خطابًا من أمي تُخبِرني فيه أنها لم تشأ أن تكتبَ لي لتُبلغني بمرض أبي؛ لأنني قد تركتُ المنزل دون علمِ والديَّ ثم أضافت: «الآن وقد مات، يمكنكِ الرجوع إن شئت.» تَوجَّهتُ بعد ذلك إلى محطة القطار [بانهوف] وأخذتُ أسأل ما يقرب من مائة مرة: «أين المحطة؟» وكانت الإجابة دومًا «على بعد خمس دقائق.» ثم رأيتُ غابةً كثيفة الأشجار أمامي، فدخلتُها، حيث قابلتُ رجلًا سألتُه عن المحطة فأجابني: «على بعد ساعتَين ونصف.» وعرض عليَّ أن يرافقني، لكني رفضتُ وذهبتُ وحدي ثم رأيتُ المحطة أمامي لكني لم أستطع بلوغها. في الوقت نفسه راودني شعور القلق المألوف الذي ينتاب المرء في الأحلام عندما يعجز عن التحرُّك. وجدتُ نفسي بعد ذلك في بيت العائلة، لا بد أنني سافرت خلال تلك الفترة ولكن دون أن أدري. دخلتُ إلى غرفة البواب وسألتُ عن شقتنا. فَتحَت لي الخادمة الباب وأَخبرَتني أن أمي والآخرِين قد ذهبوا بالفعل إلى المقبرة [فريدهوف]. (المصدر السابق، صفحة ٩٤)

يعرض فرويد ها هنا نموذجًا جديدًا لتحليل محتوى حُلمٍ ما، حيث تتداخل كثيرٌ من العناصر المترابطة التي يعيد فرويد ترتيبها وحده أو عبر طرح الأسئلة على دورا. يتمحور الأمر هنا حول شابٍّ ترك منزله وارتحل إلى مدينة «غريبة»، بقصد الاستقلال والتمكُّن من الزواج بدورا؛ لكن حتى مع هذا التفسير يجد المرء تحديدًا مُفرِطًا لمعانيه؛ فتداعي الأفكار يقود إلى درسدن، «حيث ذهبت دورا وحدها لمدة ساعتَين» لرؤية لوحةِ عذراء سيستينا. لاحَظَ فرويد كذلك التماهي مع شخصية الشاب العاشق، الذي كان يستهدف إغواء دورا؛ وعلى ذلك يصبح هدف دورا إغواء امرأة؛ ألا وهي السيدة كيه، وهو ما نراه عبر رموزٍ مثل «المحطة»، والمرأة … مكان للانتقالات (للحب).[٦]

أمَّا تعبير «مائة مرة»، فيُذكِّرنا هنا بمشهد؛ حيث طلب الأب كأسًا من الشراب، فصاحت دورا في أمها نافدة الصبر: «لقد سألتكِ «مائة مرة» أين مِفتاح خزانة المشروبات» (المصدر السابق، صفحة ٩٧). ويرى فرويد أن المِفتاح، وعُلبة المجوهرات في الحلم السابق، كلها رموز تشير يقينًا إلى الأعضاء الجنسية.

بعد ذلك ذَكَّر فرويد دورا «بخطاب» الوداع، الذي كَتبَته إلى والدَيها، وصِلته بالخطاب في الحُلم: «لقد كان الهدف من هذا الخطاب هو إخافة أبيها كي يهجر السيدة كيه، أو الانتقام منه بأي حالٍ إذا لم تتمكَّن من إقناعه بتركها» (المصدر السابق، الصفحات ٩٧–٩٨).

وضع فرويد في اعتباره هذه الرغبة في الانتقام. وقبل أن نستكمل تحليل الحلم، دعونا نُنوِّه إلى عنصرٍ رئيس، وهو مشهد إعلان السيد كيه حبه لدورا بجوار البحيرة. أعاد فرويد تكوين المشهد بدقة؛ ومن ثَمَّ علم أن العبارة التي نطق بها السيد كيه — «أنتِ تعلمين أن زوجتي لا تمنحني أي شيء» (المصدر السابق، صفحة ٩٨) — قد دَفعَت دورا إلى صفعه والهرب منه؛ لأنها العبارة نفسها التي استخدمها لإغواء المُعلِّمة. إن الجرح الذي شَعرَت به دورا في كبريائها وتقديرها لذاتها — «أُعامَل معاملة الخادمة» (المصدر السابق، صفحة ١٠٦) — هو قطعًا الأصل في رغبتها في الانتقام، والتي وجَّهَتها كذلك، كما سنرى، نحو فرويد الذي ستُخطِره، قبل الجلسة بأربعة عشر يومًا، بأنها لن تأتي مجددًا لجلسات التحليل.

تقودنا «الغابة» في الحُلم، عبر تداعي الأفكار، إلى الحوريات، إلى الردهة، إلى مجموعةِ مفرداتٍ تشير إلى موجوداتٍ ذات تكوينٍ جنسي. ووجد فرويد ها هنا فرصةً لتأكيد فرضيةٍ كان قد اقترحها في كتاب «تفسير الأحلام»: «تلك الأجزاء من الحُلم التي ينساها المرء في البداية ثم لا يتذكرها إلا لاحقًا دائمًا ما تكون الأهم من منظور فهم الحُلم» (المصدر السابق، صفحة ١٠٠). في روايةٍ أخرى للحلم ذَكرت دورا أنها «بَدأَت في قراءة كتابٍ كبير» (المصدر السابق، صفحة ١٠٠)، ما قاده إلى التفكير في المُعجَم. وأضافت كذلك أنها «رأت نفسها بوضوحٍ تصعد السُّلم» (المصدر السابق، صفحة ١٠١). استطاع فرويد حينئذ تأكيد حَدْسه: لقد تَرتَّب على ادعاء دورا الإصابة بالتهاب الزائدة الدودية عقب وفاة خالتها عاقبةٌ غير عادية؛ فقد كانت تجُر قَدمَها اليمنى. أعاد فرويد ترتيب الأحداث الزمنية: لقد ظهر التهاب الزائدة الدودية المزعوم بعد تسعةِ أَشهُر من المشهد بجوار البحيرة؛ إذن فقد كان وهمًا بأنها تلِد طفلًا بعد تعرُّضها لِتعثُّر؛ هنا أصبح العَرَض الهستيري مؤكدًا.

> أنا مقتنعٌ [كتب فرويد] أن عَرَضًا من هذا النوع لا يمكن أن ينشأ إلا من نموذجٍ أولي «طفلي». إن مجمل خبرتي حتى هذه اللحظة تقودُني إلى التمسك بقوة بوجهة النظر التي تزعم أن الذكريات المُستمَدة من انطباعات السنوات اللاحقة لا تملك من القوة ما يكفي كي تُمكِّن نفسها من الترسُّخ كأعراض. (المصدر السابق، صفحة ١٠٣)

لقد عُثر على هذه الذكرى الطفولية من جديد؛ إذ تعرَّضَت القدم اليمني نفسها للالتواء عندما كانت دورا في الثامنة وأُجبِرَت على ملازمة الفراش عدة أسابيع.

وهكذا انقطع العلاج بعدما أخبر فرويد دورا بكل ما بلغ فهمه من أعراضها وأحلامها:

> بدأتُ أشُك في أنكِ قد تعاملتِ مع واقعة السيد كيه بجديةٍ أكبرَ بكثير من أن يكون لديك الاستعدادُ للاعتراف بها حتى الآن ... ألم تُفكِّري أنه قد يرغب في الطلاق من زوجته كي يتزوجك؟ أنت حتى لا تملكين حق التأكيد على استحالة وجود مثل هذه النية لدى السيد كيه ... إن علاقةَ أبيكِ بالسيدة كيه، التي ربما كانت السبب الوحيد في مُساندتكِ لأُسرتها ودعمهم طَوالَ هذه الفترة، تجعل إمكانية الحصول على موافقتها على الطلاق أمرًا مؤكَّدًا، وأنتِ قادرةٌ على جعل أبيكِ يفعل أي شيءٍ من أجلك. في الواقع، لو كانت واقعةُ إغوائكِ بجوار البحيرة قد أَسفرَت عن نتيجةٍ مختلفة، لكان هذا بلا شكٍّ الحل الوحيد الممكن لجميع الأطراف ذوي الصلة. وأعتقد أنكِ ندمتِ ندمًا شديدًا على الحدث لهذا السبب وصحَّحتِه في شكل تخيُّل جعله يتخذ شكل التهابِ الزائدة الدودية. (المصدر السابق، الصفحات ١٠٧–١٠٨)

أنهى فرويد هذا التكوين المُختصَر، الذي اقتبستُ جزءًا منه فقط، بالملاحظة التالية: «استَمعَت دورا إليَّ دون أن تُبدي أيًّا من اعتراضاتها المعتادة. ويبدو أنها قد تَأثَّرَت بما قلتُ؛ إذ ودَّعَتني بحرارة ولم تأتِ مُجدَّدًا» (المصدر السابق، الصفحات ١٠٨–١٠٩).

عاد فرويد بعد ذلك إلى المُقدِّمات الأساسية التي حدَّدَتِ العلاج:

> لقد دَعمَ [والد دورا] العلاج طويلًا على أمل أنني سوف «أُقنع» دورا بخطأ اعتقادها بوجود علاقةٍ تتجاوز الصداقة بينه وبين السيدة كيه. وتضاءل

> اهتمامُه بالعلاج عندما لاحظ أنني لم أهدف إلى تحقيق هذه النتيجة. (المصدر السابق، صفحة ١٠٩)

كان فرويد محبطًا، وكان كل ما يدور في ذهنه: «كنتُ أعرف أن دورا لن تأتي مرةً أخرى ... إن انقطاعها عن العلاج فعلٌ انتقامي دون شك» (المصدر السابق، صفحة ١٠٩). لقد أخذ في اعتباره مازوخية دورا، ولكنه تَصوَّر كذلك البعد التحويلي الذي لعب دورًا في إنهائها للعلاج:

> يجب على شخصٍ مثلي — يمتهن استحضار أَشرِّ الشياطين التي تسكن العقل البشري ولم يكتمل ترويضها بعدُ، ويسعى للتصارُع معها — ألَّا يتوقع خوض هذا الكفاح دون أن يناله أذًى. ألم يكن بإمكاني إبقاء الفتاة تحت العلاج لو تظاهَرتُ بعض الشيء، لو بالغتُ في التعبير لها عن أهمية استمرارها في العلاج، وأظهرت اهتمامًا شخصيًّا قويًّا بها ...؟ (المصدر السابق، صفحة ١٠٩؛ التنصيص للتوكيد)

ثم خاطب مُنتقدِيه قائلًا:

> ربما تتسبَّب يقينيةُ موقفي حيال موضوع «اللاوعي» في استياء؛ كوني أتعامل مع الأفكار «اللاواعية» ... وتسلسُلات الأفكار ... والدوافع «اللاواعية» كما لو أنها بياناتٌ نفسية لا تقل صحةً وموثوقيةً عن مثيلتها «الواعية». (المصدر السابق، صفحة ١١٣؛ التنصيص للتوكيد)

كان هذا ردًّا على الفلاسفة الذين ينكرون وجود اللاوعي.

بالإضافة إلى العلل الجسمانية، كشف فرويد عن أهمية المصادر الطفلية للانحرافات، والمناطق المثيرة للشهوة الجنسية، والميل للجنسين.

وقد أنهى نصه بالحديث حول مشكلة التحويل. فقدَّم أولًا تعريفًا جامعًا لأنواع التحويل:

> إنها نُسخٌ جديدة أو صورٌ طبق الأصل من الدوافع والتخيُّلات التي تُثار وتصبح في نطاق الوعي أثناء سير التحليل النفسي، لكنها تتمتع بسمةٍ خاصة، تُميِّز جميع أنواعها، وهي أنها تضع الطبيب محل شخصٍ ما سابقٍ في حياة المريض. (المصدر السابق، صفحة ١١٦)

أضاف فرويد أن العلاج بالتحليل النفسي لا يخلُق التحويل ويُصبِح أحد أكثر الأجزاء الإضافية تأثيرًا في العلاج.[٧]

استَوعَب فرويد أنه لم يتمكن من السيطرة على تحويل دورا؛ إذ كان يعتقد أنها أَسقطَت عليه صورةً للأب وربما صورة السيد كيه كذلك، مُفسِّرًا انتقامها من أبيها بأنه انتقامٌ من السيد كيه. وكانت تلك نقطةً ذات أهمية: «لقد «مثَّلَت» جزءًا أساسيًّا من ذكرياتها وخيالاتها بدلًا من إعادة إنتاجها خلال العلاج» (المصدر السابق، صفحة ١١٩).[٨]

في عام ١٩٢٣، أضاف فرويد ملاحظةً بناءً على اعتقاده بأن خطأه كان الاستخفاف بحُب دورا للسيدة كيه: «قبل أن أُدرِك أهمية تيَّار المثلية الجنسية في مَشاعرِ مرضى العُصاب، كنتُ غالبًا ما أَصِل إلى طريقٍ مسدود في علاجِ حالاتي أو أجد نفسي في حَيرةٍ تامَّة من أَمرِي» (المصدر السابق، صفحة ١٢٠).

إن هذا النص الطبي البارع يُتيح لنا ملاحظة فرويد بينما يُعالِج حالة دورا خلال الجلسات وملاحظته أيضًا بينما يعمل على تطوير نظريته؛ فقد تناوَلَ كثيرًا من المفاهيم تناوُلًا جديدًا وقدَّم تعريفًا لها؛ مثل آليَّات الكبت، والنكوص، والتثبيت، والتماهي. وفيما يتعلق بهذه المفاهيم، يُوضِّح حَراكَ التماهي، ما بين أُنثوية وذُكورية، بجلاء التكافُؤ في الازدواجية الجنسية.

ولكي نُجسِّد المسار الذي اتَّبعَه فرويد، دعونا نُعِد تناوُل المراحلِ البارزة لاهتمامه بمرض الهستيريا.

في مقال «الهستيريا»، الذي نُشِر عام ١٨٨٨، كان فرويد، رغم اقتناعه آنذاك بأن للمرض سببًا وراثيًّا، قد لاحظ أن «تطوُّر الاضطرابات الهستيرية غالبًا ما يحتاج إلى فترةِ حضانةٍ أو بالأحرى فترةِ كُمون، يستمر خلالها سببُ استثارة المرض في ممارسة تأثيره في اللاوعي» (فرويد، ١٨٨٨، صفحة ٥٢). وفي عام ١٨٩٥، وضمن «مشروع وَضعِ علمِ أمراضٍ علمي»، خُصِّص الجزء الخاص بعلم الأمراض النفسية بأكمله للهستيريا. ومن عام ١٨٩٣ إلى ١٨٩٥، بعدما نشر بروير حالة آنا أو، قدَّم فرويد أربع دراساتِ حالةٍ إكلينيكية حيث ظَهرَت نظرية الإغواء الذي يُمارِسه الأب في الصدارة. لكنه هَجرَ النظرية عام ١٨٩٧ مع اكتشافه أهمية التخيُّل.

في عام ١٨٩٦، كتب فرويد دراسته «مُسبِّبات مرض الهستيريا»، والتي تَتضمَّن بعض الملاحظات الجديرة بالذكر: «جميع حالات الهستيريا التي تَولَّيتُ علاجها كَشفَت عن وجودِ أساسٍ للأعراض الهستيرية» (فرويد، ١٨٩٦، صفحة ٢١٩)، وكان يرى كذلك في ذلك الوقت أنه «لا يمكن لعَرَضٍ هستيري أن ينشأ من التجربة الفعلية وحدها، لكن ... «في كل حالةٍ تَعُود ذكرى التجارب السابقة على نحوٍ مرتبط بالعَرَض وتلعب دورًا في التسبُّب به»» (المصدر السابق، صفحة ١٩٧؛ التنصيص للتوكيد). أَودُّ كذلك تسليط الضوء على نصٍّ كَتبَه فرويد عام ١٩٠٨ وهو «الخيالات الهستيرية وعلاقتها بازدواجية الميول الجنسية»؛ حيث تَناوَل أحلام اليقظة مُوضِّحًا أن: «كل نوبةٍ هستيرية تعاملتُ معها حتى الآن ثبت أنها تدفُّقٌ لا إرادي لهذا النوع من أحلام اليقظة» (فرويد، ١٩٠٨، صفحة ١٦٠). ويُشير بعد ذلك إلى خيالات اللاوعي:

> إن الشخص الذي يُمارِس الاستمناء يُحاوِل، في خيالاته الواعية، أن يختبر مشاعر الرجل والمرأة على حدٍّ سواء في الموقف الذي يَتخيَّله ... في بعض النوبات الهستيرية تلعب المريضة كلا الدورَين بالتزامُن في الخيال الجنسي الكامن ... إذ تتمسك بفُستانها بيد (بوصفها المرأة) وتُحاوِل باليد الأخرى نزعه عنها (بوصفها الرجل). (المصدر السابق، صفحة ١٦٦)

إن النص الذي كتبه فرويد حول دورا يُعتبر نصًّا تعليميًّا؛ إذ يُجسِّد لحظةً يضع فيها فرويد تكوين الجنسانية النفسية الأُنثوية.[٩] إن الأعضاء التناسُلية الأُنثوية، المُمثَّلة بوضوح في عُلبة المجوهرات وتُعد «مصدرَ فخرٍ للمرأة» (فرويد، ١٩٠٥أ [١٩٠١]، صفحة ٨٤) على حدِّ قول فرويد، هي بالقطع أعضاءٌ مجوفة؛ فقد كانت دورا تدُس إصبعها دون وعي داخل حقيبتها الصغيرة لاستكشافها. في عام ١٩٠٥، تَكوَّن لدى فرويد، فيما يبدو، معرفةٌ مُبكِّرة غيرُ مكتملة بالمهبل بوصفه عُضوًا مُجوَّفًا لدى فتاةٍ صغيرة لم تكن سوى فتاةٍ أولًا وأخيرًا؛ أي لم تكن «رجلًا صغيرًا» في البداية، وهكذا كانت صورتها لفترةٍ طويلة في نظريته.

في حالة دورا، عُرض المفهوم الفرويدي للجنسانية الأُنثوية كاملًا على نحوٍ لن يتكرر لاحقًا؛ إذ يتوصل التحليل النفسي مُجدَّدًا في حالتها إلى وجودِ جنسانيةٍ طِفليَّة مُوجَّهة على نحوٍ استقبالي ناحيةَ أبٍ يمتلك عضوًا جنسيًّا نافذًا، وذلك عبر تماهيها مع النساء اللاتي يُمارِس الأبُ معهن الجنس.

تُحرِّك الهستيريا، التي تُظهِر الفتاة المراهقة الكثير من علاماتها، المنطقة الشفوية المثيرة جنسيًّا، التي تَتضمَّن الحلق، «مُزيحةً إياه من أسفل إلى أعلى»؛ أي من العضو الجنسي المُجوَّف إلى الفم المُجوَّف، وذلك في حركةٍ غريزيةٍ مندفعة نحو المركز. في الجلسة التي تتحدَّث فيها دورا عن «الساعتَين» اللتَين قضَتهما أمام لوحةِ عذراء سيستينا، يُوجد خيالٌ كامن يدور حول الأمومة، ثم نجد بعد ذلك حُبها للسيدة كيه، وهو حبٌّ أبقته سرًّا وأدرك فرويد أهميته بأَثرٍ رجعي. كذلك تُكِن دورا — التي لا تزال في مرحلة المراهقة — حبًّا للمرأة التي ستُصبح عليها والمُجسَّدة في شخص السيدة كيه الجميلة، التي تتمتَّع بجاذبية مثلما أشار لها والدُها بوضوح.

أعاد فرويد النظر في مرحلةٍ متقدمة من أعماله إلى عرضه النظري للجنسانية الأُنثوية في نصَّين متتابعَين؛ هما «الجنسانية الأُنثوية» (١٩٣١) و«الأُنوثة» (١٩٣٣). في ذلك الوقت كان مهتمًّا بالمرحلة ما قبل الأوديبية؛ حيث كان الارتباط بالأم يُحدِّد في رأيه جميع العلاقات المستقبلية، وبالقضيب الذي يُولِّد الحسد، والذي اعتقَد بعد ذلك أنه أَمرٌ أكثر جوهريةً من الرغبة.

في حالة دورا لم يكن بالإمكان الاستدلال على التركيز الفكري الرئيسي إلا من خلال الإزاحة النفسية على السيدة كيه، وعلى العكس، لاحظ فرويد بوضوحٍ التركيز الفكري للأب، ولقضيبه ولنوعه الجنسي. وفي موضعٍ لاحق في النص، مثَّل حسَد القضيب، إلى جانب رفض الأنثوية لدى كلا الجنسَين، بالنسبة إلى فرويد الدعامة الباعثة على الخوف؛ أي «حَجَر الأساس»، أو سبب التحليلات النفسية اللانهائية.

يُعرِّفنا هذا النص كذلك على تماهيات فرويد، التي ساعدَته سريعًا على فهم أنه كان يُجسِّد شخصية السيد كيه في تحويل دورا والأب أيضًا دون شك، لكنها لم تُساعده على الأرجح على استشعار التأثير الجذَّاب الذي حظي به في التحويل.

أَمَّا فيما يتعلق بحب دورا للسيدة كيه، فلم يدرك فرويد أهميته في التحليل النفسي إلا في عام ١٩٢٣؛ إنه حبٌّ سِرِّي، أُبقي خفيًّا، حبٌّ ينطوي على الوفاء رغم خيانة السيدة كيه. والواقع أن فرويد قد اتهم نفسه بالسماح لجلسات التحليل النفسي بالتوقُّف بسبب هذا الحب؛ إذ فشل في تحليله في الوقت المناسب. ربما يُمكِننا اليوم اقتراحُ مزيدٍ من الدلائل التي تقود إلى التفسير الذي طالما كان مرغوبًا فيه لانقطاع دورا عن العلاج. لقد انتَقلَ فرويد مع دورا في مسار التحليل، دون قصدٍ منه، إلى عرض مكاشفات حول جنسانيتها الطفلية والحالية، وهي مكاشفات عَجزَت على الأرجح، كفتاةٍ مراهقة، عن فهمها، حتى على

مستوى اللاوعي، سوى باعتبارها تكرارًا للإغراءات الجنسية التي مرَّت بها من قبلُ، سواء الحقيقية أو المتخيلة.[١٠] ونتيجةً لذلك، هَربَت من الجلسات. وقد ذَكرَت دورا هذا لفرويد بعدما عادت لرؤيته بعد خمسة عشر شهرًا من توقُّف العلاج، فأَخبرَته أنها انتقَمَت من آل كيه؛ إذ أخبَرَت السيدة كيه أنها تعلم بأَمرِ علاقتِها مع أبيها، وأَجبرَت السيد كيه على الاعتراف بما جرى بينهما عند البحيرة. إن ثأرها منهما مثلما ثَأرَت من فرويد، عَبْر توجيه انتقامها نحو أشخاصٍ حقيقيِّين، عَبَّر عن اعترافٍ ضمني منها بفضل فرويد عليها؛ يبدو أن العلاج لم يخلُ من أَثَر.

أمَّا فيما يتعلق بما شكَت منه دورا من أعراض الجسمانية وميلها نحو التماهي الهستيري، فقد تحقق منهما خلال زيارتها الأخيرة إلى المُحلِّل النفسي، مما أتاح له أن يُقدِّم لها «تفسيرًا للتحويل»؛ إذ طلبت دورا مساعدته في علاج ألمٍ عصبي في الوجه بَدأَت تعاني منه قبل أربعة عشر يومًا. وتمكَّن فرويد وقتها من لفت انتباهها إلى أنها قَرأَت قبل أربعة عشر يومًا تحديدًا خبرًا يتعلق به.

لقد توحَّدَت دورا الشابة دون شكٍّ مع أبيها بوصفه مُستحوِذًا على السيدة كيه، وعلى أُمها أيضًا. لم يظهر حسد القضيب هنا لديها في موقع الصدارة؛ ففي حالة ظهوره في مرحلةٍ ما خلال التحليل لدى أي امرأة، فيما عدا حالات التثبيت الشديد، فإنه يتعلق بحركةٍ دفاعية في إطار التنافس مع الأم: «فلتطمئن، أنا لا أحسُدك على شيء ...» لكن حسد القضيب يتعلق كذلك بالرغبة في امتلاكِ كلِّ ما يلزم للاستحواذ على الأم، في حركةٍ أوديبيةٍ معكوسة. وفي حالة دورا، فإن ما يتجلَّى بوضوحٍ هو تماهيها مع أبيها في إطار ميولها الجنسية المُزدوجة.

في حالة دورا، لم يُركِّز فرويد على المازوخية كذلك، والتي قدَّم لاحقًا دراسةً مُفصَّلة إلى حدٍّ كبير حولها تحت عنوان «الإشكالية الاقتصادية للمازوخية» عام ١٩٢٤، ويتناولها كذلك في نصٍّ نظري وإكلينيكي يحمل عنوان «طفل يُضرب» (١٩١٩). إن وصف فرويد لهذه الخيالات الأُنثوية لدى الرجال يدعونا إلى اعتبار صفةِ الأنوثة جانبًا مِحوريًّا من جنسانية جميعِ الأفراد من كلا الجنسَين، وليس مجرد سمةٍ حصريةٍ لجنسانية المرأة.[١١]

إن الجانب الأُنثوي — في حالة عدم كونه نسخةً مخصيةً من الحالة القضيبية؛ أي عاملًا يبرُز بالمغايرة لدى كلٍّ من الرجال والنساء — يبدو بالفعل بُعدًا جوهريًّا، كما أشار بعض المُحلِّلين، في «الاستماع» التحليلي النفسي بقَدْر كونه بعدًا تقبُّليًّا، ما يُتيح دمج

الجانب الأُنثوي في عمليات التحليل النفسي لكلا الجنسَين. ومن غير الملائم اختزالُ مثلِ هذا الاستماع في الصفة الأُمومية فحسب؛ لأن ذلك ليس سوى بُعدٍ واحد من التقبُّلية الأُنثوية.

إذا كان الأُنثوي، لدى الإناث، يتكون من «فخرهن بنوعهن الجنسي وإيجاد المُتعة في الاتصال الجنسي والفخر بولادة الأطفال»،[١٢] فإنه يرتبط بنموذجٍ مثالي، لا يُتيح الشريك، والعُصاب كذلك، الوصولَ إليه دومًا؛ إذ تبقى موازنة القضيبي/المخصي حاضرةً في لا وعي كلا الجنسَين، إلى حدٍّ يطغى في كثيرٍ من الأحيان على الجنسانية.

ونختتم حديثنا بالإشارة إلى أن إدراك الاختلافات بين الأجيال وبين الجنسَين هو قطعًا أَمرٌ يظل صعبًا في أيِّ تحليلٍ نفسي؛ إذ يتطلب ذلك قَبول انتماء المرء إلى جنسٍ واحد فحسب من الجنسَين لا كليهما، وأن له مكانًا واحدًا في تعاقُب الأجيال.

إن كبح عُقدة الإخصاء، الذي يتجلَّى على نحوٍ مختلف بناءً على جنس المريض، هو العنصر القوي في هذه المرحلة؛ إذ تمر عملية التحليل النفسي، سواء كانت لرجلٍ أو امرأة، عَبْر نظرياتٍ عن الجنسانية الطِّفلية والخيالات الناشئة؛ عندئذٍ تُحدِّد المناطق المثيرة للشهوة الجنسية، والمكافِئات الرمزية، والنقاط الشرجية الحاسمة المناطق التي يعتزم أيُّ تحليلٍ نفسي التعامُل معها.[١٣]

«تَرجَم هذا الفصل من الفرنسية إلى الإنجليزية بيتر شايو.»

هوامش

(١) نرى هنا تحديدًا لنتاج عَرَضٍ هستيري بوضوح.

(٢) نتذكر هنا وجهات النظر الثلاث الخاصة بعلمِ ما وراء النفس؛ موضوعي، وديناميكي، ونشيط.

(٣) في هذا النص، يتعلَّق التحويل في البداية باعتباره إزاحةً لمشاعر دورا من والدها إلى السيد كيه، لكنْ هناك كذلك تحويلٌ للمشاعر على فرويد الذي يخضع للرفض نفسه الذي تَعرَّض له السيد كيه.

(٤) تعريفٌ تَغيَّر، كما نعلم، بعد عام ١٩٢٠ في مقال «ما وراء مبدأ اللذة».

(٥) سنعود لهذا التدخُّل من قِبل فرويد، بالإشارة إلى أنه قد مرت فترةٌ قصيرة بعد قصة الحقيبة الصغيرة قبل أن تُفصِح دورا عن حُلم عُلبة المجوهرات.

(٦) الكلمات من الحلم مكتوبة بين علامتي تنصيص.

(٧) قارن كذلك ببحث «آليَّات التحويل»، ١٩١٢.

(٨) قارن ببحث «التذكُّر والتكرار والتناول»، ١٩١٤.

(٩) ربما أتاح فرويد من خلال تعليقه على رواية جنسن «جرافيدا»، على نحوٍ كبير، إدراك صورةٍ لامرأةٍ ذات رقةٍ أنثوية وليست امرأةً محبطة من جنسها إلى حد اليأس.

(١٠) لِنتذكَّرْ أن فرويد قد تَخلَّى عن نظرية الإغواء عام ١٨٩٧. في فرنسا، اقترح جيه لابلانش نظريةً تمنح الإغواء الحتمي للطفل بواسطة شخصٍ بالغ دورًا جوهريًّا في الجنسانية النفسية.

(١١) هذه هي الأُطروحة التي يقوم عليها كتاب جيه أندريه «أصول الجنسانية الأُنثوية»، باريس: المطبعة الجامعية الفرنسية، ١٩٩٥.

(١٢) هذه الصيغة تعود إلى أندريه جرين.

(١٣) إم وجيه كورنو، «الإخصاء والأُنثوية لدى الجنسين»، باريس: المطبعة الجامعية الفرنسية، ١٩٩٣.

الفصل الثالث

«تحليل حالةِ رُهابٍ لدى صبيٍّ في الخامسة»

جين تيمبرلي

نُشِرَت هذه الورقة البحثية، التي تُعرف عادةً باسم «الصغير هانز» عام ١٩١٠ (فرويد، ١٩١٠)، وتُقدِّم عرضًا حيًّا للحياة الخيالية لطفلٍ جذاب، ومحاولات أبيه، تحت إشراف فرويد، لتحرِّي أسباب خوفه المرضي من الخيل وعلاج هذا الخوف. ويُعَد هذا هو التحليل الوحيد لطفلٍ الذي عرضه فرويد؛ إذ كان يؤمن بأن الأبوَين فقط هما من يستطيعان تولِّي مهمة تحليلِ طفلٍ في هذه السن الصغيرة نفسيًّا. إن ثَراء وعُمق ما تَكشَّف في هذا التحليل جعل منه حجرَ أساسٍ لا جدال فيه لمنهج التحليل النفسي للأطفال ومجال علم نفسِ الأطفال.

كان للسيرة المرضية لهانز غرضان رئيسان لدى فرويد؛ وهما إثبات وجود الجنسانية الطفلية وأهميتها النفسية عبر الملاحظة المباشرة لطفل، لا عَبْر استنتاجاتٍ نابعة من حالاتِ عُصابٍ لدى البالغِين، وإنما من خلال الملاحظة المباشرة لطفل، إلى جانب تقديمِ وصفٍ لكيفية تكوُّن تسويةٍ عُصابية؛ أي عرَضٍ مرضي، نتيجةً لكبت الجنسانية الطفلية.

عندما كتب فرويد «ثلاثة مقالات حول النظرية الجنسية» (١٩٠٥)، كان قد أصبح له مجموعةٌ متحمسة من المُريدِين، وكان يُشجِّعهم على تسجيل ملاحظاتٍ عن أطفالهم الصغار، علَّها تُفيد في توضيح نظرياته. وكان والد هانز باحثًا متدربًا مجتهدًا، يُدوِّن ملاحظاتٍ حول تطوُّر ابنه الصغير، رصد فيها تحوُّل هانز من الاهتمام الشديد بالخيل

إلى خوفٍ مرَضي منها جعله مرعوبًا من مغادرة البيت. وقد أتاحت تقارير الأب لفرويد الفرصة لدراسة العُصاب وهو في طَور التكوين، وأثناء مروره بتغيُّراتٍ استجابةً للتفاعُلات مع الأب حسب توجيهات فرويد.

كانت ملاحظة تطوُّر هانز وعُصابه تقع ضمن سياقِ علاقاتٍ شخصية مُعقَّدة؛ فوالدة هانز كانت مريضة لدى فرويد، وهو نفسه كان قد أهدى الصبي حصانًا هزَّازًا في عيد ميلاده الثالث (جراف ١٩٤٢، الصفحات ٤٥٩–٤٧٦)، وإن كان لم يذكر ذلك في النص. ولا بُد أنه كان واضحًا للطفل رغبةُ أبيه في إسعاد «الأستاذ» (فرويد) وإرضائه من خلال ملاحظته له؛ ففي إحدى المرات حضر الأب والابن معًا للخضوع لجلسةٍ علاجية لدى فرويد. ولا بد أن فرويد قد لاحظ أن اهتمام الطفل بالمسائل الجنسية، رغم تقزُّزه منها أحيانًا على نحوٍ مألوف (وهو ما عبَّر عنه بقوله «هذا مُقزِّز»)، كان محل اهتمامٍ كبير لدى الأب.

(١) الجنسانية الطفليَّة

في عام ١٩٠٥ نشر فرويد كتابه الرائع «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية»، الذي وصف فيه كيف أن الجنسانية الطفليَّة تتألف من مجموعةٍ مُتنوِّعة من العناصر الشبقية الذاتية والعناصر السابقة للمرحلة التناسُلية، وهي عناصرُ قد تُجهض في مسار التطوُّر نحو الأوَّلانية التناسلية، مُتسبِّبةً في جنسانيةٍ منحرفة أو عُصاب. لقد استبدل فرويد بنظريته السابقة حول كون الإغواء في الطفولة هو سبب العُصاب نظريةً أخرى تُعيد جذور العُصاب إلى تقلُّبات الدوافع الشهوانية التي تُمارِس نشاطها لدينا جميعًا في مرحلة الطفولة المُبكِّرة، بل إن الدوافع ما قبل التناسُلية المتعددة قد تندمج في النهاية تحت الأوَّلانية التناسُلية المشتهية للجنس المتغاير. غير أنها قد تُؤكِّد استقلاليتها في السلوك الجنسي المنحرف، أو تُظهِر وجودها المستمر وقوتها عَبْر الأعراض العُصابية نتيجةً للفشل في كبتها.

إن التقارير الأُولى عن هانز والسابقة على إصابته بالرُّهاب تُبيِّن اهتمامًا بأعضائه التناسُلية يجلب له المتعة؛ فنجده يُمارِس الاستمناء ويدعو أمه إلى لمس قضيبه. والمتعة هنا تجمع بين كونها شبقيةً ذاتية ومُوجَّهة نحو موضوعٍ مُعيَّن، ألا وهو أمه.

دفع الفضول هانز إلى الاهتمام، على نحوٍ يجلب له المتعة، بالنظر إلى أعضاء الحيوانات التناسُلية، لا سيما الخيول والزَّراف، واشتد فضوله، لا سيما بعد مولد أخته

هانا عندما كان يبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصفًا، فأخذ يتساءل عما إذا كان الآخرون، لا سيما أمه، يملكون أعضاءً تناسُلية مختلفة عنه (ذات حجمٍ كبيرٍ مثل أعضاء الحِصان التناسُلية)، أو ما إذا كان لديهم «عضو تبوُّل» من الأساس. يرى فرويد أن تشكُّك هانز نابعٌ من قلقه من فقدان عضوه التناسلي، وهو قلقٌ ينبذه الصبي عندما تُهدِّده أمه بقطع قضيبه، لكنه أدَّى بعد ذلك، حسبما يؤكد فرويد، إلى خوفه من عض الحصان له. وعندما ضحك هانز لدى رؤية جسد أخته الرضيعة عاريًّا وادعى أنه ضحك لأن لديها عضو تبوُّل لطيفًا للغاية، اعتبر فرويد ذلك رد فعل دفاعيًّا على ما اعتبره الطفل حالةَ إخصاء.

كذلك مما يُساهِم في تعزيزِ اهتمامِ هانز بالأعضاء التناسُلية دوافعه التلصُّصية والاستعراضية؛ إذ كان لعبه مع رفاقه يتضمَّن التلذذ بمُشاهدة الآخرين بينما يبولون ومشاهدتهم إياه في الحالة نفسها.

إن تلك الدوافع التي تظهر في المرحلة الأولى من الملاحظة تخضع لاحقًا للكبت؛ إذ سيخجل هانز بعد ذلك من المُجازَفة بأن يراه أحد وهو يتبول. وكان التبرز كذلك عمليةً تحمل معنًى شهوانيًّا كبيرًا لدى هانز؛ فقد كان يُعاني من الإمساك، وهو عرَضٌ اعتبره فرويد ناتجًا على الأرجح من متعةٍ شبقية ذاتية يجدها في الاحتفاظ بالبراز في الشرج. في سياق التحليل النفسي، كشف الطفل، على نحوٍ أدهش والده، عن أن اهتمامه بالبُراز ينبُع من أوهامه بشأن حمل أمه وخوفه من عملية الولادة. وقد جسَّد هذا عبْر رعبه المرَضي من أن يرى مرةً أخرى واقعة انهيارِ حصانٍ نتيجةً لجرِّه عربةً مثقلة بالأحمال، بل إن هانز في إطار تماهيه مع أمه، كان يدعو أحد «أطفاله» (ألعابه) لودي، وهو اسمٌ مُستوحًى من اسمٍ كان يطلقه على «البراز» Lumf، الذي كان يَستحوِذ على تفكيره على نحوٍ بالغ.

انبهر فرويد كثيرًا بقوة الفضول الجنسي لدى الأطفال لدرجةٍ دفعته إلى التفكير في اعتبار هذا الحافز المعرفي دافعًا منفصلًا.

انشَغلَ فضول هانز بقضية اختلاف الأعضاء التناسُلية، لكنَّ فرويد ذكر في كتابه «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية» أن السؤال الأول الذي يُثير غريزة المعرفة لدى هانز كان من أين يأتي الأطفال؛ إذ يصف ميلاد هانا بأنه «التأثير الأهم على تطوُّره النفسي الجنسي»، الذي نتج عنه إزاحةٌ مزدوجة لهانز من مكانته كطفلٍ وحيد ومن مكانه السابق في غرفه أَبوَيه. ذكر الأب أنه عندما حكى لهانز قصة «اللَّقلَق الذي يجلب الأطفال»، أبدى الطفل تشكُّكًا واضحًا، مُعلِّقًا أنه رأى دمًا في نونية السرير في غرفة أُمه عندما زارها بعد مولد الطفلة، وأن هذا الدم لم يصدر من عضو التبوُّل الخاص به. وفي واحدةٍ من أجمل

الفِقرات وأكثرها إقناعًا في دراسة فرويد، يكشف الطفل لأبيه على سبيل الدعابة أنه كان يعلم بوجود الطفل معهم «داخل صندوق اللَّقْلَق» أثناء الصيف السابق للولادة. لقد كان في شدة الانبهار بمباهج الأُبوة ويُحيط نفسه بلُعبه التي يعتبرها أطفاله. وعندما يخبره والده أن النساء فحسب هن من يستطِعن إنجاب الأطفال، اعترض رافضًا ذلك، ناكرًا اختلافه الجنسي بعُنف مثلما تُنكِر الفتيات الصغيرات «إخصاءهن».

(٢) تكوين الرُّهاب وآليَّاته

خضع استكشاف هانز التلذُّذي لدوافعه الجنسية الطفلية إلى الكبت، حسبما وصف فرويد في كتابه «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية»؛ ففي الفترة التي سَبقَت إصابته بالرُّهاب مباشرة، ذكر الأب أن اللذة الممتعة التي كان يستشعرها بينما يشاهده رفاقه أثناء تبوُّله ومساعدته له في ذلك حلَّ محلها إحساسٌ بالخجل؛ إذ بدأ هنا تكوُّن رد فعل، خالقًا آليةً دفاعية من الخزي لمواجهة الدافع لاستعراض نفسه وكشف أعضائه التناسُلية. وحل التقزُّز محل اهتمامه السابق بالبراز الذي كان يجلب له المتعة. يُشير فرويد كذلك إلى تغيُّر في أحلام هانز؛ إذ لم تعد تمنح دوافعه إشباعًا مباشرًا كما في الحلم الذي يرغمه فيه «شخصٌ ما» على التبول. كان الحلم الذي سبق بداية الرُّهاب مباشرة حلمًا عقابيًّا، حسب رواية فرويد، حيث يُعاقب هانز على رغبته في «ملاطفة» أمه بتركها إياه.

رأى فرويد في كتابه «ثلاثة مقالات» أن الكبت يعمل عن طريق موجاتٍ باطنية النمو، تحدث في مراحلَ مُحدَّدةٍ زمنيًّا، ويُشير في حالة هانز إلى عدد من العوامل الأخرى. بينما كان هانز يُعاني من الوحدة في غياب رفاق الصيف، تعاظَمَت استثارته فيما يتعلق بشوقه الجنسي إلى أُمه وأدَّت حدة هذه الاندفاعات إلى لجوئه لكبتها. ولما كان قد نبَذ تهديد أمه السابق له بإخصائه، فقد أصبح لهذا التهديد الآن تأثيرٌ مُؤجَّل تسبب في إثارة خوفه من الاندفاعات الكامنة في عضو التبول؛ فكان الصبي يُجاهد على مستوًى واعٍ للتغلُّب على الاستمناء التناسُلي الذي كان يُواسي به نفسه ليلًا.

في هذا الوقت، فَسَّر فرويد شيوع القلق اللاعقلاني لدى مرضى العُصاب إلى تحوُّل الشهوة الجنسية (الليبيدو) المكبوتة إلى قلق. وكما شرح لوالدَي هانز، لم يكن الطفل يُعاني من القلق العُصابي؛ لأنه انغمس في ممارسة الاستمناء، بل لأنه أخفق في كبته. علاوة على ذلك، ما إن تحوَّلَت الليبيدو عبر الكبت إلى قلق، لم يكن بالإمكان إعادة تحويلها؛ فحتى في ظل الرفقة المطمئنة جنسيًّا الممثلة في أمه، ظل هانز خائفًا من الخيول في الشارع.

في سياق التحول الهستيري، تجد الليبيدو المكبوتة منفذًا لها عبر الأعراض الجسمانية، وقد يكون التحول كاملًا تمامًا إلى حدٍّ يجرد المريض من القلق على نحو مذهل، وهي حالة يطلق عليها «اللامبالاة الجميلة». وحيثما يكون التحول أقل نجاحًا أو لا يحدث من الأساس، يتفجر القلق بديلًا عنه. بذل فرويد جهدًا خاصًّا في دراسته لإثبات أن نشوب القلق لدى هانز لم يكن في الأصل متركزًا حول الرهاب، إلا في وقت لاحق. فالرهاب حيلة دفاعية ثانوية موجهة ضد هستيريا القلق؛ فعَبْر تركيز القلق على موضوعٍ رُهابي، يتمكن المريض من مُحاصَرة القلق.

أكَّد فرويد أن محتوى الرُّهاب أتاح الفرصة لعودةٍ مُشوَّهة للمكبوت، اتخذت شكل خوفٍ من أن يعضه أبوه، الذي يرمز إليه الحصان ذو اللجام الأسود، أو أن ينهار هذا الحصان الذي يرمز إلى أبيه. كانت العربة الساقطة تمثل كلًّا من خيالاته حول مهاجمة أبيه وأفكاره المُروِّعة بشأن ولادة الأطفال. يُشير فرويد، إضافة لذلك، إلى أن الدوافع الأولية التي فُعل الكبت في مواجهتها كانت في الحقيقة «عاجزةً تمامًا عن التعبير عن نفسها دون حرج». إنها الرغبات الغيورة والعدائية ضد أبيه التي فسَّرها فرويد أثناء مباشرته للحالة والدوافع الجنسية السادية تجاه أمه. إن موجة الكبت التي خَضعَت لها تلك الدوافع اكتَسحَت في طريقها المتع الشهوانية التي يستمتع بها الطفل على نحوٍ واعٍ، مثل أنشطته الشرجية والاستعراضية والتلصُّصية. لقد كان الكبت مُوجَّهًا نحو الدوافع العنيفة، وهي التخلُّص من أبيه والاستحواذ على أُمه ومعاشرتها، وهي العناصر التي شكَّلَت ما سيصفه فرويد لاحقًا بعقدة أوديب الإيجابية.

لعب الرُّهاب، شأنه شأن الأعراض، دورًا في خدمة كلا جانبَي الصراع غير الواعي؛ فقد وضع قيودًا على حركة هانز واستكشافه النفسي لعالم الجنسانية الذي تُجسِّده الخيل والعربات في الشارع، ولكنه أبقاه في البيت بالقرب من أمه الحبيبة.

ينشأ الكبت والأعراض العُصابية التي قد تترتب عليه من الصراع. لقد كان هانز في صراع؛ لرغبته في تملُّك أمه والتخلُّص من أبيه، وهو موقف قد ينتج عنه انتقام أبيه منه (عبر إخصائه)، أو خسارة علاقته بأبيه الذي كان يحبه كذلك. «لماذا قلت لي إنني شغوف بأمي وإن هذا سببُ خوفي، في حين أنني شغوفٌ بك أنت؟»

من العناصر المحورية في نظرية التحليل النفسي الزعم بأن كبت دوافع الجنسانية الطفليَّة وأوهامها هو أساس الاضطراب العُصابي. غير أن فرويد يشعر بالحاجة إلى تناوُل — ودحض — فكرة أن العدوانية في رغبات هانز الأوديبية هو ما أدَّى إلى الكبت.

في هذه المرحلة، رفض فرويد فكرة وجودِ دافعٍ عدواني منفصل؛ إذ كان دائمًا ما يتصور الدوافع بوصفها ثنائياتٍ متضاربة، وكان يراها في هذه المرحلة دوافعَ جنسية ودوافعَ أكثرَ توجُّهًا نحو الواقع للحفاظ على النفس، لكلٍّ منها نصيبٌ أساسي من العدوانية. مع حلول عام ١٩١٥ (فرويد، ١٩١٥، الصفحات ١٠٩–١٤٠)، صار يفترض أن الكراهية هي تعبيرٌ عن دوافع الحفاظ على الذات، وفي عام ١٩٢٠ (فرويد، ١٩٢٠، الصفحات ٧–٦٤)، أعاد صياغة نظريته حول الغريزة جَذريًّا كي يضع العدوانية والنزعة التدميرية البشرية كتعبير عن غريزة الموت في مكانة مركزية لكونها مكونًا من المكونين الغريزيين للحياة العقلية والصراع العقلي.

تُعد هذه الدراسة وصفًا لتطوُّر الرهاب، ولكنها تُقدِّم كذلك عرضًا لطرق التخفيف من حدَّته عبْر تَدخُّل التحليل النفسي. ومما يُشكِّل أهميةً بالغة في هذا التحليل الطريقة التي يُحدِّد بها فرويد ووالد هانز منافسة الفتى لأبيه بوصفها عنصرًا حاسمًا فيما يُعانيه من عُصاب. فيتلقَّى الطفل المساعدة من الأبِ نفسه الذي كان يخشى انتقامه، كي ينظر إلى منافسته له كأمرٍ مُتوقَّع ولا يستحق العقاب. وفُسر للطفل طبيعةُ رغبته في أن يحلَّ محلَّ أبيه في الاستحواذ الجنسي على أمه، لتصبح تلك الرغبة واعيةً وخاضعة للحكم الواعي بدلًا من إذكاء الرُّهاب من موقعها في اللاوعي كرغبةٍ مكبوتة. لقد استطاع الأب، بمعاونة فرويد، تمكين هانز من تعريضِ مخاوفِه غيرِ الواعية لاختبارٍ واقعي. عندما يتلقَّى هانز تفسيرًا لخيالته حول أبٍ مخصي أو يقوم بإخصائه من شخصياتٍ أبوية؛ أي أبيه وفرويد، تتفهم ما يخوضه من صراع، يشعر بالارتياح. ومن هذه المرحلة فصاعدًا في مسار العلاج أصبح هانز أكثر تحرُّرًا على المستوى النفسي، وأضحى قادرًا على استئناف استكشافاته المرحة، إن لم يكن ذلك خارجَ جدران المنزل في البداية، ولكن في سياق علاقته مع أبيه، عَبْر ممازحته ولعب دورٍ نشط في استكشافاته للأمور الجنسية.

يبدو فرويد مؤمنًا ضمنًا بأن التعريف بحقيقة الأمور الجنسية سوف يُريح هانز من أعراضه؛ إذ قيل لهانز إن النساء لا يملكن عضو تبوُّل في معرض حَيرته وتساؤلاته حول ما إذا كان لدى الجميع عضو تبوُّل، وإن كان فرويد يُقِر لاحقًا بأن هذا التعريف بالحقائق ربما يزيد من قلق الطفل بشأن فقدان عضوه. لم يحاول أحدٌ إزالة الالتباس الذي حدث لدى هانز بين الوظائف التناسُلية والبولية والذي تسبَّبَت فيه أمه بإخبار الصبي أنها تملك بالطبع عضو تبوَّل؛ إذ قيل له لاحقًا إن النساء فقط هن من يستطعن

إنجاب الأطفال. كان فرويد يُفضِّل أن يخبر الأب هانز بدور الرجل في الممارسة الجنسية والتناسُل، وهو دورٌ كان الطفل قد بدأ بالفعل يستشعره في لعبه. ليس واضحًا ما إذا كانت المعرفة الجنسية قد قُدمت بهدف التصدي للتوقُّعات غير الواقعية، مثل رغبة هانز في ولادة الأطفال مثل أمه، أم كانت تهدف إلى تلبية الرغبة المُثبِّطة في المعرفة التي اعتقد فرويد أنها قد تدفع الأطفال إلى فقدان الثقة بالكبار والاستياء منهم لإخفائهم مثل هذه المعلومات عنهم.

كان لدى فرويد خطةٌ تعليمية؛ فكان يعتقد أن الآباء أيضًا يميلون بشدة إلى كبت سلوك الأطفال واستفساراتهم والتحكُّم بها. وعبْر نبذ ما لا يرَونه مناسبًا في شخصية الطفل، مثل الرُّهاب، قد تفوتهم فرصة منع عُصاب قد يظهر في مرحلة البلوغ نتيجةً لتجاهُل هذا النوع من المشكلات. ومرةً أخرى يبذل فرويد جهدًا كبيرًا للتأكيد على أن النظر بجديةٍ إلى الدوافع الكامنة لا يعني أن تلك رخصة بتفريغها، لكن الإدراك والحكم الواعيَين أقل إثارةً للتوتُّر من التسويات العُصابية التي غالبًا ما تستتبع الكبت. ويذكر فرويد عودة هانز لزيارته بعدما أصبح شخصًا بالغًا لا يعاني من العُصاب، وذلك لطمأنة قُرائه إلى تأثير التحليل النفسي في فترة الطفولة وتأثير الانفتاح في تربية الأطفال.

كان أسلوب فرويد العلاجي في هذا الوقت يحوي عناصرَ مُعتبرةً من التوجيه والتحقيق؛ فقد كان يعتقد أن المريض في حاجةٍ لتفسيراتٍ لما يحدُث وليس لديه الثقة الكاملة في قدرته على الانتظار ومراقبة كيفية تطوُّر عملية التواصُل لدى المريض والتعبير عما بداخله. كان والد هانز يُراقِبه، لكنه كثيرًا ما يستجوب الطفل على نحوٍ قسري وعقيم. لقد كان هانز، في الحقيقة، طفلًا ذا خيالٍ جامح وفي سياق التحليل النفسي تعلَّم الأب أن يترك ابنه يقوده إلى مناطقَ لم يتوقَّعها هو كأب.

(٣) التطوُّرات اللاحقة في نظريات فرويد

في عام ١٩٢٦ عدَّل فرويد في كتابه «الكف والعَرَض والقلق» من نظريته حول القلق، وفي خِضَم ذلك راجع فهمه لرُهاب الأطفال من الحيوانات؛ فنبذ رؤيته السابقة حول كون الليبيدو المكبوتة مصدر القلق العُصابي، وزعم، على العكس من ذلك، أن القلق الذي تستشعره الأنا هو ما يدفع إلى الكبت. ولم يُورِد هنا أي ذكرٍ للقلق المختلط الذي كان، في حالة هانز، موجودًا قبل أن يُركِّزه الطفل على الخيل. بل يزعم عِوضًا عن ذلك أن قلق

هانز قد نبع مباشرةً من خوفه الأوديبي من الإخصاء، وأن هذا الخوف كان مكبوتًا بجانب رغباته الشهوانية والدموية حيال والدَيه. وكانت الآلية الدفاعية التي لجأ إليها الطفل تتمثل في إحلال الخوف من الخيل محل خوفه من أبٍ يُريد إخصاءه.

تَبلورَت آراء فرويد حول عقدة أوديب في الأبحاث التي كتَبها خلال العقد الثاني من عشرينيات القرن العشرين؛ ففي عام ١٩١٩ كتَب فرويد في كتاب «طفل يُضرب» عن عقدة أوديب دون أن يُشير إلى قلق الإخصاء أو حسد القضيب لدى الفتيات. غير أنه في عام ١٩٢٣ احتل هذان العاملان موضعًا رئيسًا في دراسته «النظام التناسلي الطفلي»، وذلك في نظرية الأحادية القضيبية التي شكَّلَت الأساس لدراساته اللاحقة. عندما يُدرك الصبي، كما في حالة هانز، أن الفتيات والنساء لا يملكن قضيبًا مثله، فإنه يفترض أنهن قد تعرَّضن للإخصاء. وقد أدَّى خوفه من احتمالية تعرُّضه للإخصاء على يد أبيه جزاءً له على منافسته الشهوانية له في الاستحواذ على الأم إلى لجوء هانز لكبت جنسانيته الطفلية والانتقال إلى مرحلة الكمون. في المقابل، تُدرك الفتيات في هذه المرحلة أنهن مَخصِيَّات، ويعتقدن أنهن لا يملكن أعضاءً تناسلية ويحسُدن الرجال على امتلاكها. وقد زعم فرويد أن الأطفال لا يعرفون إلا نوعًا واحدًا من الأعضاء التناسلية وهو القضيب، ولا يُدرِكون وجود المهبل حتى مرحلة البلوغ. وعلى نحوٍ مماثل، أصبح يؤمن بأن «من السهل ملاحظة عجز الطفل عن تخمين الحقائق الفعلية للعملية الجنسية» (فرويد، ١٩٢٧، صفحة ٢١٣).

تختلف تلك الآراء على نحوٍ غريب مع الملاحظات التي طرحها فرويد في حالة الصغير هانز؛ ففي الملاحظات السابقة كان يُفسِّر خيالات الطفل على أنها «في سبيلها لافتراض وجود المهبل»، ولاحظ في لعبه إدراكًا لطبيعة العلاقة الجنسية والتناسُل. وقد تساءَلَت شاسيجيه-سميرجل (١٩٧٦، الصفحات ٢٧٥–٢٨٦) لمَ لا تستطيع الفتاة إدراك وجود المهبل وهي تملك واحدًا بالفعل إذا كان الصبي قادرًا على توقُّع وجود فتحة مهبلٍ عبر ملاحظة جسده. تجاهَلَ فرويد (١٩٣٣، صفحة ١١٨) أهمية النتائج التي تَوصَّل لها زملاؤه ممن تحدَّثوا عن ذكرياتٍ من مرحلة الطفولة تُشير إلى حدوث استثارةٍ مهبلية. ويُشير إتشجوين (١٩٨٨، الصفحات ٣٧–٤٣) إلى احتمالية أن هانز ربما لم يكن مُخادعًا لأغراض دفاعية، بل مُعجبًا عندما سخر من عضو التبوُّل لدى هانا مبررًا سلوكه بعد ذلك بأنه كان يرى أن عضوها لطيفٌ للغاية.

انقَسمَت مدرستا التحليل النفسي في فيينا ولندن حول مسألة الأُحادية القضيبية خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وكان رأي جونز (١٩٣٢، الصفحات ٤٥٢–٤٨٤) أقرب إلى رأي فرويد عامَ ١٩٠٩ عندما أدرك أن الأطفال يعُون الواقع الجنسي سريعًا، سواء أخبرهم آباؤهم عنه أم لا، وسواء شاهدوا المشهد الجنسي الأوَّلي أم لا؛ فيرى جونز أن نظرية الأُحادية القضيبية هي وهم يعمل كحيلةٍ دفاعية لمواجهة ما هو مزعج بشأن الاختلاف الجنسي والمشهد الجنسي الأوَّلي، وهو نفس موقف كلاين (١٩٤٥، الصفحات ٣٧٠–٤١٩)، التي بنَت مُلاحظاتِها على لعب الأطفال في مرحلةِ ما قبل الكمون، وهو المصدر الذي استخدمه فرويد عندما كتب عما كان يعرفه الصغير هانز.

(٤) عقدة أوديب السلبية

في التقارير الأُولى لحالة هانز، قبل بداية الكبت والرُّهاب، وصف الأب مشاعر الصبي المُحِبة تجاه رفاقه، مثل فريتزل، بأنها كانت على نفس مستوى استجاباته الرقيقة تجاه الفتيات. وقد أشار فرويد إلى «مداخل المِثلية الجنسية» هذه لدى هانز بوصفها واحدةً من جوانب الشهوة الجنسية المُتعدِّدة الأشكال التي ازدَهرَت قبل أن تَتبدَّى تأثيرات الكبت للعِيان. وأشار كذلك نظريًّا إلى كون المثلية الجنسية تقع في المنتصف بين الشبقية الذاتية والعلاقات بالموضوع، وهو في هذا النص لا يَتعقَّب مشاعر هانز المثلية الجنسية بوصفها تلعب دورًا في إصابته بالعُصاب.

ربط فرويد لاحقًا في كتابه «الكف والعَرَض والقلق» (١٩٢٦ [١٩٢٥]) بين هانز ورجل الذئاب، وذكر في إحدى الفِقرات أن في كلتا الحالتَين ينبع رُهاب الحيوانات من رغباتٍ مثلية سلبية ومحبةٍ نحو الأب تعرَّضَت للتشويه عبر النكوص إلى المرحلة الفموية، إلى جانب تعرُّضها للكبت. «لقد هاجَمَت عملية الكبت جميع مُكوِّنات عقدة أوديب تقريبًا؛ أي كلًّا من دوافعه العدائية والمُحبة تجاه أبيه ودوافعه المُحبة تجاه أمه.» غير أنه في الفِقرة التالية كتب يقول:

> لقد كان يضمر دون شكٍّ مشاعرَ حبٍّ ناحية أبيه كذلك، ولعِبَت هذه المشاعر دورًا في كبت المشاعر المناقضة لها، لكن لا يسعنا إثبات ما إذا كانت هذه المشاعر قويةً بما يكفي كي تستدعي الكبت ولا إثبات اختفائها لاحقًا. في الحقيقة يبدو أن هانز كان صبيًّا طبيعيًّا لديه ما يُطلَق عليه عقدة أوديب «إيجابية».

ليس واضحًا إن كان فرويد لم يُدرِك المعاني الضمنية المثلية في رُهاب الحيوانات إلا من خلال التحليل النفسي لحالة رجل الذئاب، أم إنه أحجم في عام ١٩١٠ عن استكشاف هذا الجانب من العُصاب مراعاةً لردود الفعل المُحتمَلة من جانب والد هانز ومن قُرائه آنذاك.

من الواضح أن هانز كان مأخوذًا بالإشباعات المرتبطة بالأمومة ورفض المعلومات التي تؤكد أنها إشباعاتٌ خاصة بالنساء فقط. وحتى بعدما أدرك الكثير من المعلومات، كان أحد أوهامه الأخيرة التي دُونت أنه محاطٌ بأطفاله يتولى رعايتهم وتنظيفهم بعد عمليات الإخراج. وعلى الرغم من أنه كان يقول وقتها إنه والدهم، لا والدتهم، فإن المشهد يبدو أنه يستمد مما لاحظه من علاقة بين أمه وأخته الرضيعة أكثر مما استمد من التماهي مع أبيه. ولا يستكشف فرويد في هذا النص احتمالية كون هذا التماهي مع الأم قد امتد إلى أوهامٍ يحل فيها محلَّها في العلاقة الجنسية مع أبيه.

يُركِّز التحليل على عدائية هانز الأوديبية تجاه أبيه، غير أننا نجد العديد من المؤشرات على عدائيته تجاه أمه؛ فالحُلم الذي يؤدي إلى بدء الرُّهاب يدور حول تركها له. ويُفسِّر فرويد هذا الحُلم على أنه حُلمٌ عقابي، لكن فرانكيل (١٩٩٢، الصفحات ٣٢٣–٣٣٣) تقترح أنه ربما نتج عن رغبةٍ في التخلُّص منها؛ فيُلقي والد هانز اللَّوم على الأم لقيامها باستثارة الصبي إلى حدٍّ مبالغ فيه عندما تساهَلَت مع رغباته في النوم معها في فِراشٍ واحد والدخول معها إلى الحمام. ويَتناوَب هذا التدليل مع تهديداتٍ فظة وقاسيةٍ بتركه أو بقطعِ قضيبه. وربما كان تخيُّل هانز لها وهي تضربه ذا طابعٍ انتقامي لا شهواني. وخوفُه من الغرق في المغطس ينبُع من أوهامه القاتلة لما قد تفعله أمه بأخته، وهي أوهامٌ قد تكون نابعةً من تصوُّرٍ منطقي ترسَّخ عنها لديه، وكذلك من ميوله القاتلة تجاه أخته.

أشار أتباع نظرية التعلق (بولبي، ١٩٧٣، الصفحات ٢٨٣–٢٨٧) إلى أن «التعلُّق القلق» الذي ميَّز رُهاب هانز هو استجابةٌ شائعة لمزيج الإغواء والقسوة المُحيِّر الذي تُقدِّمه الأم؛ ففي إحدى المراحل يذكر والد هانز أن:

> دَافِعه في قصرِ مغامرته خارج البيت على عتبة الباب وعدم الابتعاد لأكثر من ذلك، والالتفاف للوراء في منتصف الطريق مع أول استشعارٍ للقلق هو خوفه من ألا يجد أباه وأمه في البيت لأنهما قد ذهبا وتركاه. (صفحة ٤٥، الفقرة ١٠)

عندما نما إلى علمه أن والدة هانز قد هدَّدَت الطفل بتركه، تجاهَلَ التهديد بوصفه ردَّ فعل طبيعيًّا إزاء سلوكه المشاغب، وفي هذا الصدد أشارت فرانكيل إلى أنه لا يمنح ابنه

أيَّ اطمئنان في هذا السياق. يبدو أن الخوف من التعرُّض للهجر لا يرُوعه مثل الخوف من الإخصاء. وقد أشارت سيلفرمان (٢٠٠١، الصفحات ٣٢٥–٣٥٨) إلى أن استكشافات هانز الجنسية فد تعزَّزَت دفاعيًّا بفعل شعوره بعدم الأمان، كما «اكتسبت قوةً خاصة ربما لكونها جزءًا من محاولاته للتحكُّم في حالة القلق المزمنة لديه.»

أبدى فرويد احترامًا واستحسانًا للطريقة التي يتبعها والدا هانز في تربية الأطفال؛ فقد تأثَّرا بنظرياته؛ ومن ثَمَّ كان يعتبر حالة هانز مثالًا توضيحيًّا إيجابيًّا للتأثير النافع للمعرفة بالتحليل النفسي على تنشئة الأطفال. وعندما أُثِيرَت بعض الانتقادات بشأن سلوك الأبوَين في مجتمع التحليل النفسي بفيينا (نانبرج وفيدرن، ١٩٦٧)، أبدى تحفُّظًا واحدًا فحسب، وهو أنه ما كان ينبغي للأم السماح لهانز بمرافقتها إلى الحمَّام، وأضاف: «أمَّا باقي الأمور، فهي تكوينية.» ويدافع فرويد عن الأم في الدراسة عينها قائلًا: «لقد اضطَلَعَت بدورٍ محتوم وكان موقفها عسيرًا.»

كان من أحد العوامل التي نَظرَ إليها الآن أتباع نظريتَي التعلُّق والتحليل النفسي بجديةٍ تفُوق كثيرًا نظرة فرويد في عام ١٩٠٩ أنه في خِضَم مُعاناة هانز من الرُّهاب، خضع لعملية استئصال اللوزتَين. لقد أُصيب هانز بالرُّهاب في يناير ١٩٠٨، فيما عاد الأب إلى كتابة التقارير حول حالةِ ابنه «بعد أكثر من شهر» مع بداية مارس. خلال تلك الفترة الزمنية الفاصلة أجرى هانز عملية استئصال اللوزتَين وكان عليه قضاءُ أسبوعٍ داخل المنزل، وبعد انقضاء هذا الأسبوع «ساءت حالة الرُّهاب لديه كثيرًا». من المثير للاهتمام أن فرويد قد مَرَّ مرور الكرام على هذا الحدَث الذي ربما ضَخَّم من مخاوف الطفل بشأن تعرُّضه للإخصاء. كانت أُمه عندما هدَّدَته، قبل ذلك بكثير، بالإخصاء قد أَخبرَته أنها ستستعين بالطبيب لإجراء تلك العملية، ولمَّا كان فرويد طبيبًا، فربما ضاعف ذلك من قلَق الطفل.

(٥) التحويل

لم يتناول هذا النص قضية التحويل. يبدو أن فرويد قد افتَرَض أن الطفل لن تنشأ لديه علاقةٌ تحويلية بينما لا يزال مُرتبِطًا في المقام الأول بموضوعاته الأُولى؛ أي أَبوَيه.

رغم ذلك، ربما لعب التحويل دورًا على مستوى البالغِين في علاقة والد هانز بفرويد. إن التنافُس الذي شَعَر به هانز نحو هانا ربما ظهر كذلك بين الأب وزوجته التي حظِيَت

بميزة العلاج على يد فرويد، وربما كان التحويل حاضرًا في دائرة المُحيطِين بفرويد ممن طلَب منهم إمداده بملاحظاتٍ حول سلوك الأطفال. وربما يكون قد ساهم في الصورة التي قدَّمَها والد هانز لزوجته؛ فهو يبدو لنا ولفرويد الطرف الأكثر عطفًا وحنانًا مُقارنةً بالأم.

يُلقي هينشلوود (١٩٨٩، الصفحات ٦٣–٧٨) نظرةً عن كثَب على مسار الجلسات الذي دوَّنها والد هانز. وتتناول دراسته كيف شَعَر هانز حيال الاهتمام الحماسي الذي أبداه والدُه بأوهامه واستكشافاته الجنسية. عندما لاحظ هانز أباه وهو يُدوِّن المحادثة التي دارت بينهما حول قصة الزرافة، سأله عن سبب قيامه بذلك، فأجاب الأب بأن ذلك من أجل إخبار الأستاذ. وكان رد فعل هانز المباشر أن أَخبَر والده بأن عليه إبلاغ الأستاذ أيضًا بحُلمه الذي رأى فيه أُمه في قميصها النسائي الداخلي. يُشير هينشلوود إلى أن هذا التداعي يُشير إلى شعور هانز بأنه عارٍ نتيجةً لاستغلال أبيه لأسراره. ولاحقًا يُخبِر أباه أنه قد رَفضَ الإجابة على تساؤلاتِ أُمه حول قصة الزرافة الخيالية؛ لأنه كان يشعر بـ «خزيٍ بالغ». يُلاحِظ هينشلوود كذلك الإشارات إلى العُري: «رأيتُ صبيًّا مُتشردًا يركب فوق شاحنةٍ وجاء الحارس وخلع عنه ملابسه حتى أصبح الصبي عاريًا تمامًا وأَجبرَه على الوقوف في مكانه هكذا حتى الصباح.» وزعم أن الصبي قد شَعَر بأن استجوابات أبيه قد أدت إلى فضحه، مشيرًا إلى أن استجوابات الأب المستمرة، وإن كانت مُغلَّفة بالنوايا الحسنة واللطف، كانت تطفُّليةً في عين هانز. أمَّا السباك الذي يحمل مِثقابًا كبيرًا طعن به هانز في بطنه، فيُمثِّل، حسب رؤية هينشلوود، شعور هانز باقتحام أبيه الدائم لعالمه الداخلي، وما جَسَّده هانز باستخدام دميته المطاطية قد يشير إلى مدى شعوره بالانتهاك.

إن التخيُّل الأخير الذي تصوَّر فيه هانز سبَّاكًا يستبدل مُؤخرته وقضيبه يكشف عن استسلام الطفل لتصوُّر أبيه لما يجري داخله. لا يعتبر فرويد أن هانز ربما شَعَر بانتهاك خصوصية عالمه الخيالي، أو ربما شَعَر بتناقُضٍ حيال استخدام تلك الخيالات في مثل تلك المحادثات المُمتِعة التي دارت بين أبيه والأستاذ. إن الحاجة إلى درجةٍ من الخصوصية في استكشاف الحياة النفسية الخاصة للمريض هي الدافع الرئيسي وراء الأهمية البالغة التي عادةً ما تُضفَى على السرية بين الطبيب والمريض، وسببٌ أساسي لاعتبار الأبوَين الآن أشخاصًا غيرَ مُناسِبِين إطلاقًا للعبِ دَور المُعالِج النفسي للطفل.

تحظى احتماليةُ وجودِ عناصرَ جنسيةٍ مثليةٍ مازوخيةٍ لم يُحسم أمرها لدى هانز بدعمٍ تأكيدي في سيرة هانز الذاتية اللاحقة التي أُطلِق عليها اسم «رجلٍ خفي» (جراف، ١٩٧٢، الصفحات ٢٥–٢٩). لقد عمِل هانز مديرًا للأوبرا في دار أوبرا الميتروبوليتان حيث

تعاوَنَ مع زفيريلي ورودولف بينج، وكان الأخير غالبًا ما يفرض رأيه عليه. وقد أشار البعض (فرانكيل، ١٩٩٢، الصفحات ٣٢٣–٣٣٣) إلى أن قدْره كان المساعدة في تنفيذ العروض المسرحية لرجالٍ أكبر منه سنًّا وأكثر منه شهرة.

خاتمة

كتب فرويد دراسته حول هانز مع بداية اكتشافاته النظرية الكبرى حول اللاوعي والعلاقة بين الجنسانية الطفلية والعُصاب. وطالما عدَّل النتائج التي كان يَتوصَّل إليها ونقَّحَها على مدى السنوات الثلاثين اللاحقة. إن العوامل مثل التداعيات الكاملة للانفصال والفقد المبكر والأهمية البالغة للتحويل لم تُدرك حتى لاحقًا. إن تأمُّل هذه الدراسة الآن من شأنه تسليط الضوء على ما بلغ فهمنا لاحقًا، ولكنه يُركِّز اهتمامنا كذلك على كلِّ ما حظي بأهميةٍ ثوريةٍ ودائمة في رؤية فرويد. لقد ظلَّ تأكيدُ فرويد على اتساع الحياة الشهوانية لدى الطفل وقُوَّتها البُعدَ الذي طالما أثار المقاومة الأشَدَّ في فهم التحليل النفسي، والذي لا يزال عُرضةً للتجاهُل أو الاستخفاف. صحيح، كما يشير فرويد نفسه، أن «والدَي هانز هما من استخلصا من المظاهر المرضية لدى هانز فكرةَ اهتمامِه بأعضاء التبوُّل»، غير أن غزارة التخيُّلات ذات الطابع الجنسي لدى هانز تتجلَّى في لعبه وبَلَغَت في أغلب الأحيان مستوًى لم يتوقعه الأب؛ إذ كان قلقًا إزاء اختلاف الأعضاء الجنسية ومعناه، وكان يُبدي فضولًا واهتمامًا بالغًا بالحمل فضلًا عن تخيُّل نفسه مكان أبيه. إن هانز يسعى لاكتشاف الدور الذي يضطلع به والده تحديدًا في عملية التناسُل وتقبُّل الحدود المرتبطة بالانتماء إلى جنسٍ محدد. وعبْر عمليات الاستكشاف تلك وما تُخلِّفه من صراعات، يُساعد الأب ابنه، بوصفه شخصًا بالغًا ذا نوعٍ جنسي محدد يستطيع الطفل التوحُّد معه في التحوُّل إلى رجل، والنأي بنفسه عن الالتباسات التي تكتنف علاقته الوثيقة أكثر من اللازم في بعض جوانبها مع أُمه.

إن الطفولة المبكرة هي البوتقة التي تتحدد بداخلها طبيعة علاقاتنا في مرحلة الرشد إلى حدٍّ كبير، لكن تلك الارتباطات تتعلق على نحوٍ مهم بخيالاتنا وتطلُّعاتنا الجنسية فيما يتعلق بآبائنا، وما نفهمه عن حياتهم الجنسية. ويكمن الاختلاف بين التحليل النفسي ونظرية التعلُّق في اعتباره مصير تلك الدوافع الجنسية الطفليَّة ونشاطها المستمر في اللاوعي قضيةً ذات أهميةٍ محورية لفهم حياة الشخص البالغ النفسية وما يطرأ عليها من أمراض.

الفصل الرابع

«عن النرجسية»

روزين جوزيف بيرلبرج

يُشكِّل كتاب «مقدمة عن النرجسية» (صدر في عام ١٩١٤) نقطة تحوُّل في التحليل النفسي؛ فعلى الرغم من أن النرجسية مفهومٌ لم يتناوله كثيرٌ من المُفكِّرين البارزين صراحةً على مدى عقودٍ كثيرة، فمن الممكن الدفع بأن كل دراسةٍ كُتبت عن التحليل النفسي منذ زمنِ فرويد تأخذ في اعتبارها ضمنيًّا التعديلات الفكرية التي جلبَها مفهوم النرجسية. لقد أدخل كتابٌ «عن النرجسية» تغيُّراتٍ جذرية على مفهوم الأنا؛ فمُنذُ وقت صدوره فصاعدًا، لم تعُدِ الأنا مُجرَّد مكانٍ للتحكُّم في الدوافع، بل أَصبحَت «موضوعًا»، صورةً، بقايا لتماهياتٍ ماضية. ما عاد يُنظر إلى الأنا بوصفها مستقلة عن أي علاقة، بل بوصفها نتيجةً لاستدخال واستيعاب العلاقات (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٨؛ سيجال وبيل، ١٩٩١؛ ساندلر وآخرون، ١٩٩٧ب). يُطوِّر فرويد هذه الفكرة على نحوٍ أكثر تكاملًا في كتابه «الحداد والسوداوية» (١٩١٧ [١٩١٥])؛ حيث قدَّم عرضًا كاملًا لعلاقة موضوعٍ داخلي تضمَّنَت إسقاطًا وتماهيًا. في هذه الدراسة، يصبح المريض واعيًا بالموضوع عندما يفقده، وهو ما مَهَّد الطريق أمام النظرية التي تدفع بأن الأنا مُكوَّنة من «تركيزاتٍ نفسية مهملة للموضوع»، وهي نظريةٌ قدمها فرويد على نحوٍ أكثر استيفاءً في كتاب «الأنا والهو» (١٩٢٣).

لم يَحظَ مفهوم النرجسية بالكثير من النقاش في الأدبيات البريطانية حتى سبعينيات القرن العشرين، وإن كان قد حظي بأهميةٍ محورية في فرنسا، في أعمال لاكان (١٩٦٦ [١٩٤٩])، وجرونبرجر (١٩٥٧)، وباش (١٩٦٥)، وجرين (١٩٦٦–١٩٦٧). احتل المفهوم مركزًا رئيسًا في فكر لاكان وتأكيداته على الوظيفة البنيوية لمرحلة المرآة. وفي أمريكا، منح كلٌّ من كوهوت (١٩٧١) وكيرنبرج (١٩٧٥) أهميةً بارزة للمفهوم في السبعينيات، ونُوقش كذلك في أعمال روزينفيلد (١٩٧١، ١٩٨٧).

يتسم اختيار الموضوع بالنرجسية عندما يكون الموضوع تجسيدًا للفرد نفسه، أو ما كان عليه في الماضي، أو ما يرغب أن يصبح عليه في المستقبل، أو عندما يُجسِّد جزءًا من الفرد (طفولته مثلًا). وفيما صِيغَت فكرة النرجسية الأولية أثناء معالجة فرويد لحالة شريبر وكانت معنيةً بالخرَف المُبتسَر (الذي أُطلق عليه الفِصام عام ١٩١١) وكذا بالمثلية الجنسية، اكتَسبَت الفكرة معنًى أكثر تكاملًا في كتاب «ما فوق مبدأ اللذة» (١٩٢٠).[١] ارتَبطَت النرجسية الأَوَّلية ارتباطًا مُعقدًا بجنون العظمة، وكان النموذج الأَوَّلي لها هو النوم، كحالةٍ من النعيم المثالي، من السيادة التامة أو القدرة الكلية، أو، حسبما أشار روزولاتو، خرافة العودة إلى رحِم الأم (١٩٧٦، صفحة ٢٠). وقد أشار فرويد إلى أن النرجسية تُمثِّل مرحلةً في التطوُّر الجنسي للفرد، تقع بين الشبقية الذاتية وحب الموضوع (١٩١١).

عرض روزولاتو بعضًا من خصائص النرجسية التي تتوازى مع عناصر أسطورة نرسيس،[٢] سوف أُشير إلى أربعةٍ منها: (١) رفض نرسيس لإيكو أو أمينينس؛ (٢) اكتشافه لصورته الذاتية، أو صورة شقيقته التوءم الميتة كما في نسخة بوسانياس، (٣) افتتانه بصورته المثالية تلك، (٤) بقاؤه عالقًا في حالة الجدب والعجز التي يعاني منها بين الحياة والموت.

توازي تلك العناصر، حسبما يرى روزولاتو، المتغيرات الموجودة في النرجسية: (أ) تراجع الشهوة الجنسية، (ب) إضفاء المثالية، (ج) التركيز على العلاقة مع توءمٍ مثالي، (د) الوضع العسير الناتج عن نُشوء معضلةٍ مستحيلة الحل في العقل.

يُعَد تراجُع الشهوة الجنسية أكثر الأفكار شيوعًا فيما يتعلق بالنرجسية؛ فهي تُمثِّل المنظور الديناميكي والاقتصادي الذي يعرضه فرويد في البداية، والذي يتضمن الرفض، والتنصُّل، والكبت والانفصال، والذي استكشفه فرويد لاحقًا في دراسته حول الإنكار.

المفهوم الثاني هو إضفاء المثالية أو المثلنة، والاختلاف بين ما إذا كان إضفاء المثالية على الأنا أم على الموضوع. يُلمِّح جرين هنا إلى مصطلح غريزة شبق النظر الخاص بفرويد؛ فعبْر اتخاذه نشاط النظر نقطةَ البداية بالنسبة إليه، ربط فرويد النرجسية بالمرئية (جرين، ٢٠٠١، الصفحة ٦):

> لأن نرسيس، حسب الأسطورة اليونانية، كان شابًّا يُفضِّل انعكاس صورته الشخصية على أي شيءٍ آخر، وتحوَّل إلى الزهرة الجميلة التي تحمل الاسم نفسه. (فرويد، ١٩١٠، صفحة ١٠٠)

غير أن النرجسية نفسها ليست إلا مظهرًا؛ لأن خلفه: «يمكن دومًا العثور على ظل الموضوع الخفي» (جرين، ٢٠٠١، صفحة ٦).

العنصر الثالث هو محو أيِّ انقسامٍ أو انفصال، وهو ما نجده في العلاقة مع توءمٍ مثالي. يُشير روزولاتو إلى أنه في مرحلة المرآة يُعتبر التعرُّف على الآخر قبل تعرُّف المرء على ذاته أمرًا بالغ الأهمية؛ إذ تُعَد مواجهة الآخر شرطًا مسبقًا لتكوين الذات. غير أن جرين يرى أن عدُو النرجسية هو «واقعية الموضوع» (٢٠٠١، الصفحة ١٧)؛ فالتكوين الفكري النرجسي يُهاجِم الاختلاف، بين الداخل والخارج، بين الأنا والموضوع، بين الذكوري والأنثوي. «إن الإحساس النرجسي بالكمال ينبُع من انصهار الأنا مع الموضوع وكذلك من اختفاء الموضوع والأنا داخل كائنٍ محايد، ليس بالذكوري ولا بالأُنثوي» (المصدر السابق، صفحة ٢٣).

أمَّا العنصر الرابع للنرجسية، فهو المأزق المستحيل الذي يفرضه وجود الموضوع، ما يؤدي إلى حلولٍ تنطوي على انفجارٍ وعنف أو، كما سأشير لاحقًا، انسحاب. ويصف روزولاتو تلك الحالة بأنها وضعٌ عسير يخلق أسيجة؛ لذا، يجد الفرد النرجسي، على سبيل المثال، مساواةً بين الحياة والموت.

وقد أتاح لنا علاج الشخصيات النرجسية فهمًا لأحد أنماط الاكتئاب. «بعيدًا عن كون الحزن هجومًا خفيًّا على شخصٍ آخر يُعتقد أنه معادٍ لأنه يسبب الإحباط، يُشير الحزن إلى أنا بدائيةٍ جريحة، تعاني من الفراغ والنقص» (كريستيفا، ١٩٨٧، صفحة ١٢). إن الحزن هو التعبير الأقدم عن جرحٍ نرجسي بلا مُسمى، لا يمكن التعبير عنه بالرموز، وأبعد ما يكون عن النضج، ما يعوق أي فاعلٍ خارجي (سواء كان الفرد أو الموضوع) عن فهمه.

(١) نص فرويد

يُستخدم مصطلحُ نرجسية في دراسة فرويد «عن النرجسية» (فرويد ١٩١٤) من أجل وصف العلاقة التي يعتبر فيها الفرد جسده هو موضوعه الجنسي. وبناءً على ذلك يمكن أيضًا تركيز الطاقة النفسية على الأنا كموضوع، التي كانت تُعتبر حتى ذلك الوقت قوةً كابتة فحسب. ويرى البعض أن هذا يُجسِّد تثبيتًا للشهوة الجنسية في مرحلةٍ مبكرة من النشأة؛ فالنرجسية هي حالة من العلاقات بالموضوع، يشعر الفرد فيها أن أجزاءً من نفسه هي الموضوع. ونجد في هذه الدراسة ثلاثةَ مفاهيمَ محورية: اختيار الموضوع، والتماهي، ومثل الأنا الأعلى.

تنقسم الدراسة إلى ثلاثة أجزاء؛ في الجزء الأول، يعيد فرويد التأكيد على آرائه حول ازدواجية الدوافع، وفي الجزء الثاني يُناقِش أنواع اختيارات الموضوع؛ أمَّا الجزء الثالث ففيه يطرح للمرة الأُولى فكرته حول مثل الأنا الأعلى.

يبحث فرويد عن أدلة على هذه الحالة الأولية في ثلاثة مصادر: التقارير المكتوبة حول رجلٍ مصاب بالذهان (شريبر)، وملاحظات سلوك الأطفال، وروايات الشعوب البدائية.

يفترض فرويد وجود «تركيز أصلي للطاقة النفسية على الأنا، يُمنَح بعض منه لاحقًا لموضوعات، لكنه يظل ثابتًا في الأساس ويرتبط بتركيز الطاقة النفسية للموضوع كارتباط الأميبا بأقدامها الكاذبة التي تبرزها» (فرويد، ١٩١٤، صفحة ٧٥). وتُدمج هذه الصياغة داخل صياغة فرويد الأُولى للصراع بين الدوافع الذي يعتبره صراعًا بين شهوة الأنا وشهوة الموضوع.[٣]

تَتمثَّل الموضوعات الجنسية الأُولى في الأشخاص المَعنيِّين بالرعاية الجسدية للطفل. ويشير فرويد، إلى جانب هذا النوع من اختيار الموضوع، إلى النوع «الاتكالي» أو «التعلق» من اختيار الموضوع (يُشير المُصطلَح الأخير إلى تعلُّق الغرائز الجنسية بغرائز الأنا) (المصدر السابق، صفحة ٨٧).

يفرق فرويد بين «النرجسية العادية» (أي شعور الطفل بالتميز ووقوعه في حب نفسه) و«النرجسية المرضية» (الانفصام، وجنون الاضطهاد، والألم الجسماني، ووسواس المرض، والانحراف الجنسي). من الممكن أن يتعرض الجميع لكلا النوعين من اختيار الموضوع؛ كما يشير فرويد إلى أن كل إنسان يملك في الأصل موضوعين جنسيين — نفسه والمرأة التي قامت على رعايته والاعتناء به — وبذلك يقترح فرويد وجود نرجسية أولية لدى كل فرد (المصدر السابق، صفحة ٨٨).

في حالة شريبر يحدد فرويد سمتين هما: الانصراف عن العالم الخارجي وجنون العظمة (للاطلاع على نقاش أكثر تفصيلًا لهذه النقطة، انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب).

يمضي فرويد بعد ذلك إلى مناقشة الطريقة التي ينشئ بها كلُّ فردٍ مثلًا أعلى داخل نفسه يقيس عبره الأنا الخاصة به (المصدر السابق، صفحة ٩٣). ويعتبر فرويد هذا التكوين لمثلٍ أعلى العامل الشرطي للكبت؛ إذ يصبح مثل الأنا الأعلى محَط حب الذات الذي كانت تتمتع به الأنا في الطفولة؛ فهذا المثل الأعلى هو «بديل النرجسية المفقودة في طفولته حيث كان هو نفسه مثلَه الأعلى» (المصدر السابق، صفحة ٩٤). إنه «قوةٌ نفسية خاصة تُؤدِّي مهمة التأكد من أن الإشباع النرجسي من جانب مثل الأنا الأعلى مكفول، وفي ضوء هذه الغاية، تعمل دائمًا على مراقبة الأنا الفعلية، ومُعايَرتها بواسطة ذلك المَثَل الأعلى» (المصدر السابق، صفحة ٩٥). ويشير فرويد إلى أن تكوين مثل الأنا الأعلى ينبُع من تأثير الوالدين البالغ الأهمية.

ينبع تطور الأنا من النرجسية الأولية، وينضوي على محاولة لاسترجاع تلك الحالة. وتُوضِّح هذه الدراسة اهتمام فرويد المتنامي بمسألة العالم الداخلي.

من المهم ملاحظة أن دراسة رجل الذئاب لم تُنشر إلا في عام ١٩١٨، على الرغم من أن علاج الحالة جرى بين عامَي ١٩١٠ و١٩١٤. في هذه الدراسة يُعنى فرويد بالأساس بالعلاقة بين النرجسية والتماهي. لقد طوَّر رجل الذئاب توجهًا جنسيًّا سلبيًّا نحو والده بعدما صَدَّته مُربِّيته. وقد احتل هذا التوجُّه السلبي مكانةً مركزية في مثلَّثه الجنسية المكبوتة وتماهيه النرجسي. تشترك حالة رجل الذئاب في العديد من السمات مع حالة شريبر، ويُعتبر التفاعل بين التماهيات الذكورية والأُنثوية إحدى القضايا الرئيسة التي ناقشها فرويد في كلتا الحالتَين (راجع مقدمة هذا الكتاب والفصلين الحادي عشر والثاني عشر). في حالة شريبر، يذهب فرويد إلى أن الشهوة الجنسية تُسحب من العالم الخارجي ثم تُوجه نحو الأنا، وينظر إلى الذُّهان كمحاولةٍ فعلية للتعافي.

سيُواصل فرويد تناوُل موضوع التماهيات في دراسته «الحداد والسوداوية» (١٩١٧ [١٩١٥])؛ حيث سيضيف مزيدًا من التطوُّر إلى مفهومَي الإسقاط والتماهي. إن الشخص السوداوي يعود إلى حالةٍ من التماهي النرجسي مع الموضوع، والعلاقة النرجسية مع الموضوع تتضمَّن إضفاءً للمثالية؛ فتُعامِل الأنا نفسها كموضوع وتنقسم إلى جزأين، أحدهما يثور على الآخر. في هذه الدراسة، خطا فرويد خطوةً ضخمة وبارزة فيما يتعلق بـ «تحويل الانتباه إلى الأنا».

وبناءً على ذلك نجد أن في السوداوية يحدث استدماجٌ للموضوع وتماهٍ معه؛ فيلوم المريض الموضوع الذي توحَّد معه الأنا، فيبدو الأمر وكأنه يلوم نفسه.

في كتاب «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» (١٩٢١)، يُطوِّر فرويد مفهوم التماهي وأنواع التماهيات. وفي كتاب «الأنا والهو» (١٩٢٣)، يَصوغ فرويد مفهومًا للأنا صياغةً مُكوَّنة من «تركيزاتٍ نفسية مُهمَلة على الموضوع»؛ فيقول:

> في جنون الارتياب الاضطهادي يصُد المريض ارتباطًا مثليًّا بالغ القوة بشخصٍ بعينه بطريقةٍ خاصة؛ ومن ثَمَّ يصبح هذا الشخص الذي يُكِن له كل الحب هو المُضطهِد الذي غالبًا ما يُوجِّه نحوه المريض مشاعرَ عُدوانيةً خطيرة. (المصدر السابق، صفحة ٤٣)

أشار جرين إلى قضيتَين رئيستَين أُثير النقاش حولها تزامُنًا مع نشر الدراسة حول النرجسية وهما: تصوُّر النرجسية عمومًا، والنرجسية الأوَّلية تحديدًا، والعلاقة بين اختيار الموضوع والنرجسية.

يذهب فرويد إلى أن الأنا لم يكن لها وجود من البداية، وأن «فعلًا نفسيًّا جديدًا» لا بد أن يحدث كي يُؤدِّي إلى نشأة النرجسية، فيما أشار لابلانش إلى أن هذه اللحظة هي لحظةُ اتحاد، ما يقتضي ضمنًا «اكتساب الفرد صورةً لنفسه قائمةً على النموذج الذي يُقدِّمه الشخص الآخر، وتكون هذه الصورة هي الأنا نفسها» (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٨، صفحة ٢٥٦). «بعدئذ تتخذ النرجسية شكل الافتتان الغرامي للفرد بهذه الصورة.» ويربط لابلانش هذه الفكرة «بمرحلة المرآة» لدى لاكان، مشيرًا بذلك إلى أن النرجسية تُصبِح عملية «استدخال لعلاقة»، المشابهة لما أسماه فرويد في كتاب «الحداد والسوداوية» لاحقًا «تماهيًا نرجسيًّا» مع الموضوع. ويستشهد لابلانش وبونتاليس في ذلك بورقة فرويد البحثية الصادرة عام ١٩٢٣: «تُنشِئ الشهوة الجنسية المُتدفِّقة في الأنا بفضل التماهيات ... النرجسية الثانوية» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٣٠). «وهكذا تُعتبر نرجسية الأنا نرجسيةً ثانوية نابعة من الموضوعات» (المصدر السابق، صفحة ٤٦).

(٢) مزيد من المناقشات حول البحث

يُحدِّد بارانجر تسعة استخداماتٍ مختلفة لمصطلح النرجسية يمكن تقسيمها لثلاثِ مجموعات؛ المجموعة الأولى تربط النرجسية بتقلُّبات الشهوة الجنسية.

في المجموعة الثانية، يَنصبُّ التركيز على الموضوع في الحالات النرجسية، ويُشير لنوع التماهي في شكله المُستدمَج. أمَّا المجموعة الثالثة، فتتألف من توسيعاتٍ للمصطلح للإشارة إلى التوجُّهات، والمشاعر، والسمات الشخصية الدالة على التقدير، أو نقص التقدير، أو المبالغة في التقدير لجانبٍ من جوانب الشخص (١٩٩١، الصفحات ١٠٩–١١٠).

في فرنسا، اقترح جرونبرجر مفهوم النرجسية البحتة المُجرَّدة من أي عنصرٍ غرائزي (١٩٥٧ [١٩٨٩]، صفحة ١٨٥). في البداية، تُشكِّل الأم والطفل جوهرًا أُحاديًّا تشكله النرجسية؛ وتُؤكِّد الأم نرجسية الطفل، المحمية من الصراع. إن نرجسية الطفل في الأساس هي نرجسية الأم، وهذا يُؤكِّد أهمية نظرة الأم المُحدِقة وأهمية التأمُّل. يُشير جرونبرجر كذلك إلى أصول النرجسية التي تعود إلى مرحلةٍ ما قبل الولادة، كحالةٍ من السعادة المثالية، أو السلطة المُطلَقة أو القدرة الكلِّية، وهي حالةٌ يَتمنَّى الطفل العودة إليها (المصدر السابق، صفحة ١٨٧).

في أمريكا، عمِل كيرنبرج على مفهوم الشخصيات النرجسية، وأشار إلى أن الشخصية النرجسية تمتلك مفهومًا ذاتيًّا مُدمجًا، وهو مفهومٌ مَرَضي وينطوي على وهمٍ بالعظمة، وتفتقد للاندماج والتكامُل مع الأشخاص الآخرين المُهمِّين في حياة الشخص، وهو ما يُشير إلى أن الدفاعات الأولية قيد العمل، وخاصة القُدرة الكلية وانتقاص القدْر.

تميل السمات البنيوية للظهور ببطء، متمثلة في سطحية غريبة أو عدم توافُر وصف مُفصَّل للآخرِين المُؤثِّرين في حياة الشخص.

أشار جرين إلى أن النرجسية أحدُ أشرسِ أشكالِ مقاومة التحليل: «أليس صحيحًا أن الدفاع عن الفرد يَتضمَّن، بطبيعة الحال، رفضًا للاوعي؛ إذ يشير الأخير ضمنيًّا إلى وجودِ جزءٍ من النفس يتصرف بما يتماشى مع مصالحه الخاصة، معترضًا بذلك طريق إمبراطورية الأنا؟» (٢٠٠١، صفحة ٩).

في مَعرِض نقاشه لمصير مفهوم النرجسية في أعمال فرويد، يُشير جرين كذلك إلى الارتباط المحتمل بين النرجسية وغريزة الموت: «إن التحوُّل الذي يطرأ إذن على الشهوة الجنسية للموضوع ... إلى شهوةٍ جنسيةٍ نرجسية (إذ تنتحل الأنا سماتِ الموضوع لكي تحلَّ محلَّه بعد فقدان الهو)، إنما يُلمِّح بوضوح إلى تخلٍّ عن الموضوعات الجنسية، أو تجريدٍ من الخصائص الجنسية، ما يُعد إذن نوعًا من التسامي» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٣٠، مقتبس في جرين، ٢٠٠١).

إن ما يُؤكِّد عليه جرين باقتباس الفِقرة السابقة أن عملية التجريد من الخصائص الجنسية التي لاحظها فرويد في مثل هذا التسامي هي عمليةٌ تحذو حَذو غريزة الموت، مشيرًا إلى أن ثَمَّةَ بضعةَ جوانب للنرجسية، على الأقل، ربما تتبع حَذْو مقاومة الشبق التي تتضمنها الغريزة التدميرية.

«لَمَّا كان فرويد قد انتهى إلى أن التسامي يحدُث بانتظام داخل الأنا، يمكننا استنتاج أن عملية التجريد من الخصائص الجنسية المترتبة على التسامي وعملية التفكيك المُضادَّة يحدثان أيضًا، ولو جزئيًّا على الأقل، داخل الأنا.» وقد كتب فرويد (١٩٢٣) بوضوح شديد قائلًا: «تعمل الأنا في اتجاهٍ مُضادٍّ لأغراض الغريزة الجنسية وتضع نفسها في خدمة الدوافع الغريزية المُضادة» (صفحة ٤٦).

أشار فرويد، وفقًا لجرين، إلى أن نرجسية الأنا هي نوعٌ ثانوي من النرجسية ارتدَّت من الموضوع، «لكنه لم يعُد صراحةً إلى موضوع الطاقة المتسامية باعتبارها مرتبطةً بالنرجسية وتخدم الدوافع المضادة للغريزة الجنسية. وأعتقد أن علينا تفسير مقولته الأخيرة عن النرجسية كمقولةٍ شاملة جامعة تتضمن عناصرَ تحتاج للمزيد من التحليل الوافي» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ٦٣٦). ونستشهد هنا بجرين:

> لقد تَوصلتُ إلى افتراض مفاده أنه منذ وقتِ ظهور آخرِ نظرياتِ فرويد عن الدوافع، كان علينا أخذ احتماليةِ وجودِ نرجسيةٍ مزدوجة في الاعتبار: نرجسيةٍ إيجابية، والتي تهدف للوصول للوحدة؛ وهي نرجسية تهدف للتفرُّد والوحدانية، بما يعني تغذية التركيز النفسي للذات، ولو جزئيًّا على الأقل، على حساب التركيز النفسي للموضوع؛ ونرجسيةٍ سلبية تكافح للوصول للمستوى صفر وتتجه نحو العدَمية وتتحرك نحو الموت النفسي. ولا يمكن استيعاب هذا التمييز بتبسيطٍ مُفرِط من خلال الاختلافات والتمايُزات المعتادة بين النرجسية الصحية والنرجسية المرضية. ربما يكون وجود اختلالٍ لصالح النرجسية أمرًا إيجابيًّا، ولكنه يظل مَرَضيًّا؛ لأنه يضعف العلاقات مع الموضوعات المُوجَّهة نحوها مشاعر الفرد. غير أنها أقل تدميرًا من النرجسية السلبية التي تهدف للإضعاف الذاتي للفرد وصولًا إلى درجةٍ أقرب إلى الفناء. (جرين، ٢٠٠٢، الصفحات ٦٣٦–٦٣٧)

سأتفق مع جرين في أنه بدلًا من الدخول في جدالٍ لا طائل من ورائه يتضمن قضايا نشوئيةً تتعلق بمفهوم النرجسية، وبدلًا من الوقوع في مصائدِ علم الوراثة، سيكون من

الأنفع كثيرًا تحديد «كيفية تنظيم التكوينات التحليلية المختلفة؛ وإدراك طبيعةِ ترابُطها الداخلي» (٢٠٠٢، صفحة ٦٣٧). يجب التفريق بين الجانب النرجسي لأي علاقةٍ تحليلية، وتحديد التحويل النرجسي في مختلف أنواع علوم الأمراض النفسية.

في ورقةٍ بحثيةٍ سابقة (بيرلبرج، ١٩٩٩)، قارنتُ بين نوعَين من التكوينات النرجسية، التي أَودُّ استكشافها على نحوٍ أعمق في الفصل الحالي. في النوع الأول، يُقابل تعصُّب الآخر وحساسيته المُفرِطة بالطرد والعنف. في النوع الثاني، يُقابَل بالانسحاب. في هذا البحث، سأُقارِن بين مرضى يُظهِرون سلوكًا عنيفًا جليًّا ومرضى لا يُظهِرون هذا السلوك، لكنهم، على الرغم من ذلك، يُظهِرون خلفياتٍ تاريخية مشابهة، وهو ما قد يقود لتوقُّعِ حدوثِ عنف. هم كذلك مختلفون أَشد الاختلاف فيما يتعلق بما يُثيرونه في التحويل المُضادِّ للمشاعر.

من ناحية، ثَمَّةَ مرضى «يملئون» غرفة الكشف، ليس فقط بعواطفهم وأفعالهم، بل كذلك بكلماتهم وأحلامهم وتداعي خواطرهم وأفكارهم؛ حتى إن المرء لَينتابُه إحساس «كما لو كانت ثَمَّةَ وفرةٌ مُفرِطة من التمثيلات تُهيمِن على غرفة الكشف.» إن التجربة هنا تتلخص في أن المُحلِّل «يندمج على نحوٍ مفرط» في عالم المريض؛ إذ يكون لدى المرضى أحلامٌ تُشير مباشرة للمُحلِّل ويشعر دائمًا بأنه منهمك على نحوٍ مُبالَغ فيه في تحليل المريض.

من ناحيةٍ أخرى، ثَمَّةَ مرضى يخلُقون «مساحةً شاغرة» في غرفة الكشف؛ فرَدُّ الفعل الذي يُثيرونه هناك هو عدمُ وجودِ سلسلةٍ من التداعيات لدى المُحلِّل، وهو نوعٌ من المشاعر الكئيبة يبقى حتى بعد مُغادرتِهم. ربما يُحضر المريض معه أحلامًا وتداعيات، لكنها لا تَتردَّد في عقل المُحلِّل؛ ومن ثَمَّ تُصبِح التجربة تجربةً من الجفاف والندرة في الذكريات ربما تترك لدى المحلل — في بعض الأوقات — «إحساسًا بالإقصاء من عالم المريض الداخلي»؛ فالرغبة الجنسية، بحسب تعبير جان كورنو (١٩٧٥)، لا تتحدث وحتى الموت يكون أكثر صمتًا من المُعتاد.

أَودُّ الإشارة إلى أن الفئة الأُولى من المرضى يُبدون قناعة «بتطفُّلهم» على المشهد الجنسي الأَوَّلي، بينما تُشير الفئة الثانية إلى «عدم قدرة» على تخيُّله؛ فكلا الفئتين تنكر، بطرقٍ مختلفة، المشهد الجنسي الأَوَّلي واستبعاده منه.

يتواصل هذان النوعان من المرضى من خلال الكلمات وكذا الأفعال، ورغم الاختلافات بينهما، فإنهما يتشاركان تجربةَ شيء «لا يمكن تمثيله» في عالمهما الداخلي ويشغل

كلاهما مساحة ربما يُنظَر إليها كمساحةٍ تقع «بعد» أو «قبل» النطاق التحليلي التقليدي للتمثيلات. والسبيل الذي يمكن للمُحلِّل من خلاله فهم كلا النوعَين من المرضى إمَّا عبر التحويل المُضاد للمشاعر، أو بأسلوبٍ مختلف، من خلال عاطفة المُحلِّل، بل إن بيون أشار في الواقع إلى أن التفسير الذي يُقدِّمه التحليل النفسي يجب أن يُعرِّف أي موضوعٍ في إطار عوالم «الإدراك والخرافة والعاطفة» (١٩٨٤، صفحة ١١).

يَتنقَّل العديد من المرضى بين هذَين النوعَين من التجارب. كلنا نعلم ذلك النوع من المرضى الذين يملئون الجلسة العلاجية لكي يُفرِغونها، أو أولئك الذين يملئون الجلسة بإحساسهم بالخواء والفراغ. غير أن كلا النوعَين من المرضى اللذَين أَشرت إليهما ربما يعملان كنموذجَين للتفكير في تأثير هؤلاء المرضى داخل غرفة الكشف.

(٢-١) روبرت

تَواصَل معي روبرت لأَوَّل مرةٍ من خلال رسالةٍ أخبرني فيها بقصةِ حياته، وأَرفَق مع الرسالة لوحةً شخصية له رُسِمت قبل سنواتٍ طويلة مضت. لم يكن يشعر بأنه قادر على ممارسة الرسم؛ كونه رسَّامًا، خلال السنوات العشر الأخيرة. كان روبرت ينحدر من عائلةٍ إيطالية فنية من الطبقة المتوسطة العُليا لديها ثمانيةُ أطفالٍ قَرَّر هجرها. كان والده وشقيقته فنانَين ناجحَين، وكذلك والدته قبل أن تُصاب بسلسلةٍ من الانهيارات العصبية أدت لإدخالها المصحَّة عدة مرات. كانت والدته تُمارِس العنف ضد أطفالها في طفولتهم، وكان الأبُ غائبًا وليس له دورٌ فعَّال. أثناء قراءة رسالته المكتوبة جيدًا والجاذبة للانتباه، راوَدَني شكٌّ بشأن الموقع الذي كان روبرت يرغب في وضعي فيه؛ فلم يكن الأمر قصةً رواها في وجودي وهو ما كان سيسمح ببعض النقاشات بيننا، فكان عليَّ أن أقرأ ما كتبه خارج سياقِ تفاعُلٍ حقيقي بيننا.

في هذه الرسالة، بدأ روبرت أيضًا يُطلِعني على بعضٍ من مواجهاته العنيفة؛ فقد انهارت علاقته بحبيبته بعد تصاعُد عنفه تجاهها، كما أَقدَم على الانتحار مرتَين. كان أكثر ما جذب انتباهي في رسالته الطويلة المُفصَّلة هو تعامُله مع تجربته مع الإحباط ومعركته العميقة ضد مشاعر اليأس والقنوط.

بعد ذلك اتصل بي روبرت ورتَّبنا لاستشارةٍ أَوَّلية. دخل روبرت، وكان رجلًا وسيمًا في أوائل الثلاثينيات، الغرفة يملؤه شعورٌ بالحيوية الجنسية المغرية، لكنه أيضًا استطاع بالكاد إخفاء خوفه مني. وسرعان ما انتابني خاطرٌ بأنه يشعر بالارتباك بخصوص هذا

اللقاء، وأنه ربما يشعر بأنها مشهدُ إغواء. وبالفعل، استمر روبرت على مدى النصف الأول من الجلسة في إخباري عن دخوله علاقاتٍ غراميةً متعددة مع نساء يكبرنه سنًّا لم ينجح في الحفاظ عليها إلا لفتراتٍ قصيرة من الوقت. ظننتُ أن من المهم التعامُل مع ارتباكه في البداية، وسرعان ما أَعلَمتُه أنني ظننتُ أنه كان مرتبكًا بشأن ما أَتوقَّعه منه، فهدأ بشكلٍ واضح واضطجع مُسترخيًا في المقعد، وحينها واتَتْه القدرة على إخباري بألمه الشديد لعدم قدرته على الرسم منذ مدةٍ طويلة، وأن حياته مليئةٌ بالمواجهات العنيفة التي خاضها منذ أن توقَّف عن الرسم. وعبَّر روبرت عن قلقه وعدم يقينه حِيال المستقبل وحِيال تجربته حتى إنه قد يُقدِم يومًا ما على إنهاء حياته لوضع حدٍّ لهذا العذاب.

فيما يلي وصفٌ لنوبةٍ عنيفة كشف عنها أثناء تلك الجلسة؛ أثناء زيارةٍ قام بها مُؤخرًا إلى إيطاليا، كان ينتظر امرأةً لتُنهي محادثتها الهاتفية في كابينة للهاتف، واستَغرقَت أكثر مما يمكنه انتظاره. فجأةً وجد نفسه يُهاجم الكابينة مُحطِّمًا إياها وأَلحَق إصابةً بالسيدة التي فرَّت بدورها في هلع، بينما انتابه ذُعرٌ شديد من مدى العنف الذي أَظهرَه.

وهكذا بَرزَت معضلة في بداية عملنا معًا. هل سيقدر على احتمال المساحات والفواصل والإيقاعات المختلفة المُتأصِّلة في عملية التحليل النفسي؟ استطاع روبرت فهم هذه الأسئلة وتناوَلَها بالتفصيل، وأتاحت لي تجربتي معه وملاحظتي أنه مُدرِك ليأسه أن أُقرِّر إخضاعه للتحليل.

بدأنا العلاج الأسبوع التالي. وفي أول جلسة له، جاءني روبرت يروي الحُلم التالي: «كان هناك بيتٌ جميل، أجمل بيت يمكن للمرء تخيُّله، مُحاط بحدائقَ وارفة غنَّاء ومليء بأعمالٍ فنية ولوحاتٍ شهيرة. كان البيت فسيحًا للغاية، وكل غرفةٍ تقود للتالية. غير أنه كان مُحاطًا بزجاجٍ لا يمكن اختراقه ولا يسع المرءَ إلا الإعجابُ به من الخارج فقط.»

أصبح هذا الحلم، بالتداعيات التي سبقَته وتلَته، نُموذجًا للطبقات المُتعدِّدة التي ينطوي عليها تحليل روبرت. وسرعان ما خَطَر ببالي تجربتي مع رسالته، ورغبته في نيلِ إعجاب الآخرين مثل المنزل الجميل المليء بالأعمال الفنية والذي ترك نفسه والآخر خارجه. إن الإضفاء النرجسي للمثالية على ذاته ينطوي ضمنًا على انسحابٍ من الواقع الخارجي نحو موضوعٍ داخلي أُضفِيَت عليه المثالية. واللافت للنظر في هذا المثال الإشارة إلى السمات الأربعِ التي حدَّدها روزولاتو: الانسحاب الشهواني من عالم الموضوعات الحياتية، وإضفاء المثالية الذاتية، وهو ما ظهر بالفعل في اللوحات الشخصية التي أَرسلَها لي روبرت، والتركيز على العلاقة مع توءمٍ مثالي (إذ كان قد أرسل لي لوحتَين بالفعل)، والمعضلة

المستحيلة التي نَشأَت في العقل، والمأزق المستحيل الذي يفرضه وجود الموضوع، والذي يُؤدِّي لحلولٍ تتضمن العنف والانفجار (كما في واقعة كابينة الهاتف).

بالنسبة إلى روبرت، وهو ما تَجسَّد في هذا الحلم، لم يكن ثَمَّةَ تواصُلٌ حيٌّ بين الداخل والخارج، بين عالمه الداخلي والواقع الخارجي. كان كل شيء إمَّا محبوسًا أو حرًّا طليقًا.

لقد كُنا نعود مرارًا إلى هذا الحلم أثناء عملنا معًا. كان المنزل كذلك يُمثِّل جسدَ أُمٍّ كان يراها غير معطاءة وعديمة الإحساس. وأيُّ تواصُل كان لا بد أن يكون نتيجة اختراقٍ عنيف (كما حدث مع كابينة الهاتف)؛ وبالطريقة نفسها كان ينظر إليها كشخصٍ مُتطفِّل على حياته بالشكلين؛ النفسي (بنوباتها الذُّهانية)، والجسدي (بالوقائع العديدة للعنف الجسدي). أخيرًا، كان الحُلم يُمثِّل خوفه من أنه أيًّا كان ما سيُنتجه فسيظل محبوسًا داخله. كان خوفه مما يحتويه جسدُ وعقلُ والدته المضطربة عقليًّا يُمثِّل جوهرَ ما كُنا نستكشفه أثناء تحليله.

كان حُلم روبرت الأول بالنسبة إلينا بمنزلةِ خريطةٍ كُنا نرجع إليها لفهم الكثير عن تطوُّر العلاقة التحليلية. كان المطلب الضمني لروبرت هو أنني يجب عليَّ الإعجاب به دون محاولة الانخراط في تواصُلٍ مُبالَغ فيه معه. كان يأتي للجلسات العلاجية مُحمَّلًا بأحلام وأفكارٍ مُفعَمة بالحيوية وتداعياتٍ وتفسيراتٍ تتعلق بها. وكان يبذل جهدًا جبَّارًا سواء في الجلسات أو خارجها فيما يخص هذه الأفكار والتجارب والانطباعات العديدة. كان مطلبه الأساسي ببساطة هو أن أُظهِر إعجابي به وبعمله دون تَدخُّل. لقد أصبحتُ خارجَ المنزل. كانت النقطة المثيرة بالنسبة لي في أسلوبي في التعامُل مع روبرت أن هذا ما كنتُ أفعله في الأساس لفترةٍ من الوقت، مُدرِكةً أن هذا ما كُنتُ أفعله؛ فقد كانت تعليقاتي وتأويلاتي، خاصة في البداية، نادرةً بالفعل رغم شعوري بحضوري القوي معه في الجلسات. كنتُ مُدركةً أن التفاعل معه أمرٌ لا يُحتمل بالنسبة إليه وأن التفاعُلات التي لا يُطيقها هي ما قادته إلى العنف.

بِبطءٍ شديد، تَغيَّر خوفُ روبرت من نشوءِ علاقةٍ بيننا وصار بالإمكان أن يكون ثَمَّةَ طريقةٌ مختلفة للتواصُل معه خلال الجلسات؛ نوعٌ من الحوار يمكن صياغته بسهولةٍ أكبر في كلماتٍ يمكنه تحملُّها. حتى وقتٍ قريب، كانت حياته الجنسية منحلَّة حيث كان منخرطًا باستمرارٍ في علاقاتٍ جنسية مع عدة نساء — يكبرنه سنًّا — في آنٍ واحد. كانت هذه العلاقات تُمثِّل محاولاته للشعور بالانخراط المستمر في مشهدٍ جنسيٍّ أَوَّلي متواصل

يستطيع فيه الإمساك بزمام السيطرة (أي الدخول في العلاقة ثم التخلي عنها)، وفي الوقت نفسه، النأيَ بذاته عن أي علاقةٍ حميمية.

بعد مرور حوالي ثمانية عشر شهرًا من جلسات التحليل، دخل روبرت في علاقةٍ عاطفية مع فتاة، وبعد عامَين من بدء التحليل، عاود الرسم مرةً أخرى. وقد عبَّر عن الصراع الذي كان يُواجهه تعبيرًا واضحًا وحيًّا عندما أراد أن يُهديني أول لوحةٍ استطاع رسمها بعد فترةٍ طويلة من الانقطاع. وأتاح رفضي لقبولها ودهشته الشديدة لهذا الرفض أن يؤمن إيمانًا كاملًا، ربما لأول مرة، أن عملنا معًا كان لصالحه في الأساس، وبدأ يُشارك في مَعارِضَ ومُسابقات، وفاز بجائزةٍ مرموقة في إيطاليا. وهكذا تَغيَّرت نوعية أحلامه تدريجيًّا.

في أحد أحلامه الأخيرة التي جاءني بها، «كان روبرت في المطبخ يطهو بصحبة حبيبته، ثُمَّ ذهبا في تمشيةٍ طويلة في حديقةٍ جميلة مليئة بأزهارٍ نادرة وغريبة.» كان روبرت في ذلك الوقت قد تَلَقَّى عرضًا للعمل مُدرسَ رسمٍ في بلدةٍ صغيرة في إيطاليا، وهو ما كان سيُتيح له وقتًا لتطوير رسمه، وذَهبَت حبيبته معه. كان جانبٌ ما من علاقته بي ما زال يُنظَر إليه كأمرٍ مثالي، لكن عندما رَحلَ كان ثَمَّةَ إحساسٌ بأنه سيستطيع الاستمرار في العمل الذي بدأناه.

(٢-٢) مايكل

مايكل شابٌّ ألماني جاء لجلسات التحليل النفسي بعد محاولةِ انتحارٍ جِدِّية أدَّت لإيداعه المستشفى. وُلِد مايكل كفيفًا وظل كذلك أول سنتَين من عمره، ثم أتاحت سلسلةٌ من العمليات له الإبصار مرةً أخرى. قضى مايكل طفولته في ارتباطٍ جسدي شديد مع والدته، وعاش مُحاطًا بحماية والدَيه اللذَين كانا في شدة القلق عليه بسبب موقفه الطبي، فنشأ طفلًا خجولًا شديد التعلُّق بوالدته وخائفًا من العالم عمومًا. كان يشعر بأن المصدر الأساسي للتحفيز الفكري هو والده الذي اعتاد القراءة له كثيرًا، وأَصرَّ لاحقًا أن يقرأ مايكل له. ومنذ مرحلةٍ مُبكِّرة من عمره، كان فكره المُتَّقد واضحًا، وتَفوَّق في المدرسة.

كبِر مايكل وحظي بمسيرةٍ عملية متميزة في الوظيفة التي اختارها. كان مايكل في البداية خجولًا في التعامُل مع الفتيات ثم النساء، لكن في أوائل مرحلة الرشد، أخذ عُنفُه في علاقاته مع النساء يزداد تدريجيًّا. وكان من الممكن أن يتحول من العنف تجاه الفتيات إلى ظهورِ دوافعَ انتحارية. في آخر علاقةٍ طويلة الأمد له مع امرأة قبل البدء في جلسات

التحليل، حدث عنفٌ شديد أَنهَت على أَثَره العلاقة بينهما. أدت محاولةُ مايكل للانتحار إلى دخوله المستشفى وظل نزيلًا في مُستشفًى للأمراض النفسية خارج لندن لشهورٍ عديدة، وبثَّت هذه التجربة الخوف في نفسه وقرَّر السعي للحصول على المساعدة.

كانت تجربتي مع مايكل في أَوَّل استشارة لنا تجربةً متناقضة؛ فمن ناحية، استطعتُ الوقوف على القوة الفكرية التي سَمحَت له بالنجاح في عمله وأسلوبه المُباشِر المُتحدِّي وشبه العدواني في التحدُّث معي، وهو ما جاء مُتناقضًا مع إحساسه بالضعف والارتباك تجاه ذاته وعلاقاته بالآخرين. غير أن أكثر ما أَثَّر فيَّ ودفعني لأعرض عليه الخضوع للتحليل النفسي كان اختباري لإحساسه بمدى الضررِ النفسي بداخله، وفقدانه للثقة في أن ثَمَّةَ من يجرؤ على العمل معه من أجل استكشاف الألم والظلام الطاغيَين على عالمه الداخلي.

كان مايكل رجلًا طويلًا أسمر اللون في أوائل الثلاثينيات، وكان ينتابه حُلمٌ مُتكرِّر منذ الطفولة: «كان يرى شاشةً بيضاء كبيرة أمامه. فجأة يظهر حيوانٌ أسود يندفع عبر الجزء السفلي من الشاشة أو نقطةٌ سوداءُ ما اندَفعَت عبر الشاشة وأَتلفَتها.» كان هذا الحلم يُرعبه. وتَذكَّر أنه كان يراه بينما كان في المستشفى بعد إجرائه عمليةً جراحية في عينه. كان الحلم يُشعره بالغثيان آنذاك، وكان ما زال يشعر بأنه مريض عندما كان يرى الحلم رغم أنه نادرًا ما يراه الآن. وعلى مدى جلسات التحليل استطعنا فهم جزءٍ من معنى هذا الحلم، وإن كان أعظم رؤية له جاءت بعد حدثٍ في إحدى الجلسات أدى لجلب الحُلم على نحوٍ دراماتيكي داخل دائرة التحويل. كانت الشاشة البيضاء ترمُز إلى الثدي المثالي؛ ذلك العالم الخالي من العقبات أو المثالب التي كنا نُواجهها حتمًا في خِضم تقلُّبات مرحلة العلاج.

ثَمَّةَ حُلمٌ آخر سرده مايكل في أول جلسة وهو حُلمٌ كان يشعر بأنه أحدُ أكثرِ الأحلام التي رآها إزعاجًا على الإطلاق: «كان يجلس في غرفة، وكان هو إلهًا داخل تلك الغرفة. كان هناك حادثُ سيارة ومهدُ طفل. كانت لديه القوة، بوصفه إلهًا، على تقرير ما إذا كان ذلك الرضيع سيعيش أم سيموت، وقَرَّر أن الرضيع يجب أن يعيش. ظلَّت الأحداث تَتكرَّر في حلقةٍ مفرغة وكان هو في الأعلى ينظر إلى كلِّ ما يحدث، ومرةً أخرى كان في موضعٍ يتيح له تقريرُ ما إذا كان الطفل الرضيع سيموت أم سيعيش. في النهاية، قرَّر أن الطفل سيموت.» استيقظ مايكل في منتصف الحلم وشعر بالخوف حقًّا وأراد العودة إلى الحُلم لكي يدع الطفل يعيش.

في تلك الجلسة، تحدَّثتُ إليه عن الوضعَين المُستحيلَين اللذَين يحويهما الحلم: الأول هو أنه كان إلهًا وهو ما يشير إلى جزءٍ كليِّ القدرة داخله له سلطة الحياة والموت على جزءٍ آخر من ذاته كان يراه طفلًا عاجزًا. الوضع الآخر هو كونه طفلًا عاجزًا؛ نفسٌ شهوانية طفولية مصيرها في يدِ شخصٍ بالغ القدرة. كنتُ أظن أنه يخشى أن هذا كلُّ ما سيحصل عليه من جلسات التحليل. أنا كذلك كان يمكن أن أكون في وضعٍ واحد فقط من الوضعَين: إله أو طفلٍ عاجز سألقى مصيري على يد ذلك الإله. كان مايكل خائفًا مما يمكن لأحدنا أن يفعله بالآخر. لم أستطع إغفال أن حتمية الموت كانت موجودةً منذ بداية هذه القصة.

خلال الأشهر الأولى، كان القدر المناسب من التواصل أمرًا جوهريًّا في جلساتنا: فإذا أَقللتُ من الحديث يصمت مايكل وينطوي على نفسه ويُصبِح هامدًا شبه فاقد الوعي؛ وإذا أسرفتُ، يشعر بأن هناك من يَتطفَّل عليه وينتابه الاضطراب. لقد كان التفاعُل بيننا يتطلب إيقاعًا مُحدَّدًا انخرطنا بموجبه معًا انخراطًا قويًّا، وأثار هذا بداخلي أفكارًا بشأنِ إيقاعٍ كان يجب أن يكون حاضرًا في تفاعُلاته مع والدته وهو طفلٌ صغير. لقد كانت علاقةً لم يستطع الطفل وأمه النظر أحدهما إلى الآخر من خلالها، وكان التواصُل الجسدي والصوتي يبدو لي شديدًا.

ظَهرَت أبعادٌ زمنية أخرى ببطء لدى مايكل. في سن المراهقة، كان عقله مليئًا بخيالاتِ عنفٍ واعية، وفي بداية مرحلة الرشد، انخرط في علاقاتٍ عنيفة مع عشيقاته وأقرانه. لقد كان يُحاول من خلال العنفِ ممارسةَ السيادة والسيطرة على عالم كان يراه مُخيفًا ولا معنى له. بعد مرورِ بضعةِ أَشهرٍ من جلسات التحليل، بَدأتُ أُدرك أيضًا كمَّ ما يُعانيه مايكل، خلال تحويل المشاعر، من لبسٍ بين الحميمية والجنسانية. لقد كان يَتنقَّل بين خيالاتٍ كليَّة القدرة بأنه قد أغواني لأُصبِح مُحلِّلته النفسية من ناحية، ورعب الهجران من ناحيةٍ أخرى.

كانت الجلسة التالية بعد مُرورِ بضعةِ أسابيع قبل إجازة الصيف الأُولى. شَعَرتُ برعب مايكل من العطلة القادمة وأخبرتُه بذلك، وكان ردُّه بمقولة: «كل إنسان يقتل الشيء الذي يحبه.»[٤] صاحَبَ هذا شعورٌ بالقشعريرة كان ينتابني خلال التحويل المضاد. شَعرتُ لبرهة بخوفٍ شديد لا تفسير له. وخيَّم صمتٌ طويل ثقيل الوطء قطعه مايكل في النهاية بقوله إن لديه شعورًا غريبًا بأن فكَّيه جافَّان. كان هذا الإحساس الذي كان عادةً ما يُصاحب حُلم الشاشة البيضاء التي كانت تتعرَّض للتآكل والتلف. لم يكن قد شعر بهذا الإحساس منذ وقتٍ طويل، حتى إنه نسي أن الحُلم كان يصحبه هذا الشعور. وهكذا

اكتَملَت تجربةُ اختبار القوة الحقيقية للضرر والقتل والانتحار خلال تحويل المشاعر. كانت هذه الجلسة قبل عطلة، وكُنا نواجه، على مستوًى مختلف، تجربة الظلام الوشيك الحدوث قُبيل انفصال تركه في الظلام. وقد أَخبرتُه بهذا التفسير.

جاءني مايكل بحُلمٍ آخر في الجلسة التالية: «دخل مبنًى حيث تُوجد مكتبةٌ مليئة بالكتب. كانت داخل متحفٍ للجريمة على الطراز الفيكتوري. كان هناك رجل يعمل طبيبًا سيقوم بإجراء عمليةٍ جراحية لسيدةٍ تعاني من كسرٍ في الساق. استغرقت العملية خمسين دقيقةً حيث قتلها خلال تلك الفترة، مستبدلًا بها امرأةً أخرى لديها كسرٌ في الساق أيضًا؛ لكيلا يشُكَّ أحدٌ فيما حدث. غير أنه كانت تُوجد دلائلُ كافية لمن يستخدم الطرق الحديثة في التحقيق للوصول إلى الحقيقة. كان مايكل يشاهد ما يحدث وحاوَلَ الهرب؛ فركض إلى طابقٍ آخر وظلَّ يُحاول الهرب بالركض بعيدًا ثم استيقظ.»

لا يمكنني سردُ تفاصيل الجلسة بالكامل ضمن هذا الفصل. لكن عندما أخبرني مايكل بالحُلم، تَذكَّرتُ على الفور الخوف الذي تَوغَّل بداخلي في الجلسة السابقة، وظننتُ أنه على وشكِ إيقاف الجلسات بسبب خوفه من التدمير الملموس سواء بواسطتي أو بواسطته. غير أن أكثر ما أدهشني خلال سرده للحُلم كان أسلوبه البطيء والرتيب في السرد ذي الطابع التنويمي، الذي يتعارض مع كلٍّ من المحتوى المخيف لحلمه والطابع الحاد المعهود لتفاعُلنا معًا في الجلسات. انتظرتُ، وبعد فترةٍ استمر مايكل في سرد المزيد والمزيد من التفاصيل، واصفًا النوافذ الزجاجية وخِزاناتِ الكتب في المكتبة وهي تفاصيلُ ثانويةٌ مقارنةً بالأحداث الأساسية للحُلم. صرَّحتُ بإحساسي بانفصاله عن الحُلم خلال الجلسة ووافقني الرأي، رغم أنه استيقظ مُرتعبًا. وبَرزَت هذه السمة الانفصالية كذلك في محتوى الحلم نفسه (على سبيل المثال، مشاهدته للأحداث كمراقب، ووقوع هذه الأحداث داخل متحف). أَخبرتُ مايكل أنني أشعر بأن هذا الحلم كان مخيفًا له أكثر مما ينبغي، وأنه لم يستطع فهمه. كان يبدو أنه يفهم هذا ويفهم كذلك فكرة أن رُعبه من الضرر الذي شَعَر أن أحدنا قد يُسبِّبه للآخر كانت حاضرة كذلك في الجلسة.

كان الحُلم يحكي مشهدًا أوليًّا بين امرأةٍ مُحطَّمة مخصية، اتضح أيضًا في النهاية أنها مزيفةٌ لأنها كانت مجرَّد بديلٍ لامرأةٍ أخرى ميتة، وبين قاتل. شَعَر مايكل أن هذا اللقاء مشابه لما يحدث في الجلسات بيننا؛ ففي الحلم، هرب المريض رغم أن جانبًا إيجابيًّا يمكن العثور عليه في فكرةِ وجودِ دلائلَ كافية لمحققٍ حديثٍ لاكتشاف ما حدث فعلًا؛ أي اكتشاف حدوث القتل والإخصاء. وبمجرد أن بدأ مايكل في الارتباط بي وبتحليله أكثر

وبدأ في اكتساب معرفةٍ بذاته، أصبح مُهددًا من ذاته وهدَّد هو ذاته بارتكاب جريمةِ قتلٍ في حلمه. وعندما بدأ في الوقوع في حُب مُحلِّلته النفسية، كان عليه قتلُها (كل إنسان يقتل الشيء الذي يحبه)؛ لأنها لو أحبته، فسيكون هذا بسبب أنها كانت متحالفة مع الجزء القاتل من ذاته؛ وهكذا ستكون مساعدتها زائفة. على مدى بعض الجلسات التي تلت هذا الحلم، أَصبحَت معضلة مايكل واضحة: لقد كان يخشى أن الطريقة الوحيدة لِتجنُّب الضرر رُبما تكمُن في الهروب، وأن عليه قتلَ التحليل بدلًا من أن يقتله التحليل.

لم يمنع ما قُمنا به معًا تجاه هذا الحُلم والاضطرابات الكامنة خلفه مايكل من ترك جلسات التحليل؛ فلم يأتِ إلى الجلسات في الأسبوع التالي، وكان الأسبوع الأخير قبل عُطلة الصيف. راسلتُه قائلةً إنني أتفهم أسباب شعوره بالحاجة للابتعاد، لكني سأُبقي الجلساتِ مفتوحةً له حتى أسبوع بعد نهايةِ عُطلة الصيف.

وعاد مايكل بعد الصيف واستطعنا الاستمرار في العمل معًا لبضعِ سنواتٍ تالية. ومع تقدُّم التحليل، أَصبحَت الحياة طبيعيةً أكثر إلى حدٍّ ما.

وهكذا، كان التحليل خلال السنوات القليلة الأُولى يتسم باحتماليةِ وقوعِ أذًى بيننا في شكلِ عنف، أو انهياراتٍ عصبية، أو حوادثَ وخاصة في عُطلات نهاية الأسبوع والإجازات. وبمرور الوقت فُهِم هذا وأُدخِل في لغة تحويل المشاعر وأَصبحتِ الكلمات تدريجيًّا وسائط للأفعال.

خلال إحدى الجلسات بعد مرور عامٍ تقريبًا على حُلمِ متحف الجريمة، حلم مايكل بأنه «سيُطرد من العمل بسبب انتمائه لمنظمةٍ فوضوية تُدعى «شاتوبريان» (نوع من الطعام يتكون من شرائح اللحم).» وقد أدَّتِ التداعيات المرتبطة بهذا النوع من الطعام إلى أفكارٍ تتعلق بالترف والوفرة؛ وجبةٍ لذيذة يمكنه الآن الربط بينها وبين التحليل والمجيء للجلسات. لقد كان يظُن أنني فرنسيةٌ بسبب لهجتي وسيارتي الفرنسية الصنع وكتابٍ فرنسي رآه في غرفة الاستشارات الخاصة بي. كان ينظر إليَّ كمن يُدخل الفوضى والرغبة إلى عالمٍ كان ينظر إليه في السابق كعالمٍ بيروقراطيٍّ واستبدادي في الأساس.

لم يُحاوِل مايكل الانتحار مُجدَّدًا بعد بداية التحليل. وعندما وصلنا إلى نهاية العلاج، كان في علاقةٍ مستقرة مع امرأة وصارت لديه خُطط للمستقبل.

أَودُّ أن أُقارن بين هذَين المريضَين؛ مايكل، وروبرت، اللذَين أدَّى وجودُ موضوعٍ لديهما إلى حلولٍ مُتعلِّقة بالعنف والانفجار، كما ناقش روزولاتو، وبين سايمون.

(٢-٣) سايمون

كان سايمون في أواخر العشرينيات عندما جاءني لأَوَّل مرة وظل يرتاد جلسات التحليل لعدة سنوات. في أَوَّل جلسةِ استشارة، كانت نظرتي إليه بالفعل كشخصٍ غيرِ ناضج ومحدود عاطفيًّا. أخبرني بعدةِ أُمورٍ عن نفسه، لكنه بدا غيرَ مُدركٍ عاطفيًّا لما يقوله. تَأَثَّرتُ بسرده لصراعاته النفسية على مدى حياته وشَعَرتُ بأنه رُبما يُبدي حزنًا مُتأخرًا كردِّ فعلٍ لموت والده منذ سنتَين تقريبًا.

ما أدهشني بشأن سايمون منذ البداية لم يكن محتوى الأحلام العديدة التي أغرقني بها والتي كانت تُجسِّد على نحوٍ متكرر إحساسه بالرفض، والهجر، والتردِّي، والاكتئاب. لقد كان أكثر ما أَثَّر فيَّ تدريجيًّا هو اختباري لإحساس الغياب بداخله، شعوره بأنه كِيانٌ مُهمَل بائس، وفي حالةٍ ما بين الحياة والموت طوَّقَتني أنا أيضًا خلال جلساتي معه مانعةً أي فعلٍ ترابطي من الحدوث داخل عقلي. قدَّم سايمون نفسه كشخصٍ منفصل على نحوٍ دراماتيكي عن ذاته، ولم يبدُ أن لديه أيُّ اهتمامٍ بأفكاره أو أحلامه أو كلَيهما؛ فقد كان يستطيع بكلِّ سهولةٍ أن يقطع حبل أفكاره وينصرف عنها بدون أي إدراكٍ أنني ربما أُتابِعه باهتمام. ربما لم يكن لديه بالفعل في تلك المرحلة أي تصوُّر أن ثَمَّةَ من يستمع إليه.

وُلد سايمون في اليونان وكان الأصغر بين ستة أولاد. كانت والدته على قيد الحياة وما زالت تعيش في اليونان حيث قضى سايمون أول عشرين عامًا من حياته. توفي والده قبل عامَين من بدء جلسات التحليل. كان لدى سايمون ذكرياتٌ لخلافات ومشاحناتٍ أبوية وعنفٍ جسدي مُروِّع. كان يبدو أن والدته تُعاني من اكتئاب حاد، وكانت تنتابها نوباتٌ ذُهانية على مدى طفولة سايمون؛ حيث كانت تحبس نفسها في الحمَّام وتُهدِّد بإشعال النار في جسدها. كان الأب يترك الأطفال يطرقون باب الحمام عبثًا مُتوسِّلِين إليها أن تخرج. كانوا يرَونَه كأبٍ غائب وغيرِ مبالٍ، منشغلٍ بعمله (كان يعاملني كابنٍ غيرِ شرعي!) على النحو نفسه، أصبح الأب جزءًا غيرَ شرعيٍّ من عقل سايمون.

في أَوَّل حُلم سرده سايمون في جلسات التحليل، حلم أنه «كان في البحر وشعر بحركةٍ ابتَلعَته على أَثَرها المياه العميقة ثم قَذفَته لأعلى.» أتاح هذا الحلم والتداعيات التي تبعته صورًا قوية للطريقة التي انغمس بها سايمون في تحويلٍ أَوَّلي للمشاعر اتسم بخوفٍ من الانهيار العصبي. صورةٌ أخرى كانت حاضرةً في حُلمه وهي نظرته لجسده بالكامل على أنه عضوٌ ذكري. لقد صوَّر سايمون تجربته مع فقدان ذاته وشعوره بالانفصال.

تعرَّض تمثيل سايمون لذاته كرجلٍ لطيف المعشر ومستسلم للتشويش خلال التحويل المضاد باستفزازي المُتدرِّج له. وبالتدريج فهمتُ إحساسي بالجمود وشعوري بوقوعي تحت السيطرة بفعل الإيقاع الذي وضعه؛ إذ اتسَمَت السنواتُ الثلاث الأولى من التحليل بإحساسٍ بالجمود و«انعدام التبادلية». كان يبدو أنه يمتلك قدرةً غريبة على الاستجابة لي على نحوٍ كان يشل حركتي.

كذلك كنتُ أشعر بأني مُراقبة؛ فقد دَفعَت محاولاتي للتعبير عن هذه التجارب لفظيًّا وصياغتها في تفسيراتِ سايمون إلى الإفصاح عن قيامه مراتٍ عديدة بركن سيارته أمام منزلي لمراقبتي أنا وعائلتي، ولكنه كان ينام دائمًا قبل أن يرى أيًّا منا. لقد كان سايمون يسعى سرًّا إلى التحكُّم في موضوعاته بمجرد التواجُد هناك، وربما ربط هذا ذهنيًّا بشعوره أنه لم يستطع أن يكون له تأثيرٌ على والدته.

ذات مرةٍ حلم سايمون «برجل يرتدي ثيابًا بيضاء ويقف قُبالة حائط أبيض. كان ساكنًا لدرجة تعذَّرت معها ملاحظته.» لقد عادت الفكرة المألوفة لاختفاء سايمون للظهور مرةً أخرى كما في الحُلم الأول الذي شعر فيه بأن البحر يبتلعه. وقد جاءه هذا الحُلم بعد جلسةٍ شعرتُ بأننا حققنا فيها بعض التواصُل. كان السكون والاختفاء انعكاسًا للعنف الذي كان يخشى حدوثه خلال أيِّ تواصل، وصدًى للمشهد الأوَّلي العنيف الذي شاهده يحدث بين والدَيه عندما كان يضرب كلٌّ منهما الآخر. وكان سايمون يُعبِّر دائمًا عن هذا الصراع بين الرغبة في أن يُرَى والرغبة في ألا يُرى؛ بين شوقه للمعرفة وعدم المعرفة، فيما يُعد تذكيرًا برغبةِ رجل الذئاب في عدم معرفةِ أيِّ شيء والاستبعاد (طالع جرين، ١٩٨٦، صفحة ٢٣٠). عندما كان سايمون يُوقِف سيارته أمام منزلي، كان هدفه هو المراقبة للقضاء على موضوعه الثالث (الهلوسة السلبية)، الذي تَمثَّل في هذه الحالة في معرفته بوجود عائلتي وحياتي بعيدًا عنه.

إن هذا الجانب من تحليله، المُتمثِّل في التخلُّص المُتواصِل من ذاته وموضوعاته حتى تَتوقَّف عن الوجود، يستعصي على الفهم والتفسير؛ فلا يظل للمرء إلا الخواء والفراغ. ورغم أن فكرة الإضرار بالنفس والموضوع تقع دائمًا على الحد الفاصل للتواجُد في تحليل سايمون، يتم تجنُّب توتُّر الاضطهاد. أظن أن أحد مخاطر مثل هذا التحليل هي أن يُصبِح التحليل نفسه بديلًا للحياة، فيصير كنفًا (أو شونيسي، ١٩٩٢) من الجمود والثبات؛ كل الأمور متشابهة بلا أي تغيير. يمكن أن يحدث هذا نتيجة إمَّا للتفسير الزائد عن الحد أو

الأقل مما ينبغي. فإذا أسرف المُحلِّل في التفسير — وهو ما أظن أنني كنتُ أميل للقيام به في السنوات الأُولى من تحليل سايمون — فإن المريض يعيش حياته من خلال المُحلِّل. وإذا قدَّم تفسيرًا أقل مما ينبغي، يغزو الجلساتِ صمتُ الموت.

(٣) مناقشة

أشار فرويد وأبراهام إلى أن الحزن يُخفي العدوانية تجاه الموضوع المفقود؛ ومن ثَمَّ يكشف تناقُضَ مريض الاكتئاب وازدواجيته تجاه الشخص موضوع الحزن. وهذه العملية تشير ضمنيًّا إلى أنا عليا قاسيةٍ وجدل بين إضفاءِ المثالية على النفس والآخر وتشويهِهما وكلٌّ هذا قائمٌ على آلية التماهي. غير أن علاج الأفراد النرجسيِّين قد أشار كذلك إلى وجود نفسٍ بدائية غيرِ مكتملة وخاوية (كريستيفا، ١٩٨٧، الصفحات ١١–١٢)، وهذا الخواء يُشير إلى تجربةٍ قديمة لم تبلغ مرحلة التمثيل.

أشار جرين إلى أنه «قبل النرجسية، كانت هناك دوافع الحفاظ على الذات؛ أما بعدها، فصار هناك دوافع الموت» (٢٠٠١، صفحة ١٠). ونظرًا لتعرُّض دافع الموت للإسكات، فإنه يُعبر عنه من خلال التَّكرار القهري، مما مهَّد الطريق لفهمِ ما لم يصل بعدُ إلى مرحلة الترامُز. وأوضح جرين أن احتمالية وجود نرجسيةٍ مزدوجة: نرجسية إيجابية تهدف للوصول للوحدة والاتساق؛ نرجسية تهدف إلى التوحد؛ ونرجسيةٍ سلبية تكافح للوصول لمستوى الصفر وتهدف للعدَم والتحرُّك نحو الموت النفسي؛ إذ تتوق النفس لفنائها. والنرجسية السلبية، من منظور جرين، هي الشكل الذي تتخذه السلبية عندما تندمج مع دوافع تدمير الذات. وهذه الطريقة في الفهم غيرُ مقتصرة على طرق تعبير المرضى عن الدمار، لكنها تتضمن كذلك حالاتٍ عقلية تكون الموضوعات فيها مجردةً من مَيزة التفرُّد أو غيرَ قابلة للاستبدال بالنسبة إلى المريض (جرين، ٢٠٠١).

لقد أظهر المرضى الثلاثة جميعًا الذين نُوقشت حالاتهم في هذه الورقة البحثية، بطرقٍ مختلفة، عدم تركيزٍ فكري في التمثيلات؛ فقد بدا أن علاقاتهم بموضوعاتهم الداخلية قد تمثَّلَت على نحوٍ واهٍ، وتعرَّضَت للإضعاف والإفقار والتفتُّت؛ ولذا تَحتَّم التنفيس عنها، فكان لزامًا تجنُّب الحاجة للموضوع، والتعامُل معها إمَّا بالعنف أو الانسحاب. وكان من الضروري بالنسبة للمرضى الثلاثة التمييزُ بين الأجزاء الإيجابية والهدَّامة من شخصياتهم.

تنبع الرغبة من وعي بالانفصال عن الموضوع والتأخير الحتمي في الحصول على الإشباع، فلا يمكن إشباع الرغبة أبدًا. وقد أكَّد فرويد أن إدراك الموضوع مرتبط بغيابه؛

فعلى خلفية هذا الغياب تُنقش العلامات والإشارات حتمًا أينما وُجِد نقص. لكن هذا الإدراك للغياب يسير جنبًا إلى جنب مع إدراك الخسارة؛ إذ يُظهر المريض بالنرجسية عدم قدرته نفسيًّا على شرح أو تمثيلِ موقفِ غيابٍ أو نقص.

عندما يحدث الانفصال بين الأم والطفل، تُستبدل صورة الأم في عقل الطفل تدريجيًّا بعدة بدائل. وبحسب الطرح المُؤثِّر الذي أثاره أولانييه (٢٠٠١)، فإن الأم لا تترك لدى الطفل طريقةَ تفكيرٍ مُعيَّنة فحسب، بل إنها تغرس لديه صورًا ذهنية ومشاعرَ وأحاسيسَ جسدية. وأضيف إلى هذه النقطة أن فكرة زنا المحارم لدى كل البشر قد واجَهَت حتمًا كبتًا كافيًا حتى تُصبِح رغبةُ منحِ حضانة الطفل للأم، وهي رغبةٌ عامة لدى الجنسَين، جزءًا من نسيج الخيال. وإذا لم يُسهِّل حدوث هذا الكبت بفعل العلاقة برغبة الأم، فإنني أَظُن أنه لا تُوجد أي حرية لمعايشة التجربة الجنسية على نحوٍ آمن. وهذا ما يُسمِّيه أولانييه «فائض» الأم، والمرتبط في النهاية بنرجسية الأم التي تتخذ شكلَ أمنيةٍ من جانبها أن يظل الطفل في احتياجٍ دائم لما تمنحه إياه.

أظن أن تحقيق كلٍّ من الثقة في الموضوع والانفصال عنه بالنسبة إلى كل المرضى الذين نُوقِشَت حالاتهم في هذا الفصل، ربما يُعد المهمة الأصعب في تحقيقها؛ فجسم الأم بالنسبة إلى كل مريضٍ من هؤلاء، لم يُنظَر إليه كوطن أو مكانٍ آمن يسمح بالاستكشاف والإبداع؛ فقد احتوى كُل تحليلٍ على بحث عن مساحةٍ عقلية يمكنهم فيها استكشاف علاقاتهم بموضوعاتهم الداخلية، والتفكير فيها وتغييرها.

هوامش

(١) في مقاله «ليوناردو دافنشي وذكرى من طفولته» (١٩١٠)، يُصرِّح فرويد بأول تصريحٍ نظري له عن النرجسية؛ إذ يحاول تفسير آلية الطاقة النفسية الشهوانية التي تؤدي للاختيار النرجسي: «يكبت الصبي حُبه لأمه؛ فيضع نفسه محلها، ويتماهى معها، وينظر إلى شخصه كنموذجٍ يختار موضوعاتٍ جديدة لحبه تتماثل معه … ويعثُر على موضوعات حبه على طول طريق النرجسية» (١٩١٠، صفحة ١٠٠). ويمكن فهم الاختيارات النرجسية للموضوع في مقالات فرويد عن ليوناردو (١٩١٠)، ورجل الجرذان (١٩٠٩)، وشريبر (١٩١١)، ورجل الذئاب (١٩١٤).

(٢) يخبرنا أوفيد بالنسخة الأكثر شهرة من القصة. نارسيسوس هو ابن إله الأنهار، كيفيسوس، وحورية تُدعى ليريوبي. يتحدث تيريسياس عن نبوءة عند مولد نارسيسوس

وهي أنه سيعيش عمرًا طويلًا، شريطة ألا يعرف نفسه. تقع العديد من العَذارى في حبه لكنه يقابل حبهن بلا مبالاة. لكن إيكو لا تفقد الأمل؛ فتنعزل عن العالم، وتَتوقَّف عن تناول الطعام حتى أَصبحَت مجرد صوت. ذات يوم، يشعر نارسيسوس بالعطش بعد الصيد. يعكس النبع صورةً يقع في حبها. يميل نارسيسوس للأمام نحو صورته حتى مات. أمَّا في نسخة باوسانياس من القصة، فكان لنارسيسوس شقيقة توءم تموت ويظن أنه رأى انعكاس صورتها في الماء.

(٣) في نماذج فرويد للعقل، تُمثِّل فكرة النزاع بين الدوافع حاجةً أساسية؛ فحتى صدور البحث الخاص بالنرجسية، كان يُنظَر إلى النزاع بين الدوافع الشهوانية ودوافع الحفاظ على النفس (من ناحية الأنا) وهو ما يتطابق مع التفرقة بين الحب والجوع. يُشير فرويد إلى أن فصل الدوافع الجنسية عن دوافع الأنا يعكس الوظيفة الثنائية للفرد: إشباع أغراضه الخاصة، وكفرد من الجنس البشري. تُقدِّم ورقة النرجسية البحثية تناقضًا؛ إذ يمكن للدوافع الشهوانية الآن توجيه نفسها إلى الأنا. عندما يتحدث فرويد عن التركيز الفكري الشهواني للأنا، يتعرض التمييز بين شهوة الأنا والشهوة الجنسية للتهديد؛ لأن كلا الدافعين يتشاركان الآن الأصل نفسه. علاوةً على ذلك، فإن الصراع الديناميكي بينهما الآن غيرُ محتمل. سينحصر الصراع بين الشهوة الجنسية للموضوع والشهوة الجنسية النرجسية، لكن حينها سيُختزل كل شيء في الجنسانية، وسيكون الصراع بين شكلين من الغريزة الجنسية. يدرك فرويد هذا ويُعيد التأكيد على الحاجة للحفاظ على الفصل بين الشهوة الجنسية والطاقة غير الجنسية لغرائز الأنا.

(٤) أوسكار وايلد، «قصيدة سجن ريدينج»، ١٨٩٨، جزء ١، ٧.

الجزء الثالث

علم ما وراء النفس

الفصل الخامس

الملاحظة الإكلينيكية، والبناء النظري، والفكر الميتاسيكولوجي

جان-كلود رولان

يُعد الفصل الذي خصَّصه إرنِست جونز لعلمِ ما وراء النفس في السيرة الذاتية التي كتبها عن فرويد من القراءات المُؤثِّرة على نحوٍ كبير، من ناحية أن المؤلف يسمح لشعوره بالغرابة بالظهور بوضوحٍ عند مواجهة هذا الإنتاج الفكري المختلف تمامًا في الواقع عن التطوُّرات التحليلية أو النظرية الأخرى المتعارف عليها في أعمال فرويد. في الواقع، إن الفكر الميتاسيكولوجي يَدين بالكثير لنوعٍ مختلف من التفكير مقارنةً بالتقارير الإكلينيكية أو الأفكار والمفاهيم النظرية المُستخدَمة في تفسير الظواهر التي تُلاحَظ أثناء التحليل. بل إنه يتفرَّد كثيرًا عن تلك الأنشطة المباشرة التي تنبع عمليًّا من الضرورة، في جانبين: التفرد من الناحية الزمنية؛ نظرًا لأن الفكر في علم ما وراء النفس يظهر بشكلٍ سابق أو لاحق فيما يتعلق بالتجربة نفسها؛ والتفرد أيضًا، على نحو عكسي، فيما يمكن أن يسمى إدراكًا مكانيًّا — رغم أن هذه ليست الكلمة المناسبة تمامًا — في ظل تجاوزه للحقائق المباشرة، واضعًا بذلك نموذجًا عمليًّا يضمن شمولية الظواهر المُقدَّمة ومتيحًا أساسًا وجوديًّا متماسكًا لها. يُعتبر التخمين في علمِ ما وراء النفس أسلوبًا طموحًا للتفكير يميل، على سبيل المثال، لإعادة نقش الحادث المَرَضي داخل إطار الاستمرارية المنطقية للأداء الوظيفي النفسي الإنساني؛ فهو تفكيرٌ جريء يتطلع لإعادة ترسيخِ غلبة الفكرة على الحدث. من الصعب

إنكار أنه بينما يختلف عن التفكير الفلسفي (والأصعب هو تحديد موضع هذا الاختلاف)، إلا أنه يظل في تقاربٍ معرفي معه، ومن غير المستغرب أنه عندما دخل فرويد هذا المجال، استحضر شخصيات الفلاسفة، إمَّا لتأسيس فارق بين الطريقتَين أو بحثًا عن الدعم؛ لذا سَخِر فرويد في كتاب «اللاوعي» (١٩١٥ب)، من التفكير الفلسفي،[١] ولكي يُثبت صحةَ ثنائية غرائز الحياة والموت، اختار نوعًا من القَرابة الروحانية كدعمٍ في شكل «واحد من أكبر وأشهر شخصيات التاريخ الإغريقي، وهو إيمبادوكليس من أكراكاس» (فرويد، ١٩٣١، صفحة ٢٤٥). كذلك يجب عدم استبعاد أن هذا التأمُّل الميتاسيكولوجي يمكن بشكل أو بآخر أن يكون له روابطُ لا يُمكِن الإفصاح عنها بالتعبير الشعري؛ بمعنى أنه مطلوب من الصانع، سواء هنا أو هناك، الوثوق في سحر الخطاب لتوفيرِ شكلٍ ووجود لواقعٍ فعال تمامًا لا يحتوي في حدِّ ذاته أي تعبيراتٍ قائمة على الشعور؛[٢] فعِلمُ ما وراء النفس يطمح لأن يكون علمَ ما «دون الواقع».

لذا أكَّد جونز؛ تلميذ فرويد المخلص، أنه قد التزم بعلمِ ما وراء النفس الفرويدي. غير أنه من الواضح تمامًا، من وجهة نظرنا كقُرَّاء، أن «الاقتناع الراسخ لم يكن موجودًا». وهكذا نفهم لماذا كرَّس جونز هذا الفصل لإعادة بناء حبل الأفكار الذي قاد فرويد لهذا الموقف الفكري الغريب، بدلًا من التعليق على نطاقه العلمي. وعن طريق هذا التحوُّل، الذي يُعَد علامةً واضحة على الأمانة الفكرية للرجل وعلى حزمه وصلابته، أشار جونز إلى الطريق الوحيد الممكن للوصول إلى فهمٍ حقيقي مُتعمِّق لهذه الأداة الميتاسيكولوجية؛ فهي لن تكون قابلة للنقل على نحوٍ مباشر كبعض أنواع المعرفة التقليدية؛ ولا يمكن فصل بنيتها عن مسارٍ فكري متفرِّد، حتى إنها ستكون التعبير المُتفرِّد لهذه الذاتية؛ والتعبير عنها لفظًّا من شأنه توضيح الأَثَر غير المباشر الذي ظل في عقل (روح) المُؤلِّف بجهدٍ فكري خاص؛ ولكي يمكن لشخصٍ آخر الاستئثار به وامتلاكه، يجب عليه تَكرار الابتكار بشكلٍ ما وإعادة صياغة النموذج في بوتقة جوهره النفسي. لقد تحدثتُ عن أداة، مُفكرًا في الفاعلية التي يجلبها عِلمُ ما وراء النفس الصارم لفهم الحياة النفسية. وحتى في هذه الحالة، فإنها ليست الكلمة المناسبة؛ فليست المعرفة نفسها، بل التحوُّل الذي يحدُث للعقل، هو الذي يحمل نوعًا بعينه من المعرفة ويجعله فعَّالًا. إنه يُمثِّل للمعرفة ما تُمثِّله اليد للأداة.

بالإضافة إلى ذلك، أثبت جونز، من خلال إعادة بناء مسار الفكر الفرويدي، غزارة ما لديه من معلومات وثقافة. فقد كتب يقول: «كان الظهور الأوَّل لكلمة «ما وراء النفس»

بقلم فرويد عام ١٨٩٦ في مشروع لعلم النفس العلمي.» تُسلِّط هذه التفصيلة ضوءًا جديدًا على معنى هذا النص الإبداعي الذي لا يُقرأ كثيرًا بسبب صعوبته وإحكامه، لكنه يكشف عن نفسه، في هذا الضوء، كأَوَّل تفكيرٍ ميتاسيكولوجي انخرط فيه فرويد، وكنموذجٍ ميتاسيكولوجي يتعلق «بالقَبْلِية» والذي كان يشبه في ذلك الوقت — في بداية بحثه — مجموعةً من الفَرْضيات والحَدْسيات المختلفة المستعارة من العلوم القريبة لكنها على أي حال دخيلةٌ على علم الأعصاب والفسيولوجيا وعلم النفس القديم، مُوجهًا تلك العلوم نحو المجال الجديد الذي فَتحَته ملاحظاته التحليلية، وجاعلًا من الأمر برمته نظامَ تفكيرٍ فعَّال يُمكِّنه من ابتكار — أو اكتشاف — التحليل النفسي ومنهجه. وهنا أُشير إلى علم ما وراء النفس المتعلق بالقَبْلِية حينما يتوقع ويُجيز الملاحظة الدقيقة للحقائق التحليلية.

بعد ذلك، ونقلًا عن جونز أيضًا، اختفت هذه الفكرة من الكتابة لتُعاوِد الظهور مرةً أخرى في عام ١٩١٥. في ذلك العام، كتب فرويد في عُجالةٍ شديدة (ويمكن الاستنتاج من الطبيعة المحمومة للكتابة أنها من مصدرٍ ارتجالي) سلسلةً من المقالات أراد بها، كما قال، «توضيح وتعميق الفرضيات النظرية التي يُمكِن عليها إقامة نظامٍ للتحليل النفسي» (فرويد، ١٩١٧ [١٩١٥]، صفحة ٢٢٢). من بين تلك المقالات، أتلف مقالاتٍ بعينها (وهو فعلٌ غيرُ معتادٍ يمكننا من خلاله استنتاج العلاقة الفريدة والعاطفية التي جَمعَت المؤلف بهذا النوع من العمل) ونَشَر خمسة فقط جَمعَها تحت عنوان «علم ما وراء النفس» ضمن أعماله الكاملة. تُناقش هذه المقالات الغرائز، واللاوعي، والكبت، والأحلام، وثنائية الحداد والاكتئاب؛ ومن ثَمَّ تقطع هذه المقالات شوطًا كبيرًا نحو الإطاحة بورشة العمل التي افتتحها قبل عشرين عامًا، وكانت تلك الفترة تتسم بالعمل المُكثَّف عندما طوَّر فرويد الموارد المُتأصِّلة في منهجه التحليلي لأقصى درجة، وصَقَل أسلوب العلاج وحقَّق تطوُّراتٍ نظريةً حاسمة في تحقيق الأماني، والهلوسة، والوهم، وآليَّات الدفاع النفسي. ثم تَوقَّف فرويد هناك، كمهندسٍ معماري ينظر إلى البناء الذي يُشيِّده عن بُعد، لتقييم صلابته ومتانته في ضَوءِ منظوره الخاص.

الآن وبأخذ التحفُّظ الذي أثاره هذا «التأمُّل» الميتاسيكولوجي لدى جونز — ولدى معظم أوائل أتباع فرويد — في الاعتبار ربما نتساءل إن كان قد أتاح حقًّا «نظامًا تحليليًّا» يحوي نوعًا من الترابُط الإضافي. بالقطع كان فرويد راغبًا في تصديق ذلك وتأكيده.

لنستمع إليه وهو يستدعي نظامَ ما وراء النفس بامتياز والمُمثَّل «بوجهاتِ نظر» يُصبِح من خلالها تعقيد الأنظمة النفسية قابلًا للإدراك والتمييز:

> بقبولِ وجودِ هذَين النظامَين النفسيَّين (أو الثلاثة)، ابتعد التحليل النفسي خطوةً عن «علم نفس الوعي» ذي الطابع الوصفي، وأثارَ مشكلاتٍ جديدة واكتسب محتوًى جديدًا. حتى ذلك الوقت، كان اختلاف التحليل النفسي عن ذلك النوع من علم النفس يُعزى بالأساس إلى نظرته «الديناميكية» للعمليات العقلية؛ أمَّا الآن، وبالإضافة إلى ذلك، فيبدو أنه يأخذ في الاعتبار «الطبوغرافيا» النفسية كذلك، ويُشير، فيما يتعلق بأيِّ نشاطٍ عقلي، بموضع حدوثه داخل نظامٍ ما أو بين أنظمةٍ بعينها. وبناءً على هذه المحاولة كذلك، أَطلَق عليه اسم «علم نفس الأعماق». (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٧٣)

ولاحقًا:

> نحن نرى كيف دُفِعْنا تدريجيًّا لتبني وجهةِ نظرٍ ثالثة في وصفنا للظواهر النفسية؛ فإلى جانب وجهات النظر الديناميكية والطبوغرافية، تبنَّينا وجهة النظر «الاقتصادية»، والتي تسعى بدورها إلى متابعة التغيُّرات التي تطرأ على كمِّ الإثارة والوصول، على الأقل، إلى تقديرٍ «نسبي» ما لحجم تلك التغيُّرات.
>
> لن يكون من غير العقلاني منحُ اسمٍ خاص لهذه الطريقة المتكاملة في النظر لموضوعنا؛ إذ يُمثِّل هذا تتمة أبحاث التحليل النفسي. أقترح أنه عندما ننجح في وصف أيِّ عمليةٍ نفسية بجوانبها الديناميكية والطبوغرافية والاقتصادية، يجب أن نتحدَّث عنها كتمثيل «ما وراء نفسي». (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٨١)

على الرغم من ذلك، دعونا نُشِر إلى أن فرويد قد أضاف من فوره لهذه الفقرة تعبيرًا عن الشك: «يجب أن نقول فورًا إنه في الحالة الراهنة لمعرفتنا، ثَمَّةَ نقاطٌ قليلة فقط سننجح عندها في تحقيق هذا» (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٨١). يتَّحِد التركيز الفكري النقدي الذي أضافه فرويد لِعلمِ ما وراء النفس الخاص به مع التحفظ الذي شَعَر به جونز ومُحاوِروه الأوائل؛ فمن المحتمل أنهم لم يُدرِكوا فائدةَ هذه «الإضافة الأخيرة»، ونظروا إليها كتعقيدٍ بكلِّ ما في الكلمة من معنًى، وإضافةٍ زائدةٍ عن المطلوب وأَمرٍ مُجرَّد للغاية

جاء للتعتيم أو التشويش على جوهرِ تحليلٍ نفسي عمليٍّ التزموا به بحماسٍ واعتبروه كافيًا إلى حدٍّ كبير. على الرغم من ذلك، وفي ضَوء قراءةٍ عصرية، على سبيل المثال، فإن الوضوح الذي يُضفيه مفهوم الغريزة على فهم العمل وتطوُّر الجهاز النفسي هو وضوحٌ يَسهُل فهمه. بالمثل، يتيح مفهوم التماهي، إلى جانب مساهمته في حل المُعضِلات المساهمة في الانهيار الاكتئابي وآلية الحزن، فهمًا جديدًا لحركات الوهم ونُشوء الأنا (طالع شابيه، ٢٠٠٠). وقد منحت هذه الأبحاث الخاصة بعلمِ ما وراء النفس، وكما كان فرويد على حق في اعتقاده، ترابطًا مؤكدًا للنظرية التحليلية.

لكن ليس هذا هو كل شيء؛ فقد ساهمت هذه الأبحاث في زعزعة استقرار النظرية، أو على الأقل جَعلَتها موضع إشكالية؛ فالقارئ لأيٍّ من هذه الأبحاث بانتباهٍ متواصل سرعان ما سيكتشف إلى أيِّ مدًى يأخذ هذا التفكير فرويد بعيدًا عن النطاق الإكلينيكي إلى درجةٍ تجعله غائبًا عن ناظرَيه تمامًا؛ لكنه كذلك يكتشف كيف تخرج الفكرة للحياة، من خلف الشكل المثالي الذي لا تشوبه شائبةٌ، الذي يُضفيه فرويد على هذا المفهوم أو ذاك (الغريزة، على سبيل المثال، بتعريفها الرباعي طبقًا لنطاقها وغايتها وهدفها ومصدرها)، بتطرُّف ومغالاة، وهو فِكرٌ يمكنني القول إنه ينخرط مع موضوعه على نحوٍ يتجاوز مجرد تفسيره؛ فكر يجب أن يتماهى مع موضوعه ويخضع لمتطلباته، لكي يتحرَّر من غموضه وغرابته ومنحه تمثيلًا رسميًّا يمكن تَلَقِّيه بواسطة الإشارات والرموز. إن الكتابة في تلك الأوراق البحثية مُتقلِّبة؛ فنجدها تتقدم وتتراجع تباعًا، وأحيانًا تكون مفاجئة وغير مُتوقَّعة، كما لو كان من غير الممكن، على سبيل المثال، تفسير الغريزة التي تتحدث عنها إلا بالاستسلام لما تنطوي عليه من تضارُبات وتقلُّبات وعنف.

ونحن هنا، من وجهة نظري، نتناول نقطةً ضرورية في الكتابة الميتاسيكولوجية، تُبرِّر التشابُه المذكور آنفًا مع الكتابة الشعرية؛ فهي كتابة تدعم وتُحدِّد حركات الروح الأساسية؛ كتابةٌ «رمزية» ستكون مثل الأَثَر الصلب للتحوُّل النفسي الذي أخضع المؤلف نفسه له ليجلب واقع هذه الأعماق النفسية إلى الإدراك الواعي ويفرضه على أناه، تلك الأعماق التي لا يمكن لأكثر التجارب التحليلية حدةً وعمقًا منحها للملاحظ تلقائيًّا ... إنها كتابةٌ فريدة من نوعها، تقوم على الاستدعاء أكثر من كونها قائمةً على إثارة العواطف والذكريات؛ إذ تدعو إلى، وتتطلب، قراءةً فريدة بالقدْر نفسه قائمةً على التقمُّص والتعاطُف وانخراط لا وعي القارئ في لا وعي المُؤلِّف. نحن لا نقرأ النصوص الخاصة

بعلمِ ما وراء النفس على النحو الذي نقرأ به كتبًا مثل «التحليلات النفسية الخمسة» أو «تفسير الأحلام»؛ ليس لأنها أكثرُ صعوبة أو أكثرُ تجريدية، أو تستعصي على الفهم، أو تتطلب جهدًا لحفظها في الذاكرة، بل لأنها تُجبِر القارئ على مواجهةِ غرابةِ ما تشهد عليه أكثر من صياغته فعليًّا: غرابة السوداوية التي تصبغ أي حركة تماهٍ من جانب الأنا؛ وغرابة تحركات اللاوعي التي تختفي بمجرد أن تظهر؛ وغرابة الشعور الذي بمجرد ظهوره، يجعل الأنا تتأرجح بين اللذة والألم. إن المكانة الخاصة التي يحظى بها علمُ ما وراء النفس في قلب أعمال فرويد تعزو أساسًا إلى حقيقةِ أنَّ هذا الإنتاج العقلي مُشبَعٌ بالغرابة؛ وهي غرابةٌ يجب أن نحتاط من استيعابها إذا أردنا أن نبقى فعَّالين ومُؤثِّرين؛ وأخيرًا هي غرابةٌ تقدِّر التقارُب المُحيِّر الذي تحمله مع ما يحب فرويد أن يُسمِّيه «علم نفس الأعماق».

لذا عندما يحجِّم فرويد في المقولة السابقة مكانةَ علمِ ما وراء النفس مختزلًا إياه في حقيقة أنه قادر على «وصف» عمليةٍ نفسية في جوانبها الديناميكية والطبوغرافية والاقتصادية» (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٨١)، لا يسعنا إلا الإقرار بهذه القُدرة، مع التحفُّظ على طابعه العقلاني والفكري الزائد عن الحد الذي يُراوِغ ما يحتويه مثلُ هذا الفكر كأساسٍ من حيويةٍ إبداعية وتحويلية. في الواقع، وفي ذلك العام وكما يَتذكَّر جونز: «عندما كتب فرويد مقالاته المهمة عن علمِ ما وراء النفس في ربيع عام ١٩١٥، شعر بأنه أَكملَ عملَ حياته، وأن أيَّ إسهاماتٍ إضافية قد يُقدِّمها ستكون ذاتَ مكانةٍ ثانوية وتكميلية فحسب» (جونز، ١٩٨٣، صفحة ٢٨٦). لقد كانت هذه المقالات في علمِ ما وراء النفس، بالنسبة له، تمتلك بالفعل قيمة الفهم اللاحق التي مثَّلتِ التأمُّل المُطلَق، واضعةً بذلك ترتيبًا للافتراضات أو المُقدِّمات الأساسية للملاحظة والتحليل، وواضعةً الأساس النهائي للبناء النظري-الإكلينيكي للتحليل النفسي، ولكن ما لم يكن فرويد يدركه هو درجة الاستقلالية التي سيكتسبها هذا العلم بمجرد إطلاقه فيما يتعلق بالتجربة المباشرة؛ فما لم يقِسْه فرويد هو إلى أيِّ مدًى اكتسب فكرُ ما وراء النفس مكانته باعتباره انعكاسًا حقيقيًّا لِبنيةِ اللاوعي، مدفوعًا في ذلك بنوعٍ من تحويل حركات الغريزة والتمثيل التي تُفعل لدى الباحث من خلال التجربة أو الكتابة، ليكتسب بذلك استقلاليةً من شأنها أن تحافظ على إلهامه حيًّا، ويصبح، بعد تأسيس الصرح الحالي، علمَ ما وراء نفس قَبْلي يتطلب إعادة

تأسيس فورًا. من المؤكَّد أنه لا يوجد تعريفٌ حاسم لعلمٍ ما وراء النفس خلاف أن يكون الدعوة للعمل المفروضة على الباحث النظري، على نحوٍ يشبه الغريزة بالنسبة للنشاط النفسي، بفعل الاهتمام بخلق تجربةٍ تحليليةٍ أكثر ترابطًا.

كتب جونز يقول: «خلال السنوات الثلاث أو الأربع [التي تلت عام ١٩١٥] — والتي كانت أحلكَ سنوات الحرب — ظل عقل فرويد غيرَ مُنتِج نسبيًّا»، مضيفًا: «فقد كانت الحياة اليومية البائسة هي شغله الشاغل» (جونز، ١٩٨٣، صفحة ٢٨٦). صحيحٌ أن تلك السنوات كانت بالنسبة إلى فرويد «سنوات حالكة»؛ فقد اتسمت بفترات اختبارٍ عاصر خلالها الحزن لفقدانه لأصدقاء مُقرَّبين، كما اتسَمَت بالقلق على حياة أبنائه الذين انتقلوا إلى جبهة الحرب، وبالقيل والقال، وفقدانه لأفضل جزء من مرضاه، وانفصال أعز أتباعه ومُراسلِيه من الخارج، وبالسخط العام الذي تأجَّج بداخله بسبب عودة البربرية التي تولَّى تنظيمها «أكبر أمتَين مُتحضرتَين في أوروبا» معًا. لكن يبدو لي أن من الممكن الوثوق في قوة فرويد الفكرية ثقةً كافية وتشبثه بالإيمان بأن هذه «الأحداث» الخارجية، مهما كانت رهيبة، غير مسئولة في حد ذاتها عن صمت فرويد.

من جانبي، أعتقد أن هذه السنوات غير المثمرة كانت فترة كمونٍ فرضتها ضرورة إضفاءِ مزيدٍ من التفصيل لما ظل عالقًا أو غير مكتملٍ في علم ما وراء النفس عام ١٩١٥. وكأن ذلك العلم، الذي كان خاليًا من العيوب في نظره، قد كشف الآن أنه لم يُؤسِّس لنظريةٍ تحليلية بقدْر ما وفَّر عمقًا جديدًا لها، وكأن ذلك التفكير، والبعيد كل البعد عن حلِّ ألغاز الحياة النفسية (فكر، على سبيل المثال، في التماهي والغريزة) قد أضاف عمقًا لتلك الألغاز، ومن ثمَّ فتح عقل فرويد لأحداثٍ داخلية أكثرَ غرابة وَجدَت — مثلما يتغذى الحُلم على أشكاله وتمثيلاته التي تُشكِّلها بقايا اليوم — تناظرًا متساويًا في الغرابة مع الأحداث الخارجية اللحظية. وقد حقَّقَت إحدى المعالجات لهذا الأمر بين عامَي ١٩١٩ و١٩٢٠ نجاحًا صاحَبه صياغةٌ سريعة للغاية لِمسوَّدة نصٍّ أدرك فرويد غرابته المُطلَقة وذاتيته الحتمية:

> ما يلي هو تأمُّل (هكذا كتب في مستهل الفصل الرابع)، وهو تأمُّلٌ مُستبعَد في الغالب، سيأخذه القارئ في اعتباره أو يصرف النظر عنه تبعًا لميله الشخصي. الأكثر من ذلك أنه بمثابةِ محاولةٍ لتتبُّع فكرةٍ ما على نحوٍ مُتَّسِق، بدافع الفضول، لنرى إلى أين ستقودنا. (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٢٤)

وقد عَنوَن فرويد النص «ما وراء مبدأ اللذة». من المُؤكَّد أن جاذبية التأمُّل الخالص — أي التأمُّل المُتحرِّر من القيود المُتأصِّلة في الملاحظة المباشرة وكذلك من التصنيفات التقليدية للمنطق السليم — هي ما دَفعَت فرويد للانتقال من حقائق الملاحظة التحليلية (والمُفصَّلة بدقة في هذا النص) إلى مكانٍ يقبع «وراء» كل مظاهر التعبير النفسي (كعالم الغرائز الذي يُفصِّله بتصويرٍ بنفس الدقة) وهو ما يمنح هذا النصَّ غرابته. وأمام هذا التقدُّم غير المتوقَّع في التفكير الفرويدي هنا، وأمام ما اتَّسَم به من طابعٍ تأمُّلي مُفرِط، وكذلك الخطر النفسي غير المسبوق الذي يَتكشَّف هنا، مثل نبوءة، عن طريقِ بناءِ غرائز الحياة والموت (فما يبدو خطرًا على الحياة يبدو كذلك خطرًا على الفكر)، خرج «تحفُّظ» أتباع فرويد، قبل أن يُقاس فيما بعدُ، خرج إلى النور بدون تحفُّظ. وقد قام جونز — وهذه حقيقةٌ طريفة — بتقييمه على نحوٍ منهجي فقال: «وهكذا، ومن بين الأبحاث التي كرَّسوها منذ ذلك الحين لمناقشة هذا الموضوع، والتي بَلغَت خمسينًا أو نحو ذلك، يُلاحظ أنه في العقد الأول دَعمَ نصفهم فقط نظرية فرويد، وفي العقد الثاني ثلثهم فقط، وفي العقد الأخير، لم يعُد ثَمَّةَ من يدعمه تمامًا» (جونز، ١٩٨٣، صفحة ٢٨٧).

والتزامًا مني بالخيط الأحمر الذي نهتدي به خلال هذا الفهم لتفكير فرويد الميتاسيكولوجي، أقترح ألا نسخر من تحفُّظ أتباعه هذا، ولا نسارع كذلك إلى عزوه إلى جُبنهم وخَوار عزيمتهم، أو إلى افتقادهم للبصيرة والفطنة؛ أولًا، لأنه يقارب، على نحوٍ ساخر، النقد الذي وَجَّهه المؤلف نفسه لهذا المفهوم المَعيب على نحوٍ خاص، والذي دُرس بالتفصيل في هذا النص ويعد أكثر ما يأسر انتباه القارئ؛ هذه هي غريزة التدمير التي سمَّاها لاحقًا غريزة الموت. دعونا نقرأ ما يقول:

> لم أعُد أفهم كيف استطعنا إغفال كلية الوجود للنزعة العدوانية والتدميرية غير الشهوانية وفشِلنا في وضعها في مكانها الصحيح في تأويلنا للحياة ... أَتذكَّر موقفي الدفاعي عندما ظهرت فكرةُ غريزة التدمير لأول مرة في أدبيات التحليل النفسي وكم استَغرقتُ من وقت قبل أن أَتقبَّلها.[٣] (فرويد، ١٩٣٠ [١٩٢٩]، صفحة ١٢٠)

إذن، ونظرًا لأن هذا التحفظ يدفعنا للتساؤل عن المكانة التي يجب مَنحُها لهذه الفكرة ضمن المجموعة الكاملة لمفاهيم التحليل النفسي (بالنظر إلى تماثل كل التصنيفات: التحليلية، والنظرية، والميتاسيكولوجية)، ومن خلال هذا، إعادة تحديد مكانةِ علمِ ما وراء

النفس ضمن المجموعة الكاملة لمبادئ التحليل النفسي، فلنبدأ باختيار المُصطلَح الذي من شأنه أن يُشير، على النحو الأدق، إلى العملية التي استخدمها فرويد لتأسيس هذا الواقع الغامض بلغةٍ علمية. هل نقصد هنا «اكتشافًا» بالمعنى الدالِّ على انتشالِ وتحريرِ شيءٍ ما أغفلنا ملاحظته في حدِّ ذاته بسبب بقائه مدفونًا تحت ظواهرَ أخرى كان يجب توضيحها أولًا «ليصبح هو سهل الفهم»؟ كانت هذه بالتأكيد وجهةَ نظرِ فرويد المُتَّسِقة مع وقتيةِ منهجه البحثي، الذي كان يحب مقارنته بالمنهج البحثي لعلم الآثار الذي يتقدم كلما تعمَّق في البحث. أم نقصد هنا، على غرار جان جيومان، مفهوم «الابتكار»، (جيومان وآخرون، ٢٠٠٠)، الذي يُعزِّز فكرة وجودِ تشابهٍ خاص بين الفكرِ الميتاسيكولوجي وصناعة الشعر؟ إن ما تشير إليه اللغة الألمانية بأنه «شعر» (Dichtung) يُركِّز أكثر، في الواقع، على العمل الذي تتطلبه الأنا الخاصة بمُؤلِّفه للقضاء على المقاومة التي من شأنها التصدي لإدراكِ واقعٍ خفيٍّ؛ ليس لأنه كان مدفونًا، بل لأنه مرفوض (فرويد، ١٩٠٨). ويبدو فرويد مُتشبِّثًا بهذه الفكرة عند الإشارة في الفِقرة قيد النقاش إلى «موقفه الدفاعي». أم إننا نقصد «مقدمة» بمعنى Einführung، وهو مُصطلَح تَخيَّره فرويد بدقةٍ عامَ ١٩١٥ عندما أدرك فجأةً فائدة الاستبدال بالنزاع الأكثر فائدةً بين الشهوة الجنسية للموضوع والنرجسية النزاعَ بين الدوافع الشهوانية ودوافع حفظ الذات.

في مَعرِض تعليقه على نصِّ «مقدمة عن النرجسية»، يُوضِّح جان لابلانش بأسلوبٍ مُقنِع تمامًا كيف يجب فهم مصطلح المقدمة؛ ليس بالمعنى «المجازي» — والتقليدي — لإضافةٍ مفاهيمية من شأنها أن تُثري ترسانة النظريات بأداةٍ «تكميلية»، بل بالمعنى المادي البحت الذي يَتعلَّق بإخضاع البناء النظري الموجود مُسبَّقًا بالقوة لفكرةٍ تهدف لزعزعة استقراره وجعله ينطوي على مشكلاتٍ وغرسِ بَذرةٍ لهذه الفكرة بداخله. وعلى نحوٍ مُشابه لمفهوم النرجسية، يكشف مفهومُ غريزة الموت عن نفسه من هذه الزاوية ليس كمفهومٍ إيجابي يتصل بشيءٍ نفسي على النحو الذي ورَد في كتاب «اللاوعي» من أن تمثيلَ شيءٍ ما يرتبط بتمثيلِ كلمةٍ ما، بل كأدواتٍ تضع الجهاز النظري في حالة توتُّر، أو كأدواتِ فكرٍ بدون أي علاقاتٍ «ضرورية» بأي وجودٍ ولكنها تبني بدلًا من ذلك واقعًا مختلفًا وتُوجِده؛ واقعًا ثوريًّا على نحوٍ مختلف، يتعلق بالقياس المُطلَق المُسيطِر على العلاقات بين الواقع النفسي والجهاز النظري الذي يُمثِّله.

لا شك، في الحقيقة، أنه لا داعيَ تمامًا للاختيار من بين هذه التفسيرات الثلاثة؛ إذ إن كلًّا منها يحمل ذرَّةً من الحقيقة؛ والحق أن اقترانها بعضها ببعض، بما يجعل بينها

صلةً رابطة، يعكس بمزيد من الدقة الطابع غير الملموس للشيء المُصنَّف على هذا النحو. بالنسبة إلى غريزة الموت، يمكن القول أيضًا إنها قد اكتُشِفت في لحظةِ بحثٍ تاريخية،[٤] كما يمكن القول إنها قد ابتُكِرَت، حتى لو كان هذا فقط من خلال لعبة التداخُل،[٥] والقول أخيرًا إنها قُدِّمَت بدافعٍ قهري نحو التفكير في اتجاهِ تعقيد النظرية، بما يعكس التعقيد الذي تُقاوِم به النفس التحليل النفسي.

وعلى الرغم من ذلك، فهذا لا يعني أن غريزة الموت، كالنرجسية، ليس لها وجود؛ فستكون هذه بمثابة حُججٍ سخيفة، أو مجرد حُججٍ في غير محلها، تستدعي دحضها في الحال. لكن هذا لا يشير إلى أن هذه الأفكار تميل لحكم العزو أكثر من حكم الوجود، ولا تُشير إلى أشياءَ في حدِّ ذاتها بقدْر ما تُشير إلى ميول أو توازناتٍ نفسية؛ فهي تُفسِّر أنماطًا مُحدَّدة من النشاط الوظيفي النفسي تنشأ في لحظةٍ مُعيَّنة من تطوُّر الجهاز؛ حيث تُخرِجه من حالةٍ سابقة من خلال زعزعةِ نظامه، بما يُزيح مصالحه عن المركز ويُعقِّد هيكله التنظيمي. لننظر إلى مفهوم النرجسية الذي يقيس حالةَ تطوُّر الجهاز، مشيرًا لاتجاه المسارات الشهوانية وتوزيع طاقاتها النفسية الشهوانية بين الأنا والموضوع، مثل بوصلةٍ تنجذب إبرتها مغناطيسيًّا تجاه أعلى قطبٍ للجهاز النفسي؛ فهي تسمح في الوقت عينه بملاحظة «حالات التبعية» المنسوبة إلى الأنا، بسبب موضعها المركزي من الآن فصاعدًا داخل النفس، مُصطدِمةً بذلك بالواقع (الواقع الخاص بالموضوعات على نحوٍ أساسي)، والهو، والأنا العليا. إن مفهوم النرجسية يقيس تقويةَ وتدعيمَ الجهاز في مهمته الثلاثية، التي تشمل بناء الهُوية الذاتية، والحفاظ على ارتباطه بتجربة الوهم اللاواعية، وتحقيق التواؤم مع الواقع الخارجي، ويقيس كذلك النكوص المُحتمَل الذي يُصيب هذا الجهاز والذي سيظهر بالضرورة، في «مرحلة التجلِّي»، كمرضٍ نفسي. وما نُسميِّه «أمراضًا نفسية نرجسية» — وهي تسمية قد تكون خاطئةً لأنها تُعَد رؤيةً مُضلِّلة — تُخفي في الحقيقة الاختلالات المتعددة التي يمكن أن تُؤثِّر على أداء هذا البناء الشديد التعقيد لوظائفه.

على العكس، بل في تناقضٍ تامٍّ للتطوُّر الذي يصل لأَوْجِه في هذا النوع من النرجسية، فإن غريزة الموت تُشير إلى ما كان يجب على الجهاز إبعاد نفسه عنه كي يتمكن من التطوُّر، المتمثل في مجموعة القوى البدائية الغامضة وغير المتمايزة (التي تتجلى بالفعل في القصور الذهني)، والصامتة تمامًا (لأنها تسبق أي لغةٍ أو إشارة) التي كان من الممكن أن يظَل مُتعذِّرًا التحقُّق من أصلها تمامًا لولا أنه لا يُوجد ما يعوق الروح البشرية، في جوهرها، على إنشاء أصلٍ لذاتها. وهذا فقط ما وافق عليه فرويد في كتاب «ما وراء مبدأ اللذة»

وكذلك في كتبٍ أخرى تالية؛ فقد قَبِل فرويد، ليس فقط بلا مقاومةٍ بل بشجاعةٍ كذلك، بعزو هذا الأصل على نحوٍ محايد — محافظًا بذلك على شيءٍ من طبيعة هذا النطاق البحثي غير القابلة للتحقق منها في المجال النظري — إلى الجسد (وهو ما يُبرِّر السمة الغريزية للنشاط)، وإلى المدار الأصلي الساكن (الذي ستشتق منه الغريزة مَيلَها لإعادة بناءِ حالةٍ سابقة)، وأخيرًا إلى أُسسِ تطوُّرِ سُلالات الجماعة البشرية — القطيع البدائي وقتل الأب (الذي تستمد منه الغريزةُ العنفَ المرتبط بها وكذلك قُوَّتَها الدلالية).

ومثلما تمثل النرجسية في النظرية التحليلية أكثر من مُجردِ واقعٍ نفسي،[٦] أو نموذجٍ للحركة التطوُّرية ذاك الذي يخضع له — بتأثيرٍ من الحضارة والكبت، في كلٍّ من علمِ تطوُّر السلالات وعلمِ نشوء الفرد — جهاز الروح، تُمثِّل غريزة الموت، من جانبها، النموذج الخاص بمَيلِها للتراجُع والنكوص. وتنتمي المفاهيم الميتاسيكولوجية لهذا التصنيف لما هو «نموذجي»، وهي دائمًا ما تنتمي إليه بلا شك. وعلى أي حال، تلك هي الطريقة التي يجب النظر بها لها كما أظن، وتتمثل في إدراكِ أن اهتمام تلك المفاهيم يَنصَبُّ على إدخالِ قدْر من «اللَّعِب» داخل النظرية، مما يُوفِّر حريةً أكبر للمزيد من المفاهيم التقنية أو التحليلية في الحركة والتنقُّل، وقدرة على التحرُّك والتحوُّل لتُصبِح معقدة، وبالتالي مواءمة نفسها مع الأمور التي تُريد تحديدها، وكذلك تمنح تلك اللُّعب للخطاب النظري توافُقًا أفضل، كما هو الحال في العمل الشعري، بين النتيجة الحرفية العميقة للإفراط في التحديد والفراغ البارد الذي يُخلِّفه الإفراط في التجريد.

من الطريف أن نشير، في ضوء قراءتنا لكتاب «ما وراء مبدأ اللذة»، الذي ربما يجده البعض دقيقًا أكثر من اللازم، إلى أن فرويد لم يكن مُنغلقًا تمامًا على فكرة أن علمَ ما وراء النفس — حتى في ضوء هذه النسخة الكئيبة من النص — كان ينتمي لذلك النظام الحاذق والثمين للروح التي هي اللعب. وقد استخدم بشكلٍ عارض خلال الحديث عن تأمُّله وعن لعبه بكرة القطن الخطاب المجازي نفسه: في الحالة الأولى، وبرغم إدراكه أنه كان مدعومًا بفكر بعض الأسلاف البارزين، من بينهم فيخنر وبروير، فقد كتب يقول: «ليس من شأننا في هذا السياق التساؤل لأيِّ مدًى تناولنا، بواسطة هذه الفرضية الخاصة بمبدأ اللذة، أو تبنَّينا نظامًا فلسفيًّا راسخًا تاريخيًّا أيًّا كان» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٧). وفي الحالة الثانية، كان مدركًا أيضًا أن هذه اللعبة الحاذقة والتي تُمارس في عمر السنة ونصف السنة «مرتبطة بالإنجاز الثقافي الكبير للطفل»؛ حيث قال: «الأمر بالطبع لا يتعلق من وجهة النظر التي تحكُم على الطبيعة الفعَّالة للعبة سواء كان الطفل هو من ابتكرها

أو مارسها بناءً على اقتراح خارجي» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٥). إن اللُّعبة، بالنسبة إلى الطفل والرجل، بالتأكيد شيءٌ مُعقَّد وخطير مثل علمِ ما وراء النفس بالنسبة إلى المُحلِّل النظري. ويجب أن يكون علم ما وراء النفس دائمًا بالنسبة إلى الأخير مصدرًا للمتعة والتحرُّر كما هو اللعِب بالنسبة إلى الطفل: شيءٌ ما بين التملُّك والاستكشاف.

وبفضل قراءةٍ لكتاب «مبدأ ما وراء اللذة» — وهي قراءةٌ تمَّت بناءً على منظورٍ مُستمَد من قراءةٍ متزامنة لباقي نصوصِ علمِ ما وراء النفس — لدينا الآن قواعدُ صُلبة للتمييز على نحوٍ أوضح بين الحقيقة التحليلية والمفهوم النظري وما سأُسمِّيه «الأداة ما وراء النفسية» لعدم وجودِ مُصطلَحٍ أفضل. الحقيقة التحليلية واضحةٌ لكلٍّ منا: ظاهرةٌ تعرضها الملاحظة الدقيقة كشيءٍ متعارض مع فهمنا المباشر؛ نظرًا لأنها تبدو وكأنها تُعكِّر المسار الطبيعي للحياة أو تقلب المنطق الذي نُضفيه عليها عفويًّا؛ ظاهرةٌ تُؤثِّر إمَّا في الجسد (كعَرَضٍ هستيري على سبيل المثال)، أو الحياة النفسية (حُلم أو حالة من الارتباك)، أو السلوك (ضلالات أو وسواسٍ قهري)، أو أسلوب الخطاب (تكلُّفٍ في الحديث أو زلةِ لسان). وهكذا نرى أن نطاق هذه الظواهر عريضٌ للغاية ولا يملك أي وحدةٍ خاصة به، وما يجمعها معًا أنها تُستنسخ بتكرارٍ ملحوظ لدى فردٍ معين، وعلى نحوٍ متطابق على اختلاف الأفراد، وأن ظروف ظهورها واختفائها اللاحق — مثل الظروف الخاصة التي تُحابي الجيل الذي ينتمي إليه أولئك الأفراد — تدفع للاعتقاد بأنها تسير وفقًا لقوانينَ بعينها يُطالَب المُلاحِظ لاحقًا باكتشافها.

هذه إذن حقائقُ خاصة بالملاحظة: بعضها كان يمكن تجاهُله حتى يراها أحدهم ويُسمِّيها ويصفها؛ وهذه هي الحالة التي أطلق عليها فرويد «رد الفعل العلاجي السلبي» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٤٩)، وهو أمر سنُناقشه بعد قليل، ويُفسِّر سلوكياتٍ بعينها يُظهرها المرضى — أثناء العلاج وفي إطارٍ علاجيٍّ عام — تلك التي تميل لتحريف الموقف المعروض أمامهم — والمتمثل في البحث عن طريقةٍ للتحسُّن — نحو الإبقاء على حالتهم الوجودية كمرضى. ثَمَّةَ حقائقُ أخرى ربما كانت معروفةً لوقتٍ طويل ومسلَّمًا بها ولها أسماؤها الخاصة بدون إدراك غرابتها، أو تبيُّن المعضلة النفسية التي تحملها. لذا؛ ولكيلا نبتعد عن فرويد، كانت الدعابة قبل زمنه يُساء فهمها تمامًا فيما يتعلق بطبيعتها كفعلٍ قهري أدَّى إلى تكوين أوثق الروابط مع عمل اللاوعي، ولم يكن الحُلم، الذي كان يعتبر

ناتجًا ثانويًّا لحالة النوم، أو عمليةً سحرية، يبدو لأي شخصٍ كمُنتَجٍ نفسي مُعقَّد من المُرجَّح أن يُقدِّم توضيحًا حاسمًا لأداء العقل لوظائفه. لذا، فالأمر ليس فقط مسألةَ حقائقَ تفرضها التجربة على الملاحظ؛ فمن الضروري، لكي تتحول تلك الحقائق إلى معرفة، أن يستثمرها بقدْرٍ كافٍ من الانتباه والفضول لاختراق حاجز اللوم الذي يفرضه الضمير والذي يدفع بها لتُصبِح عديمة الأهمية.

ومثل أي تصنيف، فإن ما أعرضه هنا لا يتجاوز هيكلًا تكوينيًّا بعينه؛ فالحذَر الذي يقود الملاحظ لتحديد ظاهرةٍ بعينها، وإعدادها كحقيقةٍ تحليلية من خلال فصلها عن تيار الأحداث النفسية الذي يجعل خصوصيتها تميل للتلاشي، هو نفسه الحذَر الذي سيقوده لكشف الغموض الذي يكتنفها. ويتألف العمل النظري الذي يكمل الملاحظة من إلغاء التفرُّد الذي يُميِّز الحقيقة المُحدَّدة وكشف مدى وثاقتها (أو تعارُضها) مع الحقائق المشابهة الأخرى لاختيار المبدأ النفسي الذي تتشارك هذه الحقائق المختلفة في إظهاره. وسينتهي هذا العمل الفكري بتحديد قوةٍ نفسية، أو نزعةٍ ما، أو أي تكوينٍ لا واعٍ، ووصفه وتسميته؛ وهكذا يكون إنتاج مفهومٍ نظري قد بدأ إذن من مرحلة الملاحظة. ومن الضروري الإشارة إلى هذه النقطة؛ لأنها تلقي الضوء على تفصيلةٍ خاصة بعمل الملاحظ التحليلي (وأي ملاحظٍ تحليلي سواء كان محللًا أو مستشارًا طبيًّا) الذي يُمكِنه ملاحظة النواتج النفسية لمريضه بانتباهٍ خلال الجلسات فقط عن طريقِ إعدادٍ مُخطَّط، من جهته، لتنظير الحقائق المُلاحَظَة. وقد استخدمتُ مصطلح «الخطاب الداخلي» لتحديد هذا الإنتاج الخطابي المناسب للمُحلِّل، مُردِّدًا ما يُظهره المريض ومُكرِّسًا انتباهه لخطِّ التقاءٍ بين تمثيلاته المعرفية الواعية والمساهمات اللاواعية النابعة من تعاطُفه المُضاد لتحويل المَشاعر (انظر: رولان، ٢٠٠٢). في ضوء هدفنا المنشود، يمكن اعتبار الخطاب الداخلي النشاط النفسي للمُحلِّل الذي تتحول الملاحظة بفضله إلى نظرية، بينما الحقيقة التحليلية (التي تتلوث بالضرورة بفعل الروايات الفردية غير الموثوق فيها والفردية) أمام المفهوم النظري، الذي يُعَد أداةً أكثر تأثيرًا وفاعليةً لفهم المستوى المجرَّد والموضوعي للوظائف النفسية، هي أداةٌ تُستخدَم كما ينبغي كتعميمٍ للوحدة الكلية للأمراض النفسية التي تعتبر تلك الحقيقة نسخةً ذاتية منها تفتقد إلى الموضوعية.

يُعتبر كتاب «ما وراء مبدأ اللذة» مثالًا توضيحيًّا استثنائيًّا إلى حدٍّ ما لمثل هذا العمل التحليلي؛ إذ تدفعه الملاحظة التحليلية وتمييز الحقائق. دعونا نَتتبَّع فرويد خطوةً بخطوة

خلال رحلةِ استيضاحِ تفكيره؛ أثارت رسالةٌ كتبها بعض أتباعه عن «مُصابي عُصاب الحرب» دهشَتَه. ومن خلال هذه الفئة، التي ظَهرَت تحت تأثير تلك الظروف المأساوية، أصبح مرتبطًا، على نحوٍ أكثرَ خصوصية، بتفرُّدٍ يُميِّز عالم الأحلام الخاص بهؤلاء المرضى بالعُصاب؛ فأحلامهم، في الواقع، إنما تتبع نظامًا يناقض نظريةَ إشباع الرغبات؛ لأنها تعود بالحالم مرةً تلو الأخرى إلى الموقف الخطير الذي تَعرَّض له على أرض الواقع، وفَرضَت هذه الحقيقة عليه فكرةَ أنَّ عمل الجهاز النفسي ربما لا يسير وفق مبدأ اللذة، الذي كان ببساطةٍ مناقضًا للوضع الميتاسيكولوجي السائد، والمُقتَبَس من زمنِ كتابه «الموجز في التحليل النفسي». بعد ذلك اختَبَر هذه الفئة التحليلية في ضوء فئةٍ أخرى عُرفت منذ زمنٍ باسم «العُصاب الرضحي»، الذي يظهر بعد وقوع حوادثَ وَضعَت حياة المريض في خطر.

نلاحظ هنا الاضطراب نفسه لمسار الحلم؛ فالحالم يعود على نحوٍ متكرر إلى الظروف المُسبِّبة للحادث، وهي ظروفٌ يُدرك أن ثَمَّةَ شعورًا مُعيَّنًا يُسيطِر عليها، غير معروفٍ نوعًا ما، وهو الرهبة. لذا، لكي يُثبت فرويد أن الملاحظة بمجرد أن تنبثق من التجربة التحليلية وتَتحرَّر من الحظر الذي يفرضه التفكير والمُمثَّل في الحقائق المتخفية في كونها تافهةً أو شخصيةً للغاية، فإنها ستُغذِّي نفسها بكل شيءٍ يمنحه لها الواقع، وضع فرويد هذه الحقائق، التي تنتمي لعالم الأحلام والحقائق المنتمية لعالم العُصَاب، جنبًا إلى جنب مع حقيقةٍ ثالثة تنتمي لعالم اللعب الذي يبدو مختلفًا تمامًا؛ فقد لاحظ أن حفيده ذا العام ونصف يلعب ببكرةٍ من القطن متصلة بخيط، جاعلًا البكرة تختفي وتظهر، وخمَّن أن هذا النشاط لم يكن ممتعًا بقَدْر ما كان يُمثِّل للطفل الصغير تكرارًا صدميًّا بحقٍّ لرحيل والدته الحبيبة.

بعد ذلك فكَّر فرويد في الحياة التي يُنشئها أشخاص بأعينهم لأنفسهم دون درايةٍ منهم بذلك، وهي حياةٌ تواجه الإحباطات والعقبات والحوادث المؤسفة نفسها على نحوٍ متكرر، حتى يُضطر المرء للاعتقاد أنها تعُيد استنساخها على نحوٍ نشط. وأخيرًا، فكَّر فيما يحدث في تجربة العلاج مع مرضى بأعينهم يميلون من خلال تحويل المشاعر إلى تَكرار العنف الذي تَخلَّل المواقف التي وقعوا ضحايا لها في الطفولة، بدلًا من العمل على النبش في ذكريات الطفولة التي تَسبَّبت في إصابتهم بالعُصَاب، ويتمكنون من تحويل المُحلِّل النفسي إلى شخصٍ يريد إيذاءهم وبعيدٍ كل البعد عن كونه شخصًا نافعًا لهم

يسعى للأخذ بأيديهم نحو الشفاء، ما لم ينجح هذا المُحلِّل على نحوٍ صحيح في السيطرة على هذه الأحداث.

من خلال هذا الحشد من الحقائق التحليلية والتعبير المُتدرِّج عنها، أَسَّس فرويد مفهومًا نظريًّا كان له امتدادٌ كبير فيما بعدُ وصاغ له مُصطلَح «التَّكرار القهري» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٩). من المُؤكَّد أن فكرة التَّكرار كانت مألوفة بالنسبة إلى فرويد؛ إذ ناقشها في نصٍّ جميل أُعد بعنايةٍ كبيرة بعنوان «التذكُّر والتَّكرار والتوغُّل». كان هذا ما أَسْماه النزعة التي تدفع بعض المرضى لإعادةِ معايشةِ أحداثٍ من ماضيهم بدلًا من تنشيطها لتُصبِح حاضرةً في واقع حديثهم. وضع فرويد آليةَ هذا في المجال العام للمقاومة ووصف اتجاهًا مضادًّا لذلك الاتجاه الخاص بالتذكُّر. في ذلك الوقت، كان مفهوم التَّكرار يُشير فقط إلى ارتباط المريضِ بماضي طُفولته والرفض الذي تُقاوَم به العملية النفسية الواعية الحركات الجنسية التي تُشكِّل الأساس لمثل هذا الارتباط، دون أن يُؤخذ في الحسبان الخطر الحقيقي الذي يُمثِّله التَّكرار على أي شخصٍ ينخرط في القيام به.

ولكن من خلال تأمُّلٍ أكثر عمقًا، نجد أنه بدعمٍ من مجموعةٍ أكبرَ من الحقائق التحليلية المختلفة عن تلك المُستخدَمة في «ما وراء مبدأ اللذة»، أعاد فرويد صياغة هذا المفهوم. وقد قاده إلى هذا التجديد الجذري ثلاثةُ عناصرَ جديدة: أولًا، اكتشاف «التنفيس» الجبري الذي يُنشِّط هذه النزعة نحو تكرار ماضي الطفولة، ومن هنا جاء مُصطلَح التكرار القهري، الذي استُخدِم منذ ذلك الحين فصاعدًا لتحديده والإشارة بوضوح لطبيعته الغريزية؛ فلم يعُد من الممكن عَزو ظهوره إلى المقاومة فقط. يأتي بعد ذلك اكتشاف الطبيعة التدميرية لهذا الاتجاه النفسي التي تَنكبُّ، على نحو شبهِ مُمنهَج، على تدميرِ مسار العلاج وكذا مسار الحياة النفسية، بل مسار الحياة نفسها، بكل نشاطاتها المتعددة المُوجَّهة عادة للبحث عن المتعة. وأخيرًا، جاء اكتشاف فرويد لجانبٍ لم يكن معلومًا من قبلُ ومخيفًا من الجنسانية الطفلية، بالنظر إلى أن هذا الجانب لم يعُد يدَّعي الارتباط بالبحث عن المتعة، مثلما كان فرويد يعتقد حتى ذلك الحين من واقعِ جميعِ أبحاث التحليل النفسي، بل بقي مُقيدًا إلى حدٍّ كبير بالظروف التاريخية التي أَيقظَته، مهما كانت عنيفة، إلى حد الميل بعنادٍ إلى التنفيس عنها وتكرارها مرةً أخرى رغم كل قواعد المنطق الزمني، كما لو كان أصلها قد طغى على غايتها؛ واكتشافِ جنسانيةٍ من شأنها أن تجمع معًا أكبر قدْرٍ ممكن من تجارب الطفولة، من خيبةِ أملٍ وإحباط وفقدان، كتجاربَ

باعثة على الرضا والإشباع، وهو ما أجبر فرويد لاتخاذ خطوةٍ أُخرى تجاه سيكولوجية العمق. في هذه اللحظة البحثية، خَضعَت النظرية التحليلية للتمثيل لنوعٍ من التقسيم إلى مسارين؛ ففي مقابل المسار الطبيعي للغريزة الجنسية كما وُصِف في كتاب «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية» (فرويد، ١٩٠٥) الذي يُحافِظ على الجهاز النفسي بقوته الرابطة وطاقته الحيوية، يُوجد تيَّارٌ خطير قابل للتفكيك ذو اتجاهٍ مازوخي، يُجبِر المرء على التساؤل عما إذا كان ليس تيارًا غالبًا في حياة بعض الأفراد.

برغم كل ذلك، فإن هذا التمثيل المُزدوج للجنسانية — كما تم تحليله — يصبح ملائمًا في النهاية، مع تبيُّن ملامحِه من خلال هذا المفهوم النظري للتكرار القهري، ويجعل النظام الذي يتحكم في الحالات النفسية الأكثر نكوصًا أكثرَ قابليةً للفهم؛ فالمعاناة الجسدية أو المعنوية التي يبدو أن مرضى العُصاب يُركِّزون عليها ويُغذُّونها على نحوٍ نشط، والتي تُعَد الخطر المهلك الذي تُعرِّضهم له أشكالٌ من الاضطرابات النفسية مثل الأوهام أو الهلوسة أو الإدمان، تبدو وكأنها تحلُّ لديهم محلَّ أي شكلٍ آخر من أشكال الحياة الرومانسية؛ فالشعور الشهواني بالنسبة إليهم تَحوَّل، فيما يبدو، إلى شهوةٍ لتدمير الذات، وتتراجع موضوعات حُبهم، كما لو كان هذا يحدث على نحوٍ خفي، إلى داخل الأنا. ويتيح اكتشاف أن الجنسانية الطفلية ليست مرتبطة بجانب المتعة — على نحو جزئي على الأقل وقد لا يكون ذلك الارتباط متحققًا بالضرورة — بل بجانب اللامتعة والتدمير والتضحية الذاتية، مقاربة خصبة للتعامل مع هذه الحالات المرضية، مذكِّرًا إيانا بأننا، في تلك الحالات أيضًا، نكون في حضرة الغريزة الجنسية، ولا نعني هنا الغريزة السعيدة التي تستغل كل الظروف وأيَّ تحويلٍ للمشاعر من أجل تحقيق الأمنيات كما في العُصاب، بل نعني غريزةً جنسية بالغة الكآبة تتطلب معالجةً خاصة لتعود للحياة ولموضوعاتها. وكما في النظرية التحليلية، يمثل تأسيس مفهوم التكرار القهري نقطةَ تحوُّلٍ ليس فقط لفهم المستويات الأعمق من النشاط النفسي، بل كذلك، وهذا ما أَعتقِده على نحوٍ خاص، بالنسبة إلى آلية عمل العلاج؛ فهو يجعله منفتحًا لمعالجةٍ تحليلية محتملة للذهان: أولًا، لأنه يُعيد وضعَ آليةِ هذه العاطفة على محور الجنسانية الطفلية ومن ثَمَّ تقريبها من العُصاب والسماح لها بالاستفادة من المكاسب التقنية الكبيرة التي منحها علاجها للمُحلِّلين. ثانيًا، لأنه يستدعي خلال العلاج تطويرِ شكلٍ مُحدَّد من وظيفة ذلك العلاج يعمل بعيدًا عن الأسلوب التأويلي وهو أسلوبُ الاقتحام والتوغُّل.

بناءً على عدةِ حقائقَ إكلينيكية، تلك المنبثقة من مواضع ملاحظةٍ متنوعة لكنها بالقياس تظل متمحورةً بقوة على السلوك الارتدادي الذي يتبناه بعض المرضى خلال فترة العلاج، طرح فرويد مفهومًا نظريًّا، وهو التكرار القهري، عرَّفه كما يلي:

> يستدعي الدافع القهري للتكرار أيضًا التجارب السابقة التي لا تتضمن أي احتماليةٍ للمتعة، ولا يمكن أن تكون بأي حالٍ من الأحوال، حتى منذ فترةٍ طويلة، قد جلبت أي إشباعٍ حتى للدوافع الغريزية التي تعرَّضَت للكبت منذ ذلك الحين. (١٩٢٠، صفحة ٢٠)

تمثَّلَت ثالث اللحظات المهمة في أعمال فرويد في إكساب مفهومه أساسًا ميتاسيكولوجيًّا. ومن الأهمية بمكان بالنسبة إليَّ أن أُشير إلى أن فرويد باشَر عمله هنا على مرحلتَين: في المرحلة الأولى، لجأ إلى النظرية القديمة والمألوفة للجنسانية الطفلية التي «أسعده» أن يصفها مرةً أخرى مسلطًا الضوء بأسوأ ما يمكن على طابعها المأساوي، وهذا ما تكتشفه عند قراءة تلك الفِقرة الطويلة والمكثَّفة التي غالبًا ما يُستشهَد بها، ذات الوقع الشعري الرائع؛ إذ تُعَد أشبه بوقفةٍ موسيقية حيث يصل الثلث الأول من كتابِ «ما وراء مبدأ اللذة» لأَوْجِه، مُتحولًا على نحوٍ كامل نحو الطابع التحليلي. لنقتبسه مرةً أخرى بإسهاب:

> إن النشوء المُبكِّر للحياة الجنسية الطفلية محكومٌ عليه بالهلاك بسبب عدمِ توافُق رغباتها مع الواقع وكذلك مع المرحلة غير الكافية من التطوُّر التي وصل إليها الطفل؛ فذلك النشوء ينتهي في أكثر الظروف كآبةً وإزعاجًا ويُصاحبه أكثر المشاعر إيلامًا؛ ففقدان الحب والفشل يُخلِّفان وراءهما جُرحًا دائمًا لاحترام وتقدير الذات في شكل نُدبةٍ نرجسية، وهي التي، في رأيي، وكذا في رأي مارسينوفسكي (١٩١٨)، تساهم أكثر من أي شيءٍ آخر في «الإحساس بالدونية» الشائع بكثرةٍ لدى المُصابِين بالعُصاب. ولا تقود الأبحاث الخاصة بالجنسانية الطفلية، والمُقيَّدة بالحدود التي يفرضها عليها التطوُّر الجسدي، لأي استنتاجٍ مُرضٍ، ما يَترتَّب عليه ظهور شَكاوَى لاحقةٍ من قبيل «لا أَقدِر على إنجاز أي شيء» أو «لا أستطيع النجاح في أي شيء»؛ فتخضع رابطة الحب، التي تربط الطفل كقاعدةٍ بالوالد من الجنس الآخر، للإحباط، أو توقُّعٍ زائف

> بالإشباع، أو الغَيرة من مولدِ طفلٍ جديد، وهو ما يُمثِّل دليلًا لا يُدحَض على خيانة الشخص المُستَهدف بمشاعر الطفل. وتفشل محاولته في جعل نفسه طفلًا رضيعًا، التي يُنفِّذها بجديةٍ مأساوية، على نحوٍ يُولِّد لديه الخزي. ومع تضاؤل قدْر الحب الذي يحصل عليه، والمتطلبات المتزايدة للتعليم، والتوبيخ والتعرُّض من آنٍ لآخر للعقاب، يرى في النهاية مدى الازدراء الذي يُعامَل به. (فرويد، ١٩٢٠، الصفحات ٢٠–٢١)

بعد ذلك في المرحلة الثانية، وبتفكير سيتطور على مدى الثلثَين المُتبقيَين من النص؛ تفكير يبتعد عن الاعتبارات التحليلية التقليدية ويروق للتأمُّل الرفيع، ويَتغذَّى على فرضيات حيوية وفسيولوجية جريئة على نحو خاص، اقترح فرويد إكساب مفهوم التكرار القهري أساسًا يُطيح بالمنظور الميتاسيكولوجي الذي كان معتمدًا حتى تلك اللحظة؛ أساسًا لم يعد مرتبطًا بالجنسانية الطفلية، ذاك الذي ربطه بمجموعةٍ من القوى المُتحفِّظة التي اجتَمعَت تحت اسم غريزة الموت.

> هل الأمر حقًّا، وبعيدًا عن الغرائز الجنسية، هو أنه لا تُوجد أي غرائز لا تبحث عن استعادةِ حالةٍ مُبكِّرة للأشياء؟ ألا يُوجد ما لا يهدف إلى الوصول إلى حالةٍ لم يتم الوصول إليها من قبلُ للأشياء؟ لا أعلم مثالًا بعينه من العالم المادي من شأنه أن يُناقض التوصيف الذي اقترحتُه عند هذا الحد؛ فلا جدال في أنه لا تُوجد أي غريزةٍ عامة تهدف إلى تطوُّر أكبر قابلٍ للملاحظة في عالم الحيوان أو النبات، على الرغم من أنه لا يمكن إنكار أن التطوُّر يحدث في الواقع في ذلك الاتجاه. (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٤١)

وعلى ذلك، فإن التقدُّم الميتاسيكولوجي الذي تحقَّق يتجاوز النقاش؛ فتسجيل الحركة الغريزية بازدواجية متناقضة بعنف بين الحياة والموت يتيح أساسًا جديدًا لنطاق الكبت (إذ يكون تطوُّر الجهاز النفسي نحو اتجاه أعلى ممكنًا فقط من خلال تجنُّب الكبت والالتفاف حوله)؛ فهو يفتح الطريق أمام تمثيل مُركَّب للجهاز النفسي (وهو ما نُسمِّيه الطبوغرافيا الثانية، حيث تُستَبدَل العلاقات البنائية بين الأنا والهو والأنا العليا من أجل النزاع بين حالتَي ما قبل الوعي واللاوعي)؛ وأخيرًا، فإنه يتيح إلهامًا للتجديد النظري الضخم الذي مَيَّز أعمال فرويد بعد عام ١٩٢٠. غير أن ما يظل جديرًا بالملاحظة في

التطوُّر ذي المرحلتَين الذي طرأ على الأعمال الميتاسيكولوجية الذي أثاره اكتشافُ المفهوم النظري للتكرار القهري هو الانفصال الجذري الذي حدث بين هاتَين المرحلتَين: فبينما عَزتِ الأُولى أصل الإكراه أو الدافع القهري إلى قَدَرٍ خاص بالجنسانية الطفلية، حوَّلَته الثانية إلى الضد الرئيس وهو غريزة الموت.

جدير بالذكر أنه من خلال وضع الغريزة الجنسية (المشمولة في التصنيف الأعم لغرائز الحياة) وغريزة الموت مَوضعَ تعارُض، لم يقُم فرويد إلا بتكرار التأكيد على التعارُض بين الغريزة والنزعة المُؤكِّد في كتاب «الغرائز وتقلُّباتها» (١٩١٥أ)؛ بل الأجدر بالذكر أنه بين هذَين المَوضِعَين الميتاسيكولوجيَّين المتعلقَين بهاتَين المرحلتَين، وفي جوهرِ تطوُّرِ هذا النص المفتقد للنظام ظاهريًّا، يُوجد تَمزُّق بالتأكيد، لكن لا يوجد استبعادٌ بأي حال. فلم يُنكِر فرويد أيَّ شيءٍ من مساهمة الجنسانية في التكرار القهري عندما استدعى الفعل المسئول عن غريزة الموت؛ فالأخير يُفسِّر فقط ما يعوق مسار الأُولى ويقصره على مواقفَ «صادمة» من الماضي ويمنع الوصول لموضوعات الحاضر.

غالبًا ما يكون لدى الفرد نزعةٌ للأخذ في الاعتبار أن هذا النص، «ما وراء مبدأ اللذة»، يُركِّز على غريزة الموت. وتقودني قراءتي للنص لأرى أن التركيز على التكرار القهري؛ فمن الممكن على أي حال استيعاب أن مفهومَ ما وراء النفس، كونه «ثقيلًا» بعض الشيء، يميل لأن يخلع عن نفسه الاهتمام الذي استيقظ داخل القارئ بسبب المفهوم النظري الذي، للمفارقة، يكون أكثر غُموضًا. بالمثل، يميل الفرد للاعتقاد أنه بسبب عدم الاستمرارية التي تُؤثِّر على كتابة هذا النص، تعامَل فرويد مع غريزة الموت كقوةٍ متمايزة عن الغريزة الجنسية. وتقودني قراءتي للنص لاعتبار هذا التقطُّع النصِّي كصدًى للصدع الذي ينفجر فوقه تيَّارا الغريزة الجنسية؛ فغريزة الموت، في الحياة الجنسية، تُمثِّل وتُحدِّد النزعة الناشئة التي تُجبر الليبيدو على البقاء مرتبطة بموضوعاتها المحرمة، وتُعارِض كونها مَنبوذة، وعلى المنوال نفسه، يُعارِض ارتباط هذه الغريزة البدائية (التي تندفع تجاه الموضوعات لأنها لا تستطيع الاستغناء عنها) لصالح موضوعاتِ الاستبدال. تَتجسَّد ثنائيةُ غريزة الموت والغريزة الجنسية في معارضة «نموذجية» لازدواجية الحركة الشهوانية المُتأرجِحة بين الانجذاب نحوَ سفاح القربى الذي يقوده وَهْم اللاوعي وشهوة الموضوع التي تخضع، بفعل جهدٍ مُطوَّل من الحضارة، للكبت.

«ترجم هذا الفصل بيتر شايو.»

هوامش

(١) يقول فرويد: «عندما نفكر في الأمور المجردة، نواجه خطر احتمالِ تجاهُل علاقات الكلمات بتمثيلات اللاوعي للشيء، ويجب الاعتراف أنه حينها يبدأ التعبير ومحتوى تفلسُفنا في اكتساب تشابهٍ غيرِ مرغوبٍ فيه لنمط الأداء لدى المصابين بانفصام الشخصية» (اللاوعي، (١٩١٥ب)، صفحة ٢٠٤).

(٢) طالع الإشارة الصريحة كلية للشاعر راكرت التي يختتم بها فرويد كتابَ «ما وراء مبدأ اللذة» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٦٤)، واقتباسه لأبياته الشهيرة:

ما لا نستطيع الوصول إليه بالطيران
يجب أن نصل إليه ولو بالعَرَج ...
فالكتاب المُقدَّس يُخبِرنا أنه لا خطيئة في أن نَعرُج.

(٣) في الواقع كانت سابينا سبيلراين هي من اقترح منذ عام ١٩١٢ فكرةَ أنَّ «التدمير سيُصبِح أصل الوجود».

(٤) استهل فرويد الفصل الثالث من كتابِ «ما وراء مبدأ اللذة» بقوله: «خمس وعشرون عامًا من العمل المكثف أدَّت إلى اختلاف الأهداف المباشرة لأسلوب التحليل النفسي اليوم عما كانت عليه في البداية» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٨).

(٥) «... وهذا يدفعنا إلى استنتاج أن غرائز الموت بطبيعتها غرائزُ صامتة وأن صخب الحياة يبدأ في أغلبه من الغريزة الجنسية» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٤٦).

(٦) يمكن حتى التحدُّث عن التركيز الفكري النرجسي بدلًا من التركيز الفكري الشهواني داخل الأنا، رغم عدمِ إدراك الطبيعة الشهوانية الأساسية لهذا التركيز الفكري من خلال هذا، على الرغم من حالة التسامي. لكن هل يمكن التحدُّث عن شدَّة النرجسية عندما يكون النموذج النفسي الوحيد الذي يمكن ملاحظته من خلال سماتها الخاصة، التي تُناقِض الواقع وحالات اللاوعي الأخرى؛ هو نموذج الأنا؟

الفصل السادس

«اللاوعي»

لويس إدواردو برادو دي أوليفيرا

في الأول من أبريل عام ١٩١٥ كتب فرويد إلى لو أندرياس-سالومي:

> الأعداد القادمة من «الجريدة» ستتضمن توليفةً نفسية من نوعٍ ما تضم عددًا مُتنوعًا من أفكاري مصنفةً تحت ثلاثةِ عناوين: الغرائز وتَقلباتها، والكبت، واللاوعي، وهي توليفة لم تكتمل بعدُ مثل معظم ما أطرحه، وإن كانت لا تخلو من مضمونٍ جديد. وسيتضمن المقال الخاص باللاوعي تحديدًا تعريفًا جديدًا لهذا المُصطلَح، يُعد بحق بمثابةِ إعادةِ صياغةٍ له. (أندرياس-سالومي، ١٩١٢-١٩١٣، صفحة ٣٨)

تُوحي هذه اللفظة الجديدة، المشتقة من الكلمة الألمانية Agnoszierung (بمعنى اللاأدرية أو الحياد الديني) بطابعٍ ديني أو مُقدَّس، يُميِّزه اعتقادٌ قوي يرتبط سلفًا باللاوعي. يهدف فرويد إلى طرحِ تعريفٍ جديد ذي طابعٍ محايد دينيًّا. وستُتيح لنا دراسةٌ متأنية لنصه تحديدَ من أيِّ منظورٍ اعتبر تعريفه جديدًا، ليس فيما يخُص الأطروحة السائدة في زمانه حول الموضوع، بل فيما يخص الأساليب الفرويدية نفسها في المقام الأول.

على سبيل المثال كتب مُحرِّرو النسخة الكاملة لأعمال فرويد في مقدمتهم لبحث فرويد حول «اللاوعي»:

> في أيامه الأُولى وفي بيئته الأقرب، كانت المقاومة لفكرته عظيمة؛ فبقدر اهتمام أساتذة فرويد المباشِرين، مثل ماينرت، بعلم النفس، فقد كانوا محكومِين بالأساس بآراء جيه إف هيربرت (١٧٧٦–١٨٤١)، ويبدو أن فرويد كان يدرُس منهجًا يُجسِّد مبادئ هيربرت في المدرسة الثانوية. (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٦٢)

إن تلك الآراء، بقدْر كونها مثيرةً للاهتمام، لا تُغطِّي المجال الكامل لموضوع الإسهامات التي ربما أَثَّرت في فرويد من زاويتَين: زاوية الإسهامات الأكثر حداثة والمعاصرة لوقت كتابة فرويد لبحثه، وكذلك زاوية الإسهامات الأسبق، التي كانت أكثر شهرةً وانتشارًا من إسهامات ماينرت وهيربرت.

(١) المصادر والمناهج المختلفة فيما يخص اللاوعي

نشر إدوارد فون هارتمان (١٨٤٢–١٩٠٦) في عام ١٨٦٩ كتاب «فلسفة اللاوعي»، الذي لاقى استحسانًا عامًّا واسعًا وصنع له شهرةً بين ليلة وضحاها. في هذا الكتاب يشيد هارتمان بسابقِيه؛ شيلينج، وهيجل، وشوبنهاور. يعقد هارتمان في هذا الكتاب، الذي استهلَّه بطرحِ تحليلٍ للظواهر العضوية، مقابلةً بين الغرائز «الكريهة»، مثل الخوف من الموت أو التقزُّز من ناحية، والغرائز «العاطفية» مثل حب الأم أو الحب الجنسي من ناحيةٍ أخرى. تضرب الفضيلة وعلم الجمال والتصوُّف بجذورها في هذا التناقُض، وذلك وفقًا لمبدأ التسامي، الذي نلاحظ حُضوره في الفكر الألماني بدايةً من كانط فصاعدًا، ويُلقي بظلاله على مفهوم فرويد، حتى وإن لم يَحظَ هو عينه بدراسةٍ من قِبل هارتمان (برادو دي أوليفيرا، ١٩٩٨، الصفحات من ١١١٧–١١٢٦). وبينما يرى هارتمان أن اللاوعي ينتمي إلى الميتافيزيقا وليس له تمثيلٌ زمني، يُبقي فرويد على هذه السمة الأخيرة لكنه يُحوِّلها إلى مفهوم ميتاسيكولوجي. ويبدو أن هذا التناقُض بين مجموعتَين أساسيتَين من «الغرائز» وحله الكامن في الموت قد ترك بصمته على التحليل النفسي؛[١] فبالنظر إلى إسهام هارتمان، يَسهُل إدراكُ أنَّ فرويد ربما رغب في إضفاءِ طابعٍ لا أدريٍّ على مفهوم اللاوعي كي يُجرِّده من أي دلالةٍ دينية.

أمَّا فيما يتعلق بمُعاصِري فرويد الذين ربما أَثَّروا في فكره وكانوا الحافز له في مسعاه لوضع أساسٍ نظري لمفهوم اللاوعي، نجد بالطبع بليولر الذي نشَر عام ١٩٠٦ كتابه «اللاوعي والتداعي» كإسهامٍ في دراسات يونج حول التداعيات الحرة، والذي يظهر في كتابه «دراسات التداعي». ويستدعي هيرشمان هذا الكتاب في إسهامه المُعنوَن «عرضٌ عام لنظريات فرويد (دعايةٌ مُوجَّهة للأطباء)» الذي قدَّمه إلى اجتماع جمعية فيينا للتحليل النفسي في ٢١ أبريل عام ١٩٠٩؛ حيث يقول:

> إن الصعوبات التي نُواجهها في فهم العُصاب النفسي تضرب بجذورها في مفهوم اللاوعي والجنسانية الطفلية، اللذَين يجب إقامة الدليل عليهما في إطارِ علمٍ تجريبي بحت. علينا إذن استهدافُ نطاقٍ أَبعدَ في الدراسة المُوسَّعة والمُفصَّلة حول [مفهوم] اللاوعي، والخوض بقدْر من التفصيل في دوره الخبيث [المُستحِث للمرض]. في الوقت نفسه يمكن طرح بعض المعلومات التي من الضروري [معرفتها] عن الأحلام والدعابات والحياة اليومية.
>
> وأخيرًا يجب التعرُّض بإيجاز للتحليل النفسي، باعتباره الطريقة الوحيدة التي يمكن عَبْرها معرفةُ شيءٍ عن اللاوعي. وفيما يخُص [اللاوعي]، يجب مراعاة الأمور التالية: أولًا مدى احتوائه على المادة المكبوتة (هيرشمان، مقتبس من كتاب بليولر «اللاوعي والتداعي»)، ثانيًا عجزنا عن فهم اللاوعي دون [دراية] بظواهر التنويم المغناطيسي، والإيحاء، والوعي المزدوج. (نانبرج وفيدرن، ١٩٠٨–١٩١٠، صفحة ٢٠٩)[٢]

في الواقع كان اهتمام فرويد باللاوعي حاضرًا منذ بداية أبحاثه في التحليل النفسي؛ ففي عام ١٨٩٥ عندما كان يُفكِّر في علاج لحالة إيمي فون إن، كتب فرويد في حاشية سفلية يقول:

> ومن ثَمَّ كان اندهاشها في مساء اليوم السابق من مرور فترةٍ طويلة منذ آخر مرةٍ أُصيبت فيها بتشنُّج في العنق نذيرًا بحالةٍ مَرَضية وشيكة الحدوث، كانت في طَور الإعداد وقتها ومُدرَكة في اللاوعي؛ كان هذا النذير الغريب يظهر بانتظام في حالة السيدة ساسيلي إم المذكورة سابقًا. على سبيل المثال، إذا قالت لي وهي في أتمِّ صحة: «لقد مضى وقتٌ طويل منذ شَعَرتُ بالخوف من الساحرات ليلًا.»

> أو «كم أنا مسرورةٌ أن آلام عيني لم تُعاوِدني منذ فترةٍ طويلة.» أُصبِح على يقينٍ من أنها في الليلة التالية ستُراودها نوبةٌ شديدة من الخوف من الساحرات ستستلزم جهدًا إضافيًّا من مُمرِّضتها أو أن النوبة القادمة من آلام العين قد أَوشكَت على البدء. في كل مناسبةٍ كان ما هو حاضرٌ بالفعل كمُنتَجٍ نهائي في اللاوعي يبدأ في الظهور على نحوٍ غامض؛ فقد كان الوعي «الرسمي» غير المُتشكِّك (حسب مصطلح شاركو) يُعيد صياغة هذه الفكرة، التي بَرزَت كفكرةٍ مباغتة، إلى إحساسٍ بالرضا، يتضح سريعًا وعلى نحوٍ دائم أنه غيرُ مُبرَّر. وقد أشارت السيدة ساسيلي نفسها، التي كانت امرأة في غاية الذكاء وأَدين لها كثيرًا فيما تَوصَّلتُ إليه من فهمٍ للأعراض الهستيرية، إلى أن الأحداث من هذا النوع ربما أدت إلى ظهور خرافاتٍ حول خطر التفاخُر أو تَوَقع الأحداث السيئة.
> (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥، صفحة ٧٦)

إذن كان لنظرية اللاوعي أُسسٌ تحليلية دون شك. وإذا كان هذا المُصطلَح قد ظهر للمرة الأُولى في أعمال فرويد في هذه الحاشية، فمن المهم أن نُدرك تمامًا أنه قد ظهر عقبَ تساؤلِ فرويد عنه في حاشيةٍ سابقة، تُعتبَر بلا شكٍّ واحدةً من أطول الحواشي في تاريخ أدبيات علم النفس. وقد أعاد فرويد هذا التساؤل برُمَّته في بحثه الصادر عام ١٩١٥ (فرويد، ١٩١٥ج) مراتٍ عدة لا مرةً واحدة كما سنرى. أحد تلك التساؤلات هو السؤال المتعلق بالتدوين أو التسجيل المزدوج للتمثيلات والتأثيرات أو الأفكار، إضافة إلى ما ينتج عن تلك التدوينات أو التسجيلات المزدوجة. في هذه الحاشية يُشدِّد فرويد على «انفصال» الوعي، وتكوين التمثيلات ما قبل الواعية وتَحرُّكِها من سجلٍّ إلى آخر، مع ملاحظة أنه لم يتخلَّص ها هنا بعد من مفهوم الكبت، لكنه يُؤكِّد «التداعيات الكاذبة»، التي تتبع تمثيلاتٍ مُحدَّدة للوعي (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥، الصفحات ٦٧-٦٨).

يبدو لي أن محرري النسخة الكاملة الأساسية من الكتاب لا يُولُون انتباهًا كافيًا للقواعد التحليلية في الأساس، وحتى قواعد التحليل الذاتي لمفهوم اللاوعي وإن أشاروا إليه:

> على الرغم من ذلك، يجدُر التوضيح فورًا أن اهتمام فرويد بالافتراض لم يكن فلسفيًّا مطلقًا — وإن كانت المعضلات الفلسفية بلا شكٍّ تقبع في الأفق لا محالة. لقد كان اهتمامه اهتمامًا «عمليًّا»؛ فقد وجد فرويد أنه بدون طرح هذا

> الافتراض، لم يكن قادرًا على تفسير أو حتى وصفِ مجموعةٍ كبيرة ومُتنوِّعة من الظواهر التي صادَفها. ومع طرح الافتراض، على الجانب الآخر، وجد الطريق مفتوحًا للوصول إلى منطقةٍ شديدة الخصوبة من المعرفة الجديدة. (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٦٢)

إن مُحرِّري النسخة الأصلية، في الواقع، لا يذكرون ولو واحدةً من هذه المناسبات «العملية» حيث كان مفهوم اللاوعي مفيدًا للدرجة. على العكس، فهم يتعاملون على نحوٍ كبير مع الجانب النظري الذي ربما كان ضروريًّا لتكوين فهمٍ نظري لاستخدام فرويد للمفهوم. وربما يتبعُهم المرء في ذلك، مدعومًا بالتقدُّم النظري الذي تحقَّق منذ ذلك الحين، وهو ما يعني العودة إلى الاعتبارات الإكلينيكية والاعتبارات التحليلية الذاتية من أجل نشرِ ثراءِ علمِ فرويد وتعقيده.

على سبيل المثال، كتب هؤلاء المُحرِّرون يقولون:

> في الواقع إن الأساس الكامل لنظرية كبت الهستيريا وللأسلوب التطهيري في العلاج كان يدعو بشدة لإيجاد تفسيرٍ نفسي، وعن طريق أكثر الجهود تعقيدًا فقط، أمكن تفسيرها من وجهة النظر العُصابية في الجزء الثاني من كتاب «المشروع». وبعد بِضعِ سنوات، وفي كتاب «تفسير الأحلام» (فرويد، ١٩٠٠)، حدَث تحوُّل غريب؛ فلم تختفِ الرواية العُصابية لعلم النفس اختفاءً كاملًا فحسب، بل اتضح الآن أن كثيرًا مما كتبه فرويد في «المشروع» فيما يتعلق بالجهاز العصبي سليمٌ وأكثر وضوحًا بكثيرٍ عندما تُرجِم إلى مُصطلحاتٍ عقلية.

ويختتمون هذه الفِقرة قائلِين (وهذا ما أريد التركيز عليه):

> لقد أُرسيت أُسس اللاوعي على نحوٍ حاسمٍ ونهائي. (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٦٤)

يبدو الجانب النظري الأساسي راسخًا، لكن ثَمَّةَ بعض الأفكار غير المُرضية؛ فافتراض أن اللاوعي قد ترسَّخَت أُسسه على نحوٍ حاسم ونهائي من شأنه أن يُغلق الباب أمام أي مفاجأة؛ ومن ثَمَّ أي حَيرة وكذا أي خوفٍ خلال مهمة إعادة اكتشافه. وهذا يُمثِّل مشكلةً كبرى. على الجانب الآخر، يبدو فهم أيِّ مسارٍ فردي نحو هذا الاكتشاف، والبدء

فيه من جديد، بمثابةِ طريقةٍ لإطلاق تجربة اللاوعي مرةً تلو الأخرى؛ ومن ثَمَّ لم تكن أول محاولة لفرويد لفهم السوداوية في بحثه «مشروع لعلم النفس» عام ١٨٩٥، الذي يضيف له المترجمون غالبًا كلمة «علمي»، فيما يعني أنه يُعد إلى حدٍّ كبير نموذجًا هندسيًّا لجهاز الفكر الذي ينتمي له اللاوعي، بل ظهرت هذه المحاولة في وقتٍ سابق في رسالة إلى فليس؛ فيسأل نفسه: «كيف يلعب فقدان الحس هذا الدور في السوداوية؟» (فرويد وفليس، ١٩٨٥ (١٨٨٧–١٩٠٤)، الصفحات ١٠٠–١٠٢.) وللإجابة عن هذا السؤال، يصنع فرويد مُسوَّدةً أُولى لجهاز الروح؛ حيث تظهر مُصطلَحات مثل حدود الأنا، والعالم الخارجي، والموضوع الجنسي، والتوتُّر الجنسي، والمجموعات النفسية، إلخ. وهذا المخطط، في شكلِه العام، يتكرر ويُبسَّط لتفسير الكآبة والجنون على نحوٍ خاص.

في الواقع، وفي ٢٧ أبريل من عام ١٨٩٥، كتب فرويد إلى فليس يخبره أنه مُنخرِط بشدة في مشروعه «علم نفس لأطباء الأعصاب»، وفي يوم ٢٥ مايو من العام نفسه، يُفسِّر عدم قدرته على التخلي عن عمله:

> بَيدَ أن السبب الأساسي كان هذا: إن رجلًا مثلي لا يستطيع العيش دون موضوعٍ يُركِّز عليه، دون شغفٍ يستحوذ عليه، دون طاغيةٍ كما يقول شيلر. وقد وَجدتُ واحدًا، ولا أعرف حدودًا في العمل عليه. إنه علم النفس، الذي كان دائمًا هدفي البعيدَ المنال الذي يدعوني، والذي اقتربتُ منه كثيرًا الآن منذ أن صادَفتُ مشكلة العُصاب. ثَمَّةَ هدفان يُؤرِّقانني؛ أولًا: فحص ماهية الشكل الذي تتخذه نظرية النشاط الوظيفي العقلي حالَ قدَّم المرء اعتباراتٍ كمِّية، أو نوعٌ من نظم القوى العصبية. وثانيًا: الحصول على مكسبٍ لعلم النفس التقليدي من علم الأمراض النفسية. في الواقع، إن الوصول إلى تصوُّرٍ عامٍّ مُرضٍ لاضطرابات الذُّهان العصبي أمرٌ مستحيل إذا لم يستطع المرء ربطه بافتراضاتٍ واضحة عن العمليات العقلية المعتادة. (مقتبس من فرويد في ماسون، ١٩٨٥، صفحة ١٢٩)

استُلهِم مشروع «علم نفسٍ لأطباء الأعصاب» على نحوٍ جزئي فقط من النموذج الهندسي الذي يظهر في رسالة فرويد إلى فليس، على الرغم من ظهور اللاوعي بوضوح مرةً أخرى، وهو حقًّا مشروع نفسي أيضًا على الرغم من أن علم الأعصاب يعمل كمجاز، بالنظر إلى كونِ أيِّ انشغالٍ بعلم الأعصاب كان بعيدًا عن عقل فرويد في ذلك الوقت. أخيرًا، وليس

آخِرًا، يرتبط اللاوعي بوضوح بالأحلام في هذا النص (فرويد، ١٩٥٠ [١٨٩٥] الصفحات ٣٤١–٣٤٣).

ولعل أفضل مثال وختام لتأمُّلات فرويد في ذلك الوقت يظهر في أحد خطاباته إلى فليس والذي كتبه في نهاية العام التالي، وهي تأمُّلات أكثر وضوحًا وصراحةً بكثيرٍ من أي شيءٍ كتبه من قبلُ (فرويد وفليس، ١٩٨٥ [١٨٨٧–١٩٠٤]، الصفحات ٢٠٧–٢١٥). يُعتبر هذا الخطاب بحق مُسوَّدةً حقيقية للفصل السابع الشهير من كتاب «تفسير الأحلام» لفرويد، وفيه يسرد نموذجه الطبوغرافي بالكامل للجهاز النفسي ومشروعه النفسي بوضوحٍ أكبر.

في كتاب «تفسير الأحلام»، يعمل فرويد مرةً أخرى على نموذجه؛ لكي يزيل أيَّ إشارةٍ إلى نظرية فليس عن الدورات البيولوجية الإيقاعية والتي ظل مُعترِفًا بها في رسالته. وفي هذا الإطار فقط يُمثِّل كتاب «تفسير الأحلام» نسخةً مكتملة من الجانب الطبوغرافي لعلمِ ما وراء النفس الخاص به؛ ومن ثَمَّ، التكوين الطبوغرافي للاوعي. يظهر الإدراك في أحد طرفَي جهاز التفكير؛ وسيكون تراكُم آثار الذاكرة في هذا الطرف مصدرًا للاوعي، ومن هناك فصاعدًا ربما تُصبِح بعض تلك الآثار آثارًا قبل شعوريةٍ في الطرف الآخر من الجهاز، قبل تفريغ الشحنة الحركية مباشرة، والتي يعود بها إلى العالم الخارجي الذي جاءت منه في البداية في صورة إدراك (فرويد، ١٩٥٣ [١٩٠٠-١٩٠١]، الصفحات ٥٣٧–٥٤١). علاوةً على ذلك، قد تُسجِّل بعض العناصر التي تنتمي إلى الإدراك السليم نفسها مباشرة على سجلٍّ ما قبل الوعي.

كان كلٌّ من رسائلِ فرويد إلى فليس، وكذلك مشروع علم النفس، متشابكًا مع تحويل المشاعر والشواغل التحليلية. أمَّا كتاب «تفسير الأحلام»، فهو ممزوجٌ بحزن فرويد على والده، وكذلك حزنه على نهاية علاقةِ صداقة؛ لذا يُعتبَر هذا الكتاب أهم إنجازٍ تَحقَّق في مجال التحليل الذاتي.

(٢) بحث اللاوعي

نشر فرويد في عام ١٩١٢ عددًا من الكتابات المُهِمة، كان من بينها بالطبع «الطوطم والتابو»، أيضًا إلى جانب «آليات التحويل»، و«عن النزعة العامة إلى المهانة في عالم الحب» (وكان ضمن ثلاثة مقالاتٍ جاءت تحت عنوان «مساهمات في سيكولوجية الحب»)،

و«توصيات إلى الأطباء الممارسين للتحليل النفسي»، و«أنواع نوبات العُصاب»، و«مساهمات في نقاش حول الاستمناء» (وكان هذا الموضوع من أكثر الموضوعات التي نُوقِشَت في جمعية التحليل النفسي في فيينا؛ حيث عُقِدت تسعة اجتماعات كُرِّسَت لهذه المسألة، التي تناوَلَت بأسلوبٍ جديد موضوعات الاستمناء، والسرية، والحياة المؤسَّسية)، وأخيرًا «تعليق على اللاوعي في التحليل النفسي». ويُعتبر بحث ١٩١٥ج عن هذا الموضوع نسخةً مُنقحة من هذا البحث الأخير في عدة جوانب منه.

في العام نفسه، حدث شِقاقٌ بين فرويد وستيكل في الوقت الذي كان فيه فرويد يُنهي شقاقه مع أدلر وشرع في الانفصال عن يونج. ومرةً أخرى، ارتَبطَت أفكاره عن اللاوعي بالحزن؛ ففي الثاني من يناير عام ١٩١٢ كتب إلى كارل أبراهام يقول: «لا تُوجد أيُّ توقُّعات تُستحَق لنفسي؛ هناك أوقاتٌ عصيبة قادمة، وربما لن يأتي التقدير إلا من الجيل القادم» (فرويد وأبراهام، ١٩٠٧–١٩٢٥، صفحة ١٤٥). بعد انفصاله عن ستيكل، الذي كان أول تلاميذه، أَسَّس فرويد «الجريدة الدولية للتحليل النفسي» في العام نفسه. تخلَّل هذه الفترة العديد من الكتابات والعديد من المبادرات، وكان هذا ما أسماه «فترة حالكة»!

في العام نفسه، وباللغة الإنجليزية مباشرة، وردًّا على طلبٍ من جمعية البحوث النفسية في لندن، كتب فرويد نصًّا قصيرًا بعنوان «تعليق على اللاوعي في التحليل النفسي». قدَّم هذا النص بالفعل أساسياتِ ما طوَّره فرويد لاحقًا عام ١٩١٥، ويطرح بالأساس تناولًا لجهاز التفكير واللاوعي يأخذ في الاعتبار جوانبه الطبوغرافية والديناميكية والوصفية. وقد كتب مُحرِّرو النسخة الكاملة لمؤلفات فرويد:

> إن السرد الحالي أكثر تفصيلًا ووضوحًا من السرد الآخر الأكثر اختصارًا والمُوضَّح في القسم الثاني من البحث العظيم؛ فلا يُوجد تمييز سوى بين استخدامَين فقط: «الوصفي»، والمنهجي»، ولا يبدو أن هناك أي تمييزٍ واضح بين الأخير وبين مُصطلَح «ديناميكي»؛ وهو المصطلح الذي ينطبق في الورقة البحثية الحالية على اللاوعي «المكبوت». (فرويد، ١٩١٢ج، صفحة ٢٥٨)

وقد كانوا على حق بالفعل!

يستهل هذا النص القصير والشديد الوضوح بمقترح:

> دعونا الآن نطلق كلمة «واعٍ» على التصوُّر الحاضر في وعينا والذي ندركه جيدًا، ولنجعل هذا هو المعنى الوحيد لمصطلح «واعٍ». أمَّا بالنسبة للتصورات المستترة،

> إذا كان لدينا أي سبب لافتراض وجودها في العقل — كما كان الأمر في حالة الذاكرة — فلنشر إليها بمصطلح «لا واعٍ». (المصدر السابق، صفحة ٢٦٠)

إن ما يسمح له بالإصرار على هذا الفارق، بخلاف الذاكرة وتداعيات الأفكار، هو إيحاءُ ما بعد التنويم المغناطيسي، وفي المقام الأول تجربة برنهايم في فرنسا التي يصفها فرويد (المصدر السابق، صفحة ٢٦١)؛ فهذه التجربة تتيح له التفريق بين الأسلوب الديناميكي لفهم اللاوعي وبين وصفه المنفرد. يدرك الأسلوب الديناميكي وجود فكرة الاحتفاظ بالأفكار بعيدًا عن الوعي رغم حدَّتها ونشاطها. لذا، وبجانب الحالات العقلية للوعي واللاوعي، يُعيد فرويد التأكيد على وجود حالاتِ ما قبل الوعي، وهو الوجود الذي ذُكِر بالفعل في كتاب «تفسير الأحلام».

يعود فرويد كذلك إلى أطروحته الصادرة عام ١٩٠١، والتي تنُصُّ على أن النشاط النفسي يكون نشاطًا لا واعيًا في البداية ويظل هكذا أو يسلك طريقه نحو الوعي بحسب المُقاوَمات التي يُقابلها (أو لا يُقابلها) والقادمة من تمثيلاتٍ نفسية مختلفة، بل إن فرويد يُقارِن العلاقة بين اللاوعي والوعي بالعلاقة القائمة بين الصورة الموجبة والسالبة عند تحميضِ صورة. ومن المثيرِ للاهتمام إدراكُ الروابط العديدة التي صَنعَها فرويد بين هاتَين الفكرتَين، عندما يُقرِّر مثلًا أن العُصاب هو «الصورة السلبية» للانحراف الذي يُنظَر إليه «كصورةٍ إيجابية» (فرويد وفليس، ١٨٨٧–١٩٠٤، صفحة ٢٢٧).[٣] علاوة على ذلك، لا يصبح اللاوعي وعيًا فحسب، بل غالبًا أيضًا ما تحدُث حركةٌ عكسية عندما تعود العناصر التي تنتمي للوعي إلى عالم اللاوعي، مثلما يحدُث للأفكار الكامنة في الأحلام.

في نهاية هذا النص، يُصرِّح فرويد بتصريحَين مهمَّين: أَوَّلهما: يُشكِّك في قوانين فكر اللاوعي في ظل اختلافها عن قوانين فكر الوعي. أمَّا الثاني فيتعلق بالطبيعة المستقلة لنظام اللاوعي. ويقترح فرويد تحديدَه بثلاثة أحرف وهي Ucs أو بالألمانية Ubw. وقد ذُكر هذا الاقتراح بالفعل في رسالةٍ إلى فليس في نهاية عام ١٨٩٦.

ينقسم بحث اللاوعي موضوع النقاش إلى سبعةِ فصولٍ تتعلق بتبرير مثل هذا المفهوم، والمعاني العديدة للمُصطلَح ووجهة النظر الطبوغرافية، كما تتعلق بالعواطف اللاواعية وطبوغرافية الكبت وآلياته، والسمات الخاصة بنظام اللاوعي، والتواصُل بين نظامَي اللاوعي والوعي، وأخيرًا تقييم اللاوعي. ولهذه الفصول أهميةٌ لا مثيل لها، وتَعرِض لفرضيةٍ وُضِعت سلفًا بأسلوبٍ لا مثيل له. والحماسُ الذي أظهره فرويد في رسالته المُؤرَّخة بتاريخ الأول من أبريل إلى لو أندرياس-سالومي مَحلُّ جدلٍ كبير؛ فقد كان فرويد قد

وضع بالفعل أساسًا للتكهُّن باللاوعي قبل كتابة النص الجديد، والأمرُ اللافت للنظر هو كيف تمكَّن فرويد من عدم الاقتباس قَطُّ من أيٍّ من أسلافه أو مُعاصرِيه ممن تناولوا المفهوم نفسه أو حتى دَحضِ آرائهم. على الرغم من ذلك، فإن لهذا النص أهميةً كبيرة؛ فهو يُمثِّل مجهودًا عظيمًا بُذل للإجابة على مجموعة من الأسئلة كثيرًا ما تظهر في أعمال فرويد من قبيل: هل يمكن لشيءٍ واحد التواجُد في الوقت عينه في عدةِ أماكنَ مختلفة والكشف عن نفسه بطرقٍ عِدَّة مختلفة؟ وكذلك: هل يمكن لشيئَين أو أكثر شغلُ حيِّزٍ واحد على نحوٍ متزامن والكشف عن نفسيهما بأنماطٍ متشابهة؟ إن إجابة هذه الأسئلة دائمًا ما تكون إيجابية، وأساس هذه الإجابة هو مفهوم التحديد المُفرِط أو التحديدات المُتعدِّدة، ذاك الذي تنبثق منه كلُّ تفرعاته. يبقى هذا المفهوم، الذي يُعد أَحدَ أكثرِ أفكارِ فرويد ثورية، غير مُستكشَف إلى حدٍّ كبير ليس فقط في التحليل النفسي، بل في العموم.

وهكذا فإن المقدمة لهذا النص المكتوب عام ١٩١٥ تبدأ بمقارنةٍ بين المكبوت واللاواعي، وهي المقارنة التي تُؤكِّد في الحال على كِبرِ مُحيطِ عالم اللاوعي الذي لا يقتصر على المكبوت؛ الأمر الذي من شأنه أن يثير تساؤلًا جديدًا: كيف لنا أن نتوصل إلى معرفة باللاوعي؟ (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٦٦). ثَمَّةَ إجاباتٌ عدَّة لهذا السؤال، أَوَّلها أن ثَمَّةَ ترجمةً جارية بين اللاوعي والوعي. وسيكون من الصعب الإفراط في التشديد على الأهمية الطاغية لفكرة الترجمة في أعمال فرويد.

يُقدِّم الفصل الأول نفسُه إجابةً ثانية للسؤال موضعِ النقاش، وهي إجابةٌ تنقسم إلى جزأين:

> إن الوعي يجعل كلَّ واحدٍ منا واعيًا فقط بحالاته الذهنية، أمَّا امتلاك الآخرين لوعيٍ أيضًا مثلنا، فذاك استنتاج نتوصل إليه بالقياس من واقع أفعالهم وأقوالهم القابلة للملاحظة، لكي نجعل سلوكهم هذا مفهومًا بالنسبة إلينا … وقد كان هذا الاستنتاج (أو هذا التماهي) فيما سبق يمتد بواسطة الأنا إلى البَشرِ الآخرِين والحيوانات والنباتات والجمادات وللعالم عمومًا … ولا يتطلب التحليل النفسي أكثرَ من تطبيقِ عملية الاستنتاج هذه على أنفسنا كذلك …
> إذا فعلنا هذا، يجب أن نقول: كل الأفعال والمظاهر التي أُلاحِظها في نفسي ولا أدري كيف أربطها ببقيةِ عناصرِ حياتي العقلية يجب الحُكْم عليها كما لو كانت تنتمي لشخصٍ آخر؛ يجب تفسيرها من خلال حياةٍ عقليةٍ منسوبة إلى ذلك الشخص. (المصدر السابق، صفحة ١٦٩)

إضافة إلى ذلك:

> في التحليل النفسي، لا يُوجد أيُّ خيارٍ أمامنا إلا التأكيد على أن العمليات العقلية هي في حدِّ ذاتها عملياتٌ لا واعية، وتشبيه إدراكها بواسطة الوعي بإدراك العالم الخارجي بواسطة الأعضاء الحسِّية. (المصدر السابق، صفحة ١٧١)

إن ما سبق يُمثِّل في الواقع إجابتَين مختلفتَين: الإجابة الأُولى تُقرِّر أهمية الإجراءات القياسية، بينما تُقرِّر الثانية احتمالية تطبيق هذه الإجراءات على العلاقة الفعلية بين الوعي واللاوعي. لكن منذ بداية الفصل يجب على القارئ إدراكُ أنَّ الحقائق المهمة التي تخضع للمُلاحَظة، وذلك فيما يتعلق بالتحليل النفسي، هي في الأساس هَفَوات، وأحلام، وأعراض، وأفعالٌ قهرية، وكذلك «أفكارٌ تخطر بأذهاننا لا ندري من أين، يصاحبها استنتاجاتٌ فكرية لا ندري كيف تَوصَّلنا إليها» (المصدر السابق، الصفحات ١٦٦–١٦٧).

وهكذا فإن الفصل الخاص بتبريرِ مفهومِ اللاوعي يتجاوز كثيرًا مُجردَ عرضِ قائمةِ حقائقَ تتيح تأسيس فرضية؛ إذ يُقدِّم كذلك منهجيةً لملاحظة هذه الحقائق؛ أي ترجماتٍ وقياساتٍ تمثيلية، وإدراك المرء لنفسه كعنصرٍ ينتمي إلى العالم الخارجي.

أَودُّ هنا التركيز على القياس التمثيلي بين الإدراك الذي يحدث داخل العقل وإدراك بقية العالم. كذلك يرتبط هذا القياس بالبيانات اللازمة لفهم أساليب التحليل النفسي المعاصرة. يقول فرويد: «إن حكمنا النقدي اليوم في ريبةٍ بالفعل فيما يخص الوعي عند الحيوانات؛ فنحن نرفض الاعتراف بوجوده لدى النباتات وننظر إلى افتراضِ وجوده في الجمادات كأمرٍ أشبه بالتصوُّف» (المصدر السابق، صفحة ١٦٩). لكن المشكلة لم تعُد وثيقة الصلة بالموضوع فيما يبدو؛ فمثل هذا التناوُل الخاص بالتصوُّف يبدو مرتبطًا بالاختزالية على نحوٍ ما. في الوقت الحاضر، وبناءً على المعرفة المتوافرة عن العُصاب والمُنبثِقة من التحليل النفسي، بعيدًا عن الطابع العلمي الذي يُميِّز زمن فرويد، يبدو أن تلك الاعتقادات تتطابق مع خطواتٍ أولية نحو إدراك المرء لذاته كإنسان، بعد إدراكِ انتماءِ الذات للعالم ومن ثَم الانتماء لعالَمي الجمادات والنباتات.

يُناقِش الفصل الثاني المعاني المتعددة لمفهوم اللاوعي والأسلوب الطبوغرافي. يبدو هذا الفصل حاليًّا معضلًا إلى حدٍّ كبير. وكما أشار المُحرِّرون البريطانيون للنسخة الأساسية، فإن هذا الفصل أقلُّ جودة من بحث ١٩١٢ج؛ نظرًا «لعدم وجودِ تمييزٍ اليوم سوى بين استخدامَين فقط للمفهوم وهما «الوصفي» و«المنهجي»، دون وجود أيِّ تمييزٍ واضح بين

الأخير وبين «الديناميكي»» (المصدر السابق، صفحة ١٦٤)، وأيضًا لأن الربط بين الوعي وما قبل الوعي واللاوعي قد تَرسَّخ ووُضِع منذ زمنٍ طويل.

وإذا كان لا يزال لهذا الفصل أهمية، فهذا يُعزى إلى المقترحات التحليلية التي يعرضها والتي تظهر في إحدى فِقراته الأخيرة؛ حيث كتب فرويد يقول:

> إذا أَوصَلنا للمريض فكرةً ما كان قد كَبتَها في وقتٍ ما لكننا اكتشفناها داخله، فإن إخبارنا له بها لا يصنع في البداية أي تغيير في حالته العقلية. وفوق ذلك، لا يُزيل ذلك الكبت ولا يُبطِل آثاره، كما قد يكون مُتوقَّعًا من حقيقةِ أن الفكرة التي كانت لا واعيةً فيما سبق أصبحت واعيةً الآن. على العكس، فكل ما سنحصل عليه في البداية لن يتجاوز الرفض المُتجدِّد للفكرة المكبوتة. لكن المريض، في واقع الأمر، يمتلك الآن الفكرة نفسها بشكلَين مختلفَين في مكانَين مختلفَين في جهازه العقلي: أولًا: يمتلك الذكرى الواعية للأثر السمعي للفكرة، الذي وصل عن طريقِ ما أخبرناه به. وثانيًا، يمتلك أيضًا — كما نعرف بالتأكيد — الذكرى اللاواعية لتجربته كما كانت في شكلها الأَوَّل. في الواقع، لا يحدث أي إلغاءٍ للكبت حتى ينشأ رابط بين الفكرة الواعية، بعد تجاوز المقاومات، وبين أَثرِ الذكرى في اللاوعي. وفقط من خلال تحويل الأخيرة إلى ذكرى واعية، يتحقق النجاح المنشود. وبنظرةٍ سطحية، يبدو لنا أن هذا من شأنه أن يُوضِّح أن أفكار الوعي واللاوعي تُعتبر تسجيلاتٍ منفصلة طبوغرافيًّا، تشترك في المحتوى نفسه. لكن التأمُّل للحظاتٍ من شأنه أن يكشف أن هُوية المعلومات المُعطاة للمريض مع الذكرى المكبوتة ظاهريةٌ فحسب؛ فسماع شيءٍ وتجربته أمران مختلفان تمامًا في طبيعتهما النفسية حتى لو كان محتوى الاثنَين واحدًا. (المصدر السابق، الصفحات ١٧٥–١٧٦)

إن الملاحظات عن الفارق وعن الروابط بين التجربة التي مَرَّ بها الشخص وتلك التي سمع بها ليست بجديدة؛ فقد ظَهرَت لأَوَّل مرةٍ عام ١٨٩٧، عندما كانت تلك الروابطُ أكثر تطورًا عما كانت عليه عندما ظَهرَت مرةً أخرى عام ١٩١٥. وفي عام ١٨٩٧، ذكرها فرويد مرتَين: الأولى في رسالة إلى فليس في السادس عشر من مايو في قوله: «تنبثق الأوهام، كما يحدث في الهستيريا، مما سُمِع ثم فُهِم فيما بعدُ.» يمكننا أن نفهم من هذه العبارة أن ثَمَّةَ مسافةً زمنية بين مصدر الفعل المُؤجَّل والتأجيل نفسه، وقد أَورَد في المسودة M،

التي تضمنتها رسالةٌ أرسلها بعد بضعةِ أيامٍ لصديقه آنذاك الصياغة المُعدَّلة التالية: «تنشأ الأوهام من مزيجٍ لا واعٍ من الأشياء المسموعة والمُجرَّبة طبقًا لميولٍ مُحدَّدة» (فرويد وفليس، ١٩٨٥ (١٨٨٧–١٩٠٤)، الصفحات ٢٤٣، ٢٤٧).

يضعُف الرابط بين ما سُمِع وما جُرِّب في عام ١٩١٥؛ فقد أصبح المسموع الآن هو ما يسمعه المريض من المُحلِّل، دون أن يُوضِّح فرويد أن هذا يُضاف لما سمعه في وقتٍ سابق خلال طفولته التي تُعد بمنزلة «بلدٍ أجنبي» بالنسبة إليه. ويبدو هذا التعريف الجديد هو الأساس لمنهجٍ يتركز الشغل الشاغل للمُحلِّل فيه هو تفسيرُ تحويلِ المشاعر، مُستبعدًا بذل أيِّ جهد لإعادة البناء اعتمادًا على الذكريات أو أي تداعٍ جديد للأفكار.

تقود معرفة فرويد التحليلية إلى التشكيك في وجود عواطف لا واعية في الفصل الثالث، ومواجهة تعقيد الإجابات المحتملة. والحق أنه من المستحيل التحدُّث عن «مشاعرَ لا واعية» مثلما يستحيل التحدث عن دوافعَ لا واعية، بالنظر إلى أن التمثيلات الخاصة بالدافع تصبح محفورةً في اللاوعي؛ فالدوافع نفسها تنتمي إلى العالم البيولوجي، ومع ذلك، وكما تقدم لغة المحلل النفسي المعتادة فكرة المشاعر اللاواعية، فإنها تُحاوِل البحث كذلك عن التطابُق بين طريقتها في الحديث والواقع الذي تسعى بالتالي لوصفه. لذا يوجد بالفعل تَوازٍ محدد بين الدوافع والعواطف؛ لأن لها أساسًا بيولوجيًّا (تسارع دقات القلب، والتعرُّق، إلخ). على الجانب الآخر، يكون للمشاعر تمثيلاتها الخاصة في النظام الواعي. وربما تكون المشاعر نفسها إلى حدٍّ كبير مضاهيةً لترجمةٍ للدافع إلى شيءٍ يسهل عليه الوصول إلى الوعي:

> ربما يمكننا القول إنه طالما يتحكم وعي النظام في إثارة المشاعر والقدرة على الحركة، فإن الحالة العقلية للشخص محل النقاش تُعتبر طبيعية … أمَّا إذا كان تحكم الوعي في الحركة الإرادية متجذرًا بقوة، ويقاوم على نحو منتظم هجوم العصاب وينهار فقط في حالة الذُّهان؛ فإن تحكُّم الوعي في تطوُّر المشاعر يكون أقل إحكامًا. (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٧٩)

وتُوضَح هذه الملاحظة اللافتة للنظر في حاشية:

> يُفصِح التعبير عن العواطف عن نفسه على نحوٍ أساسي في شكل تفريغٍ حركي (إفرازي وحركي) ينتج عنه تغيُّرٌ (داخلي) في جسد الفرد دون أي إشارةٍ إلى

> العالم الخارجي؛ فالحركة في الأفعال تهدف إلى تفعيل التغيُّرات التي تحدُث في العالم الخارجي. (المصدر السابق، صفحة ١٧٩)

يبقى الأمر مَحلَّ جدالٍ وبحث لإثباتِ ما إذا كانت العواطف والمشاعر مرتبطةً بالأحداث الخارجية.

يُمهِّد هذا الفصل الثالث للفصل التالي، وهو غنيٌّ إلى حدٍّ كبير بالتأمُّل الإكلينيكي للتحليل النفسي. يُناقش الفصل الكبت، وهو مفهومٌ تأسيسي، وعنوانه «الطبوغرافيا وآليات الكبت». يقول فرويد إن الكبت يتوافَق مع «انسحاب لتركيز الطاقة النفسية»، لكن السؤال هو: في أي نظامٍ يحدث الانسحاب ولأي نظامٍ ينتمي ذلك التركيز الفكري المنسحب؟ (المصدر السابق، صفحة ١٨٠).

عندما يناقش فرويد هذه الأسئلة، يقتبس بكثرة من مقالٍ آخر من مقالاته، وهو الذي يظهر كذلك في «بحوث عن علمِ ما وراء النفس»، وكان بعنوان «الكبت». ولعل من المنطقي هنا أن نتساءل ما إذا كان من الضروري بالفعل تقديمُ جزءٍ مُخصَّص للكبت داخل دراسةٍ عن اللاوعي، بينما قدَّم المؤلف لِتوِّه دراسةً كاملة عن المسألة عينها منذ بضعِ صفحاتٍ مضت.

يأتي التساؤل عن منطقية هذا الأمر في ضَوء ما يبدو من إغفالٍ من جانبِ مُحرِّري النسخة الكاملة لجانبَين مُهمَّين من استكشاف النظرية الفرويدية فيما يخص هذه المسائل أثناء تقديمهم للبحث الخاص بالكبت، وفي مقدمتهم لبحوث اللاوعي. يقول فرويد هنا إن الكبت مُقسَّم إلى لحظتَين مختلفتَين: الأُولى، «كبتٌ أوليٌّ»، عندما يحدث انقسامٌ داخل الدافع حيث يُحظَر الولوج إلى الوعي والتمثيل الخاص بهذا الدافع. خلال تلك المرحلة، يحدث «تثبيت».

> تُؤثِّر المرحلة الثانية من الكبت، الكبت الحقيقي، على الاشتقاقات العقلية للتمثيل المكبوت، أو تدخل تسلسُلات الأفكار الشبيهة، التي تنشأ في مكانٍ آخر، في اتصالٍ ترابطيٍّ معه. (المصدر السابق، صفحة ١٤٨)

في كلا البحثَين، البحث الخاص باللاوعي من الفصل الرابع والآخر الخاص بالكبت الحقيقي، تُوصَف الأمثلة التحليلية نفسها: تأثير الكبت في «هستيريا القلق»، وفي «الهستيريا التحوُّلية»، وفي حالات «العُصاب الوسواسي» (المصدر السابق، الصفحات ١٥٥–١٥٧، ١٨٢–١٨٥).

في مُقدِّمتهم لبحث الكبت، قَصَّر مُحرِّرو النسخة الكاملة تأثير الكبت على «عُصاب القلق»؛ حيث يكون الكبت، وفقًا لفرويد، أقرب إلى «الآليات الدفاعية». وفوق كل ذلك، وفي مُقدِّمتهم للبحث الخاص باللاوعي، يُقدِّمون كذلك للارتباك بين اللاوعي وعلمِ ما وراء النفس (المصدر السابق، الصفحات ١٤٣–١٤٥، ١٦١–١٦٥).

لكن أكثر النظريات اكتمالًا لدى فرويد عن الكبت من وجهةِ نظرٍ تحليلية هي تلك الواردة في نصه عن شريبر الصادر عام ١٩١١، الذي يَتتبَّع استكشاف المؤلِّف وتفصيله له خلال تبادُله للرسائل مع يونج وفرينزي، بينما تُستَقَى أوائل المناهج الفرويدية الخاصة بعلمِ ما وراء النفس من رسائله عن السوداوية مع فليس وأبراهام (برادو دي أوليفيرا، ١٩٩٧). يُعتبر جنون الارتياب والسوداوية من الموضوعات التي تُحتِّم أساليبَ فكريةً جديدة، وأعني تحديدًا نظرية التحليل النفسي والمنهج ما وراء النفسي للعقل؛ حيث يلعب الكبت دورًا كبيرًا. ويجب عدم الخلط بين علمِ ما وراء النفس وموضوعات دراسته، سواء كانت الوعي أو اللاوعي، أو الأعراض، أو الوهم. ويُؤسِّس فرويد لهذا في الفصل الرابع بالمُصطلَحات نفسها تقريبًا التي استَخدمَها في رسائله إلى أبراهام:

> أقترح أنه عندما ننجح في وصفِ عمليةٍ نفسية بجوانبها الطبوغرافية والديناميكية والاقتصادية، يجب أن نتحدث عنه كتمثيلٍ «ميتاسيكولوجي».
> (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ١٨١)

وتَحرِّيًا للدقة، فإنه يقصد بكلمة «عنه» هنا الوصف الخاص بعقول العمل وليس العقل أو عمله نفسه؛ فأيُّ عمليةٍ عقلية أو حالةٍ عقلية بمفردها لا تُعتبر تمثيلًا «ميتاسيكولوجيًّا»؛ فقط يمكن لطريقة تفكيرنا به أو كيفية وصفنا لوجوده أن تكون هكذا.

من المثير مُقارنة الأمثلة التحليلية التي تظهر في البحث الخاص بالكبت والطريقة التي يتناولها بها فرويد في هذا الجزء من نصه عن اللاوعي؛ فبعد مقارنة الكبت بأنواع العُصاب الثلاثة الأساسية آنذاك — هستيريا القلق والهستيريا التحوُّلية والعُصاب الهَوَسي — في بحثه عن اللاوعي، نجده يصف ببساطةٍ تطبيقَ نمطِ الكبت في عُصاب القلق على النوعَين الآخرَين من هذا الاضطراب العقلي.

يعود فرويد في الفصل الخامس إلى دراسة اللاوعي الحقيقي، وفيه يُعرِّف فرويد السمات الخاصة لنظام اللاوعي. ويُعتبر هذا الجزء من البحث محل التدقيق جزءًا استثنائيًّا؛ فهو يُقدِّم قراءةً موجزة للغاية للعديد من أبحاثه الأخرى عن اللاوعي. على

سبيل المثال، عندما يقول فرويد إن «نواة اللاوعي تتألف من تمثيلَين غرائزيَّين يسعيان إلى تفريغِ طاقتهما النفسية؛ بمعنى آخر، تَتألَّف من دوافعَ رغبية» (المصدر السابق، صفحة ١٨٦)، أو عندما يُلخِّص آلية عمل الأحلام؛ أي لا مجال لإنكار، أو إزاحة، أو تكثيف، أو سرمدية، أو خضوع لمبدأ اللذة، أو الاستبدالِ بواقعٍ داخلي آخرَ خارجي؛ حيث تظهر كل هذه التصريحات لأول مرة في كتاب «تفسير الأحلام». يمكن الدفع بأن الحلم يختلف عن اللاوعي، ومع ذلك، فإنهما يتشاركان الكثير من السمات، طبقًا لتعريف فرويد لكلٍّ منهما.

ومع ذلك، وبعد تعريفِ سمات اللاوعي، يمضي فرويد ليضع السمات الرئيسة لما قبل الوعي، بطريقةٍ تجعل سمات اللاوعي مُحدَّدة على نحوٍ قاطع بمناقضتها لسماتِ ما قبل الشعور. ويُدرك فرويد هذا فورًا إذ يقول:

> لا يمكن تقدير الأهمية الكاملة لسماتِ نظام اللاوعي المذكورة أعلاه إلا بمقارنتها ومفاضلتها بسماتِ نظامِ ما قبل الوعي. (المصدر السابق، صفحة ١٨٨)

ثم يمضي نحو تفسيرٍ تفصيلي للسمات الأساسية لما قبل الوعي، وتتمثل في: تأسيسِ تواصُل بين محتوى التمثيلات بطريقةٍ تجعلها قد تُؤثِّر بعضها في بعض، وتنظيم عناصر هذا المحتوى وفقًا للزمن، وإدخالِ رقابة أو حتى مستوياتٍ عديدة من الرقابة، وتأسيس اختبارٍ للواقع ومبدأ الواقع، وأخيرًا، تعزيز تطوير الذاكرة في مواجهةِ آثار الذاكرة، التي تنتمي على نحو مُتفرِّد إلى تسجيلِ تجارب اللاوعي.

إن هذا الافتراض بوجود آثار للذاكرة لافتٌ للنظر، وربما يُشكِّك في بعض تصريحاتِ فرويد في الفصل الخامس وكذلك في العديد من الطرق التقليدية للتعامُل مع علمِ ما وراء النفس، والتحليل النفسي أو أساليبه.

في الواقع، وخلال مناقشة العلاقة بين نظامَي اللاوعي وما قبل الوعي، وهو موضوع الفصل السادس في بحثه؛ حيث يُكافِح لإقامةِ جسورٍ بينهما وبين الوعي وكذلك تأسيسِ فرضية المستويات المُتعدِّدة للرقابة، لا يتردد فرويد في الإشارة إلى أنه:

> بالرغم من ذلك، سيكون من الخطأ تخيُّل أن اللاوعي يظل في حالةِ سكونٍ بينما يقوم ما قبل الوعي بكلِّ عملِ العقل؛ وأن اللاوعي قد انتهى أمره وأصبح عضوًا لا وظيفيًّا وراسبًا مُتبقيًا من عملية التطوُّر. من الخطأ كذلك افتراضُ أن التواصُل بين النظامَين مُقتصِرٌ فقط على تأثير الكبت حيث يُلقي ما قبل الوعي

بكلِّ شيء يبدو له مثيرًا للاضطراب في هاوية اللاوعي. على العكس، فاللاوعي حيٌّ وقادر على التطوُّر ويحافظ على عددٍ من العلاقات الأخرى مع ما قبل الوعي، من بينها التعاون المشترك. باختصارٍ، لا بد من القول إن اللاوعي يمتد إلى ما يُعرَف بالاشتقاقات؛ أي «منفتح لكل تأثيرات الحياة» التي تُؤثِّر على نحوٍ مستمر على ما قبل الوعي، بل عُرضة، من جانبه، إلى تأثيراتِ ما قبل الوعي. (المصدر السابق، صفحة ١٩٠؛ التنصيص للتوكيد)

عندما يقول فرويد إن قاعدة مبدأ اللذة أو الاستبدال بواقعٍ خارجي آخرَ داخلي هي سماتٌ خاصة باللاوعي، يبدو أنه ينسى قوله إن هذا «الواقع الخارجي»، نفسه، إلى حدٍّ كبير، هو ما يُغذِّي «الواقع الداخلي»؛ لذا فإن التمييز بين «الخارجي» و«الداخلي» جديرٌ بالتجديد والدراسة مرارًا، بداية من التقييم الدقيق لما بُذل بالفعل للحصول على فكرة عمَّن حاول الحفاظ على تمييز محدود ومُحكَم للغاية بين هذَين العالَمَين وكيف قام بذلك، هذا من جانب؛ ومن سعى إلى الإشارة إلى التداول والتحرُّكات التي تحدُث بينهما، وكيف، من جانبٍ آخر.

وقد عرض هذا التصوُّر الفرويدي الأخير مرارًا:

«لكن اللاوعي يَتأثَّر كذلك بالتجارب الناتجة عن الإدراك الخارجي.» إن كل الطرق المؤدية من الإدراك إلى اللاوعي تبقى مفتوحةً بطبيعة الحال، وتلك التي تنبُع من اللاوعي فقط هي ما تكون عُرضةً للإعاقة والتثبيط بفعل الكبت. (المصدر السابق، صفحة ١٩٤؛ التنصيص للتوكيد)

على مدى الجزأين السابقَين من بحثه، كانت الأمثلة التحليلية التي يُقدِّمها فرويد متغيرة في طبيعتها؛ إذ لم تعد تنتمي لعالم العُصاب، بل إلى عالم اللاوعي واشتقاقاته؛ أي الأحلام والأوهام، والأعراض وعلم الأمراض العامة، إلى جانب اعتباراتٍ تخص أساليب التحليل النفسي التي تجعله معتمدًا كليًّا على الوعي.

لذا ينتهي الفصل الخامس كالآتي:

علاوةً على ذلك، يجب أن نكون مُتأهِّبين للبحث لدى البشر على الظروف المَرَضية الممكنة التي يُغيِّر في ظلها النظامان، أو حتى يتبادلان، كلًّا من محتواهما وسماتهما. (المصدر السابق، صفحة ١٨٩)

كذلك، ونحو نهاية الفصل السادس، يقول فرويد:

> إن أكثر ما يُميِّز أي حالةٍ مَرَضية هو حدوث انحرافٍ كامل في اتجاهات النظامَين وفصلٍ تامٍّ بينهما. (المصدر السابق، صفحة ١٩٤)

لذا، لا غرابة في أن يكون الفصل السابع والأخير من بحثه، وهو بعنوان «تقييم اللاوعي»، مُخصَّصًا بالكامل لدراسةِ فِصامِ الشخصية وتناوُلِه بالنقاش، بناءً على حالاتٍ سريرية ونظرياتٍ عرضها فيكتور تاوسك نَسبَها فرويد إلى نفسه. إذن يمكن إجمال الافتراضات والمُقترَحات الثورية التي صِيغَت كما يلي: يتعامل مرضى الفِصام مع الكلمات كما لو كانت أشياء، وبالتوازِي مع هذا، يُطوِّرون «لغة للأعضاء»، وهو الأمر الذي يُعد أقرب إلى الوسواس المَرَضي.

يجب عدم إغفال أهمية تاوسك بالنسبة إلى تاريخ النظرية التحليلية؛ فلا يكفي تذكُّر أن مفهوم التماهي الإسقاطي مُشتقٌّ من أفكاره عن تجربته التحليلية، وأن دراسات بيون عن أسلوب التفكير لدى المُصابِين بالفِصام واستخدام الكلمات يرجع الفضل فيها إليه. على الرغم من ذلك، فإن فرويد يُؤكِّد أَسبقيَّته وأَسبقيَّة أفضلِ أتباعه عندما يظن أنه قد وجد في هذه الفرضيات حُججًا أو أدلةً لحل المعضلة التي صاغها عن «التسجيل المزدوج»؛ حيث كتب يقول:

> يبدو أننا الآن نعرف جملةً واحدة الفرق بين عرضِ الوعي وعرض اللاوعي. إن هذين العرضَين، كما افترضنا، ليسا تسجيلَين مختلفَين للمحتوى نفسه في مواضعَ نفسيةٍ مختلفة، وكذلك ليسا حالاتٍ وظيفيةً مختلفة للطاقة النفسية في الموضع نفسه؛ لكن عرض الوعي يضم عرض الشيء إضافةً إلى عرض الكلمة التي تنتمي إليه، بينما عرض اللاوعي هو عرضٌ للشيء فقط. (المصدر السابق، صفحة ٢٠١)

من اللافت للنظر أن فرويد يُعلن أولًا عن بحثه عن اللاوعي إلى لو أندرياس-سالومي، ثم يُنهيه بتأمُّلٍ طويل في فرضية تاوسك وتجربته التحليلية. إن هذا المُحلِّل الشاب قد حَصَل بالفعل على الكثير من الخِدمات من أندرياس سالومي؛ لذا يبدو أن بحث فرويد ينبثق من تحويلٍ مزدوج للمشاعر نحو واحدٍ من هذَين الحبيبَين السابقَين اللذَين تركا بصمة

في حياته؛ إذ يحل أحدهما محل الآخر في أفكاره الخاصة (جاي، ١٩٩١، الصفحات ٢٢٠ و٤٤٨)، شأنه في ذلك شأن اللاوعي نفسه، الذي ينبثق من عناصرَ مُستبعَدة من الحياة الواعية أو غيرِ قابلةٍ للوصول إليها، إمَّا لخطورتها البالغة أو لكونها تبدو بلا جدوى.

هوامش

(١) لدراسة أفكار فرويد وهارتمان، انظر وايت (١٩٧٤) وبريس (١٩٨٥).

(٢) الأقواس داخل النص أُضيفت بواسطة المُحرِّرين.

(٣) على سبيل المثال، في رسالته إلى فليس في الرابع والعشرين من يناير عام ١٨٩٧ قال: «لقد بدأت أستوعب فكرةً ما؛ وكأن في الانحرافات التي تكون فيها الهستيريا هي الصورة السلبية ...» ومُجددًا: «لذا فإن الأعراض التي تتشكل جزئيًّا على حساب الجنسانية «غير السويَّة»؛ إذن فالاضطرابات العُصابية هي، إن جاز التعبير، الصورة السلبية للانحرافات» (فرويد، ١٩٠٥، صفحة ١٦٥). من خلال ما يكتبه فرويد عن العلاقة بين اللاوعي والوعي، يجب أن نتوقَّع تصورًا يسير في الاتجاه المعاكس.

الفصل السابع

الجرح والقوس وظل الموضوع: ملاحظات على بحث فرويد «الحداد والسوداوية»

أجنيس سودريه

مقدمة

لنتأمَّل هذه الاقتباسات من بحث «الحداد والسوداوية»:

> وهكذا سقط ظل الموضوع على الأنا، ومن هناك فصاعدًا أصبح من الممكن الحُكم على الأخيرة بواسطةِ قوةٍ خاصة كما لو كانت موضوعًا؛ الموضوع المهجور. (فرويد، ١٩١٥ [١٩١٧]، صفحة ٢٤٩)

اقتباسٌ آخر:

> تُريد الأنا دمج هذا الموضوع داخلها، وتُريد فعل هذا عن طريق افتراسه، تماشيًا مع المرحلة الفموية أو الوحشية من التطوُّر الشبقي التي تمُر بها. (المصدر السابق، الصفحات ٢٤٩–٢٥٠)

ولنتأمل هذا:

> إذا كان حب الموضوع — وهو حب لا يمكن التخلي عنه رغم التخلي عن الموضوع نفسه — يلوذ بالتماهي النرجسي، فإن الكراهية تبدأ عملها داخل هذا الموضوع

> البديل؛ فتُسيء معاملته، وتحُط من قدره، وتجعله يعاني وتستمد إشباعًا ساديًّا من هذه المعاناة ... وهذه الساديَّة وحدها هي التي تحُل لغز المَيل للانتحار، الذي يجعل السوداوية مسألةً مثيرة للاهتمام للغاية وفي غاية الخطورة؛ فحب الأنا لذاتها يكون ضخمًا للغاية، وهو ما أدركناه بوصفه الحالةَ الأولية التي تنبثق منها الحياة الغريزية؛ كما يكون قدَر الغريزة الجنسية النرجسية هائلًا، وهي الغريزة التي نراها تنطلق بحريةٍ في صورة الخوف الذي ينبثق كتهديدٍ للحياة، حتى إنه لا يمكننا تخيُّل كيف يمكن لهذه الأنا أن ترضى بتدمير ذاتها ... يُظهِر تحليل السوداوية الآن أنَّ الأنا يُمكِنها أن تقتل نفسها فقط إذا استطاعت أن تُعامِل نفسها كموضوع؛ بفعل عودةِ تركيزِ الطاقة النفسية على الموضوع، إذا استطاعت توجيه العداء المُرتبط بالموضوع نحو نفسها، الذي يُمثِّل ردَّ فعل الأنا الأصلي تجاه موضوعاتٍ معيَّنة في العالم الخارجي. (المصدر السابق، الصفحات ٢٥١–٢٥٢)

(يُخيِّم على هذا الاقتباس الجوُّ الانفعالي الذي يسود الاقتباس الثاني الذي أَوردتُه أعلاه: افتراسٌ وحشي، «طبيعةٌ دموية لا ترحم»، إذا جاز التعبير، تتماشى مع الإيذاء السادي وقتل الموضوع.)

وهذا الاقتباس من بحث «الأنا والهو»:

> إن الخوف من الموت في السوداوية لا يعني إلا تفسيرًا واحدًا فقط؛ أن الأنا تستسلم لأنها تشعر بأنها مكروهة ومُضطهَدة من الأنا العليا، بدلًا من أن تكون محبوبة؛ ومن ثَمَّ يُصبِح معنى العيش بالنسبة إلى الأنا هو أن تكون محبوبة؛ أن تحظى بحب الأنا العليا التي تظهر هنا مرةً أخرى كممثل للهو. تُنجز الأنا العليا وظيفة الحماية والإنقاذ نفسها التي كان الأب يتولى إنجازها في السابق، والعناية الإلهية أو القدَر لاحقًا. لكن عندما تجد الأنا نفسها في خطرٍ حقيقيٍّ بالغ تعتقد أنها غير قادرةٍ على تخطِّيه بما تملكه من قوة، يصبح الوصول إلى النتيجة نفسها أمرًا محتومًا؛ فترى الأنا نفسها وقد نبذها جميع القوى الحامية وتدَع نفسها تموت. علاوةً على ذلك، يتكرر هنا مرةً أخرى الموقف نفسه الذي يُشكِّل الأساس لأُولى حالات القلق الشديد المُتعلِّق بالولادة، والقلق الطفولي من التوق، وهو القلق الناتج عن الانفصال عن الأُم الحامية. (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٥٨)

(يصطبغ هذا الاقتباس بصبغة الاقتباس الأول؛ فنحن هنا في عالمٍ مظلمٍ كئيب مُبهَم، حيث تستسلم الأنا المكروهة، كطفلٍ هجرته والدته، للموت.)

إن هذين الاقتباسَين بدرجتَيهما المختلفتَين تمامًا من الأحمر والأسود — إن جاز التعبير — اللتَين تُشيران إلى عاطفتَين مختلفتَين تمام الاختلاف، هما الغضب والأسى، يُعبِّران عن التبايُن بين حالتَين عقليتَين، هما: المعاناة السلبية والهجوم الإيجابي العنيف، الحزن والغضب، اليأس والميل إلى القتل، وهما معًا، في رأيي، يُمثِّلان جوهر مشكلة السوداوية أو الميلانخوليا؛ لذا سيُصبحان هما مِحورَ نقاشي لبحث «الحداد والسوداوية»، أَحدِ أَكثرِ أعمال فرويد أهميةً وثورية.

وبالرغم من أن الاقتباس الأخير من بحثٍ كُتِب بعد ذلك بثماني سنوات، فإنني أستعين به هنا، لِظنٍّ بداخلي أن هذه الرؤية عن الانتحار من شأنها أن تتماشى مع الاقتباس الأول، من بحث «الحداد والسوداوية»، عن العلاقة بين الذات والموضوع في السوداوية؛ فعند الشعور بضياع الموضوع بلا رجعة، يُلقي بظله على الأنا ويُشكِّلها وفقًا لصورته، ومن خلال التماهي تُصبِح الأنا هي الموضوع. بيد أن هذا الوصف وسلبية الأنا في استسلامها للموت، وارتباط هذا بالتوق إلى الأم وما يرتبط بها، ضمنيًّا، من شعور بفقدانها للأبد، ينقل شعورًا بأن الظل الأسود الذي خلَّفه غياب الموضوع هو ما يطغى على الأنا، وهو ما يَتمثَّل في سلبيتها، وغيابها في حضرة الظلام اللانهائي. إن لدينا هنا أجواءً من الأسى والكآبة، وهو الأمر الذي أراه مرتبطًا بالنظر إلى الانتحار بأنه يستدعي تفسيرًا واحدًا فقط (في هذا السيناريو بالذات بالطبع) ألا وهو: شعور الأنا بهجر الموضوع لها (ونقصد بذلك الموضوع المستدخل وهو الأنا العليا)، وموتها حزنًا وأَسًى (لاحظ أن الموضوع «المهجور» في الاقتباس الخاص «بالظل» يضاهي، في إطار الطابع العام للكتابة، النفس المهجورة الواردة بالوصف المذكور في «الأنا والهو»).

لم يُغيِّر فرويد رأيه فيما يخُص السيناريو الآخر — وهو اغتيال الأنا العليا السادية للأنا تماهيًّا مع الموضوع الذي يَتعرَّض للهُجران — لكنه هنا يصف شيئًا آخر؛ يصف مناخًا عقليًّا مختلفًا. ويظل تصوُّر الانتحار ومعاناة مريض السوداوية النابعة من مشاعر العدوانية تجاه الموضوع، مِحورَ نظريته حتى النهاية (انظر، على سبيل المثال، وَصفَه لآليةِ عمل السوداوية في كتاب «محاضراتٌ تمهيدية جديدة» (١٩٣٣))، رغم أن فهم هذه الظاهرة بالطبع أصبح أكثر حدةً ووضوحًا بعد صدور مُقدمةٍ عن النظرية وغريزة الموت (فرويد، ١٩٢٠).

لكن حقيقةَ أنَّ كلَّ واحدٍ من هذه السيناريوهات المختلفة، رغم تواجُدها جميعًا داخل العقل على نحوٍ متزامن، له القدرة على السيطرة على العقل بالكامل، وإن كان ذلك لفترةٍ وجيزة، مُوضَّحة، على ما أعتقد، من خلال الأسلوب التأكيدي الذي يكتب به فرويد عن السوداوية والموت:

> يمكن للأنا أن تقتل نفسها «فقط إذا» استطاعت أن تعامل نفسها كموضوع؛ بفعل عودة تركيز الطاقة النفسية على الموضوع؛ أي إذا استطاعت توجيه العداء المرتبط بالموضوع نحو نفسها. (فرويد، ١٩١٥، صفحة ٢٥٢؛ التنصيص للتوكيد)

وكذلك هنا:

> إن الخوف من الموت في السوداوية لا يعني إلا تفسيرًا واحدًا «فقط» وهو: أن الأنا تستسلم لأنها تشعر بأنها مكروهةٌ ومُضطهَدة من قِبل الموضوع، بدلًا من أن تكون محبوبة ... فترى الأنا نفسها وقد نُبذت من قِبل جميع القوى الحامية وتدَع نفسها تموت. (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٥٨؛ التنصيص للتوكيد)

إن مريض السوداوية سيميل للقتل «فقط»، وسيبدو هذا كحالةٍ أساسية ثابتة: «فحب الأنا لذاتها يكون ضخمًا للغاية ... حتى إنه لا يمكننا تخيُّل كيف يمكن لهذه الأنا أن ترضى بتدميرِ ذاتها» (فرويد، ١٩١٥)؛ أو يائس فقط ويرى نفسه غير جدير تمامًا بالحب إلى حدٍّ يجعل الموت هو العلاج الوحيد؛ وهاتان الحالتان تتسمان خلال فترة استمرارهما — التي قد تتراوح بين ثوانٍ معدودة أو فتراتٍ ممتدة من الوقت — بِسمةٍ جامعة. والأمر يرجع للمُحلِّل في وضع كلتَيهما في اعتباره.

(١) «الحداد والسوداوية»

في رسالة إلى فليس يعود تاريخها على الأرجح إلى يناير عام ١٨٩٥، وأصبحت تُعرَف باسم «المسوَّدة G» عن «السوداوية» (فرويد، ١٩٥٠، صفحة ٢٠٠)؛ حيث تَوصَّل فرويد إلى تفسيرٍ عصبي لهذا المرض، كان فرويد يربط بالفعل بين السوداوية والحزن: «إن الشعور المرتبط بالسوداوية هو الحداد، أي التوق لشيء مفقود؛ لذا لا بد أن الأمر في السوداوية يتعلق بالفقدان؛ فقدان في الحياة «الغرائزية».» يربط فرويد السوداوية بالخَدَر أو فقدان

الحس الجنسي الذي يظهر «في وجود نوعٍ من النساء لهن متطلباتٌ كثيرة على المستوى النفسي، وهن اللاتي يتحول لديهن شعور التوق بسهولة إلى اكتئابٍ ويُصَبن بالخَدَر»؛ لذا، وبرغم أن الجنسانية وتقلُّباتها تُمثِّل بلا ريبٍ مِحورَ تَصوُّره للأداء الوظيفي للعقل في هذه المرحلة، فإن مسألة أهمية الفقدان قد صِيغت بالفعل، والفقدان هنا يَتعلَّق بفقدان الغريزة الجنسية وليس فقدان الموضوع، أمَّا في «النوع الكثير المتطلبات من النساء»، واللاتي يتحول التوق لديهن إلى اكتئاب، فأعتقد أنه من الممكن إدراكُ بدايةِ فكرةِ فقدان الموضوع وما سيُصبِح لاحقًا اتكالًا فمويًّا مفرطًا على الموضوع كسماتٍ للشخص السوداوي.

في المُسوَّدة N التي تعود إلى مايو ١٨٩٧ (المصدر السابق، صفحة ٢٥٤)، يقول فرويد:

> تُعتبَر الدوافع العدائية تجاه الوالدَين (كَتمَنِّي موتهما) أيضًا مُكونًا رئيسًا للاضطرابات العصابية، وهي دوافع تخرج للنور على نحو واعٍ كأفكار وسواسية. في جنون الارتياب، تَتَشابه أسوأ أوهام الاضطهاد ... مع هذه الدوافع؛ إذ تخضع هذه الدوافع للكبت خلال الفترات التي تنشط فيها العاطفة نحو الأبوين، في أوقات المرض أو الموت. وفي مثل هذه المواقف، يتجلَّى الحداد في صورةِ توبيخ الذات لموتهما (وهو ما يُعرف بالسوداوية)، أو عقاب الذات على نحوٍ هستيري (من خلال فكرة الجزاء) بنفسِ الحالات [المرضية] التي كانا مُصابَين بها. والتماهي الذي يحدُث هنا، كما نرى، ليس إلا نمطًا من التفكير ولا يُعفينا من ضرورة البحث عن دافع.

إذن فالسوداوية هي نتيجةٌ للعداء اللاواعي والإحساس بالذنب الذي يُصاحِبه، وبالطبع فإن التماهي اللاواعي مع الموضوع المفقود — وهو ما سيُصبِح عنصرًا جوهريًّا في فهم السوداوية المَرَضية في بحث «الحداد والسوداوية» — مُشارٌ إليه في هذه الفِقرة (وإن كان يرتبط هنا بالهستيريا)؛ أمَّا السوداوية، كما يُعلِّق سترايتشي، فقلَّما يَرِد لها ذِكرٌ مرةً أخرى قبل بحث «الحداد والسوداوية»، باستثناء النقاش الذي أُثِير عام ١٩١٠ عن الانتحار.

في عام ١٩١١، نشر كارل أبراهام؛ أَحد أوائل مُساعدي فرويد ومُنظِّر وطبيب بارز، بحثه بعنوان «ملاحظات حول فحص وعلاج الجنون الهوسي الاكتئابي والحالات المرتبطة به بواسطة التحليل النفسي». في هذا البحث، يلفت أبراهام الانتباه إلى التناقُض اللاواعي لدى الشخص السوداوي تجاه الموضوع، مع وجود غلبةٍ للكراهية على الحب،

ويعزو «مشاعر العجز» التي يُعاني منها الشخص السوداوي إلى «الإدراك الداخلي المزعج» (أبراهام، ١٩١١، الصفحات ١٤٤-١٤٥)؛ إذ يعاني الشخص السوداوي من شعورٍ لا واعٍ بعدم قدرته على الحب، وهو ما يترتب عليه شعورٌ بعدم جدارته بالحب. إذا ربطنا هذا باقتباسي من المسودة G، يمكننا القول إن ما يُسمِّيه فرويد «فقدان في الحياة الغريزية» أو فقدان الغريزة الجنسية يمكن اعتباره هنا فقدانًا للقدرة على الحب. إن الموضوع المحبوب مكروه بسبب هَجرِه القاسي، لكن ثَمَّةَ شعورًا بأن الأنا التي تُدرك تشبُّعها بكراهية الموضوع غيرُ محبوبة كذلك.

وهكذا يُصبِح هذا التناقُض والطبيعة الفموية للعلاقة مع الموضوع نقاطًا أساسية بالطبع في مناقشة فرويد للسوداوية. كذلك سوف يرتبط الإدراك اللاواعي لعدم القدرة على الحب بفهم فرويد للنرجسية التي كتَب عنها بحثًا عظيمًا (عام ١٩١٤) سبق «الحداد والسوداوية» مباشرة. لكن من أَهمِّ المساهمات في هذا البحث هو فهم أن الانسحاب النرجسي من الموضوع لا يعني حقًّا أن الارتباط بهذا الموضوع يتضاءل أو يخمد، بل على العكس؛ فهناك في الواقع علاقةٌ قوية وتملُّكية إلى حدٍّ هائل مع الموضوع تحدُث في العالم الداخلي بشكلٍ لا واعٍ.

> إن الأمر يتعلق بملاحظةٍ عامة وهي أن الناس لا يتخلَّون طواعيةً أبدًا عن موقفٍ شهواني، ولا حتى عندما يعمد بديل إلى إغوائهم. (المصدر السابق، ١٩١٥، صفحة ٢٤٤)

هذا التصريح المُهِم عن الطبيعة البشرية هنا لا يُخاطِب الشخص المحزون فقط، بل يتناول كذلك الانعدام اللاواعي لقدرة الشخص السوداوي على التخلِّي عن ارتباطٍ تملُّكي بالموضوع المفقود.

تُعتبَر عملية الحداد، التي تُعَد ردَّ فعل ضروريًّا وصحيًّا إزاء خسارةٍ بالغة، مثالًا بارزًا يُوضِّح كيف أن شخصًا لم يعُد له وجود في العالم الخارجي يستمر وجوده في العقل على نحوٍ واقعي تام؛ يصنع الشخص المحزون رابطًا ذهنيًّا قويًّا، «في الحاضر»، مع الشخص المُتوفَّى، وغالبًا ما يشعر بأن المتوفَّى يتفاعل معه على نحوٍ نشط. على النحو نفسه، فإن السوداوية «ترتبط بفقدان الموضوع الذي ينسحب من الوعي» (المصدر السابق، صفحة ٢٤٥)، ونشأة علاقة مع الموضوع المفقود في الحاضر في اللاوعي. لكن بينما تفصل الأنا نفسها ببطء وبألمٍ شديد «شيئًا فشيئًا» عن الموضوع في حالة الحداد — ومن ثَمَّ تتقبل في

النهاية أن الموضوع لم يعُد له وجود، وينتهي بها الحال بتوجيه الحب لموضوعاتٍ أخرى في الواقع الخارجي — فإن ما يُميِّز السوداوية هو المقابل تمامًا؛ أي الرفض اللاواعيٍ للتخلي عن الموضوع.

يفترض فرويد أن العلاقة مع الموضوع لدى الشخصِ السوداوي قائمةٌ في الأساس على اختيارٍ نرجسي للموضوع، تاركًا الطريق مفتوحًا للنكوص إلى انسحابٍ نرجسي. ويَذكُر فرويد الفكرة المتناقضة ظاهريًّا، وهي أن أحد الشروط المُسبَّقة للإصابة بالسوداوية هو وجوبُ تثبيتٍ على الموضوع، يُصاحِبه «تركيز للطاقة النفسية على الموضوع [مع] قليلٍ من القُدرة على المُقاوَمة» (المصدر السابق، صفحة ٢٤٩). من السهل فقدان الرابط مع الموضوع الخارجي، لكن الانسحاب ظاهريًّا إلى حالةٍ بلا موضوعٍ يشير ضِمنيًّا في الحقيقة إلى علاقةٍ داخلية تملُّكية إلى حدٍّ كبير مع الموضوع الذي يسكن العالم الداخلي فقط الآن (بطريقةٍ ما، يمكن القول إن الموضوع الكامن داخل العقل هو فقط ما يمكن تملُّكه على نحوٍ كامل؛ فأيُّ رابطٍ في الواقع، مهما كان مستبدًّا وطاغيًا، يُشير ضمنًا إلى قدْرٍ من فقدان السيطرة مهما كان ضئيلًا).

لكن النقطة الأهم في البحث، والتي غيَّرَت فهمنا للعقل البشري جذريًّا، تبدأ بإحدى عبارات فرويد التنصُّلية التقليدية: «ثَمَّةَ ملاحظةٌ واحدة ليس من الصعب تمامًا إبداؤها» (المصدر السابق، صفحة ٢٤٨). ويمضي لِيَصف آلية اللاوعي التي تُسبِّب السوداوية: علاقة بموضوع قد تهشَّمَت، وأثبتت الطاقة النفسية للموضوع أنها تمتلك قدرًا ضئيلًا من المقاومة ووصلت لنهايتها:

> لكن الليبيدو الحُرَّة لم تنتقل إلى موضوعٍ آخر، بل انسَحبَت داخل الأنا. غير أنها لم تستخدم هناك بأيِّ طريقة مُحدَّدة، بل ساعَدَت في تكوين «تماهٍ» للأنا مع الموضوع المهجور. وهكذا سَقطَ ظِل الموضوع على الأنا، ومن هناك فصاعدًا أَصبحَ من الممكن الحكم عليها بقوةٍ خاصة، كما لو كانت موضوعًا؛ الموضوع المهجور. وبهذا تَحوَّل فقدان الموضوع إلى فقدانٍ للأنا وتَحوَّل الصراع بين الأنا والشخص المحبوب إلى انقسام بين النشاط الحرِج للأنا والأنا بعد تغيُّرها بفعل التماهي. (المصدر السابق، صفحة ٢٤٩)

وصف فرويد آلية الاستبدال بالتماهي تركيزَ الطاقة النفسية على الموضوع من خلال الإدماج اللاواعي للموضوع لأول مرة في كتابه «ليوناردو» (١٩١٠) ليفسر نوعًا مُعيَّنًا من

المثلية الجنسية (ويتضمن التماهي مع الأُم واتخاذ شخصٍ يُمثِّل جانبًا من جوانب النفس كموضوع للحب). لكن في بحث «الحداد والسوداوية»، وفي سياق التطوُّر اللاحق لفهم الأنا العليا، تُصبِح التماهيات والاستدماجات جزءًا من التطوُّر الطبيعي: «شخصية الأنا هي راسبٌ من تركيزات الطاقة النفسية على الموضوع المهجور وتحوي تاريخَ اختياراتِ ذلك الموضوع» (فرويد، ١٩٢٣).

يَتحوَّل العامل المُحفِّز لحدوث نوبة السوداوية، وهو فقدان الموضوع، في الوهم اللاواعي إلى التملُّك الكامل لذلك الموضوع في الواقع الداخلي، وهذا يتحقق من خلال عملية الدمج — والتي يمكن وصفها إمَّا كافتراسٍ نشط للموضوع أو ككيانٍ أكثر سلبية يُسيطِر عليه ظله — يتبعها التماهي؛ فيصبح جزءٌ من الأنا هو الموضوع، وهو موضوع حبٍّ مكروه، استُشعِرت قسوته، والآن سيتعرض لهذه القسوة بفعل «النشاط الحرِج للأنا». وهذا النشاط الحرج، الذي يُعتبَر وظيفة «القوة النفسية الخاصة» التي وَردَت في البحث الخاص بالنرجسية (فرويد، ١٩١٤) هو ما سيُسمَّى عما قريب بالأنا العليا، التي سيُنظَر إليها أنها تشكلت أيضًا عبر استدماجِ موضوعٍ ما في الواقع الخارجي وهو الذي سيقبع الآن في العقل. لن تكون الأنا العليا مجرد وظيفةٍ فقط أو كيان (الضمير)، بل ستكون كذلك مثل «شخص» يسكن العالم الداخلي وله علاقات من أنواعٍ بعينها بالجوانب المختلفة للنفس (كأبٍ ميَّال للنقد، أو أُمٍّ غير مُحبَّة).

لذا وبمجرد أن تتضح كيفية تكوُّن الأنا العليا — بالاستدماج والتماهي مع سلطةٍ أبوية — يمكن إعادة وصف الصراع اللاواعي لدى الشخص السوداوي؛ ومن ثَمَّ فإن عبارة «وبهذا تَحوَّل فقدان الموضوع إلى فقدان للأنا وتَحوَّل الصراع بين الأنا والشخص المحبوب إلى انقسام بين النشاط الحرج للأنا والأنا بعد تغيُّرها بفعل التماهي» (فرويد، ١٩١٥، صفحة ٢٤٩) يمكن أن تُصبِح: «إلى انقسام بين النشاط الحرج [لجزء من الأنا تبدَّل بفعل التماهي مع موضوعٍ مُستدمَج]، وبين الأنا بعد تَبدُّلها بفعل التماهي مع [موضوعٍ مُستدمَج آخر].» وهذه هي بدايةُ نظرية العلاقات الداخلية للموضوع؛ إذ يُتصَوَّر العالم الداخلي كمساحةٍ حقيقية مُجسَّمة حيث يُصبِح للموضوع والنفس جوانبُ أو أَوجهٌ عدة، ولهما علاقاتٌ قابلة للتغيُّر بأوجهٍ مختلفة أحدها عن الأخرى:

> وهكذا تكون الطاقة النفسية الجنسية للشخص السوداوي فيما يتعلق بموضوعه قد خَضعَت لِتغيُّرٍ مزدوج: جزء منها تَراجَع إلى حالة التماهي،

> أمَّا الجزء الآخر، وتحت تأثير الصراع الناجم عن الازدواجية والتناقُض، فيُردُّ إلى مرحلة الساديَّة التي هي أقرب إلى ذلك الصراع (السادية الفموية، على سبيل المثال). (المصدر السابق، الصفحات ٢٥١-٢٥٢)

النقطة المهمة هنا هي أن الارتداد إلى وضع الارتباط بالموضوع هذا — إلى علاقةٍ بدائية تطغى عليها العدائية — له تبعاتٌ على ذلك النوع من العلاقات التي تَتشكَّل داخل العالم الداخلي مع الموضوع؛ ومن ثَمَّ على نوعِ الموضوعات التي يستشعر أنها تَسكُن العالم الداخلي. في هذا العالم، تأتي الاتهامات من المرارة الناجمة عن الإساءة، وتأتي كذلك من السادية والرغبة في التعذيب، ودمجُ كل هذا من خلال الافتراس يُسبِّب ألمًا مستمرًّا للموضوع وللنفس المتماهية معه — ألمًا مريرًا ومُدمِّرًا — وكذلك الأسى: «ظل الموضوع». لكن كيف ترتبط هذه الأشياء كلها معًا؟ وكيف تنتقل من واحد إلى الآخر؟ هل «الافتراس» هو رد الفعل المُبكِّر المُعبِّر عن الغضب والخوف الصادر من طفلٍ رضيع تجاه فقدانٍ غيرِ مُتوقَّع (ذلك الثدي كان مِلْكي وفجأةً لم يصبح مِلْكي، يجب أن أُمسك به وأَلتقِمه وأجعله مِلْكي مرةً أخرى)، وهل «الظل» — وهو تماهٍ قائم على التقبُّل السلبي للموضوع كونه مملوكًا للظل لا مالكًا له — متصلٌ على نحوٍ أكبر بالإحساس اللاواعي بالذنب وكذلك الحزن الناتج عن الهجران؟ وهل الإحساس بالذنب الذي يُسبِّبه الألم الواقع على الموضوع بسبب التملُّك الغاضب، والحزن الناتج عن كونه ليس موضوع الحب الوحيد، أو لعدم التوافُقِ التامِّ مع الموضوع المحبوب؟

وكما رأينا، فمنذ بداية عمله، ربط فرويد السوداوية بكلٍّ من فقدان الموضوع والعداء تجاهه؛ فيقول في كتاب «محاضراتٌ تمهيدية جديدة» الصادر عام ١٩٣٣ عندما يتحدث عن الإحساس اللاواعي بالذنب:

> عندما تَشكَّلَتِ الأنا العُليا لأول مرة، لا شك أنه من خلال إعداد هذه القوة، استُخدِم جزءٌ من عدوانية الطفل تجاه والدَيه لم يكن قادرًا على التنفيس عنه إلى الخارج بسبب التثبيت الشبقي، وكذلك المصاعب الخارجية؛ ولهذا السبب ليس بالضرورة أن تكون صرامةُ الأنا العليا متوافقة مع صرامة التربية. (فرويد، ١٩٣٣، صفحة ١٠٩)

تُسبِّب السادية الإحساس بالذنب، والذنب يُسبِّب السادية. «إن الأشخاص الذين يكون لديهم هذا الإحساس اللاواعي بالذنب قويًّا على نحوٍ مُفرِط يخونون أنفسهم

في العلاج التحليلي بِردٍّ فعلٍ علاجي سلبي وهو أَمرٌ «مزعج للغاية» من وجهة النظر التشخيصية» (المصدر السابق، صفحة ١٠٩). إن الأمر المزعج للغاية — خلال التحويل المُضادّ للمشاعر — هو الطبيعة المُستبِدة لتقييد الحركة التي تُسبِّبها الحاجة للإبقاء على الموضوع (الموضوع الداخلي، وكذلك المُحلِّل في تحويل المشاعر) سجينًا للأبد.

ثَمَّةَ تركيزٌ على المرحلة الفموية لليبيدو، بشكلها الخاص من العدوانية، واعتمادها الشديد على الموضوع والتملُّك اللاحق، يَتخلَّل الطرح الخاص بالسوداوية. وفي هذا البحث يَذكُر فرويد الشبقية الشرجية على نحوٍ عارض:

> فيما يتعلق بإحدى السمات البارزة للسوداوية التي تناولناها بالذكر (المصدر السابق، صفحة ٢٤٨)، وهي ظهور الخوف من التحوُّل إلى الضعف والعَوَز، يبدو من المعقول افتراضُ أن هذا مُستمَد من الشبق الشرجي الذي نُزِع من سياقه وتَبدَّل في إطارٍ نكوصي.

في بحثه البارز الصادر عام ١٩٢٤، يستفيد أبراهام استفادةً كاملة من الفهم الخاص بالشرجية فيما يتعلق بالسوداوية، مميزًا بين التحكُّم في الموضوع والتشبُّث به (الذي يعتبره الطور الثاني للمرحلة الشرجية وسمةً من سمات المُصاب بالعُصاب الوسواسي)، وبين طرده والتخلُّص منه، الذي يُعد نكوصًا إلى الطور الأول من المرحلة الشرجية، وسمةً للشخص السوداوي. في الحالات البدائية للعقل، ثَمَّةَ شعورٌ بأن الموضوع في حوزة النفس، بينما يُعامل في اللاوعي كأنه رواسب؛ فالشخص السوداوي يطرد الموضوع ويخسره، بينما يرتبط به المصاب بالعُصاب الوسواسي بعلاقةٍ مرهقةٍ قاسية. ويربط أبراهام بين هذا الطور الثاني وبداية ظهور القدرة على الاحتفاظ بالموضوع، والتي ستُصبِح في ظل التطوُّر الطبيعي مَصدرَ قَلقٍ للموضوع الذي يُستشعَر أن له وجودًا مستقلًّا خاصًّا به.

لكن بالطبع يجب ألا ننسى أن الموضوع الذي فُقِد أو تم التخلُّص منه في العالم الخارجي، يتم التمسُّك به على نحوٍ تملُّكي في العالم الداخلي في السوداوية، وأن هذا الموضوع الذي يَتعرَّض للتعذيب والقتل باستمرار، ليس الموضوع المكروه الشديد السوء، بل هو دائمًا موضوع «الحب» المكروه. «إذا كان شعور الحب تجاه الموضوع — «وهو حب لا يمكن التخلي عنه رغم التخلي عن الموضوع نفسه» — يجد ملاذه في

التماهي النرجسي، فإن الكراهية تبدأ عملها على ذلك الموضوع البديل» (المصدر السابق، صفحة ٢٥١).

إذن فذلك الإحساس (الذي ينتمي إلى جنون العظمة إلى حدٍّ ما) الذي ينتاب الشخص السوداوي بأنه أسوأ شخص في العالم يتوافق مع كلٍّ من تماهيه مع موضوع الحب المكروه الذي يسود شعورٌ تجاهه بالفعل بأنه «أسوأ شخص في العالم» — أو مصدر كل المعاناة — وكذلك مع الإدراك الداخلي بانخراطه في القيام دائمًا «بأسوأ شيء في العالم» وهو كونه مصدر معاناةٍ شديدة لأكثر موضوعاتك حبًّا إليك. «في حالة الحداد، يكون العالم هو من أصبح بائسًا وفارغًا، أمَّا في السوداوية، فينطبق هذا على الأنا ذاتها» (المصدر السابق، صفحة ٢٤٦). «إن عقدة السوداوية تُحاكي الجُرح المفتوح؛ إذ تجتذب نحوها الطاقات النفسية ... من جميع الاتجاهات، مُفرغة الأنا حتى تصبح مُعدمةً تمامًا» (المصدر السابق، صفحة ٢٥٣). إن العالم الداخلي للشخص السوداوي عالمٌ بائس ومُقفِر نظرًا للإحساس المزدوج بفقدان القدرة على حب الموضوع، ولأن الموضوع مصدر الحب يُقتَل باستمرار. وتنشأ السادية ضد الأنا من كلٍّ كراهيةِ الموضوع الذي تتوحد معه الأنا، ومن كراهية الأنا لامتلائها بالكراهية (يطلق كلاين (١٩٣٥) على هذا «كراهية الأنا للهو» بسبب هجماته على الموضوع؛ أو فيما يمكننا أن نصفه بكراهية الامتلاء بالكراهية، التي من الواضح أنها حالةٌ ذاتية الاستدامة والتجدُّد).

بالطبع تتسم العمليات المذكورة في اكتشاف فرويد المُذهِل للآليات التي تخلق السوداوية بتعقيدٍ لا نهائي (فالأمر في النهاية يستغرق سنواتٍ وسنواتٍ من التحليل لِحلِّ لغزها)؛ وكم أتمنى تسليط بعض الضوء عليها من خلال استعراضِ أمثلةٍ ووجهاتِ نظرٍ مختلفة. ولمَّا لم يكن لبحث «الحداد والسوداوية» أيُّ مادةٍ تحليلية، سأبدأ بتوضيح تلك الآليات بما أعتقد أنه المثال الأروع، والمأخوذ من أحدِ أوائلِ رواد التحليل النفسي، وهي المُحلِّلة النفسية النمساوية هيلين دويتش.

(٢) دراسة لحالة هيلين دويتش عن السوداوية

كان لِدويتش السبق في تقديمِ مثالٍ رائع لبيان التأرجُح بين القسوة على الأنا تماهيًا مع الموضوع، وبين الأسى والخوف من أجل الأنا والموضوع، وذلك في بحثها الصادر عام ١٩٣٠ بعنوان «السوداوية». تصف دويتش في السيرة المَرَضية لأحد مرضاها المصابين

بالذُّهان العملية المُعقَّدة لعدةِ تماهياتٍ مختلفة، والتي تبلغ ذروتها عند الفكرة التخيُّلية للمريض والتوجُّهات الانفعالية المختلفة نحو الذات والموضوع في الدراما الداخلية.

كانت مريضة دويتش، وهي سيدةٌ عزباءُ في الخمسينيات، تعاني من انهيارٍ عصبي اكتئابي بعد اختفاء كلبها الصغير، وسرعان ما اتضح أن هذا الكلب كان بديلًا لأختها التي تَصغُرها بثماني سنوات والتي تفانَت في العناية بها ورعايتها بعد وفاةِ والدتهما في سنٍّ مبكرة — عندما كانت المريضة في الثانية عشرة من عمرها — وضحَّت من أجلها بمسيرتها الوظيفية الواعدة، لتتركها الأخت، والتي أَشبَعت أمنيتها النرجسية بالنجاح من خلال التماهي، فجأةَ وبجحودٍ لتتزوج، وانتَقلت إلى بلدٍ آخر:

> على مدى عامٍ تقريبًا كانت المريضة في اكتئابٍ شديد، تتخلله نوباتُ قلقٍ شديدَة وحالاتٌ تُقارب الهذيان الانفعالي على نحوٍ دوري. كانت كُلُّ مخاوفها تتمحور حول فكرةٍ واحدة تشبَّثَت بها بعنادٍ وتصلُّب، رغم أنها كانت قادرةً على أن ترى بنفسها سخافة الفكرة المُتسلِّطة المسيطرة عليها. ولكن بالرغم من هذا الإدراك النابه العارض لِسخافة الفكرة، ظلَّت متعلقةً بها بدرجاتٍ متفاوتة من الأثر العاطفي؛ فكانت تتخيل أنها سيُزج بها في الشارع عاريةً بينما هي نائمةٌ لتواجه ميتةً فظيعة، وحيدةً مهجورة. وأحيانًا كانت تُصرِّح بهذه الفكرة لفظًا في لا مبالاةٍ تامة، وأحيانًا كانت تَتوسَّل حدوثها «عاجلًا لا آجلًا»، وفي أوقاتٍ أخرى كانت تَصرُخ طالبة المساعدة وهي في أشد حالات الخوف الهذَياني: «إنهم قادمون! إنهم قادمون! لا تدَعوهم يأخذوني! ترفَّقوا بي!» ومن وقتٍ لآخر، كانت تُصر على أنها لا تستحق غير هذا وحسنًا تفعل إن عاقبَتها بهذه القسوة. (دويتش، ١٩٣٠، صفحة ١٤٦)

إن تاريخ المريضة كما تصفه دويتش هو تاريخُ تماهياتها العديدة، فيما يُعَد مثالًا توضيحيًّا لوجهة نظر فرويد من أن «شخصية الأنا هي راسبٌ من تركيزاتِ الطاقة النفسية على الموضوع المهجور وتحوي تاريخَ اختياراتِ ذلك الموضوع» (فرويد، ١٩٢٣). لقد كانت المريضة تشعر بالغَيرة الشديدة عندما وُلِدت شقيقتها؛ لكن التماهي مع الأم عمِل كآليةِ دفاعٍ ناجعة ضدها، ولاحقًا نَقلَت هذا التماهي إلى الأخت التي أصبحت موضوع

الحُب الأوحد في حياتها، الذي تمثل في أُمنيتها أن تُصبِح كاتبةً ناجحة. وهذا التماهي النرجسي اللاواعي، حسب دويتش، يُمهِّد الطريق أمام التماهي السوداوي:

> بِتتبُّع التطور النفسي للمريضة، نستطيع تكوينَ مخُطَّطٍ تتابُعيٍّ لما دار بداخلها؛ أولًا: الكراهية والعدوانية تجاه شقيقتها؛ التصدي لهذه الدوافع من خلال آليات العُصاب الوسواسي؛ بعدئذٍ تعويض مفرط ناجح عن الكراهية من خلال الحب والعطف؛ ثم إشباع للجروح النرجسية من خلال التماهي مع شقيقتها، وأخيرًا، تحوُّل العدوانية إلى تضحيةٍ مُشبعة بالذات على نحوٍ مازوخي من أجلها وهو إنجازٌ رائع ويُعتبر أسلوبًا إداريًّا ممتازًا في البيت النفسي.
>
> بَعدَ ما تلقَّته من إحباطٍ وخيبةِ أملٍ على يد الأخت، لا يتم التخلي عن هذا الترتيب النفسي؛ فقط يُضاف إليه كمِّياتٌ جديدة من الدوافع العدوانية، حتى تصل المريضة إلى مرحلةٍ خطيرة من المرض. كذلك يبقى التماهي وأيضًا النزعة المازوخية نحو الأنا؛ فالعقاب الذي حَكمَت به المريضة على شقيقتها وهو «الزجُّ بها إلى الشارع»؛ لكي تلقى نهايتها البائسة، الذي نسمعها تطالب به بوتيرةٍ منتظمة، لم يعد تهديدًا مُوجَّهًا لشقيقتها، بل مُوجَّهًا إلى ذاتها، وأحيانًا تتوسل لتنفيذ العقاب، وفي أوقاتٍ أخرى تُدافع عن نفسها ضده وهي في أقصى حالات الخوف والقلق عنفًا. والآن صِرنا مُدركِين بمن يرتبط هذا العقاب، ولماذا صرَّحَت المريضة في أشد حالات اتهامها لذاتها: «أنا لا أستحق غير هذا.» لقد كانت الجرائم التي نَسبَتها إلى نفسها بالفعل جرائمَ تافهة إلى حدٍّ بعيد، لكن فعلة شقيقتها «لم تكن تستحق أي شيء» إلا أن تُقابَل بأقصى درجات العقاب. (دويتش، ١٩٣٠، الصفحات ١٤٩–١٥٠)

بالعودة إلى بحث «الحداد والسوداوية»:

> إذا كان الحب تجاه الموضوع — وهو حبٌّ لا يمكن التخلي عنه رغم التخلي عن الموضوع نفسه — يجد ملاذًا في التماهي النرجسي، فإن الكراهية تبدأ عملها داخل ذلك الموضوع البديل، فتُسيء معاملته، وتُحقِّر من شأنه، وتجعله يعاني، وتستمد إشباعًا ساديًّا من معاناته. … وهكذا تكون الطاقة النفسية الجنسية للشخص السوداوي فيما يتعلق بموضوعه قد خَضعَت لتغيُّرٍ مزدوج: جزء منها تراجَعَ إلى حالة التماهي، أمَّا الجزء الآخر، وتحت تأثير الصراع الناجم عن

الازدواجية والتناقض، فيُرَدُّ إلى مرحلة السادية التي هي أقرب إلى ذلك الصراع. (المصدر السابق، صفحة ٢٤٩)

سوف تتركز هذه السادية في الأنا العليا التي ستحكم على الأنا «كما لو كانت موضوعًا؛ الموضوع المهجور» (المصدر السابق، صفحة ٢٤٩).

إن مثال دويتش التحليلي يجعل بالإمكان تفسير الاختلافات الدقيقة في التماهيات؛ فالمريضة تتأرجح بين حالةٍ عقلية تقول فيها «اقتلوني!» وأخرى تقول فيها «أرجوكم أنقذوني من القتل!» يمكن القول إن الأُولى (اقتلوني) تنتمي لنسخة فرويد الأُولى من الانتحار، التي تتوحَّد فيها الأنا لا شعوريًّا مع الموضوع القاسي الراحل الذي يستحق الموت، والذي يجب قتلُه إذن بواسطة الأنا العليا؛ لكن بالطبع فإن عبارة «زُجُّوا بي في الشارع واتركوني لأموت» يمكن أيضًا أن يكون لها طابعٌ انفعاليٌّ مختلف؛ طابع الأنا التي تشعر بأنها غيرُ محبوبةٍ لدرجة أن الموت هو الحل الوحيد؛ فعبارة «الأنا تترك نفسها لتموت» تعني أيضًا «الموت وحده هو ما يمكنه إنقاذي من عذاب الشعور بعدم الحب.» بالطبع يُوجد موضوعٌ لا يستحق إلا هذا، ولكن تُوجد أيضًا أنا تُدرِك تناقُضًا عميقًا ولا يمكنها تحمُّل ما فعلته بالموضوع.

في سيناريو «أنقذوني!» يسود شعور بأن الأنا العليا القاتلة «مُستبعَدة»، وأن ذات الطفل التي هجرها الموضوع العطوف تُواجه رعبًا شديدًا على يد الموضوع القاسي الاضطهادي، لكنها كذلك تأمُل أنَّ ثَمَّةَ موضوعًا عطوفًا ربما يُظهِر تعاطفًا ويأتي لنجدتها (وهكذا فإن الحب ما زال موجودًا في مكان ما). لكن بالطبع يمكن لسيناريو «أنقذوني!» أن يكون أيضًا تماهيًا مع الموضوع المُعذَّب المهجور. فالجرح دائمًا ما يكون مزدوجًا: النفس الجريحة والموضوع الجريح؛ لكنه دائمًا مزدوج في الطابع الشعوري كذلك؛ فنرى شعورًا جامحًا بالظلم، وامتلاءً بالكراهية تجاه الموضوع، وأسًى لا يُحتَمَل لعدم وجودِ حبٍّ متبادل. إن النفس منخرطة في جزء منها في تماهٍ إسقاطي مع موضوعٍ داخلي عدائي — الأنا العليا القاسية — وفي تماهٍ مع الموضوع الصارخ المُحطَّم في جزءٍ آخر.

وهكذا يُصبِح فهم مريض السوداوية مرادفًا للحاجة لفكِّ لُغزِ كل هذه العلاقات والتماهيات المختلفة مع مختلفِ جوانب الموضوعات الداخلية، وكذا كل أشكال الطابع الشعوري الانفعالي، من الغضب الوحشي القاتل إلى الحزن والإحساس بالذنب والرعب من الدمار الذي تتسبب فيه النفس، وما يعقُب ذلك من تجربة الألم الناتج عن عدمِ حصولها

على الحب، عن استحقاق، لو جاز التعبير، ومن ثَمَّ فهي غيرُ جديرةٍ بأن تكون محبوبةً للأبد: «تدَع الأنا نفسها لتموت».

يبدو واضحًا في حالة دويتش أن الاسترضاء المُفرِط للأنا العليا من بدايةِ تاريخ المريضة فصاعدًا مرتبطٌ بتجربتها (التي تكون لا واعية في معظم الوقت) مع قسوتها الذاتية؛ ففي البداية ينبثق الخيال لدى المريضة في إطارِ أولِ موضوعٍ عمد إلى الهجران (إذا تتبعنا فكرة فرويد عن الوحشية الفموية حتى الثدي المحبط)، ثم في إطار الشقيقة المولودة حديثًا، والتي يفترض أنها النقطة التي ينبع منها الوهم الأَوَّلي (وهمٌ يُحقِّق الأمنية) الذي يُجسِّد شخصًا «يُرفَع من فوق سريره ويُلقى به عاريًا في بالوعة».

عندما ينقلب الجزء النشط الواعي من الأنا بوحشيةٍ شديدة ضد الأنا المتماهية مع الموضوع، يجب أن نفترض أن ما يحدث «للنفس المتحدثة»، التي تطلب العقاب الوحشي، يتمثل في كونها متماهية على نحوٍ لا واعٍ مع المعتدي؛ أي الأنا العليا القاتلة، التي أصبَحَت، حسب تعبير فرويد (اللاحق)، «ثقافة خالصة لغريزة الموت» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٥٣).

عندما نتحدث عن أنا عُليا لا تعرف أيَّ شفقةٍ في تلك اللحظة، ولا تملك أي رحمةٍ أو تسامُح؛ وربما تُجسِّد نسخةً مغالًى فيها لوالدٍ مُستدمَج غيرِ متسامح، كان لديه ذُعرٌ شديد من دوافع الطفل الصغير العدوانية (مع وضع ما قاله فرويد عن إدراك اصطباغ قسوة الأب بعدوانية الطفل اللاشعورية، بالطبع، في الاعتبار)، أو يُمكِننا تخيُّل أُمٍّ ضعيفة، يُنظَر إليها كأُمٍّ تحطَّمَت بسهولةٍ بفعلِ عدوانية الطفل، تثير مثل هذا الإحساس غير المُحتمَل بالذنب، لدرجةٍ يتعذَّر معها التعامُل معه والخوض فيه؛ فالموضوع الداخلي المُحطَّم يُشكِّل اتهامًا دائمًا يُستخدَم على نحوٍ لا نهائي كدليلٍ على وجود المُضطهد الداخلي.

إن مهمة المحلل، من وجهةِ نظرٍ إكلينيكية، هي الخوض تدريجيًّا في حلِّ لُغزِ كل النُّسَخ المختلفة للصراع النفسي، من خلال فهم التماهيات المختلفة والتغييرات المُتسارِعة في العلاقات اللاواعية مع الموضوع، لاكتشاف من يرتبط بمن، وبأيِّ طريقة، من خلال تحويل المشاعر.

(٣) «الجرح والقوس»

يأتي هذا العنوان من مقالٍ شهير ومُؤثِّر للغاية كتبه الناقد الأدبي إدموند ويلسون بعنوان «الجرح والقوس» (١٩٤١) يُناقش فيه مسرحية «فيلوكتيتس» لسوفوكليس. يستخدم ويلسون ببراعةٍ جرح فيلوكتيتس المُتعذِّر شفاؤه وقوسه الذي لا يُقهر كاستعارةٍ مجازية

للجوانب الإيجابية والسلبية للدافع الإبداعي، ويُشير إلى شيخوخة سوفوكليس (إذ كان عمره ٨٧ عامًا وقت تأليفه المسرحية) على نحوٍ جزئي كتفسيرٍ لأسلوبه في تصوير الصراعات؛ إذ تدور المسرحية حول صراعات النضج. أتى سوفوكليس بتجديدٍ عظيم في الدراما، بزيادة عدد المُمثِلين إلى ثلاثة (ويتلينج، ١٩٥٣)؛ وقد ترتب على ذلك، بحسب ويتلينج، أن «أصبَحَت الشخصية الآن، وليس الحدث المقدَّر حدوثه سلفًا، هي محور تركيز الدراما» (المصدر السابق). ولا شك بالفعل في أنه على الرغم من أن إرادة الآلهة هي كالمعتاد دائمًا إرادةٌ عليا، فإن المسرحية تُقدِّم دراساتٍ لشخصياتها، وصراعاتها الداخلية وكذلك الصراعات فيما بينها برؤيةٍ نفسيةٍ منطقية ثاقبة.

كُتِبَت فيلكوتيتس قبل مسرحية «أوديب في كلونا» مباشرة، وهي المسرحية التي تُناقِش اقتراب أوديب من الموت، والتي يتراجع فيها أوديب، كما بيَّن جون ستاينر (١٩٩٣) على نحوٍ لافت للنظر للغاية، عن مواجهة الحقيقة إلى حالةٍ من القدرة الكلية وإنكار الذنب، وهو الذنب الذي كان قادرًا على تقبُّله في نهاية مسرحية «أوديب». تتمحور الصراعات في المسرحية التي سأُناقشها حول الذنب والمسئولية والضيم؛ وأظن أنها مثالٌ توضيحيٌّ جيد لمقولة فرويد: «عقدة السوداوية تحاكي الجرح المفتوح؛ إذ تجذب إليها الطاقات النفسية ... من جميع الاتجاهات، مُفرغةً الأنا من كل طاقاتها حتى تسلبها خِصبها» (صفحة ٢٥٣).

ورث فيلوكتيتس من هرقل قوسًا لا يُقهر كان الإغريق يأمُلون أن يساعد في هزيمة الطرواديِّين. قبل بدء أحداث المسرحية بعشر سنوات، يُبحر المحاربون الإغريق، وبينهم فيلوكتيتس وأوديسيوس، إلى طروادة، ويقطعون رحلتهم عند إحدى الجزر ليزوروا معبد الإلهة كريسي. وبالقرب من المعبد، يتعرض فيلوكتيتس للدغةِ أَفعى سامَّة. لا يلتئم الجرح وتفوح منه رائحةٌ نتنة لا تُطاق. في أول مشاهد مسرحية سوفوكليس، يصف أوديسيوس ما حدث بعد ذلك لنيوبتوليموس ابن المحارب الإغريقي الراحل آخيل:

> تركتُ فيلوكتيتس في خليج ماليان، وكان ابن بوياس (في جزيرة ليمنوس المهجورة) يعرُج بسبب جرحٍ مُتقيح في قدمه كان يئن ويصرخ بلا انقطاع بسببه؛ كان معسكرنا لا يخلو من نحيبه الشديد؛ لم يكن يتوقف ولو لِلحظةٍ لصلاة أو شراب، بل كانت صرخاته المُعذبة تُدنِّس الصمت. (سوفوكليس، ١٩٥٣)

لذا فعند بداية المسرحية كان فيلوكتيتس قد مكث في ليمنوس عشر سنواتٍ بمفرده، في بؤسٍ شديد وعذابٍ لا ينقطع بسبب ألم جرحه الذي لا يُحتَمل إلى جانب الجُرح الذي خلَّفه ما تعرَّض له من ضيمٍ شديد؛ فقد هُجر، وهو البطل العظيم، رغم مُعاناته، و«بسببها» أيضًا كما يرى أوديسيوس. كان الإغريق عاجزِين عن الفوز بالحرب، وكان أوديسيوس يُريد الاحتيالَ على فيلوكتيتس وسرقةَ القوس السحري عن طريق خِداعِه بواسطة نيوبتوليموس الشاب الذي لم يلتقِ به فيلوكتيتس من قبل. كان نيوبتوليموس قلقًا من استغلاله بهذه الطريقة؛ فهو لا يُريد الكذب حتى لو كان هذا لغرضٍ نبيل كما هو مُفترَض. يُخبِره أوديسيوس أنه سيستطيع إقناع فيلوكتيتس أنه في صفِّه إذا أخبره بأنه أيضًا لديه مظلمة؛ عليه أن يكذب ويُخبره بأن الإغريق قد أعطَوا درع آخيل أوديسيوس بدلًا منه، وهو الوريث الشرعي. ويتمكن أوديسيوس من إغرائه مؤقتًا بخطَّته الخادعة بحافزٍ مزدوج، وهو الوفاء بواجبه الوطني وحصد المجد والشهرة. لكن في النهاية كانت الكلمة النهائية لصدق نيوبتوليموس ومشاعره النبيلة؛ إذ يُخبر فيلوكتيتس بالحقيقة، ويصطحبه معه في السفينة رغم صرخاتِ أَلَمِ الأخير المُدوِّية ورائحة جُرحه النتِنة، ويَعِد فيلوكتيتس أنه بعد فوزهم بالحرب بمساعدة القوس، سوف يتولى أبناء اسكلبيوس علاجه. من الواضح كذلك أن الآلهة قد قرَّرَت أنه لكي يفوز الإغريق بالحرب، فعليهم اصطحاب فيلوكتيتس وقوسه معهم إلى طروادة.

أَودُّ استخدامَ مسرحيةِ سوفوكليس لتوضيح كلٍّ من مشاعر الأسى والظلم الناجمَين عن السوداوية؛ ذلك الجرح الذي لا يلتئم قَط ويتغذَّى على ذاته، ويتضاعف بفعل مشاعرِ الكراهية تجاه الموضوع القاسي الهَاجِر. كذلك سأستعين بها لتوضيحِ نوعٍ مُعيَّن من شعور الذنب اللاواعي الذي يصفه كلاين (١٩٣٥، ١٩٤٠) كشعورٍ اضطهاديٍّ بالذنب، حين تجد النفس أنها لا تُطيق تحمُّلَ منظرِ جُرح الموضوع، الذي يُنظَر إليه كهجومٍ رهيب وتهديدٍ لبقاء النفس على قيد الحياة. إن هذا النوع من الشعور بالذنب يحتاج لِفصله وإسقاط الضوء علَيه في أبعد «جزيرة» في العالم الداخلي، وفي النهاية ينبغي تدمير الموضوع المُحطَّم الذي يُعاني؛ للتخلُّص من الاتهامات والرعب الناشئَين عن معاناته (سودريه، ٢٠٠٠) (يرى كلاين أن هذه المسرحية تُعتبر توضيحًا مثاليًّا للصراعات المؤلمة التي تحدث في بداية حالة الاكتئاب).

تُقدِّم الشخصيات الثلاث الرئيسة في المسرحية توضيحًا جيدًا لآليات الصراع العقلي؛ فيُمثِّل أوديسيوس أمنية الابتعاد بدونِ شفقةٍ عن الألم الذي تُسبِّبه العدوانية والنزعة

إلى القتل المتمثلتَين في الرائحة النتِنة الرهيبة وصَرَخات الموضوع التي لا تُحتمَل؛ يمكن القول إن نيوبتوليموس يشغل موقع الأنا مقسمًا بين الألم للموضوع الجريح، والإحساس بالمسئولية تجاه الجُرح وتمنِّي الخضوع لإغراء الدفاعات الهوَسِية التي يُمثِّلها أوديسيوس العديم الرحمة، بينما يُمثِّل فيلوكتيتس الموضوع المُعذَّب بالنسبة إلى أوديسيوس ونيوبتوليموس، ودليلَ استحقاق اللوم الذي تُقدِّمه الأنا العليا؛ ولكنه كذلك يُوضِّح مأزِق الشخص السوداوي الذي هجره موضوعُ حُبه المُفعَم بالكراهية وكراهية الذات وغير القادر على الثقة أو التمسُّك باحتمالِ وجودِ أيِّ أمل.

في بحث «الحداد والسوداوية»، ينظر فرويد إلى الهوس كانتصارٍ على الحالة السوداوية إذ يقول: «يُظهِر الشخص المصاب بالهَوَس بوضوحٍ تَحرُّره من الموضوع الذي كان سببَ مُعاناتِه بالبحث كرجلٍ لديه جوعٌ شديد عن تركيزاتٍ جديدة للطاقة النفسية على الموضوع» (فرويد، ١٩١٥، صفحة ٢٥٥). يُمكِن النظر إلى الهوَس كانتصارٍ على الأنا العليا؛ فنرى أوديسيوس المهووس يحاول إغواء نيوبتوليموس ودفعه للتصرُّف بقسوةٍ وشراسةٍ وتجاهُل ضميره بأن يعرض عليه النصر في الحرب كمكافأة. لكن نيوبتوليموس، وبعد صراعٍ مرير، يُدرِك أنه لا يمكنه القيام بهذا؛ فالألم والمعاناة، من وجهةِ نظره، يجب تحمُّلهما لا محالة. من الصعب تحمُّل صَرَخات الموضوع المُتضرِّر ورائحته النتِنة، لكن ليس بقَدْر عدم تحمُّل أوديسيوس لها. يمكن القول إنه بعيدًا عن طبيعته الأكثر طيبةً وتعاطفًا، ثَمَّةَ عاملٌ آخر يلعب دورًا هنا؛ لقد قابل فيلوكتيتس للتو؛ فهو ليس متهمًا بهجرانه في معاناته الشديدة لمدة عشر سنوات؛ ومن ثَمَّ ليس لديه أيُّ سببٍ لكراهيته، بينما في عقل أوديسيوس (وفي الواقع كذلك)، كانت كل لحظةٍ في تلك السنوات العشر كان يُعذَّب فيها فيلوكتيتس على نحوٍ سادي؛ لقد سمع (على نحوٍ لا واعٍ) الصرخات التي لا تنتهي، وهذا يزيد من نزْعته للقتل تجاهه بدلًا من أن يُقلِّلها.

ترى الجوقة فيلوكتيتس وهو يتعذَّب بالسم الذي في جُرحه يتجول «ذهابًا وإيابًا، على الأرض القاحلة، كطفلٍ دون مُربِّية» (سوفوكليس، ١٩٥٣، صفحة ١٨٧)، كالأنا المهجورة التي وَصفَها فرويد التي «تترك نفسها تموت»؛ لكن في غمرة يأسه وغضبه، يطلب منهم فأسًا أو سيفًا «لأُقطِّع نفسي إربًا، لأُمزِّق أوصالي!» إن مسألة الانتحار مسألةٌ محورية لهذه المسرحية؛ والمثير في الأمر أن فيلكوتيتس لم يقتل نفسه بعد، رغم أنه ظل في الموقف اليائس نفسه الذي لا يُحتمَل لِعشر سنوات؛ وهو ما يجعل الأمر يبدو كما لو

كان سوفوكليس يتمنى أن يُناقِش هذه المشكلة ليس فقط فيما يتعلق بدرجة المعاناة التي يتحمَّلها فيلوكتيتس، بل فيما يتعلق بكونها مركزَ علاقتِه بموضوعاته.

على مدى المسرحية، يتأرجح فيلوكتيتس بين النزعة لقتل مُضطهِديه وقتل ذاته، ومع معرفته بنيوبتوليموس، يتأرجح بين الثقة وعدم الثقة في موضوعه الخَيِّر المُحتمَل. وتأتي دوافعه الانتحارية في هيئتَين فَحَصتُهما في تفكير فرويد: قتل نفسه/موضوعه، والتمني السلبي للموت. عندما يطلب قائلًا «ألقُوا بي في فوهة البركان»، مثل مريضةِ دويتش التي تَتوسَّل لكي يُزج بها في الشارع لِتموت، نجده أكثر سلبيةً واتكالًا؛ بينما عندما يطلب من الجوقة فأسًا لِيُقطِّع جسده كله إربًا وليس قدمَيه فقط، نراه ثائرًا وشديدَ العنف، يفعل بجسده ما يتمنى أن يفعله بموضوعِهِ بساديَّة.

في ترجمة ويلسون (١٩٤١، صفحة ٢٥٠)، يهاجم الألم فيلوكتيتس كمسٍّ شيطانيٍّ استحواذي من قِبل عنصرٍ مُعذب يتخذ صيغة المؤنث:

> لكن بينما هم يستعدون للذهاب إلى السفينة، تبدأ القرحة في قدم فيلوكتيتس في إصدارِ نبضٍ مؤلم نحو مُنذرٍ بسوء استعدادًا لإحدى نوباتها الانفجارية المُتكرِّرة؛ فيقول المريض: «إنها تعود من وقتٍ لآخر، كأنها شبِعَت من جولاتها.» وفي لحظةٍ يتمدَّد على الأرض ويتلوَّى في ألمٍ مُبرِّح مُذِلٍّ ويَتوسَّل الشاب لكي تُقطَع قدمه.

يُعزِّز هذا تجربتنا عن كون الألم يأتي من موضوعٍ داخليٍّ مُوجعٍ يتولى السيطرة فجأة. والتنقُّل بين اليأس والأمل يرتبط باحتمالية القدرة (أو عم القدرة) على الثقة بموضوعٍ طيب وخيِّر:

> يُعطي القوس نيوبتوليموس مُخبرًا إياه أن يعتني به حتى تنتهي النوبة، ثم يصاب بنوبة تشنج ثانية، أسوأ من سابقتها، تُجبِره على أن يناشده أن يرميه في فُوَّهة بركان ليمنوس … يخمد الألم قليلًا، فيقول فيلوكتيتس: «إن الألم يروح ويجيء.» ويستعطف الشاب ألا يتركه. «لا تقلق، سوف نبقى.» «لن أجعلك حتى تقسم على البقاء يا بُنيَّ.» «لن يكون من الصواب أن أتركك.» … يَتلوَّى الأعرج بسبب نوبةٍ ثالثة؛ ويطلب الآن من نيوبتوليموس أن يصطحبه

> إلى الكهف، لكنه يسقط من قبضته ويقاوم. في النهاية ينفجِر الخُرَّاج ويَتدفَّق ويبدأ دَفقٌ من الدم الأسود، ويخلُد فيلكوتيتس إلى النوم وقد أصابه الإعياء وأغرقه العرق.

عندما يكون أَلَمُه شديدًا، تُصبِح كل الموضوعات غيرَ جديرةٍ بالثقة. لكن تَشبُّثه بالشكوى من الضيم والظلم يُديم الألم كما في ترجمة شيموس هيني:

> **الجوقة:** جُرحك هو ما يتغذَّى عليك يا فيلوكتيتس. أقولها لك مرةً أخرى بروح الصداقة: توقَّف عن تدمير نفسِكَ بالكراهية وتعالَ معنا.

ويجيب فيلوكتيتس بعد عدة أبيات:

> أبدًا. كلَّا. مهما ضاق الخناق من حولي، فسأكون طروادة الخاصة بي. (هيني، ١٩٩٠، الصفحات ٦١–٦٣)

إن عبارة «سأكون طروادة الخاصة بي» إنما تنقل بعناية درجة الميل إلى تدمير الذات في أرض المعركة النفسية والانتصار الذي يصحبها؛ فنجد سوفوكليس يتناول مسألةَ تدميرِ الذات التي ينطوي عليها الشعور السوداوي بالظلم بدفع نيوبتوليموس نحو إدراكِ أن فيلوكتيتس عالقٌ في حالةٍ من الرفض الثائر للسماح لنفسه بتلقِّي المساعدة من أحد، وهو ما يحدُث بعد أن يستطيع نيوبتوليموس فهم الموقف الذي هو فيه والتعامُل مع نزاعه الخاص ومن ثَمَّ العثور على الحل الحكيم، ألا وهو: اصطحاب الجُرح والقوس معه، وهو ما أستخدمه هنا للرمز إلى القدرة على تحمل المسئولية عن العدوانية.

عندما يرفض فيلوكتيتس عرض نيوبتوليموس باصطحابه إلى المعركة، وإلى من سيُعالجونه أيضًا في الأثناء، رغم إدراكه الآن أن ثمة أملًا في تواجُد الثقة وإمكانية، يقول نيوبتوليموس:

> ... لا عذر أو شفقة لمن يختارون التعلُّق بالمعاناة والمشقة التي صَنعَتها أيديهم كما تفعل أنت. لقد أَغلقتَ قلبك ولن تستمع إلى النصيحة. من يُحاولون إقناعك، بكلِّ نيةٍ حسنة، تُقابِلهم بالعداء والكراهية والتشكُّك. (سوفوكليس، ١٩٥٣، صفحة ٢٠٧)

ثم يطلب مُجددًا أن يوافق فيلوكتيتس على المجيء معه، لِيرُد الأخير:

> لماذا حُكِم عليَّ بالعيش طويلًا هكذا؟ ألا يمكنني الموت؟ ألا يمكنني الموت أيتها الآلهة؟ ماذا عساني أن أفعل؟ لا يُمكِنني عدم سماع ناصحي الطيب. لكن هل يمكنني الخروج من حالة البؤس الطويلة هذه والعودة إلى ضوء النهار ورؤية البشر؟ (المصدر السابق، صفحة ٢٠٨)

ثم يتذكر الأسباب التي تجعله يشعر بالجُرح والظلم البالغَين:

> أَعرِفُ ما تريد؛ تريد استدراجي إلى مصيري.

ونشعر أنه الآن يستخدم جنون الارتياب كآليةِ دفاعٍ ضد كلٍّ من خوفه من عدم تحسُّن حالته أبدًا وخوفه من تحسُّنها. إنه يعرف الآن أن نيوبتوليموس يُريد «استدراجه» إلى الحياة لا إلى حتفه؛ وهذا هو رد فعل فيلوكتيتس العلاجي السلبي. يمكن القول هنا إن «العودة إلى رؤية البشر» يمكن أن تعني كلًّا من الخوف من أن يُنظَر إليه، وشعوره بالخزي مما أصبح عليه، والخوف من رؤية الحياة (لا بسبب ما فاته فقط، بل أيضًا بسبب الذي ما زال في إمكانه الحصول عليه وعليه الشعور بالامتنان من أجله). يُذكِّرني هذا بإحدى مريضاتي التي صَرخَت ذاتَ مرة بعزمٍ غاضب، بعد قضائها عُطلة نهاية الأسبوع مع والدتها (التي هي كذلك مُحلِّلتها النفسية) واضطرارِها للاعتراف بأن والدتها كانت تُحاوِل مساعدتها بكل ما أُوتِيَت من قوة: «لتحل عليَّ اللعنة لو شَعَرتُ بالسعادة!» إذن يمكن القول، فيما يتعلق بإدمان الشكوى والشعور بالمظلومية، إن «الناس لا يَتخلَّون طواعيةً قَط عن موقفٍ شهواني، ولا حتى عندما يعمد بديلٌ إلى إغوائهم ...»

إن النظرة للجُرح هنا هي نظرةٌ مزدوجة، تماشيًّا مع اقتباساتي لفرويد؛ فهو يتعلق، من وجهة نظر فيلوكتيتس، بالألم الناجم عن مهاجمته للموضوع وخيانته له، والجُرح الناجم عن شعوره بالظلم والاضطهاد الذي يعتني به ويُغذِّيه؛ ومن وجهة نظر أوديسيوس، فإنه يرمز إلى جُرح الموضوع وشعور الذنب غير المحتمل الذي يُسبِّبه، ممثلًا في الصرخات والرائحة النتِنة. ويمكن استخدام القوس، الذي يُمثِّل العُدوانية ويُمثِّل في الوقت نفسه الحياة والحركة والقوة، على نحوٍ إبداعي فقط، بطريقةٍ ناضجة، إذا كان مُتحدًا بشكلٍ ما مع الألم والذنب؛ فكلما ابتَعدَت عن الموضوع المُتضرِّر، ازدادت صرخاته علوًّا في العالم الداخلي (كلاين، ١٩٣٥)؛ وازدادت ضرورة تجنُّب الاستبطان

وسبر أغوارِ النفس عن طريق الانفصال والدفاعات الهوسية؛ فموقف أوديسيوس غير الأخلاقي المهووس الذي «لا يهمه إلا الفوز مهما كانت الوسيلة، لن يقوده إلى النصر في حقيقة الأمر.

لذا أعتقد أن هذه الأسطورة وطريقة استخدام سوفوكليس لها في نسج مسرحيته يمكن أن تعمل كتوضيحٍ لكلٍّ من صورة فرويد للسوداوية كجرح وللدفاعات ضده:

> إن عقدة السوداوية تحاكي الجرح المفتوح؛ إذ تجتذب نحوها الطاقات النفسية — والتي أطلقنا عليها في إطار الاضطرابات العُصابية المرتبطة بتحويل المشاعر «التركيز النفسي المضاد» — من جميع الاتجاهات، مُفرغة الأنا حتى تصبح معدمةً تمامًا. (فرويد، ١٩١٥، صفحة ٢٥٣)

تأتي قدرة هذا الجرح على جذبِ كلِّ طاقات التركيز النفسي إلى نفسه من خلال اشتماله على العالم الكامل لهذه العلاقة الخاصة بين الأنا والموضوع؛ فكلاهما مجروحٌ وجُرحهما يَتعذَّر علاجه والشفاء منه؛ فالأنا مُعدَمة والعالم من وجهة نظر السوداوية، خالٍ من المعنى والخير؛ وفي مثل هذه الحالة من اليأس وانعدام الأمل، ستختار النفس «أن تدَع نفسها تموت». ولكن بالتزامُن مع ذلك، تندلع حربٌ مُروِّعة؛ حيث تتحد كراهية الموضوع الذي يُسبِّب مثلَ هذا الألم مع كراهية النفس التي تُسبِّب مثل هذا الألم للموضوع. وتُتيح لنا الرؤية الثاقبة الرائعة لفرويد عن الاستدماج والتماهي إمكانيةَ رؤيةٍ عملية استثنائية؛ إذ نرى النفس تُعاني أثناء كونها الموضوع. صوتُ من يندب، ومن يَبكي في أسًى، ومَن يَصرُخ في غضب؟ مَن تَمزَّق إلى أشلاء؟ ثَمَّةَ دراما مُعقَّدة للغاية تدور، تتغير فيها الشخصيات بانتظام؛ فالأنا العليا، الميالة للانتقاد القاسي والتأنيب كالأب، ولكنها مُفعَمة بنزعةٍ لقتل الهو، تُهاجِم الأنا المتماهية مع الموضوع — أو تهاجم الأنا التي تُصبحِ النفس — تلك الأنا المُجسَّدة في هيئة «ذاتي»، والتي تَشعرُ بالهجران، على عكس الأنا التي تُمثِّل الآخر والمُتخفِّية كذاتي.

من الواضح أنه كان على أوديسيوس، الذي يُمثِّل «شرير» المسرحية، والمستعد لأن يكذب ويتصرف بخسَّة، الهرب ليس فقط من المسئولية بل من الشعور بالذنب كذلك؛ فقد كانت رائحة الجُرح النتنة وصرخات فيلوكتيتس أمورًا غيرَ مَحتملَة بالنسبة له. وإني لأعتقد أنه مثالٌ جيد لشعور الاضطهاد بالذنب؛ ذلك الذنب الذي لا يمكن مواجهته ويجب

التعامُل معه بالنكران والابتعاد والقدرة الكلية (وفقًا لما يراه ستاينر، فيما يتعلق بموقف أوديب في مسرحية «أوديب في كلونا»). إن أوديسيوس يَوَد لو حصل على القوس بدون الجُرح؛ فهو يظن أنه يمكنه الفوز بحربٍ كهذه بدون الدمج بين العدوانية وبين الذنب والألم. أمَّا نيوبتوليموس، فيشعر بشعورٍ مختلف، وبسبب شفقته وقلقه؛ بسبب معاناة موضوعه، يتمكن من تحقيق هذا الدمج؛ إذ يُمكنه تحمُّل الصرخات والرائحة النتِنة، ويعِد فيلوكتيتس بالأمل؛ فالآلهة تعرف أنه لا يمكنكَ الفوز إذا كنت تمتلك القوسَ فقَط دون الجُرح.

تنتهي أحداث المسرحية بتدخُّلٍ إلهي كُلي القدر على هيئة هرقل الذي كان يمتلك القوس في الأساس؛ حيث يظهر ويُوجِّه فيلوكتيتس نحو إدراكِ مصيره التاريخي، لكن الصراع النفسي بين الشخصيات من الواضحِ أنه كان قابلًا للحل؛ إذ يجد نيوبتوليموس طريقةً لعلاج فيلوكتيتس من سوداويته، وكذلك الحفاظ على التحكُّم والسيطرة على دفاع أوديسيوس الهَوَسي الذي لا يرحم.

لقد شَرحتُ فيما سبق كيف أن بحث «الحداد والسوداوية»، وأفكار فرويد اللاحقة بشأن موضوع السوداوية، يُقدِّم وصفًا ضمنيًّا لموقفٍ داخلي مُعقَّد للغاية؛ إذ يتضمن تماهياتٍ واستدماجاتٍ عديدة مع الأنا والموضوع (أو الموضوعات) المستدخل، من شأنها تغيير الأدوار والأوضاع الجغرافية داخل العقل، وكذلك في سيناريوهَين لكلٍّ منهما طابعٌ عاطفيٌّ مختلف تمامًا يتشابكان باستمرار: الأنا المظلمة بسبب سقوط ظل الموضوع عليها، والأنا التي تلتهم الموضوع بوحشية؛ فالحزن والشعور بالذنب في تأرجُحٍ مستمر مع الكراهية والشعور بالظلم. يمكن فهم الاكتئاب فقط إذا لم يَنسَ المرء الآليات الخاصة بهذه الحالات المتبادلةِ التأثير بعضها على بعض والتي تتسِم دومًا بكلية الوجود بدرجةٍ ما.

إن اكتشاف فرويد لآلية الاستدماج في «الحِداد والسوداوية»، والتي تقود إلى ترسيخِ مكانة الموضوع ككيانٍ منفصل في العالم الداخلي يُمكِن التماهي معه لاحقًا وكذلك الارتباط به بعدةِ طرقٍ مختلفة فيما بعدُ، لَهُو أحدُ أهم الاكتشافات في التحليل النفسي، كان من شأنه تغيير فهم وظيفة العقل بالكامل.

الفصل الثامن

«ما وراء مبدأ اللذة»

جيلبرت دياتكين

غالبًا ما تُعتبر نظرية الغرائز في التحليل النفسي اليوم نظريةً «بالية» نوعًا ما (ستاينر، ١٩٩٣، صفحة ٤٥). وقد حدث هذا التدهور في مكانتها بالتزامُن مع تضاؤل مكانةِ نظريةِ الغرائز الجنسية، ولكن لعل الانحدار الأكبر لها قد تزامَن مع انحدار نظريةِ غريزة الموت؛ ففي أدبيات التحليل النفسي الإنجليزية، لا يُشير إليها سوى اتجاهٍ واحد رئيس من الاتجاهات البارزة حاليًّا، وهو ذلك الاتجاه الذي يضم أتباع ميلاني كلاين. يرى وينيكوت، الذي كتب نصوصًا مهمة عن كلٍّ من الكراهية في التحويل المضاد والميول اللااجتماعية، أن «غريزة الموت ليست سوى إعادةِ تأكيدٍ على الخطيئة الأصلية» (وينيكوت، ١٩٧١، صفحة ٩٩). لا مكان لغريزة الموت في أعمال كوهوت، الذي ساعد كذلك على إثراءِ فهمنا للعدوانية بوصفها رَدَّ فعلٍ إزاء عيوبِ ونواقصِ الموضوعات الأَوَّلية، لا سيما عندما تتخذ شكل «غضب نرجسي» (كوهوت، ١٩٨٤، صفحة ٢٣٤). يبدو الأمر كما لو كان غالبية المُحلِّلين النفسيِّين قد بدءوا يقتنعون بالقرار الذي اتخذه هارتمان وكريس ولويونستين، بالإبقاء على عنصر الغريزة «العدوانية» فحسب من نظرية غريزة الموت، على الرغم من أن الاتجاه الفكري الذي يُروِّج له أولئك المُؤلِّفون، والذي يُعرف باسم «علم نفسِ الأنا» قد فقد تأثيره إلى حدٍّ كبير. ينتقد هارتمان وكريس ولويونستين مفهوم غريزة الموت؛ إذ يرونه مفهومًا لا يمكن إثباته تجريبيًّا ولا يساعد على كشفِ معرفةٍ جديدة (هارتمان وآخرون، ١٩٤٩، صفحة ١١). إن مُجرَّد قراءةِ أعمالِ أتباع ميلاني كلاين كفيلٌ بإظهار مدى إجحاف الانتقاد الثاني؛ فعلى العكس تمامًا من هذا الزعم، ثَمَّةَ سلسلةٌ كاملة من

التطوُّرات المُهمَّة في علم النفس تُعزَى إلى استخدام ميلاني كلاين لمفهوم غريزة الموت. وفي فرنسا أيضًا ساهم كتَّابٌ آخرون في الفكر التحليلي النفسي، مُتَّخذِين من غريزة الموت نقطة انطلاقٍ لهم. أمَّا الانتقاد الثاني، فيبدو تفنيده مهمةً أصعب؛ إذ إن قراءةً أُولى لكتاب «ما وراء مبدأ اللذة»، وهو النص الذي طَرحَ فرويد من خلاله غريزة الموت، من شأنها أن تُثير عددًا من الاعتبارات التي تبدو بالفعل منفصلة عن الممارسة العلاجية؛ ومن ثَمَّ تخرج عن نطاق خبرة المُحلِّلين النفسيِّين في الوقت الحالي.

أَودُّ أن أُوضِّح أن هذه القراءة الأُولى للنص مُضلِّلة جزئيًّا، وأننا إذا نظرنا إليه في سياقِ أعمالِ فرويد ككل، فسنجد أن غريزة الموت هي في الواقع مفهومٌ تحليلي «بحت». وسألجأ ها هنا أيضًا إلى أعمالِ كُتَّابٍ فرنسيين مُعاصِرين كمصدرٍ للنماذج والأمثلة.

(١) «ما وراء مبدأ اللذة»

ظل فرويد حتى عام ١٩٢٠ معتقدًا أن الغرائز الجنسية وغرائز الأنا تتحكم في الجهاز النفسي — الذي لا يحكمه إلا مبدأ اللذة ومبدأ الواقع الذي يُعتبر تجسيدًا له — الذي يسعى نحو الموضوعات نفسها لكن عَبْر عمليةٍ أطولَ وأكثرَ امتدادًا. وفي كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠) اقتنع بفكرة أن بعض الغرائز، على الأقل، لا تسعى نحو اللذة بل نحو الموت. كان تقديم غريزة الموت مدعومًا بعددٍ من الاعتبارات، وقد أَوضحَ فرويد أن بعضها لا يُشير إلى غريزة الموت بقدْر ما يُشير إلى غريزةٍ عدوانية، وأن اعتباراتٍ أخرى مُحددة بينها منفصلة تمامًا عن الخبرة التحليلية.

أولًا: تشير الحُجج الطبية التي طرحها فرويد إلى وجودِ عددٍ من الظواهر النابعة من التجربة التحليلية، لا يمكن تفسيرها باللجوء إلى أفضلية مبدأ اللذة. لكن فرويد يشرح تلك الظواهر من خلال الحاجة إلى السيطرة، لا من خلال تأثير غريزة الموت.

تنحصر وظيفة الأحلام الصادمة، على العكس من الأحلام العقابية التي أوضح فرويد أن ما يحكمها في النهاية هو مبدأ اللذة، في إعادة استنساخ الحدَث الصادم دون السعي كثيرًا لتعديله (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٣)؛ إذ يبدو أنها تسعى نحو توليدِ حالةِ استياء. وفي مُحاولةٍ منه لتفسير ذلك، يطرح فرويد فرضيةً تزعم أن تلك الأحلام تُعيد استنساخ الحدث كي تُؤهِّل الجهاز النفسي له، بما أن الصدمة نفسها (كونها غير مُتوقَّعة) قد فاجأَته (المصدر السابق، صفحة ٣٢).

بالمثل، يبدو في بعض الأحيان أن ألعاب الأطفال المُتكرِّرة، مثل لعبةٍ بكرة القطن (المصدر السابق، صفحة ١٣)، تسعى نحو استنساخِ تجربةٍ سيئة، ألا وهي تجربة الانفصال عن الموضوع (المصدر السابق، الصفحات ١٤–١٦)، لكننا نجد هنا أيضًا أن الهدف هو السيطرة على الموضوع، لا تدميره (المصدر السابق، صفحة ١٦).[١]

أثناء العلاج، تُؤدِّي الحاجة إلى التكرار إلى إعادة إنتاج التجارب الماضية الكريهة، التي يعمل بعضها بالطبع على إثارة استياء الأنا، بينما تظل في الوقت نفسه مصادر للذة بالنسبة للهو. ولكن تُوجد أيضًا تجاربُ أخرى لم تكن ممتعةً أبدًا بأي حال، مثل إحساس الأطفال بالدونية الجسدية، من المنظور الجنسي، مقارنةً بالبالغِين،[٢] يجد فرويد ها هنا دليلًا على وجودِ غرائزَ كانت نشطةً حتى قبل إرساء مبدأ اللذة. لكن في هذه المرحلة تختص تلك الغرائز «بالتحكُّم في الإثارة أو ربطها بشيءٍ آخر» (المصدر السابق، صفحة ٣٥).

أمَّا فيما يتعلق بـ «الأفكار القهرية بشأن القدَر»[٣] فلا سبيل أمامنا سوى تقبُّل وجودِ عنصر مصادفة، ولكن لا مكان لغريزة الموت هنا، وقد قدَّم فرويد تعريفًا لتلك الأفكار مناقضًا لنوع اضطرابات الشخصية العُصابية التي تدفع المرء إلى السعي حثيثًا نحو المصائب، مثل وقوع الكوارث التي «يبدو أن المرء يُعايشها على نحوٍ سلبي دون أن يتعرض لأي تأثيرٍ على الإطلاق».

ثانيًا: استَمدَّت جميع الحُجج الأخرى التي طرحها فرويد أساسها من عالم الفلسفة أو علم الأحياء.

إن مفهوم «اللذة» في حدِّ ذاته ينطوي على تناقضات (المصدر السابق، صفحة ٧)؛ فحتى هذه المرحلة، ظل فرويد معتقدًا أن اللذة تُضاهي تخفيفًا للتوتُّر النفسي. لكن كيف يمكن إقناعنا بأن اللذة القُصوى تتطابق، بناءً على ذلك، مع الغيابِ التامِّ للإثارة؟ وكيف لنا أن نُخفِق في إدراك أن اللذة الجنسية والمتعة البالغة لا بد بالضرورة أن تنطويا على مستوياتٍ عالية من الإثارة؟ يستعير فرويد مفهومه حول اللذة من التراث الفلسفي، على الرغم من إنكاره هذا، وعبر ذلك يُحيي جدالاتٍ بالغة القِدم.[٤] وعلى أي حال، لا تُساعد غريزة الموت على حل هذه المشكلة.

أَثبتَت بعض الأبحاث البيولوجية، مثل أبحاث جاك لوب على التناسُل لدى قنافذ البحر، أن زيادة الإثارة، أيًّا كان نوعها، تزيد التمايُز.[٥] وفي الوقت نفسه، كان الميل العام نحو الابتعاد عن التمايُز، فيما يُعرف بمبدأ نيرفانا، «أحد أقوى الأسباب التي تدفعنا نحو الإيمان بوجودِ غريزة الموت» (المصدر السابق، صفحة ٥٦). غير أن علم الأحياء يُقدِّم

أيضًا أدلةً تنفي وجود غريزة الموت، بل إن علماء الأحياء لا يتفقون على حتمية الموت؛ إذ يشير وايزمان إلى تمتُّع الجراثيمِ والكائناتِ الوحيدة الخلية بالخلود (المصدر السابق، الصفحات ٤٥-٤٦)، ما يعني انتفاء السبب الذي يدفعنا إلى افتراضِ ضرورةِ وجودِ ما يُدعى بغريزة الموت (المصدر السابق، صفحة ٤٦). إذا زعمنا عمومًا أن الهدف النهائي لأيِّ دافعٍ هو إعادةُ تأسيسِ حالةٍ سابقة،[٦] إذن فإن «هدف الحياة بأسرها هو الموت». والنتيجة الحتمية لهذا الافتراض هو أن «أفعال «غرائز الأنا» تتجه نحو الموت» (المصدر السابق، صفحة ٤٤). لكن غرائز الحفاظ على الذات هي جزء من غرائز الأنا تلك (المصدر السابق، صفحة ٤٤). لذا لا بد لنا أن ندرك أن هناك نوعَين منفصلَين من غرائز الأنا؛ بعضها قائمٌ على الشهوة الجنسية (مثل غرائز الحفاظ على الذات)، والأخرى تميل نحو الموت.

تَعرَّض فرويد للانتقاد بسبب الطبيعة التكهُّنية الخالصة لهذا الاستنتاج. لكنه ما إن وصل إلى هذه النقطة في تفسيره، حتى أشار إلى ظاهرةٍ إكلينيكية ذاتِ أهميةٍ بالغة، وكانت حتى ذلك الوقت تُعد لغزًا، ألا وهي السادية.[٧] من المستحيل تمامًا السعي نحو فهم السادية من منظور الدوافع الجنسية وحدها، أو غرائز الحفاظ على الذات؛ إذ يتطلب فهم السادية الاعتراف بوجود دافع تدميري داخل النفس.

من بين جميع الحُجج التي طَرحَها فرويد في كتابه «ما وراء مبدأ اللذة»، نجد أن هذه الحُجة هي الوحيدة التي تعتمد حقًّا على فرضية غريزة الموت. غير أن فرويد نفسه لم يكن راضيًا كل الرضا عن هذا البرهان الذي طرحه؛ إذ يراه «مُبهمًا»، وبعيدًا كل البعد عن الوضوح. وهذا يُعيدنا، في الحقيقة، إلى موضوع المازوخية، وما إذا كانت السادية أم المازوخية هي الظاهرة الأصلية.[٨]

(٢) غريزة الموت قبل نشر «ما وراء مبدأ اللذة»

مع حلول عام ١٩٢٠ كان فرويد قد قضى وقتًا ليس بالقليل في جمع الحُجج اللازمة لطرح نظريةٍ جديدة حول الغرائز.

أولًا: كانت نظرية التحضُّر التي دافع عنها فرويد منذ ميلادِ منهج التحليل النفسي قد تَلقَّت ضربةً قاصمة مع نشوب الحرب العالمية الأولى؛ فبين عشيةٍ وضُحاها صار تصديقُ نظريةٍ تدَّعي أن البشرية يحكمها مبدأ اللذة بعد أربع سنوات من الحرب ضربًا

من المستحيل! وقد عَبَّر فرويد عن هذا الاستنتاج المليء بالمرارة في مقاله «أفكار لأزمنة الحرب والموت»، الذي نُشر قبل عامٍ من تأليفه كتاب «ما وراء مبدأ اللذة».

ثانيًا: يتضمن بحث «الحِداد والسوداوية»، الذي كتبه في عام ١٩١٤، وصفًا مدهشًا للسادية الموجهة نحو الموضوع المُستدخل؛[٩] فما دام مفهوم غريزة الموت مُبهمًا، لا يتوقف فرويد عن الكفاح من أجل تفسير أصوله. صحيحٌ أن مفهوم «الازدواجية» الذي طرحه بليولر يصف هذه الظاهرة (فرويد، ١٩١٤، الصفحات ٢٥٠–٢٥١)، لكنه لا يُفسِّر لماذا تنطوي علاقات الحب على مشاعرَ مُزدوجة، أو كيف يُمكن أن تَتحوَّل الكراهية إلى سادية. وسيتحدث فرويد في العام التالي (١٩١٥) عن إحدى الأفكار المحورية وراء مفهوم غريزة الموت، وهي فكرةُ انصهارِ الغرائز، وذلك في مقاله «الغرائز وتقلُّباتها» (فرويد ١٩١٥أ، صفحة ١٣٩).[١٠]

ثالثًا: في سياق العلاج، لاحظ فرويد احتماليةَ أن تكون الحاجة إلى التَّكرار لا تعمل كآلية للتذكُّر، بل تُستخدم لإشباع الحاجة إلى المعاناة، منذ نشر دراسة رجل الذئاب.

لماذا إذن لم يَستفِد فرويد من تلك الحُجج إلا قليلًا جدًّا في كتاب «ما وراء مبدأ اللذة»؟ ربما لأنه كره فكرة الرجوع عن الاستنتاج الذي تَوصَّل إليه في حالة هانز الصغير، الذي عارَض فيه على الملأ زعم أدلر بوجودِ غريزةٍ عدوانية. لكن السبب الرئيس على الأرجح هو أن تطوُّر النظريات يستغرق وقتًا ليس إلَّا. وقد اكتمل مفهومُ غريزة الموت تدريجيًّا منذ طرحِه في كتاب «ما وراء مبدأ اللذة» وأصبح يُغطِّي مجالًا أوسع على مدى باقي أعمالِ فرويد.

(٣) غريزة الموت في أعمال فرويد بعد عام ١٩٢٠

أولًا: إن وجود غريزةٍ عدوانية أَوَّلية أمرٌ منفصل عن الدراسة التحليلية النفسية للظواهر الاجتماعية؛ ففي سياق الأفكار التي بدأ فرويد طرحها في «الطوطم والتابو»، ثم «أفكار لأزمنة الحرب والموت»، يُصرِّح كتاب «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» (الذي نُشر عام ١٩٢١، عقب «ما وراء مبدأ اللذة» مباشرة) أن العدائية الكامنة في جميع العلاقات بين الأشخاص تكشف عن نزوعٍ بشري نحو الكراهية، وعن عدوانية «أصولُها غيرُ معلومة لدينا ويمكن أن نُسنِد إليها طبيعةً أولية» (فرويد، ١٩٢١، صفحة ١٠٢). وفي كتاب «قلق الحضارة» (١٩٢٩)، يُطوِّر أفكاره حول هذا الدور الذي تلعبه العدوانية في العلاقات الاجتماعية إلى حدٍّ بعيد،[١١] زاعمًا أن العدائية بين الأفراد هي ظاهرةٌ أولية تُهدِّد الحضارة.

ويُعاوِد هذا الموضوع الظهور في مقال «لِمَ تقع الحرب؟» (١٩٣٣)، ويحتل مكانةً مركزية في «موسى والتوحيد» (١٩٣٩). يجدُر بنا أن نُلاحظ أن في كتاب «قلق الحضارة»، يتحدث فرويد عن «غريزةٍ عدوانية» فحسب، دون أن يذكر أبدًا مصطلح «غريزة الموت»، وكأنَّ كتاب «قلق الحضارة» قد أصبح فيما بعدُ نقطةً مرجعية لعلم نفسِ الأنا.

ثانيًا: ومن منظورٍ إكلينيكي أكثرَ مباشرة، تُعد هذه الظواهر هي الأكثر صمودًا في التحليل، لا سيما ظواهر التفاعُل العلاجي السلبي، التي وصفها فرويد في كتاب «الأنا والهو»، بعد عامَين من نشر كتابِ «ما وراء مبدأ اللذة»، وقادته إلى تفسير الازدواجية باعتبارها نتيجةً لانفصال الدوافع الجنسية عن غريزة الموت (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٤١).

ثالثًا: يرجع التفاعُل العلاجي السلبي في النهاية إلى مشاعر الذنب غير الواعية؛ ومن ثَمَّ إلى المازوخية الأخلاقية. في كتاب «الإشكالية الاقتصادية للمازوخية» (١٩٢٤)، اكتشف فرويد أن الطبيعة المثيرة للشهوة الجنسية التي تتسم بها المازوخية تُقدِّم تفسيرًا أفضل من الإثارة الجنسية (فرويد، ١٩٢٤، صفحة ١٦١)؛ فالمازوخية الأَوَّلية ذاتُ طبيعةٍ مثيرة للشهوة الجنسية؛ لأنها تربط غريزة الموت بالشهوة الجنسية. ويربط هذا الاتحاد غريزة الموت بدواخل الكائن الحي ويُحوِّلها إلى الخارج كنوع من العدوانية.[١٢] وتُعد تلك الصيغة هي نقطة الانطلاق لمفهومِ ميلاني كلاين عن غريزة الموت.

(٤) المحللون النفسيون الناطقون بالفرنسية

لعِب كل من هارتمان ولويونستين، تحديدًا، أدوارًا محورية في ظهور المُحلِّلِين النفسيِّين الفرنسيِّين قبل عام ١٩٣٩؛ ومن ثَمَّ فلا غرابةَ في أن المُحلِّلِين النفسيِّين الأوائل قد أجمعوا على نحوٍ غيرِ معهود على رفضِ فرضيةِ غريزة الموت. ففي المؤتمر الحادي عشر للمُحلِّلين النفسيِّين في الدول الفرانكوفونية، عام ١٩٤٨، قدَّم ناخت دحضًا قاطعًا للنظرية،[١٣] بينما رأى لاكان أنها السبب في الطريق المسدود الذي بلغه فرويد،[١٤] سوف يتباعد تفكير هذَين المؤسِّسَين لمدرسة التحليل النفسي الفرنسية في جميع الأمور الأخرى، ليبلغ هذا التباعُد ذروته عام ١٩٥٣ بانفصالٍ تام، لكن بِغَض النظر عن الاختلافات بينهما، فقد ظلَّا على رفضهما لفرضيةِ غريزة الموت.

بالطبع زعم لاكان في بعض الفترات أنه يقبل غريزة الموت،[١٥] لكنه غالبًا ما كان يتعامل مع الموت والغرائز على نحوٍ منفصل تمامًا؛ فكان يُصرِّح بأشياء غامضةٍ وصادمة حول الموت، لا سيما في مرحلة اعتناقه لفكر الفلاسفة هيجل وهايدجر، أمَّا فيما يتعلق

بالغرائز، فكان يسعى نحو «تفكيكها». لا تنشأ الغرائز في جسد الفرد (ولهذا السبب أصر على ترجمة كلمة غريزة بالألمانية Trieb إلى كلمة Pulsion بالفرنسية التي تعني دافع لا غريزة؛ انظر على سبيل المثال لاكان، ١٩٦٠، صفحة ٨٠٣؛ ١٩٦٤، صفحة ٨٣٤؛ ١٩٧٤، صفحة ٤٢)، بل في جسد الآخر؛ أي الأُم. وبعدما انتهى لاكان من تحليله لمفهوم فرويد عن غريزة الموت، لم يَتبقَّ شيء من المفهوم الأصلي. كان لاكان أكثر وضوحًا في نقده للمحلِّلِين النفسيِّين الناطقِين بالإنجليزية؛ إذ اتهم ميلاني كلاين أنها تتعامل مع بعض الأشياء على أنها حقائقُ نفسية، بينما يرى هو أن قيمتها تنحصر فقط في كونها تشكيلاتٍ «خيالية». في غضون ذلك، اتُّهِم هارتمان بخيانةِ فرويد بعودته إلى علمِ نفسِ ما قبل التحليل النفسي، وتحويل التحليل النفسي إلى نوعٍ من البيداجوجيا.

في قلب جمعية باريس للتحليل النفسي، التي كان ناخْت مهيمنًا عليها وغادرها لاكان، أُعيد طرح فرضيةِ غريزة الموت تدريجيًّا، وكانت البداية ببعض الأصوات الهامشية،[١٦] وعلى مدى عشرين عامًا عُقِدَت المؤتمرات والندوات العلمية لمناقشة غريزة الموت،[١٧] واليوم، وعلى الرغم من وجودِ عددٍ من المُعارضِين المُفوَّهِين لغريزة الموت، يبدو المُؤيِّدون لها أغلبيةً مدعومة بمجموعةٍ كبيرة للغاية من التجارب السريرية، لكنها تجاربُ كَشفَت تفسيراتها عن الدور المحوري الذي يلعبه مفهوم غريزة الموت. وسأنتقل الآن إلى عرضِ بعضٍ من الأبحاث الفرنسية التي أثبتت أن غريزة الموت أداةٌ إكلينيكيةٌ قيِّمة.

(٥) أندريه جرين: النزعة التدميرية في حالاتِ اضطراب الشخصية الحدِّية

طالما كان أندريه جرين مهتمًّا بفئة معينة من مرضى اضطراب الشخصية الحدية،[١٨] ممن يُقدِّمون أنفسهم في البداية كمرضى رُهاب. غالبًا ما يكون من الصعب الاستماع إلى أولئك المرضى؛ إذ يميلون إلى التحدُّث بعباراتٍ عامة فقط،[١٩] ويمكن فهم الطبيعة الدقيقة لمرضهم على نحوٍ أسهل إذا قارنتَ ما يقولونه في الجلسات بالوظائف الترابُطية المعتادة لدى المرضى الآخرِين. في المعتاد تنتقل حركة المريض الترابُطية عَبْر شبكاتٍ مختلفة ومُتنوِّعة، صُمِّمَت من خلال نشاطِ عمليات المُقاوَمة والإزاحة. وبين الحين والآخر سيتبين لأي مُحلِّلٍ يقظ ظهور تشكيلاتٍ تنتمي إلى زمانياتٍ متعددة، وهي تشكيلات «ترتد» (جرين، «انكسار الزمن»، ٢٠٠٠ب)، متبعة اتجاهًا تقدُّميًّا (إعلانًا مسبقًا) ورجعيًّا (ارتدادًا رجعيًّا) على حدٍّ سواء. تُتيح لنا تلك التشكيلات ملاحظة النمط الذي يتبعه ترتيب المادة؛ ومن ثَمَّ تفتح الطريق نحو إيجادِ تفسير (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٥٩). غير أن هذه العُقدة لدى

هذا النوع من المرضى تختفي مؤقتًا ويُصبِح حديثهم أكثر وضوحًا بكثير،[٢٠] وهم عندما يتحدثون، إنما يهربون — دون إدراكٍ لماهيةِ ما يخشَونه أو ما يُعانون منه، ودون أيِّ شعورٍ بالفزع — من قلقٍ ليس له موضوع (المصدر السابق، صفحة ١٥١). ويتحول هذا الرُّهاب في النهاية إلى «كبحٍ شامل للأنا، يُقيِّدها في عزلةٍ تزدادُ أهميتها أكثرَ وأكثر» (المصدر السابق، صفحة ١٥٠). في البداية قد يُدفع المرء نحو الاعتقاد بأن مرضى الرُّهاب أولئك يُعانون من نوعٍ من الكبت الشديد الفاعلية، كما لو كانوا يهربون من موضوعٍ اضطهاديٍّ يتم إسقاطه على المُحلِّل، ويُشعِرهم أنهم مُحاصَرون بداخله. لكن هذا الرُّهاب مرتبطٌ بالوظيفة التحليلية نفسها؛[٢١] إنه مسألةُ رغبةٍ في الهروب من الخضوع للفحص، الذي يُهدِّد بإحداث انفصالٍ بين الفرد والموضوع. والحل الوحيد المُتاح هو الكبتُ التامُّ للقدرة على الفهم. تختلف المُراوَغات التي تحدُث أثناء الجلسات عن تلك التي تحدُث في إطار السلوك العادي، لكنها تنبثق من مصدرٍ واحد، وهو اضطراب التفكير (المصدر السابق، الصفحة ١٥١). يبدو الأمر كما لو كان المريض يتوقَّع على نحوٍ غيرِ واعٍ أن سلسلة التداعيات الخاصة به قد تُؤدِّي إلى مرحلةٍ حاسمة قد تقع فيها كارثةٌ ما،[٢٢] في هذه المرحلة، يجد المريض أن العناصر الأهم في حياته النفسية قد أَصبحَت جميعًا على اتصالِ بعضها ببعض، ما يُؤدِّي بها إلى ربط نفسها بمجموعةٍ من الصدمات الخطيرة من الماضي،[٢٣] إن الأمر لا يعدو بِضعَ موضوعاتٍ وأفكار، مرتبطة بالصدمات، تُمكِّن بعضها بعضًا وتتوافق بعضها مع بعض (مثلما يحدث في الفيزياء عندما يمكن خلقُ قدْرٍ كبير من الحركة في أجسامٍ مختلفة عبر تعريضها إلى ذبذباتٍ لها الطول الموجي نفسه قد تُؤدِّي إلى انهيارها).[٢٤] إن ما يجعل من تَكَتل هذه الموضوعات أمرًا في غاية الخطورة هو ارتباطها بآلياتِ التنظيم الرئيسة للحياة النفسية، التي قد يُؤدِّي تدميرها المُتبادَل إلى فوضى؛[٢٥] فالارتباط بين تلك الموضوعات هو ما يشكل الصدمة الحقيقية،[٢٦] أمَّا «الوضع الرُّهابي المركزي» فهو نظامٌ يُكافِح لأجل الحيلولة دون حدوث هذا التوافُق. وتُشير كلمة «مركزي» في تعبير «الوضع الرُّهابي المركزي» إلى تقاطُعِ مجالاتِ قُوًى عدة.

لِمَ ينتج عن هذا التقارُب عواقبُ كارثية؟ لأنه يتسبب في «إدراك الفرد لغضبه العارم، وحسده، وفوق ذلك نزعته التدميرية» (المصدر السابق، صفحة ١٧٢). وهذه النزعة التدميرية تُوجَّه في المقام الأول نحو تمثيل الموضوع،[٢٧] وتُصاحبها مشاعر الذنب،[٢٨] دون أيِّ تمثيلٍ للموضوع «القتيل»،[٢٩] الذي قد لا تجمعه أي علاقةٍ بالأحكام «المُؤكِّدة أو النافية لامتلاكه سمةً مُعيَّنة، ولا بالأحكام المُؤكِّدة أو المُشكِّكة لامتلاك تمثيلٍ ما وجودًا على

أرض الواقع»،[٣٠] إن شعورَ عدمِ الواقعية الذي غالبًا ما يختبره أولئك الأفراد هو نتاجٌ لارتدادِ قتلِ الموضوعِ الرئيس على الفرد نفسه،[٣١] ما يُسفِر عنه معايشة الفرد هلوسةً سلبيةً عن نفسه، تتَّسِم بكونها غيرَ مُعترَفٍ بها أكثر من كونها غيرَ مُدرَكة (المصدر السابق، صفحة ١٧١).

يرى جرين هذه النزعة التدميرية باعتبارها مظهرًا من مظاهر نشاط غريزة الموت داخل الكائن الحي،[٣٢] وما الوضع الرُّهابي المركزي إلا أحد هذه المظاهر المَرَضية للنزعة التدميرية. ويتضح كذلك عَبْر «وظيفة محو الموضوع»، التي تُشير إلى قدرة العُدوانية على تحويل الموضوع إلى شيء، والتي تُفسِّر اللامبالاة التي يشعر بها المجرم تجاه ضَحيَّته (المصدر السابق، صفحة ١٧٩)؛ أو التي تُؤدِّي في «نرجسية الموت» إلى تدمير الفرد لذاته (المصدر السابق، صفحة ١٨١). على النقيض من ذلك، تُشكِّل النزعة التدميرية جزءًا من مجموعةٍ أكبر كثيرًا؛ وهي المجموعة «السالبة»، التي تتضمن أنواعًا أخرى من السلبية؛ مثل الكبت (المصدر السابق، صفحة ١٨٣).

لهذا الدور الذي نسبه جرين إلى غريزة الموت في حالاتِ اضطرابِ الشخصية الحدِّية تداعياتٌ عملية مهمة، بما أن «غريزة الموت يمكن ربطها عبْر تجربةِ التحويل» (المصدر السابق، صفحة ١٧٤) باستخدام نوعٍ مُعين من التدخل العلاجي.[٣٣]

(٦) بيير مارتي: تحركات الموت في الأعراض السايكوسوماتية

تعامَل بيير مارتي مع أنماطٍ من النشاط العقلي أكثرُ غرابةً من حالاتِ اضطراب الشخصية الحدِّية التي وصفها جرين (مارتي وآخرون، ١٩٦٣). كان المرضى الذين تعامَل معهم قد قدِموا إلى المستشفى بسبب أمراضٍ عضوية، لكن الطبيب أو الجرَّاح الذي كان يتولى علاجهم قرَّر استشارةَ مُحلِّلٍ نفسي بعدما أثار اهتمامَه الأصلُ النفسي المُحتمَل لبعض أعراضهم. ومع عدمِ وجودِ أعراضٍ عصبية، لم يشكُ أولئك المرضَى من أيِّ عللٍ غير المرض المُحدَّد الذي قدِموا به، واندهشوا عندما طلب منهم مقابلة طبيبٍ نفسي. وعَبْر التعليقات التي أبدَوها ما إن شعروا بالارتياح تجاه مُحدِّثهم، تكيَّفَت أفكارهم على نحوٍ مثالي مع الواقع كما يدركه أي فردٍ طبيعي؛ فهم يصفون أحداثًا وحقائقَ دون أن يشير حديثهم بأيِّ شكل إلى وجود اللاوعي لديهم. لم يحدث قطُّ أنْ زلَّتْ ألسنتهم أو كانت لكلماتهم أي معانٍ مزدوجة، ولم يحلُموا، وإذا حلموا كانوا يعجزون عن جلبِ أيِّ روابطَ لأحلامهم. وبينما كان حديث المرضى الذي وصفهم جرين خطيًّا ومباشرًا، ولكنه مُبهَم ومُشوَّه بسبب

مراوغة الوضع الرُّهابي المركزي، لم يعكس حديثُ مرضى مارتي أيَّ تَشوُّهاتٍ من أي نوع، بل كانت أفكارهم مُحدَّدةً وخالية من الغموض مثلَ لغةِ كتابٍ إرشادي، أو تقريرِ جرَّاحٍ عقب إجرائه عمليةً جراحية، وهو ما يُعرف باسم «التفكير الإجرائي» (مارتي وآخرون، ١٩٦٣). لا يبدو التفكير الإجرائي واضحًا في كل حالات الأعراض النفسية الجسدية، ويمكن كذلك ملاحظته دون وجودِ أيِّ ارتباطٍ جسدي (ماكدوجال، ١٩٧٢)، لكن التلازُم بين التفكير الإجرائي والمرض النفسي الجسدي وثيقٌ بما يكفي للتوجُّه نحو إجراءِ قدْرٍ من الأبحاث حول هذا الموضوع. إلى جانب التفكير الإجرائي الذي يُعتبر نمطًا وجوديًّا راسخًا، وصف مارتي كذلك نمطًا آخر مميزًا للنشاط الوظيفي العقلي، ألا وهو «الاكتئاب الأساسي» الذي يتألف من حالةِ كآبةٍ غيرِ مصحوبةٍ بأيٍّ من علامات الاكتئاب المعتادة بالمعنى النفسي للكلمة، لكنها تتسم بنوعٍ من الفتور وفقدان الإحساس بأن الحياة تستحق أن تُعاش، وفقدان الاهتمام بالمستقبل والماضي، وغالبًا ما يعقب ذلك مرضٌ عضوي (مارتي ١٩٦٦). يُعتبر الاكتئاب الأساسي والتفكير الإجرائي جانبَين من جوانب «النشاط الوظيفي النفسي نفسه، الذي يتميز بقدرته المُذهِلة على التكيُّف مع الواقع الجمعي»؛ أي وهو «النشاط الوظيفي الإجرائي» (سمادجا، ٢٠٠١). ويُعد التفكير الإجرائي والاكتئاب الأساسي نتيجتَين من نتائجِ نشاطِ الآلة التدميرية لـ «غرائز الموت» في الجهار النفسي.

أسفر اكتشاف مارتي عن نتائجَ متعددة؛ فقد طُورت أفكاره على يدِ دارسي أعماله في فرنسا وأماكنَ أخرى، الذين توصَّلوا بدورهم إلى اكتشافاتٍ طبية أخرى؛ مثل وصف عملياتِ التهدئة الذاتية على يد شفيتز (١٩٩٣، ١٩٩٨) وسمادجا (١٩٩٣). والأهم من ذلك أنهم طوَّروا تقنيةً نفسيةً علاجية قائمة على منهج التحليل النفسي جرى تعديلُها من أجل استخدامها على أولئك المرضى الذين غالبًا ما يتعذر تحليلهم نفسيًّا باستخدام المنهج التقليدي، وهي تقنيةٌ قادرة على أن تُؤدِّي إلى نظامٍ جديد للأداء الوظيفي العقلي وإحداث تحوُّلٍ في الحالة الجسمانية للمريض.

(٧) دينيس ريبا: انفصال الغرائز لدى الأطفال المصابين بالتوحد

يُدير دينيس ريبا منذ فترةٍ مُستشفًى نهاريًّا لعلاج الأطفال المصابِين بالتوحُّد، ويرى أن من الصعب فهم هؤلاء الأطفال دون الالتجاء إلى مفهوم غريزة الموت (ريبا، ٢٠٠٢، صفحة ١٣٤)، وتحديدًا فكرة «انفصال الغرائز» (المصدر السابق، صفحة ١٤٣)، ويرى أن الوجود المشترك لكلٍّ من «العناصر المُميتة» و«التجلِّيَات المُبهِرة للحياة والجنسانية»

لدى الأطفال هو تعبيرٌ عن «انفصالٍ بالغِ التطوِر للغرائز» (المصدر السابق، الصفحات ١٥٩–١٦٢). اهتَمَّ معظم من درَسوا انفصال الغرائز بنتيجته الأكثر إثارة؛ ألا وهي تحرير غريزة الموت. غير أن ما يُميز ريبا هو تركيزه على تحرير غريزة الحياة، وهو الأمر الذي من شأنه أن يطرح سؤالًا صعبًا؛ نظرًا لميل غريزة الحياة نحو الاندماج والانصهار. كيف يمكن أن «تنفصل»؟ بالرغم من ذلك فإن فرضيةَ انفصال غريزة الحياة تأخذ في الاعتبار — على نحوٍ ملائمٍ نسبيًّا — عنصرًا مهمًّا من عناصر التوحُّد، تصفه إستر بيك وميلتسر وآخرون، ألا وهو التماهي الالتصاقي. إن فرضيةَ غريزةِ الحياة المنفصلة تحديدًا هي أفضل ما يُفسِّر «الالتصاق المُطلَق الذي يُتيح تجربة وجود، لكنه يجعل الانفصال يُعادِل انتزاع جزءٍ من الذات ويتسبَّب في فقدان الإحساس بالوجود» (المصدر السابق، صفحة ١٦١). (وعلى الرغم من اختلاف ريباس مع وينيكوت حول غريزة الموت، فإنه يُولي أهميةً كبرى لما كتبه وينيكوت حول الوجود والعنصر الأنثوي الخالص؛ ومن ثَمَّ تلك الإشارة إلى «الوجود»، وإلى «اللاوجود» الذي يُميِّز من يُعانون من التوحُّد عندما يُسلب منهم موضوعهم التوحدي.)[٣٤] يذكُر ريبا عدةَ فرضياتٍ حول طبيعة العملية التي يُطلِقها انفصال الغرائز عادةً، أبرزُها فرضيات بيك حول دور حَلمةِ الثدي المرتبط بـ «الإمساك»، لكنه يُصنِّفها تحت عنوانٍ عام وهو التماهي الأَوَّلي مع الأم (المصدر السابق، صفحة ١٨٠). وهذا الانفصال في الغرائز إنما ينتُج عن اختلالٍ في العلاقة الأَوَّلية بين الأم والطفل؛ ومن ثَمَّ في التماهي الأَوَّلي.

(٨) كلود بالييه: انفصال الغرائز لدى القتلة والمُغتصبِين

كلود بالييه هو عضوٌ في جمعية باريس للتحليل النفسي، قضى عشر سنواتٍ يعمل في أحد السجون؛ حيث استخدم منهجًا مُستوحًى من التحليل النفسي لعلاج المُجرمِين الخطرِين، ومُرتكبي جرائمِ القتل أو الاغتصاب (بالييه، ١٩٨٨، ١٩٩٦). تُبرز التقارير حول منهجه العلاجي بجلاءٍ اعتقادَه أن عدوانية مرضاه المُريعة هي نتاجٌ لانفصال دوافعهم. لا يحدث هذا في جميع الأحوال، لكن في الحالات المَرَضية القصوى قد يُحرِّر المرضى ما لديهم من توتُّرٍ نفسي في شكلِ عدوانيةٍ نحو أنفسهم، أو نحو الآخرِين، أو، في أفضل الأحوال، نحو أجسامٍ جامدة. في مثل هذه الحالات، تبدو الحياة العقلية شبه غائبةٍ تمامًا، ويبدو أن ملكات التفكير والخيال قد طُمِسَت هي الأخرى. وفي ظل الظروف المحكمة في السجن، قد يكون بالإمكان الاضطلاع بعملٍ جماعي قد تَتطوَّر في القلب منه علاقةٌ مع شخصٍ

آخر (بالييه، ١٩٨٨، صفحة ١٩٢)؛ فتبدأ بنًى نفسية، بعضها عتيق والبعض الآخر أكثر تعقيدًا، في الوجود جنبًا إلى جنب مع جوانب الشخصية حيث تكتسب العدوانية الحُرة أهميةً تفوق ما تكتسبه العدوانية المرتبطة بالغريزة الجنسية أو الليبيدو، وغالبًا ما يمكن أن يُؤدِّي انفصالٌ في الأنا وإنكار للواقع موازيان لهذا الوجود المشترك إلى تشكيلاتٍ منحرفة (يصفها بالييه على نحوٍ مذهل)، فيها تبدأ الليبيدو في ربطِ غريزة الموت بصميم السادية والمازوخية (المصدر السابق، صفحة ١٩٣). أمَّا في حالة الاغتصاب — ويا للمفارقة! — فيكون الرابط الذي أنشأته الليبيدو مع غريزة الموت أضعفَ بكثير. «الاغتصاب عمليًّا مساوٍ للقتل» (المصدر السابق، صفحة ١٩٤؛ شُرحت هذه النقطة المهمة بالتفصيل في كتابه الصادر عام ١٩٩٦، الفصل الرابع).

لم يكن عمل بالييه، على النقيض من عمل الكثير من رُواد التحليل النفسي الجنائي، تجربةً فريدة من نوعها؛ فالوحدة النفسية التي تُتيح القيام بذلك، والعمل الجماعي الأساسي، والتوازُن الدقيق للعلاقات بين الفريق العلاجي والحُراس، كلها عناصر يمكن استنساخها في سجونٍ أخرى، ما أتاح لآخرِين استكمالَ عمل بالييه بعد تقاعُده.

(٩) باتريك ديكليرك: المازوخية لدى المُشرَّدِين

أظهر لنا المُجرمون الذين تعامل بالييه معهم العدوانية ونشاط غريزة الموت خارج الكائن الحي. وقد كتب عضوٌ آخر من أعضاء جمعية باريس للتحليل النفسي، وهو باتريك ديكليرك، توصيفاتٍ مذهلة للنزعة التدميرية ولنشاط غريزة الموت داخل شخصيات المُتشرِّدِين؛ إذ يُقدِّم أبحاثًا إكلينيكية تتناول مُشرَّدِي باريس على مدى خمسة عشر عامًا، كتبها من وجهة نظرِ مُتخصِّصٍ في وصف الأعراق البشرية، ثم لاحقًا، في الأعوام من ١٩٨٦ إلى ١٩٩٧، من منظورِ استشاريٍّ ومعالجٍ نفسي؛ فبحكم تخصص ديكليرك في الأعراق البشرية، تمكَّن من مشاركة هؤلاء المُشرَّدِين حياتهم؛ فقضى ليالي في ملاجئ المُشرَّدِين، وترك الشرطة تعتقله واحتُجز في نُزُلٍ في مدينة نانتير كان مُخصَّصًا للمُشرَّدِين. وتعايش مع السلوكيات الجنسية المنحرفة، والعدوانية، وانعدام الأمان، والإرهاق، وانفلات الشهوات الجنسية لدى رفاق الاستحمام والنوم.

لكن ديكليرك يصف كذلك محاولاتٍ قام بها مُحلِّلون نفسيون ممن تُبيِّن تحليلات أعمالهم وجودًا واضحًا للغاية لغريزة الموت، ما يُفسِّر الصعوبة التعجيزية لمثل هذا العمل،

التي تُماثل ما يُواجه أيًّا من العاملين في الخدمة الاجتماعية؛ فبعد فترة من السلام الخادع، يجد المُعالِج نفسه تائهًا في عالمٍ غيرِ مترابط، عالم بلا سببية، بلا معالمَ زمنية-مكانية؛ حيث كل شيءٍ يحدث كما لو كانت جميع العضلات العاصرة لدى الفرد قد فَقدَت قوتها. يحدث انقسام في الموضوع يُؤدِّي إلى إضفاء طابعٍ مثالي على المُعالِج (ومُقدِّمي الرعاية بوجهٍ عام) في البداية، بالضبط مثلما يُضفون الطابع المثالي على عميلهم، وفي الوقت نفسه يظل هناك موضوعٌ اضطهادي بعيدًا خارج العلاقة. وبعد بضعةِ أشهُر، تنعكس الأدوار؛ فيُخيِّب المتشرد آمال المُعالِج أولًا، وتتحول العلاقة ذات الطابع المثالي إلى علاقةٍ اضطهادية، تنتهي على أفضلِ حالٍ باستبعاد المريض من منظومة الرعاية التي استوعَبَته في البداية، وفي أسوأ الأحوال، تنتهي بعواقبَ أخطرَ من ذلك بمراحل. إن هذا «الاستحواذ الشرجي» (ديكليرك، ٢٠٠١، صفحة ٣١١) هو السمة التي يجدها ديكليرك لدى المُشرَّدِين في الغالب الأعم، يُصاحبها شكلٌ متطرف من المازوخية؛ حيث لا يُمارس «المُنقِذ» وظيفته إلا والفرد على شفا الموت. إن النظر إلى غريزة الموت بتلك الطريقة يؤدي إلى اعتباراتٍ عملية مهمة؛ فبدلًا من أن يُبدِّد مقدمو الرعاية والأخصائيون الاجتماعيون طاقتهم على برامج «إعادة توظيف المُتشرِّدِين» المحكوم عليها بالفشل (التي قد يترتب عليها عواقبُ قاتلة بالنسبة إلى المريض، كما اتضح من خلال بعض الحالات التي عرضها ديكليرك)، ينبغي عليهم، حسب ديكليرك، مرافقةُ المريض مع الحفاظ على مستوى التطلُّب الأمثل والأكثر توافُقًا مع مازوخيته.

(١٠) التعصُّب والمذابح وانفصال الغرائز

بحسب ما لاحظه أندريه (١٩٩٩، الصفحات ٣٢٥–٣٢٧)، لا يحتاج المُحلِّل إلى المخاطرة بزيارة السجون وملاجئ المُشرَّدِين للعثور على غريزة الموت؛ فكلُّ ما عليه فعله هو فتح جهاز التليفزيون في الفترات الفاصلة بين جلسات التحليل النفسي، مثلما فعل معظمنا يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ فهل من مثالٍ أكثر ترويعًا لغريزة الموت المنفصلة من اصطدام طائرتَين، يقودهما انتحاريان، عمدًا بمركز التجارة العالمي؟ إن انفصال الغرائز يبدو كاملًا متكاملًا في المذابح التي تقضي على أعدادٍ كبيرة من الناس، وفي التعصُّب الذي نراه كلَّ ليلةٍ في نشرات الأخبار على شاشة التليفزيون. لكن في واقع الأمر أن الانفصال هنا ليس كاملًا؛ لأن حياكة مؤامرةٍ شيطانية كمؤامرةِ تدميرِ بُرجَي التجارة العالمي تتطلب قطعًا

طاقةً جنسية؛ فحتى شخصيةٌ عملية شريرة كشخصيةِ أيخمان احتاجت إلى استثمار بعض الطاقة الجنسية في جوانب عملها التنظيمي. وعلى الرغم من أن فهم تلك المآسي من اختصاص علم الاجتماع، والتاريخ، والسياسة أولًا وأخيرًا، فإن المفهوم التحليلي النفسي لغريزة الموت يُمكنه الإسهام في هذا.

بدايةً من أفكار فرويد حول الحرب العالمية الأُولى، وما طرحه من أسئلةٍ حول نرجسية الفروق الصغيرة، سَعيتُ نحو تحديد الآليات النرجسية التي عادةً ما تُسبِّب العدوانية بين الجماعات، ولماذا تتمتع تلك الفروق الصغيرة بين مجموعتَين بهذه القدرة التدميرية العظيمة (دياتكين، ٢٠٠٠). يبدو لي في الغالب أن تلك «الفروق الصغيرة» تُعيدنا إلى إنجازات الطفل الأُولى. إن تلك الإنجازات يفترض أن تحدث وفقًا لصيغٍ مثالية معينة؛ أي الصيغة الخاصة بالعائلة، والتي تُتيح للأم إخبار ابنها أنه ينتمي بالفعل إلى هذه العائلة؛ أي إنه ينحدر من سلالةٍ مثالية ويُفترض أنها فريدة من نوعها، هي التي أسَّسَت تلك العائلة. وهذا التماهي مع أولئك الأسلاف المثاليِّين هو البذرة التي يخرج منها المَثل الأعلى للأنا لدى الفرد. وهذا التخيل النرجسي، الذي تتشاركه الأم والطفل حال قبول الأخير السلوك الجسدي الذي تقترحه عليه، لا غنى عنه في تكوين إحساس الفرد بالترابُط. لكن ذلك يصحبه اعتماد الفرد على إنكارٍ للواقع؛ لأن المُثل العليا التي يتكون منها مَثل الأنا الأعلى، في الواقع، تستمد جذورها من سلالة الأب وسلالة الأم؛ ومن ثَمَّ فهي متعددة ومُتضارِبة. علاوة على ذلك، يرتبط الفرد على مدى حياته بالعديد من المُثل الإضافية العديدة عبر اختياراته الجديدة للموضوع، وما يمر به من تجارب الثُّكل والفَقد. تستمد «الفروق الصغيرة» قوتها الانفجارية من قدرتها على تهديد هذا الترابُط الوهمي. ويستخدم معظم أعضاء جمعية باريس للتحليل النفسي مفهوم «الأنا المثالية» لوصف هذا الوهم الذي يُمكِّن الأنا من الحفاظ على اعتقادها بأنها متطابقة مع مَثلها الأعلى؛ فيُميِّزون بين الأنا المثالية و«مَثل الأنا الأعلى» وبينها وبين الأنا العليا، التي تُعاقب الأنا عندما تفصل نفسها «عن» مَثلها الأعلى.

أكمل دينيس ريبا محاولته التوضيحية هذه عبر توسيعِ نطاقِ فرضيته عن غريزة الحياة المنفصلة لتشمل إشكالية التعصُّب؛[٣٥] فهو يؤمن بأن الأنا المثالية لدى المُتعصِّب تعتمد على التماهي الالتصاقي للأنا مع مَثلها الأعلى؛[٣٦] ومن ثَمَّ تعتمد على غريزةِ حياةٍ منفصلة تفرض هذا الارتباط. «أيُّ انفصال؛ ومن ثَمَّ أي مسافة قد تسمح بالنقد، يُصبِح

قاتلًا بالنسبة إلى الهوية القديمة التي تشكلت على هذا النحو ... وعلى ذلك يصبح الارتباط بقائد — كهتلر مثلًا — أو باعتقادٍ مُعيَّن أمرًا جوهريًّا لا غنى عنه» (ريبا، ١٩٩٩، صفحة ١٣٩).

إن تلك الفرضيات التكميلية لا تُفسِّر أصل انفصال الغرائز؛ فنجد أن ريبا يؤمن بأن دَور القائد هو دَورٌ أساسي هنا؛ فالقائد بمقدوره إقناعُ أتباعه بقتل أنفسهم، أو ارتكابِ جرائمِ قتلٍ جماعية، من مُنطلَقِ رغبةٍ لديه في حيازة حب الأم، أو من أجل «تصدير انفصال الغرائز» الكامن لديه في الواقع (المصدر السابق، الصفحات ١٤٢–١٤٤). وسوف تتمثل أساليبه لتحقيق ذلك في «مهاجمة الروابط، وتدمير جميع الموضوعات مَحلِّ العاطفة، وعبر الإذلال النرجسي، وجعل أيِّ عمليةِ تنظيمٍ مستحيلة» (ريبا، ٢٠٠٢، صفحة ٢١٠). غير أن السمة الأشد خطورةً لجرائم القتل الجماعي هي أنها غالبًا ما تكون نتاجًا لاستغلالِ كراهيةٍ تلقائية، يستغلها القادة على نَحوٍ ثانوي فحسب لأجل تحقيق أهدافهم أو إشباع ساديَّتِهم الذاتية. وما إن تحتك جماعتان تفصلهما «الفروق الصغيرة» بعضهما ببعض، حتى يبدو أن الانفصال يحدُث من تلقاء نفسه. كيف يمكن ذلك؟ قد تساعدنا نقطةٌ يطرحها فرويد، وأعادها ريبا إلى الأذهان (المصدر السابق، صفحة ١٣٩) على توضيح هذا الأمر. في كتاب «الأنا والهو»، يُبيِّن فرويد بالفعل أن التماهي «يبدأ مع تحوُّل الليبيدو الخاصة بالموضوع الجنسي إلى ليبيدو نرجسية»، وأن هذا التحوُّل لا بد أن يصحبه «انفصالٌ للدوافع المختلفة التي كانت فيما سبق مُندمجةً معًا»؛ لذا لا بد أن يكون تماهي أعضاء مجموعةٍ ما أحدهم مع الآخر ومع قائدهم مصحوبًا بانفصالٍ للغرائز وتحريرٍ لغريزة الموت،[٣٧] وهو الأمرُ الذي لن يحدث ما دام القائد يَضطلِع بدوره بوصفه مثلًا أعلى مُوحِّدًا دون محاولةِ استغلالِ هذا الدور (دياتكين، ٢٠٠٢).

(١١) معارضو غريزة الموت في فرنسا

لا يزال الاتجاه الفرنسي الذي ينكر وجود غريزة الموت يضم بين روافده مُعارِضين مُفوَّهِين حتى اليوم؛ ففي المؤتمر الثاني والستين للمُحلِّلِين النفسيِّين في الدول الفرانكوفونية، جمع بول دينيس آراءهم وحُججَهم معًا (دينيس، ٢٠٠٢)، وأضاف بعض النقاط الجديدة إلى تلك التي قدَّمَها هارتمان وكريس ولويونستين، والتي تتلخَّص في أن غريزة الموت مسألةٌ تخُصُّ ما وراءَ علمِ الأحياء وما وراء علم النفس. يطرح فرويد مفهومَ غريزة الموت من وجهتَي نظرٍ مُنفصلتَين — إكلينيكية وفلسفية — لا تجمعهما أيُّ صلة. تعتبر

النظرية الجديدة الدوافعَ بمنزلةِ قوًى طبيعية؛ وهي تُضعف مفهوم الدوافع؛ فغريزة الموت ليس لها مصدر، أو طاقة، أو موضوع؛ كل ما تمتلكه هو هدف فحسب.[٣٨] استبعد هؤلاء المعارضون فكرة الدوافع الجزئية، واعتبروا أن الازدواجية الغريزية ليست في الحقيقة سوى نوعٍ نشِط من الوَحدَوية، وادَّعَوا وجود «غرائز موتٍ جنسية» فحسب (لابلانش). ورَأَوا كذلك أن غريزة الموت مفهومٌ لا جدوى منه؛ ففي الفيزياء لا حاجة لنا إلى «دفء الحياة» و«دفء الموت» كي نفهم ظاهرتَي التسخين والتبريد. والحقائق التحليلية التي يُفسِّرها مفهوم غريزة الموت كما يطرحه فرويد هي حقائقُ لا متجانسة، تجمع بين المازوخية وغريزة الموت والدافعية ومبدأ الاختلال. وراكَمَ المصطلح مزيدًا من عدم التجانُس على يد خُلفاء فرويد. لا يسعُ المرءَ التأكُّدُ من أن مصطلح «غريزة الموت» سوف يحمل المعنى نفسه في جميع الحالات؛ فالأفضل إذن، حسب رأي دينيس، استخدامُ مفاهيمَ مختلفةٍ أكثرَ تحديدًا، مثل «جنون السيطرة» فيما يتعلق بحالات العُنف القُصوى، أو «مبدأ التنظيم-الاختلال» فيما يتعلق بالنزعة نحو الابتعاد عن التمايُز.

ومما يدعم هذه النقطة التي طرحها دينيس الأبحاثُ المُتنوِّعة المكتوبة باللغة الفرنسية والتي تستعين بمفهوم غريزة الموت: أغلب الظن أن مصطلح «غريزة الموت» يشتمل بالفعل على عناصرَ في غاية التنوُّع، ومن المحتمل أن جرين ومارتي، على سبيل المثال، لا يصفان الأمر نفسه عندما يتحدثان على نحوٍ مختلف للغاية عن مثل هؤلاء المرضى المُختلِفين تمامًا. لكن حقيقة استخدام مصطلحٍ واحد يتيح لهما إجراءَ حوارٍ من شأنه أن يُتيح لهما مقارنةَ أفكارهما ونقدها. هل في وُسْع المرء الاستبدالُ بغريزة الموت «جنون السيطرة» في حالات العنف القُصوى؟ لقد حاول دينيس القيام بذلك تحديدًا في عمله المُؤثِّر «السيطرة والإشباع» (دينيس، ١٩٩٧، صفحة ١١٩)، حيث يعرض تطويرًا مُقنعًا للجوانب المختلفة «للسيطرة» على الدوافع. لكن دون الاستبعادِ التامِّ لمفهوم غريزة السيطرة من المنظور الفرويدي، يُصبِح من الصعب التحدُّث عن السيطرة عندما يُصبِح الهدف وراء الدافع هو تدمير الموضوع. يُشير دينيس كذلك إلى إحلال «مبدأ التنظيم-الاختلال» محل الجانب المُعادِي للتمايُز في غريزة الموت، حسبما وصفه مارتي في حالات الاضطرابات النفسية الجسدية التي عَرضَها. لكن أي «مبدأ» لا تبرُز أهميته سوى فيما يتعلق بنشاطِ دافعٍ ما. من الضروري تسمية الدافع الذي «يُخِل» بالحياة النفسية، لكن سيكون من العبث اتخاذُ قرارٍ بتسميته «غريزة السيطرة» بدلًا من «غريزة الموت».

كلمة أخيرة

ربما يرجع الأمر كله بالفعل إلى علم الأحياء!

قطعًا لم يكن فرويد على علمٍ بالأبحاث التي كان يمكن له الاستشهاد بها دعمًا لغريزة الموت، وهي التي تعود إلى عشرينيات القرن العشرين وتتناول الموت التلقائي للخلايا بغض النظر عن أيِّ عدوانٍ خارجي؛ فمنذ عام ١٨٥٥ (أمايزن، ١٩٩٩، صفحة ٦٣)، أبدى علماء الأجنة وعلماء الأنسجة اهتمامًا بهذه الظاهرة التي تلعب دورًا محوريًّا في تكوين الجنين،[٣٩] والتي أطلقوا عليها اسم «الاستماتة».[٤٠] والآن نُدرِك أن موت الخلايا يمكن تنشيطه عن بُعد عَبْر الهرمونات (المصدر السابق، صفحة ٣٣)، وأنه يلعب دورًا مهمًّا في انتقاء الليمفاويات «الفاتكة» القادرة على التعرُّف على الفيروسات والبكتيريا الغريبة عن الكائن الحي وتدميرها، وكذلك في تكوين الدماغ (المصدر السابق، الفصل الثاني). ولا يُعد ذلك نتاجًا لنشاطِ أيِّ عاملٍ خارجي، بل نشاط عددٍ من البروتينات التي تُنتجها الخلية نفسها.[٤١] وقد عُزلت الجينات التي تسمح معلوماتها للخلايا بإنتاج البروتينات التي تُنشِّط موت الخلايا (المصدر السابق، صفحة ٧٥)، مثلما عُزلت الجينيات التي تُثبِّط هذا التنشيط (المصدر السابق، صفحة ٧٦).[٤٢] وقد قَلبَت تلك الاكتشافات مجالاتٍ كاملة من علم الأمراض الطبي رأسًا على عقِب، وغيَّرت من فهمنا لطبيعتَي الحياة والموت: «أصبحنا الآن نرى رؤيةً غريبة للحياة؛ فالحياة بالنسبة إلى كل خلية … تعمل باستمرارٍ على تقييد النشاط الانتحاري ولو لفترةٍ من الوقت» (المصدر السابق، صفحة ٧٧). ما يبحث عنه أولئك الباحثون ليس غريزة الموت بمعناها في التحليل النفسي، لكن بوُسعنا قطعًا قبولَ أنَّ وصْفَ نشاطِ غريزة الموت داخل الكائن الحي ليس مُجرَّد تكهُّنٍ لا أساس له في الواقع المادي.

«ترجم هذا الفصل دانيال هان.»

هوامش

(١) «يُكرِّر الطفل التجربة التي عاشها، حتى لو كانت تجربةً غير سارة؛ لأنه من خلال هذا النشاط يكون قادرًا على تحقيق السيطرة على نوعٍ أكثر تطرُّفًا بكثير …» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٣٥).

(٢) فرويد (١٩٢٠، صفحة ١٨). «على الجانب الآخر، وفيما يتعلق بالمريض الخاضع للتحليل، يبدو واضحًا تمامًا أن الحاجة لتكرار أحداث الطفولة خلال التحويل تتجاوز مبدأ اللذة على أي حال» (صفحة ٣٤).

(٣) «إكراه القدَر» كشيءٍ مختلف عن «عُصاب القدَر» (فرويد، ١٩٢٠، الصفحات ٢١-٢٢).

(٤) يعود الجدال الفلسفي عن طبيعة المتعة على الأقل إلى كتاب أفلاطون «فيليبوس»، والكتاب السابع من «الأخلاق النيقوماخية» لأرسطو. تعود فكرةُ أنَّ المتعة تضاهي عودةً إلى نقطة الصفر للإثارة إلى أفلاطون بلا شك؛ فهو يؤمن بأن انعدام المتعة (و«الألم») يأتيان من تحلُّل «انسجام» الطبيعة، وأن المتعة تتأتَّى عند إعادةِ بناءِ هذا الانسجام؛ أي إن المتعة هي العودة إلى الحالة الطبيعية. ينتقد أفلاطون النموذج الذي يعتبر أن تناوُل الطعام «إشباع ومتعة»، وأن الجوع «تحلُّل وأَلَم» (أفلاطون، فيليبوس، ١٧، ٣١د، صفحة ٣٠٦). بالمثل يَنتقِد أرسطو فكرة المُتعة كنوعٍ من الإشباع، والألم كاحتياج وعوز في حالتنا الطبيعية؛ فالمُتع المستمدة من الدراسة أو من رائحةٍ طيبة لا علاقة لها بالإشباع والامتلاء (أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، الصفحات ٤٨٦-٤٨٧).

(٥) أعادت التجاربُ الحالية في الاستنساخ تجاربَ جاك لوب إلى دائرة الضوء مرةً أخرى.

(٦) «الغريزة هي دافعٌ متأصلٌ داخل أيِّ كائنٍ حي يدفعه نحو إعادة بناءِ حالةٍ سابقة» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٣٦).

(٧) «كيف يمكن أن نستخلص من الغريزة الجنسية (التي تحفظ الحياة) دافعًا ساديًّا يهدف إلى إيقاع الضرر بالموضوع؟ هل يجب عدم افتراض أن هذا الدافع من الأنسب والأصح أن يُسمَّى «غريزة الموت»؟» «يُمكِن في الواقع إيضاح أن السادية الصادرة عن الأنا قد أَوضحَت الطريق للمُكوِّنات الشهوانية للدافع الجنسي» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ٥٤).

(٨) في كتابِ «ما وراءَ مبدأ اللذة»، تصوَّر فرويد أيضًا (على نحوٍ عارض) «الميول المازوخية المبهمة للأنا نحو وضع الأحلام الناتجة عن الصدمات في الاعتبار» (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٤).

(٩) «إذا كان حب الموضوع، وهو الحب الذي لا يمكن التخلِّي عنه طالما تم التخلِّي عن الموضوع نفسه، مستترًا في تماهٍ نرجسي، فإن الكراهية تبدأ العمل على هذا الموضوع البديل، وإيذائه، والتقليل منه، ودفعه إلى المعاناة، واستمداد متعةٍ سادية من تلك المعاناة

... إن العذاب الذي يُنزله الشخص السوداوي بنفسه، والذي يمنعه بكل تأكيدٍ من الشعور بالمتعة، يُمثِّل الإشباع السادي وميول الكراهية (بالضبط مثل ارتباط الظاهرة بالعُصاب الوسواسي) التي تحوَّلَت متجهةً نحو الشخص نفسه على النحو الذي ناقشناه» (فرويد، ١٩١٤، صفحة ٢٥١).

(١٠) لكن هنا ينظر فرويد إلى الانفصال الغريزي كتقدم؛ إذ يحدث في المرحلة الأوديبية ويجعل من الممكن تمييز الحب عن الكراهية بوضوح.

(١١) لا يعتبر الإنسان «أخاه الإنسان أداةً مساعدة وموضوعًا جنسيًّا محتملًا فحسب، بل أيضًا موضوعًا للإغواء؛ فالإنسان يتعرض فعليًّا لإغراءِ إشباعِ حاجته للعدوانية على حساب أخيه الإنسان، ولاستغلال عمله دون تعويضه، واستغلاله جنسيًّا دون موافقته، والاستيلاء على ممتلكاته، وإذلاله وإنزال المُعاناة به والتضحية به وقتله» (فرويد، ١٩٢٩، صفحة ١١١).

(١٢) «تجد الليبيدو أو الشهوة الجنسية في الكائنات الحية (المتعددة الخلايا) دافع الموت أو التدمير الذي يتحكم فيها، ويسعى لتفتيت هذا الكائن الخلوي إلى قطعٍ ووضع كل جسيمٍ عضوي في حالةٍ من الاستقرار العضوي (حتى لو كان هذا الاستقرار في الواقع نسبيًّا). تتولى الليبيدو مهمة تجريد هذا الدافع التدميري من ضرره، وذلك من خلال تحويل معظمه إلى الخارج بمساعدةِ نظامٍ عضويٍّ مُحدَّد (أي النظام العضلي) وتوجيهه نحو موضوعاتٍ في العالم الخارجي؛ ولهذا سُمي الدافع التدميري، أو دافع السيطرة، أو الرغبة في القوة والسلطة» (فرويد، ١٩٢٤، صفحة ١٦١).

(١٣) «لم يجلب فرويد أو أيٌّ من أنصار هذه النظرية (مثل فيدرن ونانبرج وفايس) أي حُجةٍ جديرة بالاهتمام أو قابلةٍ للإدراك الموضوعي تُؤيِّد وجود غريزةٍ مستقلة تدفع نحو التدمير أو الموت» (ناخت، ١٩٤٨، صفحة ٣١٣).

(١٤) يبدو أن هذه الفجوات تجتمع معًا في المفهوم الغامض الذي قدَّمه فرويد باسم «غريزة الموت»: إنها بمثابةِ شاهد (كتمثال أبي الهول) على الطريق المسدود الذي اصطَدم به هذا الفكر العظيم في سياق أعمق وأقوى محاولةٍ بُذِلت حتى اليوم لصياغة التجربة البشرية داخل عالم الأحياء» (لاكان، ١٩٤٨، صفحة ٣٦٧).

(١٥) على سبيل المثال، «الغرائز التي أومن بها والتي تُعتبر غريزة الموت إحداها» (لاكان، ١٩٥٦–١٩٥٧، صفحة ٣٧١).

(١٦) في المؤتمر الخامس عشر للمُحلِّلِين النفسيِّين في الدول الفرانكوفونية عام ١٩٥٣، قُبيل الانفصال مباشرة، عرض موريس بيناسي أفكار فرويد عن غريزة الموت في

بحثه المُسمَّى «نظرية الغرائز». وجد بيناسي نفسه في مواجهةِ عداءٍ أو لا مبالاةٍ من معظم أعضاء جمعية التحليل النفسي في باريس باستثناء فرانسيس باش. ولم تَحظَ غريزة الموت بأي دفاعٍ في جمعية التحليل النفسي باريس حتى انعقاد مؤتمر سيرج فيدرمان عام ١٩٦٠. وكان اعتراض ناخت عليها في الأساس لأسبابٍ عمليَّة؛ إذ إن غريزة الموت لا تُوسِّع المنظور العلاجي. وبعد عشر سنوات، في المؤتمر الخامس والعشرين للمُحلِّلين النفسيِّين من الدول الناطقة باللغات الرومنسية، وجد رينيه دياتكين جمهوره أكثر انقسامًا بكثير حول الأمر، عندما نسب العُدوانية إلى غريزة الموت بدلًا من النظر إليها كنتيجة للإحباط (عرض ناخت النظرية في عام ١٩٤٨).

(١٧) من أهم اللحظات الرئيسة ندوة جمعية التحليل النفسي بباريس عام ١٩٦٩ حول «التكرار وغريزة الموت»، والمنتدى الذي عقده الاتحاد الأوروبي للتحليل النفسي في مارسيليا، الذي عرض فيه أندريه جرين وجان لابلانش آراءهما في مقابل آراء المحللين الأوروبيِّين الآخرين؛ والإصدار الثاني من «الدورية الفرنسية للتحليل النفسي» (١٩٨٩) عن غريزة الموت؛ والمؤتمر الذي نظمه جان جيومان في ليون عام ١٩٩٩ عن «الابتكار وغريزة الموت»، حيث قدَّم دينيس ريبا دراسته بعنوان «تاريخ انقسام واندماج الدوافع». يمكن العثور على شرحٍ مُفصَّل للمواقف والآراء التي اتخذها الكتَّاب الرئيسيون لجمعية التحليل النفسي بباريس حتى عام ١٩٨٩ في بوكانوفسكي (١٩٨٩).

(١٨) «أنظُر لوضع الرُّهاب المركزي كمَيلٍ نفسيٍّ أساسي غالبًا ما يكون موجودًا في علاجِ بعضِ حالاتِ اضطراب الشخصية الحدِّية» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٥٢).

(١٩) «يبدو أن حديث مريضه، جابرييل، قد أُبقي على مسافةٍ وطُوِّر على نحو عميق ومُطوَّل من خلال أفكارٍ عامة، مما جعل المُحلِّل يشعر بأنه يتلمَّس طريقه عبر ضبابٍ كثيف» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٦٦).

(٢٠) «ينزلق الخطاب إلى الخطيَّة؛ فلا يبرز الترابط في الإدراك اللاحق، حتى وهو يتوقَّع ما سوف يلي، مما يفتح الطريق للاحتماليات» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧١).

(٢١) «يبدو الأمر كما لو كان النشاط الرُّهابي قد ثبت نفسه داخل جوهر الخطاب إلى حدٍّ بعيد ووقف في طريق أي انتشارٍ محتمل داخل النفس» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧١).

(٢٢) بمناقشة مريضه جابرييل، كتب جرين يقول: «في البداية ظننتُ أنني أتعامل مع سلوكٍ نشأ عن كبتٍ ضخم امتد لفترةٍ طويلة. واستمر هذا حتى أدركتُ أنه إذا كان غيرَ قادرٍ على الدخول في تداعٍ حُر، فإن هذا لم يكن بسبب الافتقاد لأيِّ شيء، بل من

المحتمل أن يكون بسبب زيادة التداعيات؛ بمعنى آخر، كلما خاض فيما يرغب في قوله، ازداد شعوره بالخطر؛ لأن التواصُل بين عناصر حديثه لم يكن مُحكمًا بالقَدْر الكافي، وكان يُشوِّه كلماته أو يُصدِرها مُشوَّشة، كما لو كان يحاول التحذير من نتيجةٍ سينجرف إليها حتمًا إذا ترك نفسه ينجرف إلى هناك» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٦٦).

(٢٣) «كان الأمر في حالته متعلقًا حقًّا بانعدامٍ شديد للأمان كان يشعر به أثناء وضعه للدلالات الرئيسة للتحليل النفسي في منظورها الصحيح ... وبوجهٍ عام فإن ما جعل تطوُّره المُتعدِّد الاتجاهات يخمد ويصبح عقيمًا بلا طائلٍ هو توقُّع الموضع الذي كان هذا التطوُّر يخاطر بأن يصحبه إليه. في النهاية، بدا الأمر كما لو كان عليهم جميعًا أن يصلوا حتمًا إلى سيلٍ جارف من الصدمات يستجيب كلٌّ منها للأخرى» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧٠).

(٢٤) «كان هذا استجابةً لشعور الهجر مراتٍ عديدة الذي كان يقسمه أكثر فأكثر كلما استدعى إحداها، ما جعله عاجزًا عن استخدام مشاعره للتساؤُل عما يمكن لأناهُ القيامُ به إزاء هذا الشعور في محاولةٍ ما لتوليف المعنى الذي ربما ينبثق من عمليةِ وضع الأمور في منظورها الصحيح» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧٢).

(٢٥) «لقد تلامَسَت أعمدة الحياة العقلية، التي نجح المريض في تَفرقتِها قبل الخضوع للتحليل وأَنكرَ علاقته بها» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٥٣).

(٢٦) «إذن فقد تألَّفت الصدمة الحقيقية من احتمالية رؤيتهم مُتوحدِين في هيئةِ مجموعةٍ يفقد فيها الفرد قدرته الداخلية على مقاومة المحظورات، ولم يعُد في وضعٍ يجعله على غير درايةٍ بحدود فرديته الخاصة، مما يجعله يلجأ إلى هوياتٍ عديدة وأحيانًا متناقضة، ويجد نفسه غيرَ قادرٍ على الاستفادة من الحلول الدفاعية المنفصلة» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٥٣).

(٢٧) «ما تكشفه المحنة هو قتلُ تمثيلِ الأُم التي تفشل في الظهور، أو الثدي الذي يفشل في إشباع الجوع، بل يزيد من الإثارة» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧١).

(٢٨) «اللوم هو نتيجةُ جريمةِ القتل الأُولى التي تهدف إلى إبعاد الموضوع الهاجر» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٨٠).

(٢٩) «إن الموضوع الأمومي الذي يُقتَل بهذه الطريقة «لا يمكن فهمه إلا في إطار الخواء الذي يُترك فيه الفرد فيه؛ وعلى العكس، إذا جعل وجوده محسوسًا، فإن شبحه يشغل كل جزءٍ من الفراغ؛ أي إنه يستحوذ»» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٨١).

(٣٠) قارن فرويد (١٩٢٥، صفحة ٢٣٦). الموضوع الأوَّلي المقتول يكون جيدًا وسيئًا، وموجودًا وغائبًا في الوقت نفسه (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٨١).

(٣١) «يتبع هذا نكرانٌ للواقع النفسي للفرد الذي يقوم بهذا» (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧١).

(٣٢) يُفضِّل جرين الحديث عن «دافع التدمير» و«دافع العدوانية»، وليس الحديث عن «غرائز الموت». إن «النزعة التدميرية» هي غريزة الموت تعمل من داخل الجهاز النفسي؛ أمَّا العدوانية، فهي غريزة الموت مُوجَّهة للخارج (جرين، ٢٠٠٠أ، صفحة ١٦٤).

(٣٣) ولهذا، يجب أن يتغلَّب المُحلِّل على «رُهابه الفكري»؛ أي كونه مُستثارًا «بارتدادات رجعية» و«التوقع المعلن» للطرق الإيجابية التي يمكن من خلالها الانخراط معها. ومن واقع خبرتي، يمكن في هذه الحالة فقط أن يرى المريض فيه انعكاسًا لأداءٍ وظيفيٍّ نفسي يتبع مسارًا مشابهًا (جرين، ٢٠٠٢، صفحة ١٧٩).

(٣٤) ريبا (٢٠٠٢، صفحة ١٨٢). لكن ريبا قرأ كذلك ما كتبه وينيكوت عن «العنصر الأُنثوي الخالص»، مضيفًا «الرابط» إلى «الدافع»: «إذا كان العنصر الذكوري مرتبطًا بالرباط «الإيجابي أو السلبي» للموضوع الذي يتم تركيز الطاقة النفسية عليه، فإن العنصر الأنثوي النقي يحدد رباطًا مختلفًا تمامًا بالثدي أو الأم.»

(٣٥) «يبدو لي أن متعصبًا سيكون في حالة من التماهي الالتصاقي مع مَثله الأعلى، الذي يمكن اعتباره — كما تم التأكيد من قبل — من الآن فصاعدًا أنَا مثاليةً وليس «مثلًا أعلى للأنا»» (ريبا، ١٩٩٩).

(٣٦) «الأنا المثالية»، التي تتسم بالالتصاقية والانفصال — وبالتالي خالدة ونقية — والتي يُمكن ربطُ كلِّ مخاطر التعصُّب بها «تتناقَض مع مثل الأنا الأعلى» (ريبا، ٢٠٠٢، صفحة ٢٠٦).

(٣٧) عاد فرويد إلى هذه الفكرة في بحثه «الإشكالية الاقتصادية للمازوخية» (فرويد، ١٩٢٤، صفحة ٢٩٤).

(٣٨) تَتعرَّض محاولات هارتمان وكريس ولويونستين لوصف «الدوافع العدوانية» المُحمَّلة بطاقةٍ محددة للانتقاد نفسه.

(٣٩) «ومع ذلك، كان ثَمَّةَ وضوحٌ متزايد أن النماذج الهائلة لموت الخلايا كانت عالميةً بلا ريب؛ إذ يحدث في كل الأجنَّة في كلِّ أنواع الكائنات الحية» (أمايزن، ١٩٩٩، صفحة ٣٠).

«إن موت الخلية هو الذي يُشكِّل — في موجاتٍ متتابعة — أذرعنا وسيقاننا أثناء نمُونا من الشكل الخارجي، من قاعدتها وحتى أطرافها» (المصدر السابق، صفحة ٣١).

«يُشكِّل موت الخلية كذلك الشكل الداخلي للجنين» (المصدر السابق، صفحة ٣١).

(٤٠) من اللفظ اليوناني لكلمة «سقوط».

(٤١) «لا يشير موت الخلية ضمنيًّا إلى وجود مُنفذٍ للإعدام، أو قتال، أو شَلَل، أو شيخوخة؛ فهو لم يكن نتيجة لقتل أو تسميم. لقد كان القاتل حاضرًا في قلب الخلية. وكان التأثُّر الوحيد لإشارة الموت هو دفع الخلية إلى قتلِ نفسها» (أمايزن، ١٩٩٩، صفحة ٥٧).

(٤٢) كان هذا مهمًّا بما يكفي كي يجعل جائزة نوبل في الطب عام ٢٠٠٢ تذهب إلى الباحثِين الذين قاموا بهذا العمل.

الجزء الرابع

النموذج البنيوي للعقل

الفصل التاسع

نحو النموذج البنيوي للعقل

مارجريت تونزمان

عندما قدَّم فرويد عام ١٩٢٣ النموذج البِنيوي للعقل، الذي أحيانًا ما يُسمَّى النموذج الطبوغرافي الثاني، كان قد أصبح أكثر وعيًا بالحاجة لتغيير بعض الافتراضات الأساسية الخاصة بالنموذج الطبوغرافي الأول.

في هذا الفصل أَعتزِم تتبُّع التغيير بين نموذجٍ مكاني للعقل مُكوَّنٍ من مناطق عدة إلى نموذجٍ للعقل مُكوَّن من عدة قُوًى: الهو، والأنا، والأنا العليا. وسوف أُركِّز، على نحوٍ خاص، على كيفية استبدال مفهوم الأنا العُليا جزئيًّا بمفهوم المثل الأعلى للأنا.

قسَّم فرويد العقل في النموذج الطبوغرافي إلى ثلاثِ مناطقَ نفسية، وفقًا لما إذا كانت تعمل على مستويات اللاوعي، أم ما قبل الوعي، أم الوعي. تَخيَّل فرويد وجودَ رقيبٍ بين نظامَي اللاوعي وما قبل الوعي له القدرة على كبح النشاط العقلي اللاواعي من خلال الكبت. فقط عندما يسمح هذا الرقيب لعمليات التفكير بالمرور، قد تستطيع هذه العمليات أن تُصبِح عملياتٍ واعية من خلال تسجيلها في منطقة ما قبل الوعي، وإلا ظلَّت لا واعيةً ديناميكيًّا. غير أن عملياتِ التفكير في مستوى ما قبل الوعي كانت لا تزال لا واعيةً من حيث الوصف، لكن يمكنها أن تصبح عملياتٍ واعيةً من خلال توظيفها بواسطة طاقةٍ نفسيةٍ إضافية، وقد افترض فرويد أن هذه هي وظيفة الانتباه؛ ففي بحث «اللاوعي» (١٩١٥)، أشار إلى ملاحظاتٍ تحليلية كَشفَت أن ثمة أفكارًا في مستوى ما قبل الوعي في

بعض الأحيان تبقى لا واعيةً ديناميكيًّا، وأشار إلى احتماليةِ وجودِ عمليةِ رقابةٍ أخرى أيضًا في مستوى ما قبل الوعي. ما لم يعد في الإمكان التأكيد عليه أن النشاط العقلي في نظامِ ما قبل الوعي ربما كان واعيًّا ولا واعيًّا على مستوى الوصف فقط؛ لذا وبحلول عام ١٩٢٣، كان فرويد قد قدم ما يُعرَف بالنموذج البنيوي للعقل في كتاب «الأنا والهو».

في معرض مقدمته لهذا الكتاب، أشار جيمس سترايتشي إلى أن المصطلحات الجديدة «كان لها أثر توضيحي كبير ومن ثَمَّ جعلت من الممكن حدوث مزيد من التطورات التحليلية،[١] لكنها في حد ذاتها لم تتضمن أي تغييرات جوهرية في رؤى فرويد لبناء العقل وأدائه الوظيفي. والحق أن الكيانات الثلاث التي عرضت حديثًا؛ وهي الهو، والأنا، والأنا العليا، كان لها جميعًا ماضٍ طويل … وستستحق التوقف عندها ودراستها» (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٧).

أشار فرويد في «الأنا والهو» إلى أنه ليس كافيًا مساواة اللاوعي النشط بما كُبِتَ وكذلك بنظام اللاوعي؛ وهو المنطقة التي يظل بها النشاط الوظيفي للعملية الأولية هو المسيطر. ووجد فرويد في عمله التحليلي أن آلياتِ دفاعِ الأنا التي تندرج تحت نظامِ ما قبل الوعي وتظهر خلال العلاج كمقاوماتٍ خاصة بالمرضى هي آليَّاتٌ لا واعية ديناميكيًّا أيضًا؛ لذا يمكنه الآن القول إن كل ما هو مكبوتٌ لا واعٍ لكن ليس كل ما هو لا واعٍ مكبوت. وفي نموذجه الجديد، ربط فرويد الهُو باللاوعي المكبوت وكذلك بالتمثيل الخاص بدوافع رغباتنا. لكن الهُو ليس له نظام، والبناء الخاص به هو العملية الأوَّلية.

يَنصَب تركيز فرويد الأساسي في هذا الكتاب على الأنا. منذ بداية دراساته، كان تعريفه للأنا تعريفًا فضفاضًا كنظامٍ ذي طاقةٍ نفسيةٍ دائمة، ومن خلال رقيبها، تسمح بمرور أفكارٍ بعينها إلى الوعي في حينٍ تمنع أخرى. في بحثه «صياغات عن مبدأَي النشاط الوظيفي للعقل» (١٩١١أ)، ناقش فرويد تطوُّر الأنا أثناء الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقعية. في البداية، يكون الطفل الرضيع مخلوقًا يسعى وراء اللذة المدعومة بما تُقدِّمه له الأم من خِدماتٍ وعون، مما يجعل نشوءَ حالةٍ من اللذة الخالصة أمرًا ممكنًا. يسود مبدأ اللذة في اللاوعي على مدى حياتنا، لكن مع تطوُّر الطفل، يبدأ الاصطدام بالواقع. بعد ذلك يعمل مبدأ الواقعية على تعديل مبدأ اللذة ويُصبِح مبدأً مُنظِّمًا للأنا. وفي عام ١٩٢٣، عرَّف فرويد الأنا بأنها المُنظِّم المركزي للنشاط الوظيفي النفسي بواسطة ثالوث التكيف والسيطرة والاندماج؛ إذ تمتلك المدخل الوحيد إلى الوعي ومنهجًا للدافعية واختبار الواقع.

(١) النرجسية والمثل الأعلى للأنا والتماهي

لكن الأنا كذلك موضوع، ويمكننا اعتبار أنفسنا موضوعًا؛ فلدينا تخيُّلاتٌ وأوهام عن أنفسنا. وفي اللغة يمكننا التحدث عن «ذاتنا».

ذهب فرويد في بحثه «مقدمة عن النرجسية» (١٩١٤) إلى أن الأنا موضوعٌ وفرد على حدٍّ سواء، وأضفى عليها أهميةً جديدةً جوهرية، وقدَّم بضعةَ أمثلةٍ تُوضِّح كيف يمكننا اعتبار الأنا موضوعًا للطاقات النفسية الشهوانية.

إن مريض الفصام يفعل هذا ثم يتحول إلى مُصابٍ بجنون العظمة؛ فهو يسحب الطاقة النفسية الشهوانية من الموضوع، ويُركزها بدلًا من ذلك على الأنا الخاصة به. وقد درس فرويد (١٩١١ب) يومياتِ قاضٍ ألمانيٍّ كان يُعاني من نوباتِ جنونِ ارتيابٍ ذُهاني (انظر الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب)؛ فقد شعر أنه بحاجةٍ لفهم الأنا المضطربة أثناء عملها من أجل استيعابِ طبيعة النشاط الوظيفي للأنا في الظروف الطبيعية وظروف العُصاب النفسي. أراد فرويد استكشاف تلك القُوى الخاصة بالأنا التي أدَّت إلى الكبت؛ فحتى ذلك الوقت، كان يتحدث بمصطلحاتٍ عامة عن الأنا كقوةٍ كابتةٍ تدفعها تجارب الخزي والاشمئزاز وتأثير معاييرها الأخلاقية.

كُلنا نرتَد إلى حالةٍ من النرجسية عندما نخلُد إلى النوم ونهجُر العالم، وأيضًا نسحب اهتمامنا بالكامل من العالم الخارجي عندما نُعاني من مرضٍ ما، ويتوجه تركيزنا النفسي نحو العضو المريض. وقد اقتبس فرويد من الكاتب الألماني فيلهلم بوش قوله: «مُتركِّزة هي رُوحُه في ثُقب الضرس الضيِّق.»

ناقش فرويد كذلك دَور النرجسية في التطوُّر المُبكِّر في ذلك البحث، وراجع التتابُع التطوُّري الذي كان قد عَرضَه في بحث «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية» (١٩٠٥). في البداية تتمثل موضوعاتنا في تلك التي تُشبع الوظائف الحيوية لحفظ الذات مثل الجوع والعطش، وهي موضوعاتُ غرائز الأنا التي تُبقينا على قيد الحياة. تَتْبعها على الدرب نفسه دوافع الليبيدو، وينشأ حينذاك ما أسماه فرويد الارتباط الاتكالي بموضوعات دوافع البقاء وحفظ الذات. وسرعان ما تُصبِح الدوافع الشهوانية مستقلةً عن تلك الخاصة بحفظ الذات لكنها تظل مرتبطةً بالموضوعات الاتكالية نفسها. وحتى في مرحلة النضج، عندما نقع في الحب أو نرتبط بعلاقاتٍ عاطفية، نحتفظ بنماذج الموضوعات الاتكالية المُبكِّرة في حياتنا، وتحديدًا تلك التي تُغذِّينا وتحمينا. لكن فرويد يقول إننا أيضًا نُشكِّل علاقاتٍ نرجسية؛ ففي البداية يحب الطفل الرضيع نفسه، لكن عندما يعاني الطفل من أوائل

الكوابح المعيارية النرجسية لقدرته الطفلية الكلية خلال طور النمو، ويبني داخل ذاته صورةً مثالية لنفسه وهي مثل الأنا الأعلى. يحصل مثل الأنا الأعلى على محتواه من البيئة؛ فالطفل يُعتبر طفلًا جيدًا إذا تبع المثل الأعلى لأنَاه، الذي يحوي أفكار الأم عن السلوك الواجب أن ينتهجه أيُّ طفلٍ صغير صالح. عند هذا يُقحم فرويد مرحلةً نرجسية بين المرحلة المبكرة للشبق الذاتي ومرحلة الموضوع من التطوُّر؛ فنظل نحمل نفسنا المثالية معنا على مدى حياتنا، وعندما يَترسَّخ المثل الأعلى للأنا، يُصبِح تقديرنا واحترامنا لذاتنا نابعًا من اعتقادنا بأننا قريبون من حالتنا المثالية. لكننا كذلك نُكوِّن علاقاتٍ نرجسية مع الموضوع عندما نختار موضوعًا يُمثِّل حالتنا المثالية ونقع في حُبه. وفي ذلك قال فرويد إن ما نحن عليه وما كُنا عليه وما نَودُّ أن نكون عليه يمكن العثور عليه مرةً أخرى في علاقةٍ نرجسية. ووصف فرويد كيف أن الآباء يُغالون في تقدير أبنائهم، واعتبر هذا إعادةَ إحياءٍ لنرجسيتهم واستنساخًا لها. وربما يصف الآباء صغارهم قائلِين: «أليس لطيفًا؟»

أكَّد فرويد أننا على مدى حياتنا نُكوِّن علاقات هي مزيج من حب الموضوع والحب النرجسي؛ فعندما نشعر بالرضا عن أنفسنا، يتوافر لدينا قدْرٌ كبير من احترام وتقدير الذات. وعندما نعكس المثال الأعلى للأنا الخاصة بنا في علاقةٍ ما، نُكسب الموضوع صفة المثالية ونشعر بالتواضُع والذِّلة. لكن برجوع هذا الحب إلينا، نستعيد حُبنا النرجسي.

ومن ثَمَّ يُصبِح مثل الأنا الأعلى قوةً خاصة داخل الأنا؛ فما أشار إليه فرويد بأنها القُوى التي تَكبِت معاييرنا الأخلاقية وإحساسنا بالخزي والاشمئزاز، تُصبِح الآن القوى التي تكبت مثل الأنا الأعلى؛ وقد أطلق فرويد ذاتَ مرةٍ على تلك القُوى المُراقبِين الذين يقومون بوظيفة ضميرنا، وهي كذلك الرقيب على الأحلام.

(٢) التماهي والسوداوية

في عام ١٩١٥، أرسل فرويد مخطوطةَ بَحثِه عن السوداوية إلى كارل أبراهام، وهو مُحلِّل وطبيبٌ نفسي في برلين، من أجل استطلاع رأيه النقدي. كان أبراهام قد كتب بحثًا عن السوداوية في عام ١٩١١. وقد درس فرويد بعض تفسيرات أبراهام، منها على سبيل المثال، أن السوداوية مرضٌ عقلي يأتي استجابةً لخسارة موضوعٍ ظلت دفينةً في اللاوعي. وقد قارن كل من فرويد وأبراهام بينها وبين الحِداد الذي يُعتبَر ردَّ فعل صحيًّا إزاء المُعاناة من خسارةٍ حقيقية. وفي حين كان أبراهام يظن أن الدمج السادي الفموي اللاواعي للموضوع المفقود هو المسئول عن الحالة الذُّهانية، صَمَّم فرويد على أن النكوص للنظام

الفموي المُبكِّر هو ما يؤدي إلى تماهي الأنا مع الموضوع؛ فكان فرويد يظن أن الموضوعات التي تَتعرَّض للاندماج دائمًا ما تؤدي إلى حدوثِ تماهٍ مع الموضوع. يبدو هذا مجرد فارقٍ نظريٍّ طفيف لكنه مهم؛ إذ يمكننا أن نعتبره البداية المُبكِّرة للتباعُد والانقسام بين ما أصبح لاحقًا نظرية العلاقات بالموضوع في مقابل النظرية الكلاسيكية للتحليل النفسي.

في «الحداد والسوداوية» (١٩١٧)، كان فرويد يظن، مثل أبراهام، أن الشخص المحزون قد عانى من خَسارةٍ حقيقية، لكن علاقته مع الموضوع ظلَّت باقيةً لفترة من الوقت؛ لأن الرابط الشهواني به لا يمكن حلَّه إلا ببطء بفعلِ فترةٍ ممتدة من عمل الحداد، الذي يهدف إلى تحرير الليبيدو حتى يمكن تكوينُ علاقاتٍ جديدة. أمَّا الشخص السوداوي، فقد عانى من فقدان الصورة المثالية لموضوعٍ نرجسي مكبوت لا واعٍ مكبوت، ربما كان شخصًا أو موضوعًا مُجردًا. لقد كانت العلاقة ازدواجية؛ فكراهيته كانت مُوجَّهة إلى تدمير الموضوع، أمَّا حبه فكان يريد الحفاظ على ذلك الموضوع. ومن أجل حماية الموضوع، تَحوَّلَت العلاقة النرجسية مع الموضوع إلى النرجسية؛ فيتم إدماج الموضوع وتماهت الأنا معه. لقد «سقط ظل الموضوع على الأنا» حسب تعبير فرويد. تنقسم الأنا الآن إلى جزأين؛ يهاجم أحدهما الأنا المتماهية مع الموضوع بلا رحمة، علمًا بأن الأنا المُهاجِمة هي بالطبع مثل الأنا الأعلى الذي كان يُراقب الأنا ويُحافظ على وظائف الضمير. يُستنزف الشخص السوداوي بفعلِ مشاعرِ انعدام القيمة، لكن من خلال محتوى تأنيبِ ولومِ الذات الخاص به، يُمكننا التخمين بأن الموضوع الذي تماهت معه الأنا هو ما يتعرض للهجوم على نحوٍ أساسي.

إن مرض السوداوية يُحجِّم نفسه بنفسه؛ فقد أشار فرويد إلى أن الكراهية تكون قد انقضت، أو تُخلِّي عن التماهي مع الموضوع أو دُمِّر بفعل الحكم على الموضوع بكونه تافهًا وعديم القيمة. في بعض حالات السوداوية أو الذُّهان الاكتئابي الهَوَسي كما يُطلَق عليه حاليًّا في الأغلب، يتبع زوال الاكتئاب حالة من الجنون أو الهوس. في كتاب «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» (١٩٢١)، لفَت فرويد الانتباه إلى مناقشاته وطروحاته السابقة. من وقتٍ لآخر، نسمَح للمكبوت بالتحايُل على مُقاومة الكبت ونسمح له بالمرور إلى داخل الأنا لزيادة مُتعتنا؛ ونحن نختبر هذا على سبيل المثال من خلال النِّكات والدُّعابة. كما أشار إلى أننا لا يمكننا بالمثل تحمُّلُ انفصالِ مثلِ الأنا عن الأنا طويلًا؛ ففي كل حالاتِ التخلي والزهد والقيود التي يفرضها مثل الأنا الأعلى على الأنا، يحدث من وقتٍ لآخر إطاحةٌ بهذه القيود؛ وهو ما يُمكننا رؤيته في الاحتفالات التي يُسمَح فيها بالمفاسد والتهتُّك بل

يُشجَّع على الانغماس فيها، على غرار ما كان يحدث في الاحتفال بعيد الإله ساتورن لدى الرومان أو الكرنفالات في العصور الحديثة. في باثولوجيا حالات الهوس، كما يُشير فرويد، ربما يحدث شيءٌ مماثل؛ إذ ينصهر مثل الأنا الأعلى والأنا معًا ويذوب مثل الأنا الأعلى مؤقتًا داخل الأنا. في حالاتِ الهَوَس، يستشعر المريض إحساسًا بالانتصار والإشباع الذاتي تزامُنًا مع التخلُّص من اتهاماته لذاته وكوابحها. وقد أشار فرويد إلى أنه أثناء حالات السوداوية، ينشِب صراعٌ شديد بين الأنا ومثل الأنا، لكن إذا تحوَّل هذا إلى نوبةِ هوس، إذن فقد حدث تمرُّد من قِبل جُزءٍ من الأنا ضد مثل الأنا الأعلى.

(٣) مستويات التماهي المتعددة

ناقش فرويد في كتاب «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» (١٩٢١) التماهي في سياقِ علاقةِ مجموعةٍ ما بقائدها، وكان قد تأمَّل بالفعل في كتاب «التابو والطوطم» (١٩١٣) في التطوُّر ما قبل التاريخي للبشر وبدايات النظام الاجتماعي. واستعان فرويد بدارون وبعض أدبيات الأنثروبولوجيا في زمنه لافتراضِ أسطورةٍ حول أصول المجتمع. كان القطيع البدائي يمتلك زعيمًا شرسًا كان يُبعد كل الأبناء الذكور خارج القبيلة رافضًا اقترابهم من نسائها، ولم يكن يُسمَح بالتناسُل إلَّا لأصغرهم. كان الأبناء يحبون أبيهم ويكرهونه في الوقت نفسه، وفي غمرة كراهيتهم اجتمعوا معًا وقتلوه والتهموا جسده، وبعد أن امتزجوا به، تَبيَّن حُبهم له وشَعَروا بالندم. لقد تَوحَّدوا وجدانيًّا مع الأب وعليه شُرعت قوانين ضد قتل الأب وسِفاح القُربى. وصَنعَت القبيلة طوطمًا كرمز للأب. لم يكن مسموحًا بتناول الطوطم خارج إطارِ وجبةٍ جماعية ضمن احتفالٍ سنوي. وقد تناول فرويد في كتاب «علم نفس الجماهير وتحليل الأنا» الآليَّات الخاصة بالجماعات ذات القادة الأقوياء. وذهب فرويد إلى أن كل أفراد المجموعة سينظرون للقائد كمثلهم الأعلى، ومع تقاسم الجميع لهذا المثل الأعلى، يتماهَون جميعًا أحدهم مع الآخر؛ فيحدث تماهٍ مزدوج، وتتلاشى مُثُل الأنا الفردية لكل فردٍ لصالحِ موضوعٍ مثالي مشترك، وتُؤدِّي هذه الآليَّة إلى رباطٍ قوي مع الموضوع مقارنةً بتماهي الأنا مع الموضوع؛ ففي الحالة الأولى تكون الأنا مُعدمة وقد سلَّمَت نفسها إلى الموضوع. أمَّا في الحالة الثانية، تُدَعَّم الأنا بسمات الموضوع المُستدمَج.

ناقش فرويد كذلك المستويات المتعددة للتماهي. يُعتبر التماهي، في سياق التطوُّر البشري، هو أَوَّل نوع من الروابط العاطفية بالآخرين يحدث قبل أن تنشأ علاقةٌ بالموضوع. وقد ضرب فرويد مثالًا لذلك بالصبي الصغير الذي يتماهى مع والده ويُريد أن يُصبح

مثله في كلِّ شيء. يمكننا القول إنه ينظر إلى أبيه كمثل أعلى، أمَّا بالنسبة إلى والدته، فهو يمتلك علاقةً شهوانية بها من النوع الاتكالي. وبذلك يكون لدى الصبي الصغير رابطتان مختلفتان: التماهي مع والده، وتركيزٌ نفسي مُوَجَّه إلى موضوعٍ جنسي مع والدته. تتعايش كلتا الرابطتَين باستقلاليةٍ لفترةٍ ما جنبًا إلى جنبٍ وتستعدان لظهورِ عُقدة أوديب؛ إذ يُلاحظ الطفل الصغير بعد ذلك أن والده يقف في طريق علاقته بوالدته، ويرغب في استبداله، ليتخذ تماهيَه مع والده الآن جانبًا عدوانيًّا. دائمًا ما يكون التماهي متناقضًا ويمكن النظر إليه كاشتقاق من المرحلة الفموية المُبكِّرة: «أنا أُحبك، ومن ثَمَّ ألتهمك وأقضي عليك في الأثناء.» ومن الممكن أن يحدُث التماهي مع المُكافئ الإيجابي أو السلبي.

يُمكن أن يُصبح التماهي مع الموضوع هو النذير بحدوثِ رابطٍ مع الموضوع، كما يحدُث، على سبيل المثال، عندما يبحث الطفل الصغير ذو الطابع والسلوك الأُنثوي عن الإشباع من والده كموضوعٍ جنسي له. إذا كان هناك رابطٌ تماهٍ مع الأب، يرغب الطفل في أن «يكون» مثل الأب، وإذا اتخذ الأب كموضوعٍ له، فإنه يرغب في «امتلاك» الأب.

يضرب فرويد مثالًا بالطفلة الصغيرة التي تُريد استبدال والدتها في صراعٍ عدائي، ومن ثَمَّ تظهر نفس السعال المُزعِج الذي أَصِيبَت به والدتها. إنها تريد استبدال والدتها في علاقتها بوالدها، وهذا العَرَض إنما يُعبِّر عن الصراع بين حبها لوالدها وإحساسها بالذنب تجاه والدتها. ربما تكون طفلةٌ أخرى مصابةً بالسعال مثل والدها، وبما أنها لا يمكنها الحصول على والدها (كموضوع للحب)، فإنها تتماهى معه طبقًا لفلسفة «ما لا أستطيع امتلاكه يمكن أن أكونه»، فيما يُعد هنا نكوصًا لاختيار الموضوع ليصبح تماهيًا.

من الممكن كذلك تقليد سمةٍ مُعيَّنة لشخصٍ ما دون وجود علاقة به، وغالبًا ما يقوم هذا على تمني المرء أن يكون في الموقف نفسه. ويضرب فرويد مثالًا على ذلك بفتيات في مدرسةٍ داخلية، حيث إحدى الفتيات على علاقةِ حبٍّ سرية بأحد الأشخاص وتلقَّت رسالةً أثارت غَيرتها، فتنتابها نوبةٌ هستيرية وتتماهى معها الفتيات الأخريات، اللاتي ربما لا يكنَّ على علاقةِ صداقةٍ شخصية بها، لكنهن وَدَدن لو كنَّ في علاقاتٍ غرامية سرية كذلك، وتنتابُهن نوباتٌ هستيرية أيضًا. لقد أُزيح التماهي ليتحول إلى عَرَض الفتاة الذي يُشير إلى الرغبة التي يجب أن تظل سرًّا. وقد لخَّص فرويد هذه المصادر الثلاثة كما يلي:

> أولًا: يُعتبَر التماهي هو الشكل الأصلي للارتباط العاطفي بموضوعٍ ما. ثانيًا: يُصبِح بديلًا على نحوٍ نكوصي لارتباطٍ شهواني بالموضوع، ربما بواسطة

استدماج الموضوع داخل الأنا. وثالثًا: ربما يأتي مصاحبًا لأي إدراكٍ جديد لصفةٍ مشتركة مع شخصٍ آخر ليس موضوعًا للغريزة الجنسية. (١٩٢١، صفحة ١٠٧)

في كتاب «الأنا والهو» (١٩٢٣)، أشار فرويد إلى أنَّ طبيعة الأنا بالكامل تتكوَّن من رواسب التماهي من موضوعاتٍ مهجورة. فتُجرَّد الشحنة الشهوانية للطاقة النفسية المُوجَّهة للموضوع المُتخلَّى عنه من خصائصها الجنسية وتتحول إلى طاقةٍ نرجسية. ويحدث نوعٌ من التسامي بواسطة التحوُّل من تركيز الطاقة النفسية على الموضوع إلى تركيزها على النفس، ويتغير معها هدف الشحنة الشهوانية. وقد قال فرويد في ذلك إن الأنا تحوي تاريخَ اختياراتِ الموضوع المهجور ويجب اعتبارها كبيئةٍ مُستدخلة.

(٤) الأنا العليا والتماهي

أَهمُّ التماهيات التي نصنعها خلال الطفولة هي تلك التي تبني قوةً خاصة للأنا: الأنا العليا. إن التماهي الأَوَّلي للصبي مع والده يُعتبر تماهيًا مباشرًا يسبق تكوين طاقةٍ نفسية مُوجَّهة نحو الموضوع، كما ناقش فرويد من قبلُ، ليضيف في عام ١٩٢٣ أن مثل هذا التماهي ربما يكون مُوجَّهًا جينيًّا. إن خيارات الطفل للموضوع بوجهٍ عام ترتبط بوالده ووالدته، لكنه عندما يدخل مرحلة التطوُّر الأوديبية، يجب أن نأخذ في الاعتبار وجود علاقةٍ ثلاثية الآن، وازدواجيةٍ فطرية في الميول الجنسية تلعب دورًا مهمًّا. افتَرَض فرويد أن الصبي يرتبط لفترةٍ ما بأبيه عبر التماهي الأَوَّلي وبوالدته بواسطةِ علاقةٍ مُبكِّرة بالموضوع. وتتعايش هاتان الحالتان جنبًا إلى جنبٍ لفترة حتى تشتد رغباته الجنسية تجاه والدته، ثم تصبح علاقته بوالده متناقضة، ويتمنى لو تَخلَّص منه. لقد دخل الصبي الآن مرحلةَ عُقدةِ أوديب الثلاثية. وعند حسم الموقف الأوديبي في النهاية، يحدث شيءٌ من اثنين: إمَّا التخلي عن الطاقة النفسية المُوجَّهة نحو الموضوع؛ أي الأم، وسيُؤدي هذا إلى تماهٍ معها، وإمَّا تكثيفٌ للتماهي مع الأب، مما يسمح بحدوثِ علاقةِ حبٍّ تنطوي على هدفٍ مكبوت مع الأم. والموقف بالنسبة إلى الفتاة مُشابِه: إمَّا سيحدث تكثيفٌ لتماهيها مع الأم وهو ما سيُعزِّز تطوُّر شخصيةٍ أُنثويةٍ لديها، وإمَّا ستتماهى الفتاة مع والدها وتصبح فتاةً غُلامية، وتَتطوَّر لديها سِمات شخصية ذكورية.[٢] وكان فرويد يرى أن ازدواجية الميول

الجنسية تُؤثِّر على تقلُّباتِ عُقدةِ أوديب بالنسبة إلى كلٍّ من الصبية والفتيات؛ إذ تتباين القوى النسبية للميول الذكورية والأُنثوية.

تعتمد عقدة أوديب السلبية كذلك على الميل نحو الازدواجية الجنسية، وغالبًا ما نجد أن عقدة أوديب في الواقع مُزدوجة؛ فالصبي يتصرف في بعض الأوقات كفتاةٍ صغيرة، ويظهر سلوكًا أنثويًّا حنونًا ورقيقًا تجاه والده، ومشاعرَ منافسةٍ وغَيرة تجاه والدته؛ الأمر نفسه ينطبق على عقدة أوديب السلبية لدى الفتيات الصغار؛ ففي نهاية مرحلة التطوُّر الأوديبي نجد أنا عُليا لدى الصبية والفتيات قد تكوَّنَت بفعل التماهيات مع الأم والأب.

إن التماهي مع الأب بالنسبة إلى الصبي يُحافظ على علاقة الموضوع بالأم ويحل مَحلَّ علاقة الموضوع الأُنثوي مع الأب. يقود ترسُّب عقدةِ أوديب في الأنا إلى حدوث تغيير بها؛ إذ تُواجَه محتويات الأنا بجزءٍ منفصِلٍ وهو الأنا العليا، التي تشغل موقعًا خاصًّا، وليست فقط مُجرَّد راسبٍ للخياراتِ الأُولى للموضوع الخاصة بدوافع الهو. وقد صرَّح فرويد بأنها أقوى من مُجرَّدِ راسبٍ بل هي تُشكِّل لِردٍّ فعلٍ نَشِطٍ ضد هذه الخيارات. يزعم في «الأنا والهو» أن هذا المفهوم للأنا العليا يجب أن يُنظَر إليه كمكافئ لمثل الأنا الأعلى. فقد كان فرويد يعتقد أن المثل الأعلى للأنا المثالية كان يُنظَر إليه كمرحلةٍ خاصة، أو شكلٍ مختلف للأنا، لكن الجديد هنا هو أن ذلك الجزء من الأنا كان أقلَّ قوةً في الارتباط بالوعي.

وكما أشار سترايتشي بعد نشرِ كتابِ «الأنا والهو»، فإن «مثل الأنا الأعلى» كمُصطلَحٍ مُتخصص قد اختفى بالكامل تقريبًا ليحل محله مصطلح «الأنا العليا». في هذا الكتاب توصَّل فرويد لرؤاه النهائية بشأن اشتقاقِ الأنا العليا من علاقات الموضوع المُبكِّرة للطفل. إن الأنا العليا تحوي المطلب المزدوج الذي يقول «يجب أن تكون مثل والدك.» و«قد لا تُصبِح مثل والدك.» ومهمة الأنا العليا هي كبت المساعي الأوديبية للطفل؛ فقد أصبح والداه عقبةً في طريق إدراكهما والتشبُّه بهما؛ فيتماهى الطفل مع الوالدَين ويُعلي من شأنهما في أناه العليا، وهو ما يصبح بدوره جزءًا منفصلًا من الأنا. يستقي الطفل قوته من الأب، كما يقول فرويد، وتحتفظ الأنا العليا بهذه الشخصية للأب؛ لذا، كلما زادت قوة الأمنيات الأوديبية، زادت سرعة كبتها.

زعم فرويد أن الأنا العليا هي نتاجُ عاملَين مهمَّين: عامل بيولوجي، وتحديدًا الفترة الطويلة من العجز وانعدام الحيلة والاتكال في مرحلة الطفولة؛ وعامل تاريخي ويتمثل في حقيقة عقدة أوديب وكبتها. كان فرويد مؤيدًا لفكرة ساندور فرينزي من أن العصر الجليدي قد عرَّض البشر إلى مشاق وصعاب بالغة، مما استلزم إحداثَ تعديلاتٍ في أسلوب

حياتنا؛ فقد اضطر النسل للامتناع عن التكاثُر لفترةٍ طويلة؛ ومن ثَمَّ أصبح تطوُّر الحياة الجنسية لدى البشر ثنائيَّ الطَّور بمرور الوقت.

تتراجع الجنسانية الطفلية مؤقَّتًا بعد كبتِ عُقدة أوديب معياريًّا؛ إذ تخمد الجنسانية خلال السنوات القليلة التالية حتى البلوغ عندما يكتمل التطوُّر الجنسي بفعل نُضج الأعضاء التناسُلية. وفي ذلك يقول فرويد إن الأنا العليا هي وريثُ عقدةِ أوديب؛ فبناء الأنا العليا هو ما يكبح جماحَ عقدةِ أوديب ويُروِّضها. وكان قلقًا من أن نُقَّاد نظرية التحليل النفسي كانوا غالبًا ما يشتكون من أنها تعاملَت فقط مع الجزء الأدنى من الوجود البشري دون الالتفات إلى القيم العليا والإنجازات الثقافية للجنس البشري. وذهب إلى أنه من خلال وصفِ كيفيةِ خضوع الأنا العليا إلى الهو، أوضح التحليل النفسي أن الهو الذي ينتمي إلى أدنى جزء من الحياة العقلية قد تغيَّر بفعل تحوُّل الأنا العليا إلى أعلى ما في حياة البشر: الأخلاق والدين والحسِّ الاجتماعي.

تنشأ الأنا العليا من تماهياتنا الأُولى، وتُعتبر كذلك الوريث لعقدة أوديب. وكان فرويد يعتقد أن تماهيات الأنا التي حَدثَت على مدى آلاف السنوات أَصبحَت المحتويات الجينية للهُو. ورسم صورةً تخيُّليةً لأبٍ وأمٍّ أصليَّين في الهُو. في التطوُّر الفردي، تُفعَّل أمنيات الهُو المبرمج جينيًّا بواسطةِ أُمنيات الطفل لوالدَيه خلال المرحلة الأوديبية القضيبية من التطور. والتماهي مع الوالدَين موضوعِ أُمنياتنا الأوديبية يُقرِّب الأنا العليا من الهُو ويُبعدها عن الوعي؛ لذا، فإن الأنا العليا تُمثِّل الواقع النفسي على النقيض من الأنا التي تُمثِّل بيئةً مستدخلة.

ناقش فرويد مسألةَ ما إذا كانت الأنا العليا تتكوَّن من رواسب الذاكرة الكلامية أم البصرية. تتألَّف الأنا العليا، شأنها شأن الأنا، من رواسب كلامية؛ إذ تأتي تلك الرواسب من كلماتٍ مسموعة. لكن عندما تكون وظيفة الأنا العُليا غيرَ واعية، فإن التركيز النشِط للطاقة النفسية يأتي من الهُو ومن ثَمَّ فهي أقرب إلى العملية الأوَّلية. تأتي قسوة الأنا العليا جزئيًّا من تماهي الطفل مع مُتطلَّبات وتعاليم والدَيه، أو بشكلٍ أكبر من المُثُل والأنا العليا للوالدَين؛ ومن ثَمَّ تُحافظ على ثقافة وتقاليد المجتمع. لكنها، وعلى نحوٍ جزئي أيضًا، تُعد نتاجًا لقوة وشدةِ دوافعِ أُمنيات الطفل الأوديبية. وقد برهن فرويد على أن التماهي دائمًا ما يكون ازدواجيًّا؛ كونه قائمًا على النموذج الفموي: «أنا أُحبك ولذا سألتهِمُك وأُدمِّرك في الأثناء.» وعند التخلي عن تركيز الطاقة النفسية على الموضوع مع التوجُّه نحو التماهي،

يحدث تفكُّك للدوافع. فتُنزَع السمات الجنسية عن دوافع الغريزة الجنسية وتُصبح طاقةَ أنا نرجسية، لكن الجزء المنبثق من الطاقة النفسية الغريزية التدميرية يَتحرَّر ويدعم الأنا العليا في هجماتها القاسية الساديَّة على الأنا. وكلما زادت قوةُ دوافعِ أمنيات الطفل الأوديبية، أصبحت الأنا العليا أكثرَ صرامةً وقسوة؛ لذا فإن فرويد قال إنه كلما كبح المرء عُدوانيته ازدادت الأنا العليا قسوة. والعكسُ غيرُ صحيح.

تعمل الأنا العليا عمل المثل الأعلى للأنا وعمل الضمير كذلك؛ فالأنا تستشعر الأخير كإحساس بالذنب. نحن نختبر شعورًا واعيًا بالذنب عندما نشعُر بالندم بسبب تصرُّفٍ عدواني، لكن قد نشعر كذلك بالذنب عندما لا تشعر الأنا بدافعٍ عدوانيٍّ مكبوت، لكن تُسجِّله الأنا العليا. وهذا يُبيِّن العلاقة الوطيدة بين الأنا العليا والهُو. بالمثل يحدث هذا في حالات العُصاب الوسواسي عندما تجعل الأنا العليا الأنا تشعر بالذنب لأجل دوافعَ عدوانيةٍ مكبوتة. وقد قال فرويد إن الأنا حينها تعترض ولا تشعر بالذنب بل بالمرض. أمَّا في حالات السوداوية، فتخضع الأنا المتماهية مع الموضوع إلى مثل هذه الدوافع وتشعر بأنها مُعذَّبة. ولفت فرويد الانتباه إلى هذا الاستخدام الخاطئ لمصطلح «المشاعر اللاواعية بالذنب». تحرِّيًا للدقة، نحن لا نستطيع اختبار المشاعر إلا عندما نشعر بها، ولا يُمكِننا الشعور بأيِّ مشاعرَ على نحوٍ لا واعٍ. أمَّا «المشاعر اللاواعية»، فيُقصد بها الإزاحة الدفاعية للمشاعر على موضوعٍ آخر. يمكننا كذلك السعي وراء العِقاب بسبب إحساسٍ لا واعٍ بالذنب، والمثال على ذلك ردُّ الفعل العلاجي السلبي خلال فترة العلاج.[٣] يمكن كذلك أن يتسبب الشعور اللاواعي بالذنب في تحوُّل الأشخاص إلى مُذنبِين؛ فقد نتصرف تصرُّفًا إجراميًّا لكي نُخفِّف من حالات التوتُّر التي لا يُمكن للأنا أن تُميِّزها كشعورٍ بالذنب؛ فالمازوخية الأخلاقية تُشبِع الحاجة إلى العِقاب وتختفي عندما تُواجهنا المواقف الحياتية الخارجية بما يكفي من المشقَّة.

خاتمة

لقد سعيتُ في هذا الفصل إلى توضيحِ كيف ناقش فرويد في بحث «مقدمة عن النرجسية» (١٩١٤) تكوُّن المثل الأعلى للأنا من تماهي الطفل مع الوالدَين، وكيف تناوَل في مطبوعاتٍ أخرى لاحقةٍ الجوانب والمستويات المتعددة للتماهي قبل أن يُقدِّم مفهوم الأنا العُليا في كتاب «الأنا والهُو» عام ١٩٢٣. كان العامل الجديد الذي ناقشه هنا هو أن المثل الأعلى للأنا

كان يُمثِّل جزءًا أقل من الوعي عما افترضه من قبلُ. ومنذ ذلك الحين استخدم مُصطلح الأنا العليا، والذي تضمن عدةَ جوانبَ لمثل الأنا الأعلى، بينما استخدم مصطلح المثل الأعلى للأنا بعد ذلك مراتٍ قليلةً فقط في كلِّ ما نشره لاحقًا.

هوامش

(١) لا يُمكن ترجمة المصطلح الألماني Über-Ich حرفيًّا؛ إذ سيعني «فوق-أنا». وقد ناقش جيمس سترايتشي هذه المشكلة مع فرويد الذي وافق على وجوب استخدام سترايتشي مُصطلحَي الأنا والأنا العليا. ولسوء الحظ، فُقِد قَدْر من الأثر القوي للمصطلح الألماني الأصلي خلال الترجمة.

(٢) في كتاب «الأنا والهو» (١٩٢٣)، افترض فرويد أن كلًّا من الفتية والفتيات يمُرون بالمرحلة الأوديبية على النحو نفسه. بعد ذلك بفترةٍ قصيرة (١٩٢٣، ١٩٣١)، غيَّر فرويد آراءه بشأن المرحلة الأوديبية لدى الفتيات؛ فقد أشار فرويد إلى أن الفتيات والفتيان يُصبِحون على وعي بالاختلافات التشريحية بينهم خلال هذه المرحلة من التطوُّر، ثم افترض أن الفتياتِ يدخلن المرحلة الأوديبية عندما يبتعدن عن الأم؛ لإلقائهن اللومَ عليها لافتقادهن للقضيب الذكري، مما يدفعهن للاتجاه نحو الأب وتمنِّي إنجابِ طفلٍ منه. وينتهي هذا الموقف الأوديبي بإحباطٍ متجدد؛ إذ تتجه الفتاة مرةً أخرى إلى الأُم أو تتماهى مع الأبِ وتتطور لديها سماتٌ شخصية رجولية قبل أن تُطوِّر هويةً أُنثوية خلال مرحلة البلوغ.

(٣) أشار فرويد إلى أن بعض المرضى يستجيبون بمقاومةٍ شديدة عند حدوث تحسُّن في حالتهم خلال العلاج. إنهم يرهبون التحسُّن كما لو كان خطرًا بالنسبة إليهم؛ فهم يجدون إشباعًا في مرضهم ويرفضون التخلي عن عِقاب المُعاناة. وتعود هذه الاستجابة العلاجية السلبية إلى عاملٍ أخلاقي وهو إحساسٌ بالذنب يظل في اللاوعي؛ فهؤلاء المرضى لا يشعرون بأنهم مُذنبون، بل يشعرون بأنهم مُعتلُّون. وهذا الإحساس بالذنب يُعبِّر عن نفسه فقط في صورةِ مقاومةٍ للشفاء من الصعب جدًّا التغلُّب عليها.

الجزء الخامس

المزيد من الحالات الإكلينيكية

الفصل العاشر

«ملاحظات على حالةِ عُصابٍ وسواسي»

بول ويليامز

يشغل بحث «ملاحظات على حالةِ عصابٍ وسواسي»، بجانبِ عددٍ من التقارير عن حالاتٍ تحليلية أُخرى أجراها فرويد، مكانةً خاصة بين أدبيات التحليل النفسي كواحدٍ من أوائل التقارير الكاملة لحالةِ تحليلٍ نفسي؛ ومن ثَمَّ فإن له أهميةً تاريخيةً كبرى من ناحيةِ أنه يُقدِّم صورةً للتطوُّر العملي والنظري للتحليل النفسي عام ١٩٠٧ (عندما بدأ فرويد تحليل الحالة). بيد أن أهمية البحث تتجاوز الجانب التاريخي؛ فسردُ الحالة يظل آسرًا بسبب طابعه التفصيلي وانتباه فرويد الثاقب إلى أقلِّ قدْر من البيانات التي ستُفهم أهميتها فقط على نحوٍ صحيح في ضوء التطوُّرات النظرية اللاحقة. ومن الصحيح أيضًا أن البحث، كسردٍ أدبي للعالم الداخلي لفردٍ يُعاني من الوسواس، يُمثِّل مادةً جذَّابة للقراءة. ويرجع هذا جزئيًّا إلى كونه «عرضًا» من قِبل فرويد لكيفيةِ فهمِ معنى عُصاب الوسواس القهري الذي حيَّر الطب وعلم النفس؛ فالبحث، بجانب السجل الأصلي للمُلاحظات على الحالة الذي وَضعَه فرويد (والذي يظهر مباشرةً وراء البحث في النسخة الأصلية)، ينقل العلاقة بين طرفَي التحليل، وشخصيتَيهما، وعالم المريض الداخلي، ومكانِ ومناخ التحليل والطرق التي أجري بها التحليل، وما فعله فرويد بكمٍّ هائلٍ من المعلومات المُحيِّرة.

ونظرًا لمكانة هذه الحالة في النظرية الناشئة للتحليل النفسي وامتلاءِ سِجلها التحليلي، فقد خضعت لقدْر لا يُستهان به من التدقيق والفحص والتفسير من جانبِ عددٍ من المُعلِّقين، كما تعرَّضَت للنقد والتقدير على حدٍّ سواء؛ وتحديدًا انتقاد البعض لفرويد بسبب ما بدا أنه ابتعادٌ عن أسلوب التحليل النفسي «الكلاسيكي» من خلال استخدامه

الطرقَ الداعمة والاجتماعية والوعظية في التواصل. دافَع آخرون عن أفعال فرويد، وسوف يُستعرض جانبًا هذا الجدل بالنقاش. اتُّهِم فرويد كذلك بادِّعاء حدوث مستوًى من التحسُّن لدى المريض لم يتمَّ الحفاظ عليه، رغم ما سنذهبُ إليه فيما يلي من كون هذا النقد أقلَّ قابليةً للدفاع عنه أو التمسُّك به.

(١) الأفكار الأساسية في حالة «رجل الجرذان»

يحمل الاسم المستعار «رجل الجرذان» معنًى ضمنيًّا تحقيريًّا غيرَ مُلائم بالنسبة لشخصٍ مُصاب بمرضٍ وسواسيٍّ تعجيزي. كان المريض هو بول لورينز الذي جاء إلى فرويد وهو في العشرينيات حاملًا معه عددًا من الأعراض كان يُعاني منها منذ الطفولة، وزادت حدَّتها خلال السنوات الأربع الأخيرة. كانت الفكرة العامة لمتاعبِه لفترةٍ طويلة هي خوفه من حدوثِ أَمرٍ مُروِّع لوالده وامرأةٍ كان (لورينز) يُحبها. وجد لورينز نفسه في مواجهةِ إغراء الزواج من امرأةٍ أخرى غير التي أَحبَّها وخَطَّط للزواج بها. وقد خلق هذا الصراع لديه حَيرةً وأصبح عالقًا في فخٍّ صنعه اختيارٌ مستحيل، كما كان يرى، بين اتِّباع أُمنيات والدَيه (وخاصة أباه) وبين رغباته. كان هذا الصراع، بمثابة صدًى أو إبرازٍ لصراعٍ مماثل من الطفولة؛ فقد كان لورينز كذلك يُعاني من مخاوف وقلاقلَ نفسيةٍ إثر وفاةِ خالةٍ له.

كان لورينز يُعاني من دوافعَ مُخيفة، مثل الرغبة في قتل نفسه أو الانتحار بطرقٍ أخرى، وفرَض على نفسه عددًا من المحظورات قيَّدَت حياته إلى حد اليأس. وجد فرويد نفسه في مواجهةِ شابٍّ ذكي فطِن أُعِيق تطوُّره العاطفي والجنسي والاجتماعي على نحوٍ بالغ بسبب تفكيره الهَوَسي، الذي اتضح أن جذوره تعود إلى الطفولة. بدأ التحليل وشرع لورينز، بتعليمات من فرويد، يتحدَّث بصراحة، في سرد مشكلاته. تحدَّث عن احتقاره لذاته القائمِ منذ زمنٍ طويل، وكيف أنه سعى للحصول على دعمٍ من أقرانه في هذا الشأن، وذكَر شابًّا صادقه لكن اتضح أن هذه الصداقة كانت حيلةً فقط للوصول إلى شقيقة لورينز. شعر لورينز بالخيانة ووصَف ما حدث بأنه «أَوَّل صفعةٍ كبرى له في حياته.» وصف كذلك حياته الجنسية المُبكِّرة التي بدأت في الرابعة أو الخامسة، عندما بدأ استكشافاتٍ سرية للأعضاء الجنسية لمُربِّيته. وتزايدَت حدة اهتمامه بالجسد الأنثوي خلال طفولتِه من خلال عدةِ وقائعِ تَلصُّص واختلاس للنظر، وعدة مناسباتٍ حدث فيها تواصلٌ جنسي مع خادمات. يشير فرويد إلى أن «النظر كان مثل اللمس» بالنسبة إلى لورينز، وهذا أمرٌ مثير للاهتمام خاصةً في ضَوء ما ذكره فرويد لاحقًا من أن تجنُّب

الاتصال واللمس الشخصي يقبعُ في جوهر العُصاب الوسواسي. كان لورينز ينتصب منذ أن كان في السادسة تقريبًا، وشَعَر بالقلق مما يحدث ومن رغباته المُلِحَّة في أن يرى النساء عاريات؛ فقد كان قلقًا من أن يعلم والداه عن أفكاره ورغباته، وكان بالفعل مرعوبًا ومكتئبًا (ببلوغه سن السادسة) من فكرة أن والده سيموت. ماتت شقيقتُه كاثرين وهو في أوج حالة العُصاب الطفولي التي أصابته، ومن الواضح أن هذا قد مثَّل له خسارةً فادحة.

استمر لورينز في سرد العديد من مخاوفه في مرحلة الرشد إلى فرويد؛ حيث احتلَّت الأزمة المتعلقة بالزوجتَين المحتملتَين وخوفه من مخالفة أُمنياتِ والده موقعًا أساسيًّا في حكايته. وتحدَّث كذلك عن واقعةٍ غريبة أَصبحَت فيما بعدُ موضوعًا أساسيًّا للتحليل. كان هذا خلال التدريبات العسكرية التي اشترك فيها لورينز قبل بدء جلسات التحليل. في إحدى المرات قبل مسيرةٍ عسكرية، فقَد لورينز نظَّارته الأنفية، وأرسل إلى صانع النظارات الخاص به يطلب زوجًا جديدًا بدلًا من تأخير زملائه، لكن بعد أن بَدأَت المسيرة وتَوقَّف الجنود للراحة، جلس لورينز بين ضابطَين حكى أحدهما (وكان برتبة نقيب) عن عقوبةٍ رهيبة للغاية للمُجرِمين في الشرق. بصعوبة وبعد الكثير من التشجيع من فرويد، كشف لورينز عن تفاصيل العقوبة؛ إذ يُقيَّد المجرم ويُوَجَّه رأسُه للأسفل ثم يُوضع دلوٌ مقلوب على رِدفَيه وتُوضع جرذانٌ في ذلك الدلو، لتشق تلك الفئران طريقها تدريجيًّا إلى داخلِ جسم المجرم من خلال فتحة الشرج. يُعلِّق فرويد في بحثه على رعب لورينز من المتعة التي شعر بها على نحوٍ عفوي في أثناء سرد القصة؛ فقد أفضى لورينز إلى فرويد أن ثَمَّةَ فكرةً معينة استَحوذَت عليه بينما كان الضابط يصف العقاب، وهي أن التعذيب كان يحدث لشخصٍ عزيز عليه للغاية، ربما كانت المرأة التي يحبها. وأضاف أنه في مساء اليوم الذي سمع فيه بالقصة، سلَّمه الضابط نفسه طردًا يحوي نظَّارته الأنفية الجديدة، قائلًا إن ضابطًا آخر دفع التكاليف وإن على لورينز أن يرُدَّها إليه. وبدون سببٍ واضح، أصبح لورينز مقتنعًا أنه «لا» يجب عليه رَدُّ المال إلى الضابط، وإلا فسيقع التعذيب بالجرذان على والده والمرأة التي يحبها. وأعقب هذا بالتبعية تعهُّدٌ ب «ضرورة» رَدِّ المال. حاول لورينز رَدَّ المال، لكن ازدواجيته كان لها اليد العُليا وفشل في ردِّ المال إلى الرجل. عندما تحدث في النهاية إلى الضابط، أخبره الأخير، على نحوٍ زاد من حيرته، أن رجلًا «آخر» في الواقع هو من دفع تكاليف النظارة. حلَّ لورينز هذه المعضلة بطريقةٍ عملية، بأن قرر الذهاب بصحبة «كلا» الرجلين إلى مكتب البريد وإعطاء المال إلى المُوظَّفة الشابة الجالسة وراء الشباك، التي ستُعطيه بدورها إلى الرجل الثاني الذي دفع تكاليف النظارة.

بعد ذلك يدفع لورينز المبلغ نفسه إلى الرجل «الأول» وبذلك يحافظ على قسمه. يُعلِّق فرويد تعليقًا مثيرًا للاهتمام حول الجلسة التي ظهرت فيها هذه الأمور المثيرة للقلق والإزعاج؛ ففي مرحلةٍ ما يُطمئن فرويد لورينز بأنه ليس مولعًا شخصيًّا بالعنف والقسوة مثل النقيب، ولا يتمنَّى تعذيب مريضه. يُضيف فرويد أن لورينز قد أشار له بكلمة «نقيب» أثناء الجلسة. وكما سنرى لاحقًا، كان لتداعيات التحويلية لتعليق فرويد توابعُ قويةٌ لم يعالجها فرويد جميعًا.

في الجلسات التالية، فصَّل لورينز القصة الخاصة بهاجسِ تعهُّدِهِ بِرَدِّ المال، وتخلَّل ذلك سردٌ طويل ومُعقَّد لتأمُّلاته العالقة، واستعادةٌ لذكرى ما زادت الموقف تعقيدًا. كان ثَمَّةَ ضابطٌ آخر قد أخبر لورينز في اليوم الذي «سبق» سماعه بقصة التعذيب بالجرذان أنَّ من دفَع تكاليفَ استلامِ النظَّارة كان في الواقع المرأة التي تعمل في مكتب البريد. من الواضح أن النقيب «القاسي» كان مُخطئًا وفي مكانٍ ما في عقل لورينز (بالنظر إلى توقيت تلك الأحداث) لا بُد أنه كان يعرف هذا، لكنه استمَرَّ في قطع العهد على نفسِه بناءً على صحة كلام النقيب. وقد تسبَّب هذا التشويه الذي طال الحقيقة في تعذيبٍ لا نهائيٍّ للذات؛ ففي الأسابيع والشهور التالية بعد سماعه بعقوبة التعذيب بالجرذان، صار تعهُّد لورينز اللَّحوح (والذي كان في غيرِ موضعه) بدفع المال للضابط يُطارِده لدرجةٍ دفعَته للإتيان بالفكرة البارعة أنه لو استطاع أن يُري الضابط شهادةً طبية تنص على أن صحة لورينز ستُصبِح في خطر إذا لم يُسدِّد المال، فإن هذا من شأنه أن يُقنِعه بقبوله. وأثناء انشغاله بفكرة الوصول إلى طبيبٍ لدعم فكرةِ أنه مريض، وجد لورينز طريقه إلى مكتب فرويد.

أعقب هذه الأحداث الغريبة المحيِّرة بوقتٍ قصيرٍ تقريرٌ مُطوَّلٌ قُدِّم إلى فرويد عن إصابةِ والدِ لورينز بانتفاخ الرئة الذي قضَى عليه في النهاية قبل تسعِ سنوات. وذكر لورينز على وجه التحديد محادثةً مع طبيب العائلة في ذروةِ مرضِ والده. سأل لورينز الطبيب متى سيتجاوز والده مرحلة الخطر لتأتي الإجابة: «مساءَ بعدِ غد.» ذهب لورينز ليستريح ظانًّا أن والده سيتحسن بحلول ذلك الوقتِ لكنه استيقظ بعد فترةٍ قصيرة ليخبروه أن والده قد مات. فراح يُؤنِّب نفسه بشدةٍ لعدم تواجُده لحظة الوفاة، ثم وجد نفسه يُنكِر حقيقة موت والده. وازدادت هواجس اتهاماته لذاته سوءًا حتى وَصلَت إلى الشعور بالعجز والتفكير في الانتحار ومخاوفَ مما سيحدُث له في العالم الآخر. يهتم فرويد في التحليل النفسي بالنظر إلى مشاعر لورينز بالذنب بشكلٍ جديٍّ للغاية، لكنه يُؤكِّد له أن مصدر شعوره بالذنب لا بُد أنه يقبع في مكان آخر؛ إذ إن كليهما يدرك أنه لم يرتكب

أي فعلٍ إجرامي أو عنيفٍ ضد والده. في الواقع، إن فرويد يُعطي لورينز ما يمكن أن يُوصف بأنه درسٌ تعليمي عن الفروق بين التفكير الواعي واللاواعي، رابطًا إياهما بتاريخ لورينز مع المخاوف الأوديبية، وانشغاله بموت والده، والمشاعر المتناقِضة بعنف التي تُشكِّل أساسَ كلِّ هذا. كان لورينز مُنبهرًا بأفكارِ فرويد ورافضًا لها في الوقت نفسه، لكن حاجته للبوح بمشكلاته وتحويل مشاعره الإيجابي تجاه فرويد ساعده في تجاوُزِ قدْرٍ كبيرٍ من حذَره، واستمر في البوحِ بمخاوفِ طفولته، والتي تضَمَّنَت الوقوع في حبٍّ من طرفٍ واحد في سن الثانية عشرة مع صديقة شقيقته وتَخيَّل أنها لو عَرفَت بنكبةٍ حلَّت به (كموتِ والده)، فستزداد مشاعر الحب والحنان نحوه. بحث فرويد إمكانية أن تكون هذه النكبة المحتملة أمنية بالإضافة إلى كونه خوفًا في عقل لورينز، بينما استمر لورينز في البوحِ بأمثلةٍ أخرى لمجموعاتٍ مشابهة من الأفكار الأوديبية. ناقَش فرويد ولورينز بالتفصيل أمنيات ومخاوف طفولة لورينز التي ظَهرَت في هيئاتٍ متعددة وعلاقاتٍ مختلفة. وفي أثناء ذلك، كوَّن فرويد صورةً لمشاعر لورينز المُتناقِضة بشدةٍ تجاه والده. وأدرك فرويد أنه مع وفاة والد لورينز فعليًّا، ازدادت أعراض الوسواس سوءًا نظرًا لأن الموت لم يعُد مميزًا لدى لورينز على نحوٍ لا واعٍ عن التوابع المُتَخَيَّلة لأمنياته بموتِ والده. وبشكلٍ عامٍّ استغرَق التحليل، كما يقول فرويد، أحدَ عشَر شهرًا وتطلَّب جهدًا شديدًا من كلا الجانبَين، لا سيما من جانبِ فرويد، لحلِّ لُغزِ مجموعةٍ من الأفكار الطفولية وتشوُّهات الواقع التي جَعلَت كلا الواقعَين الداخلي والخارجي مربكَين على نحوٍ مستحيل بالنسبة إلى لورينز.

(٢) مفاهيم أساسية

استُخدِم ملخص فرويد للحالة، والذي يُعتبر ما ذُكِر أعلاه هو المُلخَّص الأكثر إيجازًا له، كمنصةٍ لعرضِ أسلوبِ فكره وأفكاره بقَدْر كونه سِجلًّا لحالةٍ تحليلية للعلاج بالتحليل بالنفسي، وهو ما ينعكس في بِنية البحث؛ فبعد عرضٍ لتقريرٍ عن تاريخ الصعوبات التي واجهَت المريض وفهْم فرويد لها، ينتقل إلى فحصٍ أكثرَ استطرادًا للظواهر النفسية للأفكار الوسواسية، وفي القسم الأخير من البحث يُقدِّم نظرةً عامةً نظريةً للوسواس ومكانته في التفكير التحليلي. وهكذا نجد أنفسنا نتجه من التفاصيل التحليلية، «مُتجهِين إلى أعلى باستمرار»، نحو منظورٍ أوسعَ يبلغ قمَّته بوضعِ سياقٍ مفاهيمي نظريٍّ لمعنى أعراضٍ يُنظَر إليها في أيِّ سياقٍ آخر على أنها غيرُ مفهومة — وهو ما يُعتبر إنجازًا فذًّا ملموسًا للسرد النفسي والأدبي.

يستخدم فرويد مجموعةً من المفاهيم المتصلة فيما بينها عند مناقشةِ مَغزَى مرض لورينز. وكما هو الحال دائمًا، فإن أَوَّل ما يشغله هو تحويلُ أعراضٍ يبدو أنها ليس لها دافعٌ أو معنًى إلى أعراضٍ مفهومة، وذلك من خلال وضعِ أفكارٍ مضطربة في إطارِ عملٍ زمنيٍّ وتجريبي — كيف ومتى وتحت أيِّ ظروفٍ ظَهرَت هذه الأعراض؟ أحد الأمثلة على ذلك هو رغباتُ لورينز المُتهوِّرة في قتْل نفسه؛ إذ يُشير فرويد إلى كيفيةِ ارتباطِ ذلك بمشاعرِ فقدانٍ وغضبٍ تظهر عند انفصاله عن شخصٍ كان يُحِبه (وعلى وجه التحديد الفتاة التي يُحبها). كذلك كانت ثَمَّةَ رغبات غير مباشرة للانتحار، إحداها كانت مرتبطةً بفترةٍ قرَّر فيها لورينز أنه بدينٌ جدًّا وبدأ في ممارسةِ تمارينَ رياضيةٍ شاقةٍ ليصبح نحيفًا. وخلال ركضه في الجبال كان يشعُر بين الحين والآخر بالرغبة في رمي نفسه من فوقِ مُنحدرٍ شاهق. وكَشَف التحليل أن تفكيره المُضطرِب كان مرتبطًا بقريبٍ إنجليزي له يُدعى ديك، كان منجذبًا في وقتٍ ما إلى حبيبة لورينز أثناء قضائِه عُطلةً في المكان نفسه. وتبيَّن أن التنافُس الجنسي يقف وراء هذه الدوافع الانتحارية تحديدًا (من المثير أن «ديك» تعني «بدينًا» في الألمانية). اتخذ تفكير لورينز الوسواسي أشكالًا أخرى؛ فكان من الممكن، على سبيل المثال، أن يبالغ في حمايةِ حبيبته، بما في ذلك حمايتها من حوادثَ مُتخَيَّلة ربما تحلُّ بها. وعندما كان يفترق عنها لأيِّ فترةٍ من الوقت، كان في وقتٍ ما ينتابه هاجس الحاجة إلى فهم كلِّ مقطعٍ ينطق به الآخرون، كما لو كان يُخاطر بفقدانِ كنزٍ لا يُقدَّر بثمن (ليس من الصعب تخيُّل أن هذا يُمثِّل، من بين أمورٍ أخرى، صدًى لفقدانه لشقيقته). اتضح أن المشكلة مرتبطةٌ بشيء قالته له محبوبته وأُسيء فهمه أو تعرَّض لتحريف؛ فقد كان يظن (خطأً) أنها أشارت إلى أنها لم تعُد تُريد أن يكون لها أيُّ علاقةٍ به. وعندما صُحِّح هذا له، تعهَّد بألا يُسيء فهم أيِّ شخصٍ مرةً أخرى لكي يتفادى مثل هذا العذاب الذهني. إن هذه الشكوك وأوهام الحماية ومخاوف الحوادث والموت كانت، كما يذهب فرويد، نواتجَ لعدوانيةٍ يَتنصَّل منها تجاه حبيبته؛ فقد كان لدى لورينز مشاعرُ كراهيةٍ خارجة عن السيطرة بجانب حبه، وكان يتجنَّب الاعتراف بهذا بالفصل بين العواطف ومن خلال استخدام التبرير الفكري. لقد كان الصراع بين الحب والكراهية ذا أهميةٍ كبرى في كل المصاعب التي واجهَت لورينز في علاقته العاطفية.

بالتأمُّل في الأسباب التي أدَّت إلى مرض لورينز وعجَّلَت به، والتي لم يُدرِك المريض أهميتها (رغم أنه لم يَنسَ ظروف حدوثها)، يُعلِّق فرويد على اختلافٍ مهم بين الهستيريا

والوسواس؛ ففي الأول، تكون «القاعدة هي أن الأسباب المُعجِّلة بظهور المرض تخضع لفقدانِ الذاكرة على نحوٍ لا يقل عن تجارب الطفولة التي عن طريقها تستطيع تلك الأسباب أن تُحوِّل طاقتها العاطفية إلى أعراض» (فرويد، ١٩٠٩، صفحة ١٩٥). يُعتبر فقدان الذاكرة نتيجةً للكبت، ولا تُظهِر الاضطرابات العُصابية الوسواسية التآكل أو فقدان التأثير نفسه على الوعي. ورغم أن قدرًا من فقدان الذاكرة ربما يحجُب الشرط الطفولي المُسبق للمرض، فإن الأسباب المُعجِّلة بظهور المرض والظروف المحيطة بها تظل محفورةً في الذاكرة؛ فيتذكر المريض شيئًا عن بداية ورحلة المرض، وعن طريق إعادة سَردِ مرات لومه لذاته، قد يتيح مؤشرات للأصول اللاواعية لمشكلاته. يُعتبر مبدأ وجودِ علاقةٍ بين محتوًى ظاهر وآخرَ مُستترٍ مبدأً أساسيًّا للتحليل النفسي، لكن فرويد يُوضح هنا كيف أن الروابط في الاضطرابات العُصابية الوسواسية تكون أكثرَ سهولةً في الوصول إليها من خلال إدراك المريض الواعي للأعراض وما يربطه بها.

بالنسبة إلى فرويد، أشارت إعادة لورينز لسردِ الصراع بين رغبته في فتاةٍ معينة والمرأة التي يُخطِّط للزواج منها (قريبته الشابة الغنية) إلى النقطة التي أصبح عندها عاجزًا بأخطرِ ما يكون. كان فرويد مهتمًّا للغاية بالصراع بين رغبة لورينز في الفتاة والتأثير المستمر لوالده؛ إذ لم يعكس هذا الصراع مشكلاتِ لورينز الأوديبية فحسب، بل عكس كذلك الطريقة التي تَزوَّج والده بها من العائلة المُوسِرة نفسها. وجد لورينز نفسه عاجزًا بسبب تَردُّده وعدم قُدرته على العمل، ويُشير فرويد إلى أن العَرَض لم يكن مجرد نتيجةٍ للمرض بل «مُسببًا» له. ويُشير فرويد إلى أن لورينز كان متماهيًا، من خلال عجزه، مع والده الذي مرَّ بموقفٍ مماثل. وفي الوقت نفسه، كان صراع لورينز مع والده صراعًا قديمًا؛ إذ يمكن رؤيته من خلال حياة لورينز الجنسية المُبكِّرة. ورغم أنه كان في العموم على وفاقٍ مع والده، بِغَض النظر عن بعض المشكلات الظاهرية، فإن أوهامه الجنسية المكبوتة كطفل (كأن يموت والده ومن ثَمَّ يحظى (أي لورينز) بانتباهِ فتاةٍ صغيرة بعينها) أَظهرَت لفرويد وجود مشكلاتٍ أوديبية قائمة منذ أمدٍ طويلٍ جدًّا لدى لورينز. والمُثير في الأَمر أنه خلال عمليةِ تحويلِ المشاعر، ثار وهم الزواج من ابنة فرويد «من أجل مالها» في غضون فترةٍ قصيرةٍ من بداية التحليل.

يجمع فرويد بين «عقدة الأب» لدى لورينز، بما في ذلك علاقتها بالتعذيب بالجرذان، في سلسلةٍ من الخطوات تأخذ في الاعتبار أوهام لورينز الاستمنائية، وشوقَه إلى والده، وصراعاتِه معه (وخاصة فيما يخص اختيار فتاةٍ ما) إلى جانب قصةٍ مُعقَّدة عن تعرُّضه

للضرب على يد والده، ما أثار ثائرة لورينز، وما تبِع ذلك، كما أخبر فرويد، من «تحوُّله إلى شخصٍ جبان» يخشى العنف الجسدي. كان فرويد أكثر قدرة على إدراك علاقة الأب والابن خلال عملية التحويل، عن طريق خوف لورينز من انقلاب فرويد ضده انقلابًا عنيفًا. ثَمَّةَ مصدرٌ آخر للصراع مع والده تكشَّف من خلال ذكرى لواقعة لم يسدِّد فيها الأب دينًا كان عليه منذ كان في الخدمة العسكرية. لم يفُت فرويد الأهمية التماهوية لهذه الذكرى فيما يتعلق بشعور لورينز الوسواسي بالذنب بشأن إعادةِ رسومِ إرسال النظارة الأنفية. كان لدى لورينز مشاعرُ استنكارٍ ممتدةٌ منذ زمنٍ طويلٍ تجاه والده بسبب عدمِ تسويةِ ديونه، ومُجددًا، كان متماهيًا معه. وللزيادة من تعقيد الأمور، اتضَحَ أن الارتباك بشأن الضابطَين كان مرتبطًا كذلك بالحيرة المُبكِّرة في حياته بين الفتاتَين اللتين كان مرتبطًا بهما.

في خِضَم كلِّ هذا التناقُض والتفكير الجنسي، كان لقصة التعذيب بالجرذان (التي سردها على مسامع لورينز رمزٌ سلطويٌّ ذكوري) أثرٌ عميقٌ على مخيِّلته. يقول فرويد إن القصة أثارت داخل لورينز عددًا من الغرائز، كان أهمها «الشبق الشرجي» الذي كان نشطًا لديه منذ الطفولة. كانت الجرذان تحمل معانيَ رمزيةً عديدةً ربطها لورينز بها، من بينها المال «أقساط» (وتعني في الألمانية Raten)، وديون القمار (Spielratte)، وعدوى الزُّهري (والتي تعكس أوهام لورينز عن حياة والده في الجيش)، والقضيب، والديدان (إذ عانى لورينز من عدوى الديدان الأسطوانية وهو طفل)، والجماع من الشرج، والزواج (Heiraten)، والزوجة الفأرة من مسرحية «إيلوف الصغير» لهنريك إبسِن، والأطفال والعضُّ بقسوة (في استدعاءٍ لأسنان الجرذان الناخرة). لورينز نفسه كان قد عَضَّ بعض الناس وهو طفل ووَاتَته الكثير من الدوافع السادية لا سيما تجاه والده بالطبع. وهكذا أصبحتِ الجرذان كرمزٍ للأطفال (بمن فيهم لورينز نفسه) والرغبات القاسية والمجون علامةً مُميِّزة للتحليل. يربط فرويد كل هذه التداعيات في قراءةٍ ذكيةٍ للأهمية النفسية للوسواس في سياق الظروف المُعجِّلة بظهور المرض، وحياة المريض اللاواعية والوجدانية (وخاصة صراعاته مع الأشخاص القريبين منه)، وأوهام طفولته (بما فيها نظرياته الطفولية عن ولادة الأطفال).

(٣) جذور الأفكار في فكر فرويد

في القسم الأخير من بحثه (الذي يسبق المُلحَق الذي يحوي الملاحظات الخاصة بالحالة)، يُقدِّم فرويد سلسلةً من التأمُّلات والأفكار النظرية المُنبثِقة من المادة الخاصة بالحالة.

غير أنه يبدأ بانتقادِ رؤاه الخاصة السابقة عن الوسواس باعتباره مصطلحًا شاملًا أكثر من اللازم؛ ففي عام ١٨٩٦، كان قد ربط رؤاه تلك بالكبت والنشاط الجنسي في الطفولة، لكنه راجَعَها في ضوءِ تبايُن الحالات النفسية التي يُمكِن جمعها معًا في إطار التفكير الوسواسي؛ فأي شيءٍ تقريبًا قد يُستعان به ليناسب أجندة المصاب بالوسواس. وفي ذلك يُعلِّق فرويد على الطبيعة الهجينة الشبيهة بالهذيان للمعارضة العقلية التي تُصاحب الوسواس؛ فالمريض في صراعه مع الأفكار الوسواسية يقبل ويرفض جوانب التفكير المُضطرِب على حدٍّ سواء، مما يُؤدِّي إلى صراعٍ وتردُّد مُزمنَين. يحدث هذا الصراع على مستوًى ثانوي واعٍ لكنه يحدث كذلك على مستوًى أَوَّلي؛ إذ غالبًا ما يمكن رؤيته في أحلام المُصابِين بالوسواس. يفترض فرويد أن من خصائص الوسواس سوء الفهم، والتحريف، وتشويه اللغة والأفكار، وتتضمن وسائل خداع النفس التفكير الغامض المبهم، و«النسيان» (أي إغفال الأفكار من أجل تجنُّبِ إدراكِ وجودِ صراع، أو «أخطاء الذاكرة» كما أطلق عليها فرويد). تُعتبر الخُرافات والشكوك المزمنة نتائجَ أخرى لهذه المناورات. لا يستكشف فرويد بأيِّ قدْرٍ من التفصيل عمليات التفكير اللاواعية في حالة الوسواس، وهو ما يُعزَى جزئيًّا إلى غموضها وتعقيدها. يتعامل فرويد بالأساس مع ظواهر الحالة وسماتها العقلية ومصادرها الغريزية. تتمثل حجة فرويد فيما يخص «سبب» ظهور الوسواس، كما أشير إيجازًا فيما سبق، في وجود انسحابٍ للعاطفة من أسباب الصراع الأصلي الذي يُنظر إليه بأنه خارجٌ على السيطرة. لا يقود هذا إلى فقدان الذاكرة، وإنما إلى انقطاع الروابط العقلية، ومع ذلك، فإن هذه الروابط تُثابِر على جعل نفسها محسوسةً في شكلٍ مُبهَم من خلال الإسقاط على العالم الخارجي.

يُشير فرويد إلى القدرة الكلية للتفكير في العُصاب الوسواسي — لكنها ليست قدرةً كلية لدرجةِ صُنع أوهام، بل يُعبَّر عنها كمغالاةٍ في تقدير القُوى الشخصية. ينظر فرويد إلى هذا التفكير المبالَغ فيه كجنونِ عظمةٍ مُترسِّب منذ الطفولة، والذي كان أحد مظاهره لدى لورينز، وغيره من مرضى الوسواس الانشغال بالتفكير في الموت؛ سواء بالقلق بشأن كم سيعيش هو أو شخصٌ آخر، أو خوف من موت شخصٍ عزيز، أو خرافات غريبة بشأن الموت. يربط فرويد هذا بصراعات لورينز الحائرة المعلقة بشأن الحب والكراهية في علاقته بحبيبته ووالده، وبدوره يمنح هذه الصراعات سياقًا داخل إطار نظرية الغريزة. يُؤكِّد فرويد أن مشاعر العداء لدى لورينز تجاه والده التي يَتنصَّل منها قد زادت من

حِدة مرضه بالوسواس إلى حدٍّ كبير؛ في الوقت نفسه يُناقش كيف أن الصراع المستمر الذي يشمل الحب والكراهية كان يُمكن أن يظهر خلال ما يُسمِّيه فترة «ما قبل التاريخ» من الطفولة عندما كان من الممكن أن ينفصل السلوكان المُتضادَّان أحدهما عن الآخر ويَتعرَّض أحدهما (الكراهية) للكبت. ويُشير فرويد إلى أن مثل هذا الصراع المُبكِّر بين الحب والكراهية هو وحده ما يمكن أن يكون مسئولًا عن اتساعِ نطاقِ أعراض لورينز وإزمانيتها.

تهتم ملاحظات فرويد النظرية الختامية على نحوٍ أساسي بالشك المُتغلغِل لدى مريض الوسواس والدافع القهري للتغلُّب على هذا الشك. مرةً أخرى تعود جذورُ أفكار فرويد إلى نظريته عن الغرائز ويُستخدم هذا لتفسير بعض الأشكال النفسية التي يتخذها العُصاب الوسواسي؛ إذ يُنظَر إلى الغرائز الجنسية، وخاصةً غريزتَي شبق النظر والفضول، كقُوًى دافعة تقف خلف صراعات المُصاب بالوسواس. وهذا الضغط الغريزي يقود إلى حدوثِ عمليات التحريف والتعميم التي تفصل الصراع الأوَّلي عن الأشكال التي تُمثِّله. ويمكن أن يكون تحليل الانحرافات النفسية للتفكير المتأصلة في الوسواس مسارًا بحثيًّا مثمرًا، وهو مسارٌ غيرُ مطروقٍ كما يقول فرويد.

يُمكِننا أن نُدرك من خلال هذا الفحص السريع للحالة أن فكر فرويد النظري والتقني يعكس المرحلة التطوُّرية التي وَصَل إليهاه التحليل النفسي بين عامَي ١٩٠٧–١٩٠٩. ويستفيد فرويد من نظرياته الخاصة بالجنسانية وعن دَور الدوافع الجنسية، أقصى استفادة، في تشكيل الأشكال التي تُمثِّل الصراعات الوسواسية. وتُعتبر السادية والازدواجية أدواتٍ نظريةً تُستخدَم لفهم العُدوانية في حالات الاضطرابات الوسواسية، لكن فرويد يُشير إلى أن «العلاقة بين العامل السلبي في الحب والمكونات السادية لليبيدو تظل غامضة تمامًا» (فرويد، ١٩٠٩، صفحة ٢٤٠). وسيُناقش فرويد هذه المشكلة مرةً أخرى في بحث «الغرائز وتقلُّباتها» (١٩١٥ج)، وفي الفصل الرابع من «الأنا والهو» (١٩٢٣). إن تفصيل فرويد لعلاقة الأب والابن في تحليلِ حالةِ لورينز يقتبس من الصراعات الجنسية التي رأى أنها تُمثِّل أساسًا لعلاقتهما. كان من أحد الأمور الأساسية التي تولَّاها فرويد بالتجديد وإعادة التشكيل خلال التحليل ذكرياتُ لورينز عن معاقبةِ والده له وضَربِه بسبب ممارسته للعادة السرية. بالطبع لم يكن بالإمكان إثبات هذا قطعيًّا، لكنه استخدمه للربط بين الجوانب الجنسية والسادية للصراع على نحوٍ أوثق. كان

فرويد قادرًا على تفسيرِ نشاطِ تحويل المشاعر تجاه الأب، لكن كانت ثَمَّةَ جوانب بعينها تَفلِت منه. وكما يشير ماهوني (١٩٨٦)، فإن هذا يرجع إلى أن فرويد قد فهم الصلة بين الشخصية الوسواسية والشبق الشرجي لكنه لم يفهم الرابط بين الأخير والعُصاب الوسواسي. كان فرويد يُدرك جيدًا أن الأمر ليس مُجرَّد أن صراعًا بين الحب والكراهية قد حفَّز مرض لورينز، بل إن ما جعل مرضه مُعقدًا هو الشعور بالمتعة والخزي والاشمئزاز من مشاعرَ وأفكارٍ مُرتبطة بالصراع. لم تستطع نظرية التحليل في هذه المرحلة من تطوُّرها أن تُفسِّر الطبيعة البدائية الارتدادية لهذه الحالات العقلية.

يمكننا أيضًا أن نرى كيف يُوظِّف فرويد نموذجًا طبوغرافيًّا للعقل لفهم لورينز، مقسِّمًا إياه إلى شخصيةٍ تحللت إلى ثلاثة أجزاء: لا وعي يشمل دوافعَ عاطفية وقاسيةً مكبوتة، ووعي تنتابه أعراض، وما قبل وعي منخرط في خلق السلوك القائم على الخُرافات والطقوس المُستهدف منه مواجهة دوافعه اللاواعية والتصدِّي لها (انظر هولاند، ١٩٧٥). وأخيرًا، تلعب إعادة التشكيل دورًا محوريًّا في نظرية فرويد عن التقنية؛ بمعنًى آخر، يشرع فرويد في تحديد الفجوات في تاريخِ مرضِ لورينز ويمضي نحو سدِّها، واضعًا الأساس لمُخطَّطه التوضيحي خلال قيامه بهذا. وقد ميَّز فرويد تطوُّر عُصاب التحويل، الذي أصبح ذا أهميةٍ جوهرية للمُحلِّلين اليوم، على نحوٍ جزئي فقط ولعب دورًا أكثرَ ثانويةً في العلاج بكثير مقارنةً بإعادة التشكيل.

(٤) مصير الأفكار في تفكير فرويد

يُعتبر ربط فرويد للتفكير الوسواسي بالشبق الشرجي رؤيةً تحليليةً ثاقبة يجب عدم الاستخفاف بها، خاصةً أن المعرفة بالصلة بين العُصاب الوسواسي القهري والارتداد الشرجي قد ظَهرَت فقط عام ١٩٢٦، أي بعد عشرين عامًا من تحليل لورينز. إن غياب فهمٍ نظريٍّ أو تحليلي لنتائج التحويل الأمومي في البحث يعكس، كما أُشير، المرحلة التي وصل إليها التحليل النفسي بحلول عام ١٩٠٧؛ فلم يُشدِّد فرويد كثيرًا نسبيًّا على علاقة الأُم والابن في حالة لورينز، برغم وجودِ إشاراتٍ إلى الأُم في السجِل الكامل للحالة. لقد شَغلَ كلٌّ من التطوُّر النفسي فيما قبل المرحلة التناسُلية وتنظيم الرغبة الجنسية قدْرًا أكبرَ من مرحلة التحليل النفسي حين بدأ فرويد تطويرَ أفكارِه فيما يخُص ظهورَ نقاطِ تثبيتٍ

يمكن أن تقود إلى النكوص وتشكُّل العَرَض. بالنسبة إلى القُراء المُعاصِرين الذين وُهِبوا مَيزة الإدراك المُتأخِّر، من المُحتمل تفسير نطاقِ تجاربِ لورينز مع فقدان الموضوع وغضبه تجاه هذه الخسائر، وما يُصاحب ذلك من نشاط للأنا العليا (الذي غالبًا ما يتم إسقاطه على فرويد) كدليلٍ على ازدواجيته الشديدة فيما يتعلق بالموضوع الرئيس. هذا ليس للتقليل من مشكلات لورينز الأوديبية لكنه إشارةٌ إلى مستوًى من الجُرح النرجسي المرتبط بالفصل بين الموضوع والأنا، بين الإسقاط والاضطهاد. ثَمَّةَ طريقةٌ أخرى للتفكير في هذه الأزمة تتمثَّل في النظر إلى مدى انشغالِ لورينز بتخليصِ نفسه من الأمور السيئة ومنعِ تغلغُلها في ذاته (هولاند، ١٩٧٥، صفحة ١٦٣)؛ فقد تخلل هذا الصراعُ حياتَه واجتاحها. لعلنا ننظر اليوم إلى الفصل والتماهي الإسقاطي المُكثَّف كآلياتٍ دفاعية تُستخدم لإحباط أيِّ إحساسٍ بالتفكُّك والتحطُّم مرتبطٍ بخسارة الموضوع على نحوٍ استباقي. وقد بدأ التعامل مع مثل هذه الحساسية وسُرعة التأثر لدى الأنا وتشتُّت الإحساس بالهوية على نحوٍ أكثرَ استيفاءً من قِبل فرويد في «الحداد والسوداوية» (١٩١٧) و«عن النرجسية» (١٩١٤)، حيث يُناقش الضرر الذي يقع على الشخصية، والذي قد يتأتى من التماهي مع الموضوع المفقود. وقد شَغلَت التداعيات التطوُّرية لهذه الأزمات المحلِّلِين النفسيِّين منذ ذلك الحين.

لُوحظ كيف أن فرويد كان مُدركًا لتحويل المشاعر تجاهه، ومدى حساسيته تجاه ذلك، خاصةً فيما يخص صورةَ لورينز الداخلية لوالده. غير أنه سيكون من الخطأ القول إن فرويد كان في هذه المرحلة قد أدرك الحاجة لتحليلٍ ديناميكي للتحويل المباشر. لكنه لم يكن بعد قد قدَّر مدى الارتباط المُعقَّد لذكرياتِ الماضي بسلوكياتِ وتوجهاتِ الحاضر خاصة تجاه المُحلِّل النفسي. إن لورينز يرى رموزًا سلطوية تُمثِّل تهديدًا له في كل مكان، وفرويد ليس استثناءً، لكن بعض المُعلِّقين (مثل كانزر ١٩٥٢ وجوتليب ١٩٨٩) انتقدوا فرويد لعدم توجيهه انتباهًا كافيًا لهذا التحويل (علمًا بأن اتهامه بعدم الانتباه إلى التحويل الأمومي تُهمةٌ مُجحِفةٌ بالنظر إلى المرحلة النظرية التي كان فرويد قد وصل إليها). يقول ماهوني (١٩٨٦، صفحة ٢٤٠) إنه في تلك المرحلة من تفكير فرويد بشأن الحالة، لم يكن التخلُّص من التحويل هدفًا للتحليل؛ إذ كانت إعادة التشكيل والتربية هما الهدفَين الغالبَين. كذلك اتُّهم فرويد بالتصرُّف على نحوٍ يُنافي الأهداف العلاجية بطمأنةِ لورينز تجاه نواياه الحسنة ومحاولةِ التأثير على المريض إيجابيًّا باستخدام وسائلَ وعظيةٍ

وتربوية. وغالبًا ما يُستشهد في ذلك بما فعله فرويد من النأي بنفسه عن قسوة النقيب، وفي الوقت نفسه عدم التعامُل على النحو الملائم مع الصورة التي تشكَّلَت لدى لورينز لفرويد، من خلال التحويل، بوصفه النقيب القاسي. كذلك نجد فرويد ينفجر في الضحك عندما يُخبِره لورينز بأن شقيقه (أي شقيق فرويد) كان قاتلًا أُعدِم في بودابست، مُؤكدًا للورينز أنه ليس له أي أقارب يعيشون في بودابست. حدث هذا خلال فترةٍ كان لورينز فيها مُرتعبًا من احتمالِ قيامِ فرويد بإيذائه جسديًّا.

ثَمَّةَ مثالٌ آخرُ شهيرٌ عن قيامِ فرويد بإعطاءِ لورينز وجبةَ طعام. لماذا لم يكن فرويد قادرًا على مواجهة هذه التفاعُلات المُتوتِّرة بعُمقٍ أكبر؟ ربما تكمن الإجابة في التفسير غير الكافي لتحويل المشاعر، إلا أن جوتليب (١٩٨٩)، من بينِ آخرِين، يُشير إلى وجود توتُّراتٍ مضادة للتحويل لدى فرويد لم يكن قادرًا على التعامُل معها على النحو الملائم، سواء نظريًّا أو عمليًّا، في هذه المرحلة من تطوُّره. على سبيل المثال، ينظر جوتليب لاتهام لورينز لشقيق فرويد بأنه قاتلٌ كشكلٍ مختلفٍ لوهمٍ تحويليٍّ أساسيٍّ يَسُود تحليل لورينز، لكن هذه النسخة من الوَهمِ أثارت داخلَ فرويد مخاوفَ بعينها ارتَبطَت بوجودِ عمٍّ له قُبِض عليه بسبب نشاطٍ إجرامي. ويصوغ جوتليب حُجةً مثيرة للاهتمام لدعم رؤيته تلك (المصدر السابق، صفحة ٤٦–٥٨). وسواء كان جوتليب على صوابٍ أم لا، فسيكون منطقيًّا استنتاجُ أن استخدام فرويد المكثَّف للتفسير والتوجيه في القصة التي صاغها مع لورينز في إطارِ عمليةِ إعادة التشكيل، وبعض أفعاله التلقائية غير المُتعلِّقة بالتحليل كانت على الأقل جزءًا من استجابةٍ لتأثير التحويل المضاد لمريضٍ مضطرب ولديه قوةٌ تدميريةٌ مضمرة. ويجب عدم استخدام هذه الملاحظة للمقارنة بين معاييرِ فرويد في العمل في عام ١٩٠٧ بمعاييرَ فنيةٍ في الفترات التالية. حاول ليبتون (١٩٧٧) جاهدًا الدفاع عن فرويد ضد انتقاداتِ علاجه للورينز، رغم أن ليبتون نفسه اتُّهم بالانزلاق في الجدلية. وضَّح ليبتون نقطتَين مهمتَين؛ الأُولى هي أن جزءًا كبيرًا من الأسلوب الذي استخدمه فرويد في حالة لورينز قد صُنِّف لاحقًا كمعيارٍ قياسي في أبحاثه اللاحقة عن الأسلوب. النقطة الثانية هي أن الأسلوب الحديث قد توسَّع كثيرًا للتعامُل مع تعقيد العلاقة بين المريض والمُحلِّل، وهذا يتضمن الحد من التأثير الشخصي ومحاولات إحداثِ «تجاربَ شعوريةٍ تصحيحية»؛ لذا من غير المناسب مقارنة الأسلوب الحديث بأسلوب فرويد في ذلك الوقت.

خاتمة

لعل أَفضلَ وصفٍ اليوم لحالة «رجل الجرذان» هو أنها عَرضٌ لوصفٍ سردي متماسك وجذَّاب لشكل وأعراض مرضٍ وسواسي مزمن يُستكشَف في سياق تطوُّر المريض وتاريخ حياته. وقد وُصِف تاريخ الحالة بأنه «موضوعٌ جمالي» بُنِي لدراسة فكرة الهُوية المركزية لدى المريض (هولاند، ١٩٧٥، صفحة ١٦٨). ورغم أن فرويد كان يتمنى أن يُقدِّم هذه الورقة البحثية كوصفٍ علميٍّ رسمي لتحليلٍ نفسي كشف عن أصول عُصاب الوسواس القهري (كان قد عرضه للحالة في فيينا عرضًا مطولًا؛ حيث استغرق خمس ساعات)، فإن الأكثر معقوليةً أن ننظر إلى هذا السرد كنوعٍ من التفكير المبتكر المُتكامِل الذي يمتد إلى حدود الأدوات النظرية والمنهجية التي كانت مُتاحةً لفرويد في ذلك الوقت. كان حتميًّا أن يُؤدِّي نطاقُ تنفيذِ وتوافُرِ سجلاتٍ تحليلية مُفصَّلة إلى تحفيز المُحلِّلِين النفسيِّين من شتى المدارس لمُراجعة الحالة مع نشأةِ منهجيةٍ خاصة بالتحليل النفسي؛ ويُعتبر جوتليب وجرونبرجر وهولاند ولاكان وريد وشيروود وزيتزيل نماذجَ بارزةً في هذا الشأن. في وقتِ كتابةِ هذا الفصل، ثَمَّةَ إسهامٌ مُعاصِر مُبتكَر يتخذ من مشكلاتِ تحوُّل المشاعرِ في حالةِ رجلِ الجرذان نقطةَ انطلاقٍ له، ويَتمثَّل في دراسةٍ لآلياتِ عمل الأوهام اللاواعية والتماهي الإسقاطي (لير، ٢٠٠٢).

يجب أن نمتن لفرويد لرؤاه المبتكرة في مشكلات لورينز وشخصيته، وللشرح المُستفيض لأسلوبه، وهو الذي أظهر، من بين أمورٍ أخرى، قُدرةً حَدْسية على «تَحسُّس» عالَم المريض، وفي الوقت نفسه الاحتفاظ بموضوعيةٍ تحليلية (ناقش ماهوني (١٩٨٦) الطريقة التي «يُوازي» بها فرويد فكره ولغته مع فكر ولغة لورينز). وينبغي أن نكون حَذِرين بشأن التسرُّع في اللجوء إلى استنكار الإخفاقات المُتعلِّقة بالتحويل والتحويل المضاد، بالنظر إلى أن المُحلِّلين النفسيِّين لم يكونوا قد استوعبوهما بعدُ. يبدو محتملًا أن تقلُّبات التحويل المضاد وأسلوب فرويد التوضيحي، والتوجيهي إلى حدٍّ ما في ذلك الوقت، قد اتحدا معًا لإنتاجِ موقفٍ تحليلي ستراه الأجيال القادمة من المُحلِّلِين محايدًا على نحوٍ غيرِ كافٍ. ثَمَّةَ صفةٌ مماثلة تنطبق على ادِّعاء فرويد بأن لورينز قد «شُفِي تمامًا»؛ فربما كان هناك بعض المبالغة في هذا الادعاء لكي يُثير إعجابَ المجتمع العلمي، لكن من المُرجَّح أن التحسُّن في حالة لورينز، بمعايير اليوم، كان كبيرًا مثلما زعم فرويد بالنسبة لكلٍّ من المُحلِّل وللمريض. وباستخدام مَيزة الإدراك المتأخر، من الممكن أن نذهب إلى أن

جزءًا لا بأس به من تحسُّن لورينز يمكن أن يرجع إلى العلاج بالتحويل. تبقى حالةُ «رجل الجرذان» نتاجَ زمانها، لكنه نتاجٌ يكشف عن رؤيةٍ مستبصرة ومهارةٍ تحليلية من طرازٍ رفيع. ولعل أكثر الجوانب إثارةً للاهتمام بالنسبة إلى القُرَّاء اليوم هو قراءة الحالة في سياقِ تطوُّر فرويد الفكري السابق واللاحق؛ فهو يُتيح لنا المشاركة في تطوُّر أفكار التحليلِ النفسي الأساسية مع ظهورها.

الفصل الحادي عشر

التحديق والسيطرة والإذلال في حالة شريبر

جون ستاينر

مقدمة

جَذبَت المُذكِّرات الشهيرة لقاضي المحكمة العليا الألمانية، دانييل بول شريبر، اهتمامًا هائلًا يرجع بالأساس إلى تحليلِ فرويد العبقري والمثير للجدَلِ لها الذي ظهر عام ١٩١١. ولِحُسن الحظ أن المطبوعات الغزيرة الخاصة بالمُذكِّرات وتحليل فرويد (ومن ضمنها نيدرلاند، ١٩٥١ و١٩٥٩أ و١٩٥٩ب، ١٩٦٠، وكاتان، ١٩٥٩، ووايت، ١٩٦١، وسانتنر، ١٩٩٦) قد رُوجِعَت ولُخِّصَت ببراعةٍ على يد لوثان (١٩٩٢) ويتبين منها أن كلًّا من المُذكِّرات وبحث فرويد ما زالا يُمثِّلان مادةً بحثيةً تستحق القراءة.

إذا نظرنا لهما الآن، بعد مرور حوالي مائة عام، يمكننا أن نسأل أنفسنا إلى أي مدًى تَغيَّر طب النفس والتحليل النفسي في ذلك الوقت. من المُؤكَّد أن التحليل النفسي قد تغيَّر إلى حدٍّ كبير، وفي هذا الفصل سأُركِّز على بعض المجالات محلِ الاهتمام المعاصر، التي تبدو لي أنها ذاتُ صلةٍ وثيقة بحالة شريبر. أولًا، سأَستثمِر فهمنا للاكتئاب وعلاقته بجنون الارتياب من ناحية، وحالات النرجسية الشديدة من ناحيةٍ أخرى. وسأذهب هنا إلى أن مرض شريبر قد بدأ اكتئابيًّا في الأساس وظل هكذا، لكنه سريعًا ما طوَّر عناصرَ

اضطهادية تصاعَدَت حتى أصبح مشوشًا ومريضًا بالشك على نحوٍ فادح. وفي النهاية أصبح التفكُّك الفوضوي مُنظمًا من خلالِ سيطرةٍ نظامٍ نرجسيٍّ كليٍّ القدرة أدَّى إلى تحسنٍ إكلينيكيٍّ دون القضاء على أيٍّ من معتقداته الوهمية.

كذلك سأبحث الدور الذي لَعِبه التحديق في علاقاتِ شريبر الوهمية بالموضوع كموضوعٍ ثانوي. ثَمَّةَ قدْرٌ ضَخمٌ من المُؤلَّفات عن دَور التحديق، وخاصةً من وجهةِ تطويرِ إحساسٍ بالذات يربطه الكثير من الكُتاب بتجربةِ التعرُّض للمراقبة. يُعتبر وصفُ مرحلةِ المرآة خلال عملية التطوُّر مهمًّا في كتابات لاكان المُؤثِّرة والمُعقَّدة على حدٍّ سواء (١٩٥٦)، والذي يستعين باهتمامِ سارتر بتجربةِ التعرُّض للمراقبة لمناقشة تطوُّر الذاتية والوعي الذاتي. وتُعتبر ملاحظاتُ وينيكوت قائمةً على أساسٍ تحليلي على نحوٍ أكبر؛ إذ يُعتبر وجه الأم هو المرآة الأُولى. «ما الذي يراه الطفل عندما ينظر إلى وجه والدته؟ أعتقد أنه عادةً ما يرى نفسه» (وينيكوت، ١٩٦٧، صفحة ١١٢). وهذا النوع من النظر إلى الذات في مرآة الموضوع يُعتبر نموذجًا لنوع نرجسي من علاقات الموضوع، ومثل كوهوت (١٩٧١)، يدرك وينيكوت أهمية نظرة الاستحسان من قِبل الأم لتقدير الطفل لذاته. يدعم رايت (١٩٩١) هذا الرأي؛ إذ يشير إلى أن «صورة الطفل التي يُعيدها الآخر إليه تصبح، بهذه الطريقة، الشكل الذي يُدرِك ذاته ويتعرف عليها من خلاله» (صفحة ٢٧٠). إن هذه الرؤى الإيجابية للذات المنعكسة في النظرة التحديقية للموضوع تُشير إلى أن الجوانب السلبية مُنفصِلة، وهو ما ورد ضمنيًّا كذلك في فكرة كلاين (١٩٥٧)، والتي ستُناقَش باستفاضةٍ لاحقًا، عن أن الموضوع الطيب الذي يُمثِّله الثدي، ووجه الأم على نحوٍ خاص، يجب أن يُزيل أي مشاعرَ بالسوء. في بعض الأحيان، تأتي هذه الرؤى السلبية المنفصلة عن الذات من تصوُّرٍ بديل لتحديق الأم بوصفه يحمل اتهاماتٍ ويبُث الرعب، ويرى رايت (١٩٩١، صفحة ٢٧) أنها تَنبثِق من جانبِ بديلٍ مُخيف «للأم في فترة الطفولة». وغالبًا ما تأتي هذه الرؤى لِتصف الجوانب العدائية في العلاقة مع الأب الذي قد يُصبِح حينذاك تجسيدًا لأنا عليا اضطهاديةٍ ومدمرةٍ للأنا.

في حالة شريبر، أصبح هذا الجانب الاضطهادي من التحديق سمةً مهمةً لجنون الارتياب لديه يأتي في شكلِ هجماتٍ بواسطة أشعاتٍ إلهية وأدَّى لبعضٍ من أسوأ حالات الاضطهاد والإذلال. في الوقت نفسه، لعب تحديق شريبر نفسه دورًا رئيسًا في الإسقاطِ المُكثَّف لكلِّ الحاجة والقدرة الكلِّية على موضوعاته. وأخيرًا، وُظِّف التحديق في فحصٍ

دقيق ومُكثَّف لموضوعاته من خلال النظر مباشرةً في أعينهم. وعندما خذلوه، تَولَّد إحساسٌ بالخيانة مصحوبٌ بانتصارٍ على الموضوعات، التي تضمَّنَت حتى الرب، والتي كانت حينها قد فَقدَت مصداقيتها وهُزِمت؛ فعندما رأى حقيقة ادعاءاتهم، أهانهم وأصبح بدوره وعاءً لإسقاطٍ مُضادٍّ عنيف كان الهدف منه إعادة تأكيد مكانتهم والسيطرة عليه وقلب الإذلال في الاتجاه المُعاكس.

كان من السمات المأساوية لانهياره الفشلُ في العثور على موضوعٍ ذي قدرةٍ على استيعاب هذا النوع من الإسقاط الكليِّ القدرة والاستجابة بتفهُّمٍ كافٍ لتجنُّب التنفيس تنافسي لأي صراعٍ من أجل السيطرة.

(١) الجوهر الاكتئابي لدى شريبر

أصبحتُ مقتنعًا تمامًا بأن مرض شريبر كان في جوهره اكتئابيًّا، حتى إنني فُوجئتُ باكتشافِ أنَّ عددًا قليلًا فقط من المُعلِّقِين الكُثْر على هذه الحالة الشهيرة، بخلاف لوثان (١٩٩٢)، في سرده الشامل لدراساتِ شريبر، هم من أَوْلَوا هذه السمة أهمية، ربما لأنهم ركَّزوا اهتمامهم، شأنهم في ذلك شأن فرويد، على جنون الارتياب. والحقيقة أن مرض شريبر الأول والمراحل المُبكِّرة لمرضه الثاني كان يُسيطِر عليها أَرَقٌ مُستعصٍ ووسواسٌ شديدٌ بالمرض واكتئابٌ حاد، وهو ما حدا به إلى محاولة الانتحار مراتٍ عدة. في وقت دخوله للمشفى بسبب مرضه الثاني، كان مضطربًا بشدة ومن الصعب التعامُل معه، وتصف ملاحظاتِ المستشفى، التي اكتشف بوماير (١٩٥٦) نُسخًا منها كيف كان يرفُض تناوُل الطعام، وكان يقضي فتراتٍ طويلةً في حالةِ سكونٍ تام فيما يبدو أنه حالة انشداهٍ وذُهول. كان شريبر مقتنعًا أنه يُحتضَر بأزمةٍ قلبية، واشتكى من تليُّن الدماغ. كان يقول إنه مُصابٌ بالطاعون، وأراد الاستعانة بخادمٍ ليحفر قبرًا له مقابلَ أجر. كان يظن أنه ماتَ وتَحلَّل وفي حالةٍ تمنعه من أن يُدفَن. واشتكى من أن قضيبه قد انتُزع وأَصَرَّ على أنه امرأة. كان مهتاجًا وأثار انزعاجَ المرضى الآخرِين، خاصة بالخُوار بصوتٍ عالٍ والصياح بالشتائم في كثيرٍ من الأوقات.

يصف سردُ شريبر نفسِه للفترة ذاتِها في المُذكِّرات كيف أنه كان يقضي وقته في حالةٍ سوداوية لا تنتهي مشغولًا فقط بأفكار الموت وحاول مرارًا إنهاء حياته. ويَظهَر الشعور

الاكتئابي بوضوحٍ في عجزه ويأسه. على سبيل المثال، يصف المهانة التي واجهها بوضعه فيما أسماه:

> زنزانة مجهزة للمصابين بالخرف (المجانين) ليناموا فيها … حيث تُرِكتُ هناك لألقى مصيري … لقد قمتُ بمحاولة فاشلة لشنق نفسي على هيكل السرير باستخدام الملاءة. كنتُ واقعًا بالكامل تحت تأثير فكرة أنه لم يتبقَّ شيء أمام إنسان لم يعد قادرًا على النوم بواسطة فنون الطب إلا الانتحار. كنت أعلم أن هذا غير مسموح به في المصحات العقلية، لكني كنت أعيش تحت وهم أنه عندما تُستنفَد كل المحاولات للعلاج، يُطلق سراح المريض من المصحَّة فقط لوضع نهاية لحياته إما في بيته وإما في مكان آخر.

بعد فترة قصيرة اكتسب الوسواس المرضي طابع جنون الارتياب عندما نُسِبت المعاناة لمعجزات إلهية موجهة إليه بنوايا عدوانية، نبعت في البداية، وبالأساس، من روح طبيبه النفسي البروفيسور فلكسيج، ولاحقًا من الرب. غير أن هذا الانشغال التام بجسده كان اكتئابيًّا على نحو نموذجي. فكان يعتقد أن فصي رئته معتلان وأنه مصاب بالتقمُّل ودودة الرئة. كانت فصوص الرئة في بعض الأحيان غائرة بالكامل تقريبًا وكان الحجاب الحاجز يرتفع حتى حنجرته تقريبًا بحيث لم يكن يتبقى إلا جزء صغير فقط يمكنه التنفس به بالكاد (شريبر، ١٩٠٣، صفحة ١٤٣). وفي محلِّ المعدة، كان يمتلك «معدة يهودي»[١] وضيع، أو كثيرًا ما كانت معدته تختفي تمامًا حتى إن الطعام والشراب اللذَين كان يستهلكهما كانا يُصبَّان صبًّا في تجويف البطن ومنه إلى الفخذَين (المصدر السابق، صفحة ١٤٤). كان المريء والأمعاء متمزقَين أو يختفيان بشكلٍ متكرر، وكان يُخفي جزءًا من البلعوم على نحوٍ متكرر. كانت الهجمات المُوجَّهة ضد أعضائه التناسُلية واضحةً ومرتبطةً بقناعةٍ لديه بأن رجولته قد انتُزِعَت لغرضٍ إلهي، وكان هذا الغرض في البداية يتمثل في الانتهاك الجنسي، وفيما بعدُ صار هذا الغرض هو لأجل افتداءِ العالم وإنقاذه. وأدَّى تعفن بطنه إلى انبعاثِ رائحةٍ نتنة من فمه على نحوٍ مثير للاشمئزاز الشديد (المصدر السابق، صفحة ١٤٦). كانت الأعصاب تُنزَع من رأسه الذي كان هو الآخر يُضغَط بمِلزَمةٍ بواسطةِ «شياطينَ صغار». كما كان لديه حالةٌ مؤلمة للغاية أَشبهَت التسوُّس في فقراتِ الظهر السفلية كانت تُسمَّى معجزة العُصعُص (المصدر السابق، صفحة ١٥١).

كان عقله كذلك مُتأثِّرًا تأثُّرًا بالغًا على نحوٍ مماثل لما يحدث في التفكير الاكتئابي. على سبيل المثال، كانت الأصوات الصادرة منه تشير إليه باسم «أمير الجحيم» وأنه سيُدفن حيًّا. وقد عزا هذا إلى الانحلال الأخلاقي الذي تطوَّر بداخله إلى «قوةٍ خارقةٍ معاديةٍ للرب».

يصف فرويد أحد أكثر أوهام الاكتئاب التي كانت تُسيطِر عليه كما يلي:

> تحت تأثير الرؤى التي كانت تتسم بطابعٍ مرعب في جزءٍ منها، ولكنها في جزءٍ آخر كانت تحمل إحساسًا لا يُوصف بالعظمة، أصبح شريبر مقتنعًا بقربِ حلولِ كارثةٍ كبرى مُتمثلةٍ في نهاية العالم. (فرويد، ١٩١١، صفحة ٦٨)

وكان دائمًا يؤمن بأنه:

> الرجل الوحيد المُتبقِّي على قيدِ الحياة وفسَّر وجود الأشكال البشرية القليلة التي لا يزال يراها — كالطبيب والمساعِدين والمرضى الآخرِين — بأنهم رجالٌ صُنِعوا «بمعجزة» على عُجالةٍ بغير إتقان. (المصدر السابق)

كان المفهوم الذي صاغه فرويد لذلك أن وهم «نهاية العالم» كان نتيجةَ انسحابِ طاقةٍ نفسية شهوانية من الناس في بيئته مما جعل كل شيءٍ حولَه غيرَ مُهمٍّ وغيرَ ذي صلةٍ بالنسبة له. «يُعتبر وهم نهاية العالم إسقاطًا لهذه الكارثة الداخلية؛ فعالمه الذاتي وصل إلى نهايته منذ انتهاءِ حبه له.» إن هذه الصورة التحليلية تُشخِّص اكتئابًا حادًّا مصحوبًا بأوهامٍ عدمية وسماتٍ أخرى عديدة يُشار إليها أحيانًا باسم متلازمةِ كوتار (١٨٨٠).[٢]

كان بحث فرويد عن «الحداد والسوداوية» (١٩١٧) والذي نُشِر بعد ست سنوات تقريبًا من البحث الخاص بشريبر، هو ما وضَّح رؤيتنا للعالم الداخلي لمريض الاكتئاب (انظر الفصل السابع من هذا الكتاب). فقد أوضَح فرويد أن العقبة أمام التغيير في السوداوية تكمن في التماهي مع موضوع مدمر أو ميت لم يتمكن المريض من التخلص منه والحداد عليه، والذي يستمر في العيش داخل المريض مسقطًا ظله على الأنا. وقد بنت ميلاني كلاين على هذه النتائج، ويحاول أتباعها اليوم الربط بين موقف المريض الحالي وبين تجارب الطفولة المبكرة، ويرون أن الاكتئاب قائم على مرحلة من التطور يدرك فيها الطفل أن حبه وكراهيته موجهان مباشرةً إلى الموضوع نفسه، وهو الموضوع الأبرز والأهم في حياته، بل الموضوع الرئيس، وهو الأم أو ثديها. وعدم القدرة على تجنُّب الكراهية القائمة على مشاعر الإحباط والحسد والغيرة والطمع، يعني أن الهجمات على

الثدي لا يمكن صدها وقد تقود إلى أوهامٍ وصور للموضوع الميت أو المُحتضَر أو المُدمَّر الذي يتماهى معه الطفل كآليةٍ دفاعية ضد الشعور بالذنب والخسارة. في هذه المراحل من التطوُّر، يُنظَر إلى الثدي بوصفه تمثيلًا للعالم بأكمل؛ ومن ثَمَّ يُنظر إلى فنائه ودماره له كنهاية العالم. في الوقت نفسه، يظهر التماهي مع موضوعاتٍ داخلية مدمرة أو مريضة عضويًّا في إطارٍ عضوي على هيئة أعراضٍ جسدية لوسواس المرض (كلاين، ١٩٣٥).

إن هذا الصراع الداخلي هو ما يُميِّز الوضع الاكتئابي الذي يتلامس فيه حب الشخص للموضوع المُدمَّر مع الكراهية المُستشعَرة تجاه الموضوع نفسه، ما يُؤدِّي للشعور بالذنب. واتحاد الحب والكراهية يعني أن الطفل قادر على الاهتمام بموضوعاته، ويصبح مدركًا لعدم قدرته على حمايتهم وحفظهم من نزعته التدميرية. وإذا كان بالإمكان تحمُّل الألم واليأس الناتجَين عن هذا، فإن الشعور بالذنب يمكن أن يكون عاملًا قويًّا في تحفيز الشعور بالندم وتأنيب الضمير ويُؤدِّي لظهور رغبةٍ في ترميم الموضوع المُدمَّر واستعادته.

أعطى فرويد (١٩١٧) كذلك لمحةً لفهمٍ مستقبلي للأنا العليا من خلال وصفه لتأسيس قوةٍ خاصة قادرة على معاملةِ جزءٍ من الأنا كموضوعٍ بسبب التماهي مع الموضوع الخارجي المفقود. ليس معروفًا دائمًا أنه إذا كان الموضوع المفقود يُلقي ظلًّا على الأنا، فإن الضوء الذي ينتج هذا الظل لا بد أن يكون قادمًا من مكانٍ ما. وأعتقد أن فرويد يُشير ضمنيًّا إلى أنه يأتي من أعلى ويُمثِّل الموضوع المُراقِب الذي يقيِّم الأنا على نحوٍ نقدي مثلما قيَّم الموضوع الأوَّلي فيما سبق؛[٣] فالانتقال من الاكتئاب إلى جنون الارتياب ينطوي على انتقالٍ مماثل من الاهتمام بالموضوع الأوَّلي إلى انشغالٍ تامٍّ بالموضوع الذي يفرض مراقبةً نقدية، ويُصاحِبه، بسبب الطبيعة النقدية لهذا النوع من الأنا العليا، انتقالٌ من الاهتمام بشعور الذنب إلى انشغالٍ بشعور الخزي والمهانة؛ وهذا هو الوضع تقريبًا في مُذكِّرات شريبر، حيث الغياب اللافت لأيِّ اهتمامٍ بشعور الذنب، مع ذكرٍ محدود للغاية لأيِّ رموزٍ أمومية، إلا من خلال التماهي.

(٢) جنون الارتياب (البارانويا)

عندما يُصبِح الشعورُ بالذنب واليأسُ الناتجان عن الاكتئاب مُؤلِمَين أكثر من اللازم، تُستخدَم الدفاعات لجعل التجربة الشعورية أكثر احتمالًا. وتنطوي أبرز هذه الدفاعات على انتقالٍ إلى جنون الارتياب وتوظيفِ آليَّاتٍ مثل الانفصال والتفكُّك والتماهي الإسقاطي.

وقد وَصفَت كلاين العلاقة الوثيقة بين الاكتئاب وجنون الارتياب (١٩٣٥)، وصاغتها لاحقًا (١٩٤٦)، في إطارِ تحوُّلٍ بين الوضع الاكتئابي وأوضاع جنون الارتياب الانفصامي. وقد أَصبحَت هذه النزعة البارانويدية واضحة تمامًا في مرحلة مبكرة للغاية من انهيار شريبر عندما عُزِيَت معاناته إلى اضطهاده بواسطة الأشعة الإلهية. لا يُقلِّل الإسقاط دائمًا من المعاناة، لكنه على الأقل يُؤدِّي إلى التخلُّص من المسئولية تجاهها والشعور بالذنب المُرتبِط بها؛ الأمر الذي يبدو أنه يُتيح راحةً ضرورية.

يظهر الطابع الاكتئابي لاضطهادِ شريبر في العديد من الفِقرات المُقتبَسة من المُذكِّرات التي تُؤكِّد اقتناعه بأنه لا علاج له؛ فيكتب على سبيل المثال، قائلًا:

> وعلى ذلك حِيكَت مؤامرةٌ ضدي غرضها تسليمي إلى شخصٍ آخر بعد إدراكِ أن مرضي العصبي، أو كما افتُرِض، مُستعصٍ على الشفاء، بطريقة سلَّمت روحي له لكن جسدي — الذي تحول إلى جسدِ أُنثى — تُرِك بعدها لذلك الشخصِ ليُصبِح عُرضةً للانتهاك الجنسي و«الهجران ببساطة»؛ بمعنى آخر تُرِك ليتعفن ... كانت الفكرة الأساسية دائمًا هي «هَجري»، أو بمعنًى آخر التخلِّي عني ... للسماح بتعهيرِ جسدي والمتاجرةِ به كجسدِ عاهرة، أحيانًا عن طريق قتلي ولاحقًا عن طريقِ تدميرِ صوابي.

يُشار إلى أسوأ أشكال المعاناة بأنها «قتل الروح» الذي لا يحظى بتعريفٍ دقيق، لكن يبدو أنه ينطوي على أعنفِ أشكال الاستغلال والإذلال التي يمكن أن يخضع لها شخص، والتي تتضمن الإقدام على محاولةِ تدميرِ جوهرِ هُويَّته لمصلحة شخصٍ آخر.

لفترةٍ من الوقت، أَصبحَت أوهامُ الاضطهادِ أكثر تشرذمًا وتفكُّكًا، وصارت تضُم هجماتٍ تصدُر من فلكسيج، ولاحقًا من أرواحٍ أخرى، وفي النهاية من الرب الذي أصبح مُنقسمًا إلى إلهٍ أمامي وآخرَ خلفي، مع تحوُّل الخلفي بدوره إلى آلهةٍ عُليا وسفلى. كذلك كانت الأرواح التي هاجمَته مُتعدِّدةً تُمثِّلها الساحاتُ الأمامية للفردوس، وطيورٌ مُغرِّدة، ورجالٌ صِغار عدَّة يندفعون بأعدادٍ كبيرة على جسده. كانت هذه الفترة التي كان فيها اضطرابه الواضح في أقصى حالات الفوضى والارتباك، وسادت النزعة التدميرية على نحوٍ تجاوَزَ أيَّ سيطرة للحب أو المنطق.

(٣) منظومة الوهم المخلِّص

قلَّ التفكُّك والتشظي لاحقًا وأُنشئ نظامٌ للوهم يتمحور حول فكرةٍ رئيسة مفادُها أن شريبر يمكنه أن يُعيد البشرية إلى حالة من النعيم والسعادة، بالتحوُّل إلى أنثى حتى يتسنَّى نكاحه من قِبل الرب. كانت منزلته الخاصة كشخصٍ له القدرة على جذبِ إشعاعات الرب قد بدأ في اكتسابِ طابعٍ شبقي تدريجيًّا، وبدأ «نظام العالم» الذي كان يكمن في مبدأ وجودِ سلطةٍ عليا قادمةٍ من الرب نفسه، في المطالبة باكتسابِ «شهوانيةٍ وفتنةٍ جنسية». في البداية كانت حالة السعادة والنعيم التي ترتقي إليها الروح بعد الموت بواسطة التطهير يُنظر إليها كإحدى المُتع المستمرة المرتبطة بالتفكير في الرب، لكن سرعان ما صارت تُعتبر حالةً من الإحساس المتواصل «بالشهوانية الجنسية». والحق أنها تُشير إلى أن تصالُحًا نهائيًّا مع الرب سيُنهي معاناة شريبر، بما أن الإشعاعات الإلهية قد تخلَّت عن عدوانيتها بمجرد أن تأكدَت أنها ستمُر بحالةٍ من الشهوانية الروحانية، حتى الرب نفسه طالَب أن تكون لديه القُدرة على أن يجد الشهوانية الحسية لدى شريبر وهدَّده بسَحبِ إشعاعاته إذا أهمل العناية بها ولم يُقدِّم للرب ما يُريد. وقد كُرِّس جزءٌ كبير من المذكرات لتفسير طلب التأنيث وتبنِّي توجُّهٍ خاضع نحو الرب يفقد طابعه الاضطهادي بالتدريج ويكتسب السمة التخليصية المرتبطة بحالة النعيم. ومع فقدان الاضطهادات المزعجة قوتها، يصبح شريبر قادرًا على أن يصبح أكثر تماسكًا بل اكتساب بعض المتعة من موقفه. وبينما يُصِر أنه من واجبه أن يُنتِج أكبر قدْرٍ ممكنٍ من الشهوانية الروحية، يضيف قائلًا: «إذا حَصَلتُ على قدْر من المتعة الحسية في الأثناء، أشعر بأنني معذور في قَبولها كتعويضٍ بسيط عن القدْر المُبالَغ فيه من المعاناة والحرمان الذي يلازمني منذ سنواتٍ عديدة ...»

كان فرويد منبهرًا بالدعم الذي تمنحه هذه الأوهام لأهمية الجنسانية في الحياة العقلية ولفرضيةِ أن علاقة شريبر بوالده كانت في الأساس علاقةً مثلية. لم تعُد فكرة الازدواجية الجنسية العالمية اليوم فكرةً مثيرة للجدل وأصبح اهتمامنا مُنصبًّا أكثر على فهمِ كيفيةِ اكتساب العلاقات مع أيٍّ من الجنسَين طابعًا جنسيًّا كوسيلةٍ للتكيف معها. يُلاحَظ غالبًا ردُّ فعلٍ مُعيَّن في التحليل، وهو أن المرور بتجربةِ اضطهادٍ وقسوةٍ يصبح تجربةً شهوانية وتصبح أكثر احتمالًا من خلال اصطباغها بالجنسانية في شكل سادية–مازوخية. ولعل ما هو أكثر شيوعًا أن تجد القسوة مرتبطة بالعضو الذكري، والتماهي القضيبي لا يبطل المعاناة فحسب، بل يبطل الإذلال بإذلالِ شخصٍ آخر، عن طريق توجيه القسوة.

ومثلما يتماهى مريض الاكتئاب مع ثدي داخلي مُدمَّر، عادةً ما يتماهى المريض الكليُّ القدرة مع قضيبٍ داخلي منتصب. في هذا السياق، نجد وَهْم الخلاص الخاص بشريبر غير مألوف؛ إذ يواجه تجربته مع الاضطهاد القاسي بتماهٍ مع المرأة المُنصاعة، مُحولًا هذه القسوة إلى متعةٍ جنسية ومُحولًا الهدف من الإساءة إلى إصلاحٍ كليِّ القدرة. في بعض الأوقات كان شريبر يتلاعب بوهم التماهي مع المسيح الهابط إلى السماء بعد مُعاناته لِيتمتَّع باتحادٍ سعيد مع الرب، الذي للمفارقة يصبح اتحادًا مثليًّا على نحوٍ أكثر وضوحًا. غير أنه في معظم الأحيان كانت محاولته لإعادةِ بناءِ عالمه المُدمَّر عادةً ما تنطوي على تحوُّل الجنس ومغايرة الجنس.

ربما يكون هذا تمييزًا غيرَ ضروري؛ لأن التماهيات الساديَّة الفعَّالة والتماهيات المازوخية السلبية عادةً ما توجد جنبًا إلى جنب. من المُؤكَّد أن ثَمَّةَ علاقةً ذات طابعٍ شهواني بالغ بين شريبر والرب وهي التي بلا شكٍّ كانت صدًى للعلاقة الأُولى مع الأب؛ ففكرةُ أنَّ حالة النعيم والسعادة تتكون من الشهوانية الحسية المستمرة لكلا الطرفَين تُماثِل وهمًا شائعًا في الطفولة عن المتعة التي يمنحها كلٌّ من الأبوَين للآخر عندما يكونان بمفردهما. غير أنه من الممكن إرجاعُ أصلِ هذا الوهم إلى التجارب الأُولى للطفل الرضيع أثناء الرضاعة؛ حيث يُضفَى على الثدي صفةٌ شهوانية ومثالية كشيءٍ مُشبِع تمامًا للأم والابن؛ فيشعر كلٌّ منهما أن الآخر هو كل ما يحتاجه ولا يهتم كلٌّ منهما إلا بالآخر، ربما قبل ظهورِ شخصٍ ثالث كأبٍ أو شقيق. لقد صارت هذه الخيالات الجنسية الضخمة أوهامًا بالنسبة إلى شريبر وبدا أنها ساعدَته في تنظيم قُدراته العقلية وتفادي التجربة البشعة المتمثلة في الشعور بالضآلة والضعف والتعرُّض للازدراء والتهكُّم. كذلك كان التماهي مع الأم التي حَملَت الطفل وأنجَبَت بمنزلةِ درعٍ واقٍ له من إدراك شعوره بالحسد والذنب تجاه النساء؛ إذ إنه كان الآن من يمتلك الثديَين والقُدرات الأنثوية لِيُخرج «جنسًا جديدًا من الرجال».

يبدو الجانب الأكثرُ إثارةً للإعجاب في رؤية فرويد هو إدراكه للعنصر الإصلاحي في منظومة الأوهام لدى شريبر؛ فبعد أن دُمِّر عالمه من خلالِ هجماتٍ كُلية القدرة على موضوعه الجيد، يصف فرويد كيف أن:

> مريض جنون الارتياب يَبنيه مجددًا، صحيحٌ أنه لا يبنيه على نحوٍ أكثر عظمة، لكنه على الأقل يبنيه بالشكل الذي يُمكِّنه من العيش بداخله مرةً أخرى. إنه

> يبنيه بفعل أوهامه؛ فالتكوين الخيالي، الذي ننظر إليه كنتاجٍ مرضي، هو في الواقع محاولةٌ للتعافي وعمليةُ إعادةِ بناء. (١٩١١، الصفحات ٧٠-٧١؛ التأكيد وارد في النسخة الأصلية)

في الواقع، يبدو أن منظومة الأوهام قد ساعدَت شريبر في بلوغ درجةٍ كبيرة من التكامُل وحقَّق تَحسُّنًا اجتماعيًّا ملحوظًا دون التخلُّص من أيٍّ من معتقداته الأساسية، ليصبح في النهاية قادرًا على التصرُّف على نحوٍ ملائم في معظم المواقف الاجتماعية، وكتابةِ مُذكِّراته والتماسِ حريته بأسلوبٍ متماسك. وأُطلِق سراحه من المصحة في ديسمبر عام ١٩٠٢ ونجح في التصرُّف جيدًا على نحوٍ معقول مع كتمانِ أوهامِه وهلاوسِه، حتى انتكس بعد حوالي خمسِ سنواتٍ ليدخل في مرضه الأخير بعد إصابة زوجته بسكتةٍ دماغية.

(٤) منظومة الوهم كملاذ نفسي

ذَهبتُ حتى الآن إلى أنه من الممكن التمييز بين ثلاثةِ عناصرَ في مرض شريبر: الأول هو الاكتئاب واليأس اللذان لم يسيطرا فقط على المرحلة المبكرة من انهياره بل استمرَّا لِيصبغا مظاهره الذُّهانية الأفدح. العنصر الثاني: أدَّى جنون الارتياب الذي بدأ مع إسقاط المسئولية والشعور بالذنب واتسم بفوضى متفاقمةٍ كانفصالٍ دفاعي إلى تفكُّك المُضطهِدين وكذلك الذات مما أدَّى إلى صراعٍ فوضوي كامل من أجل البقاء. وأخيرًا: تألَّف العنصر الثالث من حالةِ وهمٍ مُنظَّمة نسبيًّا، أصبح فيها الاضطهاد مقبولًا من خلال التماهي مع جانبٍ أنثوي مُخلِّص وخُنوعٍ ذي طابعٍ شهواني للأب. أجد أنه من المفيد أن ننظر إلى هذه الحالات الثلاث باعتبارها في حالةِ توازُن حيث الحركة ذهابًا وإيابًا بينها دائمًا ما تحدث، رغم إمكانية رصد انتقالٍ من الاكتئاب إلى جنون الارتياب ومن ثَمَّ إلى منظومة الوهم. والواقع أنني فكرتُ في منظومة الوهم لدى شريبر كملاذٍ نفسي قائم على نظام ذُهاني (ستاينر، ١٩٩٣)، والذي لُجِئ إليه عندما أصبح كلٌّ من الاكتئاب وجنون الارتياب لا يُحتمَلان. ولسوف أذهب إلى أن كلًّا من فشله في العثور على موضوعٍ احتوائي يستجيب لإسقاطاته الكلية القدرة والإذلال الذي نشأ كنتيجة كانا عاملَين جعلا من المستحيل على شريبر تحمُّل الاكتئاب والتعامُل معه، وهو ما دفعه بالتبعية نحو جنون الارتياب ومن ثَمَّ إلى النظام الذُّهاني.

(٥) دور التحديق في الذُّهان لدى شريبر

يلعب التحديق دورًا بارزًا في مُذكِّرات شريبر؛ فقد كان تحديق الآخرِين، الذي غالبًا ما يتمثل في هيئةِ إشعاعاتٍ إلهية في أوهامه، مسئولًا عن إذلاله، وزادت معاناته إلى حدٍّ هائل عندما شَعَر بأنه مُراقَب، وأنه «وصل إلى القاع» وتعرَّض للسخرية والازدراء. كان لتحديق شريبر نفسه دَورٌ مهم أيضًا في قدرته على تحدِّي السلطة والدفاع عن نفسه، والانتصار أحيانًا على رموزٍ قوية مثل فلكسيج وحتى الرب. وقد انطوت هذه القدرة على قوةٍ كلية وهمية وتجلَّت على نحوٍ مدهش، على سبيل المثال، في قدرته على التحديق في الشمس حتى ضَعُفَت أشعتها نتيجةً لهذا. كان التحديق كذلك وسيلةً استطاع من خلالها الإسقاط داخل موضوعاته واعتقَد من خلالها أن موضوعاته يمكنها إعادة الإسقاط داخله. وقد حَدثَت مجموعةٌ من التماهيات الذُّهانية، على سبيل المثال، مع قدرة الله الكلية ولاحقًا، من خلال وهمٍ مُخلِّص، مع رمزٍ أمومي خانع لكنه كليُّ القدرة كذلك.

ليس من الممكن تتبُّع التطوُّر المُعقَّد لهذه الإسقاطات والتماهيات بالتفصيل، لكني أومن بأن بعض التلميحات عن آليةِ عمل التحديق يُمكِن العثور عليها بالنظر في تطوُّر علاقةِ شريبر بالبروفيسور فلكسيج في المراحل الأُولى لمرضه. وأعتقد أنه يمكن أن نرى كيف أن إسقاط القدرة الكلية على طبيبه النفسي أعقبه نجاح في تشويهِ سُمعة المُعالِج عندما كشف زيف ادعاءاته، وكان هذا أحد العوامل التي أدَّت إلى انحدارٍ كارثي نحو جنون الارتياب.

(٦) الاحتياج المُلح للراحة وإسقاط القدرة الكلية

عندما أقدم شريبر على استشارة البروفيسور فلكسيج، في بداية انهياره الثاني، كان بالفعل قد سقط في غياهب الاكتئاب، وبدأ يشعُر بالاضطهاد ولم يعُد قادرًا على الحصول على الراحة أثناء النوم؛ فسافر على عُجالةٍ من دريسدن إلى ليبزج مؤكدًا على موعده تلغرافيًّا، ووصل مع زوجته إلى عيادة البروفيسور في حالةٍ بائسة. وتحت ضغط الاحتياج للراحة، وربما لما وجده من إرضاءٍ لكبريائه جرَّاءَ الآمال الكبيرة التي تُعلِّقها عليه العائلة في الحصول على علاج، استجاب البروفيسور فلكسيج في تفاؤل. وقد وصف شريبر في مُذكِّراته فيما بعدُ كيف:

> تلا ذلك مقابلةٌ طويلة يجب أن أُقِر بأن البروفيسور فلكسيج قد أظهر خلالها فصاحةً رائعة أَثَّرت فيَّ بشدة. كان يتحدث عن التطوُّرات التي طَرأَت على الطب

> النفسي منذ مرضي الأول، والمُنوِّمات التي اكتُشِفَت حديثًا وما إلى ذلك، ومنحني أملًا في تخليصي من المرض بالكامل من خلالِ نومةٍ واحدة وافرة … ومن ثَمَّ أصبح مزاجي أكثر استقرارًا …

غير أن العلاج فشِل، ولعل ذلك كان أمرًا محتومًا؛ فلعدة أسباب، تَأخَّر النوم، وأصبح السرير باردًا، وظَهرَت أعراضٌ أخرى؛ ولذا أظهر الدواء فشلًا شبهَ تامٍّ في إحداث الأَثَر المنشود منه. وبعد ليلةٍ «بلا نوم تقريبًا»، أصبح مُكتئبًا بشدة واضطُرَّت زوجته لمنعه من الانتحار باستخدام مِنشَفة. وفي صباح اليوم التالي اتصَلتْ بالبروفيسور واصطَحبَته بسيارة أجرة بنفسها إلى المصحَّة (شريبر، ١٩٠٣، الصفحات ٤٨–٤٩).

من السهل إدراك مدى احتياجه الشديد للراحة الذي صرَّح به للطبيب النفسي في وقتٍ لم يكن فيه قادرًا على إيجاد الراحة في النوم. غير أن ردَّ فعلِ البروفيسور يُشير إلى أنه وُضع تحت ضغطٍ لدرجة أنه لم يستطع مقاومةَ تولِّي مُهمةٍ ستُثبت أنها تفوقُ قدراته.

بعد إدخاله المصحة، استمرَّت حالة شريبر العقلية في التذبذُب. وقد وصف كيف أن مزاجه الاكتئابي الحادَّ قد تحسَّن عندما حاوَلَ مساعد البروفيسور فلكسيج رفع معنوياته وطمأنَه بعدمِ وجودِ أي نيةٍ للتخلي عن العلاج؛ مما جعل هذا اليوم هو «اليوم الوحيد الذي كان فيه مُفعمًا بالحياة بروح الأمل المُبهِجة». ومرةً أخرى اضطُر الطبيب تحت الضغط للردِّ بتفاؤل، ومرةً أخرى تعرَّض شريبر للخيانة؛ فقد تدهور مزاجه مرةً أخرى بشكلٍ دراماتيكي بعد واقعتَين حَدثَتا لم يفصل بينهما إلا زمنٌ قصير. في البداية سافَرَت زوجته، التي كانت تُداوم على زيارته وتناوُل الغداء معه يوميًّا، لمدة أربعةِ أيامٍ للإقامة مع والدها في برلين التماسًا لبعض الراحة. وبعد عودتها، كانت حالته قد تدَهورَت للغاية لدرجة أنه طَلَب منها ألا تزوره بعد اليوم لأنه لم يعُد يستطيع أن يتحمل أن تراه في «هذه الحالة السيئة التي انحدَر إليها». وعندما جاءت لاحقًا، لم يعُد يعتبرها كائنًا حيًّا. يبدو أنه حتى ذلك الحين كان وجودها اليومي قادرًا على امتصاصِ واحتواءِ بعضٍ من إسقاطاته، وربما تعزيز إيمانه بأطبائه الذي تَقوَّض في غيابها. وعندما عادت كان مُتأكدًا من أنها ستُعامله بتعالٍ وازدراء.

تضَمَّنَت الواقعة الثانية مقابلةً مع البروفيسور فلكسيج تحدَّاه المريض خلالها مرةً أخرى فيما يخص مسألة قابليته للشفاء. يصف شريبر كيف أنه «كان يحمل بداخله آمالًا مُؤكَّدة، «لكنه لم يعُد يستطيع» — على الأقل كما تراءى لي — أن ينظر في عينيَّ مباشرة» (ورد التأكيد في النسخة الأصلية). وكانت الإشاحة بنظره عنه هي الشيء الذي

أكَّد له رؤيته من أن البروفيسور فلكسيج لم يستطع الوفاء بوعدِه ولم يعُد في استطاعته الاستجابة لإسقاطات الاحتياج. كان شريبر يؤمن بأن عدم قابليته للشفاء قد هَزمَت الطبيب النفسي وأن فلكسيج لم يستطع تحمُّل الاتهامات وشعَر بالإهانة ومن ثَمَّ أصبح توَّاقًا للانتقام. ومنذ ذلك الحين تأكَّد لديه أن قوًى خارقة للطبيعة يُوجِّهها فلكسيج هي مصدر اضطهاده.

كان وصف «البلاغة الاستثنائية» للطبيب يُشير إلى تلميحٍ بالسخرية، والواقع أن شكوك شريبر بشأن فلكسيج كانت حاضرةً حتى في فترة مرضه الأوَّل قبل تسع سنوات؛ إذ كتب يقول إنه في ذلك الوقت «لم يكن يمتلك في العموم إلا انطباعاتٍ إيجابية عن طرق البروفيسور فلكسيج العلاجية.» لكنه بعد ذلك يمضي قائلًا:

> ربما تكون بعض الأخطاء قد وقعت ... فحتى في سياق ذلك المرض كنتُ، وما زلتُ، مقتنعًا بالرأي القائل إن «الكذبات البيضاء» — التي ربما لا يستطيع أي أخصائيٍّ أعصابٍ الاستغناء عنها كليًّا في حالة بعض المرضى العقليِّين، ولكن عليه توظيفها فقط بأكبرِ قدْرٍ من الحيطة والحذر — كانت بالكاد مناسبة لحالتي؛ إذ لا بد أنه قد أدرك مُبكرًا أنه عندما يتعامل معي، فإنه يتعامل مع إنسانٍ ذي قدْرٍ عالٍ من الذكاء، وقدرةٍ استثنائية على الفهم، وقوى ملاحظةٍ حادة. (شريبر، ١٩٠٣، صفحة ٥١)[٤]

(٧) النظر مباشرة في عينَي الموضوع وحكاية فرويد عن النسر

لم يكن البروفيسور فلكسيج فقط هو من فشل في التواصُل البصري المباشر مع شريبر؛ فقد تجلى تفوُّقه وتحديه بإيمانه بأنه يُمكنه التحديق في الشمس «دون أن يصيبه شيء إلا القليل من الدوار»، وأن أشعتها قد بهتَت بالفعل أمامه. وعندما كان يجأر بقوةٍ أثناء اضطرابه، كان أحيانًا ما يصرخ قائلًا «فلكسيج الصغير»، وأحيانًا يقول إن «الشمس عاهرة» كما لو كان يُهين هذه الرموز العليا مثلما أهانَته كما يعتقد.

تُوجد كذلك عدة أقسام من المُذكِّرات تصف كيف أن شريبر انتصر على الرب، بالنظر إليه ككيانٍ أدنى، بسبب عدم قدرته على فهم الناس؛ لكونه قد أَلِفَ الأمواتَ فقط، وغير قادرٍ على فهم طبيعة البشر، ولم يستطع التعلم من التجربة. علاوةً على ذلك، فإن قدرة الله كانت تسير «عكس نظام العالم» والذي يُمثِّل قوةً أعلى كان الرب نفسه مُجبرًا على الاستسلام لها.

كانت قدرة شريبر على التحديق في الشمس تُمثِّل أهميةً خاصة بالنسبة إلى فرويد الذي وَصفَ في حاشيةٍ ملحقة لبحث شريبر، الخُرافات التي نَسبَت القدرة على التحديق في الشمس إلى النسر فقط «الذي جعلَته معيشته في أعلى مناطق الجو على علاقةٍ وثيقة للغاية مع السموات، والشمس، والبرق.» علاوةً على ذلك، «يضع النسر صغيره في اختبارٍ قبل الاعتراف بأنه ابنه الشرعي؛ فما لم ينجح في التحديق في الشمس دون أن تطرُف له عين، يُلقى خارج الوكر» (فرويد، ١٩١١، صفحة ٨١). ينظر فرويد لهذه الأسطورة كمثالٍ لمحنة، واختبارٍ للنسب، وتأكيدٍ على أن الشمس رمزٌ أبوي بالفعل. يقول فرويد: «إن النسر يتصرَّف كما لو كان هو نفسه ينحدر من نَسلِ الشمس ويُخضِع صغاره لاختبار نسبهم ... وبذلك يكون شريبر قد أعاد اكتشافَ الطريقة الأسطورية للتعبير عن علاقة البُنوة التي تربطه بالشمس» (المصدر السابق، صفحة ٨١). غير أن الوصف يُشير كذلك إلى أن فرويد كان بذلك يستجيب للصورة الذهنية البشِعة للسقوط في هاوية الاكتئاب عند التعرُّض للاستهجان والإهانة بسبب تصميم الأب على تأكيد تفوُّقه.

صُنِع عدد من الروابط المثيرة للاهتمام بين شخصية الأب الحقيقي لشريبر والأب الوهمي الذي كان يتجسد له في صورة فلكسيج والرب (نيدرلاند، ١٩٥١، ١٩٥٩أ، ١٩٥٩ب، ١٩٦٠؛ كاتان، ١٩٥٩؛ لوثان، ١٩٩٢). كان الدكتور موريتز شريبر طبيبًا بارزًا طوَّر نظامًا للتدريبات البدنية ووسائلَ ردعٍ جسدية ومبادئَ تعليميةً للأطفال خَلقَت مناخًا فاشيًّا مُتسلطًا، ربما كان مألوفًا في أوروبا في القرن التاسع عشر، وكان من الصعب التمرُّد عليه. يمكننا تخمين أنه أراد تقليد والده الذي كان ينظر إليه بعين الإعجاب والتقدير، لكنه في الوقت نفسه أدرك الطبيعة النرجسية الدفاعية لنظام تدريب الأطفال الخاصة بوالده بتأكيده على الطاعة وإنكار الذات. لقد كان شخصًا يفرض تَدخُّلَه بتسلُّط لدرجةِ أنه لم يكن قادرًا على إظهار أيِّ احترامٍ لقدرة زوجته على العناية بأبنائها.

(٨) الإسقاط المُضاد من جانب الموضوع المؤدي للانحدار إلى جنون الارتياب والمهانة

مع تطوُّر جنون الارتياب لدى شريبر، صار فلكسيج والرب يتصرَّفان كما لو كانا يتعرضان لتهديد من شريبر، وبدآ في إنزالِ عقوباتٍ به؛ الأمر الذي لعب فيه الإذلال دورًا مُهمًّا في جعل معاناته لا تُطاق. فكان يُعامَل بازدراءٍ وتعالٍ، ويُشعِره مُضطهِدوه، الذين سَخِروا منه وعذَّبوه، بالضآلة والحقارة والدُّونيَّة. وحاوَلَا إجباره على الخضوع بإشعالِ

صراعٍ على السيطرة لعب فيه التحديق دورًا محوريًّا. وقد كان التحديق في اتجاهٍ هابط يشير إلى الدونية لدى شريبر، الذي كان يفزع من فكرة النظر إليه بتعالٍ، حتى إنه، كما رأينا، لم يستطع حتى تحمُّل أن تراه زوجته في «حالته السيئة» التي انحَدَر إليها.

كان الإذلال مؤلمًا للغاية فيما يتعلق بالاضطهاد الجوهري المتمثل في نزع رجولته؛ حيث اشتكى شريبر من أن الأصوات كانت تنظر دائمًا لتحوُّلِه إلى امرأةٍ كعارٍ جنسي أعطاها عذرًا للتحقير من شأنه. «كانت إشعاعات الرب كثيرًا ما تظن أنَّ من حقها أن تسخر مني بمُناداتي بالآنسة شريبر، في إشارة إلى الإخصاء الذي زُعِم أنني على وشك الخضوع إليه.» أو كانت تقول: «إذن هذا هو الشخص الذي يدَّعي أنه كان رئيسًا لمجلس الشيوخ، ذلك الشخص الذي يترك نفسه ليُضَاجَع.» كانت الطريقة التي اعتقَد بها أن الله يُقنِعه أنه كان غبيًّا مُهينةً بالقدْر نفسه؛ فهنا كانت الفضَلات تُوضع في أمعائه مما يخلُق لديه الحاجة لإخراجها، وكانت بقايا برازٍ صغيرة تُلوِّث مُؤخِّرتَه. وكان يعتقد أن الرب ينظر إلى رغبة شريبر الملحة في التغوُّط بأنها انتصارٌ عليه، وأن الهدف المُمثَّل في تدمير صوابه قد تَحقَّق. كما اشتكى من أن الخِداع الذي تنطوي عليه هذه السياسة يظهر في حقيقة أنه كلما نَشأَت الحاجة للتغوُّط، كان شخصٌ آخر يُرسَل إلى المرحاض الذي دائمًا ما يكون مشغولًا عندما كان يحتاجه. بل إن الرب سَخِر منه بالإشارة إلى أنه لم يستطع التغوُّط لأنه في غاية الغباء والحماقة. وكانت هذه إحدى الطرق التي أصبح من خلالها مقتنعًا بجهل الرب وعدم درايتِه بطبيعة البشر (شريبر، ١٩٠٣، الصفحات ٢٠٥–٢٠٦).

يبدو واضحًا أن شريبر قد حاوَلَ المُقاوَمة وهزيمةَ مُضطهِديه وأدى هذا التمرُّد إلى صراعٍ أقرب إلى الحرب بينه وبين الرب، وحال دون الشعور بالمزيد من الاكتئاب الذي كان يُمثِّل لشريبر هزيمةً وخضوعًا. تتكشَّف مواطن القصور لدى شريبر وتُفرَض عليه أشكالُ الإذلال بواسطةِ رموزٍ قوية تُؤكِّد سيطرتها عليه. حينها يُصبِح الإذلال هو ما يجب أن يُحارَب، ويجب التصدي لمن يُراقبه وإنزال الهزيمة به. في حالة شريبر، بدا كما لو كان يجبُ شنُّ حربٍ ضمن صراعٍ على السيطرة يُذكِّرنا بالحرب بين الرب والشيطان في ملحمة «الفردوس المفقود» الشعرية. يُشير فرويد إلى أنه «في هذه العلاقة مع الرب، أظهر شريبر مزيجًا من أغرب ما يكون من النقد الكُفريِّ والعصيان المتمرِّد من جانب، والتقوى الممزوجة بالتبجيل من جانبٍ آخر» (فرويد، ١٩١١، صفحة ٥١)، وهو ما يشير فرويد إلى أنه يُميِّز السلوك الطفولي للصبية تجاه آبائهم. كان شريبر يُهزم أحيانًا ويُخصى ويُعاقب

عقابًا شنيعًا، وأحيانًا يكون قادرًا على ردِّ الهُجوم والنظَر بتعالٍ إلى «فلكسيج الصغير»، بل هزيمة الرب.

(٩) الغياب المأساوي لموضوعٍ احتوائي

كان الصراع على السيطرة الذي مر به شريبر والمحاولات المستمرة لإهانته من ضمن العوامل التي دفعَته تجاهَ إيجادِ حلٍّ كليٍّ القدرة في شكلِ نظام مَرَضي من نوعٍ ضلالي. ثَمَّةَ عاملٌ آخر ذو صلة يبدو أنه ينبثق من المُذكِّرات مصحوبًا ببعض الحدة والانفعال، وهو فشلُه في العثور على موضوعٍ قادر على احتواء أزمته والتعامُل مع إسقاطاته التي كان مُضطرًّا لاستخدامها.

من الجوانب الجوهرية للاحتواء وجوبُ قدرة الموضوع على الانفتاح تجاهَ إسقاطات المريض وفهم التجربة التي تُستحضر داخله بشكلٍ يحافظ على وجودِ صلةٍ بالواقع. وقد كان من المستحيل على شريبر أن يجد شخصًا يمكنه فهم يأسه وفي الوقت نفسه الحفاظ على قدرته على مُعامَلته كفردٍ مستقلٍّ له احتياجاتٌ بشرية، إلى جانب القدرة على إدراك حقيقة المرض ومُواجَهة المريض به وبحقيقةِ ما يمكن وما لا يمكن فعلُه لِمساعدته. كان شريبر منشغلًا للغاية بالحصول على الراحة حتى إنه كان بالكاد يهتم بالحاجة إلى أن يُفهَم. وكان الضغطُ الواقع على موضوعاته هائلًا لدرجة أنهم أصبحوا أيضًا مُهتمِّين بإيجادِ علاجٍ له، ومرةً أخرى، لم يستطيعوا إعطاء مساحةٍ للحاجة إلى التفهُّم.

أَدركَت كلاين أن الطفل يتجه نحو الموضوع الجيد ليس فقط للحصول على التغذية والفهم، بل غالبًا ما يكون ذلك في الأساس طلبًا للتخلُّص من مشاعره السيئة. والمطلب هنا هو القدرة على تفريغ السوء داخل موضوعٍ ما، وهو الذي سوف يتخلَّص بدوره من النزعة التدميرية والشعور بالذنب وجنون الارتياب.[٥] وبينما من المفهوم أنه يجب على المريض اليائس السعي طلبًا لهذه الراحة، يجب أن يمتلك الموضوعُ القدرة على الحفاظ على الاتصال بالواقع ورؤية المريض وتقبُّلِه كما هو، سواء في طبيعته الخيِّرة أو في نزعته التدميرية على حدٍّ سواء.

بالطبع كلما كانت الأوهام كليَّة القدرة، زادت صعوبة احتوائها، وقد كان هوَس العظمة لدى شريبر جليًّا في مُذكِّراته؛ ففي مرحلة جنون العظمة من انهياره، وصف شريبر كيف أنه «كان الموضوع الوحيد الذي أُعمِلت عليه المعجزات الإلهية؛ ومن ثَمَّ كان أكثر

البشر الذين عاشوا على الأرض أهمية.» انعَكسَت هذه القدرة الكلِّية أيضًا في موضوعاتِه التي اكتَسبَت قدراتٍ علاجيةً كليةَ القُدرة كان الوسيط في تحقُّقها هو الإشعاعات الإلهية، شأنها في ذلك شأن النزعة التدميرية؛ فقد كان يؤمن بأن «أعضاءه عانت الكثير من الإصاباتِ المُدمِّرة كانت ستؤدي حتمًا لِموتِ أيِّ إنسانٍ آخر … لكن المعجزات الإلهية دائمًا ما كانت تُعيد إحياء ما دُمِّر؛ ولذا كان يظل خالدًا تمامًا طالما ظل إنسانًا» (فرويد، ١٩١١، صفحة ١٧). ربما كان الأمرُ أنْ لا أحد استطاع أن يتعامل مع هذه الدرجة من اليقين الوهمي، ولكن يبدو أن شريبر كان يدرك الحاجة لأن يُفهَم ويُعَامَل كإنسان، وأظن أن تجربته مع نبذه كإنسانٍ هي ما كان يُريد إيصاله بمصطلح «قتل الروح»،[٦] الذي يُشير إلى بعض الوعي بالفشل في الاحتواء. هنا تبرُز أهمية اتجاه التحديق مرةً أخرى، وُيوضِّح أن العين لا تُستخدم فقط في استيعاب الانطباعات الشعورية، بل تُعتبر كذلك وسيلة للإسقاط. عندما كان شريبر ينظر بعين التقدير إلى والده وأطبائه وإلى الرب، كان لديه أملٌ في أن يكون قادرًا على إسقاط مشاعره بالضآلة والدونية وأن يجد من الفهم والاحتواء ما قد يجعل هذه المشاعرَ مُحتمَلة. وعندما لم يستطع البروفيسور تحمُّل الإسقاطات، أشاح بنظرِه بعيدًا دون أن تكون لديه القدرةُ على الاعتراف بعجزه. غير أن شريبر كان مؤمنًا بأن تلك الرموز المُوقَّرة لم تخذله فقط، بل بدأت أيضًا في اضطهاده. وعندما شَعرَت بأن مكانتها مُهدَّدة، بدأت في التبرُّؤ من عناصرها المُخزِية بإسقاطها على المريض وعزَّزَت سيطرتها من خلال الإهانة والسخرية منه.

(١٠) جرأة الحل الذُّهاني

حينما أَسَّس شريبر منظومته للأوهام المُخلِّصة كان قد حوَّل الاضطهادات المُوجَّهة ضده إلى خضوعٍ ذي طابعٍ مثالي، وعمِلَت منظومته للأوهام كملاذٍ نفسيٍّ بدا يُوفِّر له الحماية الكاملة من الشعور بالخزي. وكان هذا التحرُّر من الخزي هو ما جعل بإمكانه أن يُقدِّم توصيفاتٍ دقيقة، ويمكن القول إنها جريئة، لِجُنونه؛ ففي رسالته المفتوحة للبروفيسور فلكسيج التي تسبق مُذكراته، يعترف باحتمالية أن مُكاشَفاته قد تكون مؤلِمةً لفلكسيج وآخرِين، لكن يقينه الوهمي بحقه الأخلاقي يجعله يُبرِّر نشرها؛ إذ يقول: «يُحزنني هذا كثيرًا لكن لسوء الحظ لا يمكن إحداث أي تغييراتٍ دون أن أجعل نفسي من البداية مفهومًا … إن هدفي الوحيد هو تعميقُ معرفة الحقيقة في مجالٍ حيوي، وهو الدين.»

وامتد قلقه إلى «أخذ بعض الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة في الاعتبار» لكنه يختتم بقوله: «لكني أعتقد أن فحصًا خبيرًا لجسدي ومراقبة مصيري الشخصي على مدى حياتي سيكون قيِّمًا لكلٍّ من العلم ومعرفة الحقائق الدينية. وفي ضَوء مثل هذه الاعتبارات يجب أن تتراجع كل المشكلات والأمور الشخصية.»

أُعجب الدكتور ويبر، مدير مصحة زونينشتاين العقلية، بهذه الجُرأة، واستخدم في تقريره الذي قدَّمه إلى المحكمة والذي يعود تاريخه إلى نوفمبر عام ١٩٠٠، للدفع بأنه لم يكن يتعمَّق في أوهام شريبر.[٧] كان لدى فرويد كذلك بعضُ الشكوك حيال تأثيرِ نَشرِ مُذكراتِ شريبر مطبوعة، وقال، كما لو كان يعتذر، إنه:

> ربما يكون الدكتور شريبر ما زال على قيد الحياة حتى اليوم وربما فَصَل نفسه عن منظومة الأوهام التي طرحها في عام ١٩٠٣؛ إذ كانت تلك الملاحظات المذكورة عن كتابه ستُؤلمه. ... غير أنه عند هذا الحد، وبينما يحتفظ بهُويته جنبًا إلى جنب مع شخصيته السابقة، يُمكِنني التعويل على الحجج التي استخدمها هو نفسه ... للتصدِّي للجهود المبذولة لمنعه من نشر المذكرات.

ويستشهد ببعض النقاط التي وضَّحَها شريبر والتي اقتبستُها بدوري. يبدو أن هذا يعني أن قُوَّتَه الكلية ستحميه من الألم الذي ربما يُسبِّبه نشرُ المذكرات، شريطة أن يظل شريبر موهومًا. لقد عمِلَت منظومة الأوهام كملاذٍ نفسي كما كانت بمنزلةِ مخبأٍ ينقطع فيه الاتصال مع الواقع على نحوٍ مهين.

والواقع أن قدرة المصاب بالذُّهان على تحدي الشعور بالخزي هي ما يسمح له بكشف جوانبَ خاصةٍ من تكوينه تكون خفيةً عند أفرادٍ أقلَّ اضطرابًا. وأدرك فرويد هذا عندما كتب يقول:

> إن بحث التحليل النفسي في جنون الارتياب سيكون مستحيلًا كليًّا لو كان المَرضَى أنفسهم لا يمتلكون خاصيةَ إفشاءِ تلك الأشياء (وإن كان على نحوٍ مُشوَّه) التي يُخفِيها المُصابون بالعُصاب كأسرار. (فرويد، ١٩١١، صفحة ٩)

إن الجُرأة وغياب الخجل لدى مريض الذُّهان هما ما يسمحان له أحيانًا بكشف الغطاء عن الأمور التي يخجل منها الآخرون، ويُمكِّناننا من رؤية الآليات العقلية باديةً للعيان. والوصف الدقيق لصرخات الاستغاثة التي يُطلِقها وما يعقبها من إهاناتٍ هما ما يجعلان

من الممكن إعادة النظر في مرض شريبر من منظورٍ مُعاصِر واستخدام المُلاحظات التي دوَّنها عن نفسه لفهمِ بعضٍ من الألم الذي عاناه فهمًا أفضل، وربما تحديد معاناةٍ مماثلة لدى مرضانا.

هوامش

(١) يُوضِّح سانتنر (١٩٩٦) نقطةً مثيرة للاهتمام وهي أن اليهودية والأُنوثة في ألمانيا في القرن التاسع عشر كانتا يُنظَر إليهما كعلاماتٍ للدونية وربما يُساعِد هذا في فهم لماذا أصبح شريبر مشغولًا بقصة «اليهودي الجوَّال» وكان يخشى أن تكون لديه معدةُ يهوديٍّ وضيع.

(٢) متلازمة كوتار: هذيان الإنكار. هي متلازمة تتسم بالاكتئاب النفسي والنزعات الانتحارية حيث يشتكي المريض أنه خسِر كل شيء؛ ممتلكاته، وجزءًا من جسده، وغالبًا ما يعتقد أنه مات وأصبح جثةً متحركة. وعادةً ما يتسع هذا الوهم لدرجة أن المريض قد يدَّعي أنه يمكنه شمَّ لحمه المُتعفِّن ويَشعُر بالديدان تزحف تحت جلده. وعلى نحوٍ متناقض، غالبًا ما يُوحي «الموت» للمريض بفكرة أنه خالد. وربما تَتواجَد بعض الأفكار المُتعلِّقة بجنون العظمة والسوداوية (كوتار، ١٨٨٠).

(٣) كتب فرويد: «وهكذا سقط ظل الموضوع على الأنا، ومن هناك فصاعدًا أصبح من الممكن الحكم على الأخيرة بواسطة قوةٍ خاصة كما لو كانت موضوعًا؛ الموضوع المهجور. بهذه الطريقة تحوَّلَت خسارة الموضوع إلى خسارة للأنا وتحوَّل الصراع بين الأنا والشخص المحبوب إلى انقسام بين القوة الانتقادية للأنا والأنا التي تبدَّلَت بسبب التماهي» (١٩١٧، صفحة ٢٤٩).

(٤) عُزِيَت هذه الكذبات البيضاء المرتبطة بمرضه «إلى تسمُّمه ببروميد البوتاسيوم، وهو ما تقع مسئوليته على ... الدكتور آر في مصحة إس»، كما يشتكي كذلك من أنه «كان يمكن شفائي على نحوٍ أسرع من بعض الأفكار المرتبطة بالوسواس المَرَضي التي كنتُ مُنشغلًا بها في ذلك الوقت، لا سيما القلق بشأن فقدان الوزن، لو سُمِح لي باستخدام الموازِين التي تُستخدم لمعرفةِ أوزان المرضى بضعَ مراتٍ بنفسي.»

(٥) كَتبَت كلاين (١٩٥٧، الصفحات ١٧٩–١٨٠) كما يلي: «كذلك، فإن توق الطفل إلى ثديٍ لا ينضب ولا يختفي أبدًا لا ينبثق بأيِّ حالٍ فقط من رغبةٍ شديدة في الطعام ومن الرغبات الجنسية؛ فالحاجة المُلِحَّة، حتى في المراحل المُبكِّرة، للحصول على برهانٍ

مستمر على حب الأم ترجع جذورها إلى القلق النفسي بالأساس. والصراع بين غريزتَي الحياة والموت وما يستتبعه من تهديدٍ بفناء النفس والموضوع بواسطة دوافعَ تدميريةٍ هي عواملُ أساسية في علاقة الطفل المُبكِّرة بأمه؛ فرغبات الطفل تشير ضمنيًّا إلى أن الثدي، والأُم بعد ذلك، يجب أن يقضيا على هذه الدوافعِ التدميرية وألم القلق الاضطهادي.»

(٦) يُعرِّف شينجولد (١٩٧٨) قتل الروح بأنه محاولةٌ مُتعمَّدة لاعتراض الهوية المنفصلة لشخصٍ آخر، ومتعته في الحياة وقدرته على الحب.

(٧) في هذا السياق، كتب الدكتور ويبر يقول: «عند النظر إلى محتوى كتاباته وأخذ ما ورد فيها من قدْرٍ ضخم من الحماقات المُرتبِطة به وبآخرين في الاعتبار، والتفصيل الجريء لأكثر المواقف والأحداث المشكوك فيها والمستحيلة جماليًّا، واستخدام أكثر الكلمات الدارجة بذاءة، وغير ذلك، نجد صعوبة كبيرة في فهمِ إقدامِ شخصٍ لبقٍ ذي حسٍّ مُرهَف على القيام بما من شأنه أن يُعرِّضه لشبهةٍ حادة في عيون العامة، ما لم يكن تَوجُّهه نحو الحياة بالكامل توجهًا مرضيًّا، وغير قادرٍ على رؤية الأمور في منظورها الصحيح، وما لم يكن التقدير المُبالَغ فيه لشخصه الذي تسبَّب فيه انعدام إدراكه لمرضه قد ألقى غمامةً على تقديرِه للحدود التي يفرضها المجتمع على الإنسان» (شريبر، ١٩٠٣، الصفحات ٢٤٧–٢٤٨).

الفصل الثاني عشر

وهم اللاوعي والإدراك اللاحق: «من سجل حالة عُصاب طفلي» (رجل الذئاب)

روزين جوزيف بيرلِبرج

مقدمة

في الفترة ما بين فبراير عام ١٩١٠ ويوليو عام ١٩١٤، عالج فرويد شابًّا روسيًّا، عُرِف لاحقًا باسم رجل الذئاب. وُلِد الشاب في السادس من يناير عام ١٨٨٧ لِثريٍّ روسي من ذوي الأملاك مات في عمر التاسعة والأربعين بسبب جرعةٍ زائدة من الفيرونال، تاركًا ابنه وزوجته بثروةٍ تكفل لهما حياةً كريمة. خلال حياته شُخِّصَ الأب بأنه مُصابٌ بالهَوَس الاكتئابي. وكانت له ابنةٌ أخرى تكبر المريض بعامَين ونصفٍ أَقدمَت على الانتحار. بعد الفترة الأَوَّلية لتحليل فرويد له التي استمرَّت أربع سنوات، عاد رجل الذئاب إلى روسيا وتَزوَّج ممرضةً ألمانية وأنهى دراساته في القانون بنجاحٍ وحصل على ترخيصٍ بمزاولة المحاماة.

أشار جيمس سترايتشي في مَعرِض مُقدِّمته لهذه الحالة إلى أنها «كانت بلا شكٍّ الحالة الأعقد والأهم بين كل سجلاتِ حالاتِ فرويد» (فرويد، ١٩١٨، صفحة ٣). كما ذكر إرنست جونز أنها كانت:

> بالتأكيد الأفضل من بين مجموعة الحالات. كان فرويد آنذاك في قمة تمكُّنه، أستاذًا واثقًا من منهجه، وكان الأسلوب الذي يعرضه في تفسير وتركيب المادة

الشديدة التعقيد لا بد أن ينال إعجاب كل القُراء. (جونز، ١٩٧٤، الكتاب الثاني، صفحة ٣٠٧)

بدأ العلاج مع فرويد بعد بضعِ سنواتٍ من إصابة رجل الذئاب بعَدوى السيلان، التي تَركَته عاجزًا ومعتمدًا على الآخرِين. خلال طفولته وحتى عامه العاشر، حسبما يخبرنا فرويد، كان المريض يعاني من هستيريا القلق في شكلِ رُهاب حيوانات، تحوَّل إلى عُصابٍ وسواسي بمحتوًى ديني. في الوصف الكتابي للحالة، يُركِّز فرويد على فهمه للعُصاب الطِّفلي والذي أُعيد تشكيله وعُولج بعد انتهائه بخمسة عشر عامًا. لذا، فإن هذا يُعد وصفًا للطفولة بعينَي وفهمِ شخصٍ ناضج، الذي يُعتبَر في حدِّ ذاته مثالًا للإدراك اللاحق (انظر الطرح الخاص بهذا المفهوم لاحقًا). يشير بيتر جاي إلى أنه بالتركيز على عُصاب الطفولة، كان فرويد يُجري حوارًا مع يونج وأدلر. كان يونج يؤمن بأن ذكريات جنسانية الطفولة هي حدثٌ لاحق يُعرَض مجددًا، بينما كان أدلر يؤمن بأن الدوافع الجنسية المبكرة ليست جنسية بل عدوانية (جاي، ١٩٨٨، صفحة ٢٨٦).

ينقسم بحث فرويد إلى تسعةِ أقسام، ويبدأ بمقدمةٍ عامة يعقبها وصفٌ لبيئة المريض وتاريخ الحالة. يُقال إن والدَي رجل الذئاب كانا ينعمان بحياةٍ زوجيةٍ سعيدة، حتى بَدأَت والدته تُعاني من اضطراباتٍ بالمعدة وبدأ والده يُعاني من الاكتئاب. منذ البداية كان رجل الذئاب في رعايةِ ممرضةٍ كانت تُكِن له حبًّا جمًّا وكان طفلها قد مات صغيرًا.

كان رجل الذئاب طفلًا هادئًا خلال طفولته حتى إنه كان يُقال عنه إنه «كان يجب أن يكون فتاة.» اعتادت العائلة قضاء الصيف في فيلا بالريف حيث كان يزورهم العديد من أقاربهم. في إحدى السنوات، تُرِك رجل الذئاب وشقيقته مع مربيةٍ إنجليزية وعندما عاد أبواه، كان قد تحول؛ إذ «أصبح ساخطًا ونزقًا وعنيفًا» (فرويد، ١٩١٨، صفحة ١٥). اعتَقدَت والدته أن هذا التغيُّر بسبب المُربِّية الإنجليزية التي كانت غريبةَ الأطوار ومدمنةً على الشراب. وظنت جدته أن سلوك الصبي كان بسببِ نزاعٍ بين السيدة الإنجليزية والمُمرِّضة. في هاتَين المرتَين كان الصبي يختار جانب مُربِّيته. ثَمَّةَ ذكريان مُشوَّشَتان مُرتبطتان بتلك الفترة؛ الأُولى: عندما كانت المُربِّية الإنجليزية تمشي أمام الأطفال وقالت «انظروا لذيلي الصغير» (المصدر السابق، صفحة ١٩). والأخرى: عندما طارت قُبَّعتها عندما كانوا في جولة بالسيارة وكان الأطفال فرحِين بها. وهنا يُشير فرويد إلى عقدة الإخصاء.

هناك كذلك ذكرياتٌ متعلقة بتجربة المريض مع إغواء شقيقته؛ ففي إحدى المرات اقترحت عليه أن يُري كلٌّ منهما مُؤخِّرته للآخر. وفي مرةٍ أخرى، عَبثَت بقضيبه مخبرةً إياه أن مربيته تفعل هذا طيلة الوقت (المصدر السابق، صفحة ٢٠). ويشير فرويد إلى أن هذا لم يكن وهمًا؛ إذ أكَّدَت ابنةُ عمه لاحقًا أنها فَعلَت معه الشيء نفسه.

كانت شقيقته شديدة الذكاء بطريقةٍ جعلت المريض يشعُر بالدونية وهو طفل. وبالتدريج بَدأَت تعاني من الاكتئاب وانتهى الأمر بأن تناولَت السم وماتت بعيدًا عن المنزل. ويعتبر فرويد تاريخها كأحد الأدلة على «إرث الاعتلال العصبي الواضح في العائلة» (المصدر السابق، صفحة ٢١). في مرحلة المراهقة، تحسَّنَت العلاقة بين الشقيقَين، وبذل المريض محاولاتٍ لإغواء شقيقته وقُوبِلَت بالرفض من جانبها. وحوَّل المريض اهتمامه نحو فتاةٍ قروية كانت تعيش في المنزل وتحمل اسم شقيقته نفسه. ووفقًا لفرويد، كان لهذا عاقبةٌ على اختياره المستقبلي لنوع الموضوع؛ إذ كان دائمًا ما يختار امرأةً يعتبرها أقلَّ منه مكانة.

كان لديه ذِكرى تتعلق بمُعاناته من الخوف. كان ثَمَّةَ كتابٌ به صورةٌ لذئب يقف على ساقَيه الخلفيتَين، وقد اعتاد أن يصرخ كلما رأى الصورة خشيةَ أن يفترسه الذئب، كما كان يخاف من الحيوانات الأخرى؛ فذات مرةٍ أثارت خوفه فَراشةٌ صفراءُ ذات أجنحةٍ مُخطَّطة ومُدبَّبة. خلال تلك الفترة كان يَتذكَّر كذلك تعذيبه للخنافس واليرقانات. وكان يخاف كذلك من مُشاهدة ضرب الخيول، وفي أحيانٍ أخرى كان هو نفسه يضرب الخيول. فكان تقيًّا ومُجدِّفًا في آنٍ واحد. لم يكن فرويد متأكدًا من تتابُع الأحداث، لكنه يفترض أن أعراض العُصاب الوسواسي ترجع لفترةٍ لاحقة على فترة القلق والمُعامَلة القاسية للحيوانات. يتحدث فرويد كذلك عن وجودِ علاقةٍ غير مُرضية بين المريض ووالده.

يُقدِّر فرويد عمر المريض وقت إغواء شقيقته بثلاثِ سنوات وثلاثةِ أرباعِ السنة، وكان ذلك متزامنًا مع التغيُّر الذي طرأ على شخصيته. يربط فرويد بين الحدثَين وبين يقظة النشاط الجنسي لديه (المصدر السابق، صفحة ٢٤). يلجأ رجل الذئاب إلى المُربِّية التي هدَّدَته بالإخصاء؛ فالصبية الذين يستمنون يُصابون بجرحٍ في تلك المنطقة. وصارت مُشاهدته لشقيقته وإحدى صديقاتها تأكيدًا لهذا التهديد. يقول إنه أقلع عن الاستمناء بعد وقتٍ قصير من استنكار مُربِّيته وتهديدها له. ومع كبت الاستمناء، اتخَذَت حياة الصبي الجنسية طابعًا ساديًّا شرجيًّا، «لذلك، انهارت حياته الجنسية — التي كانت قد بدأت تُصبح تحت تأثير المنطقة التناسُلية — أمام عقبةٍ خارجية، وأُلقِيَت مرةً أخرى بفعل

تأثيرها في مرحلةٍ سابقة في النظام ما قبل التناسلي» (المصدر السابق، صفحة ٢٥). كذلك عامل المريض نفسه بقسوة بواسطة أوهام الضرب حتى تحولت السادية إلى مازوخية (المصدر السابق، صفحة ٢٦). وهكذا أصبح التذبذُب بين النشاط والسلبية جزءًا من شخصيته. غير أنه كان هناك طريقٌ مُؤدٍّ من مربيته إلى والده؛ فقد قاده إغواء شقيقته له إلى تماهٍ سلبي، مما منحه هدفًا جنسيًّا سلبيًّا. وحل اختيار الموضوع محل التماهي. حاول إجبار والده على معاقبته، مُحاولًا بذلك إدراك الموضوعات الجنسية المازوخية التي كان يرغب فيها؛ لذا فإن سوء سلوكه كان محاولة للإغواء.

وهكذا يُقسِّم فرويد فترة الطفولة إلى مرحلتين: مرحلةٍ أولى خاصة بسوء السلوك والانحراف من سن الثالثة وثلاثة أرباع السنة حتى إتمام العام الرابع. تليها مرحلةٌ ثانيةٌ تسود فيها سمات العُصاب. وقد ميَّز الانقسامَ بين هاتَين المرحلتَين حُلمٌ (المصدر السابق، صفحة ٢٨).

في كتاب «الحلم» والتحليل الخاص به، يروي فرويد هذا الحلم:

> حلمتُ أن الوقت كان ليلًا وكنتُ مستلقيًا في سريري (كانت نهاية السرير ناحية النافذة، التي كان أمامها صَفٌّ من أشجار الجوز القديمة. كنت أُدرِك أننا في فصل الشتاء عندما راودني الحلم وكان الوقت ليلًا). فجأة انفَتحَت النافذة من تِلقاءِ نفسها وأصابني الرعب عندما رأيتُ بعض الذئاب البيضاء تجلس على شجرة الجوز الضخمة أمام النافذة. كان ثَمَّةَ ستةٌ أو سبعة منها. كانت الذئابُ بيضاء، وتبدو أقربَ إلى الثعالب أو كلابِ الرعي؛ إذ كان لها ذيولٌ كبيرة، وكانت آذانها منتصبة مثلما تفعل الكلاب عندما تنتبه لشيءٍ ما. وفي رعبٍ شديد، من الواضح أنه كان بسبب افتراسي من قِبل الذئاب، أخذتُ أصرخ ثم استيقظت. (المصدر السابق، صفحة ٢٩)

يتتبع فرويد التداعيات الحرة التي ترتبط بكل جزءٍ من الحلم، ويحتل تحليل هذا الحلم مرحلةً أساسية في فهم العُصاب الطِّفلي الخاص بالمريض. ذَكَّرتِ الذئابُ رجلَ الذئاب بصورة الذئب الواقف على ساقَيه الخلفيتَين التي اعتادت شقيقته أن تُريها إياه في طفولته. يُشير لون الذئاب الأبيض إلى قطيعٍ من الغنم كان قد نفَق في وباء. أمَّا الشجرة، فكانت تُذكِّره بقصةٍ أخرى عن خيَّاط اقتحم ذئبٌ بيتَه جاء عبر النافذة، لكن الخيَّاط نجح في

نزعِ ذيله وفَرَّ الذئب مرعوبًا. قابل الخيَّاط الذئب المبتور الذيل لاحقًا، لكن هذه المرة كان الأخير بصحبة ذئابٍ أخرى. نجح الخيَّاط في الاحتماء بإحدى الأشجار، لكن الذئاب نَجحَت في الوصول إليه على قمة الشجرة بأن اعتلى كلٌّ منها الآخر وكان الذئب المشوه في الأسفل. ونجح الخيَّاط في إخافته بتذكيره بمواجهتهما السابقة وفَرَّ قطيع الذئاب بأكمله. كانت ذيول الثعالب التي تمتلكها الذئاب في الحُلم إشارة إلى فقدان الذئب لذيله في القصة وتجسيدًا لعقدة الإخصاء.

أدى عدد الذئاب إلى تداعٍ آخر وهو قصة الأطفال «المَعيز السبع الصغيرة» حيث تسرد قصة ستِّ مَعيزٍ التهمها ذئب، بينما نَجحت السابعة في الهرب. ويتساءل فرويد ما إذا كان الخوف من الذئاب في الحكايات الخُرافية «ربما لا يكون خوفًا طفوليًّا من الأب» (المصدر السابق، صفحة ٣٢).

يُشير فرويد إلى أن تحليل الحُلم وفهمه استمرَّ على مدى فترة العلاج، وأن الفهم لم يحدث إلا قرب نهاية جلسات التحليل. يشير سكون الذئاب ونظرة التربُّص التي كانت تنظر بها إلى المريض إلى العكس؛ أي الحركة الشديدة (العنف) التي تخلَّلت المشهد الجنسي الأولي الذي رآه يحدث بين أبويه.

يتقدم النص ببطء متبعًا دائمًا طريق تداعيات المريض. إن الإحساس الشديد بالواقع يرتبط بأمر سُجِل في الذاكرة لكنه ظل مجهولًا (المصدر السابق، صفحة ٣٣). فالنوافذ التي تُفتَح ترتبط بفتح عينيه. «النظر المتمعن الذي نُسِب إلى الذئاب في الحلم يجب أن يُنسَب إليه» (المصدر السابق، صفحة ٣٤). يتكرر هذا التحوُّل في المواضع في جلوس الذئاب في الحلم على الشجرة، بينما في الحكاية الخيالية لم تستطع تسلقها؛ بالمثل، يمكن أن يكون السكون في الحلم هو النقيض للحركة العنيفة.

يتتبَّع فرويد تداعيات الحالم ويُرجِع توقيت الحُلم إلى ما قبل عيد ميلاد المريض الرابع مباشرة. على الرغم من ذلك، ثمة نقطة أقترح أنها تحوي قفزة منهجية، وهي عندما يصيغ فرويد بناءه الخاص للعملية التحليلية: «لقد وصلت الآن إلى مرحلة تحتم عليَّ التخلي عن الدعم الذي كنتُ أحصل عليه حتى الآن على مدى عملية التحليل. أخشى أنها ستكون كذلك المرحلة التي سأخسر فيها إيمان القارئ بي» (المصدر السابق، صفحة ٣٦). ويواصل قائلًا: «إن ما نشط في تلك الليلة من الفوضى الخاصة بآثار الذاكرة اللاواعية للمريض هو صورة الاتصال الجنسي بين أبوَيه ...» كان عمر المريض أثناء مشاهدته

لهذا المشهد عامًا ونصف العام عندما كان يُعاني من الملاريا، وهو السبب الذي ربما جعله ينام في غرفة أبوَيه. في ذلك الوقت «شاهد مضاجعةً من الخلف تكرَّرَت ثلاث مرات، واستطاع أن يرى أعضاء أُمه التناسُلية وكذلك قضيب أبيه …» (المصدر السابق، الصفحات ٣٦–٣٧).

تُتيح الحاشية الواردة في هذه الصفحة للقارئ السرد الكامل لِتصوُّر فرويد لمفهوم الإدراك اللاحق. في عمر العام ونصف، شاهَد المريض مشهدَ جماعٍ بين أبوَيه (المشهد الجنسي الأولي). المشهد الذي بدا أنه استدعاه كان فيه «الرجل في وضعٍ عمودي بينما كانت المرأة مُنحنِية»، علمًا بأن وضع الرجل المُنتصِب ارتبط بالذئب الواقف على ساقَيه الخلفيتَين. غير أن استيعاب المريض لما كان يحدث أُرجي حتى وقتِ حدوث الحلم، عندما كان المريض قادرًا على فهمه بفضل تطوُّره والاستثارات والبحوث الجنسية (المصدر السابق، الصفحات ٣٧–٣٨، ٤٥). وهكذا يُفعِّل الحُلم ذلك المشهد (المصدر السابق، صفحة ٤٤).

يعقب ذلك فكرتان غايةً في الأهمية في أعمال فرويد: فكرة الإدراك اللاحق (والتي سُميت في النسخة الأصلية «فعلًا مؤجلًا»). وفكرة أن المشهد الجنسي الأوَّلي الخاص بجماع الأبوَين (في عقل الطفل الصغير) هو فعلٌ عنيفٌ ينطوي على ألمٍ ينزله الأب بالأم (المصدر السابق، صفحة ٤٥). علاوةً على ذلك، فإن مُشاهدة ذلك المشهد، بالنسبة إلى الطفل، تؤكِّد حقيقة إخصاء الأم؛ فهناك تثبيتٌ على المؤخرة كأكثر أجزاءِ جسدِ المرأة جاذبية.

يَتتبَّع فرويد عملية التداعي الحر التي تأخذه في رحلةٍ عبر التحوُّل إلى «المشهد الجنسي الأوَّلي» المادي، ويقصد به قصة الذئب وحكاية المعزات السبع الصغيرة اللتَين تُفسَّران في إطار الشوق إلى والده، والإخصاء، والخوف من الأب (المصدر السابق، صفحة ٤٢)؛ إذ يُقدِّم فرويد تفسيرًا لكل تفصيلة في الحلم (المصدر السابق، الصفحات ٤٢–٤٣).

يستيقظ المريض من الحلم في حالة من القلق. تُكبَت الرغبة في جماع والده (تماهيًا مع الأم)، ويظهر خوفه من والده بدلًا من ذلك في صورةِ رُهابِ الحيوانات. لقد وصل إلى مرحلةٍ من النظام التناسلي (رغبته في أن يُلمَس قضيبه)، ولكن يعقب ذلك نكوص ويظهرُ بدلًا منها رغبة في أن يُضرَب ويُعاقَب.

في الجزء الخامس، يناقش فرويد عمليات التذكُّر مقابل عمليات البناء في العلاج التحليلي؛ فالذكريات يتخلَّلها عناصر تخيُّلية (المصدر السابق، صفحة ٥١) والحلم نوعٌ

من التذكُّر. وهنا يُشير فرويد إلى علاقتَين مختلفتَين بين الماضي والحاضر. يُشير النكوص إلى اتجاهٍ واحد، لكن ثَمَّةَ اتجاهًا آخر يشير من الماضي إلى الحاضر:

> أُساند الرأي القائل إن تأثير الطفولة يجعل نفسه محسوسًا بالفعل في الموقف في بداية تشكُّل العُصاب؛ إذ يلعب دورًا حاسمًا في تحديدِ ما إذا كان الفرد سيفشل في السيطرة على مشاكل الحياة الحقيقية وفي أيِّ مرحلة. (المصدر السابق، صفحة ٥٤)

تُوضِّح حالة رجل الذئاب كيف أن العُصاب الذي أصابه في مرحلة الرشد قد سبقه عُصابٌ في الطفولة؛ ومن ثَمَّ يبدأ فرويد نقاشًا عن العلاقة بين الواقع والوهم سأعود إليه لاحقًا.

يُعتبر الجزء السادس وصفًا وطرحًا للعُصاب الوسواسي الخاص برجل الذئاب. عندما كان في سن الرابعة والنصف، عرَّفَته والدته الدين، وحلَّت أعراض الوسواس محل أعراض القلق؛ ومن ثَمَّ يُقسِّم فرويد طفولة رجل الذئاب إلى أربعِ فترات: الفترة حتى حدوث الإغواء عندما كان سنه ثلاثَ سنوات وربع السنة عندما حدث ذلك الإغواء؛ التغير في شخصيته حتى راوده حلم القلق في سن الرابعة؛ فترة الخوف المرضي من الحيوانات حتى تَعرُّفه الدين؛ ومن فترة العُصاب الوسواسي حتى بلوغه عامه العاشر. بعد رفض المُربِّية إياه، أخذ يتطوَّر في اتجاه السادية والمازوخية من خلال تعذيب الحيوانات الصغيرة وتخيل ضربه للخيول. في ساديَّته، تماهى مع والدِه، لكنه اختاره كموضوع في مازوخيته. كان يمكن أن يؤدي الحلم، بتأثير المشهد الجنسي الأوَّلي، إلى احتلال النظام التناسُلي للأولوية. ولكن بدلًا من ذلك، استيقظ في حالة من القلق والخوف المرضي شكَّلَت نفسها في إطار خوفه من أن يفترسه ذئب؛ لذا يشير فرويد إلى أنه في وقتَ حدوث الحلم، كان رجل الذئاب مثليَّ الجنس على نحوٍ لا واعٍ؛ لقد كان في عُصابِه وحشيًّا، بينما ظل السلوك المازوخي مسيطرًا. وفي كل هذه الأنماط الثلاثة كانت له موضوعاتٌ جنسيةٌ سلبية (المصدر السابق، صفحة ٦٤).

في خِضَم انشغال تفكيره بالمسيح، تساءل رجل الذئاب ما إذا كان للمسيح مُؤخِّرة وما إذا كان يستخدمها للتغوُّط مثل البشر. وفي هذا الإطار يُشير فرويد إلى أن هذه الشكوك الوسواسية إنما تُعبِّر عن رغبته في مُضاجعة الأب له من الشرج. كان رأسه مكتظًّا بأفكارٍ تجديفية فهمها فرويد باعتبارها تعبيراتٍ عن مشاعرَ عدائيةٍ نحو والده. كان عليه

أن يتنفس بطريقةٍ مُعيَّنة في ظروفٍ بعينها، على سبيل المثال عندما يرى مُتسوِّلِين أو مُعاقين أو أشخاصًا بمظهرٍ رَث؛ لأنه كان لا يرغب في أن يُصبح مثلهم. وقد ربط فرويد هذا بزيارته لوالده في إحدى المصحَّات العقلية وهو طفل؛ إذ أصبح الأب «النموذج الأوَّلي لكل العجزة والمُتسوِّلِين والفُقراء الذين كان مُجبرًا في وجودهم على زفرِ أنفاسه» (المصدر السابق، صفحة ٦٧). غير أنه عندما يتنفس، كان أيضًا يُقلِّد تنفس الأب أثناء المشهد الجنسي الأوَّلي.

وهكذا، وقبل حلول عيد ميلاده الرابع، كان رجل الذئاب مصابًا بهستيريا القلق (في شكل رُهاب الحيوانات) تحوَّلَت إلى عُصابٍ وسواسي بمحتوًى ديني وهو ما استمر حتى بلغ العاشرة. عندما كان عمره يزيد على الثلاث السنوات بقليل، أغوته شقيقته ليمارسا ألعابًا جنسية، حيث عبثَتْ بقضيبه، ولكنه قاومها وسعى بدلًا من ذلك لإغواء مُربِّيته بتجريد نفسه والاستمناء أمامها (المصدر السابق، صفحة ٢٤). حذَّرَته مُربِّيته من أن الأطفال الذين يقومون بمثل هذه الأشياء يُصابون بـ «جرح» في ذلك المكان. استغرق تهديدها بعض الوقت ليُسجَّل في الذاكرة، لكن بعد أن شاهد شقيقته وإحدى صديقاتها تَتبوَّلان وتيقن أن بعض البشر لا يمتلكون قضيبًا، بدأ ينشغل بمسألة الإخصاء.

ارتَدَّ رجل الذئاب إلى مرحلةٍ مُبكِّرة من التطوُّر الجنسي وهي السادية والمازوخية الشرجية؛ فكان يُعذِّب الفَراشات ونفسه بأوهام الضرب. وكان في ذلك الوقت قد اختار والده كموضوعٍ جنسي؛ فكان يتوق إلى أن يضربه والده واستَفزَّه حتى يُنزل به عقابًا بدنيًّا. تغيَّرت شخصيته ورأى حُلم الذئاب بعد ذلك بفترةٍ قصيرة قُبيل عيد ميلاده الرابع مباشرة.

بعد مرورِ نصفِ عام كان قد تمكَّن منه عُصابٌ وسواسي متكامل، واكتمل برُهاب الحيوانات. وكان يُمارس مجموعةً متنوعة من الطقوس قهريًّا، وعانَى من نوباتِ غضبٍ شديد وصارع شهوانيته اليافعة، التي لعِبَت فيها الرغبات المثلية جزءًا خفيًّا إلى حدٍّ كبير. يصف فرويد «الحياة الغرائزية الجامحة» للمريض (المصدر السابق، صفحة ١٠٤).

تلخيصًا لفرضيات فرويد عن الحالة، كان رجل الذئاب على أعتاب النظام التناسُلي، لكن بسبب تهديدِ مُربِّيته بالإخصاء انهار هذا النظام وانتكَس هو إلى المرحلة التي تَسبِقه (وهي مرحلة النظام السادي الشرجي).

حافَظ رجل الذئاب على سلبية أهدافه الجنسية. وفي هذا الإطار يُشير فرويد إلى أن رد فعل الطفل لمشاهدته للجماع بين والدَيه في سن العام ونصف العام كان سلبيًّا في الأغلب الأعم (المصدر السابق، صفحة ١٠٩).

أدَّت رؤية رجل الذئاب للحُلم في سن الرابعة إلى تحويل مشاهدته للجماع في سن العام ونصف إلى فعلٍ مؤجل؛ فأُعيد بناء نظامه التناسُلي الذي كان قد انهار، لكن كان ثمة رفضٌ لعنصرٍ جديد واستبدال الخوف المَرَضي به.

وهكذا استمر النظام السادي في التواجُد خلال مرحلة الخوف المَرَضي من الحيوانات الذي كان قد نشِط الآن، كما استمر الطفل في ممارسة نشاطاتٍ سادية ومازوخية. إن ما كان مكبوتًا هو إدراك وجودِ الإخصاء والسلوك المِثلي بمعناه التناسُلي. وكان هذا الكبت نتيجةً لذكورته (المصدر السابق، صفحة ١١٠)؛ إذ يشير فرويد إلى احتمالية أن يكون ذلك الكبت نتيجةً للصراع بين الميول الذكورية والأُنثوية؛ أي ازدواجية الميول الجنسية. غير أن الأنا هي ما فعَّلَت هذا الكبت.

(١) مزيد من الملاحظات عن علاج رجل الذئاب

مع اندلاع الثورة البلشفية، خسِر رجل الذئاب كل ثروته الضخمة، وعاد إلى فيينا عام ١٩١٩ وظل فرويد يُتابِعه لبضعة أشهُر بدونِ أي أتعاب، بالإضافة إلى جمعه أموالًا من العديد من زملائه وطلابه لتغطية النفقات المعيشية للمريض ولزوجته المريضة آنذاك. وفيما بين أكتوبر عام ١٩٢٦ وفبراير عام ١٩٢٧، عُولِج رجل الذئاب على يد روث ماك برونزويك، وعاد إليها مرةً أخرى عام ١٩٢٩ ثم ظل على اتصالٍ مُتقطِّع بها حتى حوالي عام ١٩٤٠.

عندما ذهب ليقابل «د. ماك» عام ١٩٢٦، أَصرَّ رجل الذئاب على أنه كان ضحيةَ إصابةٍ أنفية بسبب التحليل الكهربائي الذي استُخدم في علاج الغُدد الدهنية المسدودة داخل الأنف. كان يظن أنه قد تَركَ ندبة أو ثقبًا في أنفه، وأن أحد الأطباء تعمَّد إصابته ليؤذيه. ولجأ إلى فرويد لشعوره بأن انشغاله بالتفكير في حالة أنفه قد استحوذ عليه تمامًا وأنهك قواه. ورغم أنه لم يكن ثَمَّةَ أيُّ إصابةٍ واضحة للناظر، كان رجل الذئاب مهووسًا تمامًا بإصابة أنفِهِ المزعومة إلى حدٍّ سيطر على حياته وجعله غيرَ قادرٍ على العمل.

أمَّا فيما يتعلق بحياته الخاصة، فقد استطاع رجل الذئاب الحصول على وظيفةٍ صغيرة في شركة تأمين بفيينا ظل بها حتى التقاعُد. ولنحوِ ستِّ سنوات، كان فرويد يجمع أموالًا مرةً كلَّ عامٍ ليساعده في نفقات الحياة، ومنها نفقاتُ علاجِ زوجته المريضة بالمستشفى (المصدر نفسه، الصفحات ٩٦–٩٧).

في أبريل من عام ١٩٢٣، خضع فرويد لأول عمليةٍ صغرى له وتلاها أخرى في الخريف. وقد أُشير إلى أن التدهوُر في حالةِ رجل الذئاب العقلية كان مرتبطًا بقلق الاضطهاد لدى رؤيته لفرويد مريضًا. وفي نوفمبر، جاءت والدة المريض من روسيا، وكان ثَمَّةَ ثؤلولٌ يعلو أنفها نصحها الطبيب بإزالته، بل إن المريض نفسه اضطُر لإزالة سنتَين من فمه لدى طبيبِ أسنان يُدعى الدكتور وولف (ذئب). وبَدأَت أعراض الهوس بالأنف في الظهور في فبراير من عام ١٩٢٤.

أثار تغييرٌ واحدٌ بعينه في شخصية المريض دهشةَ روث ماك برونزويك وهو كذبُه وعدمُ أمانته؛ فلم يكن لديه أدنى مشكلةٍ في أن يجمع فرويد المال لمساعدته وأَخفَى وجودَ بعض المُجوهرات التي نجح في إنقاذها من أملاكه في روسيا، والتي كان يعتقد أنها تساوي الكثير من المال (وهو ما اكتشف لاحقًا أنه غير صحيح). كشف التحليل عن رغباتٍ عدائية بموت الأب/المحلل فرويد لدى الابن المنبوذ، وكذلك التماهي مع أبٍ مخصي. كان المريض يائسًا، وهدَّد ذاتَ مرةٍ بقتل كلٍّ من فرويد ومُحلِّلته النفسية الحالية وانفصل عن الواقع. كان ممتلئًا بقلق الاضطهاد وبدا في حالةٍ من الجنون. في التحليلات المُتدرِّجة لعدة أحلام، تُشير المُحلِّلة إلى العملية البطيئة لتفسيرِ بعض هذه الأفكار. وفي تحوُّلٍ للحُلم الخاص بالذئاب، ثَمَّةَ حُلم يمكن فيه رؤية مشهدٍ طبيعي هادئ وجميل جدير بالإعجاب وأَفرُعٍ متداخلة بشكلٍ جميل يمكن تفسيرها بالأَبَوَين في عناقٍ جنسي محب. قرب نهايةِ فترةِ علاجه، كان المريض مصدومًا من سلوكه. وثَمَّةَ دليلٌ تبين من مقولته أن «النساء دائمًا هكذا؛ كثيرات الشك والارتياب ويخشين فقدان شيءٍ ما» (المصدر نفسه، صفحة ٩٤). وإذ يُعبِّر عن الرغبة في أن يصبح امرأةً على هذا النحو، فإنها ترتبط بالرغبة في الحصول على المتعة الجنسية من الأب.

أشارت المُحلِّلة إلى عدةِ نقاطٍ في التشخيص الخاص به؛ ضلال الوسواس المرضي، وضلال الاضطهاد، ونكوص إلى النرجسية، وغياب الهلوسة في وجود الضلالات، وأفكار أو ضلالات إشارة خفيفة، وغياب التدهور العقلي، والطبيعة الأحادية العَرَض للذُّهان، فيما يعني أن المريض عندما كان يُفكِّر في أي شيءٍ آخر خلاف أنفه، كان سليم العقل. وتُؤكِّد ماك برونزويك استحالةِ اختراق المريض خلال فترة الذُّهان؛ إذ إن «القناع» الذي غلَّف المريض في مرضه السابق تواجَد مرةً أخرى. فقد كان التماهي مع والدته مهيمنًا تمامًا.

ظل رجل الذئاب على اتصالٍ مُتقطِّع مع ماك برونزويك على مدى سنين عدة. وفي عام ١٩٣٨، انتَحرَت زوجته بالغاز وقت الاجتياح النازي، رغم عدمِ وجودِ أي رابطٍ واضح

بين الحدثَين. وبعد انتحارها مباشرة، شهِدَت حالة رجل الذئاب العقلية تدهورًا خطيرًا. وبدأ التواصل مع موربيل جاردنر، وهو طبيبٌ ومُحلِّلٌ نفسي كان يعيش في فيينا في ذلك الوقت لكنه هاجر إلى أمريكا فيما بعدُ. واستمر هذا التواصل حتى نهايةِ حياة رجل الذئاب من خلال العديد من المقابلات على مدى السنينَ إلى جانب المراسلات. وكان جاردنر هو من حَفَّز رجل الذئاب على كتابةِ مُذكِّراته. وقد نُشِر ما حدث بينهما عامَ ١٩٨٩ في كتاب «رجل الذئاب وسيجموند فرويد».

ثَمَّةَ وثائقُ وتقاريرُ مهمة أخرى عن رجل الذئاب، من بينها تسجيلاتٌ مُدَّتُها أربعون ساعة لأوبهولزر وهي التي بَدأَت فيما يبدو عندما كان رجل الذئاب يقترب من عيد ميلاده الثامن والثمانين، إلى جانب شرائطَ لإيسلر تُغطِّي مئات الساعات من المحادثات مع رجل الذئاب.

(٢) مناقشة

أشار بيتر جاي إلى أن حالة رجل الذئاب تحوي تشابهاتٍ مع قصص فرويد الأولى؛ فعلى غِرارِ دورا، كان رجل الذئاب يعرض حلمًا، وكان تفسيره هو المفتاح لتشخيص العُصاب. ومثل هانز الصغير، كان يُعاني من رُهاب الحيوانات في طفولته. ومثل رجل الجرذان، كانت تُسيطِر عليه بعض الأحيان سلوكياتٌ استحواذية وتأمُّلاتٌ عُصابية.

يُشير سترايتشي في مُقدِّمته إلى أن العديد من الأفكار التي تدعم النص؛ مثل مسألة الجنسانية الطِّفليَّة والتأكيد على النظام الفموي للغريزة الجنسية، والروابط بين الدمج والتماهي وتكوين مثل الأنا الأعلى والشعور بالذنب وحالات الاكتئاب المرضي، والعلاقة بين المشهد الجنسي الأوَّلي والأوهام الأوَّلية، ومسألةِ ما إذا كان يُمكن توارُث المحتويات العقلية لهذه الأوهام الأوَّلية، ومسألة الدوافع الأُنثوية الأوَّلية لدى الرجال.

أَودُّ كذلك أن أُضيف الأهمية البالغة للأفكار والمفاهيم المختلفة عن الزمن وهي التي يُناقشها فرويد في النص، مع إشارةٍ خاصة إلى الإدراك اللاحق. إن الحديث عن فهم العلاقات المُتبادَلة بين هذه المفاهيم المختلفة للزمن وَردَ في العديد من الكتابات المتعلقة بالتحليل النفسي التي تختزل تفكير فرويد في منظورٍ تطوُّري ساذج.

فيما تبقَّى من هذا الفصل، أَودُّ مناقشةَ أربعِ قضايا أساسية: الدور التأسيسي للخيال في بناء العقل في إطار أعمال فرويد، وتصوُّر فرويد للوقت فيما يتعلق بوظيفة الصدمة

والخيال؛ ومسألة الجانب الأُنثوي لدى الرجال، وأخيرًا الروابط بين الهوَس والحِداد لدى رجل الذئاب.

(٣) الوهم اللاواعي والواقع الخارجي

يُشير لابلانش وبونتاليس إلى المعاني المختلفة للوهم المذكورة في كتابات فرويد، وهي التي تتراوح بين الأوهام الواعية وأحلام اليقظة إلى الأوهام اللاواعية والأوهام الأولية (١٩٨٥، الصفحات ٣١٤–٣١٨).

في البداية، كان الوهم ينتمي إلى فئةٍ ما قبل الوعي أو الوعي. وقد استغرق فرويد فترةً امتدت حتى صدور الأبحاث الميتاسيكولوجية عام ١٩١٥ ليمنح فكرة الوهم اللاواعي مكانة في علمِ ما وراء النفس. إن الروابط بين الأنماط المختلفة هي ما يمنح للمعنى الذي خلَص إليه فرويد تعقيدًا. واقتباسًا من لابلانش وبونتاليس: «يبدو أن الشغل الشاغل لفرويد ... لم يكن يتعلق بإنشاءِ مثلِ هذا التمييز بقدْر ما تعلَّق بالتأكيد على الروابط بين هذه الجوانب المختلفة» (١٩٨٥، صفحة ٣١٦). ويقود هذا لابلانش وبونتاليس إلى الاختلاف في الرأي مع التمييز الذي طرحه إيزاكس بين كلمتي Fantasy (ليشير إلى أحلام اليقظة والتخيُّلات، وما إلى ذلك) وPhantasy للدلالة على المحتوى الأوَّلي للعمليات العقلية اللاواعية (إيزاكس، ١٩٥٢)؛ إذ يرى لابلانش وبونتاليس أن هذا التمييز لا يتناسب مع «التعقيد الذي يتسم به فكر فرويد، وأن التمييز بينهما واختيارَ واحدةٍ منهما دون الأخرى في كتابات فرويد في حدٍّ ذاته من شأنه أن يقود إلى قراراتٍ اعتباطية.» وما ينبغي التأكيد عليه لدى فرويد هو «تغايُر الحياة النفسية» (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، صفحة ١٨).

علاوةً على ذلك، فإنهما يؤكدان تأكيدًا جوهريًّا الرابط بين الوهم والرغبة. بالنسبة إلى فرويد، يحدُث التوهم عند هجر الموضوع الخارجي، وهو ما يُناقِض مفهوم التوهُّم الذي يُحدِّدانه في بحث إيزاكس، وهو المفهوم الذي يتعلق بفكرة «أريد أن أفعل هذا بالموضوع». ويُشيران إلى أن التمييز بين الفرد والموضوع يُمحى في التوهُّم (المصدر السابق، صفحة ٧٣)، وما يتبقى للفرد هو مجرد «مشهد».

إن الوظيفة الأساسية للأوهام هي «صنع مشهد للرغبة؛ مشهد دائمًا ما يكون فيه الممنوع حاضرًا في التكوين الفعلي للرغبة أو الأمنية» (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٨ [١٩٧٣]، صفحة ٣١٨).

سأعود الآن إلى التسلسُل الزمني الخاص بفرويد. يقول فرويد في إحدى الرسائل التي كتبها إلى فليس عام ١٨٩٧: «لم أعد أُومن بنظريتي عن العُصاب» (النظرية التي تقول إن العُصاب كان سببه إغواء الطفولة). تُشير هذه المقولة إلى تغيُّرٍ كبير في تفكير فرويد؛ فالحوادث المتعلقة بسِفاح القُربى التي يستعيدها مرضاه إلى الذاكرة، والتي كان يُنظَر إليها من قبلُ لشكلها الظاهري، صار يُنظَر إليها الآن كتمثيلٍ لأُمنيات من جانب مرضاه تُشبَع بتحقيقِها في الأوهام.

وقد أتاح له تخلِّيه عن نظريته عن العُصاب إحداثَ تغييرٍ كبير، وإرساء تمييزٍ بالغ الأهمية في التحليل النفسي، وبالتحديد بين الحقيقة التاريخية والنفسية، وكذلك اكتشاف الجوانب الرئيسة لنظرية التحليل النفسي (مثل الكبت، والصراع، والتكرار القهري، والإسقاط). علاوةً على ذلك، تُصبِح كل الأحداث في التحليل النفسي مُغلَّفةً بالتوهُّم، بحيث لا تتألف الذكريات من وقائعَ وأحداثٍ فحسب، بل أفكار وتخيُّلات أيضًا. وقد حدث هذا التغيُّر، المُتمثِّل في ربط الأوهام بالعمليات اللاواعية، داخل النموذج الطبوغرافي للعقل، وجاء عقب العديد من التفصيلاتِ في كتاب «تفسير الأحلام»، وحالاتٍ طبية لدى فرويد، والبحوث الميتاسيكولوجية. ولكن كما يشير لابلانش وبونتاليس، يُدرَك الوهم اللاواعي من خلالِ عمليةِ تحليلٍ تصل إلى المحتوى المُستتِر الذي يقف وراء العَرَض (١٩٨٥، صفحة ٣٨). وبين عامَي ١٨٩٧ و١٩٠٦، تركَّزَت أعمالُ فرويد على تحوُّل الأوهام والخيالات («تفسير الأحلام»، «علم النفس المرضي للحياة اليومية»، و«الدعابات وعلاقتها باللاوعي»).

على مدى الطرح الذي قدَّمه عن حالةِ رجل الذئاب، يُثير فرويد تساؤلًا يتعلق بمدى إنتاجِ التاريخ الفعلي للأوهام؛ وبالعكس، إلى أيِّ مدًى يكون إنتاج الحدث نفسه محكومًا بأوهامٍ موجودة مسبقًا (بيرون، ٢٠٠١). إلى أيِّ مدًى يُحدِّد التاريخ الموضوعي للشخص تطوُّره النفسي وهيكله الوظيفي؟ على الجانب الآخر، إلى أيِّ مدًى يكون الواقع الخارجي نتاجًا للواقع النفسي؟ إلى أيِّ مدًى يُنتج التاريخ الفِعلي أوهامًا، وبخاصةٍ الأوهام الأولية، وإلى أيِّ مدًى تتحكم الأوهام في إنتاج الحدث نفسه؟

خلَص فرويد إلى أن الوهم في النهاية يجب أن يشتمل على عناصرَ مما يُسمَع ويُشَاهد، وأن الذكريات كذلك مُتشرِّبةٌ بالأوهام والتخيُّلات. ولهذا الاستنتاج تداعياتٌ عميقة بالنسبة إلى التحليل النفسي؛ إذ يُرسي الاختلاف بين الواقع المادي والواقع النفسي.

في كتابه «صيغ لمبدأي النشاط الوظيفي العقلي»، أشار فرويد بالفعل إلى:

> صعوبة التمييز بين الأوهام اللاواعية والذكريات التي أصبحت لا واعية. لكن يجب مطلقًا عدم السماح لأنفسنا بأن ننخدع بتطبيقِ معايير الواقع على بِنًى نفسيةٍ مكبوتة، مما قَد يُؤدِّي بالتبعية للانزلاق نحو التقليل من أهمية الأوهام في تشكيلِ الأعراض على أساسِ أنها ليست وقائعَ فعلية ... (فرويد، ١٩١١، صفحة ٢٢٥)

وعن حالة رجل الذئاب، يتحدث قائلًا:

> لا تُعتبر المشاهد المترسبة من الطفولة المبكرة، كتلك التي يستدعيها تحليلٌ مرهق للاضطرابات العُصابية (كما في الحالة التي بين يدَينا على سبيل المثال)، استنساخًا لوقائعَ حقيقية يمكن أن يُنسَب إليها تأثير على مدى حياة المريض اللاحقة وعلى تشكُّل الأعراض لديه. على العكس، فهي تُعتبر نواتج للخيال تجد حافزًا لها في مرحلة النضج، الهدف منها أن تعمل كنوعٍ من التمثيل الرمزي لاهتماماتٍ وأُمنياتٍ واقعية، ويرجع أصلها إلى نزعةٍ ارتدادية أو انصرافٍ عن مهامِّ الحاضر. (فرويد، ١٩١٨، صفحة ٤٩)

في موضعٍ لاحق من طرحه عن رجل الذئاب، يُضيف فرويد أن مَشاهد الطفولة لا يُعاد إنتاجها خلال العلاج كذكريات، بل هي «نواتجُ عمليات البناء» (المصدر السابق، صفحة ٥١)، عن طريقِ عمليةٍ مُرهقة تنبثق «من مجموعة من المُؤشِّرات». كذلك قد تظهر هذه الذكريات في الأحلام مُتَّبِعةً قواعد العملية الأَوَّلية، بما أن «الحلم هو شكلٌ آخر من أشكال التذكر». وهذه الذكريات تمنح الفرد إحساسًا بالقناعة بشأن واقع المشاهد الأَوَّلية (المصدر السابق، صفحة ٥١).

ومع ذلك، أَصَر فرويد على حقيقةِ أن الأوهام لا بُد أن تنطوي على رابطٍ يصلها بالواقع المادي، وهو ما يُشير إلى دَورِ التجربة في تشكيل الأوهام. لكن في الوقت نفسه «يتخلل الذكريات عناصرُ خيالية مثل ما تُدعى بالذكريات المُشوَّشة التي تُحفَظ بشكلٍ تلقائي» (المصدر السابق، صفحة ٥١)؛ فحقيقةُ أن الحاضر له جذورٌ في الماضي تُمثل بُعدًا مهمًّا للزمانية في صياغاتِ فرويد.

يناقش فرويد كذلك دور الكبت: إلى أيِّ مدًى يتعامل الشخص مع التشكيلات النفسية اللاواعية منذ البداية، وإلى أيِّ مدًى يتعامل مع التشكيلات التي تُصبح لا واعية تحت تأثير الكبت؟

يمضي فرويد في مناقشة الدور المُنظم للأوهام الأوَّلية، لا سيما تلك المرتبطة بالمشهد الجنسي الأوَّلي، وكذلك أصول الأوهام الأولية نفسها والأسلوب الذي تُورَّث به. وفي ذلك يشير فرويد إلى وجود ثلاثة أوهام أولية: الإغواء، والإخصاء، والمشهد الجنسي الأوَّلي. تُشكِّل هذه الأوهام الثلاثة «كنزًا» ربما يكتشفه المُحلِّل لدى كل المُصابين بالعُصاب وربما لدى كل الأطفال (فرويد، ١٩١٥)؛ فهي جميعًا تُشير إلى الأصول: أصل الفرد في المشهد الجنسي الأوَّلي، وأصل الجنسانية في الإغواء، وأصل الفروق بين الجنسَين في أوهام الإخصاء (لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥، صفحة ٥٢).

ربما يُنظَر إلى مفهوم الأوهام الأوَّلية كنظرية عن أصول العقل؛ فهذه الأوهام معلومةٌ بشكلٍ ما، وموجودة في اللاوعي بفعل «الكبت الأوَّلي»، ولا يمكن أن تصل إلى الوعي إلا من خلال مشتقاتها. كما أنها تُتوارث على مستوى التطوُّر النوعي؛ فهي تسبق تاريخ الفرد رغم أنها تتكرر خلال نشأته. وتُعد فكرة الإرث التطوُّري النوعي هي الأقل قبولًا بين أفكار فرويد. غير أن فكرةَ أن بعض الأوهام مُدرَكة لا تبتعد كثيرًا عن فكرةِ بيون عن «التصوُّرات المُسبقة» التي تنتظر أن تُدرَك.

بيد أن مفهوم الأوهام الأوَّلية، في رأيي، هو، بالنسبة إلى فرويد، مطلبٌ لنموذجه عن العقل؛ فهي تتكون بسبب الكبت وهي ما يُؤسِّس الفارق بين اللاوعي وما قبل الوعي والوعي. وللسبب نفسه، لا يمكن الوصول إلى هذه الأوهام الأوَّلية إلا من خلال مشتقاتها، وإلا انهار الفرقُ بين الأنظمة في الجهاز النفسي.

في علم ما وراء النفس الفرويدي، ثَمَّةَ إعادةُ تشكيل متواصلة للأوهام، وهي التي تحدُث في إطار الإدراك اللاحق، كعملٍ مستمرٍّ لإعادة التفصيل والتفسير وهو ما يُغيِّر الماضي باستمرار. ويأتي اكتشاف دور الأوهام متزامنًا مع اكتشاف الجنسانية الطِّفليَّة وعُقدة أوديب.

كان فرويد يعتبر الأحلام أوهامًا «صنعها الحالم عن مضمون طفولته في وقتٍ أو آخر، ربما في سن البلوغ، وطفا على السطح مرةً أخرى في هذا الشكل غير المفهوم» (فرويد، ١٩١٨، صفحة ١٩).

(٤) الوهم اللاواعي والإدراك اللاحق

في الطرح الخاص بحالةِ رجل الذئاب، يرتبط مفهوم الوهم اللاواعي جوهريًّا بمفهوم الزمن ولا سيما ما بعد الحدث. لقد تكوَّن العُصاب عبر مقياسَين زمنيَّين؛ وكان المقياس الزمني الثاني هو ما حدَّد تشكيل الوهم واختيار العُصاب؛ لذا، فإن الأمر لا يتعلق بأثرٍ خطيٍّ تراكمي نتج عنه العَرَض، وإنما هو إعادةُ تنظيمٍ لآثارِ ذكرى موجودةٍ بالفعل مرتبطةٍ بمرحلةٍ جديدة من النضج (فرويد، ١٩١٨). علاوةً على ذلك، يرتبط ذلك بالأساس، من منظور فرويد، بدور الإخصاء وقانون الأب الذي يُحرِّم الأم كموضوع للرغبة. ولا يستبعد هذا المفهوم فحسب الحتمية الخطِّية؛ ومن ثَمَّ يُؤكِّد أهمية الحاضر عند إعادة تفسير الماضي (الذي يُعد مفهومًا جوهريًّا للغاية بالنسبة إلى التحليل النفسي)، لكنه يضع الجنسانية كذلك في مِحور الصياغات النظرية.

وفيما يلي استشهادٌ أكثر توسعًا وإسهابًا من كتابات فرويد عن رجل الذئاب (المصدر نفسه، صفحة ٤٥، حاشية رقم ١):

> لا بد ألا ننسى الموقف الفعلي الذي يقف وراء الوصف المختصر المقدم في الاختبار؛ فالمريض الذي يخضع للتحليل، في عمر يزيد على الخامسة والعشرين، يصوغ انطباعاته ودوافعه في سن الرابعة في كلماتٍ لم يكن ليجدها في ذلك الوقت. إذا فشلنا في ملاحظة هذا، فقد يبدو بسهولة أن من الطريف وغير المعقول أن طفلًا في الرابعة من عمره يُفترض أن يكون قادرًا على استخدام مثل هذه الآراء التقنية والمفاهيم المُكتسَبة. ويُعتبَر هذا ببساطة مثالًا آخر للفعل المؤجَّل؛ ففي سن العام ونصف العام، يتلقى الطفل انطباعًا لا يقدر على التصرُّف تجاهه على النحو المناسب؛ فهو لا يقدر إلا على فهمه والتأثر به عندما يُعاد إحياء هذا الانطباع داخله وهو في سن الرابعة؛ وفقط بعد مرور عشرين عامًا، يستطيع خلال فترة التحليل إدراك ما كان يدور داخله بواسطة عملياته العقلية الواعية. يتغاضى المريض بشكلٍ مُبرَّر عن الفترات الزمنية الثلاث، ويضع أنَاهُ الحالية في الموقف الذي ينتمي لماضٍ بعيد جدًّا. وفي الأثناء نتبعه نحن؛ إذ إنه عن طريق الملاحظة الذاتية والتفسير الصحيحَين، لا بد أن يكون الأثر «واحدًا كما لو كان بالإمكان تجاهُل المسافة بين الفترتَين الثانية والثالثة.» (التنصيص للتوكيد)

ويضيف سترايتشي ما يلي:

> طرح فرويد هذه النظرية الخاصة بالفعل المؤجل بالفعل في كتاب «دراسات عن الهستيريا» [فرويد وبروير، ١٨٩٥] عندما ناقش ما أسماه حينذاك «هستيريا الاستبقاء» (النسخة الأصلية ٢، صفحة ١٦١ وما يليها). كما قدم وصفًا مفصلًا للغاية لآليات عملها في الجزء الثاني من «مشروع علم النفس العلمي» الذي نُشِر بعد وفاته والذي كتبه كذلك عام ١٨٩٥. لكن في هذه الروايات الأُولى للنظرية، كانت آثار المشاهد الأوَّلية مؤجلةً حتى سن البلوغ على الأقل، ولم يكن من الممكن قط تخيُّل حدوث المَشاهد الأوَّلية نفسها في سنٍّ مبكرة للغاية كما في الحالة الحالية (النسخة الأصلية ١٧، صفحة ٤٥)؛ فالصدمة ترتبط بعمل الذاكرة، وكما أشار فرويد: «يعاني مرضى الهستيريا من الذكريات»، في إشارة إلى الصلة الجوهرية بين الصدمة والزمان والمكان في ذكرى «مشهدٍ آخر».

يرتبط الإدراك اللاحق بالتفاعُل بين الذاكرة والوهم؛ ففي صيغ فرويد، تُعيد الأوهام باستمرار تشكيل الذكريات بأثرٍ رجعي، رغم أنه لا يمكن إغفال الاتجاه من الماضي إلى الحاضر (فرويد ١٨٩٦ج، انظر كذلك توما وتشيشير، ١٩٩١). يُؤسِّس الكبت للانفصال بين الوعي واللاوعي، حتى لا يمكن التحدُّث عن الأوهام اللاواعية إلا بأثرٍ رجعي في علمِ ما وراء النفس الفرويدي. ومن ذلك المنظور، فإن الأوهام، كالزمن، يحكمها عدةُ عوامل وبالنسبة لي (وهنا أختلف مع العديد من الكتاب البريطانيِّين والأمريكيِّين مثل ساندلر وناجيرا (١٩٦٣) وسبيليوس (٢٠٠١)، وأتفق مع المُحلِّلِين النفسيِّين الفرنسيِّين)، لا يمكن انتقاء أيٍّ من الطبقات في أعمال فرويد كطبقةٍ مركزية؛ فما يعطي عمقًا للنظرية الفرويدية عن العقل بالفعل هو السلاسة والديناميكية بين المفاهيم المختلفة. يكفيك فقط أن تقرأ الأبحاث التحليلية، مثل رجل الجرذان أو رجل الذئاب أو هانز الصغير أو البحث الخاص بليوناردو دافنشي لفهم الطريقة الوحيدة التي يمكن بها الوصول إلى الأوهام اللاواعية عن طريق مشتقاتها بأثرٍ رجعي في إطار الإدراك اللاحق. لكن الأوهام الأوَّلية — كما نُوقِشَت سابقًا — موجودة منذ البداية. وفي «كلٍّ» هذه الأوهام اللاواعية، يبدو فرويد مهتمًّا بكيفية بدء النشاط الجنسي لدى البشر (انظر لابلانش وبونتاليس، ١٩٨٥).

(٥) الشرجية والذكورة والأنوثة

في رسالةٍ كتبها إلى فرينزي عام ١٩١٣، يُفيد فرويد بأن رجل الذئاب قد استَهلَّ أُولى جلساته معه بعرضِ ممارسةِ جماعٍ شرجي مع فرويد ثم التغوُّط على رأسه (انظر جونز، ١٩٧٤، الكتاب الثاني، صفحة ٣٠٨).

> اعترف لي شابٌّ روسي ثري، تولَّيت علاجه بسبب النزعات القهرية لديه، بتحويلات المشاعر التالية بعد الجلسة الأُولى: كان ينظر إليَّ كمحتالٍ يهودي وكان يُريد مُضاجعَتي من الخلف ثم التغوُّط فوق رأسي. في سن السادسة، مرَّ بأَوَّل عَرَض له فيما يتعلق بالإساءة إلى الإله: بوصفه بأنه كلب وخنزير، إلخ. عندما رأى ثلاثةَ أكوامٍ من الغائط في الطريق، أصبح مُنزعجًا بسبب فكرة الثالوث المُقدَّس وبحث عن كومةٍ رابعة بتلهُّف لكي يُدمِّر هذا الارتباط. (صفحة ١٣٨)

رأى بوكانوفسكي (١٩٩٥) أنه خلال الجلسة الأُولى، عاودَت الأوهام المفهومة في حلم الذئاب الحضور مرةً أخرى؛ فهذا المشهد يُجسِّد علاقةً مثلية تتسم بالشرجية والتهديد بالإخصاء: إنه يعبر عن حالة المريض العقلية في بداية رحلته العلاجية. ثَمَّةَ تكرارٌ يحدث في بدايةِ تحليل الصدمة يُشابه التكرار الذي أدَّى إلى تنشيط القلَق المرتبط بأعراض الوسواس. في تحليله لما قيل في تلك الجلسة الأُولى، يُشير بوكانوفسكي إلى شعورٍ بأنوثةٍ غير مُستدخلة جيدًا داخل رجل الذئاب، كما يُشير إلى وجود أوهام الإغواء والإخصاء والمشهد الجنسي الأَوَّلي.

في تحليله للحالة، أشار فرويد إلى النكوص الشرجي السادي والقسوة اللذَين أعقبا حرمانه من الاستمناء. كان رجل الذئاب يُعذِّب الحشرات والبشر، وكانت تنتابه أوهام الضرب ويستمتع بإساءة معاملة الخيول. وقد حدَّد فرويد ميولًا سادية مازوخية خطيرة لدى رجل الذئاب من خلال تماهيه مع المسيح المُعذَّب، وأوهام الضرب، وتأنيب الذات الاكتئابي المازوخي. استمر معه الوسواس فيما يبدو حتى عمر العاشرة. فهم فرويد رُعبَ رجل الذئاب من أن تلتهمه الذئاب كإشارةٍ إلى أمنياته المتضاربة فيما يتعلق بالأب؛ الخوف منه من ناحية، والتوق اللاواعي لإشباعٍ جنسي مثلي من ناحيةٍ أخرى. أشار فرويد كذلك إلى رجل الذئاب في بحث بعنوان «طفل يُضرَب» (١٩١٩). في حالة رجل الجرذان، فسَّر

فرويد الوسواس الذي انتاب المريض في إطارِ صراعٍ بين النشاط والسلبية، بين التماهيات الذكورية والأُنثوية.

أَوَدُّ أن أُشير إلى أن التبايُنات بين النشاط والسلبية وبين الذكورة والأنوثة وبين السادية والمازوخية هي في الواقع أساسيةٌ بالنسبة إلى فهمِ فرويد لبنية الواقع النفسي؛ فهي المَحاوِر التي كان يدور حولها فكر فرويد بشأن معظم مرضاه، سواء مُصابِين بالهستيريا، أو عُصاب وسواسي، أو ذُهان أو لديهم انحرافات.

نُوقش جزءٌ كبير من السيكولوجية المَرَضية للرجل الذئب في إطار دوافعه المثلية التي لم تكن مقبولة لديه (وفيما يتعلق كذلك بالتماهيات المازوخية والسلبية). لا يُؤخذ في الاعتبار في هذه الحالة المرحلة ما قبل الأوديبية والعلاقة بالأم، مثلما لم يُنظَر إليهما في أيِّ حالاتٍ أخرى ناقشها فرويد. تظهر والدة رجل الذئاب البيولوجية كشخصيةٍ ثانوية كشريكٍ في المشهد الجنسي الأَوَّلي بالأساس (جاي، ١٩٨٨، صفحة ٥٠٥). والواقع أن الأُمَّ لها حضورٌ باهت في كل حالات فرويد. وبالطبع يجب أن نتذكر أن اكتشاف المرحلة ما قبل الأُوديبية كان سيظهر في كتابات فرويد اللاحقة في أبحاثه عن الجنسانية الأُنثوية.

أشار لابلانش وبونتاليس إلى أهمية المرحلة الشرجية في البناء النفسي لكلٍّ من الصبية والفتيات، وهي فكرة تتخلل كتابات فرويد، وهي التي أعتقد أنها تجد التعبير الأَهَم عنها في الكتابات الفرنسية المعاصرة.

تظهر فكرة النظام ما قبل التناسُلي حيث تسود الغرائز السادية وغرائز الإثارة الشرجية للمرة الأُولى في كتاب «النزوع إلى العُصاب الوسواسي» (١٩١٣). وفي حواشٍ لاحقةٍ في كتاب «ثلاثة مقالات عن النظرية الجنسية»، في عامَي ١٩١٥ و١٩٢٤، تظهر المرحلة الشرجية كأحد النظم ما قبل التناسُلية الواقعة بين النظامين الفموي والقضيبي. إنها المرحلة الأُولى التي يحدث فيها تناقُضٌ بين النشاط والسلبية؛ ينظر فرويد للنشاط بوصفه متوافقًا مع السادية، فيما ينظر إلى السلبية بوصفها متوافقةً مع الشهوانية الشرجية. وعلى مدى العديد من أبحاثه (يتبادر إلى الذهن فورًا أبحاث «رجل الذئاب» و«حالة شريبر»، و«طفلٌ يُضرَب») تصبح الشرجية مرتبطةً تدريجيًّا بوهمٍ مُحدَّد وبالتفاعُل المتبادل بين التماهيات في المشهد الجنسي الأَوَّلي. فالطفل يمتلك تخيلًا عامًّا عن الجماع كإيلاجٍ شرجي، تخضع فيه الأم على نحوٍ مازوخي إلى الأب الذي يُنزِل بها أَلَمًا، ليصبح هذا مسارًا يُعرِّف من خلاله فرويد الشرجية والمازوخية والأُنوثة. ومن الأبحاث الأخرى التي ناقش

فيها فرويد على نحوٍ خاص هذا الموضوع «الشخصية والشهوانية الشرجية» (١٩٠٨)، و«عن تحولات الغريزة كما هي مُمثَّلة في الشهوانية الشرجية» (١٩١٧ب).

انتهى فرويد إلى أن أعراض العُصاب الوسواسي لدى رجل الذئاب كانت نتيجة نكوص الليبيدو أو الغريزة الجنسية إلى هذه المرحلة من التطوُّر التي تتسم بكثرة المُكوِّنات الشرجية والسادية. وبعد بضع سنوات، وتحديدًا في عام ١٩٢٤، غيَّر فرويد رؤاه على نحوٍ جوهريٍّ ملحوظ عن المازوخية في بحث «الإشكالية الاقتصادية للمازوخية»، حيث ميَّز بين ثلاثةِ أشكالٍ من المازوخية؛ «مشبقة»، و«أنثوية»، و«أخلاقية». تُنشئ الأولى علاقة بين المتعة والألم، والثانية موجودة لدى كل البشر، والثالثة تنتج عن إحساس لا واعٍ بالذنب. غير أن فرويد أضاف أن «النوع الأول من المازوخية، وهي المازوخية المشبقة — المتعة في الألم — تُعد سببًا مثيرًا للنوعَين الآخرَين كذلك» (النسخة الأصلية ١٩، صفحة ١٦١)؛ فهذه المازوخية الأولية المشبقة مُوجَّهة نحو صاحبها نفسه، وتُعد تعبيرًا عن التحام غريزة الموت بالدوافع الشهوانية: «حتى تدمير الفرد لنفسه لا يمكن أن يحدث دون أن يكون في ذلك إشباعٌ للشهوة الجنسية» (صفحة ١٧٠). يُعتبَر بحث «ما وراء مبدأ اللذة»، الذي كُتِب عام ١٩٢٠، هو أساس التحوُّل الذي طرأ على آراء فرويد عن المازوخية، وهو ما أدى، حسبما تقول كاثرين شابيه، إلى «الارتباط الفاضح بين الحب والعقاب، وبين الإثارة والألم». يتبع هذا البحث خطًّا حاضرًا في أعمال فرويد منذ اكتشافه للوهم الأوَّلي لإغواءِ طفلٍ من قِبل شخصٍ ناضج؛ فالأم هي المُغوِية الأُولى؛ لكنها في الوقت نفسه تُؤسِّس إيقاعًا بعينه في تحمل الاستياء، مما يشير إلى أهميةِ دمجِ مقياسٍ للمعاناة ذات الطابع الشهواني في مرحلةٍ مبكرة من الحياة. وفي البحث المؤلَّف عام ١٩٢٤، أشار فرويد إلى أن «المُصاب بالمازوخية يريد أن يُعَامَل كطفلٍ صغير عديم الحيلة، على أن يُعامل بوصفه طفلًا مشاغبًا للغاية» (صفحة ١٦٢). وأضاف: «إذا أُتيحت الفرصة لدراسة حالات دُرِست فيها حالات الأوهام المازوخية دراسةً مستفيضة للغاية، سرعان ما سنكتشف أنها تضع الفرد محل البحث في وضعٍ أنثوي على نحوٍ خاص؛ فهي تدل على أنه يتعرض للإخصاء، أو المضاجعة، أو يلد طفلًا.» تُسلِّط هذه الأفكار، التي كُتِبَت بعد مرور ما يصل إلى عشر سنوات، ضوءًا آخر جديدًا نابعًا من إدراكٍ لاحق على الأوهام المازوخية لدى رجل الذئاب، وتستدعي ما ربما استشعر أنه خارج على السيطرة في «تقلُّبات الغريزة الجنسية الأوَّلية» في العلاقة مع الأم (جرين، ١٩٨٦، صفحة ٢٤٥).

(٦) الوسواس والشرجية والسوداوية

في «الحداد والسوداوية» (١٩١٧أ)، قدَّم فرويد الوصف الأول لعلاقة مع موضوعٍ داخلي تضمن الإسقاط والتماهي.

يعود الشخص السوداوي إلى تماهٍ نرجسي مع الموضوع، حيث تعامل الأنا ذاتها كموضوع. تنقسم الأنا إلى جزأين يثور أحدهما ضد الآخر. وهكذا تنطوي السوداوية على استدماجٍ للموضوع وتماهٍ معه. يُلقي الشخص السوداوي اللوم على الموضوع الذي تتماهى معه الأنا، فيبدو الأمر كما لو كان يلوم نفسه. وقد اكتشف فرويد في هذا النص العملية التي تتماهى من خلالها الأنا لا شعوريًّا مع الموضوع السيئ المُستدمَج (الموضوع المحبوب الرافض)؛ ومن ثَمَّ تُصبِح ضحيةً للأنا العليا الخاصة بها. إن فكرته تتلخص في أنه عندما يشعر الشخص بأنه سيئ، فإنه في الواقع يتهم شخصًا آخر، لا شعوريًّا، يشعر الفرد بأنه ضحيته، ولكن تحوَّل إليه من خلال عملية استدماجٍ وتماهٍ.

يقول فرويد في «الأنا والهو»:

> في جنون الارتياب الاضطهادي، يصد المريض ارتباطًا مثليًّا مُفرِط القوة بشخصٍ مُعيَّن بطريقةٍ معينة؛ ونتيجةً لذلك فإن هذا الشخص الذي أَحبه المريض حبًّا جمًّا يصبح مُضطهِدًا؛ ومن ثَمَّ يُوجِّه المريض نحوه عدوانيةً غالبًا ما تكون خطيرة. (فرويد، ١٩٢٣، صفحة ٤٣)

في عام ١٩٢٤، أنشأ أبراهام كذلك رابطًا قويًّا بين السوداوية والعُصاب الوسواسي. في السوداوية، يكون التركيز على فقدان الموضوع. أمَّا في العُصاب الوسواسي، فيحتفظ الفرد بالموضوع الذي يُكِنُّ له مشاعرَ ازدواجية؛ ومن ثَمَّ يمكن الإشارة إلى أن الوسواس قد يُعتبَر محاولةً لصد حالةٍ من السوداوية.

يُشير أبراهام كذلك إلى أن اللاوعي ينظر إلى فقدان الموضوع كعمليةٍ شرجية وينظر إلى استدماجه كعمليةٍ فموية (أبراهام، ١٩٢٤، صفحة ٤٤٤). في جنون الارتياب، يُمثِّل المريض الشخص المُضْطهد له بجزء من جسده ويعتقد أنه يحمله بداخله.

من المثير التفكير في سيكولوجيةِ مرضِ رجل الذئاب في ضوء هذه الأفكار. وفي الواقع أَودُّ أن أُشير إلى وجودِ مشكلاتٍ تتعلق بحداد مُعلَّق يُعد محورًا مركزيًّا لسيكولوجية مرضه؛ موت والده وشقيقته، اللذَين انتحرا، وكذلك عقدة الأم المتوفاة، وهي أم كانت حيةً لكنها لم تكن موجودة؛ إذ كانت منشغلة بأعراضها الجسدية وغيرَ قادرةٍ على التواصل

مع ابنها. في التحليل اللاحق مع روث ماك برونزويك، يمكن بالفعل تتبُّع أعراض رجل الذئاب الجسدية كتعبير عن التماهي مع الأم. هناك كذلك اضطهاد؛ إذ أشار أبراهام إلى أن الشخص السوداوي يدمج موضوع حبه المفقود كوحدةٍ كاملة، بينما يدمج مريض جنون الارتياب جزءًا منه فقط.

ربما يُنظَر إلى الموت كمحورٍ لأفكاره المستغرق فيها. وتُمثِّل شرجية رجل الذئاب محاولةً للتعامل مع موضوعٍ لم يكن قادرًا على التخلي عنه.

خاتمة

تُعتبَر حالة رجل الذئاب واحدةً من أكثر حالات فرويد التي تُنُوِلت بالنقاش؛ فقد حدَّد بحث لإحدى شركات الأبحاث ما يقرب من ٥٧٧ بحثًا ترتبط تحديدًا بهذا النص باللغة الإنجليزية فقط. وأشار بعض المؤلِّفين أن رجل الذئاب — بما لديه من عُصابٍ وسواسيٍّ حادٍّ للغاية ويُسبِّب تقلُّصاتٌ مستمرة — سيكون من الأفضل تشخيصُ حالته كشخصٍ مصابٍ باضطراب الشخصية الحديِّ مصحوبًا باعتلالاتٍ شديدة في الأنا (بلوم، ١٩٧٤)، ونوبات من الذُّهان الطِّفلي وحالاتٍ بارانويدية في الكبر. ومع تطوُّر الدراسات في الحالات التحليلية ونظرية التحليل النفسي، فنحن مُضطرُّون للعودة إلى الأوراق البحثية الكلاسيكية وبيان ما تغيَّر وما ظل ثابتًا دون تغيير في علم التحليل النفسي.

لقد ركزتُ في هذا الفصل على أربعِ أفكارٍ رئيسة يمكن اشتقاقها من نقاشٍ عن بحثٍ كلاسيكي: الدور التأسيسي للوهم في بناء العقل في إطارِ عملِ فرويد، وتصوُّر فرويد للزمن فيما يتعلق بوظيفة الصدمة والوهم، ومسألة الأنوثة لدى الرجال، وأخيرًا الروابط بين الوسواس لدى رجل الذئاب والحداد.

وقد أشرتُ إلى وجودِ رابطٍ جوهري بين الوهم اللاواعي والزمن في صياغات فرويد؛ ففي الطرح الخاص بحالةِ رجل الذئاب، ارتبط مفهوم الوهم ارتباطًا جوهريًّا بمفهوم الزمن وخاصة الإدراك اللاحق؛ لذا فإن المسألة ليست مسألةَ أثرٍ خطي تراكمي أدت إلى ظهور عَرَض، بل هي إعادة تنظيم لآثارِ ذكرياتٍ موجودة بالفعل مرتبطةٍ بمرحلةٍ جديدة من النضج. علاوةً على ذلك، يرتبط ذلك جوهريًّا في نظر فرويد بدور الإخصاء، وقانون الأب الذي يُحرِّم الأم كموضوع للرغبة. لا تستبعد هذه الفكرة فقط الحتمية الخطية؛ ومن ثَمَّ تؤكد أهمية الحاضر عند تفسير الماضي (وهي فكرةٌ أساسية للغاية لعمل التحليل النفسي)، بل أيضًا تضع الجنسانية مِحورًا للصيغ النظرية.

الفصل الثالث عشر

تأمُّلات إكلينيكية وميتاسيكولوجية في بحث «طفل يُضرَب»[1]

كاثرين شابيه

ظهر بحث «طفل يُضرَب: مساهمة في تفسيرِ نشوء الانحراف الجنسي» عام ١٩١٩ في فترةٍ انتقالية بين الاتجاهَين الكبيرَين في أعمال فرويد؛ كان هدف النص، رغم كونه ضمنيًّا، هو اعتبار وهم «الطفل المضروب» أحد أكثر ترجماتِ أوهامِ الإغواء حيوية، بالإضافة إلى وصف التطوُّرات النموذجية التي تدخل في صنع هذا الوهم كمنتج نفسيٍ ومنتجٍ للتحليل؛ في الوقت نفسه، أبرز البحث تمثيلاتٍ طِفلية للمازوخية، مُعلنًا قدوم اضطراباتٍ قبل نشرِ بحث «ما وراء مبدأ اللذة» عام ١٩٢٠، متنبئًا بذلك بالرابط الشائن بين الحب والعقاب، وبين الإثارة والألم.

إذا كنتَ قد عدتَ لهذا الوهم مجددًا، فهذا يُعزى أولًا بالتأكيد إلى أنه يتكشَّف تدريجيًّا في إطارِ اتجاهٍ يُعد جوهريًّا للعلاج وتحويل المشاعر، ولكن أعود إليه على نحوٍ خاص لأن مراحله المختلفة تعرض منتجاتٍ نفسية ذات أهميةٍ متغايرة، مما يجعل من الممكن تجاهل تصوُّر عام للأوهام، ضخمٍ وضيقٍ للغاية. وهذه الجدلية، التي يمكن تمييزها في سياق التحليل وفي هذا الموقف فقط، تصدُق على إمكانية قيام المريض بمواءمةِ حدثٍ نفسي مثير داخل المشهد التحليلي ببناءِ وهمٍ يستبعد المحلل النفسي من محتواه ظاهريًّا، وظاهريًّا فقط؛ لأن الوهم مُوجَّه إليه ويسعى لإغوائه هو، وليس شخصًا غيره، حتى لو كانت الرغبة في تلك اللحظة مكبوتة. إن المرور من ذكرى باهتةٍ وبلا أهمية إلى مشهدٍ أَوَّلي

مبتذل يُرى فقط من منظورٍ يتسم بلا مبالاةٍ مجهولة (طفل يُضرَب)، إلى خلق المشهد الثاني، وهو مشهدٌ دقيق ومثير (أنا [فتاة] أُضرب من أبي)؛ حيث يحتل صانع الوهم موقع الطفل الذي يُضرَب ويُصبِح بطل المشهد، هو أمرٌ يتوقف على لحظةٍ جوهرية؛ هي لحظةُ قيام المريض بخلقِ وتشكيلِ ما يعتقد أنها تجربةٌ سلبية عايشها، على نحوٍ نشط في التمثيلات. لا يُوجد تذكُّر لأمرٍ ما، ناهيك عن التنفيس عنه في إطارٍ «متغيِّر»، بل يُوجد تغيير للموقع يُطلِق العِنان للرغبة التي كانت خفيةً حتى الآن؛ إن تعبير «إنه يضربني، يحبني، يضربني» يُخرج قناعةً أساسية من بين غياهب المحتوى الظاهر للتخيُّل مَفادُها: إنه لا يحب غيري! ومع ذلك، فلكي يكتسب هذا التغيير أي قوة، يجب أولًا إدراك فعل الإغواء، وهو الفعل الذي ولَّد فيما سبق استثارةَ الطفل والذي يتكرر اليوم في التحليل، كفعلٍ صادر من الآخر، كردٍّ فعلٍ له؛ فتقلُّد الموقع السلبي يجعل بإمكان المريض قَبولَ آثار التحليل وأثر المحلِّل داخله.

إن الاضطلاع بالدور السلبي في المرحلة الثانية من وهم «الطفل المضروب»، وهي المرحلة التي تُعبِّر عن النسخة الأُنثوية منه وهي «أنا [فتاة] أُضرب من أبي»، يمكن أن يصدُق على هذه المواءمة من خلال التمثيل وعلى وظيفتها المُتمثِّلة في المواساة؛ فنجد الفتاة تُكثِّف حب الأب وكونه مُحرَّمًا عليها، وتجمع بين الرغبة في الإغواء والعقاب الذي يجلبه إشباع هذه الرغبة؛ بمعنًى آخر، تُعلن المريضة عن الحل الوسط الذي يسمح للأنا، بفضلِ بناء الوهم، بإشباعِ متطلبات الهو والأنا العليا بفاعليةٍ متساوية. في هذا الإطار، يمكننا إدراكُ وفهمُ ظهورِ الوهم وتطوُّره وحلِّه كصوتٍ لاتجاهٍ أساسي للتحليل، وكطريقةٍ لفتحِ مواضع للتماهي؛ فتغيير المواضع في سيناريو التوهُّم يعكس التغيُّر في الوضع على المستوى الداخلي؛ فهو يُمثِّل أملًا كبيرًا يجعل من الممكن قبول التضاد أو التناقُض بين السلبية التي تفرضها الاستثارة ونشاط التمثيل الذي يمنح العلاج نوعًا من النظام؛ أي إدراك الرغبات ومصدرها الغريزي داخل التحليل من ناحية، والعمل الذي يتطلبه التحليل بديهيًّا من الناحية الأخرى.

هل نحتاج لتقديمِ دليلٍ تحليلي لدعمِ تأكيدِ فرويد فيما يخص تَكرارَ وَهمِ «الطفل المضروب»، ليس فقط لدى المُصابين بالعُصاب، بل حتى لدى أفراد لا يشعرون بأنهم مُجبَرون على الانخراط في التحليل؟ هل علينا كذلك العودة لهذا النص لإدراك تعدُّدية

السُّبل التي يقتفيها ويتبعها، وعلى نحوٍ أخص، نشأة وجدلية الوهم؟ بعيدًا عن المحتوى وجاذبية الصور التي يُثيرها، وبعيدًا عن اهتمام هذا المقال الشديد بتحليل الجنسانية، فإن ما تكشفه قراءةٌ جديدة على نحوٍ شبهِ مؤلمٍ يتعلق بمضمون الخطاب فيما يتعلق بالكبت وترجمته المختلفة في العلاج.

من الأمور المُقترِنة بعلم الأمراض النفسية، وإن كان ليس جوهريًّا هنا: ما الذي كان يعنيه فرويد عند حديثه عن «الانحراف»؟ ألا نجد أن ثَمَّةَ مصادفةً تخُص ذلك الشعور (وهو الذي يكون إنكاره يعني وجود عُصاب) وأساليبَ النشاط الوظيفي النفسي المجتمعة اليوم كمؤشِّراتٍ «جديدة» للتحليل النفسي، تلك المؤشرات التي تتسم بالأساس باضطراباتِ الجوهر الداخلي للشخصية والتي تُشكِّك في فكرة الواقع النفسي من خلال توسيع حدوده؟

لا يحدث ظهور وهم «الطفل المضروب» في كل التحليلات؛ فهو يظهر على السطح في لحظاتٍ بعينها، وفي علاجاتٍ بعينها، وتحت أشكالٍ بعينها لا تتطابق دائمًا مع تلك التي وصفها فرويد. غير أن هذه التنويعات في التعبير الإكلينيكي، والتي يرجع الفضل فيها إلى الدفعة الرمزية لتمثيلات الجنسانية الطِّفليَّة وتجسُّداتها، تُسلِّط الضوء على جدليةِ تحويل المشاعر الذي يُجسِّدها ويعيد صياغتها في شكلٍ مختلف.

ينطوي تحليل الأوهام الذي وضعه فرويد على حركةٍ عاملةٍ قوية تُسبِّب اضطرابًا في العناصر؛ فالمواضع المتتالية التي يشغلها صانع الوهم — دعونا لا ننسَ أنه من صنع المريض الخاضع للتحليل — تدلُّ على أهمية التنقل من دورٍ إلى آخر، وعلى وجودِ سهولةٍ في الحركة والتنقُّل في التماهي، تقودنا لرؤية هذا كموضعٍ رئيس، حيث تكون المغامرة التحليلية على المحك؛ فالتغيُّر في وجهة النظر أحد أكبر آمالها؛ والتغيير يكشف عن تعديل، بل حتى تحوُّل في بعض الأحيان، للمواد النفسية.

في هذا الإطار، نكتشف مسارًا مدهشًا في نص فرويد يتضح من القراءة الأُولى في توصيفات التنويعات في المحتوى الظاهري للوهم. يتميز فرويد بمنهجٍ واضح؛ فأوهام العقاب، وربما كل الأوهام، لها تاريخٌ سابق وتطوُّر، والصياغة المبدئية التي تتخذها في بداية العلاج تُعد «نتيجةً نهائية أكثر من كونها مظهرًا مبدئيًّا لها» (١٩١٩، صفحة ٢٢٤). ويُؤكِّد التحليل السمة التطوُّرية للوهم؛ نظرًا لتعقُّد تكشُّفها على مدى الوقت، وسيطرأ على مختلف جوانبه على نحوٍ شبهِ دائم «في علاقتها بصانع الوهم، وهدفها، ومعناها» (المصدر السابق، صفحة ٢٢٤). لعلنا نتساءل: ما الذي لا يتحرك في هذا التنظيم؟

تستمد المرحلة الأولى، وهي الأقدم والأقل وضوحًا كما يبدو، مصادرها من الذاكرة التاريخية بإحياء الذكرى من جديد. ويُعتبَر وهم «ضرب الأب للطفل» ترجمةً لهذا، ويتساءل فرويد ما إذا كان هذا حقًّا مسألة وهمٍ أم مجرد تمهيدٍ لوهمٍ أبعد. وفي الواقع، يظل الثبات والاستقرار في واقعٍ مُدرَك، داخل تجربةٍ فعَّالة، إحدى السمات الرئيسة لهذه النسخة، وهو مستقًى من مخزونات الطفولة ويَتجسَّد في موقعِ صانع الوهم في مشهد «أنا أنظر». يُتيح المحتوى الخفي الذي يتكشَّف لاحقًا إمكانيةَ ظهورِ حالةٍ من العاطفة القوية، على نحوٍ يُناقض الانفصال المُتردِّد في البداية، تتغَذَّى بلا شكٍّ على قوة المقاومات؛ فالكراهية والغَيرة من الشقيق الأصغر تكون بمثابةِ قناعٍ يخفي الإيمان بحب الأب؛ فإذا كان الأب يضرب هذا الطفل الذي أكرهه، فهذا بسبب أنه لا يحبه؛ «فهو لا يحب أحدًا سواي» (المصدر السابق، صفحة ٢٢٧). إنه لا يحب أحدًا سواي ... يا للإثارة، يا للإنجاز، يا للمتعة! وهكذا ينشغل المحتوى الناشئ للوهم بأشكال الحب المُحرَّم؛ فهو يدعم لدى الطفل قناعةً بكونه الطفل المُدلَّل للأب، والمتعة الخفية النابعة من إغوائه.

تمتلك طبيعة التخيُّل في هذه المرحلة الأولى مُكوِّنَين: الأول واعٍ ومحفور في واقعٍ مادي «موضوعي»، والثاني لا واعٍ يجد طريقه إلى الحل في الإشباع الهذياني للرغبة، وكلاهما مترسخ في العُقدة الأبوية؛ فيصبح جوهر الوهم «أبي لا يحب أحدًا سواي» صورةً زائفة سواء في تمثيل المحتوى الظاهري، أو في الشعور بالاستياء الذي يُصاحبه، وذلك بفضل تحوُّله إلى نقيضه.

تتوقف المرحلة الثانية، والمُتمثِّلة في وهم «أنا [فتاة] أُضرب من أبي»، على حالةٍ نفسيةٍ مختلفة؛ فهذه المرحلة ليست ذكرى، وليست ناتجة عن تذكُّر أيِّ شيء؛ فهي لا واعيةٌ وستظل لا واعية، كما أَصَر فرويد مرارًا وبقوة. وهنا تُعتبر هذه المرحلة تفسيرًا للتحليل ناتجًا عن الكبت، ولعل هذا ما يمنحها أهميتها القصوى ويُفسِّر ثقل تبعاتها. وهذه المرحلة الثانية ضروريةٌ والمرور بها خلال العلاج أَمرٌ حتمي.

وباعتبارها ناتجًا من نواتج التحليل، تحديدًا ناتجًا من نواتج تحويل المشاعر، فهي تحتل مكانةً خاصة، فيما يخص الأوهام الناشئة، في مُفترَق الطرق بين ما هو موضوعيٌّ وما هو ذاتي؛ إذ تنحصر بالكامل في التوتُّر بين العالم الداخلي وبحثه عن المتعة والعالم الخارجي وقيودِ واقعه. وهذا الضغط المزدوج إنما يؤكد التزامَ الوهم الذي يُتيح إشباع الرغبة في الأب من خلال النكوص وفي الوقت نفسه يجعل عقابَ مثل هذا التجاوُز أمرًا مُؤكَّدًا: «إنه يضربني، يحبني، يضربني»؛ إذ علينا بالطبع أن نَتذكَّر درجة المتعة العالية

التي تَصبِغ إنتاج الوهم؛ فتُمحى العودة إلى الشعور بالاستياء بتغييرِ موضعِ صانع الوهم، الذي سيكشف الأساس المازوخي الناجم عن ارتباطِ متعةٍ ما بألم. ومع ذلك، يبقى جزءٌ خفي، ويتحول إلى رغبةٍ جنسية تناسلية مُتخفِّية بالغطاء الشرجي لسيناريو الوهم. وهكذا، يظل فعل الكبت مستمرًّا، والتخلُّص من أي كبتٍ باستمرار سيُصاحبه كبتٌ للتمثيلات الأخرى.

ما أَثَر التحليل على هذه المرحلة الثانية من الوهم؟ أليست التحوُّلات المهمة حقًّا التي يمر بها الوهم هي نتاجًا للتحركات التي ينطوي عليها تحويل المشاعر؟ بمجرد اجتياز الفترة الأُولى من التحليل التي تستقي قوتها في صمتٍ من يقين المريض الخاضع للتحليل من إغواء المُحلِّل؛ كونَه أصبح هو أيضًا منخرطًا في العلاج وانقضاءِ بهجة البداية العامرة بمشاعر الحب والعشق، والقائمة كليًّا على الكبت أو إزالته، يأتي الخداع حتمًا، والذي يُكتشَف باكتشاف الطبيعة الجنسية للرغبة واستحالة إشباعها؛ فيتلف هذا «الإزهار الأول لحب المحارم» بفعل الصقيع ... في هذه المرحلة، لا يسع الشخص الخاضع للتحليل إلا اللجوءُ إلى إنتاج الوهم بواسطةِ جزء المتعة الخاص به، حتى ولو كانت متعةً وهمية، ناتجةً عن إشباعٍ هذياني — وهي متعةٌ تتحقق على أرض الواقع بالتعبير عن الوهم وصياغته في كلماتٍ موجهة إلى المُحلِّل النفسي.

أخيرًا، تتشابه المرحلة الثالثة (التي تظهر أولًا في التحليل) مع الأُولى نظرًا لكونها واعيةً مثلها، ولأن صانع الوهم يشغل فيها مرةً أخرى موقعَ المتفرِّج. غير أن ثَمَّةَ عنصرَين بارزَين يميزانها: الأول أن الشركاء قد تغيَّروا، وحل عددٌ وافر من الأطفال المجهولِين محل الطفل المضروب في المرحلة الأُولى، وحل محل الأب (الضارب) بديلٌ أبعد. لقد أصبح المشهد في المرحلة الثالثة مجهولًا وعامًّا ومجردًا من الذاتية. أمَّا الفارق الثاني، فيرتبط بلا شك بهذا التحول؛ فالوهم الآن صار يحمل استثارةً قوية «جنسية بلا شك»؛ كونها تؤدي إلى إشباعٍ جنسي واضح. وهذا يؤكِّد بالدليل الواضح أهمية الارتباط بالمتعة في جدلية الوهم؛ فالتغيُّرات لا تمس ممثل/تمثيل الدافع فحسب، بل تمس كذلك الشعور/المُمثِّل الخاص به؛ لذا، يناقش نص فرويد أيضًا الإشكالية الأساسية الخاصة بالعلاقات بين المشاعر والتمثيلات. يظل هناك لغزٌ يصعب حله؛ إذ يُردف فرويد قائلًا: «بأي طريق يصبح الوهم السادي الموجود الآن، حيث يُضرب أطفالٌ غرباء ومجهولون، ملكيةً دائمة للتطلُّع الشهواني للفتاة الصغيرة؟» (المصدر السابق، صفحة ٢٢٦)

إن وهم «الطفل المضروب» محفور بالكامل في النظام النفسي الجنسي، وفي عقدة أوديب، وفي شبكة التمثيلات الناتجة عن نسيج الأوهام الناشئة التي تُحاول معالجته. دعونا ننظر إليه كأحد الترجمات المُبكِّرة لوهم الإغواء المُدمَج في وَهْم المشهد الجنسي الأوَّلي؛ لأنه يعرض المجموعة الكاملة لسمات الأوهام الناشئة: الدعمُ البصري، بل البانورامي، اللازم لمنحها شكلًا، والموضع السلبي المُحدَّد للشخص الخاضع للتحليل في كل من المشهد الجنسي الأوَّلي والإخصاء. يُفاقِم وَهْم الإغواء في نسخته الهستيرية من سلبية الطفل الخاضع لرغبة الشخص البالغ؛ فنحن نُدرك كيف أن تطوُّر الفكر الفرويدي قد اتبع هذا المسار؛ الحدث الذي يعاني منه الطفل، والذي يُحدِث الصدمة المُحدِّدة في مُسبِّبات الاضطراب العصبي، ويحبس طفلًا بريئًا داخل الحياة الجنسية لشخصٍ آخر؛ يتمثل في الشخص البالغ المنحرف، أو الأب، أو الغريب الذي يُضمر الشر، أو المُحلِّل خلال فترة العلاج. وهذا الشخص يُتيح وظيفة الإغواء النشِطة بينما يُحافظ المريض على موقعه السلبي كضحية.

بعد ذلك، وبفضل تسويةٍ سيئة السمعة خلال الإدراك اللاحق، سوف يُسيطر العنصر الجنسي على مشهد الإغواء؛ ليصبح الوهم الذي يلتقط الحدث الآن معتمدًا على نشاطٍ تمثيلي يحمي نسخةً من الهجوم بواسطةِ آخر ويُحافظ عليه. وأيًّا كانت طبيعة الحدث — وهو الذي كان فرويد يظن أنه ذو طبيعةٍ واقعية على نحوٍ مادي حتى عام ١٨٩٧، ثم صار ينظر إليه كواقعٍ نفسي — فإن الشخص الخاضع للتحليل، حتى عندما يُصبِح هو صانع الوهم، يبقى سلبيًّا في وجه التدخُّل الخارجي.

يتبع وَهْم «الطفل المضروب» المسار عينه ويمتثل للقواعد نفسها؛ إذ يحتفظ صانع الوَهْم بموقعٍ سلبي في كل المراحل؛ فلا نجد إثارةً مُغويةً بل تيارًا متدفقًا من الاستثارة يتجلى على نحوٍ متساوٍ في الغَيرة الانتقامية للمرحلة الأُولى، وفي التكافؤ بين التعرُّض للضرب والحب في المرحلة الثانية، وفي التأمُّل في مَشهدِ الأطفال المَجهولِين الذين يتعرضون للقسوة الجسدية للمرحلة الثالثة.

ربما تظن أن الوهم يخرج للوجود خلال عملية التحليل، وأنه يتكشَّف أثناء حدوث تحويل المشاعر؛ لا شك أنه يُقدِّم نفسه كصوتٍ للسادية المازوخية، ويستعير أشكالها الجمعية، وبالتأكيد يُفشي الإثارة الصارخة والقلق الشديد ليضاهي المتعة التي تُديمه وتُحافظ عليه. ولكن حدوثه يُتيح على نحوٍ خاص احتماليةَ ملاءمة الحدث داخل المشهد التحليلي بواسطةِ تفسيرٍ يستبعد المُحلِّل على المستوى الظاهري بينما يتضمنه في خطابه، وهذا يرجع إلى الكبت؛ فاستحضار المشهد الخاص بالمرحلة الثانية يشير ضمنيًّا في الحقيقة

إلى نبذٍ لحظي للرغبة في إغواء المُحلِّل داخل موقفٍ تناقضي يستدعي الإثارة ويحتويها، ويُزيل الكبت ويصنعه.

إذا كان ما هو على المحك في نظرية الإغواء هو إنشاء علاقةٍ جوهرية بين الجنسانية والكبت، فإن الأخير بلا شك يطرح مسألةَ استدخالِ الموضوع؛ فسواءٌ كان مشهد الإغواء يشير إلى واقعٍ حقيقي أو وهمٍ ناتج عن صدمة، فإنه «دائمًا وعلى أيِّ حال» يُشير ضمنًا إلى وجود الآخر، وإلى إثارته الإيحائية التي تضعه خارج الشخص الخاضع للتحليل، حتى ولو في موقعٍ مضاد للأنا ودوافع حفظ النفس. أليست هذه هي المكوناتِ التي نجدها في المشهد التحليلي؟ إن الجنسانية محفورةٌ في الغَيرية أو الاختلاف، وفي إطار الحركة نفسها، ينطبع وجودها المستقل وغرابة اللاوعي؛ ولكي يحدث ذلك، يجب أن نعترف بأن الفعل في أصل الإثارة والاضطراب يجب أن يصدُر من الآخر؛ فهذا الموقف يضع الشخص الخاضع للتحليل في موقفِ ردٍّ فعل، إذا كان أَثَر الآخر عليه مُدرَكًا؛ أي إذا سُمِح بتعديلٍ سلبي من قِبل هذا الغريب، ما يُمثِّل مقدمةً لا غنى عنها لقبول الإثارة الداخلية والعثور على وسيلة لمعالجتها. والموقف نفسه الذي يُفاقِم السلبية الأساسية يُتيح كذلك دمجها والتعامُل معها. إذا حل الخيال محل الشرخ الحقيقي، وإذا تحوَّل الواقع المادي للذكرى إلى واقعٍ نفسي، فإن التكافؤ المزدوج الإيجابي/السلبي يستمر في التحرُّك؛ فيكون الشخص الخاضع للتحليل سلبيًّا في محتوى المشهد، بينما يكون نشِطًا في بناء التمثيل. وهناك نجد العناصر التي طوَّرها فرويد (١٩٢٠) في بحث «ما وراء مبدأ اللذة» من مُلاحظة الطفل ذي البَكَرَة.

وعن طريقِ تخليقِ المشهد، يدخل الشخص الخاضع للتحليل في حركةٍ من مواءمة الوهم والاستدخال المُوجَّه ذاتيًّا. وهذا الانتقال مُتأصِّل في العملية التحليلية، ويُترجَم بواسطة القَفزة من التكرار القهري إلى التمثيل القهري، كما اقترح جيه رولان (١٩٩٨). هذا الانتقال، الذي يُؤكِّده إدراك الدور السلبي داخل المشهد وما يتضمنه فيما يتعلق بعمليات الاستثارة والمشاعر، يجعل من الممكن بناء الوهم ويُمِدُّه بقوته المُواسية؛ بمعنًى آخر، يتطلب الاستحواذ النشط — من خلال اللغة — على التمثيل أن يكون التعرُّض للإثارة قد حدث على نحوٍ سلبي. في ضوء هذا، يُمكِننا فهم وَهْم «الطفل المضروب» وطريقة نشأته وتكشُّفه وحلِّه باعتباره رمزًا للحظةٍ حاسمة في التحليل غنيةٍ باحتمالات التماهي التي تسمح بحدوثِ تناقُضٍ وتضادٍّ بين السلبية والنشاط، وبين الاستثارة والتمثيل؛ ومن

ثَمَّ فإن احتمالية قَبول الاستثارة خلال العلاج، وهي التي يُثيرها الآخر هي التي تحسم مسألةَ إطلاقِ وتحريك الجهد الذي تَتطلَّبه بالضرورة إثارة الدافع.

ما الذي يحدث عندما لا يحدث الانكشاف المعتاد للوهم ويحل محلَّه تسلسُلٌ مختلف تمامًا، مما يخلق اضطرابًا في نقاط المرجعية السابقة الخاصة بنا؟ أَودُّ هنا الإشارة إلى استدعاءِ مَشاهد، منذ بداية تحليلاتٍ بعينها، مُنظَّمة طبقًا لمبادئ المرحلة الثانية التي وصفها فرويد، لكنها لم تعُد تُظهِر سمة الحالة النفسية التي كانت تُميِّزها سابقًا، مع ملاحظة أن هذه المَشاهد لم تكن مكبوتة، وليست غير واعية، ويمكن بالكاد اعتبارها نتاجًا للتحليل. تأتي هذه المشاهد في شكلِ مواقفَ حقيقية، أو كوساوسَ واعية، أو الأخطر، كأمثلةٍ لتنفيسٍ قهري بدرجةٍ ما. وأيُّ فشلٍ ظاهري في كبت هذه النواتج يمكن أن يشير إلى الدلالة المنحرفة ليس فقط للوهم — الذي يُعد مُنحرفًا بطبيعته على أيِّ حال — بل للأداء الوظيفي النفسي عينه. لكن هذه الفرضية يصعُب الدفاع عنها في ضَوء الطبيعة الساحقة للشعور بالذنب المرتبط باستدعاء هذه المَشاهد، حتى لو كان طابع الخزي لها يمنحها شعور انعطافٍ نرجسيٍّ قوي؛ ونظرًا لأن من يخضع للتحليل (وهو الذي غالبًا ما يكون أُنثى من واقعِ خبرتي) لا يعجز عن اتهامِ ذاته بأبشع الجرائم، فهي من تُعرِّض نفسها للضرب، وهي الابنة التي تشتهي زنا المحارم التي تستثير الأب لتجاوُز الحدود؛ وهي من يدفعه للقيام بهذه التجاوُزات. من المؤكَّد أن الأب (أو بديله) يُحافظ على وظيفته كضارب؛ لكن حتى في هذه الحالة فإنه ليس نشطًا؛ بل مستُثار من قبل ابنته؛ ولأنها تُدرك هذا الإثم وتُطالِب به، فإن التضحية والسلوك القهري اللذَين يُعبِّران عنه يُمهِّدان الطريق إلى التكفير عن النشاط الجنسي المازوخي وما يُحقِّقه من انتصارات. ومن الواضح أن مثل هذه التسلسُلات تعملُ على تكثيفِ وَهْم «الطفل المضروب» بذكاءٍ مذهل، وكذا تكثيفِ مشهد الإغواء. وفي هذا السياق، تُستبدل نسخةٌ أُطلق عليها «سوداوية» بالنسخة الهستيرية، التي يحميها الكبت (شابيه، ١٩٩٩)، والتي تعكس المواضع الخاصة بالشريكَين؛ إن من يُغويني ليس الآخر أو الغريب، أو الأب؛ بل أنا من يُثيره ويُحرضه ويقهره.

تختفي المازوخية المشبقة والمازوخية الأُنثوية، والحاضرتان بقوة في المرحلة الثانية من الوهم، وهي مرحلةٌ كلاسيكية، في هذه النسخة السوداوية على ما يبدو، بما يُدِرُّ مكاسبَ على صعيد المازوخية الأخلاقية والتعطيل النرجسي لأهداف الدوافع. وحسبما كتب

فرويد في عام ١٩٢٤، تتفكك العلاقة بين المازوخية الأخلاقية والجنسانية. وفي حين أن المعاناة تشمل المحبوب في المازوخية المشبقة والمازوخية الأُنثوية، فإن هذه الحالة لا تُشبَع في المازوخية الأخلاقية؛ نظرًا لكون المعاناة نفسها هي ما يهم في هذه الحالة: «سواء كان المُتسبِّب في المعاناة هو الحبيب أو شخصًا غريبًا، فإن هذا ليس له أيُّ دور» (فرويد، ١٩٢٤، صفحة ٢٩٣).

إن الوصول إلى واقع مَشهد «أنا [فتاة] أُضرب من أبي» إنما يدل على قوة الزنا في تحويل المشاعر والعقاب الذي يتسبب فيه، وهذا دليل على أن الشخص الخاضع للتحليل يقف في منطقة المازوخية الأخلاقية والسوداوية، وهي التي، كما نعرف، أحيانًا تحتفظ في غياهبها بسيناريوهاتٍ «منحرفة» تُحاول إزالة مشاعر الكآبة والوحشة. في هذه النسخ المُفرَدة، أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، وجنبًا إلى جنب، نجد اندفاعًا نحو تحويل المشاعر — يتسم بالحدة والإثارة وشبه جنوني — وفرارًا إلى مداواةٍ سريعة تمحوها انتكاسةٌ تراجيدية يائسة من الآثار الأوَّلية للتحليل النفسي. وهنا يحدث انقلابٌ جوهري؛ فلم يعُد الإحباط يحمل معه كراهيةً تجاه المُحلِّل ولا حتى توبيخًا لما يمكن أن يُنظَر إليه كخيانةٍ أو سوءِ فهم؛ بل نرى الكراهية ترتد نحو الخاضع للتحليل نفسه، ليغوص عميقًا في اتهامات الذات والشعور بالخزي وكبح الشهوات. حينئذ يظهر شكلُ وَهْم الطفل المضروب الذي أَثرتَه للتو كأَثَر لتحويل المشاعر ذي المازوخية الأخلاقية؛ فنحن مدركون لآثار هذا داخلَ ردِّ الفعل العلاجي السلبي والمآزقِ المُحتمَلة الناتجة عنه. ويظل الضمير الأخلاقي يلعب دورًا جوهريًّا هنا؛ لأن الشعور بالذنب الذي أدَّى إلى تحوُّل السادية في المرحلة الأولى إلى مازوخية في المرحلة الثانية يتعرض للكبت في النظام التقليدي للوَهْم؛ لكن في الشكل الذي استعارته المازوخية الأخلاقية، يكون الحس الأخلاقي واعيًا حتى لو قامت الأنا العليا، والتي تعتبر الآن جَلَّادًا للأنا، بغرس جذورها في الهو.

يجب أن نعود إلى فرويد في محاولةٍ لفهم هذا الفارق الجوهري حتى لو كان من الصعب تتبُّع تسلسُل أفكاره. في سياقٍ طبيعي، حسبما يقول، يتدفق كلٌّ من الوعي والحس الأخلاقي من عقدة أوديب، ومن إزاحتها، ونزعِ الصفة الجنسية منها. أمَّا في المازوخية الأخلاقية، على النقيض، فـ «أُعيد إضفاء الصفة الجنسية على الأخلاق، وأُعيد إحياء عقدة أوديب، ليُمهَد بذلك مسارٌ عدواني من الأخلاق إلى عقدة أوديب» (المصدر السابق، صفحة ٢٩٦). وهكذا يكون قد ضاع جزءٌ من الضمير الأخلاقي لصالح المازوخية، ويُسعى وراء الخطيئة كوسيلةٍ للحصول على العقاب. إن هذا التفسير النظري يُناسب

المادة التحليلية التي أتعامل معها جيدًا على نحوٍ مثير للدهشة: خَلَل في كبت الجنسانية الأوديبية، ثم إضفاءُ طابعٍ جنسي مُبَالَغ فيه على الأخلاق، يليه انزلاقٌ نرجسي للكل يتزامن مع مواجهة المشكلة مرةً أخرى بلا سابقِ إنذار، ثم إعادة صياغة وَهْم الطفل المضروب.

يتابع فرويد قائلًا إنه إذا كانت المازوخية الأخلاقية خطِرة، فهذا يُعزى إلى أنها تستمد حيويتها من دافع الموت: «إنها ترتبط بذلك الجزء من دافع الموت «الذي تَجنَّب أن يتجه إلى الخارج في شكلِ تدمير»، ولكن على الجانب الآخر، ونظرًا لأنها تمتلك صفة المُكوِّن الجنسي، فإنه حتى تدمير الشخص لذاته لا يمكن أن يحدث بدون إشباعٍ للشهوة الجنسية» (المصدر السابق، صفحة ٢٩٧؛ ورد التأكيد في النسخة الأصلية). مرةً أخرى نجد الفكرة السائدة هنا، والتي تقضي بأنه وقتما يتم السعي وراء المُعاناة في حد ذاتها، حتى لو أُعيد إدخال العلاقة في نظامٍ نرجسي، فإنه عندما يَتمُّ تنعكس الكراهية لموضوعٍ ما على الشخص الخاضع للتحليل، لِتُعذِّبه وتَحُطَّ من قدْره، يظل مكسب الإشباع السادي محفوظًا. يظل الجزء الشهواني المستَقطع ظاهريًّا من المازوخية الأخلاقية باقيًا في عقاب الذات، مما يجعل من الممكن المُضِي في الانتقام من الموضوعات الناشئة؛ وتُقدِّم حالة المرض نفسها كوسيطٍ للوصول للشخصيات الأعز والأقرب لقلبِ الشخص.

ومع ذلك، فإني أتساءل اليوم إذا كان هذا الإقدام ذو الطابع القرباني لا يسعى في النهاية إلى حماية الآخر؛ إذا كان لا يُقدِّم نفسه كدرعٍ لصد التحركات التدميرية والإجرامية. وبذلك سيكون الأمر بمثابةِ شكلٍ من المازوخية أو السوداوية، حيث يحفظ التكافؤ الشهواني وظيفة حماية الآخر، رغم الارتداد النرجسي للكراهية نحو الأنا، وذلك لدى الفتيات، وربما الأم الغائبة على نحوٍ مُستغرَب من وَهْم «الطفل المضروب»؛ بينما يُشكِّل لدى الصبية مُجرَّد درع.

أعني بهذا أن شكل الوهم المازوخي سيجد «فائدة» له في كلٍّ من تجنُّب الهجوم ضد الأم بفضل ارتداد الكراهية إلى الذات، وحمايتها على النحو عينه من إسقاطِ أيِّ تمثيلٍ سادي. وفي هذا الإطار، يتم إبعاد الرمز الأُمومي السلبي أو المُتطفِّل أو المستبد عن المشهد؛ فالأب هو من يشغل هذا المكان، وهذا يكون محتملًا؛ بسبب الطاقة النفسية الشهوانية المُثيرة للغريزة التي يكون هو موضوعَها.

وهكذا يمكننا أن نفهم كيفية صد التحركات الغرائزية عن الرمز الأمومي بل رفضها؛ فلن يكون ثَمَّةَ أيُّ هجومٍ عدواني أو مُدمِّر ضدها (إذ تكون الفتاة هي الضحية)، أو صادرٍ منها (فالأب هو من يضرب)؛ وكذلك لن يكون ثَمَّةَ أيُّ خطر مِثلي الجنس.

إن ما يظهر في هذه المرحلة هو صورةٌ أمومية «مُطهَّرة»، يبدو ظاهريًّا أنها مُنزَّهة عن أيِّ تمثيلٍ غرائزي. على سبيل المثال، في حالة فقدان الشهية، يمكننا تفسيرُ زهد بعض الفتيات المراهقات في الطعام كاعتمادٍ على التماهي النرجسي مع هذا الرمز للنقاء العنيد.

هذا التمثيل المكبوت (للأم) يصنع القالب الملائم لأكثر نُسخ الوَهْم تطورًا وتفصيلًا، وهو الذي يتضمن السلوك والتَّكرار القهري الواضح؛ حينها ستُعَد المَشاهد بحيث تُتيح المادة اللازمة لتشكيل الوَهْم.

إذا أفصَحَت الفتاة عن شعورها بالذنب، كنتيجةٍ لإغواء الأب، وهو الذي يُعتبر هدفًا مميزًا لاتهامات التجاوُز والعقاب الذي تتعرض له، وإذا تولَّت الفتاة المُتَّهَمة نفسها مهمة تحقيق هذا العقاب، فلا يمكن أن يكون هناك أدنى شكٍّ في أنها كذلك قد وَضعَت والدتها نُصْب عينَيها أثناء قيامها بهذه الأفعال المُدمِّرة للذات؛ ولكن الأُم في مأمنٍ على أيِّ حال؛ لأنها مُعفاةٌ من هذا الفعل السيئ، ولأن الدافع لاتهامها مكبوت. إن ما يُخفي إضفاء المثالية، وما يبقى فوق النقد ولا غُبار عليه، هو صورةٌ لأُمٍّ فوق مستوى الشبهات ومثالية؛ لأن الطابع الجنسي لا يصل إليها. وهنا مُجدَّدًا يحلُّ كبتٌ محل آخر؛ ففي النُّسخ غير المكتملة من وَهْم «الطفل المضروب»، ينشأ مشهد الإغواء داخل تكافئه المُدهِش والمخيف الخاص المُنطوي على زنا المحارم، لكن التمثيل الذي يحدُث هناك يُزيح تمثيلًا آخر لأُمٍّ متورطةٍ كذلك في شبكة الجنسانية.

وما دام وَهْم «الطفل المضروب» كان يُصرَّح به إلى المُحلِّل ويجد ملاذًا في تحويل المشاعر، فإنه يُؤكِّد سمة السرمدية للارتباطات الشهوانية على ما يبدو، مهما كانت طرق ترجمته. وحتى في أكثر أشكاله المُعاد صياغتها، فإنه يجعل بالإمكان الحفاظَ على رمزِ أُمٍّ تنجو من عنف الهجمات بفضل الموارد القائمة على الدافع وهي التي تلتمسها وتُحرِّكها أثناء تحويل المشاعر. وهذه الاحتمالية، التي يحملها تيَّار التحليل، حاضرةٌ في سيناريو وَهْم «الطفل المضروب» عن طريقِ إزاحةِ شحنة الدافع نحو الأب. وطالما كانت الكلماتُ قادرةً على احتواء هذا الوهم والتعبير عنه على نحوٍ تام، فإنه يكتسب سِماتِ الحيوية النفسية، والحدَّة الصراعية التي تحتله، والآلية المجازية التي تُغذِّي نشاط التمثيل. ويُمكِن استيعاب الانتقال إلى الفعل عند صياغته في كلمات، مثلما يقتضي التحليل النفسي، على أملِ فهمِه؛ فاللغة يمكن أن تحوي بين طيَّاتها معناه، وتمنحه بُعد الانتظار الخاص به.

هذا يعني أن فرويد كان مُحقًّا عندما صرَّح بأنه إذا كانت اللغة تُحافظ على مصطلح المازوخية بشكله الأخلاقي، حتى لو بدت علاقته بالإثارة الجنسية قد تُخلِّي عنها، فإنها

«يجب أن يكون لها معنًى ما» (١٩٢٤، صفحة ٢٩٦). وفي هذا الإطار، يعمل وَهْم «الطفل المضروب» بمثابةِ حارس: ألا يحافظ، في كل مراحله، وفي كل أشكاله، على نواةٍ مشتركة راسخة لا يمكن التعبير عنها إلا بعد تخمين أو تعبيرٍ خلَّاق مثل «أنا محبوب من ...»؟

«ترجم هذا الفصل: بيتر شايو.»

هوامش

(١) نُشِرت خلاصة هذا النص في العدد الأول من الدورية العلمية الفرنسية «ليبر كاييه بور لا سايكواناليسي» تحت عنوان «روح البقاء» في مقال بعنوان «مفاجآت المازوخية الأخلاقية» الصفحات ١٠٧–١١٨، عام ٢٠٠٠: باريس.

الفصل الرابع عشر

«النشأة النفسية لحالة مِثلية جنسية أنثوية»

سوزان بَد

نشر فرويد هذا البحث، والذي يُعتبر آخرَ سجلٍّ حالةٍ لديه، عام ١٩٢٠. وكما يتبين من العنوان، فإنه تحليلٌ مختصر لكيف أصبحت امرأة — أو بالأحرى فتاة في الثامنة عشرة — مثلية الجنس. لا يعتبر البحث سردًا لعلاج؛ إذ أكد فرويد أن العلاج لم ينجح وأنه أوقفه بعد أسابيع قليلة. اعتَبَرَت هذه الورقة البحثية جزءًا من نقاش معاصر عن طبيعة النشاط الجنسي لدى النساء، إلا أن القضايا التي أثارتها عن المثلية الجنسية الأُنثوية لم تُنَاقَش على وجه الخصوص، وتم تجاهُل البحث بعد ذلك إلى حدٍّ كبير حتى التسعينيات من القرن العشرين، حين جذب أنصار الحركة النسوية والسحاقيات وموقف التحليل النفسي تجاههن، مزيدًا من الانتباه إلى الموضوع (انظر بيرلِبرج، ٢٠٠٥، ورافاييل-ليف وبيرلِبرج، ١٩٩٧، للاطلاع على ملخص للنقاش التحليلي النفسي حول الأنثوية). لكن البحث لم يحظَ قط باستقبالٍ مؤيد على نحوٍ خاص؛ إذ كانت القضايا التي يناقشها مُعقَّدة ومثيرة للجدل، كما أنه كُتِب بأسلوبٍ تعليمي مُنمَّق يثير أسئلةً بقدْر ما يُقدم من إجابات. (من سمات هذا البحث أنه يحوي بعضًا من أكثر ملاحظات فرويد إثارة للاهتمام في الحواشي والتعليقات الجانبية.) إن ما يفتقده البحث كثيرًا الاهتمام البشري الكبير الذي لاقته سجلات حالاته الأخرى.

ما السبب في هذا؟ يُستخدَم تاريخ الحالة من أجل غرضٍ مُحدَّد وهو التأمُّل في نشأة المثلية الجنسية الأنثوية. ويتفق جميع المعلقين على أن الجنسانية لدى الإناث قد جذبت اهتمامًا أقل بكثيرٍ منها لدى الرجال، وأن السحاقية قد أثارت قلقًا أقل؛ ومن ثَمَّ جذبت انتباهًا أقل، عن اللواط. ولا يُوجد ما يضاهي الوصف التفصيلي الشامل الذي قدَّمه لويس (١٩٩٥؛ ولكن يمكنك مطالعة أوكونور ورايان، ١٩٩٣) لتغيُّر رؤى التحليل النفسي عن المثلية الجنسية لدى الرجال وتفاعُلها مع توجُّهاتٍ اجتماعية أوسع. يبدأ فرويد مقاله بالإشارة إلى أن المثلية الجنسية منتشرة بين النساء مثل الرجال، لكنها ليست ضد القانون، ولا يُشعَر بأن لها تأثيرًا هدامًا على المستوى الاجتماعي، كما أنها أقل وضوحًا بكثير، وربما نرغب في تجنب التفكير في السلوك الجنسي النشط لدى النساء، وإن كان فرويد لم يذكر ذلك. غير أنه يقدم لنا وصفًا صادقًا إلى حدٍّ ملحوظ، كما فعل مع سجلاتِ حالاتٍ أخرى، يُعبِّر عن إدراكه لغموض الموقف وتعقيده، والصعوبات التي تُواجهه في التعامل معه. كان تاريخ الحالة الخاص به مليئًا بتساؤلاتٍ ليس لها إجابة، لكن بالرغم من التحليل الذي تغلب عليه النقدية من قِبل مُعلقِين لاحقِين للبحث، ما زلنا فيما يبدو غيرَ قادرِين على الاتفاق بشأن الإجابات. تشير أدريان هاريس (١٩٩١) إلى أن «النوع الاجتماعي هو أحد أكثر المفاهيم إثارةً للجدل في الفكر الاجتماعي والحياة الاجتماعية المعاصِرَين»؛ ولذا فإن العديد من المصطلحات الرئيسة في هذا البحث — مثل الشذوذ/الانحراف، وعلم الأحياء، والنوع الاجتماعي، والمعيار الطبيعي والهوية الجنسية — أصبحت مثيرة للجدل؛ ومن ثَمَّ فإن معانيها تُهدم بشكلٍ مستمر ويجب إعادة تعريفها.

البداية

بدأ فرويد تاريخ حالته كما يلي:

> أثارت فتاةٌ جميلة وذكية في الثامنة عشرة، من عائلةٍ ذات سمعةٍ حسنة، استياء وقلق والدَيها بسبب الهُيام الشديد الذي كانت تُطارِد به «إحدى سيدات المجتمع» التي كانت تكبرها بعشر سنوات. أكد الوالدان أن تلك المرأة رغم شهرتها واسمها البارز، لم تكن إلا امرأةَ بغيًّا؛ فلم يكن سرًّا، حسب قولهما، أنها كانت تعيش مع صديقةٍ لها، وهي امرأةٌ متزوجة، وكان بينهما علاقاتٌ حميمية، وفي الوقت نفسه ارتبطت بعلاقاتٍ جنسية مع عدد من الرجال.

من له أن يحكم على هذا الموقف؟ الفتاة، أم والداها، أم الرأي العام، أم فرويد؟ تبقى تلك المرأة سرًّا. ويبقى اسم الفتاة مجهولًا، بينما تكتسب المرأة العديد من الأسماء المستعارة؛ كوننا نراها من خلال أعينٍ مختلفة. إنهما مثل شخصياتِ تشيكوف، جزءٌ منها إنساني، وجزءٌ منها رمزي؛ لذا ورغم أن العديد من المُعلِّقِين الجدد يظنون أن عدم ذكر أسمائهما يُعتبر إهانة، يبدو من المناسب لي أن نُسمِّيَهما «الفتاة» و«المرأة»؛ فمجهوليتهما تُستخدم للتأكيد على نقطةٍ معينة، على حساب الجاذبية الفورية الشديدة التي تصطبغ بها حالاتُ فرويد الأخرى.[١] نُلاحظ كذلك الالتواء وعدم المُباشَرة في عنوان فرويد: «النشأة النفسية لحالةِ مثليةٍ جنسية لدى امرأة». لم يكن فرويد أبدًا كاتبًا أخرق، فلِمَ لم يقل «سحاقية» مباشرة؟ كان فرويد يأمُل أن يدرك إلى أيِّ حدٍّ تكون المثلية الجنسية شيئًا فطريًّا أم مُكتسبًا، وإلى أي مدًى تُحدِّد أو تُحدَّد بواسطة جوانبَ أخرى من الشخصية؛ كما كان يأمل في مناقشةِ إلى أيِّ حدٍّ تُعد «المثلية الجنسية» تصنيفًا.

بعباراتٍ أشمل، ربما نرى على مدى البحث الصراع بين فرويد الذي كتب بحث «ثلاثة مقالات» (١٩٠٥ب) الذي يُؤكِّد أننا «جميعًا» ثنائيو الجنس، وأننا «جميعًا» يجب أن نبلغ الحياة الجنسية الخاصة بمرحلةِ الرشد من خلال سلسلة من التماهيات والاستدماجات، وبيَّن فرويد في فترةٍ لاحقة الذي كان أكثر ميلًا إلى الكتابة عن سيكولوجية النساء كما لو كان جنسنا البيولوجي يستتبع قدرًا تطوريًّا منفصلًا. بعض المُعلقِين لا يمكنهم فهم لماذا أكَّد فرويد بشدةٍ هكذا على الشكل الجسدي «للفتاة» في بداية البحث، لكنه أمرٌ بالغ الأهمية لحُجته التي طرحها في هذا الشأن، وأعود لهذا الآن.

(١) تكوين الاختيار الجنسي

بدأ فرويد بالإشارة إلى أن والدَي الفتاة، وليست هي، هما من أرادا أن تخضع للعلاج؛ فقد كانا ينظران إلى العلاقة «باستياء وقلق»؛ إذ كانت تُهمِل دراستها، وكانت تخدعهما بشأن لقائها «بالمرأة»، ولم تكن عابئةً بسمعتها (وسمعتهما) بالسماح لنفسها بأن تُرَى على الملأ مع مثل هذه المرأة المُتهتِّكة السيئة السمعة. ووَصلَت الأمور إلى حدٍّ لا يمكن السكوت عليه عندما قابلهما والدها معًا وراح يحملق بهما بينما قَفزَت الفتاة من فوقِ سورٍ لتسقط على قضبانِ سكةٍ حديدية مُقطَّعة ويُصاب ظهرها. كانت هذه الحركة الانتحارية دافعًا للأبوَين للشعور بمزيدٍ من القلق بشأن سلامتها واصطحابها إلى فرويد. وجاءت موافقتها

على الخضوع للتحليل النفسي فقط لأن قلق والدَيها جعلها تفعل ما يريدان؛ إذ لم تكن راغبة في إنهاء العلاقة.

كان والدها، وكان رجلًا صارمًا، فزعًا على نحوٍ غير عقلاني بسبب ارتباط ابنته بهذه المرأة؛ إذ كان «يعتبرها شخصيةً فاسدة، أو منحلةً، أو مريضة عقليًّا». أمَّا موقف والدتها فكان أكثر التباسًا؛ فقد كان اعتراضها الأساسي منصبًّا على إعلان ابنتها شغفها وافتتانها بالمرأة على رءوس الأشهاد هكذا. لقد كانت، في الواقع، تنظر لارتباط ابنتها الشاذ بالمرأة أمرًا مناسبًا؛ إذ كانت هي نفسها تتمنى أن ينظر الآخرون لها على أنها ما زالت شابة وجذابة، واستغلت «مشكلاتها العُصابية» لانتزاع «قدْرٍ كبير من الاهتمام من زوجها». ونتيجة لهذا، كانت تعامل أولادها الثلاثة بتساهل وكانت «قاسية بوضوح» تجاه ابنتها. لا يزال الوالدان عالقَين في مرحلة عقدة أوديب؛ فالأم تُغوي زوجها وأبناءها، وتنظر إلى ابنتها كمنافسٍ جنسي، بينما الأب الغاضب والمُحبَط بسبب رفض ابنته لجنسه، يحاول أولًا أن يأمرها بالطاعة، ثم يُقرِّر معاقبتها بتزويجها. وما إن رأت الفتاة كمَّ استياء والدها من انجذابها إلى النساء، حتى أَدركَت الفتاة كيف يمكنها إيلامه. كانت تستمع بخداعه، لكنه كان يجب أن يعلم بعلاقتها بتلك المرأة لتنتقم منه. وكان هذا هو السبب وراء استهتارها بالأمر وغضب والدها المبالغ فيه؛ إذ شعر بأنه يُستخَفُّ به عن عمد.

يستفيض فرويد بعد ذلك في سرد الأسباب وراء الفشل الحتمي الذي لحِق بالعلاج الذي كان يأمُل به الوالدان. لا يمكن أن ينجح التحليل النفسي إلا عندما يريد المريض المساعدة، أمَّا إذا أراد شخصٌ آخر تغييره كي يفعل ما يُؤمر به، فربما تكون النتائج مزعجة. لم تكن «الفتاة» مريضة أو عُصابية، كما أنها لم تكن تريد أن تصبح محبةً للجنس الآخر. لا يمكن عكس المثلية الجنسية؛ ربما يمكننا من حين لآخر أن نجعل مِثليَّ الجنس أن يصبح ثنائي الجنس. «لا بد أن نتذكر أن الجنسانية الطبيعة تعتمد كذلك على حصرٍ وتقييد في اختيار الموضوع.» وقد أشار فرويد إلى أن مثليِّي الجنس الذين لجئوا إلى العلاج كانوا يُضطَرُّون إلى التخلي عن مصدر للمتعة، سواء بسبب أخطاره وأضراره الاجتماعية، أو لأنهم لم يرغبوا في التسبُّب بألم لآبائهم وأصدقائهم. وقد أخبر فرويد والدَي الفتاة أنه مستعد فقط لدراسةِ حالة ابنتهما لبضعةِ أسابيع لِيُقرِّر ما إذا كانت مثليتها الجنسية قابلةً للعلاج أم لا.

بعد ذلك، تَتبَّع فرويد العملية التي كان يعتقد أنها ما أدت إلى مثلية الفتاة. لقد تجَاوزَت عقدة أوديب على نحوٍ طبيعي دون أي ذكريات لصدماتٍ جنسية أو استمناء في

الطفولة. وفي سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، شُغِفَت عشقًا لفترةٍ قصيرة بصبيٍّ صغير في حوالي الثالثة من عمره، ولكنها تحوَّلَت إلى اهتمامٍ شبقي بنساءٍ يكبرنها من صديقات العائلة. حدث هذا التغيُّر عندما كانت في السادسة عشرة وقت ميلاد شقيقها الثالث. كانت النسوة اللاتي انجَذبَت إليهن كلهن أمهات، ووجَّهَت مشاعر انجذابها إلى والدتها نحوهن.[٢] كانت «المرأة» التي تحول انتباهها إليها بديلًا ليس فقط لوالدتها بل لشقيقها الأكبر الذي كان يُشبِه تلك «المرأة»؛ لقد نقلت الفتاة كلًّا من دوافعها المثلية والمغايرة إليها.

لماذا قاد حمل الأم المتأخر ابنتها إلى الانصراف عن قدراتها الأمومية التي كانت قد بدأت في التفتح للتحوُّل نحو حب لأمٍّ بديلة؟ العديد من الفتيات في ظروفٍ مشابهة كنَّ سيشعرن «بمزيج من الحب والاحتقار والحسد» تجاه أمهاتهن، كما أن والدة الفتاة كانت قاسية معها؛ إذ كانت مهتمة على نحوٍ خاص بمنع أيِّ حميميةٍ بين الأب والابنة. ومع إحياء شهوتها الجنسية عند البلوغ، كانت الفتاة تتوق لامتلاك طفلٍ ذكر وهو الذي في خيالها سيكون ابنها من والدها. لكن والدتها هي من حَملَت الطفل؛ و«بسبب نقمتها وغيظها الشديدَين، انصَرفَت عن والدها وعن جنس الرجال جميعًا.» بعدها يلفت فرويد انتباهنا إلى الطريقة التي تتذبذب بها الشهوة الجنسية. إن الإحباط في حبِّ جنسٍ ما يمكن أن يجعلنا نتوجه إلى الجنس الآخر؛ فنجد «الشخص الأعزب يستغني عن أصدقائه الرجال عندما يتزوج، ثم يعود إلى حياة الأصدقاء عندما تفقد حياته الزوجية مذاقها الخاص.» لماذا إذن كان تحول الفتاة جوهريًّا ونهائيًّا إلى هذا الحد؟ في حاشيةٍ طويلة، يناقش فرويد «الانسحاب لصالحِ شخصٍ آخر»؛ حيث قد يشعر شخص بأنه مُجبَر على هجرِ نوعٍ من الارتباط الجنسي، أو منطقةِ نشاطٍ شهواني، حين يتراءى له أن الأب أو الأخ يمتلكها؛ الأمر الذي ربما ننظر إليه الآن كنوعٍ من التماهي الإسقاطي.

بعد ذلك يوضح فرويد كيف تحول تفكيره من الغريزة إلى نموذجِ علاقاتِ الموضوع منذ صدور بحث «ثلاثة مقالات عن النظرية الجنسية». لقد «تحوَّلَت الفتاة إلى رجل، واستَبدلَت بوالدتها والدها كموضوع لحبها»؛ لقد تماهت مع حبها المبكر، المتمثل في والدها، والآن تحب النساء، كما يفعل هو، لكن بصورةٍ نرجسية. لقد سهَّل حبها المُبكِّر المستمر لوالدتها، وفرط التعويض عن عدوانيتها الحالية تجاهها، ومحاولتها كسبَ حُب والدتها مرةً أخرى بالانسحاب من المنافسة معها على الحصول على انتباه الرجال؛ كل هذا سهَّل انتقالها إلى المثلية الجنسية. يُبيِّن فرويد الترابطات البينية المعقدة بين العلاقة الحالية الحقيقية بين الفتاة ووالدَيها، والطريقة التي أعادت بها هذه العلاقة تفعيل

قدراتها المبكرة. يُسمَّى هذا في الألمانية nachträglichkeit أو الإدراك اللاحق، والذي تُرجِم إلى الإنجليزية على نحوٍ غير وافٍ إلى «الفعل المُؤجَّل» Deferred Action. يمكن لحدثٍ حديث تعزيز تغيُّرات تطرأ بسبب أمرٍ حدث منذ وقتٍ طويل مضى، والذي ربما كان سيبقى خامدًا لولا ذلك الحدث. وهذا النوع من العمليات يعني أن علينا التخلي عن أيِّ فكرةٍ ولو بسيطة عن الحتمية النفسية. وكما في التاريخ، ربما تكون كل الأشياء الممكنة قد وَقعَت، لكن الحظ والعمليات الضمنية غير المُتوقَّعة تؤدي دورها في قلب الموازين.

يشير فرويد في نهاية البحث، في فقرةٍ تنم عن نفاذِ بصيرةٍ استثنائي (فرويد، ١٩٢٠، الصفحات ١٦٧–١٦٨)، إلى أننا إذا حاولنا تفسير النتيجة بالبحث عن الأسباب، فإن كل شيء يبدو مترابطًا وواضحًا؛ أما إذا حاولنا التنبُّؤ بتقدُّمِ حياةٍ بشريةٍ ما، «نلاحظ على الفور أنه ربما كانت هناك نتيجةٌ أخرى، وأننا ربما كان يمكننا كذلك فهم وتفسير هذه النتيجة الأخيرة.» وهذا يرجع إلى أننا يمكننا إدراك الأسباب أثناء وقوعها، لكننا لا نعرف قواها النسبية في حالةٍ بعينها. ربما كانت أي فتاةٍ أخرى لتستجيب للصدمات نفسها على نحوٍ مختلف تمامًا؛ فالحياة يجب أن تُعاش على نحوٍ استباقي، وتُفهَم على نحوٍ رجعي.

(٢) أَوجُه الحب

يتخلى فرويد بعد ذلك عن سرده الخطي للحالة لاستعراض بعض العوامل اللاواعية بعمق أكبر. نظر فرويد إلى شغف الفتاة الشديد والعُذري «بالمرأة»، التي لم يبدُ أنها تسعى للحصول على الإشباع الجنسي منها، كصفةٍ ذكورية. ويُحيلنا إلى بحثه الصادر عام ١٩١٠ بعنوان «نوع معين من اختيار الموضوع يقوم به الرجال». بعض الرجال يبدون مُعرَّضِين للدخول في شكلٍ مُكرَّر وميئوس منه من الحب، يبدو فيه المحبوب مضطرًّا دائمًا للارتباط بشخص آخر، وأن يعرف عنه أنه غيرُ مخلصٍ وغير جدير بالثقة. إنهم مخلصون بدرجةٍ تفوق الوصف لعشيقاتهم الخائنات ومقتنعون بأن بوسعهم إنقاذهن من أنفسهن. ويذهب فرويد إلى أن حبهم ينتمي في الحقيقة إلى أمهاتهم اللاتي يجب أبدًا ألَّا يمتلكوهن؛ تخفي قناعةُ أن الأم يجب أن تكون عفيفةً ما يشعر به الصبي من رعبٍ وشوق عندما يدرك أنها ليست كذلك، وإلا فكيف أتى هو وأشقاؤه إلى الوجود؟ يعتبر وَهْم الإنقاذ هو الصورة المعكوسة لدى الطفل لاعتماده على أبوَيه. وعلى النحو نفسه تمامًا، وقعت «الفتاة» في حب مجموعة من النسوة الخليعات اللاتي لم يكنَّ مثلياتٍ جنسيًّا؛

بل إنها رَفضَت محاولاتِ صديقةٍ لها مثليةِ الجنس للتقرُّب منها. لقد كانت مُتوهمةً أن بإمكانها إنقاذ تلك «المرأة» من حياة الانحلال، لكن ما كانت تتمناه هو امتلاك والدتها.

ساهمت محاولة الفتاة الانتحار في تحسين وضعها مع كلٍّ من والدَيها والمرأة. لكن كانت ثَمَّةَ دوافعُ لا واعية أخرى وراء تصرُّفها هذا. لقد «وَقعَت» وهو ما يعني أنها حَملَت في طفل (فاس، ١٩٩٥). كانت تأمُل في طفل من أبيها، ولكن تحريم حبيبها عليها أدى بها إلى تمثُّل رغبتها رمزيًّا. لقد كانت تعاقب نفسها وفي الأثناء كانت تعاقب والدَيها أيضًا.

أشار فرويد إلى أن علاقة الفتاة بوالدها كان لها أهميةٌ بالغة؛ فتحديها ورغبتها في الانتقام جعلاها تتمسك بمثليتها الجنسية. ويمضي مباشرة في الحديث عن غضبه من انصياعها الفكري السطحي لمُحلِّلها/أبيها ومقاومتها له في الوقت نفسه.

> بمجرد أن فسرت لها جزءًا مهمًّا على نحوٍ خاص من النظرية، وكان يمسها إلى حد كبير، ردت بنبرةٍ فريدة لا يمكن محاكاتها: «كم هذا مثير للاهتمام!» كما لو كانت «سيدةً كبيرة» ذات شأن في زيارة إلى المتحف تنظر إلى المعروضات من خلال منظار اليد دون اهتمام يُذكر بها. (فرويد، ١٩٢٠، صفحة ١٦٣)[٣]

وصف فرويد كيف أن مرضى الوساوس أمثالها يمكنهم عزل أنفسهم ضد التحليل النفسي:

> يقول المريض لنفسه، وغالبًا ما يكون هذا عن وعي لحدٍّ بعيد: «كل شيء سيكون على أفضل ما يُرام. إذا كان مضطرًّا لتصديق ما يقوله هذا الرجل، لكن لا مجال لحدوث هذا، وطالما الحال هكذا، فلست بحاجة لأي تغيير.» لقد نَقلَت لي رفضها القاطع للرجال وهو الإحساس الذي سيطر عليها منذ ما عانته من إحباط بسبب والدها. إن الحنق ضد الرجال ... أمرٌ يسهل إشباعه بتوجيهه نحو الطبيب ... فهو يُعبِّر عن نفسه ببساطة بجعل كل مساعيه بلا طائل ومن خلال التشبُّث بالمرض؛ لذا أوقف العلاج، ونصح والدَيها أنهما إذا كانا مؤمنَين بالحل العلاجي ويُقدِّرانه، فيجب أن يستمر مع طبيبة.

في غضون ذلك، تعهَّدَت الفتاة بأنها ستتوقف عن مقابلة «المرأة»، وهنا يُنهي فرويد قصتهما.

يختلف المعلقون اللاحقون حول دوافعِ وحُجج فرويد لإيقاف التحليل؛ فيشير بعضهم إلى عقليته المتفتحة؛ إذ كان يرى ضرورة احترامِ مَيل الفتاة ورغباتها، وأنه لا يمكن ولا

يجب استخدام التحليل النفسي لتقويمها وإجبارها على الطاعة. ويرى آخرون أنه قد تماهى مع الأب، غير مدركٍ لهذا التحويل المضاد للمشاعر، وأن الفتاة جَرحَت مشاعر الأب وكان يجب عليه استكمال العلاج. ويذهبون إلى أن الفتاة ربما كانت في نهاية الأمر مشتهية للجنس الآخر؛ فهي كانت لا تزال مراهقة، ولم يبدُ أنها تسعى وراء الإشباع الجنسي مع المرأة، وفي مرحلةٍ مبكرة من العلاج سَردَت مجموعةً من الأحلام أظهرت آمالها في أن تُشفى لكي تتزوج وتنجب أطفالًا. واعتبر فرويد هذه الآمال زائفة؛ كونها كانت تتحدث خلال جلساتها عن احتقارها لزوجها المستقبلي، ونيتها في استغلاله كغطاءٍ يُمكِّنها من ممارسة علاقاتها الشاذة، واتَّهمَها بالكذب عليه كما كَذبَت على أبيها؛ لأنها كانت تَودُّ إرضاءه وخداعَه في الوقت نفسه، وتؤكد السيرة الذاتية الحديثة له أنه كان مُحقًّا في هذا. بعد ذلك يعود ليُناقِض نفسه، عندما يُشير إلى تناقُضِ وغموضِ الحياة البشرية الجنسية، ويُشبِّه ذلك برجالٍ ينخرطون في علاقاتٍ عابرة، ثم يُدرِكون لاحقًا حبهم الدائم والجارف لمن نبذوهم بلا أي مبالاة، ويُشبِّهه كذلك بالعواقب غير المُتوقَّعة لبعض عمليات الإجهاض التي يبدو من السهولة اللجوء إليها.

يُذكِّرنا فرويد بأن الأمر يستغرق من الجميع وقتًا لِيُصبحوا مثليِّين أو مُشتهِين للجنس الآخر بالدرجة الأُولى. «تشيع الانجذابات المثلية الجارفة، وهي صداقاتٌ قوية بشكلٍ مُبالغ تكتنفها مَسْحةٌ من الشهوانية، بما يكفي لدى الجنسَين خلال السنوات الأولى التالية لسن البلوغ.» وكانت ارتباطات الفتاة الشديدة لوقتٍ طويل مُوجَّهةً نحو النساء، ربما كنوعٍ من التثبيت الطفولي المُستمِر على والدتها. وأَظهَر التحليل العملية التي انحَرفَت بها الرغبة الجنسية المُغايِرة الأَكثرُ عُمقًا أيضًا لتتخذ مسارًا مثليًّا. لقد كانت الفتاة دومًا مُسترجِلة، و«كانت مستعدةً دائمًا للشجار والصخَب». أَدَّت رؤيتها لأعضاء شقيقها التناسُلية إلى حسدٍ ملحوظٍ للقضيب: «لقد كانت في الواقع مُناصرةً للمساواة، وكانت تشعر بأنه ليس من العدل ألا تَتمتَّع الفتيات بالحُرية التي يحظى بها الفتيان، وتمرَّدَت على جنس النساء بشكلٍ عام.» وبدَت مذعورةً على نحوٍ خاص من فكرة الحمل والولادة وما يَتبعُهما من «تشويه لشكل الجسد».

هل كانت هذه الاستجابات ترجع إلى تكوين الفتاة الفطري، أم إلى أحداثٍ وقعت في مرحلةٍ مُبكِّرة من حياتها؟ إن السببَين متداخلان لدرجةٍ يصعُب معها علينا فَصلُ ما هو موروث وما هو مُكتسب. كان فرويد يرى أنه لا يُوجد تمييزٌ سهل بين المثليِّين ومُتغايِري الجنس؛ فعلينا التمييز بين اختيارِ كُل شخصٍ للموضوع، وسِماته الجنسية وتَوجُّهاته

الجنسية (وسنُطلِق على ذلك الأخير من الآن الهُوية الجنسية). يختلف الثلاثة بشكلٍ مُستقِل؛ يمكن أن يُوجد رجلٌ ذكوري يعيش حياةً جنسية ذكورية لكنه يحب الرجال فقط؛ ورجلٌ مُخنَّث يحب كالنساء لكنه منجذب للجنس الآخر تمامًا. الأمر نفسه ينطبق على النساء؛ إذ تختلف السمات الجسدية الجنسية، والذكورة أو الأنوثة، ونوع اختيار الموضوع على نحوٍ مستقل. كل البشر الطبيعيين، بجانب اشتهائهم الظاهري للجنس الآخر، يَحمِلون قدْرًا جديرًا بالاعتبار من المِثلية الجنسية الكامنة أو اللاواعية؛ فالتنوع الجنسي البشري أَمرٌ تحكمه عواملُ عديدة، ولا يُوجد «جنسٌ ثالث» مِثليٌّ مستقل.

بعد ذلك، يسرد فرويد مجموعةً من المحاذير. لا يمكن للتحليل النفسي تفسير المثلية الجنسية، بل يُمكِنه فقط تتبُّع العمليات النفسية التي أدَّت لهذا الميل الغريزي نحو اختيارٍ مُعيَّن. يمكن لعلم الأحياء التأثير على النفس لكن ليس العكس؛ يمكن كذلك لعمليات تغيير الجنس أن تُغيِّر النفس، لكن النساء المُخنَّثات لم يكن من المُرجَّح أن يقبلن هذه العمليات؛ إذ لن يُضطَرَرن للتخلِّي عن المتعة الجنسية فحسب، بل ستجعلهن عقيمات.[٤] لا يمكن للتحليل النفسي البحث فيما هو «ذكوري» و«أنثوي»؛ فهذان المصطلحان يُصبِحان مجرد مرادفَين لِمصطلحَي «نشط» و«سلبي». وهكذا تُصبِح حُجته أكثر تفككًا على نحوٍ متزايد، وعند هذه النقطة يُنهيها وكذلك يُنهي البحث.

(٣) فكر فرويد قبل وبعد بحث النشوء النفسي

قبل أن أَصِف أَثَر ذلك البحث، سأتناول سلفه الأساسي؛ وهو بحث «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية» (١٩٠٥ب، لكنها رُوجِعَت حتى بعد تاريخ نشر بحث النشوء النفسي)، وأعقد بعض المقارنات بينه وبين علاج فرويد لدورا (١٩٠٥أ).

في بحث «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية»، فرَّق فرويد بين الانحراف والشذوذ. الشذوذ (أي اختيار الموضوع من نفس الجنس) يختلف عن اشتهاء الجنس المُغايِر فقط في اختلاف موضوع الغرائز الجنسية. أمَّا الانحراف، فهو حالةٌ يحدث فيها كبحٌ للغريزة الجنسية ولا يكون مُوجَّهًا نحو شخصٍ بالغ، بل نحو جزءٍ مُكوِّن للنشاط الجنسي، كما في الفتيشية، أو استِراق النظر، أو لعق العضو الذكري، إلخ؛ حيث يُصبِح ثابتًا، مستغنيًا عن الكل بجزء. والطفل، وفقًا لعبارة فرويد الشهيرة، «مُنحرِف بأشكالٍ عديدة»، لكن مع نضج الجنسية التناسُلية، تُصبِح المناطق المُثيرة للشهوة والغرائز الجنسية التي تنتمي لمراحلَ سابقةٍ من التطوُّر، خاضعةً لها. وأشار إلى أن المثلية الجنسية، على غِرارِ اشتهاء

الجنس المغاير، ربما تكون مُطلَقة وثابتة؛ أو ربما يكون الشخص ثُنائيَّ الجنس، أو ربما تكون المِثلية الجنسية طارئة؛ أي تُعزى فقط إلى غياب الجنس الآخر. على النحو نفسه، قد يرجع الشذوذ إلى فترة الطفولة أو ما بعدها، وربما يتغير خلال الحياة — إذ تشيع المثلية الجنسية في مرحلة المُراهَقة — أو يظهر في مرحلةٍ لاحقة من الحياة. يمكن لمعظم الانحرافات التعايُش مع اشتهاء الجنس المغاير والمثلية في الوقت نفسه، وربما تحُل مَحلَّهما بشكلٍ تام.

أُغفِلَت أهمية هذه الملاحظات خلال الجزأين الأوسط والأخير من القرن العشرين؛ إذ كان العديد من المُحلِّلين النفسيِّين يميلون للنظر إلى المثلية الجنسية كحالةٍ مَرَضية ومتفردة؛ حالة «مثلي الجنس». كان فرويد يُواجِه موقفًا متعنتًا سابقًا في أواخر القرن التاسع عشر ارتبط بتقدُّم الطب النفسي وأنظمة تصنيف الأمراض العقلية. قبل هذا، كان يُنظَر إلى الخيار الجنسي والهُوية الجنسية كأمرَين غير مُحدَّدَين وليس لهما أهمية نسبيًّا، لكن مع تزايد أهمية الجنسانية البشرية، أصبح مصطلح «مِثلي الجنس» ملموسًا، واعتُبر بمثابة تعريفٍ للشخص، وليس تعريفًا لعلاقة. (استُخدم مصطلح «مثلي الجنس» لأول مرة عام ١٨٦٩ (لويس، ١٩٩٥).) أصبَحتِ المثلية الجنسية، على نحوٍ خاص، جزءًا من قلقٍ ثقافي أوسع بشأن «الانحلال» وإضعاف الجنس البشري (بيك، ١٩٨٩). كان فرويد يُعارِض تمامًا النظر إلى المثلية الجنسية كانحلال؛ إذ قال إن العُرف الطبي السائد هو «اعتبار أي عَرَض لا يُعزى بوضوحٍ إلى صدمةٍ أو عدوى علامةً على الانحلال.»

كان فرويد هنا يُواجِه السؤال الصعب، وهو إلى أيِّ مدًى توجد الجنسانية خارج نطاق الثقافة، وإلى أيِّ حدٍّ تُعتبر بِنى تصوُّراتنا لها على أساسٍ اجتماعي. كان فرويد داروينيًّا؛ ولذا كان عليه الإجابة على السؤال الخاص بأسبابِ وجود المثلية الجنسية في الأساس، ما لم تكن شذوذًا. وكانت إحدى إجاباته (١٩٢٢) أنها قلَّلَت التنافُس بين الرجال؛ ومن ثَمَّ جعلت بالإمكان تواجُد المجتمعات؛ إذ يرى أن «الشعور الاجتماعي هو ارتقاءٌ بالتوجُّهات المثلية نحو الموضوعات.»

ولكن حتى في بحث «ثلاثة مقالات عن نظرية الجنسانية» يبدو واضحًا أن المثليات يُنظَر إليهن باهتمامٍ أقلَّ من نُظرائهن من الرجال؛ فقد كان العديد من الباحثِين في هذا المجال، في وقتٍ كانت فيه الثقافة الكلاسيكية تلقى إعجابًا على نطاقٍ واسع، يعتقدون أن الثقافة الإغريقية كانت تُجيز فضائل الحب بين الرجال وليس بين النساء، بل تُثني عليها. وطالما كان فرويد يُسلِّم، وكتب عن هذا لاحقًا، بأن العديد من الفنانِين المُبدِعين البارزِين

من «الذكور» كانوا مِثليِّي الجنس، وأكَّد أن المثلية الجنسية الذكورية كانت شائعةً ومقبولةً في العصور الكلاسيكية القديمة. لكن ما يسري على الرجال ليس بالضرورة أن يسري على النساء؛ ففي الوقت الذي لا يُظهر فيه كل الرجال المثليِّين «صفاتٍ أنثوية» بالضرورة، فإن النساء السحاقيَّات «يُظهرن صفات ذكورية، جسديًّا وعقليًّا، بتكرارٍ غريب ومُثير، ويبحثن عن الملامح الأُنثوية في موضوعاتهن الجنسية» (فرويد، ١٩٠٥ب، صفحة ١٤٥)؛ ولهذا السبب كان لتوصيفاتِ فرويد لمظهر الفتاة الخارجي أهميةٌ بالغة لِحُجته في بحث النشوء الجنسي؛ وهو ذو عقليةٍ عادلة ومنصفة بما يكفي لكيلا يفترض أن ذكاءها النشِط جعلها ذكورية.

إن أَوجُه الشبه بين حالة دورا (١٩٠٥أ) والحالة الواردة في بحث النشوء النفسي (١٩٢٠) ملحوظة؛ فكلتا الفتاتَين حاولت الانتحار، وهو ما أجبر والدَيهما المُتسلِّطَين على الإصرار على أن تخضعا للعلاج، وحاولا إجبارهما على الدخول في علاقاتٍ مع الجنس الآخر. كما تعرَّضَت كلتاهما للإهمال من قِبل الأُم، وكلتاهما كانت حانقةً على تفضيلِ أمها للأشقاء الذكور الذين يُعتبر دورهم في القصتَين أساسيًّا على الأرجح، لكنه لم يُبحَث. في كلتا الحالتَين، يُركِّز فرويد على العلاقة مع الأب وليس الأم، على الرغم من أنه في حالة الفتاة، يكون هذا بسبب أنها لم تستطع قولَ الكثير عن علاقتها بوالدتها. في كلتا الحالتَين، فشل العلاج وتوقَّف. شعر فرويد أنه قلَّل من أهميةِ وَلَع دورا المثلي بالسيدة «كيه»؛ وربما هذه المرة ذهب بعيدًا في الاتجاه الآخر. كان من الواضح أنه وجد أنصار الحركة النسوية مُثيرِين للضيق، لكنه استطاع أن يرى أن الأعراف قد قيَّدَت حياة النساء وولَّدَت هستيريا. واعتبر العديد من المُعلِّقِين النسويِّين الجدد أن فرويد كان يكره «الفتاة»؛[٥] بينما أَعتقِد أنه كان يُكِن إعجابًا واحترامًا ولو لبعض جوانبِ شخصيتها، وذكائها النشِط، ومباشرتها، وافتقادها للهستيريا.

وجد فرويد أن النساء عمومًا أقلُّ صراحة في الحديث عن حياتهن الجنسية؛ ففي علاجه لكلٍّ من دورا والفتاة، كان أكثر ما يُثير ضيقه هو المقاومة والتكتُّم، إضافةً إلى ما استشعره لدَيهما من عجرفةٍ وتكبُّر؛ فقد كانت «الفتاة» تَتصرَّف كسيدةِ مجتمع، بينما كانت تُعامِله دورا «كخادم». وكانت حساسيته واضحةً في سِجلِّ كلتا الحالتَين نظرًا لمكانة التحليل النفسي الضعيفة، وافتقاره إلى المال، والأبوَين اللذَين كانا يتصلان به فقط في حالةِ يأسِهما (فاس، ١٩٩٥). من المفهوم أنه كان يجب أن يشعُر بالغضب تجاههما، لكن ربما قاده تحويله المُضادُّ للمشاعر في البداية إلى غضبٍ محبط خلال العلاج مع دورا، أعقبه

رفضٌ لعلاجها عندما حاولتِ العودة إلى العلاج، كما قاده إلى رفضٍ عاجل «للفتاة» وربما إرسالها إلى مُحلِّلة (في ذلك الوقت كان فرويد يُحلِّل ابنته آنا نفسيًّا، لكنه قرر تسليمها إلى «الرقيقة المتألقة»، لو أندرياس-سالومي؛ أورجيل، ١٩٩٦). واعترف لاحقًا بأنه كان لا يشعر بالارتياح تجاه التحويل الأُمومي للمشاعر، وربما قاده هذا إلى الاعتقاد أنه لا يُمكن إلا لامرأةٍ أن تُحلِّل «الفتاة».

(٤) علم الأحياء والمصير

كان أكثر جوانب نظريات فرويد أهميةً لغالبية أنصار النسوية النشطِين، في العشرينيات والثلاثينيات ومرةً أخرى في سبعينيات القرن العشرين، هو حسد القضيب. غير أنه لم يُذكَر في بحث النشوء النفسي إلا مرةً واحدة؛ فالجنس التشريحي أقل أهميةً بكثيرٍ من التماهيات المختلفة للفتاة الصغيرة. تشير ماري جاكوبس (١٩٩٥) إلى الالتباس والسهو في البحث بين التماهي واختيار الموضوع؛ فنجد فرويد يتحدث أحيانًا كما لو كان التماهي مع والدها هو ما دفع الفتاة إلى الشعور بحبٍّ ذكوري تجاه النساء؛ في أوقاتٍ أخرى، يُقدَّم ارتباطها المُبكِّر بوالدتها بوصفه الاختيار الطبيعي للموضوع لكلا الجنسَين وهو ما لم تتجاوزه الفتاة بعدُ.

غير أنه منذ نشر بحث «النرجسية» عام ١٩١٤، كان فرويد يؤمن بأن القدرة على الوقوع في الحب تعتمد إمَّا على الانجذابِ لما هو مختلفٌ بناءً على تماهينا مع الوالد الذي ينتمي للجنس نفسه، أو على رغبةٍ في حبِّ شخصٍ ما مثلنا يمكننا أن نُحبَّه كما كانت أمهاتنا تحبنا في وقتٍ سابق من حياتنا. بدأ هذا البحث، وهو الذي ربط بين الحب المثلي والنرجسية، سلسلةً من الأفكار تُشير إلى أن حُب موضوعٍ من الجنس نفسه هو حبٌّ نرجسي بطبيعته. لكن ربما نُشكِّك في مدى اعتبار الجنس الحقيقي لموضوعاتنا المُبكِّرة جزءًا جوهريًّا في علاقتنا بهم؛ فالطفل في المرحلة ما قبل الأوديبية ربما ينظر إلى الوالد كمزيجٍ من كلا الجنسَين، وربما نجد جوانبَ تخُص الوالد من الجنس نفسه في انجذابنا لشخصٍ من الجنس الآخر، والعكس صحيح. لن يُشكِّك أيُّ مُحلِّل في أن حب الجنس المُغاير يمكن أن يكون نرجسيًّا؛ ومن ثَمَّ أصبح السؤال الخاص بما إذا كان يجب أن يكون للطفل أبوان من كلا الجنسَين، لكي يُنمِّي لديه إحساسًا مُشبعًا بالهُوية الجنسية، واختيارًا لموضوعٍ من جنسٍ مغاير، مَوضِعَ نقاشٍ ساخن.

(٥) ما مدى أهمية النوع؟

ناقش فرويد مسألة التشريح والنوع الاجتماعي مرةً أخرى في ١٩٢٥، وكان يرى آنذاك، على عكس السابق، أن التطوُّر النفسي للفتيات أقلُّ تشابُهًا مع التطوُّر النفسي لدى الفتيان، كصورةٍ غيرِ متطابقة في المرآة؛ إذ كان قد بدأ في التركيز على العلاقة المُبكِّرة بالأم؛ فالأم بالنسبة إلى الفتيات هي الموضوع الأول لهن، شأنُهن في ذلك شأن الفتيان: كيف لهن إذن أن يُنجزن المهمة الأكثر تعقيدًا الخاصة بفصل أنفسهن عنها والتوجُّه نحو الرجال؟

لكن بحلول عشرينيات القرن العشرين، بدأ مُحلِّلون نفسيون آخرون إمَّا في مناقشة أو توسيعِ نطاقِ آراء فرويد فيما يخص طبيعة الجنسانية الأُنثوية. ربما كان هذا الجدال هو الجدال الأكبر في حياة فرويد؛ حيث كان قادرًا على الاعتراف بأن حُجج زملائه قد أدت إلى تغييره لرأيه (جريج وآخرون، ١٩٩٩). فقد قلَّل فرويد من إصراره على الأهمية الفريدة لعقدة أوديب؛ ومن ثَمَّ أهمية الإخصاء وحسد القضيب، واتجه نحو العلاقة المُبكِّرة للغاية بين الفتاة الصغيرة ووالدتها. سأستعرض بعضَ جوانبِ فكر فرويد مع تطوُّره في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين في بحث «الجنسانية الأنثوية» (١٩٣١)، والفصل الذي يتناول «الأنثوية» في «محاضرات تمهيدية جديدة» عام ١٩٣٣.

في بحث «الجنسانية الأنثوية»، يُوضِّح فرويد أن التطوُّر الجنسي لدى الفتيات الصغيرات مختلف؛ إذ يكون عليهن فصلُ أنفسهن عن موضوعاتهن الأوَّلية، المتمثل في أمهاتهن، واستبدال آبائهن بهن، وفي الوقت نفسه، نقل منطقتهن التناسُلية المهيمنة من البظر إلى المهبل. كيف ترتبط هذه التغيرات ببعضها؟ صار فرويد يُدرِك أن ارتباط الفتاة القوي بوالدها دائمًا ما كان يسبقه ارتباط بالقوة نفسها بالأُم، وأننا «لم نُقلِّل من قوة هذا الارتباط بالأم فحسب، بل قلَّلنا من الفترة التي استغرقها»:

> في ظل هذه الاحتمالية، تكتسب المرحلة ما قبل الأوديبية لدى النساء أهميةً لم نعزُها إليها حتى الآن.

يُعبِّر فرويد عن مدى الصعوبة التي واجهَته لفهمِ ارتباطِ الفتاة الأوَّلي بوالدتها — إذ وصفه بأنه «مُبهَم وفي قمة الغموض بفعل السن» — نظرًا لأن النساء اللاتي خضعن للتحليل لديه كنَّ قد دفنَّ ارتباطهن المبكِّر بأُمهاتهنَّ تحت غطاءِ تحويل المشاعر تجاهه كرمزٍ أبوي. غير أنه قد شعر أنه قد أدرك تحليليًّا كيف أن «اعتماد الفتاة المُبكِّر على الأم

يضم بداخله البذرة التي قد تُؤدِّي إلى تطوُّر جنون الارتياب لدى أيِّ امرأةٍ لاحقًا.» وهذه البذرة تتمثل في وَهْم قيام الأُم بقتلها والتهامها.

(لدواعي الإطالة، سأحذف أيَّ نقاشٍ للروابط التي صنعها فرويد بين المثلية الجنسية وجنون الارتياب، لكنه باختصار، كان يؤمن بأن المثلية انبَثقَت من حبٍّ مُبكِّر للوالد من الجنس نفسه، وهو ما يتم إسقاطه نحو الخارج ويتحوَّل من حب إلى كراهية؛ لذا تتحوَّل «أنا أحبه» إلى «إنه يكرهني». وأضاف عام ١٩٢٢ أن الغَيرة الطفولية الشديدة من الأشقاء الأكبر سنًّا والمُنافِسين تَتعرَّض للكبت والانقلاب؛ ومن ثَمَّ يُصبِحون هم موضوعاتِ الحب الأُولى لدى الصبي. ونتيجةً لذلك، يكون العديد من مِثليِّي الجنس اجتماعيِّين إلى حدٍّ كبير ولديهم تَوجُّه نحو الاهتمام بشئون المجتمع؛ لأنهم أقل تنافسًا مع الرجال الآخَرين (فرويد، ١٩٢٢). وهكذا أصبَحَت الروابط بين المثلية الجنسية وجنون الارتياب جزءًا من الرؤية اللاحقة المُتمثِّلة في أن المثلية الجنسية كانت آليةً دفاعية ضد قلقِ جنون الارتياب والقلق الذُّهاني.)

يذهب فرويد بعد ذلك إلى أن ازدواجية التوجُّه الجنسي، المُتأصِّلة في البشر، تَسرِي في الواقع على النساء أكثر من الرجال؛ فالنساء يَملِكن عضوًا تناسليًّا ذكريًّا وآخرَ أنثويًّا، وعلى الرغم من الدليل الجديد الذي يُشير إلى أن الفتيات تُراوِدهن أحاسيسُ مهبلية مُبكِّرة، فإن عليهن التنقُّل بين الاثنَين. «تنقسم الحياة الجنسية للنساء إلى مرحلتَين؛ الأولى ذات طابعٍ ذكوري، والمرحلة الثانية فقط هي ما تكون أنثويةً على نحوٍ خاص.» نُلاحظ أن فرويد الآن مُستعِد لاستخدام الذكورة والأُنوثة أحيانًا كمصطلحاتٍ تصف فوارقَ «طبيعية» وليس كتراكيبَ اجتماعية. كذلك لم يعُد يفترض أن الرغبة والهوية لا بد أن يكونا متعارضَين؛ بل يصف كيف أن الارتباط الطويل بالأم، بالنسبة إلى النساء، ربما يُؤدِّي إلى وقوعهن في حبِّ رجالٍ يُذكِّرنهن بأُمهاتهن، ويُكرِّرن في زيجاتهن الصراعات التي واجهنها معهن.

لماذا تُكِنُّ النساء مثل هذا القدر من الامتعاض تجاه أُمهاتهن؟ يتمثل أقوى أشكالِ هذا الامتعاض في كون الأم لم تَمنح البنت قضيبًا ذكريًّا، وأَجبرَتها على أن تُشاركها حبها مع أشقائها، بالإضافة إلى أنها لم تمنحها ما يكفي من اللبن أو ترعاها مدةً كافية. لا جدوى من أن تكون الطفل المُفضَّل لدى والدَيه؛ «فمتطلبات الطفل من الحُب مُفرطة وأبعدُ ما تكون عن الاعتدال؛ فهم يفرضون مطالبَ مقتصرةً عليهم ولا يسمحون بأيِّ مشاركة.» وتُؤدِّي قوة ارتباط الفتاة بوالدتها إلى انحرافٍ نحوَ نفورٍ وازدواجية في المشاعر.

يُمكِن للصبية الصغار مواجهةُ الموقف بسهولةٍ أكبرَ بتوجيهِ عدائهم نحو آبائهم. يمر ارتباط الفتاة الجنسي بوالدتها بمراحلَ فمويةٍ وشرجية وقضيبية؛ ويتم كبته خوفًا من أن تقتُلها وتلتهمها الأم التي تَودُّ هي التهامها. وربما يزيد عداء الأم اللاواعي تجاه طفلتها الأمور سوءًا.

أخيرًا، تُلقي الفتاة اللوم على والدتها في افتقادها للقضيب، وهذا الافتقاد غيرُ القابل للإرضاء ربما يدفع امرأةً إلى الذهاب إلى التحليل؛ فربما تتوق إلى طفل، أو إلى العمل في مجالٍ فكري، أو تجد ملاذًا في الاهتمام بالمظهر الجسدي، أو العثور على الحُب، أو الاستبدال بالابن قضيبًا ذكريًّا. ويزداد كل هذا صعوبةً بالنسبة لها بسبب الصعوبة الأكبر التي تُواجِهها في تهذيبِ أو إعادةِ توجيه غرائزها مقارنةً بالرجال؛ وربما أيضًا لامتلاكها شهوةً جنسيةً أقل. ثَمَّةَ شدٌّ وجذب مستمران في كتابات فرويد بين «فطرية» التوجُّه نحو اشتهاء الجنس المُغاير والصعوبة في الوصول إليه.

(٦) ما بعد فرويد

طالما كان جزء من قضية تحرُّر المثليِّين أنهم ليسوا معيبِين أو أقلَّ شأنًا، بل مُجرَّد أشخاصٍ مُختلِفين. لكن إذا كانت المثلية الجنسية يُنظَر إليها كنموٍّ مُعطَّل، يُصبح السؤال حتميًّا: ما الخطأ الذي حدث وكيف يمكن منعه أو تصحيحه؟ (شوارتز، ١٩٩٨).

كانت ميلاني كلاين، وهي التي أَصبحَت لاحقًا ذاتَ تأثيرٍ مهيمن على التحليل النفسي في بريطانيا والقوة العظمى في استعادةِ أهمية الأُم المبكرة، تنظر أيضًا للمثليِّين كأشخاصٍ عالِقِين في مرحلة السادية الفموية التي يَتخلَّلها الفصام البارانويدي، وكانت ترى اشتهاء الجنس المُغاير والرغبة، وعلى نحوٍ أكبر من فرويد، باعتبارهما التعبير «الطبيعي» عن جنسٍ مُعيَّن؛ فالفتيات يُردن امتلاكَ قضيبِ الأب وسرقتَه من الأم ومُساواتَه بثدي الأم، وبمساواة الفم بالمهبل، يُصبِحن مستقبلاتٍ للقضيب؛ لذا فإن الدوافع الأوديبية لدى الفتيات أكثر فموية عن نظيرتها لدى الأولاد، وتُصبِح العلاقات السحاقية حتمًا علاقاتِ موضوعٍ جزئي، وأكثر خضوعًا لحسد القضيب ومَثْلَنَته.

تَفرَّق الجدل داخلَ مجال التحليل النفسي بين الثقافات المحلية إلى حدٍّ ما. وبشكلٍ عام، كان هناك ابتعادٌ عن التمييز بين الأفكار الأوديبية وما قبل الأوديبية، وأُولِي المزيد من الانتباه إلى الطفل فيما قبل مرحلة الكلام وعلاقته بوالدته. بالنسبة لبعض المُؤلِّفين، ولبعضهم فقط، استُكشِفت جنسانية النساء ليس فقط في إطارِ علاقتهن بالرجال، بل

أيضًا في إطار علاقتهِن بالأمومة والأطفال. تبقى مسألة الفروق الجوهرية بين الرجال والنساء مسألةً شائكة؛ ففي بريطانيا، تزايَد تركيزُ المُحلِّلِين النفسيِّين على الطفل بعيدًا عن نوعه في الفترة ما قبل الأوديبية، والعلاقة مع الأم التي يُتوَهَّم أنها تمتلك قضيبًا. لكن في فرنسا، استمر النظر إلى الأبِ بوصفه عنصرًا بالغ الأهمية؛ كونه هو من يُخرِج الطفل من علاقةٍ تعايُشية مع والدته مُطلِقًا إياه إلى مرحلة الكلام واللغة.

لم يَستردَّ المُحلِّلون البريطانيون اهتمامهم مرةً أخرى بالجنسانية الأُنثوية حتى ظهور الحركة النسوية في سبعينيات القرن العشرين؛ إذ انصَبَّ تركيزُهم على الطفل في المرحلة المُبكِّرة من حياته دون التركيز على نوعه، وعلى مخاوفه من العدوانية والانفصال (لخَّص كل من رافاييل-ليف وبيرلبرج، ١٩٩٧، وبريكستد-بريين، ١٩٩٣، بعضًا من هذه المناقشات)؛ ففي مناقشاتهم عن الانحراف، أحيانًا ما كانوا يُورِدون ذكر المثلية الجنسية؛ على سبيل المثال، رأى مسعود وخان (١٩٨٩) أن المثلية الجنسية لدى الإناث قائمةٌ على علاقةٍ منحرفة بين أُمٍّ مصابة بالاكتئاب وهوَس المرض وطفلةٍ تحتاج للبقاء مرتبطةً بجسد الأم. وثَمَّةَ عودةٌ إلى أهمية عقدة أوديب في إطار الحُجة القائلة إن الطفل يجب أن يكون قادرًا على تقبُّل فكرة أن الوالدَين ينخرطان في جماعٍ يُؤدِّي إلى خلقِ حياة. لكن النسوية وتقنين المثلية الجنسية بين الرجال، كما في أيِّ مكانٍ آخر، أثَّر على فكر التحليل النفسي؛ فيشير أوكونور ورايان (١٩٩٣) إلى أن العديد من المُعالِجين النفسيِّين والمُحلِّلِين لا يرتاحون لطبيعة الشبق السحاقي، وربما لَجئوا إلى نُموذج الأم/الطفل في محاولةٍ منهم لتجنُّب تناوُل الرغبة لدى الناضجِين (ويمكن الاطلاع على حُجتي التي تُشير إلى أن هذا الأمر يُميِّز اشتهاء الجنس المُغاير في النظرية البريطانية لعلاقات الموضوع بالقَدْر نفسه؛ وفي هاردينج، ٢٠٠١). إن التغييرات التي طَرأَت على التحليل النفسي ببريطانيا على نحوٍ خاص — بحيث يتزايد التركيز على قضيتَي التحويل والتحويل المضاد، وعلى العلاقات بين الأشخاص، وعلى الإحساس بتفتُّت الهُوية وعدم استقرارها وترابُطها — تعني انخفاضَ التركيز الآن على مسائل الهُوية الجنسية.

في الولايات المتحدة، كان ثَمَّةَ مزيدٌ من الاهتمام بالبحث التجريبي والفسيولوجي للسلوك الجنسي، واستَمرَّت نظرية التحليل النفسي في الاعتماد أَكثرَ على نظرية الدافع ودَور الأنا. في فترةٍ ما بعد الحرب، تزايَد افتراضُ أن المثلية الجنسية الذكورية كانت كيانًا تحليليًّا واحدًا، وكانت إمَّا فطرية أو نتاجَ أمومةٍ مُختلَّة، شأنها في ذلك شأن الفصام. وأدَّى ظهور النظرية السلوكية إلى تركيزٍ متزايد على العوامل البيئية، واهتمامٍ أقل بالجنسانية.

ومن ثَمَّ أصبح يُنظَر للمثلية الجنسية بوصفها متعلقةً بالقوة والاتكالِ أكثرَ من تعلُّقها بالجنسانية في حدِّ ذاتها. وقد وَجدَت تقارير كينسي الصادرة عامَي ١٩٤٨ و١٩٥٣ أن ازدواجية التوجُّه الجنسي كانت أكثر شيوعًا بكثيرٍ من المثلية الجنسية لدى كلٍّ من الرجال والنساء، وأن المثلية الجنسية ليست حالةً بذاتها، بل سلسلةٌ متصلة، ويُمكِن أن تكون مكتسبة أو فطرية، وأن النساء، مثل الرجال، يُمكِنهن أن يجدن تغيُّرًا في توجُّههن الجنسي مع تقدُّمهن في السن.

تُستَخدم فكرة أن التوجُّه الجنسي توجُّهٌ فِطري للدفع بأن مثليِّي الجنس ليسوا مسئولِين عن حالتهم وأنه من العبَث والخطأ محاولةَ استخدام التحليل النفسي لتغييرها، مثلما يمكن استخدام الفرضية الفطرية «لتفسير» مُعاقَرة الكحوليات، والإدمان، واضطرابات الهُوية الجنسية المختلفة؛ فبدأ ستولر وزملاؤه دراسة الإحساس بالكينونة الذكورية أو الأُنثوية وانحرافاته بين هؤلاء الذين كانوا يشعرون حقًّا بأنهم ينتمون إلى الجنس الآخر، وحاولوا توضيح هذا النقاش. يجب النظر إلى «الجنسانية» من خلال العلاقة بالجنس البيولوجي؛ فقد كانت تشير ضمنيًّا إلى الإثارة الجنسية، والدوافع والسلوك القائمَين على الفسيولوجيا، لكن بتوابعَ نفسية، وكانت تنتمي انتماءً قاطعًا للهُو. أمَّا الإحساس «بالهُوية الجنسية» كذكرٍ أو أُنثى، فهو جزءٌ من الأنا؛ فهو يُشير ضمنيًّا إلى تصوُّرات عن الذات وتماهيات، وما إلى ذلك. ربما لا يكون الإحساس بالهُوية الجنسية متوافقًا مع الجنس البيولوجي؛ لذا صاغ ستولر تعريفًا جديدًا ومُؤثِّرًا للانحراف لم يُركِّز على اختيار الموضوع أو السلوك، بل على الأوهام المصاحبة للفعل — «الشكل الشهواني من الكراهية» — وهو ما فَصَله عن التوجُّه الجنسي وأعاده إلى التحليل النفسي. وقد كان ستولر أكثر المُحلِّلين النفسيِّين تأثيرًا ممن ذهبوا إلى أن المثلية الجنسية ليست متلازمةً أو حالةً متفردة، ويجب إزالتها من تصنيف الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية.

أمكن تحقيق هذا بسهولة أكبر؛ لأنه بحلول الثمانينيات من القرن العشرين، كانت نظرية التحليل النفسي صارت أقلَّ تأثيرًا في الطب النفسي الأمريكي على أيِّ حال. ومع إعادة إحياء الاهتمام النسوي والثوري بالتحليل النفسي، ركَّز الجدلُ القائمُ حول النوع على الصراع بين الجوهرية البيولوجية في مقابل البنائية الاجتماعية. كان التحليل النفسي في أمريكا يمُر بتغيُّراتٍ بنهاية ثمانينيات القرن العشرين؛ بسبب تدفُّق النسويِّين والمُحلِّلِين

النفسيِّين الإكلينيكيِّين الذين درسوا العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى المهنة، والتي أُجبرت على التخلي عن احتكار الطب لها. تُرجِمت كتابات لاكان إلى الإنجليزية في سبعينيات القرن العشرين، واستفاد الباحثون في الأدب كثيرًا من كتاباته التي ركَّزَت على الطبيعة المُتغيِّرة والغامضة للهُوية، والطريقة التي يُمكِننا بها فهم وتفسير العالم من خلال اللغة. ناقش لاكان تركيزَ فرويد الأساسي على الإخصاء ليس كفارقٍ تشريحي حرفي، لكن كأساسٍ للبناء اللغوي للنوع الجنسي؛ فهو بمثابةِ مجازٍ يدل على انفصال البشر عن موضوعات رغباتهم. إنه يُشير إلى تجربةٍ عامة، وليست تجربةً أنثوية فقط، للافتقاد والحاجة. كان لاكان يُحاول فصل التفسيرات الخاصة بالتحليل النفسي ليس فقط عن علم الأحياء بل أيضًا عن تاريخ المريض؛ فعلم النفس البشري يتألف عن طريق اللغة، والهُوية الجنسية تُبنى اجتماعيًّا. ومصطلحاتٌ مثل ذكوري وأنثوي لا تُشير إلى كياناتٍ «حقيقية»، وإنما تُشير إلى كيفيةِ إدراكنا لمثل هذه الفروق من خلال اللغة.

غير أن لاكان كان حليفًا غيرَ جدير بالثقة. لقد وافقه النسويون الرأي في أن الهُوية النفسية مُحيِّرة وتتشكل بواسطةِ اللغة وداخل نطاق الثقافة؛ فلا يُوجد ما يُسمى بالجنسانية «الطبيعية». لكن لاكان بقِي عالميَّ النظرة فيما يتعلق بأن القضيب دائمًا كان دلالة الاختلاف والرغبة الجنسية؛ ومن ثَمَّ يبقى النوع الجنسي والجنسانية مُترافقَين. وشدَّد في مَعرِض تعليقه على حالة النشوء النفسي على توق الفتاة إلى والدها. ويرى من منظوره أن الإحباط أمرٌ جوهري في المثلية الجنسية لدى الإناث. إن الطفل يَضحَى كائنًا اجتماعيًّا من خلال قانون الأب وتجربة الفقدان؛ فالرغبة غير المُشبَعة هي ما يدفعنا إلى اكتسابِ لغة والبحث عن المُواساة في الثقافة. والقلق من الإخصاء يعني أن علينا الدخول إلى العالم الرمزي؛ فموضوع حبنا الأوَّلي ضاع دونَ أملٍ في استعادته، ومعه ضاع العالم التخيُّلي. ولا يمكننا قَط التعبير أو التلفظ برغبتنا خارجَ إطار اللغة؛ فلا تُوجد حقيقةٌ ثابتة يمكن التعبير عنها في الخطاب الحرفي.

بالطبع يتسم المعلقون الجدد على بحث النشوء النفسي بيقظةٍ شديدة إلى استخدام اللغة لبناء الفكر وتحجيمه، والإشارة ضمنيًّا إلى استنتاجاتٍ محددة. والأغلب أنهم ينظرون إلى المثلية الجنسية كحالةٍ صحيحة ومقبولة على قدم المساواة، مُشيرين إلى أنه بعيدًا عن تأثير الضغوط الاجتماعية، فلا يُوجد سببٌ يمنع أيَّ علاقةٍ مثلية من أن تكون ناضجةً ومليئة بالحب كأي علاقةٍ بين جنسَين مختلفَين. ويعتقد البعض أن المثلية الجنسية شيءٌ

راسخ وله أساس نسبيًّا، ويحتمل أن يكون فطريًّا؛ بينما يعتقد آخرون أنها مُكتسَبة تمامًا مثل العلاقات الجنسية المُغايرة. وقد اكتَسبَت بعض حُججهم الآن قبولًا على نطاقٍ واسع في التحليل النفسي؛ وفي العديد من الحالات، يُكرِّرون ما كان يقوله فرويد؛ بمعنى أنه لا يمكننا افتراض أن المثليِّين الذين يحضرون للعلاج يُمثِّلون كل المثليِّين؛ وإذا كانوا قد حضروا بحالاتٍ مَرَضيةٍ ما، فإنها ربما تكون أو لا تكون مرتبطةً بتوجُّههم الجنسي؛ فالنفور العام والخوف من المثليِّين، وحاجتهم لإخفاء حالتهم هو ما يخلق مُشكلاتِهم؛ فالجنسانية قبل كل شيء، ليست «وحدةً متكاملةً متراصة لا تتجزأ» (فاس، ١٩٩٥).

تبنَّى كل المُساهِمين، سواء رموزٌ أدبية أو مُحلِّلون نفسيون، في كتابٍ حديث يضم مجموعة من المقالات عن حالة النشوء النفسي (ليسر وشونبرج، ١٩٩٩) المنظور الذاتاني البنائي الاجتماعي في مسألة النوع؛ فجميعهم مُهتمٌّ بالبرهنة على أن المثلية الجنسية ليست انحرافًا ولا خللًا. الاستثناء الوحيد هو كارولين جراي (١٩٩٩) التي كرَّرَت نقد فرويد للحُجج «المُشخصَنة». والأمر هنا بمثابةِ سلاحٍ ذي حدَّين؛ فإذا كنا سنذهب لاعتبار السلوك الجنسي المقبول حاليًّا هو الطبيعي، فما الذي سيحدث عندما تتغير الأعراف والتقاليد مرةً أخرى؟

لا نبدو قَريبِين من الإجابة على سؤال فرويد الأصلي: ما الدور الذي يلعبه الجسد في تشكيل الهُوية الجنسية، وإلى أيِّ مدًى تتكون خبرتنا بأجسادنا على أساسٍ نفسي؟ (رافاييل-ليف وبيرلِبرج، ١٩٩٧؛ ميتشيل وروز، ١٩٨٢).

هوامش

(١) نُشِر مؤخرًا سيرةٌ ذاتية للفتاة (رايدر وفويت، ٢٠٠٠)، ووضع المؤلفان المادة الخاصة بهما في متحف فرويد بفيينا. كان اسم الفتاة الحقيقي مارجريتا تشونكا وكان اسم المرأة البارونة ليوني بوتكامر.

(٢) كان جورجي جارثيا سيلفا أحد مُحلِّلِي ما بعد الحرب القلائل الذين علَّقوا على بحث النشوء النفسي قبل إحياء الاهتمام به بين النسويِّين واللاكانيِّين في أواخر ثمانينيات القرن العشرين. وقد ذهب إلى أن فرويد قلَّل من أهميةِ مدى شوق الفتاة لحب الأم وحاوَلَت العثور عليه لدى مجموعة من النساء (سيلفا، ١٩٧٥).

(٣) رأى كونودوز (١٩٨٩) أن احتقار الفتاة كان بسبب أنها كانت تُدافع عن نفسها تجاه نكوصٍ إلى التفكُّك الذُّهاني.

(٤) تحدَّث فرويد عن عمليات تغيير الجنس في كتاباتٍ أخرى في ذلك الوقت؛ وكان هو نفسه سيخضع لعملية تغيير الجنس التي ابتكرها شتايناخ بعد ثلاثِ سنوات من خضوعه لعملية لقطع القناة المنوية على أملِ كبح السرطان الذي كان مصابًا به، وتخفيف الإعياء، واستعادة طاقته الجنسية.

(٥) طالع على سبيل المثال معظم أعمال المُساهِمين في كتاب ليسر وشونبرج (١٩٩٩).

الجزء السادس

أبحاث لاحقة

الفصل الخامس عشر

«الإنكار»

أندريه جرين

كُتِب بحث «الإنكار» عام ١٩٢٥، وهو عملٌ قصير ومُكثَّف للغاية ومن الصعب أحيانًا تتبُّع خيوطه. ورغم إمكانية قراءته كعملٍ منفصل مكتفٍ ذاتيًّا إلى حدٍّ كبير، مصحوبًا بشعورٍ بالإنجاز لشموله العديد من الموضوعات، ما يُعطي الانطباع بأنه يُغطِّي مجالًا شاسعًا، يمكن اعتبارُه خطوةً مهمة للغاية في استكشافٍ بدأ منذ وقتٍ طويل لوظيفةٍ محددة. لكن من وجهةِ نظرٍ أخرى، فإنه يُعتبر أيضًا سبقًا؛ إذ يتوصل لاستنتاجه في الفِقرات النهائية. وتفتح نهايتُه منظوراتٍ جديدة كان فرويد، في بعض الأحيان، يضع وصفًا موجزًا لها في وقتٍ سابق، ثم تتطوَّر لاحقًا سواء على يده أو بواسطة آخَرين. مع ذلك، فإن هذه التطوُّرات في أدبيات التحليل النفسي غيرُ مرتبطةٍ مباشرةً بأفكار البحث، لكن يجب الأخذ في الاعتبار أنها مستوحاة منها. لا يُستشهد بالبحث كثيرًا، فيما عدا بين المُحلِّلِين النفسيِّين الفرنسيِّين (في عَشرِ ترجماتٍ مختلفة)، وبفضل جاك لاكان، جذب اهتمام الفلاسفة (إيبوليت، ١٩٥٦) وأحدث حوارًا بين الفئتَين.

ينتمي «الإنكار» كلاسيكيًّا إلى علم اللسانيات، وهو من الموضوعات المُتداوَلة إلى حدٍّ كبير في الفلسفة. لا تُوجد في اللسانيات دلالةٌ قاطعة على عملية الإنكار (كوليولي، ١٩٨٨). ثَمَّةَ سلوكٌ ذو مغزًى، سواء عُبِّر عنه لفظيًّا أم لا، يمكن العثور عليه في فئتَين: سلوك سيئ وغير مناسب ويصعب رفضه؛ وسلوك يتكون من فراغٍ وانقطاع وغياب. ويمكن تسميتهما «تقدير ذاتي وتموضع زمكاني» (أي تمثيل لما هو موجود وما هو مُنقطع). ويتطور هذا الإنكار الأَوَّلي وينتج عنه إنكاراتٌ مُركَّبة.

ورغم ما قد نُلاحظه من اقترابٍ لتصنيفات الحُكم لدى فرويد من هذا المنهاج اللغوي في بحثه الذي صدر عام ١٩٢٥، من المهم أن نتذكَّر أن نقطةَ انطلاقِ فرويد كانت العكس تمامًا في أَوَّل حدْسٍ له في هذا الشأن.

(١) الإنكار المزدوج

يبدأ فرويد بإنكارٍ مزدوج موجود بالفعل في كتابه «تفسير الأحلام»؛ إذ ترتبط اكتشافاته الأصلية بمادةٍ غيرِ لفظية تكمن في أفكارِ وآليةِ عمل الأحلام. ويعرض فرويد أفكاره بوضوحٍ شديد على الأقل أربع مراتٍ (فرويد، ١٩٠٠، الصفحات ٢٤٦، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٣٧). ويُشير إلى تجاهُل تصنيفات النقائض والمُتعارِضات في الحلم:

> لا يبدو أن كلمة «لا» لها وجود حتى الآن فيما يخص الأحلام ... علاوةً على ذلك، تشعر الأحلام بأن لها الحرية في تمثيل أيِّ عنصرٍ عن طريقِ نقيضِه التواق؛ وبذلك لا تُوجد طريقةٌ لكي نُحدِّد من الوهلة الأُولى ما إذا كان أيُّ عنصرٍ يُمثِّل نقيضًا ما حاضرًا في أفكار الحلم كعنصرٍ إيجابي أم كعنصرٍ سلبي. (المصدر السابق، صفحة ٣١٨)

في بعض الأحيان، نجد في أفكار الأحلام فئةً يمكن وصفها ب «النقيض التام»، وهو جزءٌ من محتوى الحلم تَشكَّل وتصادف أنه مجاور له — «عن طريق فكرةٍ لاحقةٍ نوعًا ما» — وعُكِسَ في الاتجاه المضاد. «من السهل توضيح العملية بالمثال أكثر من وصفها» (المصدر السابق، صفحة ٣٢٦). ثَمَّةَ فكرتان مختلفتان في توصيفات فرويد المبكرة، تَتعلَّق الأولى بمحتوى الأفكار بينما تتعامل الثانية مع شعورٍ بالكبت في الحلم يُعبِّر عن «صراع إرادات» (المصدر السابق، صفحة ٣٣٧)؛ أي اختيارٍ يُبطِله اختياراتٌ مضادة. هنا، يُصحِّح فرويد تأكيداته السابقة: عندما تُواجِه تلبيةُ الرغبة في حلمٍ ما عقبة، تُترجَم في الحلم بإحساس «بعدم القدرة على القيام بشيءٍ ما». هذه «هي طريقة التعبير عن تناقُضٍ ما: كلمة «لا»؛ لذا فإن مقولتي السابقة (المصدر السابق، صفحة ٣١٨)، عن أن الأحلام لا يُمكِنها التعبير عن رفض، تحتاج للتصحيح» (المصدر السابق، صفحة ٣٣٧). يبدو أن فرويد يُشير ضمنيًّا إلى أنه ما دام تَمَّ إيصالُ المعنى من خلال أفكار أو تمثيلات للأفكار، فإن فكرة غياب التناقُض فكرةٌ صحيحة، لكن عندما يكون ثَمَّةَ تعبيرٌ ما مرتبطٌ بإرادة تقترب بما

يكفي من تحقيقها من خلال عمليةِ إزاحةٍ وإحلال، لا يمكن دائمًا التغلُّب على كلمة «لا»، ويجد التناقُض طريقة للتعبير عن نفسه من خلال شعورٍ ما. هنا، يُغطِّي عنصر القوة على النقائضِ والتعارُضاتِ في التفكير والتي تَتعرَّض للكبت في عمل الحُلم. وقد لخَّص فرويد بوضوحٍ شديد أفكاره في بحث «عن الأحلام» (١٩٠١)، والذي كُتِب بعد ثلاثة أو أربعةِ أشهُر من نشرِ كتاب «تفسير الأحلام». يقول في إحدى الفقرات التي تستحق الاقتباس لوضوحها وإيجازها:

> يبدو أن كلمة «لا» لا وجود لها حتى الآن في عالم الأحلام. ربما يُمثَّل التضاد بين فكرتين، وعلاقة «العكس»، في الأحلام بأكثر الطرق لفتًا للانتباه. فربما يُمثَّل عن طريق تحوُّل جزءٍ «آخر» من مُحتوى الحلم إلى نقيض؛ عن طريق فكرةٍ لاحقة نوعًا ما. وسنسمع عما قريبٍ عن طريقةٍ أخرى للتعبير عن التناقُض. كذلك يعمل إحساس «كبت الحركة» الشائع لدرجةٍ كبيرة في الحلم على التعبير عن تناقُض بين دافعَين، فيما يُعرف بـ «صراع الإرادات». (فرويد، ١٩٠١، صفحة ٦٦١)

أَصرَّ فرويد في كل النسخ التالية لكتابه عن الأحلام على جعلِ أفكاره عن الحُلم متماشيةً مع تلك التي كشَف عنها فيما يخُص المعنى الطباقي للكلمات الأوَّلية (١٩١٠)، بناءً على فكرة لكارل إيبل، ما لفَت نظره إلى وجودِ تماثُلٍ بين اللغة القديمة والأحلام. غير أن ثَمَّةَ اتفاقًا عامًّا بين علماء اللغويات أن كلمةً واحدة لا يمكن أن يكون لها معانٍ متناقضة.

أُدرِجَت فكرةُ عدمِ وجودِ «لا» في الأحلام تدريجيًّا ضمن مفهومٍ أشمل، ظهر حوالي عام ١٩١٥، يُعرِّف نظام اللاوعي. في البحث الخاص باللاوعي في كتاب «علم ما وراء النفس»، يُشير فرويد إلى غياب التصنيفات التي تُناقض الرغبة في تفريغ المثلات الغريزية (أو الدوافع) التي تتعايش جنبًا إلى جنب دون أن يتأثَّر بعضها ببعض؛ لذا في هذا النظام «لا وجود لأي إنكار، أو أي شك، أو أي درجاتٍ من اليقين؛ كل هذا يُدخَل من خلال عمل الرقابة بين اللاوعي وما قبل الوعي» (١٩١٥د، صفحة ١٨٦). وفي إطارِ سَعيه لمواصلة هذا التفصيل، يذكُر فرويد الإنكار في حدِّ ذاته للمرة الأُولى: «الإنكار هو بديل، على مستوًى أعلى، للكبت» (المصدر السابق، صفحة ١٨٦). سنُقابل هذه الجملة مرةً أخرى بالصياغة

نفسها تقريبًا في بحث «الإنكار» (١٩٢٥أ). لقد كان الحدْس موجودًا بالفعل، لكن بناء المفهوم كان غائبًا.

يبدو غياب الإنكار جزءًا من عددٍ أكبر من السمات ذات الصلة؛ إذ نجده مندمجًا مع أفكارٍ أخرى؛ فلا يُوجد أي إدراك للزمن أو الواقع؛ بعدئذٍ بوقتٍ قصير، سيُضيف فرويد أن لا وعينا «لا يُدرِك أيَّ شيءٍ سلبي أو أيَّ إنكار؛ فكل المُتناقِضات تَتواجَد بداخله في الوقت نفسه؛ ولهذا السبب، لا يدرك موته ولذلك لا يُمكِننا أن نعطيه إلا محتوًى سلبيًّا» (فرويد، ١٩١٥ج، صفحة ٢٩٦). يأتي ذكرُ كلِّ هذه الأفكار قبل ظهورِ نظرية الغرائز، وهي التي تُدافع عن غريزة الموت. ولا يُعدِّل افتراضُ غريزة الموت أفكارَ فرويد عن الإنكار (وخاصة عن الموت)، بل من المحتمل أن يُؤثِّر على طريقته في التعامُل مع المشكلة. علاوةً على ذلك، نجد المقولة نفسها قد أُعيدت صياغتها طبقًا للنموذج الطبوغرافي الثاني، عندما يُورد ذكر انقسام الغرائز لاحقًا: «لا يُوجد أي شيءٍ داخل الهُو يمكن مقارنته بالإنكار» (فرويد، ١٩٣٣، صفحة ٧٤). ويُحاول بحث ١٩٢٥أ تجاوُزَ الإنكار المُزدوج «لا، لا»، ويسعى إلى إكسابِ وظائف وعلاقات الإنكار بالوظائف النفسية الأخرى دقةً وإحكامًا.

(٢) «الإنكار» (١٩٢٥أ)

الآنَ وللمرة الأُولى، بعد مرورِ خمسةٍ وعشرين عامًا على صدور «تفسير الأحلام»، وعشر سنوات منذُ صدورِ بحث اللاوعي في كتاب «علم ما وراء النفس»، يحاول فرويد تحليلَ ظاهرةِ الإنكار. يَتمثَّل الاهتمام الأساسي للبحث، في ضوءِ علم ما وراء النفس، في توضيح العلاقة، بين تصنيف فكري للحكم وجذوره المُفترَضة على مستوى أكثر الدوافع بدائية. وهذه المحاولة للاستمرار مثيرةٌ للإعجاب ويجب تتبُّعها خطوةً خطوة للكشف عن العديد من الأمور المُبهَمة:

(١) يبدأ فرويد ببضعةِ نماذجَ التقاها في واقع العمل السريري، بعضها ما زال مألوفًا للغاية بالنسبة لنا عندما يقول مريض مثلًا: «أنت تسأل من يُمكن أن يكون هذا الشخص في الحُلم. إنه «ليس» والدتي.» لنُصحِّح نحن هذا ليصبح «إذن فهي والدته» (فرويد، ١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٥). في أمثلةٍ أخرى (وهي التي تُعطينا أحيانًا صورةً سيئة عن فرويد وهو يتلاعب بمريضه)، يظهر المعنى المختبئ وراء الكبت بعد أن يُسأل المريضُ عن أبعدِ

شيء عن تفكيره في وقتٍ مُحدَّد؛ فدائمًا ما تكون إجابته مرتبطةً بما كان يدور داخل عقله قبل السؤال مباشرة. يذكُر فرويد موضوعاتٍ أخرى مختلفة، مثل الإسقاط في مثاله الأوَّل (حيث يفترض الشخص الخاضع للتحليل أن المُحلِّل يظن أن المريض يقصد قول شيءٍ مهين) أو، بشكلٍ آخر، الأفكار الخاصة بمريض بالوسواس — الذي لديه بالفعل خبرةٌ مع العلاج وبدأ يفهم طريقته في التفكير، والذي يُلاحِظُ فكرةً وسواسية جديدة يُفسِّر معناها على نحوٍ صحيح في المرة الأُولى، ثم يتبرأ بعد ذلك من تداعياته.

(٢) يطرح فرويد استنتاجه النظري الأول: «وهكذا يمكن لمحتوى الصورة أو الفكرة المكبوتة أن يتسلل إلى الوعي بشرط إنكاره» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٥). ومع ذلك، فإن هذه النتيجة لها حدودٌ مُعيَّنة، حتى لو كانت تُظهِر زوال الكبت. فمن بين مُكوِّنَي المكبوت — وهما المحتوى العقلي والعملية العاطفية اللذَين يصفهما كعنصرَين منفصلَين — يتعلق زوال الكبت بالمُكوِّن بالأَول فقط، مما يسمح بنوعٍ من التقبُّل العقلي، «بينما يظل ما هو ضروري للكبت موجودًا في الوقت نفسه» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٦). علاوةً على ذلك، قد يحدث، في بعض الحالات، أن تنتُج وظيفة الإنكار، عندما تَتعرَّض للتحليل أثناء العلاج ويتقبَّلها المريض: «تنويعًا في غاية الأهمية وغريبًا نوعًا ما على هذا الموقف»؛ وهو ما يتمثل في القبول التامِّ للمكبوت دون أي إزالةٍ لعملية الكبت نفسها. وقد ترك هذا فرويد في حَيرةٍ من أمره. فثَمَّةَ تعارُض بين اندهاش فرويد الحقيقي مما يمكن أن يُحقِّقه الإنكار بتمكينِ شخصٍ ما من إدراك ما كبَته وملاحظتِه لاستمرار الكبت. يُمكِننا افتراض أنَّ ما هو جوهريٌّ للكبت هو العملية العاطفية، لكن فرويد لا يقول هذا. ربما نظن أنه لا يُشير إلى طبيعة العملية بقدْرِ ما يشير إلى القوة الديناميكية التي تصحبها. ورغم أهمية الاكتشاف، تبدو أفكار فرويد الأَوَّلية وكأنها تقودنا إلى طريقٍ مسدود. رُبما يُعبِّر ما تبقى من البحث عن الرغبة في التعامُل مع المشكلة من زاويةٍ أُخرى عليه العثور عليها بعد انحرافٍ مُحدَّد.

(٣) يُعتبَر تطبيقُ توكيدٍ أو إنكارٍ على محتويات الأفكار وظيفة الحكم العقلي؛ فعن طريقِ إظهار أنَّ الإنكار طريقةٌ لإدراك ما هو مكبوت، يظن فرويد أنه اكتشف الروابط بين الحكم العقلي وأصله النفسي. إذا كان بإمكان الإنكار إزالة الكبت، ولو جزئيًّا، فإن أي حكمٍ سلبي ربما يُؤدِّي لإلغاء إدراك التوكيد الكامن وراء الكبت. وبتطويره لأفكاره وقلبها رأسًا على عقب بطريقةٍ ما، يُصرِّح فرويد بأنَّ إنكارَ شيءٍ في حكمٍ ما، يعني في الأساس

أن تقول «هذا أمرٌ من الأفضل أن أكبته.» ويُتابع مُكرِّرًا جملةً كان قد كتبها قبل عشر سنوات في صيغةٍ مُعدَّلة قليلًا («الإنكار بديلٌ، على مستوى أعلى، للكبت» (المصدر السابق، صفحة ١٨٦)) فيقول: «الحكم السلبي هو البديل العقلي للكبت» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٦). وقد أُشير عام ١٩١٥ ضمنًا إلى أن الكبت، عند مستوًى أقل، لا ينتمي إلى الحكم العقلي. وهكذا يُدير فرويد ظهره الآن إلى الفروق السابقة بين العقلي والعاطفي، ويشرع في مناقشة العلاقة بين الكبت والحكم العقلي. ماذا عساه أن يكون هذا المستوى الأقل؟ يمكننا في ذلك استدعاءُ بدايةِ بحثه الخاص بالكبت (١٩١٥ب). كتب فرويد مُستدعيًا الفارق بين المُحفِّز الخارجي الذي، عندما لا يكون موضعَ ترحيب، يُحفِّز الهروب، وبين استحالةِ هذه العملية مع الغرائز؛ فيقول: «في فترةٍ لاحقة، سُيكتشَف أن الرفض القائم على البصيرة وأحكام العقل (الاستنكار) وسيلةٌ جيدة يمكن تبنِّيها في مواجهة الدافع الغريزي» (المصدر السابق، صفحة ١٤٦). علاوةً على ذلك، وفي بحث ١٩١٥ب، كتب يقول: «الكبت هو مرحلةٌ تمهيدية للاستنكار تقعُ ما بين الحكم العقلي والاستنكار» (المصدر السابق). لا يتضح موقف فرويد كثيرًا بشأن الاستنكار؛ فتارة يبدو مؤمنًا بأنه عمليةٌ نفسية تمتد لما وراء الحكم العقلي وقبله، وتارةً يربطها بالحكم العقلي على نحوٍ وثيق. في النهاية يترك السؤال مفتوحًا ويختتم قائلًا: «يكمن جوهرُ الكبتِ ببساطة في إبعاد شيء وإبقائه على مسافة من الوعي» (المصدر السابق، صفحة ١٤٧؛ ورد التأكيد في المصدر). سنُلاحظ غيابَ أيِّ إشارة إلى الحكم العقلي، حتى في شكله الأساسي المتمثل في الاستنكار في هذه المرحلة؛ فيبدو الأمر كما لو كان الاستنكار سيُعطي معنًى لخطوةٍ مفهومة كنبذ أو رفض لشيء غير مرغوب فيه. ثَمَّةَ تعبيرٌ ذو صلة عن ذلك يمكن العثور عليه في كتاب فرويد «النكات وعلاقتها باللاوعي»:

> يبدو أنه يشير إلى سمةٍ مهمة للتفكير اللاواعي، الذي لا تحدث فيه على الأرجح أيُّ عمليةٍ تشبه «إصدار الأحكام». إن ما نجده محل الرفض بناء على حكمٍ عقلي في اللاوعي هو «الكبت». قد يُوصف الكبت، دون شك، على نحوٍ صحيح كمرحلةٍ متوسطة بين ردِّ فعلٍ دفاعي وحكمٍ استنكاري. (فرويد، ١٩٠٥ب، صفحة ١٧٥)

من خلال الجمع بين مُكوِّنات وصيغٍ مختلفة، نرى فرويد يُحاوِل، من ناحيةٍ، ربطَ، وكذلك تمييز، عنصرٍ ينتمي لهذا الشكل من الحكم، وهو عنصر أكثر ارتباطًا بالوظائف

الفكرية، ومُدرَك بسهولة في فكرة الاستنكار، ومن ناحيةٍ أخرى، ربط وتمييز تعبيرٍ أكثرَ قسوةً عن قوة الرفض أَطلَق عليه «رد فعل دفاعي» عام ١٩٠٥، وهو الذي ينشأ بكل وضوح عن الاستياء، ويُعدِّل نفسه من خلال النمو والتطوُّر، وربما يكتسب شكله الأعلى من التعبير من خلال الفارق بين المحتوى الفكري والعملية العاطفية، اللذَين يُذكَران لاحقًا في الورقة البحثية نفسها. ولن يستخدم مرةً أخرى تعبير «رد الفعل الدفاعي». في كتاباته المبكرة، ينظر فرويد مراتٍ عديدة للكبت كعمليةٍ عضويةٍ تلقائية. وتدريجيًّا، سينظر إلى الكبت كقوةٍ نفسية، وإن كان لن ينسى قَط الإشارة ضمنيًّا أو صراحةً إلى ذلك البُعد من أبعاد القوة. في عام ١٩٢٥، كان الحل الوحيد الممكن هو العثور على مفهومٍ يجمع بين القوة والمعنى: قوة، بقدْر ما هي أساسية، يجب أن تتصل بشيءٍ ذي معنى؛ معنًى لا نملك أي فكرةٍ دقيقة عنه إلا عندما نربطه بقوةٍ ما. لكن مع ظهور الترميز أو التعبير بالرموز، يمكن تعديل هذه الحالة للأشياء كمًّا وكيفًا، وهو ما يُخفِّف من قيود الكبت: «بمساعدة رمز الإنكار، يُحرِّر التفكير نفسه من قيود الكبت ويُثري نفسه بمادةٍ لا غنى عنها لكي يقوم بمهمته على أكملِ وجه» (١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٦). يبدو أن فرويد قد نسي تحفُّظاته بشأن قيود التخلُّص من الكبت لصالح المحتوى الفكري. لكن في الواقع فإن استخدامَ كلمةِ استبدالٍ يمكن تفسيره، بطرقٍ عدة، كشكلٍ من أشكال الإحلال للكيان نفسه أو كبديل يلمِّح بوجودِ فارق.

(٤) بعد توضيح الرابط بين الوظيفة العقلية للحكم وعلاقتها بالكبت والإنكار، يلتفت فرويد الآن إلى تحليل القرار الذي ينطوي عليه الحكم: «إنه يؤكد أو ينفي الاستحواذ من خلال شيءٍ ذي سمةٍ مُعيَّنة، كما يؤكِّد أو ينفي أن تمثيلًا ما له وجود في الواقع» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٦). من المهم الإشارة إلى أن فرويد يختار تسلسلًا لعرض الجانبين، واضعًا مشكلةَ وجوبِ تقريرِ وجودِ شيءٍ ما أو عدم وجوده في المرتبة الأدنى. ونحن هنا نتفق مع بحوث النهج اللغوي، لكن فرويد يذهب خطوةً أبعدَ مستخدمًا المكاسب التي ذكرها في إطارِ تطويرِ بحثه. سيكون الفهم النفسي قائمًا على مفهومٍ لا يمكن فيه الفصل بين الحركة والمعنى، بل هما متداخلان بشكل كبير. ويضع فرويد قرار العزو تحت تصنيفات الخير والشر ويترجمها إلى لغته النظرية الخاصة. «بالتعبير عنه بلغةِ أقدمِ الدوافع الغريزية — وهي الغريزة الشفوية — يكون الحكم هو «يجب أن أرغبَ في استيعاب هذا أو أن ألفِظَه»» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٧). يحافظ فرويد

على منهجه وكما قال: «لإنكار شيءٍ ما في حكمٍ ما، فهذا يعني في الأساس أن تقول: «هذا أمرٌ من الأفضل لي أن أَكبِته.» ومن ثم يُعرِّف الموقف على هذا النحو. الحكم هو: «يجب أن أرغب في استيعابِ هذا، أو أن أَلفِظه»، مُتبعًا منهجًا مماثلًا للغاية. وعن طريق هذا التغيير، فإن اهتمامه الآن لا ينصَبُّ فقَط على عملية «إبعاد شيءٍ ما وإبقائه على مسافةٍ من الوعي»، بل ينصَب على عمليةٍ نفسية أكثر تعقيدًا، تتمثل في الأفعال التي تنطوي على معنى: «يجب أن أستوعب هذا بداخلي أو أُبقيه خارجي»» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٧). وبذلك يتخذ الإنكار الآن شكلَ إبقاءِ شيءٍ ما خارجَ ذاتي. علاوةً على ذلك، فإن عملية الإنكار يُعزِّزها رفض الاعتراف بها كجزءٍ من نفسي، حتى لو كان أَبعدَ جزءٍ عن الوعي فيما يُطلِق عليه فرويد أنا المُتعة الأصلية. لم يرد هنا ذكرٌ للإشارة إلى شكلٍ عقلي للحكم، ولعل هذا بسبب أن هذه العملية ما زالت تنتمي لمبدأ المتعة. وحتى ذلك الوقت، كان فرويد ينظر إلى الكبتِ في إطار اختيارِ الحِفاظ على صورةٍ أو فكرةٍ ما في الوعي أو إرسالها لأبعدِ ما يُمكِن إلى داخل اللاوعي. وكان هذا الاستنكار مرتبطًا بالحكم بينما كان الرفض مرتبطًا بحركة إبعاده. والآن لم يعُد يُشير إلى الكبت بل إلى الدوافع الشفهية وهي أقدمُ الدوافع، والتي يجب فقط ألَّا تُقرِّر الإبقاء على محتوًى ما في الوعي أو كبته، بل عليها أيضًا أن تتخذ قرارًا يتجاوز الفروق التي حاوَلَ فرويد مواكبتها حتى الآن، محاولًا بناء بعض الجسور؛ فيصبح الحكم: «يجب أن أرغب في استيعاب هذا أو أن ألفظه» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٧). إن الصيغة الحاليَّة تُوسِّع نطاق الصيغة السابقة التي تحدَّثَت فقط عن احتمالية الاحتفاظ بشيءٍ ما في الوعي، أو تفضيلِ كبته؛ فيكتب فرويد صيغةً مدهشةً للغاية: «بادئ ذي بدء، إن ما هو سيئ أو غريبٌ بالنسبة إلى الأنا وما هو خارجيٌّ متطابقان» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٧). أظن أن ما يُلمِّح إليه فرويد هو أن الوظيفة الأساسية للجهاز النفسي، في البداية، هي بِناء أنا للمتعة الأصلية بإنكار أي شيءٍ يمكنه التعارض مع بناء نَواةٍ للخير، وهي التي لا غنى عنها مطلقًا لبناءِ عالمٍ نفسي أكثر تعقيدًا، في ظل القيود والإحباطات الحتمية التي سيُضطَر لتحمُّلها. نَتذكَّر أنه تحدَّث بالفعل في بحثه «صياغات عن مبدأي النشاط الوظيفي للعقل» عن الانتقال من «أنا المتعة» إلى «أنا الواقع» (١٩١١ب، صفحة ٢٢٤). إن فرويد يُطوِّر أفكاره. في البداية، يكون ثمة أنا واقع مبدئية يكمُن هدفها الأساسي في التمييز بين أصول المُحفِّزات. إذا استطاع الفرد، حال وجودِ أسبابٍ للاستياء والضيق، التخلُّص منها بالهروب، فإنه يُحدِّد موقعها كمُحفِّزاتٍ خارجية. أمَّا إذا لم تأتِ هذه المحاولة بأيِّ راحة، فإن المُحفِّزات

تُعتبَر داخلية. لكن من منظور فرويد، يكون الخارجي في البداية خارجيًّا فقط دون أن يكتسب أيَّ صفات، عدا كونه غريبًا عن الأنا وعن السيئ. ثَمَّةَ تعديلٌ بين الصيغة الحالية وبعض الصيغ الأخرى التي تبدو متشابهة تمامًا في البحوث الأُولى؛ ففي مقال «الغرائز وتقلباتها» الذي تضمَّنَته أبحاث كتاب «علم ما وراء النفس» (١٩١٥)، يقول: «في البداية يبدو العالم الخارجي والموضوعات وما هو مكروه مُتطابقِين» (١٩١٥أ، صفحة ١٣٦؛ انظر كذلك الملاحظات في النسخة الأصلية، صفحة ١٣٥). لكنه يُضيف في موضعٍ لاحق في ذلك البحث عينه: «غير أننا الآن ربما نُشير إلى أنه مثلما يعكس النقيضان، الحب وعدم الاكتراث، التناقُض بين الأنا والعالم الخارجي، فإن المتناقضة الثانية بين الحب والكراهية تُعيد إنتاج متناقِضة المتعة وعدم الاستمتاع وهو ما يرتبط بالمُتناقِضة الأُولى» (المصدر السابق). في بحث ١٩٢٥أ، اختفت الإشارة إلى عدم الاكتراث؛ لأن التركيز الآن أصبح منصبًّا على الطرد؛ لذا فإن الفصل الجديد ينتج عنه انقسامٌ بين الداخلي والخارجي. لكن الأنا لا تعرف عن هذا الخارجي شيئًا، فيما عدا أن على الفرد إبعادَه بقدْر ما يستطيع عن الداخل. يكمُن التناقُض هنا في أن بناءَ باطنٍ داخلي يكتسب معنًى من خلال إشارته إلى نقيض، لكن هنا العالم الخارجي هو فقَط العملية اللازمة للسماح باحتمالية الاستدماج بمحاولةٍ جذرية لعزله. من الصعب جدًّا إدراكُ ما يقوله فرويد؛ لأن من الصعب تخيُّل قَبولِ أنَّ ما هو سيئ وغريب بالنسبة إلى الأنا وما هو خارجي متطابقان، دون أيِّ إمكانيةٍ لتحديد موقعهما. من إحدى الطرق لجعل هذه الفكرة أكثر قبولًا هو ربطها بموضوع. وهذا ما يحدُث عادةً في مختلف الأنظمة النظرية. وقد اعتمد أتباع ميلاني كلاين كذلك على نموذج فرويد، مُحوِّلِين الامتصاص والطرد إلى أمرَين عُرضةً لتصنيفهما ضمن أشكال الاستدماج والإسقاط، ومُحيلِين كليهما إلى الموضوع الأوَّلي، ومستمدِّين كلَّ أنواع الصراعات من هذا الموقف الأوَّلي. يبدو أن فرويد يرجع إلى مفهومه الثابت؛ فكرة وجودِ نظامٍ مُغلَق. ففي إحدى الملاحظات التي جذبت انتباه وينيكوت، قال فرويد عام ١٩١٠ على وجه الدقة إن مثل هذا النظام المُغلَق هو ضربٌ من الخيال وممكنٌ فقط إذا أخذنا الرعاية التي يلقاها الطفل الرضيع من الأم في الاعتبار (١٩١١ب، الصفحات ٢٢٠–٢٢١). وقد أُثيرَ الكثير من الانتقادات ضد هذا المفهوم. ما يجب أخذه في الاعتبار ليس افتراضَ عدمِ وجودِ الموضوع بقدْر فكرةِ أن الوظيفة الأساسية للموضوع — بطبيعة الحال في الظروف المألوفة للأمومة — هي حماية الطفل والإبقاء على وَهْم أن بإمكانه أن يجمع تجاربه الحياتية بتضمينها، لفترةٍ ما، في محتوًى يشعُر بأنه مطابقٌ له تحكمه المتعة، ما يُعزِّز

بداية الوعي بالذات والتماهي مع ما يستوعبه ويجده جيدًا. لم نبتعد كثيرًا عن مفهوم وينيكوت عن الأُم الجيدة بما يكفي، أو فكرته عن الموضوع الذاتي. وكما أكَّدت سابقًا، كان همُّ فرويد الأساسي بناء أنا أصلية للمتعة. أمَّا ما يخالف هذا، فيصفه فرويد بالطرد، وهذا سببٌ تفضيلي لمصطلح الاستحواذ على مصطلح الإسقاط لتسمية الموقف. لكن هذا نصف القصة فقط؛ إذ يتعين علينا التعامُل مع أنواعٍ أخرى من القرارات، أو بمعنى آخر الوجود الحقيقي لشيء يتواجَد في العقل كتمثيل. نرى هنا ضرورة النظر إلى ما هو خارجي، وهو الذي استُبعِد في السابق كونه مطابقًا للسيئ والغريب بالنسبة إلى الأنا، على نحوٍ مختلف. لم يغفل فرويد أبدًا عن الخطوة التي لا غنى عنها الخاصة بالقدرة على إيجادِ وسيلةٍ لإشباع الرغبة في العالم الخارجي. وهذه هي مهمة أنا الواقع النهائية. لكن لكي تكون قادرةً على القيام بهذا، لا بد من التغلُّب على سيطرة مبدأ المتعة: «التناقُض بين الذاتي والموضوعي لا يُوجد منذ البداية. لكنه يخرج إلى الوجود فقط من رحمِ حقيقةِ أن التفكير يمتلك القدرة على أن يضع أمام العقل مرةً أخرى شيئًا كان قد أُدرِك من قبل عن طريقَ إعادةِ إنتاجِ تمثيل دون الحاجة لأن يبقى العالم الخارجي هناك» (١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٧). بعبارة أخرى، رغم الإيمان بأن اختبار الواقع مرتبط مباشرة بالإدراك — وهو الذي لن يحتاج في هذه الحالة إلى أيِّ اختبار — يجب أن يبدأ الواقع من تقييم التمثيل. مُجددًا، تُعطَى الأولوية مرةً أخرى — كنقطةِ بداية — للعالم الداخلي الذي يخضع للفحص الدقيق. لا يُعنى اختبار الواقع بمهمة العثور على موضوع، و«لكن بإعادة العثور على مثل هذا الموضوع لإقناع الذات بأنه ما زال موجودًا» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٧). كيف يمكن أن يحدث هذا التطور؟ هنا تأتي واحدة من أكثر الجمل التي كتبها فرويد غموضًا: «لكن من الواضح أن الشرط المسبق لإعداد اختبار الواقع هو أن تكون جميع الموضوعات التي أحدثت إشباعًا حقيقيًّا في وقتٍ ما قد ضاعت» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٨). كيف يمكن لكل هذه الموضوعات أن تضيع؟ الطريقة الوحيدة المتاحة لي لفهم تلك الجملة هي صيغة فرويد الضمنية التي تشير إلى أن فعل استيعاب الجيد وإبعاد السيئ، تحت سيطرة مبدأ المتعة، يتحقق في موقفٍ لا يتضمن انفصالًا: إن ما أستوعبه بداخلي يصبح أنا مثلما أُصبح أنا ما هو جيد. وهذا الموقف ينتهي بانفصال. هكذا فقَط سأصبح مضطرًّا لإدراك الوجود المستقل للموضوع؛ ومن ثم إدراك خسارته، وهو ما يُعد في نظر فرويد، تَحوُّلًا مهمًّا للغاية نحو أنا الواقع النهائية؛ فمع هذه الخطوة، يحدث التمايُز بين الخارجي والداخلي أخيرًا. وهذا الواقع الخارجي، الذي يضُم كل الموضوعات الجيد منها

والسيئ، بسبب حدوث الفصل، يحث الشخص على البحث مرةً أخرى عن تلك الموضوعات التي كانت موجودة بالفعل، لكن فقط في شكل تمثيلاتٍ استُدمِجَت (وكُبِتَت) فيما سبق. لقد أدَّت خطوة الطرد الأُولى إلى تمييزٍ بين «ما هو أنا» وما ليس أنا. ولم يعُد «ما ليس أنا» مساحة للغياب وانعدام الوجود؛ فجزء من الموضوع الذي يحتويه يعمل من أجل تحقيق الإشباع الذي كانت تسعى وراءه أنا المتعة الأصلية. ولمعظم الوقت، يُوجَّه البحث عن الموضوعات بلا وعي.

(٥) يعود فرويد مرةً أخرى إلى الحكم. لكنه ينظُر إليه الآن — والأصح أن نقول مرةً أخرى — كفعلٍ فكري قرَّر وضعَ نهايةٍ للتأجيل بسبب التفكير لينتقل من التفكير إلى الفعل؛ يمكن القول إنه تحوُّل للفعل الفكري إلى فعلٍ مادي. إنه استعداد للتصرُّف بطريقةٍ تُمكِّن المتعة من العثور على موضوعٍ يمكنه جلب إشباعٍ حقيقي. لقد كانت هذه الفكرة حاضرةً بالفعل في «مشروع» فرويد (١٨٩٥، الصفحات ٣٣٠-٣٣١) وها هي تعود للظهور هنا. إن أسلوب التفكير يعود بجذوره إلى النشاط اللمسي في النهاية الحسية للجهاز النفسي. وهنا يعود فرويد إلى فكرةٍ كان قد عبَّر عنها في بحثه «مبدأَي النشاط الوظيفي للعقل» عام ١٩١٠. وها هو هنا يستدعي فكرته تلك: الإدراك ليس توجُّهًا سلبيًّا؛ فهو يؤكد أو ينفي امتلاك سماتٍ بعينها أيضًا. وبذلك فهو يعتبره فعلًا تجريبيًّا.

(٦) الآن نصل إلى ختام هذا التطوُّر المُعقَّد: «تتيح لنا دراسة الحكم، ربما للمرة الأُولى، رؤيةً نافذة داخل مصدرِ وظيفةٍ فكرية ناشئة عن التفاعل بين الدوافع الغريزية الأساسية» (١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٩). إن إصدار الأحكام يُعَد تطوُّرًا ذا أهدافٍ مُحددة للخطوات الأُولى التي تخضع لمبدأ المتعة فيما يخص ما يمكن تضمينه داخل الأنا وما يجب استبعاده منها. لكننا رأينا أن إصدار الأحكام يُشارك في هذا النشاط. يُلخِّص فرويد الأمر كما يلي: «التوكيد — كتشكيلٍ بديل — ينتمي إلى الغريزة الجنسية؛ بينما ينتمي الإنكار — خليفة الطرد — إلى غريزة التدمير» (المصدر السابق، صفحة ٢٣٩). هنا يستخدم فرويد أفكارًا يمكن فهمها فقط داخل إطارٍ تصوُّري. كذلك تُشير الغريزة الجنسية إلى التوحُّد؛ ويُعتبر التوكيد بديلًا لها. لكن هذا لا ينطبق على غريزة التدمير التي يُعتبر الإنكار خليفة لها، وهو ما يُثير مسألة التطوُّر بين التدمير، كمظهرٍ لغريزةٍ ما، والإنكار، الذي ينتمي إلى الحكم العقلي، كما لاحظ إيبوليت. في النهاية، يتمنى فرويد تحديد مكان الإنكار. لكن ربما تكون تعليقاته الهامشية أكثرَ أهميةً مما أُعطيت. على سبيل المثال، عندما يذكر نزعة السلبية كتعبيرٍ عن الرغبة العامة في الإنكار، ويرى فيها إشاراتٍ لتفكُّك الغرائز الذي حدث من

خلال انسحابِ مُكوناتِ الغريزة الشهوانية، ربما نُفكِّر فيما يحدث للنموذج مثلما طُرِح آنفًا، حتى لو كنا لم نُواجِهْ مطلقًا هذا النوع من المرضى. لا يمكن أن يبقى انسحابُ المكوناتِ الشهوانية غيرَ مُتأثِّر بتفكك السمات السلبية؛ ففي هذا الموقف، لا تكفي المساواة بين ما هو سيئ وغريب بالنسبة للأنا وبين الواقع الخارجي. في بعض العلاقات المُبكِّرة بين الأم والطفل، تكون مهمةُ ضمانِ وجودِ أنا جالبة للمتعة عُرضةً للخطر بدون شك؛ إذ يصبح من المستحيل الجهل بهذه السمات المختلفة والتخلُّص منها. يبدو الأمر كما لو كان الشخص الخاضع للتحليل مُجبرًا على استثمار، ليس فقط الموضوعات السيئة، بل كذلك موضوع الموضوع (الذي لا يكون هو عينه)، الذي يمنعه من بِناءِ نَواةِ ذاته كما لو كانت النتيجة ستكون التضحية الذاتية بالأنا الجالبة للمتعة في سبيل الموضوع الذي من المفترض أن يكون في عقل الأُم؛ وهو ما أَسميتُه موضوع الموضوع. يمكننا سرد أمثلةٍ أخرى لتحريفاتِ وظيفة الإنكار وهي التنصُّل (فرويد، ١٩٢٧، صفحة ١٥٤)، والتبعات التي سيُطوِّرها لاحقًا، أو طوَّرها في الواقع في آخرِ بحثٍ له لم يكتمل بعنوان «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع»، من خلال تناوُل حالة صبيٍّ يبحث عن الإشباع الغرائزي ويخشى بعض التجارب التي يحتمل أن تُعرِّضه للعقاب، وهو ما وضعَه أمام قرارٍ يجب اتخاذُه سواء بالاستمرار أو بالاستسلام، ونشأ عن هذا القرار صراع. «لكن في الواقع لا يتخذ الطفل أيًّا من المسارين، أو بالأصح يسلك الاثنين بالتزامُن مما يقوده للنتيجة نفسها» (فرويد، ١٩٣٣، صفحة ٢٣٤). هذه النتيجة هي انقسام الأنا. ثمة أمثلةٌ قليلة، عمومًا، في أدبيات علم النفس تتبع المسار نفسه. وفي النهاية نُواجه، على أقل تقدير، الإشكالية الكبرى التي ضاعت أثناء مرحلة التطوُّر وهي عدمُ وجودِ تعريفٍ لوظيفة الترميز. بالعودة إلى تجربة التحليل لينهي البحث، يقول فرويد: «لا يُوجد دليلٌ أقوى على نجاح جهودنا لكشف اللاوعي أكثر من استجابة المريض له بكلمة «لم أفكِّر في هذا» أو «لم أفكِّر (أبدًا) في هذا»» (١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٩). وقد كان يمتلك الأفكار نفسها عندما أعاد قِراءةَ سرده لأولِ حالة تحليلٍ نفسيٍّ تولاها، وهي حالة دورا، ضمن السرد الذي أُعيد نشره لسجل هذه الحالة في بحث الإنكار قبل عامَين (صفحة ٥٧ / ١) (١٩٠٥أ، صفحة ٥٧، أضيفت حاشية ٢ في عام ١٩٢٣). ويعود فرويد ليُكرِّر الكلمات نفسها قبل وفاته بعامَين في مقال «بنيات في التحليل» (١٩٣٧، صفحة ٢٦٣).

ومع ذلك، وقبل نهاية البحث، يعود فرويد إلى الفكرة التي واتَته سابقًا، وهي خلق رمزٍ للإنكار يمنح «التفكير أول قدْر من الحرية من عواقب الكبت» (١٩٢٥أ، صفحة ٢٣٩).

ألا يُمكِننا التفكير في أن عملية الترميز في حد ذاتها يمكنها أن تكون مرتبطةً كذلك بالتفاعُل بين الإنكار والتوكيد؟ يترك البحث هذا السؤال بدونِ إجابة. وسيشغل هذا السؤال أجيالًا مستقبلية من المُحلِّلِين النفسيِّين.

(٣) مزيد من الأفكار حول الموضوع

يُمكِننا افتراضُ أنه عندما كان فرويد يعكف على كتابة بحث «الإنكار»، كان يمتلك في لا وعيه فكرتَين: الأُولى هي توضيحُ كيف يمكن النظر إلى الوظائف الفكرية بوصفها تملِك أصولًا مُتجذِّرة في أكثر النشاطات بدائيةً كما فهمها، وهي الدوافع. على النقيض، وفي الفكرة الثانية، والتي يُعبَّر عنها على نحوٍ أقلَّ صراحة، يبدو أنه يُخمِّن أنَّ نشوء وتطوُّر هذه الأشكال الأساسية من النشاط هو ما يُؤدِّي لنشوء الوظائف الفكرية. كان فرويد قد كتب هذا البحث قُبيل كتابته لبحث «ملاحظة بشأن لوح الكتابة الغامض» (١٩٢٥ب) وهو الذي يتعامل مع طريقة الانطباع المختلفة لآثار الذاكرة، وأشار بالأساس إلى أمثلة النموذج الطبوغرافي الأول الخاص بالوعي واللاوعي وما قبل الوعي (فيما يتعلق بالدرع الواقية). كان بحث «الإنكار» أكثر طموحًا؛ إذ يُوسِّع مجاله ليشمل التفكير، في حين كان البحث السابق عليه مُهتمًّا فقط بالذاكرة. يتناول فرويد ما يقع وراء اللاوعي (والذي يُنظَر إليه الآن كسمةٍ نفسية فقَط)؛ أي الهُو كقوةٍ نَشأَت في الأساس بواسطة الدوافع وعلاقتها بالفكر. في ظني أن فرويد كان يرغب في التأكيد على فكرةِ القوة المُشار إليها في مصطلح «الدافع». لكن من المهم أن نَتذكَّر أن معظم الدوافع من منظور فرويد كانت لا واعية؛ لذا فإن التحدي الحقيقي يكمن في فهم سلسلة الأحداث النفسية التي ربطت هذه الدوافع بنشاط التفكير. ولعل من أهم الخطوات في هذه السلسلة من الأحداث هو حيازة رمز الإنكار. لقد عانى فرويد من مشكلة التعبير بالرموز منذ بداية عمله؛ فهو يعتمد على فكرة الاستبدال الكلاسيكية، لكنه يرى أن مثل هذا النشاط مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا باللاوعي؛ ولهذا ينصَب تركيزه على الأحلام. لقد كان يُنظر إلى التعبير بالرموز كلغةٍ عالمية تتجاهل قواعد اللغة في أكثر أشكالها عمومية. والواقع أن التعبير بالرموز، في هذا السياق، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتمثيل (تمثُّل فعلٍ بفعلٍ آخر وموضوع بموضوعٍ آخر)، أو بتحوُّل من شكلٍ إلى آخر من أشكال النشاط النفسي (كتحوُّل الأفكار إلى صورٍ ذهنية). لكن في بحث «الإنكار»، يبدو أن فرويد يُفكر في شيءٍ آخر أقرب إلى الاستخدام التقليدي للتعبير بالرموز؛ ففي رسالة إلى فرينزي، يقول فرويد إن الوظيفة الرمزية تبدو

البداية لتشكُّل مفاهيم اللاوعي غير المتمايز، وهو نوع من «التجريد الأولي» (٣ يونيو عام ١٩١١). يمكننا أن نرى في تعبير «اللاوعي غير المتمايز» مؤشرًا لما سيضع له لاحقًا تصوُّرًا بوصفه «الهو»؛ لذا، وحتى لو كان فرويد عثر على التعبير بالرموز في أكثر بنى العقل قِدَمًا، فهو يعني أن ما يحتاج إلى تفسير هو هذا «التجريد الأولي». لكن إذا ركزنا على «الإنكار» فقط، فسيُغرينا ذلك بإغفال هذا التجريد الأولي والتفكير في أن الفرضيات الخاصة بنشاط الدوافع، كما وصفت في بحث ١٩٢٥، حتى مع تضمين الموضوعات، ربما تفسره.

يمكننا تمييز نوعَين من الإسهامات في الأدبيات التي جاءت بعد عمل فرويد. في مرحلةٍ أولى، كان ثَمَّةَ اعتقاد أننا لو كان لدينا درايةٌ أفضلُ بما يفترض أنها الخطوات الأُولى للأداء الوظيفي النفسي، لأمكننا فهم هذه الخطوة الرمزية. وفي خطوةٍ أبعد، صارت هناك حاجةٌ لإضافة مفاهيمَ جديدة لتوضيح تبعاتِ ما يُسمى بالتجريد الأوَّلي.

كان فرويد مهتمًّا في الأساس بتقديمِ نموذجٍ عامٍّ مستقلٍّ بشكلٍ ما عن نوعية المرضى الخاضعَين للتحليل. لم يكن يدرك أن نموذجه يمكن أن يكون صالحًا فقط لهؤلاء المرضى الذين وُصِف لهم التحليل النفسي. وقد وَقعَت ميلاني كلاين في خطأ مماثل وإن كان في اتجاهٍ مضاد. فنراها تُقدِّم نظريةً عامة عن تشكيل الرموز، مستلهمةً أفكارها من طفلٍ مضطربٍ ومكبوتٍ للغاية بل مُصاب بالتأخُّر العقلي. ورغم أنها تستخدم مفهومَي الاستدماج والإسقاط بكثافة في عملها، فإن من العجيب أنهما لا يُذكران هنا كنقطةِ بدايةٍ لبحثها المتطوِّر. وبدلًا من التفاعُل بين الامتصاص والطرد، اللذَين يرمزان إلى التوكيد والإنكار، تتوجه رؤيتها بالكامل إلى مكافحة التهديدات التدميرية. ويرى معظم المحلِّلين من غير أتباع كلاين، أن الأوهام الأساسية، في الظروف الطبيعية، مرتبطةٌ بتمنِّي تجدُّدِ تجارب الإشباع. إن آثار الذكرى تتغير، لكن الهدف النهائي دائمًا ما يرتبط بتجنُّبٍ للاستياء وبحثٍ عن المتعة. وما زلنا نُحاول تخمين كيفيةِ اكتشافِ وجود عمليات التعبير بالرموز قبل استخدام اللغة.

عندما كَتبَت ميلاني بحثها عن تشكيل الرموز (١٩٣٠)، انتَقلَت لصيغةٍ أخرى لتفسير فرويد. تفترض ميلاني أن الساديَّة تبلغ أَوجَها في الرغبة في التهام الثدي في المرحلة الفموية. في هذا الموقف، ينشأ قلقٌ شديد من مَصدرَين: سادية الطفل التي يُسقطها على أبويه مثل الخوف من الثأر لهذه الهجمات بواسطة هذَين الموضوعَين الأوَّلَين. يكون هذا الدفاع الأوَّلي عنيفًا جدًّا، وتصفه بأنه شيءٌ مختلف جوهريًّا عن الكبت؛

فالدفاع هنا مُضاعَف؛ دفاع ضد سادية الطفل حيث يكون رد الفعل هو الطرد، وضد الموضوع، حيث يدخل التدمير حيز التنفيذ. هنا نجد الفكرة نفسها التي نجدها لدى فرويد في اعتراض الطرد، لكنها مصحوبة بتدمير الموضوع، وهو موضوع ما زال غيرَ موجود بالنسبة إلى فرويد. بعد ذلك تتناوَل ميلاني أيضًا عملية التعبير بالرموز، وتقصر وصفها على وجودِ إزاحةٍ على موضوعاتٍ أخرى جديدة دون الدخول في أيِّ تفاصيلَ عن كيفية حدوثها، رغم التأكيد على أهميتها باعتبارها النشاط الأساسي للطفل تجاه العالم الخارجي والواقع. ولا يسعُك إلا أن تُصاب بالدهشة من حقيقة أن وظيفة الالتهام الخاصة بالمرحلة الفموية لا تتضمن، داخل البحث، ما يُسمَّى عادةً بالثدي الطيب، كما لو كان تكوين الرموز قد فُصِل عن تجربة الإشباع؛ فلا يُذكَر أيُّ شيءٍ عن دافع الامتصاص والحفاظ على الجوانب الإيجابية للتجربة الفموية. تتذكر ميلاني كلاين أنها قدَّمَت وجهة النظر القائلة إن الرمزية هي أساسُ كل الارتقاء والتسامي؛ لأن الأوهام الشهوانية تنبثق من التمثيل الرمزي. لكن في عام ١٩٣٠، نرى أن القلق هو سبب هذا التمثيل، مما يؤسس «لمعادلاتٍ جديدة». لذا فهي ترى أن التدمير هو أكثر الأشكال بدائيةً وأن العلاقات الشهوانية تُصادِف بشكلٍ غامض أن تنبثق من إزاحة القلق. لا نجد أيَّ تلميحٍ لقلق فرويد من الأشكال الأوَّلية من التجريد. الإشارة الوحيدة لهذه الملاحظة الجانبية، والتي لم يُطوِّرها مطلقًا، كانت في كتابه «النكات وعلاقتها باللاوعي» (١٩٠٥ب).

ثَمَّةَ نقطةٌ واحدة ربما يلتقي فيها فرويد وكلاين؛ فرغم أنها لا تُورِد أي ذكرٍ لفقدان الموضوع في بحثها عام ١٩٣٠، فإن بعودتها إلى الموضوع في «مناظرات كلاين-فرويد» (١٩٤١–١٩٤٥)، تستدعي كلاين فكرتها الأُولى، وتُضيف بعض الملاحظات المثيرة للاهتمام عن أن الإزاحة على موضوعاتٍ جديدة يساعد في تحجيم المشاعر المرتبطة بفقدان الموضوعات الأساسية. أعتقد أن فرويد عندما كانت تُراوده فكرة التجريد الأوَّلي، كان يُفكِّر في مرحلةٍ تحدُث بعد فقدان الموضوع الذي جلب الإشباع فيما سبق. مع ذلك، فإن التجريد يرتبط بنشاطٍ وظيفتُه هي استبدال الإشباع بالأوهام الشهوانية، وهي التي يمكنها ربطُ بعضِ آثار الإشباع في الذاكرة بتمثيلات، سواء للموضوعات الأساسية أو الإشباع الذي حقَّقَته. التجريد هو استخلاصٌ لسماتٍ يُفترَض أن تتشاركها الموضوعات من خلال التفكير، وهي سماتٌ تُحدِّد المفاهيم. الفارق الأساسي بين أفكار فرويد والأفكار الكلاسيكية الأخرى أن الاستنتاجات، رغم «تجريديتها»، قائمةٌ على توقُّعات الرغبة والإشباع؛ لذا، فإن الفكرة تتعلق بإعادةِ إيجاد موضوع بدلًا من إيجاده؛ ف «إعادة الإيجاد» هي بناءٌ لا يخدم

إلا إظهارَ كيف يصبح الإشباع واقعًا. تتمثل عملية التجريد في فكر فرويد من خلال فكرةِ أنَّ أيَّ عملية عكس، وهو ما يُعبِّر عن عدمية الحدوث، أو في هذه الحالة الإنكار، يظل بإمكانها إشباع الوهم أيضًا، بفضل استخدام الوظيفة الرمزية التي تسمح بدخوله إلى الوعي، فيما لا نجد لدى كلاين قَط هذا النوع من التفكير.

ورغم المسارات الجديدة التي فتحتها كلاين، كان ثَمَّةَ إحساس بعدم اكتمال التفسير. تعود سيجال لموضوع التعبير بالرموز في عدة أبحاث، فتطرح فارقًا بين «تشكُّل الرموز» كما شُوهد في المعادلات الرمزية — وهو ما يبدو قريبًا إلى حدٍّ كبير من وصف كلاين حسب مصطلحاتها الخاصة، بناءً على تفكيرٍ متماسك لا يبدو فيه اختلاف بين الرمز والشيء الذي يُعبَّر عنه بالرمز على نحوٍ ملموس — وبين «الوظيفة الرمزية»؛ فعلى عكسِ ما يحدُث في تشكُّل الرموز، «يُمثِّل» الرمز، في الوظيفة الرمزية، الشيء الذي يُرمَز إليه ولا يُخلَط بينهما. ويشير هذا ضمنيًّا كذلك إلى وجودِ شخص، مختلفٍ عن موضوعه، يقوم بتمثيلٍ وهو العنصر اللازم للتعبير الرمزي الصحيح. إذن ها هو التمثيل، الذي ذُكِر في بحث فرويد المُفصَّل والمستفيض عن الإنكار لكن كلاين استَبعدَته في بحثها، يعود مرةً أخرى. لكن التمثيل هنا شبهُ مساوٍ للوهم؛ ففي هذا الموقف، تنشأ علاقةٌ ثلاثية الأطراف، هي: الرمز، والموضوع الذي يرمز إليه، والشخص الذي يُمثِّل الرمز بالنسبة له رمزًا للموضوع. تقول سيجال: «في غياب الشخص، لا يمكن أن يُوجد رمز» (١٩٨١). في حالةِ تشكيلات الموضوع، يحدث خلطٌ بين الأنا والموضوع. نجد لدى سيجال كذلك فكرةَ أن الترميز يُساعد في التواصل الداخلي بين المرء وذاته. تُشير تطويرات سيجال بوضوحٍ إلى أن المعادلات الرمزية تنتمي إلى مرحلة الفصام البارانويدي، حيث تكون الوظيفة الرمزية أكثر ارتباطًا بالوضع الاكتئابي. لكن هذا البناء النظري ما زال يعتمد على الفرضيات الأساسية، مثل التماهي الإسقاطي، حيث يكون من المُسلَّمات أن الطفل يُسقط أجزاءً من أناهُ داخل جسدِ والدته، لكيلا يتخلَّص فقط من أجزاءٍ من ذاته، ولكن أيضًا ليستحوذ على الأُم ويتحكَّم بها باعتبارها الموضوع الموجود منذ البداية.

مع ذلك، يتجدد الاهتمام بين الجيل التالي من أتباعِ كلاين بموضوعاتٍ مُرتبطة بالإنكار، كما في أعمالِ بيون والتي يُحدِّد فيها المعضلة النفسية الكبرى؛ قبول الإحباط وتغييره أو تجنُّبه بتجريده من العناصر التي يتعذَّر معالجتُها وهي عناصر بيتا (المدركات غير المعالجة فكريًّا). نجد في كتابات بيون هذا الاهتمام بـ «الأفكار التجريدية الأولية» التي لَفتَت انتباه فرويد، ويبني نموذجًا لمساعدتنا في فهمِ كيفيةِ تحديده لها. وسنقصر

فحصنا لنظرية بيون المُعقَّدة على النقاط المرتبطة بالإنكار. إذا تبنى بيون نظريةَ كلاين التي تنظر إلى الثدي كشيءٍ سيئ؛ نظرًا لأن الوعي به يُفصِح عن نفسه من خلال نقص الإشباع الذي تخلقُه الحاجة إلى الرعاية، فإنه بذلك يجلب رؤيةً جديدة للقدرة على تخيُّل التواصُل مع الأم كتعبيرٍ عن حبها، مُفضِّلًا قدرة الطفل على تغيير الإحباط بدلًا من تفاديه بالتفريغ؛ إذ تضم هذه الفكرة الخيالية موضوعاتٍ أخرى محبوبةً تعتز الأم بها. ويُساعد هذا في بناءِ عناصرِ أَلفَا (المدركات والخبرات النفسية غير المُعالجة) في مقابلِ عناصرِ بيتَا المحكوم عليها بالتفريغ لتخفيف العبء عن النفس، مما يدعم وهمَ كليِّ القدرة للتماهي الإسقاطي المُراوِغ. وعلى العكس، يُصبِح الإحساس بالخيال عُرضةً لإدراكِ أيِّ موضوع. وبهذا لا يكون استدماج الثدي الطيب كسمةٍ نفسيةٍ عمليةٍ فردية، بل عمليةً معقدة وغيرَ مباشرة يتم إيصالها. تستمد الوظيفة ألفَا (عملية استيعاب المُدركات ومُعالجتها)، اللازمة لتحويل التجارب العاطفية، مصدرها من وظيفة ألفَا الخاصة بالأم. ويُقسِّم بيون عملية التفكير إلى أفكار، وأفكارٍ تنشأ من جهازٍ للتفكير في الأفكار الأُولى.

يقول بيون، دون الخوض في تفاصيلَ كثيرة، إنه عاجلًا أم آجلًا سيخلُق الثدي المرغوب فيه فكرةً عن ثديٍ مفقود كنتيجةٍ لعملِ عناصرِ ألفَا؛ بعبارةٍ أخرى، لا يمكن صنع العقل إلا بالاشتراك مع عقلٍ آخر. إن ما يتحدث عنه بيون غيرُ مرتبطٍ فقط بالاستدماج بل كذلك بالتقبُّلية. يمكننا أن نستنتج من كتابات بيون فارقًا بين «اللاشيء» كفكرةٍ مرتبطة بغياب شيءٍ ما تؤدي إلى وعيٍ لا يمكن إدراكه إلا من خلال عملية التفكير، و«اللاوجود» الذي يشير إلى أمرٍ لا يمكن التفكير فيه ولا يُثير في العقل إلا فجوةً يصنعها تفريغ الإحباط المرتبط بإحساس «انعدام الوجود» أو «انعدام العاطفة».

كان أعظم إنجازات بيون هو التوصُّل لما يُسمَّى ﺑ «القدرة السلبية»، وهو مُصطلحٌ اشتَقَّه من مراسلات الشاعر جون كيتس، الذي يُعرِّفها بأنها حالةٌ عقلية يكون فيها الإنسان «قادرًا على مواجهة الشكوك والألغاز دون سعيٍ محموم وراء الحقائق والمُسببات»؛ لذا، نرى هنا أن القدرة السلبية يمكن فهمها كذلك كنتاجٍ للترميز؛ وظيفة الربط التي يجب ألا تنتهي بإنهاءٍ سابقٍ لأوانه للمسألة.

طرح بيون لاحقًا مفهومًا جديدًا لتوسيع عمليات التفكير، وأضاف إلى مفهومَي الحب والكراهية المعروفَين مفهومًا ثالثًا ذا أهميةٍ مساوية وهو المعرفة، وأكمل هذا المفهوم الأخير بضده، وهو المعرفة السلبية، الذي نجد فيه عودةً لمفهوم السلبي؛ فقد كان مهتمًّا

بالفعل بهذه المسألة وأتى على وصفِ هجماتٍ على الربط. إنه يتحدث الآن عن مرضى يُلحقون تدميرًا ممنهجًا بمحاولات المُحلِّل النفسي للتفسير. ويعتمد في ذلك على مفهوم كلاين للحسد. إن وظيفة المعرفة السلبية لا يمكن فصلُها عن شعورٍ بالأفضلية والتفوُّق يُحاوِل تدميرَ أيِّ تطوُّرٍ جديد في الشخصية. وقد طُرِحت فرضيةٌ مثيرة للغاية عن المعرفة السلبية؛ إذ يفترض بيون أن طفلًا يشعر بخوفٍ من الموت ويُقسِّمه ويُسقِط شعوره هذا داخل الثدي الذي يشعر بأنه قد أُزيل منه العنصر الجيد والقيِّم الذي يحويه. تعود الرواسب العديمة القيمة مرةً أخرى، والمرتبطة بالمعرفة السلبية، إلى داخل الطفل قسرًا. لكن في هذه العملية الثانوية، فالأمر أبعد كثيرًا من عودة الخوف من الموت الذي يتم إسقاطه مرةً أخرى قَسرًا. «في الواقع يبدو الأمر كما لو كان الطفل قد فرَّغ افتراضيًّا الشخصية بأكملها» (١٩٦٢). إن السمة المميزة المسيطرة هنا هي «الافتقار».

كان لاكان كذلك مهتمًّا بالعلاقة بين الإنكار والترميز. وعلى عكس بيون، فإنه لا يبدأ بالتجربة العاطفية، بل يبني فكره على الدال. إن المسألة الرئيسة هنا هي تحوُّل الذات التي لا يمكن أن توجد إلا داخل النظام الرمزي في علاقته بالدال؛ فيرى لاكان أن تحوُّل الذات يجب أن يتم من خلال علاقتها بالذات الأخرى في الخطاب اللاواعي وفي إشارة للنظام الرمزي الخاضع لحكم «اسم الأب». ويُوضِّح لاكان أفكاره بإشارةٍ إلى حالة شريبر. يُصحِّح فرويد نفسه في تعليقه على حالة شريبر: «كان من الخطأ قول إن الإدراك الذي يُكبَت داخليًّا يتم إسقاطه للخارج؛ فالحقيقة التي أُبطِلَت داخليًّا، كما نرى الآن، تعود من الخارج» (فرويد، ١٩١١ج، صفحة ٧١). تَفهَّم لاكان (١٩٦٦) هذا التمييز معتبرًا أن تمييز فرويد قد ألمح إلى حقيقةِ أنَّه عندما تحدَّث عن الإبطال، كان يعني أن المحتوى النفسي لا يمكن تضمينه في العمليات الرمزية؛ كونها منظمةً بشكلٍ ما في كبت مرضى العُصاب؛ لذا لم يكن يمكن أن يصبح جزءًا من أيِّ سلسلةٍ من الدوالِّ، بل ظل خارج المعنى ولم يكن قابلًا للتفسير. وهذا سببُ طرحه لمصطلح «الإغفال» لتمييزه عن الكبت. في الأدبيات الحديثة، استُبدلت غرابة ترجمة لاكان بكلمة «الرفض» وثَمَّةَ مصطلحٌ آخر قريب هو الإنكار.

في عمل وينيكوت (١٩٧١)، نجد اهتمامًا دائمًا بمحاولةِ تحديدِ مساحةٍ وسيطة بين الداخلي والخارجي. يمكننا أن نرى هنا أن وينيكوت لا يتفق مع ميلاني كلاين بشأن دنيا العالم الداخلي الساحقة؛ فهو يُحاوِل وصفَ رحلة الطفل من الذاتية الصرفة إلى

الموضوعية، معتبرًا أن الموضوع الانتقالي هو ما نراه من رحلة التطوُّر هذه نحو التجريب والمعايشة. يعتبر وينيكوت الموضوع الانتقالي رمزًا لاتحاد — أو من الأفضل أن نقول التئام شمل — الطفل والأم (أو جزء منها). الأمر يستحق الاقتباس:

> إنه ذلك الموضع في الزمن والمكان الذي تكون فيه الأم في مرحلةٍ انتقالية من التوحُّد مع الطفل (داخل عقله) وبدلًا من ذلك يُنظَر إليها كموضوعٍ مُدرَك بالحواس وليس مُتصَوَّرًا. يرمز استخدامُ موضوع إلى الاتحاد بين شيئَين صارا منفصلَين الآن، الطفل والأم، عند نقطةٍ في زمان ومكان حالتهما من الانفصال. (وينيكوت، ١٩٧١؛ ورد التأكيد في الأصل، صفحة ١١٤)

يتحدث وينيكوت عن مساحةٍ افتراضية. ومما يُفكِّر فيه كذلك هو عملية الترميز التي يربطها على نحوٍ وثيق بالانفصال، ويتوصل إلى المفارقة الخاصة بأن هذا الانفصال، يمكن النظر إليه، بفضلِ احتماليةِ خلقِ هذا الموضع، كشكلٍ من أشكال الاتحاد وليس كانفصال (المصدر السابق، الصفحات ٩٧–٩٨). وهكذا نرى أن وينيكوت يُحاول الإجابة على السؤال الذي أثارَته فكرةُ فرويد عن عدمِ وجودِ موضوعٍ في البداية وادعاء ميلاني كلاين العكس. لكن وينيكوت ساهم على نحوٍ أكثرَ مباشرة فيما يخُص الإنكار ويصفه في الحالة السوية والمرضية. وعندما يُحاول تحديد سمةٍ للموضوع الانتقالي، يقول: «الموضوع هو الثدي وليس الثدي في الوقت نفسه»؛ مُتغلِّبًا بذلك على المعارضة التقليدية. لكنه مهتمٌّ كذلك، كما عبَّر في النسخة الأخيرة من بحثه «الموضوعات الانتقالية والظواهر الانتقالية»، بالجوانب المَرَضية للإنكار عندما يُؤدِّي انفصالٌ مؤلم، يستمر طويلًا جدًّا، إلى إفراغ الطاقة النفسية من الموضوع؛ فالشيء السلبي لبعض المرضى، سواءً كان حاضرًا أم غائبًا، يكون سلبيًّا من ناحيتَين: كشيءٍ سيئ؛ وكشيءٍ معدوم الوجود. وفي حديثه عن مريضةٍ كان لها تجربةٌ سابقةٌ بائسة مع مُحلِّلٍ آخر، يقتبس وينيكوت بعضًا من كلماتها: «إن ما هو سلبيٌّ لديه أهمُّ مما هو إيجابيٌّ لديك.» يصف وينيكوت هذه المريضة التي كانت ترى أنَّ «ما هو حقيقيٌّ هو ما ليس موجودًا هنا». حتى الترميز يَفقِد قُوته الخاصة بتثبيت العلاقاتِ داخلَ العقلِ حين يبدأ هؤلاء المرضى، بعد مرورهم بتجاربِهم المؤلمة، في «التشكُّك في واقع الشيء الذي كانوا يرمُزون إليه» (التأكيد وارد في الأصل). يُلخِّص وينيكوت مقولته بقولِ إن هؤلاء المرضى مهتمون بالأساس بالجانب السلبي للعلاقات، مُوضِّحًا كمَّ ما هم مُحمَّلون

به من الظواهر السلبية إذ في ظلِّ انشغالِ عقلِهم على نحوٍ أساسي بالموت، أو الغياب، أو فقدان الذاكرة.

سأختتم هذا الفصل ببعض الملاحظات الشخصية ومُلخَّصٍ لمساهمتي.

من الشائع في نظرية التحليل النفسي استخدامُ مصطلحٍ «سلبي» بصيغته النعتية (التحويل السلبي للمشاعر، رد الفعل العلاجي السلبي، إلخ)؛ فنحنُ هنا نتعامل مع ما هو جوهريٌّ فيما يتعلَّق بمحتواه التصوُّري. يعود تعبير عمل السلبي إلى هيجل الذي لم يُطوِّره على نحوٍ واسع؛ لذا فإن الروابط بينه في فلسفة هيجل وبين تطبيقه في التحليل النفسي بعيدةٌ تمامًا فيما عدا رابط جاك لاكان.

ثَمَّةَ استخدامٌ ضمني لدى فرويد لمفهوم السلبي في نظريته؛ ويُعتبر اللاوعي مثالًا نموذجيًّا لذلك؛ لأنه لا يُشبِع نفسه في وصفِ ما ليس واعيًا داخل النظام النفسي، بل يُخاطب نظامًا للنفس. ولاحقًا، عندما تخلَّى فرويد عن النظر إلى اللاوعي كحالةٍ لكي يستبدل الهُو به، أكَّد فكرةِ أن كلَّ ما نعرفه تقريبًا عن الهُو له «سمةٌ سلبية» مقارنة بالأنا (فرويد، ١٩٣٣، صفحة ٧٣). وهذه الملاحظات المُتفرِّقة ربما تُوضِّح أن فرويد كان يسعى وراءَ إضفاءِ نوعٍ من العقلانية على السمات السلبية، لكنه لم يتجاوز أوجُه التشابُه البسيطة. وفي القلب من نظريةِ فرويد، نجد أن ثَمَّةَ رابطًا بنيويًّا يُعرِّف العُصاب بأنه «صورةٌ سلبية للانحراف» (فرويد، ١٩٠٥ج، صفحة ١٦٥). بشكلٍ أكثرَ عمومًا، قد تُفهَم فكرة التمثيل من وجهة النظر هذه أيضًا، مقارنةً بالإدراك الذي يُعارِضه. إن غياب الموضوع، المُجرَّد من السمات المُدرَكة من خلال الحَواس، والحاضر في العقل بدون الصفات التي نتعرف عليه من خلالها في الواقع، يمكن أن يؤدي إلى النظر إلى التمثيلات كنسخةٍ سالبة من المُدرَكات بالمعنى نفسه للنسخة السالبة من الصور الفوتوغرافية. كذلك يمكن أن يكون الكبت، الذي يُقصي التمثيلات من الوعي ويمنع الإفصاح عن الأفكار لفظًا محتفظًا بها في اللاوعي؛ حيث يمكنها أن تبقي بداخله على نشاطٍ من نوعٍ ما، جزءًا من تلك العمليات. وبالنظر إلى التماهي من منظور الرغبة نفسه، نجد أن له وظيفةً مماثلة داخل مزيج الاستبدال والعكس ينقلها أَحدُ معانيه.

لقد استَدعيتُ هذه الأفكار لأُوضِّح أنها كافيةٌ لإبطالِ أيِّ فكرةٍ عن مفهوم السلبي كونه حبيسًا داخل حدود السلبية المَرَضية، ولأُوضِّح أن المفاهيم العامة للغاية للحياة النفسية، سواء كانت طبيعيةً أم مَرَضية، ربما تُفسَّر على نحوٍ مثمر للغاية إذا نُظِر لها من هذا المنظور.

مع ذلك، وبأخذِ نظريةِ فرويد الأخيرة عن الدوافع في الاعتبار، فإن الدور المنسوب إلى الدوافع التدميرية يسمح بمحتوًى ربما يرتبط مباشرةً بعمل السلبي، في نطاق النشاط التقويضي الذي يُفعَّل داخل النفس لأجل مواجهةِ حائط المقاومة، المتمثل في معاندةِ قَهرِ التَّكرار والتعلُّق بصراعات الطفولة وعدمِ حلِّ عُصاب تحويل المشاعر. يتَّخذ الأخير شكلَ ترسيخِ «علاقة اللاعلاقة»، حيث تُصبِح لكل هذه السماتِ جُذورٌ راسخة في «رد الفعل العلاجي السلبي». ويُؤكِّد فرويد في فكره هذه النزعة من خلال اتفاقه مع مفهومِ غريزة الموت، وإشارته شبه القهرية إلى المازوخية الأوَّلية.

لقد رأينا كيف فسَّرت المدارس الفكرية على اختلافها، ملاحظاتِ فرويد الأُولى، وكيف أعادت كلٌّ واحدةٍ منها تفسير نظريته. كان اقتراحي هو جمعَ بعضِ آلياتِ الدفاع التي قدَّمها فرويد؛ فيُقدَّم «الكبت» بوصفه يقوم بدور نموذجٍ عامٍّ للنشاط الخاص بالدفاع. في بعض الأحيان، يؤكِّد فرويد تميُّزه وتفرُّده؛ فمهمة الكبت الأساسية، كما رأينا، هي منعُ نشوء الاستياء. ولاحقًا، وصف «الانقسام» أو «التنصُّل» كفكرتَين مرتبطتَين على نحوٍ أكثر تحديدًا بالإدراك (ومن ثَم تأثيره على الواقع). بدأ توسيعُ فرويد نطاقَ فكرة الانقسام للمرة الأُولى في بحثه عن «الفتيشية» في كتابه «الموجز في التحليل النفسي»، حيث فُهِمَت مشاعرُ تفتُّت الأنا من خلال الآلية نفسها. كانت أكثر الأشكال تطرفًا التي يأخذها في الاعتبار هو «الإغفال» أو الرفض الجَذري الذي يُحاوِل دَفعَ التبعات الخاصة لتجلِّيات الدافع إلى نقطةٍ يتم عندها إنكارُ وجودِ خطرٍ ناتج عن إشباعها بما يُخالف تعاليم الواقع. لكن ما أُنكِر في الخارج يعود مجددًا للعالم النفسي عن طريق العالم الخارجي كما في مثال الهلاوس.

إذن، فإن بحث «الإنكار» يُكمل الصورة، لكن يمكن اعتباره عمومًا منطبقًا على البِنى اللغوية، بمجرد إحالتها إلى جذورها في اللاوعي. لماذا أقترح جمعَ هذه الأشكال المُتفرِّقة المُندرِجة ضمن تعبير «عمل السلبي»؟ لأني أراها ضروريةً في بناء العالم النفسي، وتُتيح رؤيةً للطرق المختلفة للتعامُل مع ما هو غيرُ مقبول. ثَمَّةَ فكرةٌ ضمنية لهذا الخيار. أعتقد أن النشاط النفسي، على أعمق المستويات، دائمًا ما يُفصِح عن نفسه كقوًى مفرطة؛ لهذا من الضروري جمع القوى وتحويلها ومنحها شكلًا يمكن للموضوعات المُحدَّدة للعقل قبوله، وهو ما ينطوي ضمنًا على تقليصِ القُوى من خلال الدفاع. إن الخيار الأساسي هو تعهُّد باتخاذِ قرارٍ بنعم أو لا. لكن يُمكِننا كذلك ملاحظةُ أنَّ تَحوُّل البيئة المحيطة

بفعل المنتجات الثقافية يُشير ضمنًا إلى نوعٍ من الإنكار لطبيعتها؛ ولهذا فإن من الأصح اعتبار أن التسامي ربما ينتمي للتصنيف نفسه. من الصعب الفصل تمامًا بين الطرق المختلفة للعالم التمثيلي و«الإنكار»، في النهاية، وهو الذي يُعد شكلًا ضروريًّا لبناء اللغة، والمجال الذي لا يتخطى فقط الجانب المَرَضي، بل يُغطِّي كذلك الجانب الثقافي. واقتراحي هو جمعُ هذه الأشكال المُتنوِّعة كشهاداتٍ أساسية على عمل السلبي، على أن يكون العامل المشترك بينها هو تعهُّدًا بإصدارِ قرار بنعم أم لا. من الممكن إضافةُ أشكالٍ أخرى لها، مثل التماهي الإسقاطي الخاص بميلاني كلاين، وهو الذي يُمكن إدراجه ضمن التصنيف نفسه لكني أجده أكثرَ عُرضةً للجدل والاختلاف، على الأقل في أسلوبِ وصفها له. أجدني أكثر اتفاقًا مع وصف بيون بإضافته الخاصة بالمعرفة السلبية؛ نظرًا لكونه لا يأخذ في الاعتبار فقط التبِعات الاضطهادية للآلية، مثل وينيكوت، لكنه يتخيل تفريغَ وتجريد الشخصية بالكامل والسماح فقط ببقاء العلاقة الجديدة بين الموضوعات المُجرَّدة. ويجب أن تكون مهمتنا في المستقبل محاولةَ فهم العلاقات بين هذه الآليات المختلفة التي يجمعها عاملٌ مُشترَك على نحوٍ أفضل. من المفهوم أن الانقسام والتنصُّل والإغفال غالبًا ما يسودون بشكلٍ أكبر في البِنى التي تغلب عليها النزعة التدميرية، لتُفسِّر بناءها الهيكلي، مستجيبةً لتقلُّبات الشهوة الجنسية التي يصعُب فهمها؛ حين تبدو النرجسية تسيطر على الأفق.

كل هذا يقودنا إلى إعادة النظر في غريزة الموت في مفهومِ فرويد. ولقد اقترحتُ إعادةَ صياغةِ هذا المفهوم تحت اسم «النرجسية السلبية»، وهي نرجسيةٌ لا تُحاول الوصول للوحدة والاندماج — كما في حالة النرجسية من وجهةِ نظرٍ فرويدية — بل تطمح لبلوغ مستوى الصفر؛ إذ تتوق النفس، في النهاية، لفنائها بمجردِ فشل الحلول الأخرى؛ لذا فإن السلبيَّ لا يُفهَم هنا كمضاد «للإيجابي» بل كتطلُّع للعدم. وسيُتيح مثل هذا التقبُّل تفسير بعضِ الجوانب للمَظاهرِ التحليلية المعاصرة؛ كحالات الخَواء وزوال الطاقة النفسية، والإحساس بعدم الجدوى، والميل لعدم الالتزام، وما أُسمِّيه الانفصال الذاتي. لقد اعتدنا مُشاهدةَ هجماتٍ على النشاط الوظيفي للدوافع الأساسية، كما في اضطرابات الأكل؛ فكلما حاوَلَ المرء إشباع إحساسٍ داخليٍّ بالفراغ، ازداد هذا الفراغ. أعتقد أنه في بعض الدوافع الانتحارية تُفعَّل آليةٌ مماثلة، كما في إدمان المخدرات. ولا يُوجد تفسيرٌ مُرضٍ لتلك الجوانب بواسطة النظريات القائمة بالفعل.

يمكن العثور على منهجٍ أساسي للطبيعة النفسية في تحوُّل الدوافع إلى موضوعات؛ بعبارةٍ أخرى، لا يمكن قصر العلاقة بالموضوعات على التحوُّلات التي مرت بها الموضوعات

القائمة (سواء داخلية أو خارجية)، لكنها يجب أن تتعامل مع قدرة الباطن الداخلي على خلقِ موضوعاتٍ من وظائفَ متعلقة بالدوافع، وهو ما يزيد من تعقيد العالم الداخلي. هذه هي «وظيفةُ تجسيد الموضوعات» التي تُساهم في الثراء التدريجي للنمو. على نحوٍ مضاد، وكنتيجةٍ للتوابع الغامضة لسوء الإدارة، سيكون لغريزة التدمير اليد العليا؛ فلن يقتصر الأمر على المظاهر الجلية للنزعة التدميرية، بل ستعمل باعتبارها «وظيفة عدم تجسيد الموضوعات» التي تهدف للوصول إلى النتيجة العكسية؛ فتُبطِل العمل السابق الخاص بالتجسيد بطريقةٍ تجعل الموضوعات الآن مجردةً من خاصية التفرُّد أو عدم القدرة على الاستغناء عنها بالنسبة للفرد.

أتاح تطبيقُ هذه الأفكار إعادةَ نظرٍ في مفهوم المازوخية الأَوَّلية ورد الفعل العلاجي السلبي من منظور الدور الذي تلعبه النرجسية في آثاره النهائية حين تُحجَب الغَيرية.

ثَمَّةَ حقلٌ بحثي مميز يخص عمل السلبي في الهلاوس؛ نظرًا لأن الأخيرة تُعد الأساس لإحدى الفرضيات الأصيلة بشأن دور الإشباع الهلوسي للرغبات. كانت الهلوسة السلبية كثيرًا ما توجد في التحليل النفسي في المرحلة المُبكِّرة من عمره، لكنها لاحقًا اختفت من الأدبيات الفرويدية، رغم أنها أثبتت أنها مفهومٌ غني جدًّا من الناحية التجريبية. ولقد اقترحتُ استخدام هذا المفهوم كنموذجٍ عام يُفسِّر آثاره الإيجابية والمَرَضية. عندما يحدُث الفصل بين الأم والطفل تاركًا الأخير وحيدًا، فإن تمثيل الأُم ربما يُعلق وتحُل محلَّه بدائلُ عدة. لكن شرطه المُسبق هو «البناء المُستَدمج لهيكلٍ إطاري»، وهو ما يُماثل ذراع الأم في حملها للطفل. فجميع الإدراكات الحسية الخاصة بالأُم يمكن دعمها إذا تبقَّى بداخله أثَرٌ يدل على بثها طاقةً نفسية به. هذا الهيكل الإطاري يمكنه حتى تحمُّل غياب التمثيل؛ لأنه يحتفظ بالمساحة النفسية مثل حاويةٍ بيون. وطالما كان الهيكل الإطاري «يحمل» العقل، فإن الهلوسة السلبية للأم يمكن استبدال الإشباع الهلوسي للرغبات الناشئ عن الوهم بها. لكن إذا لم يستطع الطفل الحفاظ على إحساسه بالحصول على الطاقة النفسية من الأم، فإن هذا الإطار يصبح عاجزًا عن احتواء تمثيل البديل؛ إذ يبدو إحساسه بالوجود مرتبطًا باختفاء الموضوع. في بعض الأحيان عندما لا يُثير الموقف التحليلي هذا التهديد بعدم الوجود على نحوٍ مباشر، تظهر آليةٌ أخرى تجعل التحليل صعبًا للغاية. إن ما يحدث هو هلوسةٌ سلبية لعمليات التفكير تُفصِح عن نفسها بالفصل بين الكلمات التي نطقَها المريض بالفعل وبين معناها. لا تنتمي هذه الآليَّة إلى الكبت؛ لأنه حتى عندما تُستَدعى،

فلا يُوجد ثَمَّةَ إدراكٌ أو تمييز لما قيل، كما لو كان هذا هو الحيلة الدفاعية الأخيرة قبل السماح لمشاعر العدم بالظهور.

في النهاية، لن نذكر نتاج الارتقاء والتسامي إلا كنتاجٍ إيجابي لتبدُّل وتحوُّل التجارب الذاتية التي حتى يمكن إبطالُها ببديلٍ مثمر.

الفصل السادس عشر

«انقسام الأنا خلال عملية الدفاع»

دونالد كامبل

مقدمة

بحلول عيد الميلاد من عام ١٩٣٧، عاد فرويد إلى موضوعات الانقسام والتنصُّل، ومن خلال إضافة مادةٍ تحليلية، كتب بحثًا لم يكتمل وهو «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع» (١٩٣٨ب). كان هذا آخر بحثٍ كتبه في فيينا. كان سترايتشي يعتقد أن مُسوَّدة البحث يمكن اعتبارها تتمةً لبحث فرويد عن «الفتيشية» (١٩٢٧). ورغم أن فرويد نفسه تساءل ما إذا كان هذا البحث تكرارًا لـ «شيءٍ واضح ومألوف منذ زمنٍ طويل»، كان يميل للاعتقاد بأنه كان يناقش «شيئًا جديدًا ومُحيرًا تمامًا». لماذا عاد لهذا الموضوع في بحثه الأخير الذي كتبه في فيينا؟ ما الذي اكتشفه ولماذا كان مُحيِّرًا؟

(١) موجز للمفاهيم الأساسية

يبني فرويد هذا البحث القصير المُحكَم حول سردٍ مُوجَز لتطوُّر عقدة الإخصاء لدى صبيٍّ بين الثالثة والرابعة من العمر، التي يدافع عن نفسه تجاهها بتبنِّي ولَعٍ جنسي (فَتِيش). في البداية، يؤكِّد فرويد أن النظر إلى العضو الجنسي الأنثوي أو الإخصاء عقابًا على الاستمناءِ ليس لهما أثرٌ حاسم على الصبي، بل إنه الرابط المشترك بين الأمرين داخل عقله. إن التهديد بالإخصاء يحيي ذكرى النظرة الماضية للحالة الأُنثوية العديمة القضيب التي كانت تُعتبر في الأساس بلا ضرر، لكنها الآن تُستَدعى باعتبارها «تأكيدًا» على أن التهديد يمكن تنفيذُه؛ فقد صار الإخصاء في عقل الطفل «خطرًا شبهَ حقيقيٍّ لا يمكن تحمُّله».

يُعتبر القلق من الإخصاء أحد التعبيرات عن «الصراع» الأساسي والدائر «بين ما تتطلَّبه الغريزة وما يحظره الواقع». وفي إطار التطوُّر الطبيعي، يستسلم الصبي في النهاية للقلقِ الساحقِ الناتج عن الخطَر الذي يُشكِّله الإخصاء ويتخلَّى عن متعة الاستمناء.

غير أن صبي فرويد الصغير يجد مخرجًا آخر من هذا الصراع؛ إذ يتبنى حلًّا مبتكرًا من جزأين؛ فيرفض الواقع وقوته التحريمية من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، يتقبل الواقع ويتصدَّى للخوف من الخطر بتحويله إلى عَرَض مرضي. غير أن هذا التعارُض لا يمكن الحفاظ عليه إلا بإحداثِ انقسامٍ في الأنا بطريقةٍ تسمح للرؤى المتعارضة بالاستمرار في التعايُش معًا دون أن تُقوِّض إحداها الأخرى. لقد كان العَرَض هو خَلقًا بديلًا، في عقله، للقضيب المفقود؛ أي خلْق فتيش أو ولعٍ جنسي. وبنفي الواقع ومنح الأنثى بديلًا للقضيب المفقود، تغلَّب الصبي على ما كان يعتبره دليلًا على واقعية الإخصاء ومن ثَم حافظ على قضيبه. وطالما لم يُضطَر لإدراك أن أُنثى قد «فقدَت» قضيبها، فقد تجنَّب بذلك فكرة أنه قد يفقد قضيبه. لقد كان عدم الإيمان بخطر الإخصاء ضروريًّا بالنسبة إلى الصبي ليستمر في الاستمناء دونَ قلق.

يشير فرويد إلى أن الهلوسة بشأن القضيب (التي يمثلها الفتيش) حيث لم يكن يُوجد أيُّ قضيب لا تختلف كثيرًا عن الابتعاد عن الواقع في حالة الذُّهان. رغم ذلك، فقد أكَّد أن الصبيَّ قد منح جزءًا آخر من جسده قيمةَ القضيب وظهر عَرَضٌ جديد، تحديدًا القلق من ملامسة أحد لإصبع من أصابع قدمَيه الصغيرة. ورغم أن قضيب الصبي بذلك كان محميًّا من الأب، وساعد في هذا النكوص للمرحلة الفموية من التطوُّر، أصبح الصبي خائفًا من أن يأكله والده.

وسرعان ما أدرك فرويد التوتُّر الذي يفرضه هذا الحل على الوظيفة المُركَّبة للأنا التي، كما أضاف، يمكنها العمل فقَط في ظروفٍ خاصة. وكما سنرى لاحقًا، عاد كُتَّاب التحليل النفسي لهذا الموضوع.

(٢) جذور الأفكار في كتابات فرويد الأولى

أشار لاستمان (١٩٧٧) إلى أن فرويد قد استخدم مصطلح «انقسام» بأربعِ طرقٍ مختلفة أثناء تطويره لأفكاره بشأن هذا الموضوع: (١) ظاهرة الانفصال كما يظهر في «انقسام الوعي» لدى المُصاب بالهستيريا (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥). (٢) لوم الذات

المستمر لدى المُصاب بالسوداوية (فرويد، ١٩١٧). (٣) التوجُّه النفسي المتزامن والمتناقض للشخص الفتيشي الذي يُعدُّ بحث «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع» (١٩٣٨) هو الشرح التام والواضح له. (٤) «المُشاهد» التقليدي المختفي داخل المصاب بالذُّهان الذي يعود إليه في آخرِ أعمالِه الكبرى «الموجز في التحليل النفسي» (١٩٣٨أ). يُشير لاستمان إلى أن فرويد دائمًا ما كان «يبحث عن عمليةٍ ضمنية (نمطٍ قابل للتحديد والنسخ لتنظيم المحتويات العقلية) يَسَّرَت غرضًا مُهيمنًا (الدفاع في الأساس) ونتج عنه بالتبعية سلوكٌ يمكن توفيقه فقط إذا عُرِض إنشاء مجموعاتٍ متفرقةٍ متعارضة من التمثيلات العقلية داخل الجهاز النفسي» (١٩٧٧، صفحة ١١٩).

(٢-١) الانفصال: انقسام الوعي لدى مريض الهستيريا

استخدم فرويد مصطلح الانقسام لأول مرة في بحثه «دراسات في الهستيريا» (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥) كشيءٍ «موجودٍ بدرجةٍ أساسية في كلِّ حالةِ هستيريا، وأن الميل لمثل هذا الانفصال، وما يصحبه من ظهورِ حالاتٍ غيرِ طبيعية للوعي (التي سنجمعها معًا تحت اسم «شبه نومي») هو الظاهرة الأساسية لهذا العُصاب» (المصدر السابق، صفحة ١٢). وقد شكَّلَت آنا أو مثالًا تحليليًّا مُدهشًا لمريض «انقسم إلى شخصيتَين إحداهما طبيعية عقليًّا والأخرى مُختلَّة» (المصدر السابق، صفحة ٤٥). استمرت حالة الوعي الثنائية لدى آنا أو في التواجُد جنبًا إلى جنب دون تأثُّرِ الحالة العقلية الأساسية الطبيعية بالثانوية إلا لو «تصرَّفَت الأخيرة كحافز «داخل اللاوعي»» (المصدر السابق، صفحة ٤٥). مثالٌ آخر عن الانقسام يتمثل في تعليقِ آنا أو عن أنه حتى عندما تطفَّلَت الحالة الثانية عَنوةً على الحالة الأُولى، «كان ثَمَّةَ مراقبٌ هادئ حصيف، على حد تعبيرها، يجلس في ركنٍ في عقلها وينظر إلى كل ما يحدُث من جنون» (المصدر السابق، صفحة ٤٦). يُشير فرويد إلى هذه الظاهرة لاحقًا (١٩٣٨أ) كحضورٍ «لمُشاهد» في العقل خلال حالة الذُّهان.

أشار فرويد كذلك إلى التشابُه بين الانقسام الذي يحدث في المرض العقلي وذلك الذي يحدث في الأحلام (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥، صفحة ١٣؛ فرويد، ١٩٠٠، صفحة ٩١).

تُحدِّد نظريات ورؤى فرويد المنبثقة من تحليله للوسي آر الصراع بين الأنا وبين فكرةٍ غيرِ مقبولة. «يتضح أن الشرط اللازم للإصابة بالهستيريا أن ينشأ تعارُض بين

الأنا وفكرةٍ مُقدَّمة له» (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥، صفحة ١٢٢). وقد كان الدفاع الهستيري؛ أي تحويل هذا الصراع إلى أعراضٍ جسدية عن طريق كبت الفكرة المرفوضة، مثالًا آخر للاستخدام الدفاعي للانقسام. هنا يُوضِّح فرويد أن هذا الانقسام في الوعي في الهستيريا كان غالبًا ما «يُعرف» من خلال فعلٍ واعٍ ومُتعمَّد، يُكبَت بعد ذلك ويُدفَن تحت أعراضٍ لاحقة.

في حالة كاثرينا، أوضح فرويد الرابط بين الصدمة المتعلقة بسفاح القربى لدى فتاةٍ مراهقة مع والدها وانقسام الوعي خلال حالةِ دفاعٍ هستيري. إن أيَّ صدمةٍ خلال المُراهَقة تكون كافيةً لإثارةِ دفاعٍ هستيري، وأحيانًا يحدث هذا بعد فترةِ «حضانة». غير أن أحداثًا مُثيرة للاضطراب من فترةِ ما قبل التطوُّر الجنسي ربما لا تُخلِّف أثرًا صادمًا لدى الضحية حتى يكتسب الطفل معرفةً جنسية أو يمر بمراحلِ تطوُّرٍ لاحقة. يُشير فرويد كذلك إلى عملية الانقسام «الطبيعية» في المراهقة.

أدَّت كلُّ دراسةِ حالةٍ إلى مزيدٍ من التطوُّرات في فهم فرويد للانقسام؛ ففي حالةِ الآنسة إليزابيث فون آر، أدَّى كبت الفكرة المرفوضة بوقوعها في حبِّ زوج شقيقتها الراحلة لحدوثِ زيادةٍ في الألم الهستيري، وهو ما أكَّد رؤية فرويد لانقسام الوعي كآليةٍ دفاعية. وكانت مجهوداته لإدخال هذه الأفكار غير المتسقة إلى وعيها تُقابَل بمقاومةٍ متزايدة، وقاد هذا فرويد للنظر إلى هذه الزيادة في الألم النفسي بوصفه الدافعَ لانقسام الوعي. وقد مكَّنَت آليةُ التحويل هذه الآنسة إليزابيث فون آر من استبدالِ ألمٍ عقلي بالألم المادي، الذي أثارته فكرةٌ غيرُ مقبولة. وكما يُوضِّح فرويد: «كان الدافع لانقسام الوعي هو الدفاع» (١٨٩٣–١٨٩٥، صفحة ١٦٦). حدَّد فرويد كذلك هذا النوع من الانقسام لدى الأفراد الذين يعانون من صدماتٍ منذ الطفولة (١٩٣٩ [١٩٣٤–١٩٣٨]، الصفحات ٧٧–٧٨).

عزَّز فرويد هذه الرؤية الديناميكية للانقسام لاحقًا، في كتابه «خمس محاضرات عن التحليل النفسي» (١٩١٠) كحلٍّ للصراع بين الأفكار المتضاربة وليس كنتيجةٍ لقدرة الأنا الضعيفة بطبيعتها على التخليق.

كان لحالة السيدة كاسيلي إم دورها في إعادة فرويد إلى رؤيةِ داروِن عن أن أيَّ ردودِ فعلٍ فسيولوجية ربما تكون، إلى حدٍّ بعيد، مصدر الآلام الجسدية لدى مريض الهستيريا. في كتابه «التعبير عن العواطف عند الإنسان والحيوان» (١٨٧٢)، زعم داروِن أن الأحاسيس والمُحفِّزات العصبية تُمثِّل أفعالًا كان لها في الأساس معنًى أو غرض. على سبيل المثال، تعبير «يبتلع شيئًا ما»، الذي يعني تقبُّل الإهانة دون رد، يُعبِّر عن رد الفعل

الفسيولوجي الذي يحدث في البلعوم عند الامتناع عن الكلام، مثلما نفعل عندما نمتنع عن الرد على الإهانة؛ لذا، وبدلًا من اعتبار ردود الفعل الجسدية لدى المصاب بالهستيريا ناتجةً عن ترميز، يُخمِّن فرويد أن اختيار التعبير الجسدي لدى المصاب بالهستيريا يمثل رد الفعل الفسيولوجي الذي يحدث استجابةً لصدمةٍ ما.

سيكون الانفصال الحاضر في الهستيريا خلال الحالات الشبه التنويمية مثالًا لانقسام نواة الأنا أو فصل مجموعاتٍ نفسيةٍ متفرقة عن بقية النفس، التي تبقى مُوحدةً ومتكاملة. وهذا النوع من الانقسام، الذي يُعد نتيجة للكبت، كان ظاهرةً لا واعيةً مرتبطة أيضًا بإيحاءِ ما بعد التنويم وحالات الشرود، وتعدُّد الشخصيات، وانقسام الوعي لدى مريض الهستيريا.

(٢-٢) انقسام تمثيلات الموضوعات

في كتابه «الغرائز وتقلُّباتها» (١٩١٥)، يبني فرويد نموذجًا للحياة العقلية يتضمن الانقسام. في البداية، تكون الأنا، إلى مدًى محدودٍ للغاية، قادرةً على إشباع حاجاتها. خلال هذه المرحلة من التطوُّر، تتساوى الأنا مع ما هو ممتعٌ ومُرضٍ ولا يمثل العالم الخارجي أيَّ أهمية. غير أن الإشباع الذاتي وتأخر الألم عن طريق الهلوسة سرعان ما ينهاران ولا تستطيع الأنا الهروب من الشعور بأن الحافز الداخلي غيرُ باعثٍ على المتعة. يحدث تطوُّرٌ إضافي الآن بإدراك الأنا أنه رغم كل مجهوداتها، لا يمكنها البقاء دون ردودِ فعلٍ مناسبةٍ من موضوعات في العالم الخارجي. عندما تستجيب الموضوعات لحاجات الطفل بطرقٍ مُشبِعة، لا يعود العالم الخارجي مُهمَلًا بل مصدرًا للمتعة.

> بقدر ما تُمثل الموضوعات المقدمة لها [أي الأنا] مصادر للمتعة، فإنها تستحوذ عليها بداخلها و«تدمجها» [حسب تعبير فرينزي ١٩٠٩]؛ وعلى الجانب الآخر، تطرد كل ما يصير مصدرًا للألم داخلها ... وهكذا يصبح العالم الخارجي مقسَّمًا إلى جزء باعث على المتعة وهو الجزء الذي دمجته الأنا بداخلها، وما تبقى منه وهو دخيل بالنسبة لها. وقد فصلت جزءًا من نفسها، وهو ذلك الذي تسقطه على العالم الخارجي وتشعر بأنه عدائي. وبعد هذا التنظيم الجديد، يتطابق كلا النقيضان مرة أخرى: فيتطابق موضوع الأنا مع المتعة، والعالم الخارجي مع الألم (مع ما كان في السابق عدم اهتمام). (فرويد، ١٩١٥ب، صفحة ١٣٦)

ورغم أن فرويد لا يذكر الانقسام في وصفه لانبثاق أنا الواقع من أنا المتعة، فإن ظاهرة الانقسام تُمثل من خلال انقسام العالم الخارجي إلى ما يبعث على المتعة وما لا يبعث على المتعة، ويمثل أيضًا بالانفصال عن جزء من الذات باعث على الاستياء؛ إذ يسبق الانقسام كلًّا من الاستدماج والإسقاط. في هذه الفقرة، يقدم فرويد عملية يقسِّم بها الطفل كل التجارب في البداية إلى ذكرياتٍ طيبة، يتم استدخالها، وذكرياتٍ سيئة، تُسقَط على موضوعات خارج الذات. وقد استخدم فيربيرن (١٩٤١، ١٩٥٤) وكلاين (١٩٤٦) ملاحظة فرويد كأساس لوضع نظريات عن التطور الطفولي وعلاقات الموضوع. وتنظر سيجال (١٩٦٤)، متبعة في ذلك خطى كلاين، إلى الانقسام كمرحلة تسبق الكبت تطوريًّا، كما أنها العملية التي تجعل الكبت، أو «الانقسام الأفقي» (كوهوت، ١٩٧١)، ممكنًا.

يظهر انقسام تمثيل الموضوع في دراسة فرويد للحزن على شخص محبوب ومكروه في الوقت نفسه. ففي بحث «الحداد والسوداوية» (١٩١٧)، لاحظ فرويد استخدام الشخص السوداوي للانقسام للحفاظ على الجوانب الإيجابية لموضوع محمل بشحنة من الطاقة النفسية على نحو متناقض داخل الآخر، مع تحديد الجوانب السلبية للموضوع نفسه مع ذاته. يواجه الشخص السوداوي مخاوف مرتبطة بالخسارة والانفصال بفصل المشاعر المرفوضة التي يثيرها الموضوع المفقود، وتحدث عملية الفصل هذه داخل الأنا وتعززها التماهيات.

تتطور هذه الرؤية على نحو أكثر تحديدًا في بحث «الأنا والهو» (١٩٢٣أ)، حيث ينظر فرويد للانقسام كنتيجة دفاعية للصراعات بين التماهيات العديدة داخل الأنا:

> إذا حظيت [التماهيات] باليد العليا وأصبحت عديدةً جدًّا وقويةً على نحوٍ غيرِ مناسب ومتعارضة بعضها مع بعض، فإن عاقبةً مَرَضية لن تكون مستبعدةً تمامًا. وقد يصل الأمر إلى حدوث ارتباكٍ للأنا كنتاجٍ لانفصال التماهيات بعضها عن بعض بفعل المقاومات. ربما يكون سر الحالات التي تُوصف بأنها حالة من «اضطراب تعدُّد الشخصيات» أن التماهيات المختلفة تُسيطر بدورها على الوعي. حتى عندما لا تصل الأمور لهذه الدرجة، تظل مسألة الصراعات بين التماهيات المتعددة والتي تتفتت الأنا داخلها، باقية؛ تلك الصراعات التي لا يمكن وصفها في نهايةِ المطاف بأنها صراعاتٌ مَرَضية بالكامل. (فرويد، ١٩٢٣أ، صفحة ٣٠ وما يليها)

كانت نظرة فرويد إلى الكبت في الأساس بوصفه القوة الأساسية في الحفاظ على الانقسامات. ويلفت ليشتنبرج وسلاب (١٩٧٣) إلى أنه مع تقديم فرويد للنموذج البنيوي، تحوَّل اهتمامه من الانقسام الطبوغرافي للوعي، والذي يتمثل في الانفصال الهستيري، إلى انقسام الأنا كما في حالة الفتيش. في كتاب «فقدان الواقع في العُصاب والذُّهان» (١٩٢٤)، لاحظ فرويد أن الأنا تهرب من الكبت بالانقسام: «عن طريق إحداث انشقاقٍ أو انقسامٍ لذاتها. بهذه الطريقة، فإن كل تناقُضات البشر وانحرافاتهم وحماقاتهم ستظهر في ضوءٍ مماثلٍ لانحرافهم الجنسي من خلال تقبُّل ما يمكن أن يُجنِّبها الكبت» (١٩٢٤، الصفحات ١٥٢-١٥٣). تزامن تغيُّر تركيز فرويد مع تحوُّلٍ من الكبت إلى دفاعٍ ثانٍ أسماه «التنصُّل» لوصفِ ردَّة فعلِ الأطفال تجاه ملاحظات الفوارق التشريحية بين الجنسَين.

(٢-٣) التنصُّل

استخدم فرويد مصطلح «إنكار» في طرحه عن الإخصاء في بحثه «النظام التناسُلي للأطفال» (١٩٢٣ب) عندما لفت إلى أنه عندما يواجه الأطفال حقيقةَ افتقاد الإناث للقضيب، فإنهم «يتنصلون من (ينكرون) هذه الحقيقة ويعتقدون أنهم يرون قضيبًا بالفعل» (فرويد، ١٩٢٣ب، الصفحات ١٤٣-١٤٤). أحيانًا يُستخدم مصطلح إنكار لكني أُفضِّل استخدام كلمة «تنصُّل»؛ لأن فرويد يُشير إليه كظاهرةٍ لا واعية في المقام الأول، بينما الإنكار عادةً ما يرتبط بنشاطٍ عقلي واعٍ.

يؤمن الأطفال لاحقًا فقط أن غياب القضيب دليل على الإخصاء. ورغم أن فرويد كان يرى أن التنصُّل ليس شائعًا أو خطرًا لدى الصبية والفتيات الصغار، فقد أشار إلى أن وجوده لدى البالغِين يُمثِّل بداية الذُّهان؛ إذ يحدث تنصُّلٌ من الواقع الخارجي (فرويد، ١٩٢٤). غير أن ما يُتنَصل منه ليس مجرد إدراكِ عدمِ وجود القضيب؛ فالتنصُّل يعمل كحلٍّ للقلق من الإخصاء أو عقدة الإخصاء لدى الطفل. ويُشير لابلانش وبونتاليس (١٩٧٣) إلى أن فعل التنصُّل يُمثِّل نقطةَ التقاء بين حالتَين في نظرية الجنسانية الطفلية: الحاجة لتفسير الفرق التشريحي بين الجنسَين من ناحية، وتأكيد تهديد الإخصاء الذي يُمثِّله الأب من ناحيةٍ أخرى (صفحة ١٢٠).

لم يكتشف فرويد علم الأمراض النفسية لدى البالغِين الذي يُوضِّح ظاهرة التنصُّل الإكلينيكية إلا عند دراسته للفتيش. وقد مثَّل بحث «الفتيشية» (١٩٢٧) طفرةً مهمةً في

فهم فرويد لكيفية المحافظة على الانقسامات داخل الأنا. يُكبَت القلق من الإخصاء الذي يُثيره افتقاد الأُنثى للقضيب. مع ذلك، فقد استخدم فرويد مصطلح «تنصُّل» لوصفِ تجربةِ المعرفة وعدم المعرفة؛ أو بمعنًى آخر، حل وسط بين الواقع والتمني. يتم التنصُّل من حقيقة أن الأُنثى تتعرَّض للإخصاء و«يبني الهلع من الإخصاء نصبًا تذكاريًّا لذاته من خلال خلقِ بديل … يظل رمزًا للانتصار على هذا تهديد الإخصاء ودرعًا واقيةً ضده» (فرويد، ١٩٢٧، صفحة ١٥٤). فيستبدل الفتيشي التثبيت على موضوعٍ مُتحرِّك أو جامد «يمد» المرأة بقضيبٍ وهمي، بالانشغال بفكرة غيابِ القضيب.

حدَّد فرويد أسباب ودواعي التنصل من الواقع، لكنه في بحث «الفتيشية» يبدو أكثر اهتمامًا بفهم «كيفية» «الحفاظ» على هذا التنصُّل. وفي سبيل ذلك، نقل فرويد تركيزه من العمليات الواعية إلى اللاواعية. وأدرك فرويد الدور الحيوي الذي يلعبه الفتيش في الحفاظ على أي انقسامٍ داخل الأنا؛ فمن خلال إزاحة القضيب الأُنثوي الذي يتوقع الصبي أن يجده على الفتيش، يُحَافَظ على وهمِ امتلاك الأُنثى لقضيب، رغم كونه وهمًا من صنع الصبي، كما يُحَافَظ على إنكار افتقادها للقضيب.

كيف يعمل التنصُّل والفتيش على تمكين الصبي من تجاوُز الصدمة العاطفية عند رؤيته لافتقاد الأُنثى للقضيب واستعادةِ توازنِه النفسي؟ تتوقف استعادة التوازن النفسي على قدرة الصبي على العودة إلى استثارته الجنسية قبل الصدمة فيما يتعلق بالوَهْم ما قبل الأوديبي الخاص بالمرأة ذات القضيب.

الخطوة الأولى هي التنصُّل الذي يُعد، في البداية، إجراءً طارئًا وردَّ فعلٍ مؤقتًا للصدمة. غير أن التنصُّل يُعتبر دفاعًا غيرَ حصين؛ لأن الإدراك الواعي لطبيعة الأعضاء التناسُلية للمرأة موجود، ويكون موازيًا للرفض اللاواعي لهذا الواقع لكنه لا يتأثر به. ويظهر تكوين الفتيش كضرورةٍ حتمية لنقل الطاقة النفسية من التنصُّل من الواقع إلى استثمارها في موضوعٍ جديد؛ الفتيش كبديلٍ لقضيب الأنثى.

الخطوة الثانية، وهي صنعُ فتيش (كامبل، ١٩٨٩) يُمكِّن الصبي من القيام بدورٍ فعَّال ردًّا على التجربة السلبية للإدراك الصادم. يُوضِّح كاتان (١٩٦٤) نقطةً مهمة، وهي أن وجود الفتيش هو الدلالة على نجاح الصبي في العودة للحالة الطبيعية التي لم تتعرَّض فيها وظيفته الجنسية للتهديد بعدُ (صفحة ٢٤٠). وبمجرد صناعة الفتيش، وهي الخطوة الثالثة، تُساعِد طاقته النفسية المستمرة في الحفاظ على التنصُّل.

لكن هذا لم يكن آخر ما قاله فرويد بشأنِ موضوعِ انقسام الأنا.

(٣) مصير الأفكار في كتابات فرويد اللاحقة

عقب وصوله إلى لندن في يونيو من عام ١٩٣٨ مباشرة، وكان هذا بعد مرورِ ستةِ أَشهُر على تخلِّيه عن مُسوَّدةٍ غيرِ مكتملة لبحث «انقسام الأنا في عملية الدفاع»، بدأ فرويد في كتابه «المُوجَز في التحليل النفسي» (١٩٣٨أ). ولكن توقَّفَت هذه المراجعة البارعة لمشروع التحليل النفسي الذي صنعه، وهي التي أشار سترايتشي لها «كـ «دورة تنشيطية» لطلاب الدراسات العليا» (سترايتشي، ١٩٤٠، صفحة ١٤٣)؛ بسبب عمليةٍ خطرة في فكِّه الذي كان مُصابًا بالسرطان. ولم يعُد فرويد إليها مرةً أخرى.

(٣-١) «المُشاهد» الطبيعي المختبئ داخل المصاب بالذُّهان

في الفصل الثامن من كتاب «المُوجَز في التحليل النفسي» (١٩٣٨أ)، عاد فرويد إلى صعوبةٍ شائعة تُواجهنا في فهمِ انقسامِ الأنا وتنصُّلها من جوانب الواقع في الفتيشية؛ فبينما قد تستجيب الأنا للمطالب الداخلية عن طريق الكبت، إلا أنها قد تُحاوِل الدفاع عن نفسها ضد الضغوط الواقعة من العالم الخارجي بالتهرُّب من المُدرَكات التي تنقل جانبًا مُزعجًا من الواقع. في الحالة الأخيرة، إذا أصبح الانفصال عن الواقع هو النمط المسيطر في الاستجابة للصراع، «يوجد شرطٌ مُسبَق ضروري لحدوث الذُّهان». يُوجد لدى صاحب الفتيش دفقٌ مستمر للمُدركات المتناقضة، يتمثل تحديدًا في التنصُّل من فكرةِ افتقادِ الأُنثى للقضيب من ناحية، وإدراكِ حقيقةِ أنَّ الأُنثى لا تملك قضيبًا من ناحيةٍ أخرى. ويُدرِك فرويد أن هذه المُدرَكات المتضاربة يمكنها الاستمرار جنبًا إلى جنب دون التأثير بعضها في بعض كدليلٍ على وجود انقسام في الأنا. مع ذلك، فإن التنصُّل دائمًا ما يُعتبر تدبيرًا مُؤقتًا وهو في النهاية انفصالٌ فاشل عن الواقع.

توسَّع فرويد في كتابه «المُوجَز في التحليل النفسي» (١٩٣٨أ) في استخدام الانقسام لفهمِ وجودِ مجموعاتٍ نفسيةٍ متعارضة من الفتيشية إلى العُصاب والذُّهان. في حالة الفتيش، يُسهِم الانفصال عن الإدراك المرفوض لافتقاد الأُنثى للقضيب والتنصُّل منه في صد المَخاوِف المُتعلِّقة بالإخصاء. وفي العُصاب، وصف فرويد «سلوكَين مختلفَين؛ أحدهما ينتمي للأنا، والآخر المضاد، والمكبوت، ينتمي إلى الهُو» (فرويد، ١٩٣٨أ، صفحة ٢٠٤). أمَّا في الذُّهان، فقد زعَم فرويد أن الانسحاب من الواقع لا يكتملُ قط. وكانت آنا أو (بروير وفرويد، ١٨٩٣–١٨٩٥) هي أَوَّل من نبَّه فرويد إلى وجود جزءٍ في العقل يُراقب في هدوء

«كل ما يحدث من جنون» (صفحة ٤٥). وتَعلَّم من المرضى بعد تعافيهم من انهيارٍ عصبي أنه «في تلك اللحظة، يُوجد شخصٌ طبيعي يجلس في ركنٍ ما في العقل يُشاهد الصخب والهرج المصاحب للمرض، كمُشاهدٍ منفصل، وهو يتجاوزه» (فرويد، ١٩٣٨أ، صفحة ٢٠٢). وقد أدرك فرويد هذا كدليلٍ آخر على وجودِ انقسام النفس كمبدأ منظِّم للحياة العقلية.

(٤) مساهمات منذ زمن فرويد

منذ ظهور رؤى فرويد الرائدة عن طبيعة الانقسام في الأنا والتنصُّل، اتجه كُتَّاب التحليل النفسي إلى جوانبَ من المراحلِ ما قبل التناسُلية من التطوُّر لتوسيعِ نطاقِ رؤى فرويد عن طبيعةِ ووظيفة الفتيش؛ فيؤكد باك (١٩٥٣) دور التماهي ما قبل التناسُلي مع الأم ذات القضيب في ظهور الفتيش. «يُنظَر إلى الانفصال عن الأم كخطر مساوٍ، إن لم يكن أعظم، من فقدان القضيب» (صفحة ٢٨٦). وقد أكَّد فرويد أن غياب القضيب لدى الأم هو ما يُمثِّل صدمةً للطفل، ما يعني ضمنًا، كما يشير آرونز (١٩٧٥)، إلى أن عدم اكتمال الأُم يعزز عدم موثوقية العلاقة مع الموضوع. «بمعنًى آخر، فإن الطبيعة المتزعزعة للعلاقة مع الأُم هي الشرط المُسبَق لحدوث الصدمة لاحقًا في وقتِ تأثير القلق من الإخصاء» (١٩٧٥، صفحة ٢٠١). ووفقًا لباك، يكون التغلُّب على القلق من الانفصال والقلق من الإخصاء من خلال حلٍّ وسط فتيشي ثنائي الجنس؛ فيُحافظ الصبي على والدته دون الاستسلام لتهديد الإخصاء بمنحها قضيبًا؛ فمنح العضو التناسُلي الذَّكَري للجنسَين هو الواقع الوحيد المقبول بالنسبة إليه.

لاحَظَت جرين إيكر (١٩٥٣، ١٩٥٥، ١٩٦٠، ١٩٦٨) فترتَين مسئولتَين عن تشكيل الفتيش: ما قبل التناسُلية (مثلما قال باك)، والتناسلية. خلال الفترة الأُولى، وهي الثمانية عشر شهرًا الأُولى من العمر، قد تُؤثِّر الاضطرابات في علاقة الابن بالأُم على قدرته على التفريق بين الذات واللاذات، وتقوِّض التماهيات الأوَّلية وتُعطِّل تطوُّر الأنا؛ فالانفصال العاطفي أو الجسدي ما قبل التناسُلي عن الأُم يُقوِّض قدرة الطفل على استعادة الأنا؛ ما يُؤدِّي بدوره إلى تعزيز الدافع للتماهي معها. وسيُساهم الضعف المُترتِّب على ذلك في الأنا في ضخامةِ حجمِ صدمة الإخصاء اللاحقة خلال الفترة الثانية الخطِرة بين سن الثالثة والرابعة؛ فالتماهي المُبكِّر يَتضمَّن الآن قضيبها الوَهْمي الذي يزيد من مخاوفه من

فقدان قضيبه مثلما تَحمَّل مخاوفَ سابقةً من فقدانه للأم. أشار آرونز (١٩٧٥) إلى أن التماهيات المُبكِّرة واللاحقة مع أُمٍّ بلا قضيبٍ تُضعِف توظيف الطفل للطاقة النفسية في قضيبه، وقدرته على دمجه داخل صورةٍ ذهنية لديه لجسده الذكوري. وقد يكون إدراكه لفقدانها لجهازها التناسُلي سببًا في إحياء ذكرى فقدانه المُبكِّر لها. «لقد أصبح قضيبه، إن جاز التعبير، بالنسبة له الأُم التي يتعذر الوصول إليها وعُرضةً لفقدانه» (١٩٧٥، صفحة ٢٠٣).

تحافظ الوظيفة المزدوجة للفتيش، وهي الدفاع ضد فقدان الأم من ناحية، والقلق من الإخصاء من ناحية، على وجودِ وَحدةٍ بين الأم والابن. «إن التخلي عن الإيمان بوهمِ وجودِ قضيبٍ لدى الأم، بالنسبة للفتيشي، يعني تعريضَ هُويته للخطر، المُدمَجة بالفعل مع هُويتها؛ وربما يكون هذا هو السبب في اعتبارِ بعضِ حالات الفتيشية بمثابة آليةِ دفاعٍ ضد الذُّهان» (آرونز، ١٩٧٥، صفحة ٢٠٢).

سيُلاحظ القارئ أن فرويد لم يتناول الفتيش في سياقِ تطوُّر الفتاة؛ فقد ركَّز معظم كُتَّاب التحليل النفسي على دور الفتيش ووظيفته بالنسبة إلى الصبي، غير أن ثَمَّةَ استثناءاتٍ بارزة. على سبيل المثال، في بحثه «الخوف من الإخصاء لدى النساء»، زعم رادو (١٩٣٣) أن النساء اللاتي تضُم صورتهن الذهنية عن أجسادهن قضيبًا وهميًّا يمكن أن ينتابهن القلقُ من الإخصاء. وكُتِب بحث جروسمان «امرأة بفتيش الحلمة» (١٩٩٥) كتوضيحٍ لقلق الإخصاءِ فيما يتعلق بإزاحة قضيب المرأة الوهمي على حلَمة ثَديها. غير أن سبيجل (١٩٦٧) لم تكن متأكدةً بشأنِ ما ساقَته من أدلَّة على وجود فتيش لدى إحدى المريضات؛ فقد أشارت إلى أن تقريرها السريري لاستخدام إحدى مريضاتها الفتيشي لرباط الحذاء اختلَف عن تعريف فرويد (١٩٢٧) للفتيش من ناحيتَين: «على عكسِ ما هو مُفترَض ومُعتاد من الوصول لذروة النشوة الجنسية من خلال الفتيش، لم يكن مؤكَّدًا إن كانت المريضة قد وَصلَت إلى ذروة النشوة الجنسية من خلال الفتيش الخاص بها. ثانيًا، يبدو أن قدْرًا غير معتادٍ من الضغط على الجانب الدفاعي للفتيش — بمعنى إبطاله — يجعله مختلفًا عن الفتيش التقليدي» (صفحة ٤٠٢). كما أوضحت دراسة ويتس (١٩٨٢) لفتيش يرجع إلى طفولةِ مريضةٍ سحاقية، وكان هذا الفتيش فوطةً صحيةً مُلطخةً بدم الحيض تخُص الأُم، نشأة فتيش من موضوعٍ انتقالي.

حدَّدَت جرين إيكر (١٩٦٩) فوارقَ مهمة بين الموضوع الانتقالي لدى وينيكوت (١٩٥٣) وفتيش الطفولة. ينظر وينيكوت للموضوع الانتقالي كأولِ صنائع الطفل الذي

يملك صفات الأم والطفل، لكنه موضوعٌ خارجي بالنسبة لهما؛ فالقلَق من الانفصال يُحفِّز الطفل لخلقِ موضوعٍ بكل حرية يخضع لسيطرته الكاملة و«يرافق» الطفل خلال رحلةِ انفصاله عن والدته. يُعتبر الموضوع الانتقالي ظاهرةً طبيعية وينشأ أينما وُجِدَت رعايةٌ أمومية «جيدة بما يكفي»، وهو لا يُمثِّل فقط ثدي الأم وجسدها، بل البيئة الأمومية بأكملها. نظر وينيكوت إلى الموضوع الانتقالي كدعمٍ وهميٍّ مُتعدِّد الجوانب لمجموعةٍ مُتنوِّعة من التجارِب الجديدةِ بسببِ ارتباط الموضوع بتجاربَ سابقة. يميل الموضوع الانتقالي إلى الخبوِّ خلال فترةِ كمونٍ أو يُختزل إلى تذكار، أو يتحول إلى لُعبة، أو وَهمٍ متماسكٍ قابلٍ للتطبيق، كبطانية أو لُعبةٍ لجلب الأمان النفسي وقت النوم، أو جزءٍ من اللعِب خلال فترة النهار.

على الجانب الآخر، يكون الفتيش الطفولي، مدفوعًا بمخاوفَ حادةٍ من الإخصاء ويُمثِّل قضيبًا وهميًّا لمواجهة الخوف من الأعضاء التناسُلية الأُنثوية. إنه نتاجٌ لحاجةٍ إلى الإصلاح والترميم بسبب استمرارِ وَهْم وجودِ عيبٍ أو نقصٍ في جسَد الأم. ورغم أن الفتيش الطفولي قد ينشأ من موضوعٍ انتقالي، تُشير جرين إيكر إلى أن الفتيش ليس مُتعدِّد الجوانب، على عكس الموضوع الانتقالي، بل شكلٌ ملموس من الدفاع يعتمد على التنصُّل والسحر والأوهام السادية، ويميل إلى الاندماجِ على نحوٍ دائم. وتَلفِت إلى أن الفتيش ينشأ في سياقٍ يتضمَّن أمًّا غيرَ «جيدة بما يكفي»، غيرَ قادرةٍ على مُعالَجة غضبِ طفلها، وحيث يتأخر ظهور الصفات الشخصية المُتفرِّدة لدى الطفل أو لا يتحقق على نحوٍ كامل. يُمثِّل الفتيش الطفولي، الذي قد تفرضه الأم أو حتى القائم على استخدامها لفتيش، وظيفةَ تغذية؛ أي بديلًا لثنائية الثدي/القضيب التي يُهيمن فيها الثدي.

إن الموضوع الانتقالي وَهمٌ ويظل كذلك. والفتيش الطفولي ضلالٌ ثابت. وبينما يساعد الموضوع الانتقالي الطفل في التغلُّب على مَخاوِف الانفصال لكي يستمر تطوُّره، فإن الفتيش الطفولي يُعزِّز النكوص والتثبيت الفموي كحلٍّ لقلقِ الإخصاء. إن تبنِّي الفتيش يُمكِّن التطوُّر من الاستمرار، لكن على حساب الاعتماد على التنصُّل وعلى موضوعٍ وهمي.

فهِم فرويد الانقسام كدفاعٍ يحدُث في التطوُّر الطبيعي، بينما يضع المُنظِّرون الآخرون الانقسام في قلب الأنا الناشئة للطفل؛ فقد نَظرَت كلاين إلى الانقسام والتماهي الإسقاطي باعتبارها الدفاعاتِ الأساسية التي تدعم الوضع الفصامي البارانويدي في بداية العمر.

واعتبر فيربيرن الأنا فصاميةً في الأساس كونَها تحوي انقساماتٍ طبيعيةً ومَرَضية. كذلك تُعد الذات «الحقيقية» و«المُزيَّفة» لدى وينيكوت مثالَين على الانقسام المُبكِّر في الشخصية.

غير أن فرويد في البحث قيد النقاش قد ربَط الانقسام بالتنصُّل على وجه الخصوص كردٍّ فعلٍ دفاعي لاحقٍ تجاه القلق من الإخصاء، أو نتيجةً لمعنًى ارتجاعيٍّ نُسِب إلى حالة الأُنثى المفتقدة للقضيب. لاحظ ستيوارت (١٩٧٠) معنًى إضافيًّا غالبًا ما يُغفَل، وهو نظرة الصبي لغيابِ القضيب كنتيجةٍ للعدوان التدميري أي الإخصاء. من المُرجَّح أن يُثير هذا الإدراك مخاوفَ داخل الصبي، ليس فقط بشأن عُدوان الآخر (الأب)، بل بشأن عدوانه وتدمير الموضوع الأُنثوي. وفي هذا الإطار، يُعتبر صنع الفتيش فعلًا إصلاحيًّا ويقف ضد إحساسِ الذنب المُتعلِّق بعدوان الرجل.

(٥) أمرٌ مألوف وأمرٌ جديد

احتار تلامذة فرويد بشأن تعليقه الغامض على هذا البحث، وبالتحديد أنه لم يكن يعرف ما إذا كان وصفه لانقسام الأنا قد كشف «أمرًا مألوفًا وواضحًا منذ وقتٍ طويل ... أم أمرًا جديدًا ومُحيِّرًا كليًّا» (١٩٣٨أ، صفحة ٢٧٥). قال فرويد إنه كان يميل للاعتقاد بأنه أمرٌ جديد ومُحيِّرٌ تمامًا لكنه لم يخبرنا بماهية ذلك الأمر.

وصفتُ فيما سبق كيف قادت طريقة فرويد في علاجِ فتياتٍ مصابات بالهستيريا إلى التفكير في الدفاعات بوصفها تستخدم الكبت لصد التصوُّرات والأفكار والمشاعر المرفوضة. ولكن كما نرى في «الغرائز وتقلُّباتها» (١٩١٥) و«الحداد والسوداوية» (١٩١٧) و«الأنا والهو» (١٩٢٣أ)، نظر فرويد إلى الدفاع أكثر كعملية نفسية، وتصور العقل يدافع عن نفسه من خلال العمل على تمثُّلات الذات والموضوع عن طريق الانقسام والإسقاط والاستدماج. أمَّا ما هو مألوفٌ بشأن بحث «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع» هو أن فرويد يُبيِّن أن المُدركاتِ الحالية تكتسب معنًى على أساس الذكريات السابقة، وهو الذي بدوره يجعل التمثيل مَصدرَ تهديدٍ وربما تؤدي إلى كبته. يعمل الكبت بفصل أو إزالة تمثيل الكلمة من الموضوع أو الحدث وترك تصوُّرٍ للشيء. وكما يشير بروك (١٩٩٢) «إن التمثيل ثابت لا يتغير ... [لكن] علاقة العقل باللغوية بتمثيله هي ما تخضع للتلاعُب» (صفحة ٣٤٩). لم تكن آلية الانقسام شيئًا جديدًا. ما كان جديدًا في بحث «الفتيشية» (١٩٢٧)

ومن خلال دراسته لحالةِ شخصٍ فتيشي في بحث «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع» (١٩٣٨ب) هو توضيح فرويد أن الأنا عزَّزَت انقسامها بتبنِّي «موقفٍ» مُحدَّد تجاه إدراكها تحديدًا عن طريق التنصُّل منه.

كان فرويد يعني بالتنصُّل:

> «ليس غيابًا أو تشويهًا لإدراكٍ حقيقي، بل هو بالأحرى فشلٌ في تقديرِ أهمية أو مضمون ما يُدرك.» عندما يُدرَأ إدراك دقيق أو يُعارض، فإن المسئول عن ذلك ليس النفي أو التنصُّل، بل التجنُّب والتعتيم، ورد الفعل في اضطراب التحويل، والإنكار أو أي عمليةٍ دفاعية أخرى؛ فالفتيشي يوافق دون تردُّد على أن المرأة لا تملك قضيبًا، وربما يكون قادرًا على تقديمِ وصفٍ دقيق جدًّا للتشريح الأُنثوي. (ترونيل وهولت، ١٩٧٤، صفحة ٧٨٠)

وكما يشير بروك، كان بحث «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع» أَوَّل تصريح بفكرةِ أن الدفاع مسألةٌ متعلقة بكيفية تلاعُبِ العقل بتوجهاته ومواقفه من التمثيل، وليس شيئًا يفعله بالتمثلات نفسها (بروك، ١٩٩٢، صفحة ٣٤٩)؛ فتزامن الرفض، وهو الذي يكون رفضًا «لا واعيًا»، مع تقبُّل الواقع هو ما يخلق انقسامًا في الأنا.

ورغم أن فرويد قد ناقش مرارًا الانقسام منذ عام ١٨٩٤، يُخمِّن بروك أن تقديمه لمصطلح «انقسام الأنا» قد أشار إلى أنه «في نهاية حياته ربما كان يميل للنظر إليه كأساسٍ لكل الدفاعات» (المصدر السابق، صفحة ٣٤٩). هل كان هذا ما يشير إليه فرويد كشيءٍ «جديد ومُحيِّر»؟

لماذا عاد فرويد إلى موضوع الانقسام والتنصُّل لكتابة بحثه الأخير في فيينا؟ لقد أدرك فرويد من البداية استخدام الأنا للانقسام خلال التطوُّر المعتاد. قد نتساءل ما إذا كان فرويد قد وقَع في حَيرة من أمره في فترة من حياته كان يُعاني خلالها من أَلَم السرطان في فكِّه، وكان يعلم أن النازيِّين يُهدِّدون حياته وحياة أقاربه، ما دفعه لاختيار الكتابة عن الانقسام والتنصُّل. قال ماكس شور، طبيب فرويد وزميله في التحليل النفسي وصديقه الذي لازمه كثيرًا خلال سنوات حياته الأخيرة، إن فرويد لم يكن يخشى الموت، بل كانت الشيخوخة والألم هما ما جعلا العمل صعبًا. ولاحظ شور عام ١٩٣٧؛ أي قبل عامَين من وفاة فرويد وثمانية أشهر من كتابته لبحث «انقسام الذات خلال عملية الدفاع»، أنَّ ما كان «يُسيطر عليه الآن ليس الخرافة القديمة، وهي الخوف من الموت، بل الأمنية القديمة بـ «الموت أثناء العمل»» (شور، ١٩٧٢، صفحة ٤٨٩).

هل أدرك فرويد أنه، بعيدًا عن الفتيشية والذُّهان، كان لديه اعتمادٌ على الانقسام، وبالتأكيد، على التنصُّل للوقوف ضد مُدركاتٍ واقعية أخرى؛ مثل انتشار السرطان، أو خطر النازيِّين الذين هدَّدوا وجوده تهديدًا مباشرًا، لكي يستمر في العمل ويُواصل الحياة ويكتب بحث «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع»؟

المراجع

مقدمة

Althusser L (1977) A imensa revolução teórica de Marx in Estruturalism. Lisboa: Portugália Editoras.

Bachelard G (1999) La formation de l'esprit scientifique. Paris: Librairie Philosophique J. Vrin.

Bettelheim B (1983) Freud and Man's Soul. New York: Alfred A. Knopf.

Bion WR (1970) Attention and Interpretation. London: Tavistock Publications.

Breuer J, Freud S (1893–95) Studies on Hysteria, SE 2.

Britton R (1998) Belief and Imagination. New Library of Psychoanalysis no. 32. London: Routledge.

Canguilhem G (1979) Idéologie et rationalité dans l'histoire des sciences de la vie. Paris: Librairie Philosophique J. Vrin.

Denis P (2000) Sigmund Freud 1905–1920. Paris: PUF.

Donnet J-L (1995) Le Divan bien tempéré. Paris: PUF, Le Fil Rouge.

Dor J (1988) L'A-Scientificité de la Psychoanalyse. Paris: Éditions Universitaires.

Duncan D (1992) Hermeneutics and psychoanalysis. The British Psycho-analytical Society Bulletin 28(10).

Freud S (1895) On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from Neurasthenia under the Description 'Anxiety Neurosis'. SE 3, 87–115.

Freud S (1900) The Interpretation of Dreams. SE 4-5.

Freud S (1901) On Dreams. SE 5.

Freud S (1905a [1901]) Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria. SE 7, 7–122.

Freud S (1905b) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7, 130–243.

Freud S (1909a) Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old Boy. SE 3–149.

Freud S (1909b) Notes Upon a Case of Obsessional Neurosis. SE 10: 155–318.

Freud S (1910) Leonardo daVinci and a Memory of his Childhood. SE 11, 63–137.

Freud S (1911) Psycho-Analytic Notes on an Autobiographical Account of a Case of Paranoia. SE 12, 9–82.

Freud S (1912) The Dynamics of Transference. SE 12, 99–108.

Freud S (1913) Totem and Taboo. SE 13, 1–161.

Freud S (1914a) On Narcissism: An Introduction. SE 14, 67–102.

Freud S (1914b) Remembering, Repeating and Working Through. SE 12, 147–56.

Freud S (1915a [1914]) Observations on Transference Love. SE 12, 159–71.

Freud S (1915b) Instincts and Their Vicissitudes. SE 14, 117–40.

Freud S (1915c) Repression. SE 14.

Freud S (1915d) The Unconscious. SE 14: 166–204.

Freud S (1917 [1915]) Mourning and Melancholia. SE 14, 237–60.

Freud S (1918 [1914]) From the History of an Infantile Neurosis. SE 17, 7–122.

Freud S (1919) A Child Is Being Beaten: a contribution to the study of the origin of the perversions. SE 17, 179–204.

Freud S (1920a) Psychogenesis of a Case of Sexuality in a Woman. SE 18, 147.

Freud S (1920b) Beyond the Pleasure Principle. SE 18, 1–64.

Freud S (1921) Group Psychology and the Analysis of the Ego. SE 18, 69–143.

Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19, 1–66.

Freud S (1924) Economic Problem of Masochism. SE 19, 155–70.

Freud S (1925) Negation. SE 19, 233–9.

Freud S (1926 [1925]) Inhibitions, Symptoms and Anxiety. SE 20, 87–172.

Freud S (1927) Fetishism. SE 21, 152–7.

Freud S (1931) Female Sexuality. SE 21.

Freud S (1933) New Introductory Lectures on Psycho-Analysis. SE 22, 5–182.

Freud S (1937a) Analysis Terminable and Interminable. SE 23, 216–53.

Freud S (1937b) Constructions in Analysis. SE 23, 257–69.

Freud S (1938) An Outline of Psycho-Analysis. SE 23.

Freud S (1940 [1938]) Splitting of the Ego in the Process of Defence. SE 23, 275–8.

Freud S (1950 [1895]) Project for a Scientific Psychology, SE 1, 281–397.

Gay P (1988) Freud: A Life for Our Time. London and Melbourne: J.M. Dent & Sons Ltd.

Granoff W (1975) Filiations: L'avenir du complexe d'œdipe. Paris: Éditions Gallimard, 2001.

Green A (1986) Passions and their vicissitudes. In A Green, On Private Madness. London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis

Green A (2001) Life Narcissism, Death Narcissism. Weller A, translator. London and New York: Free Association Books.

Green A (2002) Idées directices pour une psychanalyse contemporaine. Paris: PUF.

Grunbaum A (1985) The Foundations of Psychoanalysis: A Philosophical Critique. California: The University of California Press.

Habermas J (1971) Knowledge and Human Interests. Boston: Beacon Press.

Klein GS (1976) Psychoanalytic Theory. New York: International Universities Press.

Laplanche J, Pontalis J–B (1985) Fantasme originaire, fantasme des origines, origines du fantasme. Paris: Hachette.

Laplanche J, Pontalis J–B (1988) The Language of Psychoanalysis. London: Karnac.

Mannoni O (1968) Freud. Paris: Éditions du Seuil.

Mitchell J, Rose J (1982) Introduction 1 to Jacques Lacan and the École Freudienne. Macmillan, London.

Perelberg RJ (1999) The interplay of identifications: violence, hysteria and the repudiation of femininity. In Kohon G (ed.), The Dead Mother: The Work of André Green. London: Routledge.

Perelberg RJ (2003) The construction of psychoanalytic models with special reference to temporality. Paper presented to the Green–Fonagy debate, 'Can research into infancy enhance clinical psychoanalysis?', UCL. Forthcoming in Perelberg RJ, Time and Space in Psychoanalysis.

Perelberg RJ (forthcoming) Freud: The Dynamics of the Unconscious. London: Whurr.

Perron R (1998) La recherché en psychanalyse et I'Association Psychanalytique Internationale. Bulletin de la Société Psychanalytique de Paris 50: 39–51, July/Aug.

Perron R (2001) The unconscious and primal phantasies. International Journal of Psycho–Analysis 82(3).

Pontalis J–B (1977) Entre le rêve et la douleur. Paris: Éditions Gallimard.

Popper K (1963) Conjectures and Refutations. New York: Basic Books.
Prado de Oliveira LE (1997) Freud et Schreber: Les sources écrites du délire, entre psychose et culture. Ramonville Saint-Agne: Éditions Erés.
Raphael-Leff J, Perelberg R (eds) (1997) Female Experience: Three Generations of Women Psychoanalysts on Work with Women. London: Routledge.
Ricoeur P (1965a) Freud: una interpretacion de la cultura. Mexico: Siglo Veintiuno Editores, SA, 1970.
Ricoeur P. (1965b) De I'lntérprétation—Essai sur Freud. Paris: Seuil.
Sandler J, Holder A, Dare C et al. (1997) Freud's Models of the Mind. London: Karnac.
Schaeffer J (1986) Le rubis a horreur du rouge. Relation et contre-investissement hystériques. In Revue Française de Psychanalyse 50, May-June, pp. 923–44.
Spence DP (1987) The Freudian Metaphor: Towards Paradigm Change in Psychoanalysis. New York: W.W. Norton & Co.
Steiner J (1993) Psychic Retreats. New Library of Psychoanalysis London: Routledge.
Steiner R (1992) Some historical and critical notes on the relationship between hermeneutics and psychoanalysis. British Psycho-analytical Society Bulletin 28(10).
Sulloway F (1979) Freud: Biologist of the Mind. New York: Basic Books.
Wollheim R (1973) Freud. London: Fontana Press.

الفصل الأول: «آنا أو: رؤيةٌ جديدة ومُنقَّحة للحالة المرَضية الأُولى»

Abraham HC, Freud EL (1965) A Psycho-Analytic Dialogue. London: Hogarth.
Anzieu D (1986) Freud's Self-Analysis. London: Hogarth.

Balint M (1968) The Basic Fault. London: Tavistock Publications.

Breuer J (1895) Studies in Hysteria. SE 2.

Britton R (1989) The missing link: parental sexuality in the Oedipus complex. In J Steiner (ed.), The Oedipus Complex Today. London: Karnac Books, 83–101.

Britton R (1995) Reality and unreality in phantasy and fiction. In ES Person, P Fonagy, SA Figueira (eds), On Freud's Creative Writers and Day-dreaming. New Haven: Yale University Press, 82–107.

Ellenberger HF (1993) The story of 'Anna O.': a critical review with new data. In Beyond the Unconscious. New Jersey: Princeton University Press.

Freud S (1895, 1910) Studies in Hysteria. SE 2.

Freud S (1905) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7, 130–243.

Freud S (1912) The Dynamics of Transference. SE 12.

Freud S (1914) On the History of the Psycho-Analytic Movement. SE 14.

Freud S (1915) Observations on Transference-Love. SE 12.

Gay P (1988) Freud: A Life for Our Time. London and Melbourne: J.M. Dent.

Green A (1997) Chiasmus: prospective—borderlines viewed after hysteria: retrospective—hysteria viewed after borderlines, Psychoanalysis in Europe, Bulletin 48, Spring.

Grubrich-Simitis I (1997) Early Freud and Late Freud. London: Routledge.

Jones E (1953) Sigmund Freud: Life and Work, vol I. London: Hogarth.

Klein M (1923) Early analysis. In R Money-Kyrle, B Joseph, E O'Shaughnessy et al. (eds), The Writings of Melanie Klein, vol.1. London: Hogarth Press (1975).

Klein M (1924) An obsessional neurosis in a six-year-old girl. In R Money-Kyrle, B Joseph, E O'Shaughnessy et al. (eds), The Writings of Melanie Klein, vol. 2. London: Hogarth.

Spielrein S (1912) Die Destruktion als Ursache des Werdens, Jahrbuch für psychoanalytische und psychopathologische Forschungen, IV: 465–503.
Steiner J (1987) The interplay between pathological organizations and the paranoidschizoid and depressive positions, International Journal of Psycho-Analysis 68: 69–80.
Young-Bruehl E (1988) Anna Freud. London: Macmillan.

الفصل الثاني: «دورا: جزء من تحليلٍ للهستيريا»

André J (1995) Aux origines féminines de la sexualité. Paris: PUF.
Cournut M, Cournut J (1993) La castration et le féminin dans les deux sexes. Paris: PUF.
Freud S (1888) Hysteria. SE 1, 37–59.
Freud S (1893–95) Studies on Hysteria. SE 2.
Freud S (1896) The Aetiology of Hysteria. SE 3, 187–221.
Freud S (1899) Screen Memories. SE 3, 187–221.
Freud S (1900-1) The Interpretation of Dreams. SE 4-5.
Freud S (1905a [1901]) Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria. SE 7, 130–243.
Freud S (1905b) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7, 130–243.
Freud S (1907 [1906]) Jensen's Gradiva. SE 9, 1–95.
Freud S (1908) Hysterical Fantasies and Their Relation to Bisexuality. SE 9, 155–66.
Freud S (1912) The Dynamics of Transference. SE 12, 97–108.
Freud S (1914) Remembering, Repeating and Working-through. SE 12, 147–56.

Freud S (1919) A Child Is Being Beaten: a contribution to the study of the origin of sexual perversions. SE 17, 179–204.
Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle. SE 18, 1–64.
Freud S (1924) The Economic Problem of Masochism. SE 19, 155–70.
Freud S (1931) Female Sexuality. SE 21, 221–43.
Freud S (1933 [1932]). Femininity. SE 22, 112–35.
Freud S (1937) Analysis Terminable and Interminable. SE 23, 216–53.
Freud S (1950 [1895]) Project for a Scientific Psychology. SE 1, 295–391.
Green A (1993) Le travail du négatif. Paris: Les Editions de Minuit.
Masson JM (ed.) (1985) The Complete Letters of Sigmund Freud to Wilhelm Fliess 1887–1904. Cambridge, Massachusetts & London: Belknap Press.

الفصل الثالث: «تحليل حالةِ رُهابٍ لدى صبيٍّ في الخامسة»

Bowlby J (1973) Separation Anxiety and Anger. New York: Basic Books, 283–7.
Chasseguet-Smirgell J (1976) Freud and female sexuality. International Journal of Psycho-Analysis 57: 275–86.
Etchegoyen RH (1988) The analysis of Little Hans and the theory of sexuality. International Review of Psychoanalysis, 37–43.
Frankiel RV (1992) Analysed and unanalysed themes in the treatment of Little Hans. International Review of Psychoanalysis 19: 323–33.
Freud S (1905) Three Essays on Sexuality. SE 7, 125–279.
Freud S (1910) The Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old Boy. SE 10, 1–149.
Freud S (1915) Instincts and Their Vicissitudes. SE 14.
Freud S (1919) ‘A Child Is Being Beaten’. SE 17, 179–204.

Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle. SE 18.
Freud S (1923) The Infantile Genital Organization. SE 19, 141–5.
Freud S (1926 [1925]) Inhibitions, Symptoms and Anxiety. SE 20.
Freud S (1927) The Question of Lay Analysis. SE 20.
Freud S (1933) New Introductory Lectures. SE 22.
Graf H (1972) Memoirs of an invisible man. Opera News 36 (1–4): 25–9.
Graf M (1942) Reminiscences of Professor Sigmund Freud. Psychoanalytic Quarterly 11: 459–76.
Hinshelwood RD (1989) Little Hans's transference. Journal of Child Psychotherapy 15(1): 63–78.
Jones E (1932) The phallic phase. International Journal of Psycho-Analysis, 14 and in Papers on Psychoanalysis; Maresfield Reprints: 452–84.
Klein M (1945) The Oedipus Complex in the Light of Early Anxieties. Love, Hate and Reparation (1975) Hogarth Press and the Institute of Psycho-Analysis, 370–419.
Nunberg H, Federn E (1967) Minutes of the Vienna Psycho-analytical Society. Vol II 1908–1910. New York; International University Press.
Silverman DK (2001) Sexuality and attachment: a passionate relationship or a marriage of convenience? Psychoanalytic Quarterly 70: 325–58.

الفصل الرابع: «عن النرجسية»

Aulagnier P (2001) The Violence of Interpretation. New Library of Psychoanalysis 41. London: Routledge.
Baranger W (1991) Narcissism in Freud. In J Sandler et al. (eds), Freud's On Narcissism: An Introduction. New Haven and London: Yale University Press.
Bion W (1984) Elements of Psycho-Analysis. London: Karnac Books, 1963.
Britton R (1998). Belief and Imagination. New Library of Psychoanalysis 31. London: Routledge.

Cournut J (1975) Névrose du vide. In Figures du vide. Nouvelle Revue de Psychanalyse 11: 79–89.

Freud S (1909) Notes upon a Case of Obsessional Neurosis. SE 10.

Freud S (1910) Leonardo da Vinci and a Memory of his Childhood. SE 11.

Freud S (1911) Psycho-analytic Notes on an Autobiographical Account of a Case of Paranoia. SE 12.

Freud S (1914) On Narcissism: An Introduction. SE 14.

Freud S (1917 [1915]) Mourning and Melancholia. SE 14.

Freud S (1918 [1914]) From the History of an Infantile Neurosis. SE 17.

Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle. SE 18.

Freud S (1921) Group Psychology and the Analysis of the Ego. SE 18.

Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.

Freud S (1925) Negation. SE 19.

Green A (1966-67) Primary narcissism: structure or state. In Green (2001).

Green A (1986) On Private Madness. London: Hogarth Press and Institute of Psychoanalysis.

Green A (2000) The central phobic position: a new formulation of the free association method. Intern. J. Psycho-Anal. 81: 429–51.

Green A (2001) Life Narcissism, Death Narcissism, trans. A. Weller. London and New York: Free Association Books.

Green A (2002) Dual conception of narcissism: positive and negative organisations. Psychoanalytic Quarterly 71: 631–49.

Grunberger B (1957) Le Narcissisme. Paris: Payot.[New Essays on Narcissism. London: Free Association Books, 1989.]

Kernberg O (1975) Borderline Conditions and Pathological Narcissism. New York: Jason Aronson.

Kernberg O (1984) Severe Personality Disorders. New Haven and London: Yale University Press.

Kohut H (1971) The Analysis of the Self. New York: International University Press.

Kristeva J (1987) Soleil noir. Paris: Gallimard.[(1989) Black Sun: Depression and Melancholia. New York: Columbia University Press.]

Lacan J (1966 [1949]) Le Stade du miroir comme formateur de la function du je. In Écrits. Paris: Seuil.

Laplanche J, Pontalis J-B (1988) The Language of Psychoanalysis. London: Karnac.

O'Shaughnessy E (1992) Enclaves and excursions. Int. J. Psychoanal. 73: 603–11.

Pasche F (1965) L'Anti-narcissisme. Rev franç. Psychanal. 29: 503.

Perelberg RJ (1999). Full and empty spaces in the analytic process. Int. J. Psychoanal. 2003; 84: 579–92.

Pontalis, J-B (1974) Bornes ou confins? In Aux limites de I'analysable. Nouvelle Revue de Psychanalyse No. 10 Paris: Gallimard, pp. 5–16.

Rosenfeld H (1971) A clinical approach to the psychoanalytic theory of life and death instincts. Int. J. Psychoanal. 52: 169–78.

Rosenfeld H (1987) Impasse and Interpretation. London: Routledge.

Rosolato G (1976) Le narcissisme. In: Narcisses. Paris: Gallimard.

Sandler J, Holder A, Dare C et al. (1997a) Freud's Models of the Mind. London: Karnac.

Sandler J, Person E, Fonagy P (eds) (1997b) Freud's 'Narcissism: An introduction'. New Haven, CT and London: Yale University Press.

Segal H, Bell D (1991) The theory of narcissism in the work of Freud and Klein. In J Sandler et al. (ed.), Freud's On Narcissism: An Introduction. New Haven and London: Yale University Press.

Winnicott DW (1971) Playing and Reality. London: Tavistock Publications.

الفصل الخامس: الملاحظة الإكلينيكية، والبناء النظري، والفكر الميتاسيكولوجي

Chabert C (2000) Les surprises du masochisme moral. In L'Esprit de Surivie, libres cahiers pour la psychanalyse, printemps, 2000, no. 1.

Freud S (1905) Three Essays on Sexuality. SE 7.

Freud S (1908) Creative Writers and Day-dreaming. SE 9.

Freud, S (1915a) Instinct and Their Vicissitudes. SE 14.

Freud S (1915b) The Unconscious. SE 14.

Freud S (1917 [1915]) A metapsychological supplement to the theory of dreams. SE 14.

Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle, SE 18.

Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.

Freud S (1930 [1929]) Civilization and Its Discontents. SE 21.

Freud S (1931) Analysis Terminable and Interminable. SE 23.

Guillaumin J et al. (2000) L'Invention de la Pulsion de Mort, Guinot.

Jones E. (1983) The Life and Work of Sigmund Freud. 3 vols. London: Basic Books.

Laplanche J (1976) Life and Death in Psychoanalysis. Baltimore: Johns Hopkins.

Rolland J (2002) Sur le discours intérieur. In C Bottella (ed.), Penser les limites. Ecrits en l'honneur d'André Green. Paris: Delachaux-Niestlé.

الفصل السادس: «اللاوعي»

Andreas-Salomé, L (1912-13) Correspondance avec Sigmund Freud. In Journal d'une année (1912-1913), trans. L. Jumel. Paris: Gallimard, 1970.

Bleuler E (1906) Unbewusstes und Assoziation. In CG Jung (ed.), Diagnostische Assoziationsstudien. Leipzig: Barth, 7–145.

Brés Y (1985) Hartmann et I'inconscient romantique. In Critique des raisons psychanalytiques. Paris: PUF, 1985.

Breuer J, Freud S (1985 [1893–95]), Studies on Hysteria. SE 2.

Freud S (1900-1) The Interpretation of Dreams. SE 4.

Freud S (1905) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7.

Freud S (1911) Psycho-analytic Notes on an Autobiographical Account of a Case of Paranoia (Dementia Paranoides). SE 12.

Freud S (1912a) Contributions to a Discussion on Masturbation. SE 12.

Freud S (1912b) The Dynamics of Transference. SE 12.

Freud S (1912c) A Note on the Unconscious in Psycho-Analysis. SE 12.

Freud S (1912d) On the Universal Tendency to Debasement in the Sphere of Love (Contributions to the Psychology of Love). SE 11.

Freud S (1912e) Recommendations to Physicians Practising Psycho-Analysis. SE 12.

Freud S (1912f) Types of Onset of Neurosis. SE 12.

Freud S (1913 [1912-13]) Totem and Taboo. SE 13.

Freud S (1915a) Papers on Metapsychology. SE 14.

Freud S (1915b) Repression. SE 14.

Freud S (1915c) The Unconscious. SE 14.

Freud S (1950 [1895]) Project for a Scientific Psychology. SE 1.

Freud S, Abraham K (1907–25) Correspondence. London: Karnac, 2002.

Freud S, Fliess W (1985 [1887–1904]) The Complete Letters. Cambridge, Massachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press.

Gay P (1991) Freud, une vie. Paris: Hachette.

Hartmann E von (1869) Philosophie des Unbewussten. Versuch einer Weltanschauung. Berlin: Carl Duncker, repr. 1904.

Hirschmann E (1909) A General Presentation of Freud's Theories (Propaganda among Physicians). In H Nunberg and E Federn (eds), Minutes of

the Vienna Psychoanalytic Society, 21 April 1909, International University Press, 1967.

Masson JM (1985) The Complete Letters of Sigmund Freud to Wilhelm Fliess 1887–1904. Cambridge, Massachusetts and London, England: The Belknap Press of Harvard University Press.

Nunberg H, Federn E (eds) (1908–10) Minutes of the Vienna Psychoanalytic Society, Vol. II, trans. by M Nunberg. New York: International Universities Press, Inc.

Pfeiffer E (ed.) (1972) Sigmund Freud and Lou Andreas-Salomé Letters. London: Hogarth Press.

Prado de Oliveira LE (1998) Sublimation et symbolisation: retrouvaille et fêtes. In A Eiguer, C Leprince, F Baruch, La fête de famille, Paris: In Press Editions, 1998.

Whyte LL (1974) The unconscious in history. Contemp. Psychoanal. 10: 379–85.

الفصل السابع: الجرح والقوس وظل الموضوع: ملاحظات على بحث فرويد «الحداد والسوداوية»

Abraham K (1911) Notes on the psycho-analytical investigation and treatment of manic depressive insanity and allied conditions. In Selected Papers on Psychoanalysis. London: Hogarth Press, 1949.

Abraham K (1924) A short study of the development of the libido in the light of mental disorders. In Selected Papers on Psychoanalysis. London: Hogarth Press, 1949.

Deutsch H (1930) Melancholia. In Psycho-Analysis of the Neuroses. London: Hogarth Press.

Freud S (1905) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7.

Freud S (1910) Leonard0 Da Vinci and a Memory of his Childhood. SE 11.

Freud S (1914) On Narcissism: An Introduction. SE 14.
Freud S (1915 [1917]) Mourning and Melancholia. SE 14.
Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle. SE 17.
Freud S (1921) Group Psychology and the Analysis of the Ego. SE 18.
Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.
Freud S (1933) New Introductory Lectures. SE 22.
Freud S (1950) Draft G (1895?) and Draft N (1897). SE 1.
Heaney S (1990) The Cure at Troy. London: Faber & Faber, in association with Field Day.
Klein M (1935) A contribution to the psychogenesis of manic-depressive states. In The Writings of Melanie Klein, vol. II. London: Hogarth Press.
Klein M (1940), Mourning and its relation to manic depressive states. In The Writings of Melanie Klein, vol. II. London: Hogarth Press.
Sodré I (2000) Non vixit: a ghost story. In R. Perelberg (ed.), Dreaming and Thinking. London: Karnac, reprinted 2003.
Sophocles (1953) Electra and Other Plays. Translated and introduced by EF Watling. London: Penguin Books.
Steiner J (1993) Psychic Retreats: Pathological Organisations of the Personality in Psychotic, Neurotic and Borderline Patients. London: Routledge
Waitling EF (1953) Introduction to Sophocles' Electra and Other Plays. London: Penguin Books.
Wilson E (1941) The Wound and the Bow. London: Methuen and Co.

الفصل الثامن: «ما وراء مبدأ اللذة»

Ameisen J-Cl (1999) La sculpture du vivant. Le suicide cellulaire ou la mort créatrice. Paris: Editions du Seuil.
Aristotle (1990) Ethique à Nicomaque. Tr. J Tricot. Paris: Vrin.
Balier CI (1988) Psychanalyse des comportements violents. Paris: PUF.

Balier Cl (1996) Psychanalyse des comportements sexuels violents. Paris: PUF.

Bick E (1968) The experience of the skin in early object-relations, Int. J. Psychoanal. 49: 484–6.

Bokanowski T (1989) Le concept de pulsion de mort. Bibliographie critique des auteurs psychanalytiques français. Rev. franç Psychanal. 2/1989, 509–33.

Declerck P (2001) Les naufragés. Avec les clochards de Paris. Paris: Terre humaine, Plon.

Denis P (1997) Emprise et satisfaction. Les deux formants de la pulsion. Paris: PUF.

Denis P (2002) Un principe d'organisation-désorganisation. Rev. franç. Psychanalyse Spécial Congrès 5/2002, 1799–1808.

Diatkine G (2000) Le surmoi culturel. Rev. franç. Psychanal. 5/2000, 1523–88.

Diatkine G (2002) Malaise dans la civilisation et désintrication pulsionnelle. Rev. franç. Psychanalyse, 5/2002, 1845–52.

Freud S (1909) Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old Boy. SE 10.

Freud S (1913 [1912-13]) Totem and Taboo. SE 13.

Freud S (1914) Mourning and Melancholia. SE 14.

Freud S (1915a) Instincts and their Vicissitudes. SE 14.

Freud S (1915b) Thoughts for the Times on War and Death. SE 14.

Freud S (1918 [1914]) From the History of an Infantile Neurosis. SE 17.

Freud S (1920) Beyond the Pleasure Principle. SE 18.

Freud S (1921) Group Psychology and the Analysis of the Ego. SE 18.

Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.

Freud S (1924) The Economic Problem of Masochism. SE 21.

Freud S (1925) Negation. SE 19.

Freud S (1929) Civilization and its Discontents. SE 21.

Freud S (1933 [1932]) Why War? SE 22.

Freud S (1939 [1934–38]) Moses and Monotheism: Three Essays. SE 23.

Green A (1999) La pensée clinique, Paris: Éditions Odile Jacob.

Green A (2000a) La mort dans la vie. Quelques repères pour la pulsion de mort. In J. Guillaumin (ed.), L'invention de la pulsion de mort, Paris: Dunod.

Green A (2000b) Le Temps Éclaté. Paris: Les Éditions de Minuet.

Green A (2002) La position phobique centrale. Avec un modèle de l'association libre. In A Green, La pensée clinique. Paris: Éditions Odile Jacob. (The central phobic position: a new formulation of the free association method. Int. J. Psychoanal. 81, 2000, 429–51.)

Green A et al. (1986) La Pulsion de Mort. Paris: PUF.

Hartmann H, Kris E, Loewenstein RM (1949) Notes on the theory of aggression. Psychoanal. Study Child. 3-4: 9–56.

Kerr JFR, Willie AH, Currie AR (1972) Apoptosis: a basic biological phenomenon with wide-ranging implications in tissue kinetics. British Journal of Cancerology 26: 239–57.

Kohut H (1984) Analyse et guérison. Tr. Cl Monod, Paris: PUF, 1991.

Lacan J (1948) L'agressivité en psychanalyse. Rapport présenté à la Xle Conférence des Psychanalystes de langue française. Rev. franç. Psychanal. 3/1948, 367–88.

Lacan J (1956-57) Le séminaire, lV. La relation d'objet. Paris: Ed. du Seuil, 1994.

Lacan J (1960) Subversion du sujet et dialectique du désir dans l'inconscient freudien. In Ecrits. Paris: Ed. du Seuil, 1966.

Lacan J (1964) Le séminaire, XI, Les quatre concepts fondamentaux de la psychanalyse. Paris: Ed. du Seuil, 1973.

Lacan J (1974) Télévision. Paris: Ed. du Seuil.

McDougall J (1972) L'anti-analysant en psychanalyse. Rev. franç. Psychanal. 36: 185–206.

Marty P (1966) La depression essentielle. Rev. franç. Psychanal. 32(3): 595–8.

Marty P, M'Uzan M de, David C (1963) L'investigation psychosomatique. Paris: PUF.

Nacht S (1948) Les manifestations cliniques de l'agressivité et leur rôle dans le traitement psychanalytique. Rapport présenté à la XIe Conférence des Psychanalystes de langue française. Rev. franç. Psychanal. 3: 313–65.

Plato (1969) Philèbe. Tr. E. Chambry. Paris: Garnier-Flammarion.

Ribas D (1999) Un sectaire mortifètre. In P Denis, J Schaeffer (eds), Sectes, Débats de psychanalyse. Paris: PUF.

Ribas D (2002) Chronique de l'intrication et de la désintrication pulsionnelle. Bulletin de la Société Psychanalytique de Paris 62: 129–215. Rev. franç. Psychanal. 5/2002, 1689–1770.

Ribas D (2004) Controverses sur l'autisme et témoignages. Paris: PUF.

Smadja Cl (2001) Clinique d'un état de démentalisation, Rev. franç. Psychosom. 19: 13.

Steiner J (1993) Psychic Retreats. London: Routledge.

Swecz G (1993) Les procédés autocalmants par la recherche de l'excitation. Les galériens volontaires. Rev. franç. Psychosomatique 4: 27–53.

Swecz G (1998) Les galériens volontaires. Paris: PUF.

Winnicott DW (1971) Playing and Reality. Harmondsworth: Penguin.

La pulsion de mort. Rev. franç. Psychanal. 1989, 2.

Répéition et instinct de mort. Colloque de la SPP de 1969. Rev. franç. Psychanal. 1970, 3.

الفصل التاسع: نحو النموذج البنيوي للعقل

Abraham K (1911) Notes on the psycho-analytic investigation and treatment of manicdepressive insanity and allied conditions. In Selected Papers on Psycho-Analysis. London: Hogarth Press, 1965, pp. 137–56.
Freud S (1905) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7.
Freud S (1911a) Formulations on the Two Principles of Mental Functioning. SE 12.
Freud S (1911b) Psycho-Analytic Notes upon an Autobiographical Account of a Case of Paranoia. SE 12.
Freud S (1913) Totem and Taboo. SE 13.
Freud S (1914) On Narcissism: An Introduction. SE 14.
Freud S (1915) The Unconscious. SE 14.
Freud S (1917) Mourning and Melancholia. SE 14.
Freud S (1921) Group Psychology and the Analysis of the Ego. SE 18.
Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.
Freud S (1925) Some Psychological Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes. SE 19.
Freud S (1931) Female Sexuality. SE 21.
Strachey J (1923) Editor's introduction. In The Ego and the Id. SE 19.

الفصل العاشر: «ملاحظات على حالةِ عُصابٍ وسواسي»

Freud S (1909) Notes upon a Case of Obsessional Neurosis. SE 10.
Freud S (1914) On Narcissism. SE 14.
Freud S (1915) Instincts and Their Vicissitudes. SE 14.
Freud S (1917) Mourning and Melancholia. SE 14.
Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.
Gottlieb R (1989) Technique and countertransference in Freud's analysis of the Rat Man. Psychoanal. Q. 58: 29–62.

Grunberger B (1966) Some reflections on the Rat Man. Int. J. Psycho-Anal. 47: 160–8.

Holland N (1975) An identity for the Rat Man. Int. R. Psycho-Anal. 2: 157–69.

Kanzer M (1952) The transference neurosis of the Rat Man. Psychoanal. Q. 21: 181–9.

Lear J (2002) Jumping from the couch: an essay on phantasy and emotional structure. Int. J. Psychoanal. 83: 583–95.

Lipton S (1977) The advantages of Freud's technique as shown in the analysis of the Rat Man. Int J. Psycho-Anal. 58: 255–73.

Mahony P (1986) Freud and the Rat Man. New Haven: Yale University Press.

Reed G (1988) Freud and the Rat Man. Psychoanal. Q. 57: 238–41.

Sherwood M (1969) The Logic of Explanation in Psychoanalysis. New York and London: Academic Press.

Zetzel ER (1966) Additional notes upon a case of obsessional neurosis, Freud 1909. Int. J. Psychoanal. 47: 123–9.

الفصل الحادي عشر: التحديق والسيطرة والإذلال في حالة شريبر

Baumeyer F (1956) The Schreber case. Int. J. Psycho-Anal., 37: 61–74.

Bion WR (1962) Learning from Experience. London: Heinemann.

Cotard J (1880) Du délire hypochondriaque dans une forme grave de la mélancolie anxieuse. Annales medico-psychologiques, Paris, 4: 168–74.

Freud S (1911) Psycho-analytic Notes on an Autobiographic Account of a Case of Paranoia (Dementia Paranoides). SE 12, 3–82.

Freud S (1917) Mourning and Melancholia. SE 14, 237–58.

Katan M (1959) Schreber's hereafter—its building-up (Aufbau) and its downfall. Psychoanal. St. Child 14: 314–82.

Klein M (1935) A contribution to the psychogenesis of manic-depressive states. Int. J Psycho-anal. 16: 145–74. Reprinted in The Writings of Melanie Klein. 1, 262–89. London: Hogarth Press (1975).

Klein M (1946) Notes on some schizoid mechanisms. Int. J Psycho-anal. 27: 99–110. Reprinted in The Writings of Melanie Klein. 3, 1–24. London: Hogarth Press. (1975).

Klein M (1957) Envy and Gratitude. London: Tavistock. Reprinted in The Writings of Melanie Klein. 3, 176–235. London: Hogarth Press (1975).

Kohut H (1971) Thoughts on narcissism and narcissistic rage. Psychoanal. St. Child 27, 377-8.

Lacan J (1956) The Seminars of Jacques Lacan, ed. Jacques-Alain Miller. Book III The Psychoses 1955-1956. Trans. Russell Grigg. New York and London: Norton, 1993.

Lothane Z (1992) In Defence of Schreber: Soul Murder and Psychiatry. Hillsdale, NJ: Analytic Press.

Niederland W (1951) Three notes on the Schreber case. Psychoanal. Q. 20: 579–91.

Niederland W (1959a) Schreber: father and son. Psychoanal. Q. 28: 151–69.

Niederland, W (1959b) The 'miracled-up' world of Schreber's childhood. Psychoanal. St. Child. 14.

Niederland W (1960) Schreber's father. J. Am. Psychoanal. Assoc. 8: 492–9.

Riesenberg-Malcolm R (1999) Two ways of experiencing shame. Paper given at the International Congress of Psychoanalysis in Santiago.

Santner EL (1996) My Own Private Germany. Daniel Paul Schreber's Secret History of Modernity. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Schreber DP (1903) Memoirs of My Nervous Illness. Tr. and ed. I MacAlpine, RA Hunter. London: Dawson, 1955. Reissued New York: Review of Books, 2000.

Shengold L (1978) Assault on a child's individuality: a kind of soul murder. Psychoanal. Q. 47: 419–24.

Steiner J (1993) Psychic Retreats: Pathological Organisations of the Personality in Psychotic, Neurotic, and Borderline Patients. London: Routledge.

White R (1961) The mother-conflict in Schreber's psychosis. Int. J. Psychoanal. 42: 55–73.

Winnicott DW (1967) Mirror-role of mother and family in child development. In P Lomas (ed.), Predicament of the Family: A Psycho-analytical Symposium. London: Hogarth. Reprinted in Playing and Reality. London: Tavistock (1971).

Wright K (1991) Vision and Separation. Northvale, NJ: Jason Aronson.

الفصل الثاني عشر: وهم اللاوعي والإدراك اللاحق: «من سجل حالة عُصاب طفلي» (رجل الذئاب)

Abraham K (1924) A short study of the development of the libido, viewed in the light of mental disorders. In K Abraham (1979) Selected Papers on Psycho-Analysis. London: Maresfield Reprints.

Baranger M, Baranger W, Mom JM (1988) The infantile psychic trauma from us to Freud: pure trauma, retroactivity and reconstruction. Int. J. Psycho-Anal. 69: 113–28.

Blum HP (1974) The borderline childhood of the Wolf Man. J. Amer. Psychoanal. Assn. 22: 721–42.

Bokanowski T (1995) La prémière scéance de l'Homme aux Loups. Revue française de Psychanalyse 3.

Brabant E, Falzeder E, Giamperi-Deutsch (eds) (1994) The Correspondence of Sigmund Freud and Sandor Ferenczi, Vol. 1. Cambridge, Mass. and London: The Belknap Press of Harvard University Press.

Breuer J, Freud S (1893–95) Studies on Hysteria. SE 2

Brunswick RM (1948) A supplement to Freud's History of an Infantile Neurosis. In R Fliess (ed.), The Psycho-Analytic Reader. Madison and Connecticut: International University Press.

Freud S (1896) The aetiology of hysteria SE 3.

Freud S (1900) The Interpretation of Dreams. SE 4-5.

Freud S (1901) The Psychopathology of Everyday Life. SE 6.

Freud S (1905a) Jokes and Their Relation to the Unconscious. SE 8.

Freud S (1905b) Three Essays on Sexuality. SE 7.

Freud S (1906 [1905]) My Views on the Part Played by Sexuality in the Aetiology of Neuroses. SE 7.

Freud S (1908) Character and Anal Eroticism. SE 9.

Freud, S (1911) Formulations on the Two Principles of Mental Functioning. SE 12.

Freud S (1913) The Disposition to Obsessional Neurosis. SE 12.

Freud S (1915) A Case of Paranoia Running Counter to the Psychoanalytic Theory of the Disease. SE 14.

Freud S (1917a) Mourning and Melancholia. SE 14.

Freud S (1917b) On Transformations of Instinct as Exemplified in Anal Eroticism. SE 17.

Freud S (1918) From the History of an Infantile Neurosis. SE 17.

Freud S (1919) 'A Child Is Being Beaten': a contribution to the study of the origin of sexual perversions. SE 17.

Freud S (1923) The Ego and the Id. SE 19.

Freud S (1924) The Economic Problem of Masochism. SE 19.

Freud S (1933) New Introductory Lectures. SE 22.

Freud S (1937) Analysis Terminable and Interminable. SE 23.

Gardiner MM (1964) The Wolf Man grows older. J. Amer. Psychoanal. Assn. 12: 80–92.

Gardiner MM (ed.) (1971) The Wolf-Man by the Wolf-Man. New York: Basic Books.

Gardiner MM (1983) The Wolf Man's last years. J. Amer. Psychoanal. Assn. 31: 867–97.

Gardiner MM (ed.) (1989) The Wolf Man and Sigmund Freud. London: Karnac.

Gay P (1988) Freud: A Life of Our Time. London and Melbourne: J. M. Dent & Sons Ltd.

Green A (1986) Passion and their vicissitudes. In On Private Madness. London: The Hogarth Press and the Institute of Psychoanalysis.

Isaacs S (1952) On the nature and function of phantasy. In M Klein, P Heimann, S Isaacs et al. (eds), Developments in Psychoanalysis. London: Hogarth Press and the Institute of Psycho-Analysis.

Jones E (1974) Sigmund Freud: Life and Work. London: Hogarth Press.

Laplanche J, Pontalis J.-B (1985) Fantasme originaire, fantasmes des origines, origins du fantase. Paris: Hachette.

Laplanche J, Pontalis J.-B (1988) The Language of Psychoanalysis. London: Karnac Books and the Institute of Psycho-Analysis (1973).

Obholzer K (1982) The Wolf Man, 60 Years Later. London: Routledge & Kegan Paul.

Perron R (2001) The unconscious and primal phantasies. Int. J. Psychoanal. 82: 583.

Sandler J, Nagera H (1963) Aspects of the metapsychology of phantasy. Psychoanalytic Study of the Child 16: 159–94.

Spillius EB (2001) Freud and Klein on the concept of phantasy. Int. J. Psychoanal. 82 (2).

Thomä H and Cheshire, N (1991) Freud's Nachträglichkeit and Strachey's Deferred Action Int. R. Psycho-Anal, 18: 407–427.

الفصل الثالث عشر: تأمُّلات إكلينيكية وميتاسيكولوجية في بحث «طفل يُضرَب»

Chabert C (1999) Les voies intérieures, Revue française de psychanalyse 63(5), numéro spécial congrès (59ème Congrès des psychanalystes de langue française), Enjeux de la passivité, 1445–88.

Freud S (1919) Un enfant est battu. Contribution à la connaissance de la genèse des perversions sexuelles. In Névrose, psychose et perversion. Paris: PUF, 1981, pp. 219–49.

Freud S (1920) Au-delà du principe de plaisir. In Essais de psychanalyse. Paris: Payot, 1981, pp. 41–117.

Freud S (1924) Le problème économique du masochisme. In Névrose, psychose et per version. Paris: PUF, 1981, pp. 287–97.

Rolland JC (1998) Compulsion de répétition, compulsion de représentation. In Guérir du mal d'aimer. Paris: Gallimard, pp. 201–59.

الفصل الرابع عشر: «النشأة النفسية لحالة مِثلية جنسية أنثوية»

Birksted-Breen D (1993) The Gender Conundrum, London: Routledge.

Budd S (2001) No sex please, we're British: sexuality in English and French psychoanalysis. In Harding C (ed.) Sexuality: Psychoanalytic Perspectives. Hove: Brunner-Routledge.

Freud S (1905a) Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria. SE 7.

Freud S (1905b) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7.

Freud S (1910) A Special Type of Choice of Object Made by Men. SE 11.

Freud S (1914) On Narcissism: An Introduction. SE 14, 73–104.

Freud S (1920) The Psychogenesis of a Case of Female Homosexuality. SE 18.

Freud S (1922) Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality SE 18.

Freud S (1925) Some Psychical Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes. SE 19.

Freud S (1931) Female Sexuality. SE 21, 223–46.

Freud S (1933) New Introductory Lectures. SE 22, Ch. 33, 112–35.

Fuss D (1995) Identification Papers. London: Routledge, Chapter 2.

Grey C (1999) Conduct unbecoming. In RC Lesser, E Schoenberg (eds), That Obscure Object of Desire: Freud's Female Homosexual Revisited. New York: Routledge, Ch. 9.

Grigg R, Hecq D, Smith C (1999) Female Sexuality: The Early Psychoanalytic Controversies. London: Rebus Press.

Harris A (1991) Gender as contradiction. Psychoanalytic Dialogues 1: 197–224.

Jacobus M (1995) First Things: The Maternal Imaginary in Literature, Art and Psychoanalysis. London: Routledge, Chapter 3.

Lesser RC, Schoenberg E (eds) (1999) That Obscure Object of Desire: Freud's Female Homosexual Revisited. New York: Routledge.

Lewes K (1995) Psychoanalysis and Male Sexuality. New York: Aronson.

Masud M, Khan R (1989) Alienation in Perversions. London: Karnac, Mansfield Library.

Mitchell J, Rose J (1982) Introduction to Jacques Lacan and the École Freudienne. London: Macmillan.

O'Connor N, Ryan J (1993) Wild Desires and Mistaken Identities: Lesbianism in Psychoanalysis. London: Virago.

Orgel S (1996) Freud and the repudiation of the feminine. JAPA 44, supplement on the Psychology of Women: 62–5.

Perelberg RJ (2005) Feminisme et psychanalyse. In Mijolla, Alain de et al. (eds), International Dictionary of Psychoanalysis. New York: Macmillan

Pick D (1989) Faces of Degeneration A European Disorder, c. 1848–c. 1918. Cambridge: Cambridge University Press.

Quinodoz JM (1989) Female homosexual patients in psychoanalysis. IJPA 70: 55.

Raphael–Leff J, Perelberg RJ (eds) (1997) Female Experience: Three Generations of British Women Psychoanalysts on Work with Women. London: Routledge.

Rieder I, Voigt D (2000) Heimliches Begehren: Die Geschichte der Sidonie C. Munich: Deuticke.

Schwarz AE (1998) Sexual Subjects: Lesbians, Gender and Psychoanalysis. New York and London: Routledge.

Silva JG (1975) Two cases of female homosexuality—a critical study of Sigmund Freud and Helene Deutsch. Psychoanalytic Quarterly 11: 357–76.

Stoller RJ (1975) Perversion: The Erotic Form of Hatred. New York: Pantheon.

الفصل الخامس عشر: «الإنكار»

Bion WR (1962) Learning from Experience. London: Heinemann.

Bion WR (1970) Attention and Interpretation. London: Tavistock.

Culioli A (1988) La négation: marqueurs et opérations. In Pour une linguistique de I'énonciation, 1990.

Freud S (1895) Project for a Scientific Psychology. In SE 1.

Freud S (1900) Interpretation of Dreams. SE 4.

Freud S (1901) On Dreams. SE 5.

Freud S (1905a [1901]) Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria. SE 7.

Freud S (1905b) Jokes and Their Relation to the Unconscious. SE 8.

Freud S (1905c) Three Essays on the Theory of Sexuality. SE 7.

Freud S (1910) The Antithetical Meaning of Primitive Words. SE 11.

Freud S (1911a) The Correspondence of S. Freud and S. Ferenczi. Vol. 1. Cambridge: Cambridge University Press, 1993.

Freud S (1911b) Formulations on the Two Principles of Mental Functioning. SE 12.

Freud S (1911c) Psycho-analytic Notes on an Autobiographical Account of a Case of Paranoia. SE 12.

Freud S (1915a) Instincts and Their Vicissitudes. SE 14.

Freud S (1915b) Repression. SE 14.

Freud S (1915c) Thoughts for the Times on War and Death. SE 14.

Freud S (1915d) Unconscious. SE 14.

Freud S (1925a) Negation. SE 19.

Freud S (1925b) Note on the Mystic Writing Pad. SE 19.

Freud S (1927) Fetishism. SE 21.

Freud S (1933) Dissection of the Personality. SE 22.

Freud S (1937) Constructions in Analysis. SE 23.

Green A (1997) The intuition of the negative in 'Playing and Reality'. International Journal of Psycho-Analysis 78.

Green A (1998) The primordial mind and the work of the negative. International Journal of Psycho-Analysis 79: 649–65.

Green A (1999) The Work of the Negative. Tr. A Weller. Free Association Books.

Heimann P (1952) Certain functions of internal relation in early infancy. In M Klein et al., Developments in Psychoanalysis, p. 144.

Hippolyte J (1956) Commentaire sur la Verneinung de Freud. La Psychanalyse, vol. 1. Reproduced in Ecrits. Paris: Le Seuil, 1966, pp. 879–88.

Klein M (1930) The importance of symbol-formation in the development of the ego. In Contributions to Psycho-Analysis. London: Hogarth Press.

Lacan J (1966) Introduction et discussion du commentaire de J. Hippolyte sur la Verneinung. In Lacan's Ecrits. Paris: Le Seuil.

Segal H (1957) Notes on symbol formation. International Journal of Psycho-Analysis 38; and in H Segal (1978) On symbolism. International Journal of Psycho-Analysis 59.

Segal H (1981) Symbolism. In E Spillius (ed.), Drama, Phantasy and Art. New Library of Psychoanalysis, p. 39.

Tuckett D (general editor) (1991) The Freud-Klein controversies 1941–1945. Ed. P King, R Steiner. London: Routledge (with the Institute of Psycho-Analysis, London).

Winnicott DW (1971) Playing and Reality. London: Tavistock.

الفصل السادس عشر: «انقسام الأنا خلال عملية الدفاع»

Aarons Z (1975) Fetish, fact and fantasy: a clinical study of the problems of fetishism. Int. R. Psychoanal. 2: 199–230.

Bak RC (1953) Fetishism. J. Am. Psychoanal. Assoc. 1: 285–98.

Breuer J, Freud S (1893–5) Studies on Hysteria. SE 2.

Brook J (1992) Freud and splitting. Int. R. Psychoanal. 19: 335–50.

Campbell D (1989) Charles: a fetishistic solution. In M Laufer, ME Laufer (eds), Developmental Breakdown and Psychoanalytic Treatment in Adolescence: Clinical Studies, pp. 55–73. New Haven and London: Yale University Press.

Darwin C (1872) The Expression of the Emotions in Man and Animals. London: J. Murray.

Fairbairn WRD (1941) A revised psychopathology of the psychoses and neuroses. Int. J. Psychoanal. 22: 250–79.

Fairbairn WRD (1954) An Object-Relations Theory of the Personality. New York: Basic Books.

Ferenczi S (1909) Introjection and transference. In Sex in Psychoanalysis: The Selected Papers of Sandor Ferenczi, Vol 1. (1950), pp. 35–93. New York: Basic Books.

Freud S (1900) The Interpretation of Dreams. SE 4 and 5.
Freud S (1910) Five Lectures on Psychoanalysis. SE 9, 3–58.
Freud S (1915) Instincts and Their Vicissitudes. SE 14, 109–40.
Freud S (1917) Mourning and Melancholia. SE 14, 239–58.
Freud S (1923a) The Ego and the Id. SE 19, 3–66.
Freud S (1923b) The Infantile Genital Organization. SE 19, 141–5.
Freud S (1924) The Loss of Reality in Neurosis and Psychosis. SE 19.
Freud S (1927) Fetishism. SE 21, 149–57.
Freud S (1933 [1932]) New Introductory Lectures on Psychoanalysis. SE 22.
Freud S (1938a) An Outline of Psychoanalysis. SE 23, 141–207.
Freud S (1938b) Splitting of the Ego in the Process of Defence. SE 23, 271–8.
Freud S (1939 [1934–38]) Moses and Monotheism: Three Essays. SE 23.
Greenacre P (1953) Certain relationships between fetishism and the faulty development of the body image. Psychoanal. Study Child. 8: 79–97.
Greenacre P (1955) Further considerations regarding fetishism. Psychoanal. Study Child. 10: 187–94.
Greenacre P (1960) Further notes on fetishism. Psychoanal. Study Child. 15.
Greenacre P (1968) Perversions: general considerations regarding their genetic and dynamic background. Psychoanal. Study Child. 23.
Greenacre P (1969) The fetish and the transitional object. Psychoanal. Study Child. 24.
Grossman L (1995) A woman with a nipple fetish. Psychoanal. Q. 64: 746–8.
Katan M (1964) Fetishism, splitting of the ego and denial. Int. J. Psychoanal. 45: 237–45.
Klein M (1946) Notes of some schizoid mechanisms. Int. J. Psychoanal. 27: 99–110.
Kohut H (1971) The Analysis of the Self. New York: Int. Univ. Press.

Laplanche J, Pontalis J-B (1973) The Language of Psychoanalysis. London: Hogarth Press and the Institute of Psycho-Analysis.

Lichtenbeg JD, Slap JW (1973) Notes on the concept of splitting and the defense mechanism of the splitting of representations. J. Am. Psychoanal. Assoc. 21: 772–87.

Lustman J (1977) On splitting. Psychoanal. Study Child. 32: 119–53.

Rado S (1933) Fear of castration in women. Psychoanal. Q. 2: 425–75.

Schur M. (1972) Freud: Living and Dying. Hogarth Press: London.

Segal H (1964) Introduction to the Works of Melanie Klein. New York: Basic Books.

Spiegel NT (1967) An infantile fetish and its persistence into young womanhood—maturational stages of a fetish. Psychoanal. Study Child 22: 402–25.

Strachey J (1940 [1938]) Editor's Note for 'Splitting of the Ego in the Process of Defence'. SE 23, 273-4.

Stewart W (1970) The split in the ego and the mechanism of disavowal. Psychoanal. Q. 39: 1–16.

Trunnell E, Holt W (1974) The concept of denial or disavowal. J. Amer. Psychoanal. Assn. 22: 269–84.

Waites E (1982) Fixing women: devaluation, idealization, and the female fetish. J. Amer. Psychoanal. Assn. 30: 435–59.

Winnicott DW (1953) Transitional objects and transitional phenomena: a study of the first not-me possession. Int. J. Psychoanal. 34: 89–97.


هنداوي